د.منذر الحايك



العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية

الجزء الأول

تقديم اً. د . سهيل دُ کار

# الدُّكتُور مُندْر الحايك

909 H4192A V.1 c.1

العلاقات الدّوليَّة

عصرالحُرُوب الصّليبيَّة

الجُزء الأوَّل العلاقات بين القوى والدُّول الإسلاميَّة

تقديم : أ. د. سُهيل زَكاًر

الأواثل 2006 الكتاب: العلاقات الدوليَّة في عصر الحُرُوب الصليبيَّة تأليف: د. مُنذرالحايك الحُقُوق جميعها محفوظة للنَّاشر

اننَّاشر : الأوائل للنَّشر والتَّوزيع النَّاشر : الأوائل للنَّشر والتَّوزيع سُوريَّة . دمشق . الإدارة : ص . ب3397 مساتف : 00963 11 44676270/1/2 فساكس : 00963 11 44676273/4/5

alawael@scs-net.org : البريد الإنكتروني

التَّوزِيع : دمشق ص . ب 10181 ماتف : 0096301102233013 البريد الإلكتروني :alawael@daralawael.com

موقع الدَّار على الإنتـرنت ؛
www.daralawael.com

قرؤوا فوصلوا لنقرأ حتَّى نصل

الطَّبعة الأولى آب 2006م

الإشراف الفثّي؛ يزن يعقوب الإخراج الفثي؛ فؤاد يعقوب تصميم الغُلاف؛ عبد القادر إدريس التُدقيق والمُراجعمّ؛ إسماعيل الكُردي

وحقَّق كثيراً من الآمال...

صفحات محبَّة ودليل تفاؤل . .

بأنَّ العزيمة باقية

وإنَّ المضيَّ قُدُماً لم يتوقَّف..

أبو فراس

## قرؤوا فوصلوا ، لنقرأ حتَّى نصل

## تنويهُ هامُّ

من أجل تواصُل أكثر مع السّادة القُرّاء ، فقد خَصَّصننَا آخر (32) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدّار ؛ حيث يجد السّادة القُرّاء قائمة بمنشورات الدّار ، ولمحة إلى كُلِّ كتاب أصدرتُهُ الدّار.

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عامًا عمًا تنشُرُهُ الدَّارِ من آراء ، كما تُعطي لمحمَّ عامَّمَّ إلى الخطِّ الذي تنتهجُه الدَّار ، وهذا ـ بلا شَكِّ ـ سيجعل التَّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السَّادة القُرَّاء قراءة هذه الصَّفحات بتأنَّ وتدبُّر، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحظاتكُم واستفساراتكم عن الكتب التي تنشُرُها الدار.

### المهرس تقديم : أ.د . سُهيل زَكَّار ...... تقديم : أ.د . سُهيل زَكَّار ..... استهلال ..... دولة صلاح الدِّين ..... إشكالية التاريخ في عصر الخُرُوب مع الفرنجة: ..... مقاربة حول منهج البحث ودوافعه: ...... مقاربة عول منهج البحث ودوافعه: ..... الفصل الأوِّل: العلاقات السِّياسيَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة ...... 37...... قواعد المُعاهدات:...... المبحث الثَّاني: المُراسلات الدّبلُوماسيَّة..... رسائل الحيام الزاجل: ..... الوسم والسُّفراء: .....الشُّفراء: السُّفراء: السَّفراء: الرُّسُّرِ إِلَى الْمَالِكَ الخَارِجِيَّة: ...... خيانة الرُّسُل:..... الفصل الثّاني: دور السُّكَّان في العلاقات الدّوليَّة المبحث الأوّل: سُكَّان المالك الأيُّوبيَّة..... المسيحيُّون المحلِّيُّون:..... الموارنة: ..... اليهُود: طائفة العامَّة: .....طائفة العامَّة: طائفة العبيد: .....طائفة العبيد: دور العامَّة: المبحث الثَّاني: دور رجال الدِّين في العلاقات السِّياسيَّة ...... الدِّين والسياسة: .....



2_أبو الهيجاء السمين:
3-عزّ اللِّين جرديك:
4_مرزوق الطشندار:
5_أزكش:
ب_أُمراء الأكراد:
ب_الصَّلاحيَّة:
1_فخر الدِّين جهاركس
2_فارس الدِّين ميمون القصري
3- فخر الدِّين ألطنبا الجحَّاف:
4_ ألبكي الفارس:
5- زين الدِّين قراجا:
6_علاء الدِّين شقير:
7_ أسد الدِّين قرا سنقر:
8 _ مُبارز الدِّين سنقر:
9_ طَغْرِيل المهراني:
10 _ آيبك فطيس:
11 _ بهرام الرُّومي، وبهرام القارصي:
12 عزّ الدِّين أُسامة الجبلي:
الصراع السِّياسي بين الأسَديَّة والصلاحية:
المبحث الثَّاني، أُمراء العَسْكَر
1_أبو الهيجاء السمين:
2- ابن المشطوب:
محُاولة ابن المشطوب خلع السُّلطان الكامل:
مشروع ابن المشطوب:
نفي ابن المشطوب من مصر:
ابن المشطوب في الشَّام:
ابن المشطوب في الجزيرة:
المبحث الثالث: رجال الدولة

دور القُضاة:
المبحث الثَّالث: دور المرأة في العلاقات السِّياسيَّة
ضَيْقة خَاتُون بنت الملك العادل:
غازية خاتون بنت الكامل:
الستّ السوداء:
ستّ الشَّام:
أمة اللطيف:
المُصاهرات السِّياسيَّة:
المُصاهرات السِّياسيَّة داخل البيت الأيُّوبي:
المُصاهرة بين العادل والظاهر:
مُصاهرات الملك الكامل:
المُصاهرة بين بيتَيْ حماة وحلب:
المصاهرات الأيُوبيَّة خارج الأسرة:
المبحث الرّابع، سُكَّان المناطق الفرنجيَّة في ساحل الشَّام
التقسيات الاجتماعيَّة للفرنج في سُورية:
السُّكَّان المحلِّيُّون تحت سُلطة الفرنجة:
المُسلمون تحت خُكُم الفرنجة:
الفلاحون المُسلمون:
المسيحيُّون المحلَّيُّون في إمارات الفرنجة:
المبحث الخامس: العلاقات بين السُّكَّان عبر الحُدُود
العلاقات التِّجاريَّة:
المناصفات:
القسم الثّاني: مراكز القوى الدّاخليَّة ودورها في العلاقات الخارجيَّة
الفصل الأوَّل: دور أرباب السيف ورجال الإدارة في العلاقات الدّوليَّة
المبحث الأوَّل: طوائف العَسْكَر
آ ـ الأَسَديَّة:
آ ـ الماليك الأَسَديَّة:
1 - سيف الدِّين يازكوج:

166	لميحث الخامس: أعراب الشَّام ودورهم العسكري
لاَّيْوِي:لاُنْيُوي:	
170	·
171	
173	-
173	
173	
178	_
181	
181	
181	
183	
186	<del>-</del>
190	
197	·
202	
ة الشَّاميَّة	نقسع الثَّاثث :العلاقات الدُّوليَّة لإمارات وممالك الجزير
209	
209	
212	
	علاط:
212	ممَيساط:
212	
213	الس:
213	······································
214	لعة نجم:
214	لْ باشر :
214	اَوْل قَاءَ ا

أولاد شيخ الشُّيُوخ:
1 ـ عـاد الدِّن غُم: ( 581 ـ 636 هـ 1185 ـ 636)
1.11
2_ مُعين الدِّين حسن ( 588_ 643 هـ 1192 ـ 1246م ):
3 - كمال الدِّين أحمد (584/ 639 هـ 1188 ـ 1241م):
4_فخر الدِّين يُوسُف:4
المبحث الرّابع، دور بعض الأتباع
1ــالحاجب علي:
2_الخادم صواب:
3_14اكادم طَغْريل:
الفصل الثَّاني ؛ العلاقات الخارِجيَّة للقبائل البدويَّة
المبحث الأوَّل: سُلطة الدولة وقُوَّة البدو
المبحث الثّاني: المجال السِّياسي والعسكري للبدو
البدو في الدولة الأيُّوبيَّة:
المبحث الثَّالث: قبائل البدو من غير العَرَب
آ_التُّر كان:
العلاقات بين التُركان والمالك الأيوبيّة:
1_قنغر النركاني:
2- ابن دودي التركاني:
3- الباروقية:
ب-الأكراد:
1-القيمرية:1-
2_الشهرزورية:2
المبحث الرَّابع: أعراب الشَّام ودورهم السِّباسي
قبائل الشَّام العَربيَّة:
بنو ربيعة:
1 ـ آل فضل:
2- آل علي:
3- آل مرا:

1_ماردين:
255
35 _ حصن كيفا:
4_ خَرْ نَبْرِت:
بداية العلاقات بين الأراتقة والدولة الأيُّوبيَّة:
العلاقات مع ماردين:
ماردين وسياسة العداء للأثيوبين:
العلاقات مع آمد:
العلاقات مع خُرْتَبِرْت:
المُلُوك الأراتقة في ماردين وحصن كيفا
المبحث الثّاني: العلاقات الأيّوبيّة مع الأتابكة
أتابكة المُوصل والجزيرة:
العلاقات الأيوبيَّة الأنابكية في عهد العادل:
الأثابكة وأولاد العادل، نُوَّاب الجزيرة :
الانقلاب في توجُّهات المُوصل السُّياسيَّة:
وقفة مع تحرُّكات الحُلفاء ضدَّ العادل في حصار سنجار:
العلاقات مع الأتابكة في عهد الأشرف:
العلاقات الأيُّوبيَّة مع المَوصل بعد زوال حُكْم الأتابكة:
المَوصل تَستردُّ سنجار:
اللُّلُوكِ الأتابِكة:
في المُوصل:
ني سنجار:
ني جزيرة ابن عُمر:ني جزيرة ابن عُمر:
القسم الرَّابع: العلاقات الدّوليَّة للم الك الإسلاميَّة
الفصل الأوِّل: العلاقات الخارجيَّة لدولة الخلافة العبَّاسيَّة.
المبحث الأوَّل: صحوة الخلافة العبَّاسيَّة
المبحث الثَّاني: تنظيم الفُنُوَّة
ظام الفُتُوَّة:

المبحث الثاني: مرحلة التأسيس الايوبي
صلاح الدِّين يدخل الجزيرة:
تقي الدِّين في الجزيرة:
المبحث الثَّالث: الملك العادل يُوطِّد الحُكْم الأَيُّوبي
آ - إقطاع الملك العادل في الجزيرة:
-الاشر ف مُوسى:
_ الأوحد نجم الدِّين أيُّوب:
_الحافظ أرسلان شاه:
الأحلاف السِّياسيَّة والتحرُّكات العسكريَّة في الجزيرة بعد وفاة صلاح الدِّين:
في مُعسكر الحُلفاء:
موقف حلب:
المبحث الرَّابع: القوى السِّياسيَّة في الجزيرة الشَّاميَّة
مُشكلة أخلاط:
الفصل الثَّاني: العلاقات الخارجيَّة للممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة
المبحث الأول: الملك الأفضل في الجزيرة
المبحث الثاني: الأشرف مُوسى ملك الجزيرة
المرحلة الأولى:
المرحلة الثانية:
المرحلة الثالثة:
العلاقات الجزرية للأشرف مُوسى:
اتَّفاق الملك الأشرف والملك الكامل عقب نصر دمياط:
اصداء التحالف في الجزيرة:
المرحلة الرابعة:
المبحث الثالث: الملك الكامل في الجزيرة
1_مرحلة الوفاق الأيُّوبي والاعتراف بسلطنة الكامل:
2-مرحلة الانقسام الأيُّوبي، وحلف الشَّام ضدَّ السُّلطان الكامل:
الفصل الثالث؛ العلاقات الأيُّوبيَّة مع مُلُوك الأطراف
المبحث الأوَّل: العلاقات الأيُّوبيَّة مع الأراتقة

لاميَّة	لمُصل الثَّالث: العلاقات الدُّوليَّة لبعض الدُّول الإس
لأقصى	لمبحث الأوَّل؛ علاقات الشَّام ومصر مع المغرب ال
361	لمغاربة في الشَّام:
363	ثمبحث الثَّاني: العلاقات الخارجيَّة لأُمراء الحجاز
371	لفصل الرَّابع: العلاقات الدُّوليَّة لسلطنة المماليك
371	المبحث الأوّل: طائفة المإليك
373	لماليك الأتراك:
375	لصَّالح أيُّوب وفرقة الماليك البَحْريَّة:
378	لماليك البَحْريَّة في معركة المنصُورة:
مصر	المبحث الثَّافي: الماليك وآخر سلاطين الأيُّوبيَّة في
380	لورانشاه في مصر:
ولِّيهم السُّلطة	المبحث الثَّالث: الانقلاب العسكري للماليك وتو
385	
386	تائج مقتل تُورانشاه في الشَّام:
386	1_في الكَرَك:
386	2_ في الصبيبة:2
387	3_ في دمشق:3
388	لمرحلة الانتقالية ( مرحلة شَجَر الدُّرِّ ):
390	المُبحث الرَّابع: الرَّدُّ الأَيُّوبِي على انقلاب الماليك.
395	ثمبحث الخامس: صراع الماليك على الْحُكْم
395	شروع آيبك:
والسَّلطنة الأثُّوبيَّة	لمبحث السَّادس: الصراع العسكري بين الماليك و
398	
400	لخليفة العبَّاسي يسعى في الصُّلح:
405:	سلاطين الماليك المُعاصرين للحُكْم الأيُّوبي في الشَّام
الرُّوما 406	
406	
قة الرُّوم	لمبحث الثَّاني: بداية العلاقات الأثُّوبيَّة مع سلاج

من نشاطات الفتوة:
النّبوية:
الخلافة بعد الإمام النَّاصر:
المبحث الثَّالث: العلاقات الدّبلُوماسيَّة بين الأثُّوبيِّين ودولة الخلافة
المبحث الرابع: المُلُوك الأيُّوبيُّون وشعارات الشرعية العبَّاسيَّة
1_التقليد:
2_التشريف:
316
المبحث الخامس: قضيَّة الملك النَّاصر داود والخليفة العبَّاسي
(وجه آخر للعلاقات بين الأَيُّوبِيَيِّن والخليفة) :
الخُلفاء العبَّاسيون المُعاصرون للحُكْم الآيُوبي
الفصل الثَّاني: العلاقات الدّوليَّة للفرقة الإساعيليَّة
المبحث الأوَّل: الدعوة الإسهاعيليَّة
أهم أسباب نجاح الدعوة الإسماعيليَّة في الشَّرق:
حول التقلُّب الدِّيني للإسماعيليَّة:
تأثير العودة إلى الشريعة على إسهاعيليَّة الشَّام وعلاقتهم بالأيُّوبية:
المبحث الثَّاني: الفرقة الإسماعيليَّة في الشَّام
قلاع الشَّام الإساعيليَّة في العصر الأيُّوبي:
الإساعيليَّة والاغتيالات في الشَّام:
المبحث الثَّالث: التحالف بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرقة الإسهاعيليَّة
المبحث الرَّابع: العلاقات الإسماعيليَّة الحَوَارزميَّة وانعكاسها على المالك الأَيُوبيَّة
1_ في فارس:
2 ـ في الشَّام:
المبحث الخامس: العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين الإسهاعيليَّة والفرنج
العلاقات العسكريَّة مع الفرنج:
الاغتيالات الإسماعيليَّة لقادة الفرنج:
دور إسماعيليَّة الشَّام في صراع الأَيُّوبيِيِّن ضدَّ الفرنج:
جدول حُكَّام الإساعيليَّة
JJJ



# تقديم : أ.د . سُهيل زُكَّار

تعدَّدت مذاهب تعليل التاريخ وتفسيره، وطرائق مُعالجة أحداثه، وغالباً؛ ما جاءت المذاهب انعكاساً لتيَّارات العصر السِّياسيَّة، والاجتهاعيَّة، والاقتصاديَّة، وغير ذلك، وانطبق هذا التعامل مع أحداث قرنَيْ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ففي عصر الاستعهار الأُورُي، ولا سيها الفرنسي، رأى عدد كبير من الباحثين الفرنسيين في أحداث الحُرُوب الصَّليبيَّة رسالة الأُمَّة الفرنسيَّة، التي جاء الوقت بعد الحَرْب الكونية الأُولى - إلى إعادة حملها إلى بلاد الشَّام. ومع قيام مدارس التفسير الاقتصادي، جرى تفسير دوافع الصليبين بأنَّها كانت اقتصاديَّة، وفي بعض الأحيان امتزج التفسير الاقتصادي بالتفسير القومي.

وقُبيل نهاية القرن الماضي، مع انتهاء الحَرْب الباردة، وقيام تحكُّم القُطب الواحد، شهدنا ظُهُور تيَّارات جديدة، كان من أبرزها: صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، والعولمة، وفكرة الإمبراطُوريَّة العالمية الديمقراطية، ومشروع الشَّرْق الأوسط الكبير، وأطرُوحات أُخرى كثيرة، وامتازت هذه المُدَّة الزمانية بظُهُور التيَّارات الدِّينيَّة، أو ما أُطلق عليه \_أحياناً \_اسم: "نيَّارات اليمين"، ومعها رسخ في عُقُول الكثيرين في أنحاء العالم أن القُطب الواحد هدفه القضاء على الإسلام، مثلها قضى - من قبلُ - على الماركسية، وسلاح هذا القُطب هُو التعصُّب الكنسي، وهذا ما وضح لدى إعادة انتخاب الرئيس بُوش لولاية ثانية، فالرئيس بُوش ينتمي إلى حَرَكة المُتطهِّرين الجُدُد، واستخدم مراراً اصطلاح: "صليبية" في أحاديثه عن غزو أفغانستان، واستخدمه أكثر في أحديثه عن احتلال العراق. ودفع هذا بقُوَّة القيام بتفسير دوافع أحداث الحُرُوب الصَّليبيَّة على أنَّها كانت دينيَّة بالمقام الأوَّل، ولم يقبل بعض الباحثين، ولا سيها بقايا اليسار القومي العَرَبي، بهذا التفسير، وشاهدوا في أحداث أفداث أفحرى كثيرة نوعاً من أنواع العلاقات بين والكيانات، ولم تتَضح هذه الأُطرُوحة كثيراً بعد.

المبحث الثالث: العلاقات في عهد السُّلطان كَيْقَبَاذ
التحالف الأيوي السلجوقي:
الصراع العسكري بين الأثيوبيَّة والسلاجقة:
المبحث الرّابع: العلاقات في عهد السُّلطان كيخسرو
بعض سلاطين سلاحقة الرُّوم
الفصل السَّادس: العلاقات الدّوليَّة للمملكة الخَوَارزميَّة
المبحث الأوَّل: الدولة الخَوَارزميَّة، وبداية العلاقات مع المالك الأيُّوبيَّة
الدولة الخوارزميّة:
بداية العلاقات الأثيوبيّة بالدولة الحوررزميّة:
المبحث الثّاني: العلاقات بين الملك الأشرف وجلال الدِّين منكبرتي
المبحث الثّاثث: العلاقات الخوارزميّة مع قوى الجزيرة الشّاميّة
آ حُلفاء الخوارزمي:
1-رُكن الدِّين جيهان شاه بن طغرل:
2-حُسام الدِّين خضر الأصيلي:
ب-الأثوييّة وخُلفاؤهم:
معركة ياصحمن 627 هـ:
نتائج المعركة:
استنجاد حلال اللَّه: بالألَّه في:
استنجاد جلال الدِّين بالأشرف:
الخور المعارك:
٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

AUBURRAR

ومُنْذُ احتلال الصليبين للقُدْس أقلقت قضيَّة التمزُّق السِّياسي المُفكِّرين، وظهر هذا واضحاً عند السلمي في كتابه عن الجهاد، الذي هُو أوَّل مُؤلَّف من نوعه، وقد دعا فيه حُكَّام أيَّامه إلى تأجيل خُصُوماتهم، وتوحيد جُهُودهم، إلى أن يتمَّ اقتلاع المُحْتَلِّ الصليبي، وتحرير القُدْس، ومثل هذه الدعوة رائجة هذه الأيَّام، لكنَّها لم تنجح إلَّا بالاعتراف بإسرائيل، وبمنحها تنازلات مُتواصلة.

هذا؛ ويُلاحَظ أنّه عندما تحققت الوحدة أيّام صلاح الدّين، أعادت توحيد العَرَب، ودفعتهم إلى نسيان خلافاتهم القديمة، من صفّين، إلى كربلاء، فالحرّة، وغير ذلك، وهذا ما نراه عند الوهراني في واحد من مناماته؛ حيثُ كان الشُّفعاء يوم القيامة \_ بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم \_ الإمام عليّ مع السّبْطَيْن، لكنْ؛ كان لمُعاوية وابنه يزيد دور في منح الشفاعة أيضاً.

وحقيقة الحال إن العمل الذي أُقدِّم له، وأعدَّه د. مُنذر الحايث، من أهم ما كُتب بالعَربيَّة حديثاً حول الحُرُوب الصَّليبيَّة، وأشهد أنَّه عالج جوانب هذه الحُرُوب بنجاح ودقَّة، ولولا أنَّه عَلَّك في ذهنه - بوُضُوح - صُورة جميع جوانب هذا الموضوع المشائك لما حالفه النجاح. لقد أوضح - مُنذُ البداية أن قيام الإسلام ونجاح حَرَكة الفُتُوحات الكُبْرى، قسَّم عالم حوض البحر المُتوسِّط إلى عالمَين مُتصارعَين: واحد مُسلم، وآخر مسيحي، وفي العالم المسيحي كان للكنيسة الكاثوليكية نُقُوذها الكبير، لذلك استجاب الأُوربيون لنداء البابا أُوربان الشَّاني في العام 1095م، فحملوا المسلبب، وتوجّهوا حيل شكل أمواج بشرية - يُريدون القُدْس. وعندما وصلت جُمُوع المسلبيين إلى القسطنطينيَّة نجح الإمبراطُور ألكسيوس كومينوس في التعامل معها، ونقلها إلى البرِّ الآسيوي، وبندل سلاجقة الرُّوم جُهُودهم ضدَّ الصليبين، فأخفقوا، ولم تتوفَّر هم التعزيزات والنجدات، لأن السلاجقة كانت دولتهم تُعاني من التمزُّق، ومن الصراعات بين أبناء ملكشاه، وحاصر الصَّليبيُّون أنطاكية، وصمدت في وجههم طويلاً، لكن؛ لم يأت جيش كبير للتفريج عنها، وحين وصل جيش والي الموصل كانت لفرصة قد ضاعت. والمُثير للدهشة أن السُّلطات التي كانت تتحكَّم بالقاهرة قامت بالتفاوض مع الصليبين، ثُمَّ التعاهد، فاستولت جُيُوشها على القُدْس عام 1098م، القُدْس التي حُوصرت بعد الصليبين، ثُمَّ التعاهد، فاستولت جُيُوشها على القُدْس عام 1098م، القُدْس التي حُوصرت بعد وقت قصير من قبَل الصليبين، ولم يأت أحد للتفريج عنها من القاهرة، ولا من غيرها.

وأَخْذَا بمبدأ العلاقات، أقْدَمَ د. مُنذر الحايك على مُعالجة أحداث الحُرُوب الصَّلبيَّة، لا سيها بعد صلاح الدِّين، وطبعاً؛ الصراعات السِّياسيَّة والعسكريَّة هي علاقات، لكنَّ المُشكلة هُنا: هل الصراعات الدّاخليَّة بين أفراد البيت الأيُوبي، وتمزيق وحدة الدولة الكُبْرَى - التي أسَّسها صلاح الدِّين - هي علاقات محضة؟ أو بعبارة أُخرى: هل الوحدة التي أقامها صلاح الدِّين شكَّلت حالة استثناء، والتمزُّق هُو القاعدة، لأن دولة صلاح الدِّين كانت إمبراطُورية، وطبعاً؛ هذا أمر خطير، تقبله - الآن - العقلية العَربيَّة الراضخة للأنظمة، والتي استَبْعَدَت من حساباتها الدعوة إلى الوحدة، ثمَّ الدعوات إلى التآلف وتوحيد الموقف، وهذا واضح تمام الوُضُوح من المواقف تجاه العراق.

واقع التاريخ بُحِدِّثنا بأنَّ الحملة الصَّليبيَّة الأُولى حقَّقت نجاحاتها بسبب التمزُّق العَرَبي، ولا سيها على أرض الشَّام؛ مثلها حدث بعد وفاة صلاح الدِّين، وأخبار التاريخ تُحدِّثنا \_ أبضاً \_ أن معركة حطِّين وتحرير القُدْس جاءت نتيجة للوحدة التي أسَّسها صلاح الدِّين، وأنَّه لولا الوحدة لما تحقَّق النصر في عَيْن جالُوت، وفي معارك صَدِّ موجات الاجتياح المغولي، وفي الوقت نفسه؛ تصفية الوُجُود الصليبي كُليِّناً من على أرض الشَّام.

أنا لا أُريد مُطلقاً امّّام د. مُنذر الحايك بعدم التنبُّه إلى هذه الأُمُور، هُو تنبَّه لها تماماً، فلدى حديثه عن زنكي، أوضح أن ثمار الوحدة الصغيرة التي حقّقها زنكي كانت تحرير الرُّها، وإزالة الكيان الصليبي الأوَّل الذي تأسّس في المشرق، وأظهر وعياً مشكوراً تجاه أهيَّة الجزيرة، فمن المُوصل حقَّق زنكي الوحدة بين الجزيرة وأعالي بلاد الشَّام، وبعد اغتياله، تمكَّن ابنه محمود من توحيد الشَّام الشمالي مع الجنوبي، وأحبط خُطط الصليبين في الاستيلاء على مصر، المهمَّة التي تابعها صلاح الدِّين بعده، وقطف ثمارها.

وأوضح د. مُنذر الحايك في دراسته الموثّقة أنّه قامت علاقات بين الكيانات الصّليبيّة والكيانات اللّيُوبيّة وتحالفات، ذلك أن الصليبين تورَّطوا من نُذُ آيّام الحملة الأُولى في صراعات حُكّام الشّام الدّاخليّة، وطبعاً؛ كانت هذه التحالفات ذات دوافع سُلطوية، لكنْ؛ على الرّغم من هذا التورُّط، فالأمر لم يتعدَّ الاستثناء، ولم يُشكِّل القاعدة.

وتنبّه د. الحايك إلى أن العلاقات تنشأ عنها مُعاهدات، واتّفاقات، وهُدَن، ولـذلك تتوفّر خدمات للبريد، وكذلك سُفراء، ورُسُل، ومراسم، وفي حُرُوب الكيانات؛ تنشط المشاريع والأفكار، ولا سيا الزيجات "الدّبلُوماسيّة"، فهذا وَضحَ أثناء تصدّي صلاح الـدّين للحملة النّالشة، ولكنّه استُخدم أكثر بين الأيُّوبييِّن، وأيضاً؛ بين الصليبيين.

وفي أثناء القرن النّالث عشر، وقت الصراعات الأيُّوبيّة، ربح الصّليبيُّون كثيراً من هذه الصراعات، ونالوا بالمُعاهدات، والهُدَن ما لم يستطيعوا نيله عسكريّاً، وصحيح أن أفراد البيت الأيُّوبي انغمسوا في صراعاتهم الدّاخليّة، لكنَّ أوضاعهم كانت صعبة جدّاً، فقيد واجهوا ثيلاث علات كبيرة مع عدد من الحملات الفرعية، وكانت أُورُبا تُرسل بلا انقطاع -الحُجَّاج، والأسلحة، والحُيُول، والأعتدة، واضطرَّ بعض الحُكَّام الأيُّوبييُّن إلى الاستعانة بالمُرتزقة، وسواهم، خاصّة فئة الخوارزميَّة، ونظراً لأن ولاء المُرتزقة والحَوَارزميَّة اعتمد على المال، كان هذا مُرهقاً اقتصادياً وسياسياً وعسكريًا. وقد احتاج الأيُّوبيُّون من أله أيّام صلاح الدِّين على شراء الرقيق من الفتيان، وتدريبهم، وتعاظم هذا أيّام الصّالح أيُّوب، وتوفَّرت المادة البشرية، ولا سيما من القفجاق؛ بسبب المضربات الشديدة الني تعرَّضت قبائلهم لها على أيدي المغول.

وهُنا؛ تكرَّر حُدُوث ما لابدً منه، فبعد اغتيال زنكي في العام 1146، وانقسام دولته إلى قسمَيْن: جزري، وشامي، وجد نُور الدِّين نفسه بحاجة إلى الطاقة البشرية، ورأى أن التُركان ضعف وُجُودهم في الشَّام الشهالي؛ لانشغالهم في الأناضول، وفي الجزيرة. وكانت أحداث الصراعات التركهانية، واجتياح التُركان للأناضول قد تسبَّبت حضمن عوامل عديدة في دَفْع أعداد كبيرة من الأرمن والأكراد على الهجرة، كها أيقظت الكرج، أو الجورجيين، وقاد هذا إلى تأسيس دولة أرمينيا الصُّغْرَى في كليكية، وإلى التحاق أعداد كبيرة من الأكراد بنُور الدِّين، ولذلك عندما مات نُور الدِّين ورثه صلاح الدِّين، والآن؛ بعد وفاة الصَّالح أيُّوب أثناء التصدِّي للحملة الأُولى للقدِّيس لـويس، ورث عماليكُهُ السُّلطة، ووُلدَتْ دولةُ المهاليك.

وكان للكرج أدوارهم في أحداث الجزيرة، وقد قادوا عدَّة حملات صليبية خاصَّة بهم، ولكن دور أرمن كليكية كان أشدَّ خُطُورة في الشَّام الشهالي، وعندما قدم المغول تحالف الكرج والأرمن مع

المغول، وشاركوا في جميع حملات المغول ضدَّ بلاد الشَّام، من عَيْن جالُوت حتَّى شقحب، ولحُسن الحظِّ أن باحثنا أجاد البحث في هذا الجانب، وغطَّاه، كما تعرَّض إلى دور الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة.

واستعرض مسألة التحالف بين فردريك الثّاني والأيُّـوبيين، ولا سبها مع الكامل، ثُمَّ ابنه أيُّوب من بعده، وهذه قضيَّة خطيرة تحتاج إلى أُطرُوحة قائمة بنذاتها، فنحنُ مشل جُلّ مُعاصري الكامل مسروعه الخاص، الكامل مسروعه الخاص، وخاوفه عمَّا كان يجري في أُورُوبا من تحضيرات لحملة جديدة، فأراد استغلال سُوء العلاقة بين فريدريك والبابويَّة، وكذلك مع الجنوية، وغيرهم؟

إن العمل الذي قام به باحثنا يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتقصّي، خاصّة في الجُنزء الشّاني؛ حيثُ أجد أن عُنوان "العلاقات الآسيوية الأوروبيّة" مُسوّغ تمام التسويغ.

والعمل الذي أُقدِّم له اليوم شكَّل لديَّ بارقة أمل، أن الضعف اللامحدود اللذي ألمَّ بدراسات التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق، سوف يجري تداركه في حمص، ورُبَّما في حلب، والمضعف في دراسات التاريخ الإسلامي هُو مأسوي، ومردُّه إلى أن المُعيدين اللذين جرى تعيينهم في العقدَيْن الماضيَيْن اختيروا للونهم السِّياسي، ولم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي؛ مثل المُقابلات، واستشارة الأساتذة، وبذلتُ كُلَّ جهد مُستطاع حتَّى أجعل من هؤلاء الذين هُم \_الآن \_يتحمَّلون المسؤولية أكاديميين، فكان النجاح مجزوءاً، وهذا \_بالفعل \_ أمر مُحزن، لابدً من إيجاد حلِّ له.

الذي أُمّنّاه أن يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدُّكتُور مُنذر الحايك، والذي أُقدِّم له، بداية لمزيد من الأبحاث في ميدان الحُرُوب الصَّليبيَّة، والميادين الأُخرى في تاريخ العَرَب والإسلام، ولا سيما بعد اكتمال مشروع الموسوعة الشاملة، والقادم منها سوف يُعينه إنْ شاء الله، ويزيد معلوماته.

له أتمنَّى التوفيق والنجاح، والحمد لله أوَّلاً، وآخراً، والصلاة والسلام على نبيِّه المُصطفى، وعلى الله، وصحبه، وسلَّم.

أ. د. سُهيل زَكَّار

دمشق: الخميس 8 / ذي القعدة / 1426 هـ المُوافق 8 / كانون الأوَّل / 2005م

#### استهلال

مُنْذُ أَن وُجدَت الدُّول بأبسط أشكالها السَّياسيَّة كانت العلاقات ـ فيها بينها ـ تشغل الحيِّزَ الأكبر من اهتهامها، فهذه العلاقات هي التي تُحدِّد توجُّهات دولة نحو الأُخرى، بها فيها حالتَيْ الحُرْب، والسَّلْم. ويُعَدُّ تاريخ العلاقات بين المُجتمعات والدُّول تاريخاً للإنسانيَّة كُلِّها، فمُنْذُ القدَم تعيش البشرية في احتكاك دائم، ومُتنوِّع، يشمل كُلَّ المجالات العسكريَّة والسِّياسيَّة والحضارية، وعلى أساس هذه العلاقات قامت إمبراطُوريات امتدَّت فوق دُول، وشُعُوب، وأُخرى اندثرت، وتلاشت.

ورُبًا كان أشهر ما في العلاقات الدّوليَّة على مرِّ العُصُور هي العلاقات التي ترتَّبت على ما سُمِّي الصراع بين الشَّرْق والغَرْب، وقد بدأت هذه القضية في وقت مُبكِّر من تاريخ العلاقات، ففي القرن الخامس قبل الميلاد انشقَّت أُورُوبا الهلنية عن آسيا الكنعانية الفارسية، فظهرت تلك القضية من خلال إثارة مُشكلة الحُدُود بين الفُرْس واليونان، أو بين آسيا وأُورُوبا. وكان كُلُّ هَمِّ الدُّول المُتعاقبة في الضفَّتين كلتيها أنْ تُحاول حلَّ هذه المُشكلة، كُلِّ منها على طريقتها الخاصَّة، عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل.

تُعدُّ الحُرُوب الميدية بين الفُرْس والإغريق بداية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب، فقد بدأت بهُجُوم الفُرْس على بلاد اليونان، بتصوُّر فارسي لحَلِّ شرقي للقضية. لكنَّها انتهت بهُجُوم الإسكندر اليوناني، واحتلاله لمُعظم بلاد الشَّرْق، فارضاً الحَلَّ الأُورُوبي بالقُوَّة، ولمَّا ظهرت قُوَّة الرُّومان، وتوسَّعوا في أُورُوبة، ورثوا الإغريق، وحَلَّهم لقضية الصراع مع الشَّرْق، وذلك عندما احتلُّوا الدُّول التي قامت على أنقاض إمبراطُورية الإسكندر في الأناضول، وسُورية، ومصر.

وحتَّى هذه المرحلة من الزمن بقي الصراع بين الشَّرْق والغَرْب صراعاً عسكريًا وسياسياً، ولم يحمل أيَّ صبغة دينيَّة. لكنْ؛ بعد اعتناق أُورُوبا للمسيحية بإعلان قسطنطين المسيحيّة ديناً للدولة الرُّومانيَّة، بدأ الصراع بين الشَّرْق والغَرْب يأخذ شكله الدِّيني، وقد انفجر هذا الصراع عندما بدأت نهضة دينيَّة جديدة تعمُّ بلاد الفُرْس، وهي التي دفعت الملك الفارسي شاهبور الأوّل من الأُسرة الساسانية، فهاجم إقليم سُورية الرُّوماني، وأسر إمبراطُور الرُّومان فالبريان، واحتلَّ أقسام واسعة من

شرق وشمال سُورية، وتابع الملك خسرو \_عام 614 م \_نُحاولة إمضاء الحَلِّ الفارسي، فهاجم سُـورية من جديد، واستولى على القُدْس، وأخذ منها خشبة الصليب اللُّقدَّس. لكنَّ الـرَّدَّ الأُورُوبي لم يتـأخَّر، فقد قام الإمبراطُور الرُّوماني هرقل عام 7 هـ 628 م بهزيمة الفُرْس، واستردَّ خشبة الصليب، وفرض الحَلَّ البيزنطي لقضية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب<sup>(1)</sup>.

وهُنا - أيضاً - لم يتأخَّر الرَّدُّ الشَّرقي طويلاً، فقد أُعلِن الحَلُّ العَرَبي لقضية البصراع؛ بإقامة إمبراطُورية آسيوية واسعة، ثُمَّ الهُجُوم على أُورُوبا من محـورَيْن، القـسطنطينيَّة وجنـوب فرنـسا بعـد

ومُنْذُ هذا التاريخ؛ انقسم العالم إلى شرق مُسلم، وغرب مسيحي، ومع أن العداء بين السُّرق والغَرْب عداء تقليدي وقديم، لكنْ؛ زاده حدَّة هذا الانقسام الدِّيني، فالحُرُوب الدِّينيَّة تكون \_عادةً \_ من أقسى الحُرُوب؛ لاعتقاد كُلِّ فريق بأنَّه يُنفِّذ إرادة الإله على الأرض، ويُؤدِّي واجباً مُقدَّساً انتدب الرَّبُّ للقيام به. ورُبَّما تكون دوافع الحَرْب في الأصل - دينيَّة، ولكنْ؛ لا يلبث الناس أن ينسوا الدّين، وتُصبح أهدافُ الحَرْب السيطرةَ والاستغلالَ واستعبادَ الآخرين، والذي لا يتغيَّر \_ فقط \_ هُــو العـداء الموروث، والجُهُود المُستمرَّة التي يبذلها كلُّ فريق لإذلال الفريق الآخر.

وعلى هذا الأساس الدِّيني جاء الحَلُّ الأُورُوبي في العُصُور الوُّسْطَى لقضية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب بها عُرفَ باسم الحُرُوب الصَّليبيَّة، وكانت هذه الحُرُوب تمتاز بأنَّها حرب جامعة، قام بها الغَرْبِ المسيحي ضدَّ الشَّرْق المُسلم، وقد اعتقدت جُمُوع الصليبيين - وقتها - بأنَّها حرب مُقدَّسَة لغرض مقدس، وهي تتمُّ بتوجيه من الله، الذي أوكل الإشراف عليها إلى البابا؛ خليفته على الأرض. وعلى الدوام كان الحلُّ بالعنف يُولِّد ردَّ فعل عنيف، فالهُجُوم الفرنجي أيقظ رُوح الجهاد لدى المُسلمين، وولَّد حَرَكَة إحياء ثقافية تدعم الجهاد، وتحضُّ عليه، كانت إحدى صورها ظُهُـور كُتُب الجهاد، وكُتُب فضائل البُلدان، وكُتُب الزيارات(2).

1 - للتوسُّع راجعٌ: الحضارة في الميزان، أرنولد توينبي، ترجمة: محمود أمين الشريف، 162. 2 - راجعٌ: الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، سوريال عطية، 7.

وكان للحُرُوبِ الصَّليبيَّة في كلِّ عصر تفسير ومعاني، فكُتَّاب عصر النهضة عَدُّوها تعبيراً عن رُوح التعصُّب والحاس والغيرة العمياء. أمَّا الكُتَّابِ المُعاصرون ـ وبتأثير أفكار المدرسة الاقتـصاديّة ـ؟ فقد وصفوها بأنَّها مرحلة من مراحل التوسُّع الأُورُوبي في الشَّرْق، أخذت في العُصُور الوُسْطَى شكلاً استعهارياً بسبب زيادة عدد السُّكَّان في فرنسا، وما جاورها، ونقص الموارد فيها. وهُنا يبدو أنَّه كُلَّما لمست أُورُوبا من نفسها قُوَّة هاجمت الشَّرْق، طمعاً بأراضيه للاستيطان، وبخيراته للاستغلال، وبموقعه الاستراتيجي عسكريًّا وسياسياً.

# حالة الشرُّق العرَبي قبيل الغزو الفرنجي:

في أوائل القرن الرَّابع الهجري كانت قوى الإمبراطُوريَّة العَرَبيَّة قد بدأت بالانهيار، وأخذت أطرافها بالانسلاخ عنها شيئاً بعد شيء، وكذلك فقد سقطت الدولة الأموية في الأندلس، لتخلفها دُويلات الطوائف المُتصارعة التي سهَّلت حرب الاسترداد. وبقيام الخلافة الفاطمية، وسيطرتها على مصر أُعيد الأمل ببناء قُوَّة عربية إسلامية خاصَّة في البحر المُتوسِّط، لكنَّ الفاطميين سُرعان ما أُنهكوا في صراعهم حول الشَّام، إضافة إلى الصراعات الدِّينيَّة والسِّياسيَّة مع الدولة العبَّاسيَّة.

في الوقت نفسه؛ كان أعداء العَرَب يستعيدون قُوَّتهم، ويُحقِّقون نجاحات عسكريَّة مُتتالية، فقد تقدَّم البيزنطيون ليُحطِّموا دفاعات ثُغُور الشَّام، ويحتلُّوا أجزاء مُهمَّة من شماله وساحله، ولم يُوقف التقدُّم البيزنطي - الذي بدا وقتها وكأنَّه حرب استرداد مُنظَّمة للشام بأكمله - إلَّا تدفُّق الشُّعُوبِ التُّركيَّة إلى الأراضي الإسلاميَّة من منطقة ما وراء النهر؛ حيثُ تمكَّن السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان من أَسْر الإمبراطُور البيزنطى رُومانُوس ديجانس في معركة ملاذ كُود قُرب بُحَيْرة وان عام 463 هـ 1071م، بعد إبادة شبه كاملة للقُوَّات البيزنطيَّة. لكنَّ السلاجقة لم يستثمروا نـصرهم، الذي أرعب أُورُوبا، وانقسموا إلى إمارات مُتصارعة، وصحيح أن بيزنطة تمكَّنت من تجاوز محنتها، لكنَّها فشلت في صَدِّ تدفُّق التُّركمان على الأناضول؛ حيثُ قامت دولة سلاجقة الرُّوم الذين اتَّخذوا من نيقية تُرب القسطنطينيَّة عاصمة لهم.

وقام التُّركان \_ الذين دمَّروا المُؤسَّسات البيزنطيَّة، واحتلُّوا أرض الأناضول \_ بالعمل نفسه في الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ تعطُّل كلُّ نشاط اقتصادي، وبلغت البلاد حالة مزرية من الضعف،

## دولة صلاح الدِّين

في حياة السُّلطان نُور الدِّين محمود بن زنكي تمَّ عمل سياسي وعسكري نادر عندما ضمَّت مصر إلى دولة نُور الدِّين القائمة في الشَّام (1)، وقد تحقّق ذلك عبر حملات أسد الدِّين شيركوه، التي مكنته من حُكْمها كقائد أتابكي ووزير فاطمي، ثُمَّ خلفه ابن أخيه صلاح الدِّين الذي ألغى الخلافة الفاطمية رَسْميًّا، بعد أن كانت مُلغاة فعليًّا مُنذُ أيَّام الوزراء من آل الجهالي (2)، وحكم مصر حُكْماً مُباشراً نيابة عن نُور الدِّين، الذي غدا سُلطان الشَّام ومصر. وبعد وفاة نُور الدِّين محمود قام صلاح الدِّين حاكم مصر بالسيطرة على كامل الدولة عن طريق القُوّة العسكريَّة، لكتَّه بقي مسكوناً بأخلاقيات نُور الدِّين، فأعلن أنَّه الوريث الحقيقي له ولمشروعه في الوحدة والجهاد (3)، وقد أثبتت الاَيَّام صحَّة ادِّعائه. وساعد صلاح الدِّين على تحقيق مشروعه كونه من رجال العالم الإسلامي المتنقل الذين كانوا قادرين على تكوين دولة مركزية، من خلال ضبط وتوحيد عدد كبير من الحُكَّام المتنقر قين بطبعهم، وبمصالحهم الشخصية المُتنافرة. ومُعظم هؤلاء كانوا من الأُسرة الأيُّوبيَّة ذات السلاجقة، حتَّى في خلافاتهم وانقساماتهم، فقد ظلُّوا يرفعون راية الجهاد، وهم في ذلك، بالرَّعْم من السلاجقة، حتَّى في خلافاتهم وانقساماتهم، فقد ظلُّوا يرفعون راية الجهاد، وهم في ذلك، بالرَّعْم من من المُنتها، ومُؤيطهم، وعُيطهم، القد نشؤوا على أرض عربية، فتكلَّموا لمُنتها، وأمُؤها، ورعوها، وحفلت مجالسهم المُلماء والأدباء (4).

يا آل أيُّوب الأولى لولاهم عفت العُلُوم وعيفت الأشعارا

# العلاقات الدّوليَّة في العصر الأيُّوبي:

تكاد تكون مُعظم العلاقات الدوليَّة في هذا العصر قد تمحورت حول الحُرُوب بين المُسلمين وفرنجة الشَّرْق المدعومين من كُلِّ القوى السِّياسيَّة والعسكريَّة الأُورُوبيَّة، فقد تمثَّلت في هذه الحُرُوب مُعظم قوى العالم في وقتها؛ حيثُ شاركت فيها غالبية الشُّعُوب والدُّول الأُورُبيَّة، بينها في الطرف الإسلامي نجد أن مُعظم الدُّول الإسلاميَّة لم تُشارك في الحَرْب ضدَّ الفرنجة، لكنَّ هذه الدُّول الإسلاميّة واجهت جميعها مُصيبة التَّتَار. وبذلك نجد إنْ كان الأمر في الحَرْب ضدَّ الفرنج، أو في الحَرْب ضدَّ الفرنج، ويما أرض المَّر ب ضدَّ المَراع يرتكز على أرض الشَّام ومصر.

ويُمكن \_ نظرياً \_ تقسيم مراحل الصراع بين الفرنج والمُسلمين إلى ثلاثة أدوار رئيسة هي:

1 \_ دور القُوَّة الفرنجيَّة: حيثُ كان واضحاً ضعف المُسلمين، بسبب تجزئة بلادهم، وتبعثر قواهم، وقد تأسّست \_ خلال هذا الدور \_ مملكة القُدْس والإمارات الفرنجيَّة الأُخرى في الشَّرْق.

2\_دور تعادل القوى: بدأه عهاد الدِّين زنكي بمشروع الوحدة في الشَّام، وتمكُّنه من استرداد الرُّهَا. وأكمل هذا الدَّورَ نُورُ الدِّين بن زنكي، الذي حقَّق الوحدة مع مصر.

3 ـ دور المضعف الفرنجي: وقد تحقَّق عندما تمكَّن صلاح الدِّين من قلب ميزان القوى بعد نصر حطِّين، وانشغال أُورُوبا عن فرنج المشرق بمُشكلاتها الدَّاخليَّة. لكنَّ انقسام المالك الأَيُّوبيَّة بعد وفاة صلاح الدِّين أَجَّلَ إنهاء الحَرْب حتَّى عودة الوحدة بين سُورية ومصر بقيام دولة الماليك.

<sup>2-</sup>قام أبو علي بن الأفضل بن بدر الجهالي وزير الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بالحجر على الخليفة، وقطع الخطبة للفاطميين، وخطب لنفسه، كما ألغى من الأذان شعار العلويين: حَيِّ على خير العمل، ثُمَّ قُتل أبو علي من قبّل غلمانه، فأخرج الحافظ من السجن، وبُويع له بالخلافة. ( المُختصر، أبو الفداء، 3/5).

<sup>3 -</sup> السُّلطان نُور الدِّين، نيكيتا أليسيف، ترجمة: سليم قندلفت، 410.

<sup>4 -</sup> وفي ذلك قال الرشيد النابلسي يمدح الملك العادل:

<sup>1 -</sup> راجع: ما كتبه د. سُهيل زَكَّار في تقديمه لكتاب الإعلام والتبيين للحريري.

استقرَّت له السَّلطنة. وبالتَّأكيد؛ كان وَرَثَةُ العادل كحُكَّام وقادة عسكريين أفضل من وَرَثَة صلاح الدِّين، لكنَّهم أخذوا من أبناء عُمُومتهم الطمع والتآمر والتناحر فيها بينهم، ممَّا صبَّ في النتيجة في مصلحة القوى الأُخرى، وفي مُقدِّمتها الفرنج.

ولكن؛ لا نستطيع أن نُنكر أن الانتسام الذي حصل لدولة صلاح الدِّين بعد وفاته تم وُفق توزيعه للولايات بين أفراد أسرته، وهذا التوزيع الغريب غير المنطقي كها يبدو، كان يعتمد على أسس وأعراف قديمة جدًّا: فمصر على سَعَتها، وأهتيَّتها، وَعَظَمة ثروانها، كانت لواحد من أبناء صلاح الدِّين، بينها قُسِّمت الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة بينهم رُقعاً صغيرة. وهذا ما يدعونا للاعتقاد أن صلاح الدِّين كان يُدرك أن مصر لا يُمكن أن تنقسم، أو تتجزَّا، لطبيعة أرضها، وللتاريخ الطويل من الحُكْم المركزي المُوحَد فيها، فمصر وحدة سياسيَّة وإدارية واحدة مُنْذُ أن وحَدها الفرعون مينا، وهُنا؛ نبحد أن استمرار هذه الوحدة جعل من مصر أكبر قوى المهالك الأيُّوبيَّة، وانعكس ذلك على مُلُوكها، الذين كانوا - غالباً - سلاطين المهالك الأيُّوبيَّة. أمَّا الشَّام؛ فالأمر يختلف فيها تماماً، فقد حكم فيها الأيُّوبيُّون - بعد صلاح الدِّين - بنوع من الحَّاد المهالك، التي كان كُلُّ منها يتمركز حول مدينة يحكمها ونُلاحظ هُنا أن تقسيم المهالك الأيُّوبيَّة في الشَّام يكاد يكون تطبيقاً حرفيًّا لواقع ولسياسة عملك المُدُن ونُلاحظ هُنا أن تقسيم المهالك الأيُّوبيَّة في الشَّام يكاد يكون تطبيقاً حرفيًّا لواقع ولسياسة عملك المُدُن على دمشق، مع أنَّه تبع لها قسمًا كبيراً من جنوب الشَّام.

وليستمرَّ حُكْم هذه المالك كانت تحتاج إلى المال لدفع نفقات المملكة التي كانت رواتب وأعطيات الجُند تُشكِّل قوامها الأعظم، ولانعدام الصناعة، ولتردِّي حال الزراعة في مُعظم الأيَّام كان اعتهاد المالك الأيُّوبيَّة في تحصيل الموارد يقوم -بشكل رئيس - على التجارة، فلا يُوجد منهم مَنْ لم يحتكر، أو في أحسن الأحوال، مَنْ لم يُوظِّف أموالاً طائلة في التجارة. وبعد المال؛ تأتي الشرعية التي كانت أهون ما يكون على صاحب السُّلطة؛ حيث يحصل عليها ببعض الهدايا إلى الخليفة، ويُكرِّسها فُقهاء وقُضاة يحتاجون إلى العمل في وظائف المملكة، في الإفتاء والتدريس والقضاء.

عندما تُوفِي الشُلطان صلاح الدِّين في السَّايع والعشرين من صفر سنة تسع وثانين و خسياتة، ترك لأولاده دولة مُوحَّدة مُنتصرة قويَّة، ولم يقسمها بينهم كيا قيل (1)، بيل كانوا فيها وُلاةً ونُوَّاباً وأصحاب إقطاع، وهُو الشائع في حُكُم البلاد في ذلك العصر، ويُؤكِّد لنا ذلك رَدُّ السُّلطان صلاح الدِّين على أخيه العادل عندما أراد أنْ يُوليه حلب، فسأله العادل "أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويعله ككتاب البيع والشراء. فامتنع السُّلطان، وقال: إنّا تكون حلب إقطاعاً، ولمَّا اجتمعا قال له السُّلطان: أَ ظننتَ أن البلاد تُباع؟ أَوَ ما علمتَ أن البلاد لأهلها المُرابطين بها؟ ونحنُ خَرَنَهُ السُّلطان: أَ ظننتَ أن البلاد تُباع؟ أَوَ ما علمتَ أن البلاد لأهلها المُرابطين بها؟ ونحنُ خَرَنَهُ للمُسلمين، ورُعاة للدِّين، وحُرَّاس لأموالهم "(2). إضافة إلى ذلك؛ فإن اختيار صلاح الدِّين لآل بيته ليتولوا إقطاعات الدولة وولاياتها كانت له جوانب عسكريَّة واضحة، فقد اختار الأقوياء الأكفَّاء؛ ليُواجهوا عُتاة قادة الفرنج وأُمراثهم، فندب لحمص ابن عمِّه ناصر الدِّين بن أسد الدِّين ليكون بمُواجهة أمير طرابلس، واختار لحاة ابن أخيه تقي الدِّين بن شاهنشاه لمُواجهة الاسبتاريَّة في قلعة الحصن، ووضع ابنه الأكبر الأفضل علي في دمشق أمام ملك القُدْس في عكًا، وولَى ابنه الظَّاهر غازي على حلب ليكون في مُواجهة أمير أنطاكية (3). ومات السُّلطان، ولم يقسم البلاد، ولم يُسمَّى وُلاته من السَّلطان، ولم يقسم البلاد، ولم يُسمَّى وُلاته من الله على المُ على السَّلول على المُن عالى على المُعلى المُن عالى المُناه على المُن عالى المُناه على السَّلول عاكان حياً.

والمُشكلة \_ إذنْ \_ لم تكن في انقسام البلاد، بل في انقسام الولاة، فقد ترك صلاح الدِّين في الدولة، التي جهد أن تكون واحدة، أبناء مُنقسمين، لا يجدر بأيِّ منهم إرث هذا الأب العظيم، كُلُّ منهم كان طامعاً بها بيد أخيه، فتشتَّوا، وفقدوا دولة أبيهم (4)، وآل الأمر إلى عمِّهم العادل؛ حيثُ

<sup>1 -</sup> يقول أحمد البيسومي في تقديمه لكتاب عُبُون الرَّوضَتَيْن: "إن صلاح الدِّين \_ بعد أن أكمل إشادة دولته، ووحَد أجزاءها \_ حتَّى شرع في تفتيتها؛ حيثُ وزَّعها إلى إقطاعات على بعض جُنده وأهل بيته". ( عُبُون الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، تحقيق: أحمد البيسومي، 1/ 6).

<sup>2 -</sup> الرَّوضَتَيْن، أبو شأمة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 18 / 478.

<sup>3 -</sup> سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 322 ، وسناً البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 163، والكامـل، ابـن الأثـير، أحداث عام 574 هـ.

<sup>4 -</sup> قال العماد الأصفهاني في مطلع قصيدة له يرثي السُّلطان صلاح الدِّين:

شمل الهدى والملك عمَّ شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته

بالله أين النَّاصر الملك الذي لله خالَّصة صفت نيَّاته ( الأنس الجليل، العليمي، 1/ 395 ).

وكأنّه كان يتوقّع ما سيؤول إليه الحال. وكذلك قال القاضي الفاضل في رسالّة يُعزّي فيها الظّاهر غازي بفقد أبيه السّلطان: "إنْ وقع بينكم أتّفاق فما عدمتُم إلّا شخصه الكريم، وإنْ كان غيره فالمصائب المُستقبلة أهونها موته، وهُمو الأعظم". ( البستان الجامع، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، دسُهيل زَكّار، 11/ 386)، وكان الأمر الذي خشي منه.

ولا يخفى في هذه العلاقات أثر النُّمُوِّ التِّجاري، الذي حقَّقته الجُمهُوريات الإيطالية، والمراع التِّجاري فيها بينها، ودور ذلك في العلاقات مع السَّلطنة الأثُّوبيَّة، ومُنعكساته على النشاط البحري التِّجاري والعسكري.

وفي خارج أُورُبا قامت دُول قومية مسيحيَّة شرقية، ساهمت كلّ منها على طريقتها في الحَرْب الأُورُوبِيَّة الصَّليبيَّة، عبر مُحاولات التوسُّع نحو شال الشَّام، فقد قامت في كيليكيا عملكة أرمينيا الصُّغْرَى، وعلى مقربة منها كانت عملكة الكرج، والتي كان يجمعها مع الأرمن عدا الديانة المسيحيَّة للطمع الدائم بالمزيد من أراضي الجزيرة.

لقد انهارت كلُّ هذه العلاقات الدّوليَّة إثر هُجُوم التَّارعلى المنطقة، واجتياحها، وحتَّى بعد تراجع التَّتَار لم تعد العلاقات كما كانت، ولا الدُّول كما كانت، فقد بدأ عصر جديد، ورُبَّما كان عالماً جديداً؛ إذ انتهت \_ إلى الأبد \_ السَّلطنة الأيُّوبيَّة، وقامت على أنقاضها دولة الماليك الفتية، وأصبح الوُجُود الفرنجي في الشَّرق والقضاء على دولة الأرمن في كيليكيا مسألة وقت سيُنجزها السلاطين الماليك.

# إشكالية التاريخ في عصر الحُرُوب مع الفرنجة:

من المعروف أن مصادر ومراجع دراسة العصر الأيُّوبي تتوفَّر بشكل كاف لإنجاز أيَّ بحث فيه، وخاصَّة بعد أن أصدر الأُستاذ الدُّكتُور سُهيل زَكَّار الموسوعة الشاملة، التي وفَّرت للمكتبة العَرَبيَّة سفْراً هامًا، يُحيط بكُلِّ جوانب الحُرُوب مع الفرنجة، وخاصَّة بها قدَّمه من مصادر فرنجية أصيلة كَتَبَهَا مُعاصرون، أتاحت لنا النعرُّف على وجهة نظر الآخر. وبذلك؛ لا يُعدُّ توفُّر المادة الأولية هي الإشكالية هي في التوفيق بين مصادر مُنتوِّعة مُختلفة، تختلف في التفاصيل أكثر من اتَّفاقها في العموميات، فاختلاف هويات المؤرِّخين، واختلاف انتهاءاتهم الفكرية والسياسيَّة والمنهبية الدِّينيَّة، كلُّ ذلك يفرض رؤيا مُختلفة للحدث ذاته بين مؤرِّخ وآخر، عمَّا يفرض - بدوره مهممة إضافية على الباحث، تقتضي الرُّجُوع إلى بيئة المؤرِّخ، وثقافته، ومصادره؛ للنعرُف على وجهة نظره، وطريقة تفكيره، ومن ثَمَّ؛ أُسلُوب صياغته للحدث. كما أنّنا \_ أحياناً \_ نجد أن بعض المؤرِّخين، من أصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة، تتبدَّل مواقفهم وُفقاً للاعتبارات الجديدة الطارئة، كها هي حال شيخ مؤرِّخي العَرَبيَّة ابن الأثير، الذي كان له موقف متحامل على السُّلطان الطارئة، كها هي حال شيخ مؤرِّخي العَرَبيَّة ابن الأثير، الذي كان له موقف متحامل على السُّلطان

وكذلك؛ فإن الوضع الداخلي للمهالك الأيُّوبيَّة وعلاقاتها مع فرنج الساحل الشَّامي كان له - بالتَّأكيد - انعكاساته السلبية والإيجابية على العلاقات الخارجيَّة مع اللُّول الأُوربيَّة بشكل خاصٌ، ودول عالم العُصُور الوُسْطَى بشكل عامِّ. وكذلك آشرت السَّلطنة الأيُّوبيَّة وتما أثرت بالعلاقات ودول عالم العُصُور الوُسْطَى بشكل عامِّ. وكذلك آشرت السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الصراع بين والصراعات الأُوربيَّة الدّاخليَّة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك دور السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الصراع بين البابويَّة والإمبراطُورية الجرمانية المُقدَّسة. لكنْ؛ بشكل عامٍّ، كان الهُجُوم على الشَّرْق الإسلامي هاجساً مُشتركاً لكُلِّ الدُّول الأُورُوبيَّة على كُلِّ ما بينها من اختلافات عرْقية ومذهبية وسياسيَّة، بها فيها الدُّول الإمبراطُوريَّة القديمة التي انتقلت من أحلام السيطرة على العالم إلى حقيقة تأكيد وُجُودها في العالم، ومنها: بيزنطة، الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة، و الدولة البابويَّة، والدُّول التي حصلت على تكوين قومي أولي، وأخذت تشعر بوُجُودها الدولي، وتُريد إيجاد مكان لها في العالم الجديد،، ومنها: فرنسا، إنكلترا، ودول أُخرى شبه قومية اعتنقت المسيحيّة بوقت مُتأخِّر، وتُريد أن تُبرهن على حُسْن فرنسا، إنكلترا، ودول أُخرى شبه قومية اعتنقت المسيحيّة بوقت مُتأخِّر، وتُريد أن تُبرهن على حُسْن على المُسْد، هناديا، بينها لم يُشارك الإسبان بقيَّة شُعُوب أُورُوبا في حُرُوبهم الصَّليبيَّة في الشَّام؛ لأنَّسم كانوا مُنهمكين في حربم الصَّليبيَّة أَلْاصَة، وهي حرب الاسترداد ضدَّ العَرَب المُسلمين في الأندلس.

صلاح الدِّين في أوَّل أمره، فقد كان ابن الأثير يعدُّه غاصباً لبلاد الأتابكة، الذين كان يعيش ابن الأثير وأسرته في كنفهم، لكنْ؛ بعمد تخاذل الأتابكة، وخلافاتهم، وانتصارات صلاح الدِّين، وتحريره القُدْس، نجد أن صورته وصُورة أبنائه وخلفائه قد تحسَّنت \_بشكل كبير \_ في مرويات ابن الأثير، بل دافع عنهم، ومدح أعمالهم، مع أنَّه لم يكن تحت سُلطانهم (1).

كما أن موضوع البحث في العلاقات يحتاج إلى الرُّجُوع لمصادر ومراجع عديدة ومنوَّعة، وكُلُّما كانت أكثر كانت الرؤيا في البحث شمولية أكثر، وأقرب إلى الموضوعية والحقيقة. ولكنَّها تُصبح بحاجة إلى تنسيق غاية في الدقة لفرز ما يحتاجه البحث منها، ثُمَّ مُعالِحة كلّ نص من نُصُوصها المُختارة، مع عدم إغفال الحيِّز العام الذي ورد فيه، وعلاقته بها حوله من أحداث، أو ما سبقه، أو ما سيتلوه. أمَّا المراجع الحديثة والمُعاصرة؛ فكثير منها قد كتب بإملاء الهوى، أو استحوذت على الكاتب فكرة افترضها سابقاً، فنراه يجول في خضم الأحداث لاهشاً خلفها، وقلَّما يُدركها، فمع ضرورة الاطُّلاع على كلِّ ما كُتب حول موضوع البحث، هُناك ضرورة الانتباه لشرك الإسقاطات السِّياسيَّة والمذهبية الحديثة على الأحداث التاريخية.

وممَّا زاد من صُعُوبة الركون لرأي المصادر القديمة أنَّها كانت مُنقسمة بين مدرستَيْن: العَرَبيَّة الإسلاميَّة، والفرنجية الأُورُوبيَّة، فلكل منها عقائدها، وتراثها، وحضارتها المُختلفة، وقد تعمَّق الخلاف بينهما عندما عُمِّد بالدم على أرض فلسطين. فكانت لكلِّ منهم وجهة نظره التي دعمها، وسعى لتسويقها. ولكنْ؛ لابُدَّ أن نشهد هُنا بامتياز المؤرِّخين المُسلمين، وموضوعيَّتهم، فقد مدحوا الفرنج، وأشادوا بشجاعتهم في كثير من المواطن، بينها كان المُسلمون - بالنِّسبَة للمؤرِّخين الفرنج على الدوام - برابرة همج، لا يستحقُّون الحياة.

#### مقاربة حول منهج البحث ودوافعه:

لقد كانت وقائع العصر الأيُّوبي مجالاً خصباً، في خصوصياتها، وعمومياتها، لكثير من الباحثين الذين قتلوها بحثاً، وتمحيصاً، حتَّى إنَّه أصبح من النادر أن نجد موضوعاً لم يكن مادَّة لأكثر من باحث، لكنَّنا قلَّم نجد بحثاً رابطاً بين هذه البحوث، شاملاً للعصر من إحدى جنباته، يخرج

بنتائج عامَّة تصلح لأن تكون أساساً لنظرة عربية حديثة لما مضى من تاريخنا، وهُو ما سعيتُ إليه من خلال هذا البحث الذي سيكون جديداً في مضمونه، وجديداً في منهجه، فمنهج العمل هُنا لم يقم على كتابة تاريخ للعصر الأيُّوي، وما كان هدفه تدوين أحداث مُتسلسلة، أو مُتفرِّقة، بـل كـان أسـاس منهج عمله رصد الأحداث التاريخية، والتعرُّض لكُلِّ منها في سياقه وُفقاً لُّخطَّة البحث، التي تُعنى بالعلاقات الدّوليَّة السِّياسيَّة منها والعسكريَّة بين الدُّول والقوى المُختلفة. إضافة إلى تحليل الحدث التاريخي، والإشارة إلى دلالاته في سياق العلاقات الدّوليَّة، ثُمَّ استخلاص نتيجة منطقية بدلالة

ونظراً لطبيعة البحث ولُخطَّة العمل التي وضعتُهَا له، كنتُ مُضطرًّا لاتِّباع أُسلُوب مُختلف بعض الشيء عبًّا جرت به العادة، فلم يكن هُناك تسلسل للأحداث التاريخية في البحث بشكل عامٍّ إلَّا بها يخدم خُطَّة العمل، ولكني حرصتُ على تسلسل الأحداث ما أمكن ضمن كُلِّ مبحث. ورغبتُ أن تكون ساحة البحث واسعة لتكون الرؤيا شمولية؛ للحُصُول على نتائج أكثر عُمُومية بقدر المُستطاع، لتتناسب مع شُمُولية الموضوع، واتِّساع آفاقه.

ومن خلال كُلِّ ذلك عملتُ لتكوين وجهة نظر مُفترضة حول طبيعة العلاقات الدّوليَّة في ذلك العصر، من خلال العلاقات الدّوليَّة التي كانت سائدة. إن وجهة النظر هذه ستُمكِّننا من المُساهمة في تكوين الصُّورة العامَّة للعصر الأيُّوبي وفلسفته في الحياة بشكل عامٍّ. كما أن الواقع الـذي يعيشه العَرَب اليوم، في منطقة البحث نفسها، أراه شديد الشبه بذلك العصر، فعسى أن تفيد هذه الدراسة في استخلاص العبر؛ لتُنير لنا درب المُستقبل.

وبهذا؛ أرجو أن أكون قد وُفِّقتُ في اختيار بحوث هذا الكتاب، وفي صنعته، وأُقدِّم اعتـذاري سلفاً ليسبق كلّ تقصير حاصل، فالكمال لله وحده.

د. مُنذر نُحمَّد الحايك

حمص الشَّام: الخميس 1/ ذي القعدة 1426 هـ المُوافق 1/ كانون الأوَّل 2005 م

<sup>1 -</sup>راجعُ ما قاله ابن الأثير عن مُلُوكَ بني أيُّوب في كتابه: الكامل في التاريخ، 12 / 352.

الجُزء الأوَّل العلاقات بين القوى والدُّول الإسلاميَّة

القسم الأوَّل الحياة العامَّة في العصر الأيُوبي

# الفصل الأوَّل

# العلاقات السِّياسيَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة

#### تمهيد،

<sup>1 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 3/ 60.

<sup>2 -</sup> النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن البُّوسُفية، ابن شدَّاد، 241.

## المبحث الأوَّل:

## المُعاهدات الدُوليَّة

لقد أجاز الشرع الإسلامي مبدأ المُعاهدات حتَّى مع الأعداء في حالتَيْ السَّلْم والحَرْب، وأمضى الخُلفاء الراشدون مُعاهدات صُلح عديدة، وحرصوا على الالتزام ببُنُودها، وحذَّروا من الغدر بالأعداء، فالوفاء بالعهد صفة مُلازمة لإيهان المُسلم (1). وقد حضَّ الإسلام على الالتزام بالمُعاهدات، والوفاء بالعهد صفة مُلازمة لإيهان المُسلم (أ) وقد حضَّ الإسلام على الالتزام بالمُعاهدات، والوفاء بالعُهُود، من خلال آيات قُرآنيَّة عديدة منها: ﴿ وَأُونُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْفُولاً ﴾ (2)، ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أُونُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَنهَدتُمْ ﴾ (4)، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ اللهِ اللهِ عَنْدَ الْمَالِينَ الْمِيشَقَ ﴾ (5).

ولطبيعة العلاقات العسكريَّة التي دامت قرابة القرنيُن من الزَّمان بين المُسلمين والفرنج، وللعلاقات العسكريَّة التي عالباً عاكانت مُتوتِّرة مع المالك والدُّول الإسلاميَّة، وغير الإسلاميَّة المُجاورة للمالك الأيُّوبيَّة، وأيضاً؛ بسبب العلاقات العسكريَّة التي لم تكن عدائماً عوديَّة بين المالك الأيُّوبيَّة نفسها، فقد كان من الطبيعي جدَّا أن يتخلَّل العلاقات المُتوتِّرة فترات من السلام، تنشأ نتيجة لمُفاوضات يعقبها اتَّفاق سلام كان يُسمَّى غالباً: مُعاهدة، أو هُدنة، أو عهد صُلح. وهذه الاتَفاقيات كانت في الأغلب ثنائية بين طرفَيْن، مع أنّنا شهدنا اتّفاقيات تنسحب على أطراف أخرى مُوالين للطرفَيْن، أو لأحدهما. وفي عصر الحُرُوب مع الفرنجة تتالت المُعاهدات بين الأيُّوبيَّن والفرنج، حتَّى إنَّه يُمكننا القول بأنَّ سلسلة من المُعاهدات بينها، مُنْذُ مُعاهدة صلاح الدِّين مع ريتشارد، أو ما يُعرَف بصُلح الرملة، قد أمَّنت سلاماً مُتَّصلاً دام حوالي أربعين عاماً أن وبالتاكيد؛ كانت هُناك بعض المُناوشات تقطع هذا السلام، لكنَّها لم تبلغ حَدَّ الحَرْب الشاملة، التي جرت أيَّام صلاح الدِّين.

<sup>1 -</sup> العلاقات الدُّوليَّة، وهبة الزحيلي، 131.

<sup>2 -</sup> شُورة الإسراء، الآية: 34.

<sup>3 -</sup> شُورة الأنعام، الآية: 152.

<sup>4 -</sup> شُورة النحل، الآية: 91.

<sup>5 -</sup> شُورة الرعد، الآية: 20.

<sup>6 -</sup> الحُرُوب الصّليبيّة، باركر، 105.

كانت هُناك قواعد وشُرُوط لإبرام المُعاهدات، منها ما ينطبق على جلسة الإبرام، التي كانت تضمُّ المُلُوك، أو مَنْ ينوب عنهم، ولترفُّع الملك أو السُّلطان عن مُباشرة تقرير البُنُود بنفسه كان الأَيُّوبيُّون يُسمّون أحد مُلُوك الأُسرة مُقرِّراً لجلسة الصُّلح، فبعد هزيمة الفرنج في دمياط واتَّفاقهم مع السُّلطان الكامل على الصُّلح، وتسليم دمياط، "كان المُقرِّر لهذا الصُّلح الملك المُجاهد شيركوه باتِّفاق الْمُلُوكُ اللهُ اللهُ المُجاهد صاحب حمص نُسخة الصُّلح نيابة عن المُسلمين، عمَّا اقتضى جلوسه كمُقرِّر على يمين سُلطان المُسلمين الملك الكامل، ودونه بقيَّة المُلُوك حسب مراتبهم (2). وإضافة إلى المُقرّر كان يُوقّع الاتّفاقية عدد من الحاضرين كشهود (3). ويُمكن بحالة عدم الثقة ولضهان تنفيذ نصّ اتّفاقية السلام، وخاصَّة في الاتِّفاقيات التي تعقب أعمالاً حربية كبيرة، كان الجانبان يُسلِّمان رهائن لتأكيد صحة التزامهم بشُرُوط الاتِّفاق، وقد سلم السُّلطان الكامل ابنه الصَّالح أيُّوب واحداً من الرهائن للفرنج بعد توقيع اتِّفاقه معهم في نهاية الحملة الخامسة، وهُم \_ بالتَّالي \_ سلَّموا رهائنهم، وكان فيهم ملك عكًا حنًا برين، والنائب البابوي بيلاجيوس، ودُوق بافاريا، وغيرهم (4).

1 - كان نصُّ المُعاهدات يُصاغ بالنثر المُرسَل، ومع إيجاز النَّصِّ، فقد كان يحرص الكُتَّاب على

2 \_ يذكر نصُّ المُعاهدة أسماء الملكَيْن المتعاهدَيْن، ويحدِّد أطرافها، وشُرُوطها، وأسماء الشهود، ومدَّة المُعاهدة، وتاريخ بدء سريانها، وذكر البلاد والمالك التي تسري عليها، ثُمَّ نصّ الأيهان المحلوفة؛ للالتزام بها، وتطبيقها. وعادةً؛ كان يبدأ النصُّ بعبارة: "استقرَّت الهُدنـة بـين . . . . "،

وكانت هُناك شُرُوط وقواعد يلتزم بها الأيُّوبيُّون ـ غالباً ـ في كتابة نصٌّ مُعاهداتهم، منها:

توضيح الشُّرُوط الْمُتَّفق عليها.

ويُختتم بعبارة: "وهذا ما وقع الاتَّفاق عليه، وحُلف عليه، والله المُوفَّق".

4 - يُركِّز نصُّ المُعاهدة على أن الطرفَيْن كلينها كان راضياً عن المُعاهدة، مُصمِّماً على تنفيذ

5 \_ يكون نصُّ اليمين الذي حُلِف بـ للالترام بالمُعاهـدة، والوفاء بـشُرُ وطها، جُـزءاً منها، وأحياناً؛ يكون مُفرداً عنها بورقة خاصَّة، تُرفَق بنص المُعاهدة.

6 - تُكتَب المُعاهدات إذا كانت بين المُسلمين على نسختَيْن باللُّغة العَربيَّة، وإذا كانت بين المُسلمين والفرنج، فتكون نُسخة باللُّغة العَرَبيَّة، ونُسخة مُترجمة عنها بلُغة الملك الفرنجي، ويُوقِّع، ويختم كُلُّ طرف النُّسخة المكتوبة بلُغته، ويُسلِّمها للطرف الآخر؛ ليحتفظ بها.

7 - كانت مُدَّة المُعاهدات تُحسَب بالشُّهُور الشمسية، وتُدوَّن بالقمرية، لـذلك كانـت كُـلُّ المُعاهدات تتضمَّن حساب مُدَّمها بالسنوات والأشهر والأيَّام، ويُذكِّر بدء سريان المُعاهدة وتوقيتها بالتاريخ الهجري، وإذا كانت المُعاهدة مع الفرنج يُذكر بعده التاريخ الميلادي.

وكانت هُناك شُرُوط شرعية حرص المُسلمون في العصر الأيُّوبي أشدّ الحرص على مُراعاتها في مُعاهداتهم، منها:

1- عدم وُجُود شرط مُحالف للشرع الإسلامي، أو يُعطِّل واحداً من حُدُوده.

2 - التفريط بمال المُسلمين، أو أرضهم، أو حُقُوقهم، ما لم تكن هُناك ضرورة مُوجبة لذلك.

3 ـ أنْ لا تزيد مُدَّة المُعاهدة عن عشر سنوات، وهي مُدَّة مُعاهدة الرسول عَلَيْكُم لأهل مكَّة في صُلح الحديبية<sup>(3)</sup>.

قواعد المعاهدات:

<sup>3</sup> ـ عادةً؛ كان يورد كاتب المُعاهدة بعضَ الآيات القُرآنيَّة في مَتْن النصِّ، وذلك وُفقاً لما يتناسب مع حالتها، فإن كانت بين طرفَيْن مُسلميْن كانت الآية: ﴿ وَإِن طَآبِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأُصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ (1)، وإن كانت بين طرف مُسلم وآخر غير مُسلم كانت الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (2).

<sup>1 -</sup> سُورة الحجرات، الآية: 9.

<sup>2-</sup>سُورة الأنفال، الآية، 61.

<sup>3-</sup>راجع: النُّظُم الدّبلُوماسيَّة، صلاح المُنجِّد، 174 ــ 181.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 92.

<sup>2-</sup>تاريخ الإِسلام، الذهبي، 611 \_620/ 27. 3-النَّظُم الدِّبلُوماسيَّة، صلاح المُنجِّد، 174.

<sup>4 -</sup> مُفرِّجُ الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 98.

# المبحث الثَّاني: المُراسلات الدّبلوماسيَّة

1 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7.

3 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 33.

4 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرف، 34.

5 - رُسُوم دار الخلافة، الصابئ، 126.

2 - سُورة المائدة / 51. ( القانون في ديوان الرسائل، ابن الصير في، 7 ).

لأهيّة الرسائل في العلاقات السّياسيّة للمهالك الأيّوبيّة فقد أفرد لها ديوان خاصٌّ هُو ديوان الرسائل، وله مُتولِّ، أو رئيس، واشترط فيه شُرُوطاً عدَّة، لأنّه يتولَّى الكتابة عن الملك، وبلسانه، منها أن يكون: "ذا دين وورع وأمانة، فإنّه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة، يتحكّم بها في أرواح الناس، وأموالهم "(1). وقد اشترط ابن الصيرفي في قانون ديوان الرسائل أن يكون مُتولِّيه مُسلمً، ودعم شرطه بالآية القُرآنيّة: ﴿ يَتَأَيُّهُ ٱللَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱليّهُودَ وَٱلنَّصَرَى أُولِيآء ﴾ (2) علما أنّه قد تولَّى الوزارة للمُلُوك الأيوبيّة عدد كبير من الدِّميّين، خلافاً لشرط ابن الصيرفي. ولطبيعة العلاقات الخارجيّة المُتعدِّدة للدُّول الأيوبيّة فقد كانت المُشكلة الكُبْرى لديوان الرسائل هي تعدُّد اللُّغات التي ترد فيها الرسائل، فقد كانت من مُلُوك وأُمراء أرمن وفرنج وروم وغيرهم كثر، فلذلك وُجد في ديوان الرسائل مُترجمون للُغات عدَّة. وتم ضبط موضوع الترجمة، والحرص على عدم التلاعب بها ديوان الرسائل مُترجمون للُغات عدَّة. وتم ضبط موضوع الترجمة، والحرص على عدم التلاعب بها عن طريق آلية دقيقة لعملية الترجمة، فكان يُسلَّم الكتاب الأعجمي الوارد إلى الديوان إلى مُترجم وتاريخ ترجمته، ويُشهد على ذلك شاهدَيْن بأنَّ ما ذكره هُو تفسير الكتاب، بلا زيادة، ولا نُقصان، ويُقتل له إنَّ غيره سيحضر لتفسير الكتاب، فيخاف، ويُؤدِّي الأمانة، وذلك لأن "أكثر مَنْ يُترجم على مذهب صاحب الخطِّة" (4)، وبذلك يضمنون صحَّة الترجمة.

وكانت الرسائل تُرسَل إلى المُلُوك، وترد منهم مكتوبة على طرس، وهُو صحيفة كبيرة من السورق (5)، أو على قرطاس من ورق البردي، وهُو صحيفة عريضة، أو على الكاغد، وهُو صُحُف غلاظ من القنَّب، وكان كُلُّ ذلك قبل ظُهُور الورق السمرقندي، وهُو صُحُف رقبقة

شُرعة وُصُول الرسالة، فالرسول- بهذه الحالة \_ يستطيع تلافي الأمر.

كان الحام الزاجل هُو الوسيلة المُعتمَدة لإبصال رسالة مُستعجلة تُنذر بخطر، أو تُبشّر بحدث، وكان الحام طريقة قديمة جدًّا للتراسل، ففي عصر الدولة العَربيَّة الإسلاميَّة استُخدمت هذه الطريقة، ثُمَّ توقّفت، إلى أن أعاد إحباءها نُور الدِّين محمود بن زنكي، فهُو أوَّل مَن اعتنى بالحام، وفقله من المَوصل إلى الشَّام، وفي سنة 565 هـ بنى له الأبراج في كُلِّ المناطق التي كانت تتبع له في الشَّام (2)، وركَّز نُور الدِّين محمود على إقامة أبراج الحهام "على الطُّرُق بين المُسلمين والفرنج، وجعل فيها مَنْ يحفظها، ومعهم الطيُّور الهوادي، فإذا رأوا من العدوِّ أحداً أرسلوا الطيُّيور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم "(3). فكانت هُناك مَسَارب للحهام الزاجل تُغطِّي كافَّة أطراف الشَّام، فكانت تُطلَق الحهامة، وقد رُبطت برجلها رسالة من دمشق، فتحطّ في أبراج قارة، ومنها تُؤخَذ الرسالة، وتُربَط برجل حمامة أُخرى، تنطلق حتَّى تحطَّ في حمص، وهكذا إلى حماة، أو تنطلق من دمشق، أو حمص، إلى القريتيَّن، ثُمَّ منها إلى تدمر (4).

لطيفة تُعدُّ أصل الورق الحالي، وكانت الرسائل تُلَفُّ بعد كتابتها، ويُعقَد حولها شرابة ابرسيم سوداء

غالباً، ويُختَم عليها بالمسك والعنبر مخلوط بطين أسود. ثُمَّ يُوضع الكتماب في غلاف كمان يُسمَّى

يحملون رسائل شفهية، خوف وُقُوع الرسالة بيد عـدوّ، أو تغيّر الأحـداث بـسُرعة لا تتناسب مع

وكانت الرسائل نادراً ما تُتبادل مكتوبة بين المُلُوك، إلَّا في حالات خاصَّة، فغالباً كان الرُّسُل

خريطة، وهُو من ديباج أسود، "ويُشدُّ رأس الخريطة بشرابة أُخرى في أشريجة مختومة "(1).

ورسائل الحمام كانت تُؤمِّن أخباراً سريعة جدَّاً، ورُبَّما هي أسرع من أيِّ وسيلة في ذلك العصر، ولكنْ؛ كان لها عدَّة مُشكلات: فصغر حجم الحمامة وقلَّة تحمُّلها كان يفرض شكلاً خاصًا للرسائل، فهي تحتاج إلى ورق رقيق جدَّاً، يُكتَب عليه بخط دقيق، ويُقال إنَّه لكتابة رسائل الحمام

<sup>1 -</sup> أشريجة أو أسريجة من سرَّج أي شد العرى. (رُسُوم دار الخلافة، الصابئ، 127 ).

<sup>2 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 2/ 90.

<sup>3-</sup>عُيُونَ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 1/ 369.

<sup>4-</sup>صبح الأعشى، القلقشندي، 14/ 393.

رسائل الحمام الزاجل:

الزاجل اخترع خط الغُبار. كذلك هُناك خطر وُقُوع الرسالة بين الأعداء، فأوجدوا رموزاً خاصَّة اصطلحوا عليها، يقول العهاد الكاتب: أنَّه في حصار عكًّا "كُنًّا نكتب إليهم، ويكتبون إلينا، على أجنحة الحمام الزاجل بالترجمة المُصطلح عليها سرّ الأُمُور "(1). وكان لأبراج الحمام مُتولِّيها، من حيثُ التربية والتدريب، ويكون في كل منزلة معتمدة، حتَّى إنَّه قد يُرافق العَسْكَر بأقفاص فيها الحمام المُدرَّب الستخدامه عند الحاجة.

ويبدو أن البريد السريع اتَّخذ شكلاً آخر في عهد سلطنة الماليك، فقد أوجدوا خيل البريد، وأقاموا لها محطَّات؛ حيثُ كانت تنطلق الرسالة من مصر، وفي كُلِّ محطَّة تُبدَّل الخيل بأخرى مُستريحة، حتَّى تصل إلى مقصدها.

# الرُّسلُ والسُّفراء:

كان إرسال السُّفراء هُو الشكل الأعمُّ للاتِّصالات السِّياسيَّة بين الدُّول والمالك والإمارات، ولذلك؛ شكَّل السُّفراء عاملاً مُهمَّا في تاريخ العلاقات السِّياسيَّة الدّوليَّة. وقد تفاوت السُّفراء، كُلُّ وفق مؤهِّلاته الشخصية، وإعداده، وخبرته، في تأثيرهم على العلاقات الدّوليَّة في ذلك العصر، فلم تكن السِّفارة لتأدية رسالة فحسب، بل لكَشْف أحوال البلاد، وصاحبها. كَتَبَ نظام الملك في كتابه سياسة نامة: " يجب أن يعلم المُلُوك أنَّ بإرسالهم السُّفراء لا يقصدون تسليم رسالة، أو نقل سفارة فقط، بل هُناك منات الأغراض يبغونها، فهُم - في الحقيقة - يُريدون أن يعلموا حالة الطُّرُق، والآبار. . وقُوَّة الجيش، ومُؤنته . . وكيف يعيش الأمر . . وأن يعرفوا تنظيمات بلاطم، حتَّى إذا رغبوا في مُهاجمته يوماً، أو أرادوا نقض خُططه كانوا مُطَّلعين مُدركين، يضعون المحاسن والمساوئ نصب أعينهم، وينهجون بحسبها" (2).

لكُلِّ هذا حرص مُلُوك الآيُوبيَّة في مصر والسَّام على أن تكون رُسُلُهُم من طبقة القُضاة، أو الفُقهاء، عَنْ يتَّصفون بالخبرة والدراية بشُؤُون الحُكْم والدُّول، فكانت رُسُلُهُم من القُضاة؛ مثل القاضي والمؤرِّخ ابن واصل الحموي، والقاضي محيي الدِّين بن الذكي (3)، وقاضي العَسْكَر نجم الدِّين

خليل بن المصمودي(1)، وقاضي حماة عماد الدِّين بن القطب(2)، والقاضي هبة الله إسماعيل بسن نبهان بن المقنشع (3)، والقاضي بهاء الدِّين مروان بن قابيا (4)، وغيرهم كثير. ومن الفُقهاء الذين ترسَّلوا للمُلُوك الأيُّوبيَّة، الكال بن المُهاجر الموصلي (5)، وشيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين بن حموية (6)، وخطيب جامع دمشق جمال الدِّين مُحمَّد الدولعي الشافعي(7)، ورُبَّها كان أشهرهم رسول دار الخلافة السَّيخ نجم الدِّين البادرائي مدرِّس النّظاميّة (8)، وشيخ الصُّوفيّة شهاب الدّين السهروردي (9). ومن الوُجهاء والرُّؤساء الذين قاموا بالسِّفارات: الشهاب عبد السلام بن أبي عصرون، الـذي ترسَّل عـن مُلُوك بني أيُّوب إلى دار الخلافة (10)، ومن كبار مُوظَّفي الدولة، ترسَّل الدكز العادلي أُستاذ دار الملك العادل(11)، وكُلّ هؤلاء وأمثالهم لم تكن لتنقصهم الخبرة، أو التجربة، أو العلم، أو قُوَّة الشخصية، فالرسول إذا لم يكن يتمتّع بالكفاءة اللازمة والدراية والحنكة، فقد يضرُّ مصلحة مخدومه، كما فعل رسول الملك الظَّاهر صاحب حلب، فقد وردت إلى الملك الظَّاهر عام 613 هـ 1216م، رسالة عـزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم يطلب فيها خُرُوج الظَّاهر بجيشه ليقصدا معاً مملكة الأرمن، فحمل ردّ الرسالة عبد الرحمن المنجي، ويبدو أن الرّدّ كان شفهياً كالعادة، فليّا أدّى الرسالة، "حـرّف فيها، وزاد شُرُوطاً تضرُّ الملك الظَّاهر وتُوافق عزّ الدِّين كيكاوس، لعدم كفايته ١٥٤٠.

كما كانت أهمِّيَّة الرسول تُشير إلى أهمِّيَّة موضوع رسالته من جهة، وإلى أهمِّيَّة المُرسَل إليه من جهة أُخرى، لذلك؛ عندما أرسل السُّلطان صلاح الـدِّين يُبشِّر الخليفة بنصر حطِّين مع مُتطوّع

<sup>1 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 245. 2 - النَّظُم الدَّبلُوماسيَّة، صلاح المُنجَّد، 104. 3 - الواني بالوفيات، الصفدي، 4/ 170.

<sup>1 -</sup> الجامع المُختصر، ابن الساعي، 259.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 330.

<sup>3 -</sup> بغية الطلب، ابن العديم، 10/ 4581.

<sup>4 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 261.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 133. الكمال بن المُهاجر: تُوفِّي عام 634 هـ، راجعُ ترجمته في : البداية والنّهاية، ابس كشير، 13/ 146 والوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 172.

<sup>6 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 20/ 194

<sup>7-</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 210

<sup>8-</sup>ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 391.

<sup>9 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180.

<sup>10 -</sup> شذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 149.

<sup>11 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180.

<sup>12 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.

بغدادي من العامَّة اسمه رشيد البوشنجي، غضب الخليفة، وأهان الرسولَ، وأرسـلَ يعاتـب صـلاح الدِّين، وقامت أزمة سياسيَّة فعليَّة بين الطرفَين(1). وبالمُقابل؛ كان استقبال السفير يليق بمَنْ أرسله، فكان يحصل على أفضل ضيافة واستقبال وتكريم بالهدايا والعطايا، ولذلك أُحدثت وظيفة متأخّرة في بلاطات المُلُوك الأيُّوبيَّة، ونمت، وتطوّرت في عهد الدولة الملوكية، هي وظيفة المهمندار، الذي كانت مهمّته استقبال السُّفراء، وسُؤالهم عن موجب حُضُورهم، وتسليم ما بيدهم إلى كاتم أسرار السُّلطان، ثُمَّ يُهيِّع دُخُولهم على السُّلطان (2)، وإذا كان السفير قادماً في أمر خطير، أو من قبّل ملك، أو سُلطان كبير، فإن السُّلطان، أو الملك، يخرج لتوديعه بنفسه، كما فعل السُّلطان العادل، بخُرُوجه لوداع المُؤرِّخ ابن العديم قاضي وسفير مملكة حلب عام 637هــ1240م(3). وأيضاً؛ يخرج الملك لاستقبال بعض كبار السُّفراء، وكانت عادةُ الاستقبال هذه خاصَّة لسُّفراء الخليفة؛ حيثُ تستقبلهم

"فلم يقبل شيئاً من أحد،ولا أكل طعامه (6). وإذا اقتضت الحاجة، فقد يصطحب السفير معه الرسالة الجوابية (7). وأحياناً؛ قد يُخطئ السفير، فيُسيء إلى مُرسله، فيُعاقَب عند عودته كما حدث مع الصلاح الأربيلي، وكان أديباً شاعراً، عندما أوفده الملك الكامل إلى أخيه المُعظَّم بدمشق، فاستماله المُعظَّم ضدَّ الكامل، وبلغ الكامل ذلك،

المُلُوك الأيُّوبيَّة خارج المُدُن، ويعودون معهم، فقد خرج السُّلطان صلاح الدِّين بنفسه لاستقبال رُسُل

الخليفة النَّاصر، وترجَّل لهم، وقبَّل الأرض(4). وكانت الرُّسُل تحصل على منح وجوائز قيِّمة، فمنهم

مَنْ يحتفظ بها، ومنهم مَنْ يُوزّع جوائزه على الناس، وقد وزّع أحمد بن عبد الرحيم القاضي الفاضل،

الذي كان رسول الملك الكامل إلى الخليفة في بغداد، كُلُّ ما حصل عليه من الخليفة من جوائز وعطايا

قبل أن يخرج من بغداد (5)، أمَّا سفير صاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُو إلى الشَّام الكال بن اللهاجر؛

فلمًّا عاد حبسه في الجلبِّ عدَّة سنين(8). وإذا كانت العلاقات السِّياسيَّة سيِّئة بين عملكتَيْن،

وأوفد أحدهما رسولاً، فقد يُمنَع من الوُصُول، ولا تُقبَل رسالته، فعندما أرسل الملكُ الظَّاهر صاحبُ

حلب وزيرَهُ علمَ الدِّين قيصر إلى عمِّه الملك العادل في مصر، وكانت بينهما وحشة، فمنع العادلُ

السفيرَ من الوُّصُول إلى القاهرة، واحتجزه في بلبيس، وطلب منه تسليم الرسالة إلى قاضي بلبيس (1).

الشفاعة لصاحب سنجار، ولم يكتف بذلك، بل أغلظ القول للسُّفراء(2)، وكان الملك الظَّاهر قد زوَّد

سُفيرَيْه بتعليهات تُنفَّذ على التوالي، فقد أمرهما إذا لم يقبل العادلُ الشفاعة \_ ويبدو أنَّه كان يتوقّع ذلك \_

أن يأمرا العَسْكَر الحلبي الموجُود في حملة العادل أن يترك الحصار، ويلتحق بحلب، وفعلاً؛ تمَّ ذلك، ولم

يكتف الرسولان بهذا، بل نفَّذا المرحلة الثَّالثة من تعليهات الظَّاهر، فقد "دسَّ الرسولان إلى أصحاب

العادل دسائس أفسدت أحواله "(3)، وبالفعل؛ كان لرُسُل الظَّاهر دور هامٌّ في إفشال حصار الملك

الخليفة الحاكم الأعلى للمالك والدُّول الإسلاميَّة، فقد كانت رسائله ورُسُله متواترة إلى المُلُوك

والحُكَّام في أُمُور تُحتلفة ومُتعدِّدة، منها للإصلاح والتوسّط فيها بينهم، ومنها لتبليغهم أُمُـور جـرت في

عاصمة الخلافة، أو منحهم التقليد والتشريف إلخ . . وأشهر مَنْ ترسَّل عن دار الخلافة كان محيي

الدِّين ابن الجوزي<sup>(4)</sup>، الذي اشتهرت سفارته للصُّلح بين أولاد الملك العادل: الملك الكامـل والملـك

المُعظَّم عام 629هـ 1232م(5)، وسفارته عام 636هـ 1238م للصُّلح بين أولاد الكامل: الصَّالح

وكانت أكثر السِّفارات التي تجوب البلاد الإسلاميَّة هي سفارات الخُلفاء العبَّاسيين، فباعتبار

العادل لسنجار، بالرّغم من القوى العسكريَّة الكبيرة التي تجمَّعت لديه في حصارها.

أَيُّوب وأخيه العادل النَّاني. وكذلك كان حال السفير نجم الدِّين البادرائي (6).

كذلك قام الملك العادل بالامتناع عن قبول رسالة ابن أخيه الملك الظُّاهر التي يطلب فيها

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 154.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 196.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 197/ 3.

<sup>4-</sup> ابن الجوزي: يُوسُف بن عبد الرحمن بن على ( 580 \_ 656 هـ 1185 \_ 1258م)، أستاذ دار الخليفة المستعصم، ومُدرِّس المدرسة المُستنصرية ببغداد، أنشأ المدرسة الجوزية بدمشق، أديب وشاعر وفقيه، قتله التَّتَار شهيداً صبراً، راجعْ ترجمته في: النُّبُحُوم الزَّاهرَة، 7/ 66، وشذرات الذهب، 5/ 286، والبداية والنِّهايــة، 13/ 203، والــدارس في تــاريخُ المدارس، 2/ 62، وذيل المرآة، 1/ 332.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 257.

<sup>6 -</sup> البادرائي: 594 \_ 555 هـ نجم الدِّين مُحمَّد بن الحَسَن بن عبد الله درس في النَّظاميَّة ببغداد، وبمدرسته التي أنشأها بدمشق، راجّعْ ترجمته في : ذَيْل الرَّوضَٰتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 391.

<sup>1 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العاد الأصفهاني، 184.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك؛ المَّقريزي، 1/ 701 ـ مهمندار: كلمة فارسية من مقطعَيْن: مهان ـ ضيف، ودار ـ حافظ.

<sup>3 -</sup> الجامع المُختصر، ابن الساعي، 262.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 181.

<sup>5 -</sup> الوافي بالوفيات، الصفدي، 8/ 57.

<sup>6 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 133.

<sup>7-</sup> الجامع المُختصر، ابن الساعي/ 62.

<sup>8 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 286.

# الرُّسُلُ إلى الممالك الخارجيَّة:

لطبيعة العلاقات السيّاسيّة بين الـدُّول الأيُّوبيَّة والمالك الأُخرى، وتنوُّعها، فقد نشطت الرُّسُل بينهم، وكان من أكثر المالك الإسلاميّة مُراسلة للأيُّوبيين عملكة الخَوَارزميَّة. فقد تردَّدت الرُّسُل بين خوارزم شاه علاء الدِّين مُحمَّد بن تكش والملك العادل، فوصلت رُسُلُ الخوارزمي إلى العادل وهُو بمرج الصفر عام 615 هـ 1218م، فأجاب العادل على الرسالة مع رسولَيُن، لَّا وصلا همدان، وجدا التَّتَار قد هزموا الخوارزمي، فاجتمعا بولده جلال الدِّين، فأخبر جلال الدِّين الرُّسُل بوفاة الملك العادل العادل المُوارزميَّة، إلى الملك بوفاة الملك العادل وإلى مُعظم مُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام (2)، وكانت علاقته مُتميِّزة بالملك المُعظم عيسى صاحب دمشق، ولابُدَّ أن مُراسلات عديدة سبقت التحالف المشهور بينها.

وكذلك لوُجُود علاقات سياسيَّة نشطة بين المالك الأيُّوبيَّة وسلطنة سلاجقة الرُّوم، فقد تواترت الرُّسُل بينها بمُناسبات مُختلفة. ففي عام 624 هـ 1227م، أرسلت مُعظم المالك الأيُّوبيَّة رُسُلَها إلى سُلطان سلاجقة الرُّوم كَيْقُبَاذ، واجتمعت عنده (3)، وذلك ردَّاً على ما حمله رسوله كال الدِّين كيار قاضي أرزنجان من رسائل إليهم (4). وتكرَّر قُدُوم رسول السُّلطان كَيْقُبَاذ في عام 630 هـ 1233م؛ حيثُ عرج على مُعظم المُلُوك الأيُّوبيَّيْن، وأبلغهم رسائل من مخدومه (5).

أمَّا مع الدُّول غير الإسلاميَّة؛ فقد كانت ممالك وإمارات الفرنج على الساحل السوري في مُقدِّمة هذه البُلدان من حيثُ تبادل السِّفارات مع المالك الأيُّوبيَّة.

وذلك للاحتكاك العسكري والسِّياسي الدائم بينها، ويبدو أنَّه كان لدى الفرنج أشخاص قـد تخصّصوا بأدوار الرُّسُل، فرسول بيت الاسبتار سيمون كان مشهوراً ومعروفاً في المالك الأيُّوبيَّة،

وبالتّأكيد؛ كان يجيد اللُّغة العَربيّة (1). واستخدم بعض اللُّوك الأيُّوبيَّة رُسُلاً من الفرنجة في مهيَّات خاصَّة لهم في أُورُبة، كما فعل الملك الكامل عام 629 هـ 1232م عندما أرسل مسيو ريمون إلى جزائر البحر - أُورُبا ليشتري له صقراً (2)، ويبدو أن مهمَّة شراء الصقر هي ما أُشيع لإخفاء حقيقة سفارته التي قد تكون ذات شأن سياسي كبير يقتضي السِّريَّة (3). أمَّا رُسُلُ المُدُن الإيطالية: جنوة والبُندُقية وبيزا، ورُسُل الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسَة؛ فلم تكن لتنقطع عن أبواب سلاطين بني أيُّوب (4)، وذلك لطبيعة العلاقات التِّجاريَّة بين دولهم والمالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة مصر.

## خيانة الرُّسلُ:

كان أخطر ما في المُراسلات هُو خيانة الرُّسُل وتحريفهم للرسائل وُفقاً لأهوائهم، فمُعظم المُراسلات كانت شفهية بجملها الرسول فَهْمًا في عقله، ويُؤدِّيها مُشافهةً بالنقة والأمانة المطلوبة منه، لكنَّ بعض الرُّسُل تجاوزوا ذلك، واعتبروا أن مهمَّتهم سياسيَّة، وفي السياسة؛ كُلُّ شيء وارد. فعندما اعتقل النَّاصر داودُ عام 637 هـ 1240م، الملكَ الصَّالح أيُّوبَ، أرسل العادل الثَّاني صاحب مصر يطلب من داود أن يُرسل أسيره الصَّالح أيُّوب إليه في مصر، وبعث في الرسالة علاء الدِّين النابلسي، الذي كان هواه مع أيُّوب، وقد اعترف الرسول - فيها بعد - بخيانته للرسالة، فقد قال: "لمَّا اجتمعتُ بالناصر أكَّدتُ معه في الباطن أنْ لا يُجيب إلى ما طلبه العادل" (أَنَّ)، فكانت نتائج ذلك في مُنتهى الخُطُورة على العادل الثَّاني، وتسببت في نزعه عن ملك مصر، فعدم انتقاء العادل لرسول ثقة أمين العادل بتأييد الأُمراء، وزيَّن له - بالمُقابل - استخدام ورقة أيُّوب للوُصُول إلى حُكْم مصر، مُبيِّناً له العادل بتأييد الأُمراء، وزيَّن له - بالمُقابل - استخدام ورقة أيُّوب للوُصُول إلى حُكْم مصر، مُبيِّناً له تأييد أُمراء العَسْكر لأيُّوب، واستعدادهم لتوليته بدل أخيه العادل، وهذا ما تمَّ فعلاً.

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 203.

<sup>2 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 248.

<sup>3 -</sup> رُبًا كانت هذه المهمَّة تتعلَّق باستعداد الكامل لتنفيذ مشروعه بالاستيلاء على مملكة سلاجقة الرُّوم، ونقل إخوته وأبناء عمّه مُلُوك بني أيُّوب من الشَّام إليها، لينفرد بحُكْم مصر والشَّام بكاملها، وقد دفعنا إلى هذا الافتراض قيادة الكامل جُيُوشه في العام التالي 930 هـ 1233م، والتوجُّه نحو كيليكيا لتنفيذ مشروعه. راجعٌ: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314. 4 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.

<sup>5-</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 244.

<sup>1 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شُهيل زَكَّار، 20/ 210.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 150.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 143.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 141.

<sup>5 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 259.

# الفصل الثَّاني دور السُّكَّان في العلاقات الدّوليَّة

المبحث الأوّل:

سُكَّان الممالك الأيُّوبيَّة

كانت تعيش في البلاد الدّاخليّة التي تُسيطر عليها المالك الأيّوبيّة تركيبة عجيبة من السّكّان، من حيثُ الانتهاء العرْقي والدِّيني على السواء، فقد كان فيها العرّب والأتراك والأكراد والزنوج، وعماليك من كُلِّ أصقاع الدُّنيا، ومُهاجرين من المغرب العَرَي، أو من بلاد فارس، أو من القفقاس. وصحيح أن مُعظم السُّكّان كانوا من المُسلمين، لكنّهم كانوا يتوزّعون على مذاهب شتى (1)، ومع أن الغالبية تتبع المذهب السُّنيَّ، فقد كان قسم مُهمُّ منهم يلوذ بمذهب النشيُّع بفرقه المُختلفة، من اثني عشرية، وإسهاعيليّة، والعلويين النصيرية، وفي حين تركّز المذهب السُّنيُّ في المُدُن الكُبْرى، فقد كان الشيعة موزّعين على الجبال والأرياف (2). ولا ننسى وُجُود مجموعة من الدُّرُوز تمركزت جنوب شرق جبال لُبنان.

ونتيجة للأوضاع الأمنية، فقد انقسمت المُدُن في الدولة الأيُّوبيَّة إلى أحياء شبه مُسوَّرة، لها بوَّاباتها التي تحرس ليلاً، وظهرت لها زعامات محلِّيَة (3). وكان تأثير هذه الفتات وزعاماتها في العلاقات الخارجيَّة، السِّياسيَّة أو العسكريَّة. ولكنَّنا نستطيع أن نتلمَّس بعض الأدوار لبعض الفتات السُّكَانية التي استطاعت أن تتميَّز في علاقاتها ضمن الدولة الأيُّوبيَّة، ومنها:

# المسيحيُّون المحلِّيُّون:

عاش المُسلمون والمسيحيُّون في الشَّرْق العَرَبي قبل الغزو الفرنجي بحالة فريدة من الانسجام، لا تُعكِّرها إلَّا بعض المواقف الشاذَّة، هُنا، أو هُناك، فطالما عدَّ المُسلمون والمسيحيُّون أنفسهم فرعَيْن

<sup>1 -</sup> من التاريخ الثَّام عشاك مُصطفًا عام 116

<sup>1-</sup>من التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 116. 2-مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 1/ 75.

<sup>3 -</sup> تاريخ السلاجقة، أحمد إسهاعيل، 64.

لحضارة شرقية واحدة، وكان لديهم إحساس واضح بالانتهاء إليها(1). وقد كان يُوجد بين سُكَّان الدولة الأيُّوبيَّة عُنصُر واضح من المسيحيين، يتوزَّعون على عدَّة طوائف أبرزها: الرُّوم الأرثـوذكس، أو الملكانيون، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وتجدر الإشارة إلى وبجود بعض الفرنجة المستأمنين، وهم \_غالباً \_ من الكاثوليك، وكانوا يُقيمُون بشكل شبه دائم خاصَّة في المُدُن السَّاحليَّة لمزاولة الأعمال التِّجاريَّة، ومنهم مَنْ كان مُستوطناً مَّنْ قدم مع الحملات، أو وُلد في الشَّرْق، وقد فضَّل بعضهم الاستمرار في العيش في المُدُن المحرَّرة، فدخل في عقد الذِّمَّة (2)، علماً أن الإقامة بين المُسلمين والنُّضُوع لهم كان أمراً مُحرَّماً من قبَل البابا، مع أقسى العُقُوبات كالحرمان الكَنسي، واللعن، والطرد كُلِّيًا من الكَنيسَة(3).

لقد سعى الفرنجة - بعد تأسيس إماراتهم في سُورية - إلى استهالة المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة، فلمَّا استولوا على القُدْس، وأبادوا شُكَّانها، حاول بلدوين الأوَّل سدَّ الفراغ السُّكَّاني باستقدام أعداد من المسيحيين السوريين من شرقي الأردن(4)، ولكنْ؛ على ما يبدو لم تُثمر عملية استمالة الفرنج لمسيحيِّي شُورية؛ إذْ إن هُناك الكثير من الدلائل على تنامي الكراهية المُتبادلة بين الجانبَيْن (5)، فالتسامح الذي كان يعاملهم به المُسلمون كان دافعاً قوياً لمسيحيِّي الشَّرْق؛ كي يُبعدهم عن الفرنجة الذين يتبعون كنيسَة غريبة لها طقوس مُختلفة. ويُذكّر أنَّه عندما حرّر السُّلطان صلاحُ الدِّين القُدُس عرض المسيحيُّون الأرثوذكس المُساعدةَ من الداخل (6)، كذلك تلقَّى السُّلطان صلاح الدِّين تهاني حامي الكَنيسَة الأرثوذكسية الإمبراطُور البيزنطي اسحاق أنجيلوس - Isaac Angelus على استرداده للمدينة المُقدَّسة.

1 - الخُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 84.

وبالمُقابل؛ نستطيع أن نقول إن المسيحيين في بلاد الشَّام لم يتعرَّضوا لأي اضطهاد، أو خطر

حقيقي على وُجُودهم، أو أنَّهم مُنعوا من مُمارسة طقوس عباداتهم طوال حقبة العُصُور الوُسْطَي من

قبَل إخوانهم وجيرانهم المُسلمين، ولذلك نجد أن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، وسائر المذاهب

المسيحيَّة الشَّرْ قيَّة، قد هلَّلت لتحرير المُسلمين لمناطق الاحتلال الفرنجي، وخاصَّة بيت المَقْدس.

ولقد كانت لهم دوافعهم القويَّة في ذلك، فقد جرَّبوا التسامح الدِّيني للمُسلمين، كما لمسوا \_ بشكل

مُباشر، بواسطة الوُّجُود الفرنجي في الشَّرْق \_ ما يعنيه العداء بين كنييسَة رُوما وكنيسَة القسطنطينيَّة.

وهذا كُلُّه دعا الإمبراطُور البيزنطي آندرونيكوس كومنين للسعي وراء تحالف يربطه بالمُسلمين ضـدَّ

الفرنجة (1). وممَّا يُذكر هُنا ما قام به عهاد الدِّين زنكي عندما حرَّر الرُّهَا من الفرنج عام 539 هـ

1144م، فمع أنَّه لم يرحم الفرنجة فيها فقد عامل المسيحيين المحلِّيِّن بمُنتهى الرأفة، وزار كنائسهم،

إِلَّا أَن روابط التاريخ واللُّغة والعيش المُشترك مع المُسلمين كانت أقوى، فمع أن المسيحيين المسوريين

لم يُقاتلوا الفرنجة عنوة، ولم يكونوا مصدر إزعاج حقيقي لهم، إلَّا أنَّهم \_ أيضاً \_ لم يستغلُّوا الظُّرُوف

الصعبة التي مرّ بها المُسلمون، فلم يُقاتلوهم، ولم يُثيروا القلاقل، أو يُشكِّلوا عقبات أمامهم. ومع أنَّه

تمَّ طرح كثير من النظريات حول تعاون وثيق بين مسيحيِّي سُورية والفرنجة، لكنَّها \_ بمُعظمها \_

تعتمد على أحداث محدَّدة وتخمينات وتعميهات، فالنُّصُوص التاريخية تـذكر أن قُوَّات المُشاة في

الإمارات الفرنجيَّة كانت تُشكِّل من السُّكَّان المحلِّيِّين غالباً، وهذا صحيح، ولكنَّ؛ ليس بالضرورة

أن تكون من المسيحيين، فقد كانت تضمُّ أتراكاً وأكراداً وعرباً، وإذا كان جُلُّها من المسيحيين، فهم

من الأرمن. أمَّا تعاون المسيحيين المحلِّيِّين مع الفرنجة، فقد تقتصر أمثلته على ما قام به الموارنة،

إضافة إلى حوادث فردية قد تُثير الاستغراب أكثر ممَّا تُعدُّ دلائل على وجهة نظر محدَّدة، ومنها الروايـة

التي أوردها أبو شامة على ذمَّة مَنْ أبلغه، يقول: "بلغني أن النصارى ببعلبك سخموا وسوَّدوا وُجُوه

الصُّور في كَنيسَتهم على ما جرى على الفرنج، فعلم الوالي، فجناهم جناية شديدة، وأمر اليهود

وبالنتيجة؛ نرى أنَّه على الرّغم من رابط العقيدة الواحدة بين المسيحيين السوريين والفرنجة

وكانت له علاقة حميمة مع المطران اليعقوبي للرُّهَا متى الرهاوي(2).

<sup>2 -</sup> فَنُّ الْحَرْب، سميل، 94.

<sup>1 -</sup> الشُّرُق والغَرُّب، كلود كاهن، 256.

<sup>2 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العاد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 159.

<sup>3 -</sup> جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 / 1142.

<sup>4-</sup>فنُّ الحَرْب، سميل، 91 و 95. A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p Prewar, The Settlement of the Lateens in Jerusalem, P.4979

Diogil, La Croisades de Luis, P. 314-5

Runciman, A History of Crusades ,P. 465-6

وجال في عهدَيْها، فقد "تمكّن من المُسلمين، وآذاهم، ورفع منار النصارى" (أ)، ولكنْ؛ ما إن استولى الأشرف مُوسى على دمشق، حتّى عزله، وحبسه عام 626 هـ 1229م، ثُمَّ علَّقه على باب كنيسة مريم، وطالبه بأموال عظيمة، مع ذلك؛ فهذا يُعَدُّ من الحوادث الفردية والعادية في ذلك المرمن والذي كان يُصيب المُسلمين والمسيحين، ولهذا؛ استمرَّ المسيحيُّون الشرقيون بولائهم المعلن للمالك الأيُّوبيَّة مُقابل عداء ظاهري واضح نحو الفرنج.

لكنَّ الفرنج حصلوا على بعض التسهيلات من قبَل أفراد من السُّكَّان المحلِّيِّن باعوا نُفُوسهم بالمال، أو من مجموعات كان لها دوافع عرْقية، أو طائفية. فيُذكر أنَّه كان لدى مُعظم الإمارات الفرنجيَّة مُتطوِّعة من السُّكَّان المحلِّيِّن في مُيُوشهم، منهم المسيحيُّون المحلِّيُّون والأتراك المُسلمون، كما استغلَّ البدو معرفتهم بطبيعة الأرض، وخاصَة البوادي والصحارى، فعمل بعضهم أدلاء وجواسيس للفرنجة مُقابل المال والأعطيات. أمَّا الدُّرُوز المُقيمون في وادي التيم؛ فيبدو أنَّم تصرَّفوا بدهاء سياسي؛ حيثُ أرضوا الطرفَيْن من مُسلمين وفرنجة، فقد عملوا جواسيس للطرفَيْن (2).

#### الموارنة:

كان الموارنة يُشكّلون طائفة دينيّة صغيرة في العصر الأيّوبي، وقد سكنوا بعض سُفُوح جبال لُبنان الغَرْبيَّة، وكانوا مُنعزلين عماماً عن المُسلمين، وعن الطوائف المَسيحيَّة الأُخرى، فهُم سريان، لكنّهم لا ينتهجون العقيدة الأرثوذكسية، وبالوقت نفسه؛ لا يتبعون كنيسة رُوما الكاثوليكية، بل يتفرَّدون بعقائدهم. لكنَّ وُصُول قُوَّات الفرنج إلى الساحل الشَّامي دفع الموارنة بالرّغم من استعرابهم باللُّغة للاعتبار الفرنجة أقرباء لهم، وأنَّهم سيكونون تُخلِّصين (3)، فأحسنوا استقبالهم، وكانوا أوَّل المُرحِّين بهم. ثُمَّ أرسلوا وُفُودهم إلى رُوما، وانضمُّوا ورَسْميًا، وشرعياً إلى كنيسَتها الكاثوليكية، وكان كلّ ذلك على يد إيمري بطريرك اللاتين في أنطاكية، فقد "أعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طويلة" (4).

بصفعهم، وضربهم، وإهانتهم "(1)، هذا الحدث الذي لا ندري في أيّ كنيسة تم في بعلبك، وقد تكون للموارنة، ورُبَّا ليس في مدينة بعلبك نفسها، بل في منطقتها؛ حيثُ ينتشر بعض الموارنة في غربها، ورُبَّا كانت القصة ردَّا لتبرير ما قام به المسلمون في دمشق، فبعد هزيمة لمويس وأسره في دمياط عام 648 هـ 1250م، أرسل المُعظَّم تُورانشاه ملابس الملك لمويس الأسير إلى واليه على دمشق جمال الدِّين ابن يغمور، " فدخل الناس كنيسة مريم بفرحة وسرور، ومعهم المغاني، ويطربون فرحاً به جرى، وهمّوا بهدم الكنيسة "(2)، وبها أن أبو شامة مُؤرِّخ رصين، ولم يُجرَّب عليه أيُّ تلفيق، ولمذلك لمويس نميل للاعتقاد بأنَّ ما تمَّ قد يكون في كنيسة مارونية في جنوب البقاع، فصلات الموارنة بالملك لمويس كانت وثيقة (3).

وبشكل عامّ؛ كان المسيحيُّون الشرقيون في مصر والشَّام يشعرون بارتباط ما بالمُسلمين، إن لم يكن للجيرة والمُعاملة الحَسنة التي يلقونها منهم، فللإحسان المرجو، فقد كان مُعظم الكَتبَة في مصر والشَّام خلال العصر الأيُّوبي من المسيحيين، وخير دليل على ذلك هُو ابن الميقاط الدي كان يُلقَّب بالشيخ أبي الفتوح، الذي كان كاتبَ جُيُوش الملك العادل، وكان لديه في ديوانه "جماعة من الكُتّاب مسيحيين أقباط"، وكان ابن الميقاط في سفره بين الشَّام ومصر مُرافقاً للسُّلطان العادل، يصحب حاشيته القبطية معه، ويقومون بطقوس عباداتهم في الطريق بكل حُرِّيَّة، وقد اصطحب معه القسَّ داود بن يُوحنًا بن لقلق؛ ليُصلِّي بهم (4).

ولكن هؤلاء الكَتَبَةَ المسيحيين بالرّغم من ارتقائهم في مناصب الدولة، وتمتُّعهم بالسُّلطة والمال والجاه في ظلِّ المُلُوك الأَيُّوبيَّة، فقد كانوا يدفعون - في بعض الأحيان - ثمناً غالباً لذلك، وخاصَّة عندما يموت الملك الذي يعملون في ظلِّه، أو يتغيَّر عليهم. ورُبَّما كان خير مشال على ذلك هُو ابن هبة الله، الذي تولَّى خزانة السُّلطان المُعظَّم في دمشق، ووليها في عهد ابنه النَّاصر داود، وصال

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 303.

<sup>2 -</sup> الشِّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 174.

<sup>3 -</sup> الشُّرُقُ والغَرُّب، كلود كاهن، 99.

<sup>4 -</sup> تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 444.

<sup>1 -</sup>ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 20/ 365 وقد نقلها عنه: النويري، نهاية الأرّب، 92\_35-، وابن كثير، البداية والنَّهاية، 13/ 178.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 20/ 365. والمُختار من حـوادث الزَّمـان، ابـن الجزري، 223 . ثُمَّ يُتابع أبو شامة مُباشرة: "وبلغني أن النصاري ببعلبك ..."

<sup>3 -</sup> العُدوان الصليبي على مصر ، جوزيف نسيم يُوسُف، 67 -83.

<sup>4 -</sup> أخبار الآيُوبيِّيْن، ابن العميد، 6.

ويبدو أن المذبحة التي تعرَّض لها اليهُود في القُدْس، عندما دخلها الفرنجة وإحراقهم داخل الكنيس، الذي التجؤوا إليه (1)، قد جعلتهم يفرُّون من مناطق فلسطين والساحل نحو بُلدان الداخل الإسلاميَّة، أمَّا مَنْ بقي منهم، وتمكَّن الفرنجة من القبض عليه؛ فقد عُدَّ أسيراً، وأُحيل للعمل الشاقِّ في بناء التحصينات، وحَفْر الخنادق (2).

وقد تمكَّنتْ الجاليات اليهودية في البُلدان الإسلاميّة من أن تُحقِّق ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً كبيراً نتيجة التسامح الإسلامي السَّائد، ولذلك؛ تآلف اليهُ ود مع الحضارة العَربيَّة الإسلاميّة (3). وإن أعداد اليهُود القليلة في أراضي الدولة الأيُّوبيَّة لم تكن لتسمح لهم بلعب أيِّ دور مُؤثِّر في الصراع الدائر بسبب الغزو الفرنجي (4). ولكنْ؛ بشكل عامٍّ، فقد "كان اليهُود يعدُّون أنفسهم رعايا أوفياء للدولة الإسلاميَّة، وأن الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق كانت محنة مُؤلمة بالنِّسبَة لهم "(5).

هذا؛ مع أنّنا نفترض أن اليهُود في المشرق العَرَبي لم يتح لهم معرفة المذابح التي قام بها الحُجّاج الفرنجة قبل توجُّههم إلى الشَّرْق في مُعظم مناطق أُورُبة، فقد كانت فكرة الأُورُبيين في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة عن اليهُود بـأنّهم ''ملعونون إلى حَدِّ الشقاء، ممقوتون في جميع أنحاء الدُّنيا، ويُعَدُّون لاشيء''(6). إن نظرة الفرنج هـذه لليهـود تُبرِّر انـدفاعهم لـذَبْح هـذه الطائفة، وتُقرِّبهم لينيء''(6) لله قبل قيامهم بالحجِّ، وغزو المناطق المُقدَّسة في فلسطين، فحملة الحُجَّاج التي عبرت المانيا ذبحت اليهُود في مدينتي مينز، وكُولن (7). ثُمَّ قامت الحملة الفرنجيَّة التَّالية التي انطلقت من بريطانيا بالهُجُوم على اليهُود، وذبحهم في ستامفورد، وسانت أدموند، ثُمَّ حاصروهم في يُـورك، فليًا أيقن اليهُود بالهلاك ذبحوا أولادهم وزوجاتهم، وأشعلوا النار، فـاحترقوا جميعاً، فـما كـان مـن الحُجَّاج إلَّا أن نهبوا أموالهم، وانطلقوا في حَجِّهم (8).

واندفع الموارنة لدعم الفرنجة في معاركهم، وكان لهم دور مُؤثِّر أحياناً، يقول وليم الصُّوري عن الموارنة: "لم يكن هؤلاء الناس قليلي العدد، وقُدِّروا بأنَّهم أكثر من أربعين ألفاً، وكانوا شعباً قوي البنية، ومُقاتلين شُجعاناً، قدَّموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مراراً مع العدو"(1). وردًّا لجميل الموارنة قيام الفرنج أثناء احتلالهم للساحل الشَّامي "بمنح موارنة لبنان جميع الحُقُوق الكنَسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الرُّومانيَّة الكاثوليكية"(2). ويُقال إن عدداً من موارنة لبنان قد شاركوا الملك الفرنسي لويس التَّاسع في حملته على مصر، وكانت جُمُوع منهم في استقباله أثناء عودته إلى عكًا من الأسر، "وأرسل لهم لويس خطاباً خاصًا يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له"(3). كما ارتفعت في ذلك الوقت أصوات كثيرة في أُورُوبة تُطالب بضمً الموارنة باعتبارهم جُزءاً من العالم المسيحي الغربي (4).

اليهُود

في العصر الأيُّوبي كانت تُوجد جالية بسيطة من اليهُ ود مُوزَّعة على المُدُن الكُبْرَى في المهالك الأيُّوبيَّة (5)، وهي تتألَّف من مجموعات صغيرة تتوزَّع في كلّ مكان تقريباً؛ وخاصَّة في المُدُن، وذلك وُفقاً لإحساء بنيامين التطيلي لأعداد اليهُ وو في مناطق الشَّام ومصر (6)، ويتَّضح من ما ذكره بنيامين أن اليهُ ود غير موجُودين ـ تقريباً ـ في فلسطين والساحل الجنوبي للبحر المُتوسِّط، فأعدادهم في القُدْس 200 شخص، وفي عكاً 200 أيضاً (7)، وعاً يُلاحَظ أنَّه من الساحل ونحو الداخل تبدأ بالازدياد أعداد السُّكَان اليهُود، لنُلاحظ كثافة نسبية في دمشق 3000 ثلاثة آلاف شخص، وفي حلب ألف وخسائة شخص (8)، وكُلَّما توغَلنا شرقاً نحو العراق وفارس ارتفعت هذه الأعداد.

<sup>1 -</sup> تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7/ 444. 2 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّى، 2/ 262.

<sup>3-</sup>العُدوان الصليبي على مصر ، جوزيف نسيم يُوسُف، 67 -86.

<sup>4 -</sup> استرداد الأرضُّ المُقدُّسَة، بيير دوبوا، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 37 / 144.

<sup>5 -</sup> من التاريخ الشَّامي ، شاكر مُصطفى، 117.

<sup>6 -</sup> زار اليهوديُّ الأندلسي بنيامين بن بونة التطلي بلادَ الشَّام ما بين عام 561 ـ 569هـ/ 1165 - 1173م.

<sup>7-</sup>رحلة بنيامين، 92، ولا ندري هل هذا النقص بأعداد اليهود له علاقة بابتعادهم عن مناطق الحُرُوب، فمعظم اليهود على وحرفيون، وأعالهم لا تزدهر إلا في مناطق يسود فيها السلام، أو أن لهذا النقص علاقة بإساءة الفرنجة لهم، وتسخيرهم للقيام بالأعال الشاقة مع الأسرى (كلستان، سعدي الشيرازي، 144)، أو أن اليهود ابتعدوا تاريخياً عسن القُدس وفلسطين مُنذُ الفتح العَرَبي لها وُفقاً لنص العُهدة العُمَرية التي أعطاها عمر بن الخطّاب لبطريرك القُدس عند تسليمها، والتي تنصُّ: "ولا يسكن بإلياء معهم أحد من اليهود". (تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، الطبري، 3/ 609). 8-رحلة بنيامين التطلي، 122.

<sup>1 -</sup> الشُّرْق والغَرْب، كلود كإهن، 115.

<sup>2 -</sup> يذكر سعدي الشيرازي أنَّه عندما أسره الفرنج قُرب القُدْس، ساقوه إلى طرابلس، وأجبروه على العمل مع اليهُود في خَفْر خندقها. ( روضة الورد، سعدي الشيرازي، 114).

<sup>3 -</sup> الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 30.

<sup>4 -</sup> لم يذكر الْمُؤرِّخُون ولا الرَّحَّالة المُسلمون مثل ابن بطُّوطة وابن جُبَيْر شيئاً عن اليهُـود في القُـدْس، أو في فلسطين في عصر الدولة الأيُّوبيَّة، إنَّما يتحِدَّث ابن جُبَيْر عن مجموعة من اليهُود السامرة في مدينة نابلس ( الرحلة، 272 ).

<sup>5 -</sup> كلود كاهن، الشَّرْق والغَرْب، 115.

<sup>6 -</sup> جولات ورحلات، فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهِيِل زَكَّار، 43/ 1195.

<sup>7 -</sup> وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، منَّ الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 44/ 24.

<sup>8 -</sup> وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 352.

#### طائفة العاميّة:

تكاد تكون المعلومات نادرة عن وضع العامَّة في المالك الأيُّوبيَّة، ولكنَّنا نعرف أن هذه الطبقة كانت تضمُّ فنات واسعة من المُجتمع: جُنُود، حرَفيين، زراع، صغار التُّجَّار، والمُوظَّفين، وهـؤلاء هُم دافعو الضرائب، ومُجنَّدو السُّخرة، وهم أوَّل مَنْ تُصيبه النكبات. وكانت حياتهم - في تلك الأيَّام -في غاية القسوة، خاصَّة في أيَّام الحُرُوب والحصار. وكان مُعظم أفراد طبقة العامَّة يعملون حرفيين في محلاتهم، أو أُجَرَاء لدى الغير، كما كان قسم آخر من السُّكَّان يخرج يومياً من المُدُن للتجارة التبادلية مع القرى القريبة، أو للعمل الزراعي في بساتين المُذُن، أو كُرُومها.

وكانت هُناك طبقة تلحق ـ عادةً ـ بطبقة العامَّة، لكنَّها تتميَّز عنها، وهي:

طائفة العبيد: ويبدو أن هذه الفئة كانت محدودة جدًّا في المملك الأبُّوبيَّة، فمُعظم العامَّة كانوا من صغار الكَسَبَة والعُمَّال، وجُلُّهم من الفقراء، وهم يعجزون عن إعالة العبيد والإماء، فبقي من تجارة العبيد. أمَّا أسرى الفرنج؛ فلم يكن يصيبهم الرَّقُّ غالباً، فقد اعتُبروا أسرى حرب، كان يتمُّ

شهد العصر الأيُّوبي اضمحلالاً شديداً لدور السُّكَّان المحلِّيِّين في الحياة العامَّة بـشكل عـامٌّ، وبتأثيرهم بالعلاقات الخارجيَّة بشكل خاصٌّ، فتوالي الغُزاة والمصائب عليهم، وظُلم الحُكَّام وتجبُّرهم، سلبهم جُزءاً كبيراً من شعورهم الوطني، وأوهن عزائمهم، فاتَّصفت مواقفهم - بشكل عامِّ - بالسلبية، واللامُبالاة (2). وبلغ الأمر ببعض ضعاف النُّفُوس حَدَّ الانضهام إلى الفرنج في هجهاتهم على إخوانهم من المُسلمين<sup>(3)</sup>.

من ظُلم واستغلال وجشع الحُكَّام، وقسوة الضرائب والسّخرة.

بسط يدهم بأموال الشعب، فتفنَّنوا في استخلاص الأموال من الناس(2).

ومن أهمِّ ما يُلاحَظ في العصر الأيُّوبي غياب الننظيات الشَّعْبيَّة المحلِّيَّة التي نشطت وتشعَّبت

فالمدور المتعاظم لتنظيبات الأحمداث في دمشق وصور في العصر الفاطمي وفي حلب

في العُصُور السابقة، فلم نعد نسمع بأيِّ دور فاعل لتنظيات الأحداث، التي كانت سابقاً قد بلغت

شأواً عظيهاً، ويبدو أن هذا الغياب كان بسبب وُجُود دولة مركزية قويَّة كان حُكْمها مُباشراً من خلال

ملك يتربَّع على العرش في كلّ مدينة من مُدُن الشَّام، كما أن قُوَّات الدولة النَّظاميَّة قـد حلَّت مكان

السلجوقية زمن الملك رضوان، قد انتهى، ورافق ذلك هُـدُوء شعبي داخلي، واستقرار اقتصادي

ومعاشي قد نراه لا يتناسب \_ نظرياً \_ مع مرحلة الحُرُوب والفتَن التي شهدها ذلك العصر، فكانت

الحالة في مصر والشَّام \_ بالرَّغم من الفتَن والمجاعات وانعدام الأمن \_ أشبه ما تكون باستسلام شعبي

كامل، فلم تُسجَّل أية ثورة داخلية، أو حتَّى أيّ تحرُّك شعبي مُؤثِّر، مع كلّ ما كانت تتعرَّض له العامّة

والإجماع الشَّعْبي عليه ضدَّ الفرنجة أوَّلاً، ثُمَّ ضدَّ التَّتَار ثانياً؟ أم إلى طبيعة الحياة الجديدة الاجتماعيَّة

والاقتصاديَّة التي فرضها النظام العسكري الإقطاعي؟ فلم يعد هُناك بطَّالون يدورون في الأزقَّة

\_ غالباً \_ ما يندلع القتال بين سُكَّان الأحياء (1)، وهذا ممَّا فتَّت قُوَّة الله دُن السَّعْبيَّة، وأطمع المُلُوك في

بالأحداث السِّياسيَّة والعسكريَّة، فعند الحاجة كان المُلُوك من بني أيُّوب يلجئون للعامَّة،

ويستنجدون بهم لنصرتهم في حُرُوبهم ضدَّ بعضهم البعض، فقد قام أهل دمشق مع النَّاصر داود

لالتقاط عيشهم، وهم عادةً عهاد الشغب والفتَن، وكانوا قوام تنظيم الأحداث والفتيان.

وبدا كأن الرُّوح المعنوية للشعب قد ماتت تماماً، ولا ندري هل كان مردُّ ذلك إلى حالة الجهاد

إضافة إلى ذلك؛ فتنظيات الأحياء الشُّعْبيَّة الجديدة حصرت الفتن بين أهل الأحياء، فكان

ولكنْ؛ مع كُلِّ ذلك الأبدُّ أن نُسجِّل بعض الأحداث المُتفرِّقة التي شارك فيها العامَّة

التنظيات الشَّعْبيَّة، التي تظهر - عادةً - في غياب سُلطة قويَّة ذات تنظيم عسكري وإداري فاعل.

امتلاكهم وقفاً على الأغنياء القلَّة في المُجتمع الأيُّوبي، وعلى الأُسرة الحاكمة. ويجدر الإشارة إلى نقص موار العبيد في الشَّام عموماً في ذلك العصر بسبب الحُرُوب مع الفرنجة، التي حدَّت \_ بـشكل كبـير \_

سجنهم لحين تبادل الأسرى(1).

1 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 331.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 758، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 391 ـ 349.

<sup>1 -</sup> ذَيْل الرَّوضَيِّين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 178.

<sup>2 -</sup> العلاقات بين العَرَب والفرنج، زكي نقَّاش، 78. 3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 420.

## المبحث الثَّاني:

# دور رجال الدِّين في العلاقات السِّياسيَّة

في ظلِّ حُكم الأُسرة الأيُّوبيَّة، التي كانت تحرص على صفتها الإسلاميَّة، لم يكن لرجال الـدِّين دور بارز في الأُمُور العامَّة، ومُجرياتها، وعلى العكس من ذلك، كان لهم تأثير كبير على طبقة العامَّة.

وكان رجال الدِّين من فُقهاء وقُضاة يحظون بِرِضا المُلُوك الأَيُّوبيَّة طالما اكتفوا بالوعظ الدِّيني، ويحصلون على المناصب والأموال إنْ قاموا بمُباركة أفعال المُلُوك، وتبرير ما يرتكبون من مُخالفات للشرع وللمصلحة العامَّة. لكنْ؛ في كثير من الحالات التي تصدّوا فيها لظُلم بني أيُّوب كانت الويلات والمصائب تحلُّ بهم، وأقلّها العَزْل من المناصب الدِّينيَّة، التي كانت تعني المال والجاه.

وكان الْلُوك الأيُّوبيُّون حريصين على إظهار اهتهامهم بالدِّين ورجاله، كحُنضُورهم مجالس الوعظ والإرشاد، التي يعقدها كبار العُلهاء، فقد حضر الملك المُعظَّم صاحب دمشق عام 600 هـ 1204 "مجلس الحافظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدسي الجهاعيلي بجامع دمشق"(1) كذلك حضر المُعظَّم درس القاضي جمال الدِّين المصري(2) مُدرِّس المدرسة العادلية بدمشق، ومعه أركان دولته من القُضاة والفُقهاء(3)، وهذا يدلُّ على حرص المُعظَّم وغيره من المُلُوك الأيُّوبيَّة على على على العلم، واهتهامهم بالعُلهاء. وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يُحبُّ الشَّيخ عبد الله اليُونيني أسد الشَّام، وكان يزوره، "وكان الشَّيخ يُهينه، فها قام له يوماً قطُّ، وكان يقول له: يا مجيد؛ أنت تظلم، وتفعل، وتصنع، وهُو يعتذر إليه"(4).

عندما حاصره أعهامه الأشرف والكامل عام 626 هــ1229م، وخرج أهل البلد مع العَسْكَر، وحاربوا (1). وعندما تعرَّض الملك الصَّالح إسهاعيل للحصار بدمشق عام 634 هــ 1237م، خرج بفرقة من العامَّة يُسمِّيهم ابن العهاد الحنبلي: الحرافشة (2).

وفي عام 659 هـ عندما توجّه التّتار نحو حماة، "أراد ملكها المنصُور مُحمَّد الرحيل إلى دمشق، فمنعته العامَّة من ذلك، حتَّى استوثقوا منه أنَّه يعود إليهم عن قريب "(3). إن كلَّ هـذه الأدوار البطولية للعامَّة لم تُسفر عن أيِّ نتائج سياسيَّة، أو عسكريَّة، فالملك الصَّالح ترك دمشق، والنَّاصر داود سلَّمها للأشرف، وكذلك ملك حماة لم يقف بتراجعه أمام التّتار، حتَّى دخل مصر، وترك حماة لمصيرها مع التّتار، عمَّ يجعلنا نستنتج عدم فعالية العامَّة، أو حتَّى عدم وُجُود أيّ تأثير لهم في العلاقات السياسيَّة والعسكريَّة في العصر الأيُّوبي، وذلك لعدم خُضُوعهم لأيّ شكل من التنظيم.

<sup>1 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 93. راجع ترجمة الحافظ في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 46.

<sup>2 -</sup> هُو القاضي جمال الدِّين أبو الفضائل يُونُس بن بدران بن فيروز الشافعي المعروف بالمصري، استقل بقضاء دمشق عام 619 هـ. وصار يُدعى قاضي التُضاة، تُوفِي عام 622 هـ.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَيَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 256. راجعْ ترجمة جمال الدِّين في ذَيْـل الرَّوضَيَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 258. ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 171. 4 - ذَيْل الرَّوضَيَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 241.

<sup>1</sup> ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.

<sup>2</sup> ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 318.

<sup>3</sup> ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 441.

وعندما ضرب الملكُ العادلُ القراطيسَ بدمشق، قال الشَّيخ عبد الله اليونيني: "انظروا إلى هذا الشَّيخ الفاعل الصانع يُفسد على الناس مُعاملاتهم، وبلغ العادل، فأبطلها"(1).

وكان لابن الجوزي مكانة رفيعة بين عُلماء دمشق، وتربطه علاقات جيِّدة مع أبناء الملك العادل، وخاصَّة الملك الأشرف والملك المُعظَّم، لكنَّ علاقته بالأشرف فسدت، عندما سلَّم الملكُ الكاملُ مدينة القُدْس إلى الإمبراطُور فريدريك، فعدَّ ابن الجوزي ذلك خيانةً، وألَّب الناس على فعلة الكامل، وحرَّضهم بخطبة بليغة في جامع دمشق؛ افتتحها بقوله: "أحسنَ الله عزاءَ المُؤمنين، يا خَجلة مُلُوك المُسلمين"، ثُمَّ أفتى بشرعية قتال الكامل والأشرف بسبب هذا العمل (2).

وفي عام 607 هـ 1210م، عندما خاف المُلُوك والأُمراء من سطوة الفرنج، بلغ من قُوَّة رجال الدِّين أنَّ سبط ابن الجوزي قام بجَمْع حملة شعبية من مُسلَّحي العوامِّ ومُتطوِّعة المُجاهدين في دمشق وما حولها، وقادهم نحو مناطق سيطرة الفرنج في فلسطين، عمَّا اضطرُّ الملك المُعظَّم صاحب دمشق للخُرُوج بجُنده، ودعمهم في غزوتهم، حتَّى دخلوا بلاد الفرنج، فأسروا، وقتلوا، وأقاموا أيّاماً، ولم يجرؤ الفرنج على التصدِّي لهم، ثمَّ عادوا (3). وفي عام 638 هـ 1241م، عندما سلَّم الصَّالح ولم يجرؤ الفرنج على التصدِّي لهم، ثمَّ عادوا (3). وفي عام 638 هـ 1241م، عندما سلَّم الصَّالح أيُّوب اساعيلُ صاحبُ دمشق حصنَ شقيف أرنون وصفد للفرنج، مُقابل تحالفهم معه ضدَّ الصَّالح أيُّوب صاحب مصر، تصدَّى له الشَّيخ عزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام، خطيب جامع دمشق الشافعي، وسانده الشَّيخ جمال الدِّين أبو عمر بن الحاجب المالكي، فأنكرا على الصَّالح فعلتَه، وبسطا لسانَيْها فيه، وأكثرا من التشنيع عليه، فغضب عليها، ففارقا دمشق (4).

#### الدِّين والسياسة:

كان الأيُّوبيُّون رجال دولة ورجال حرب، تولّوا القيادات العسكريَّة والإدارية هُم وأُسرهم وأُسرهم والرباؤهم ومماليكهم، لكنَّهم ابتعدوا عن مُباشرة الوظائف التي لها صفة دينيَّة، كالقضاء والإفتاء والتدريس والخطابة ومشيخة الشُّيُّوخ. واعتمد المُلُوك والأُمراء \_بشكل كامل \_على رجال الدِّين من

فُقهاء وتُضاة في تولِّي المهام الدّبلُوماسيَّة للمالك الأيُّوبيَّة، فكانوا المُفاوضين والرُّسُل والسُّفراء

والوسطاء، وذلك لشُعُور القادة الآيُّوبيِّين الأوائل بغُربة لُغوية وثقافية تُعيقهم عن هذه الأعمال،

وكذلك لإحساسهم بقُصُور المُحاربين عن الدهاء السِّياسي.

وقد انفرد شُيُوخ بعض المذاهب الإسلاميَّة بمواقف سياسيَّة مع هذا الملك ضدَّ ذاك، فمن المعروف أن الحنابلة بدمشق قاموا بفتح باب السلامة لجُيُوش الملك الأفضل والملك العزيز المُحاصرين للملك العادل فيها عام 635 هـ 1238م(1).

ولعظيم تأثير الفُقهاء والقُضاة بالعامَّة، فقد كان من المُتوقَّع أن يتولّوا الدفاع عن هذه الطبقة، لكنَّنا لم نلحظ لهم أيَّ موقف من هذا، وكُلّ المواقف التي سُجِّلَتُ للفُقهاء في معارضة المُلُوك الأيُّوبيَّة هي مواقف تجاوز فيها المُلُوك حَدَّ الشرع، وانتهكوا حُرماته. فعندما سلَّم الملكُ الكاملُ البيتَ المُقدَّسَ إلى فريدريك لم يتصدَّ للتشنيع على هذه الفعلة إلَّا فُقهاء دمشق، لأن ملكها النَّاصر داود كان مُعاديلًا للكامل، "فجلس الحافظ شمس الدِّين سبط ابن الجوزي بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المَقدس"، فاحتشد الناس، وعلت أصواتهم بالصراخ والبكاء (2).

ولكنْ؛ يُسجَّل للشيخ عزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام موقفه من الملك الصَّالح إساعيل صاحب دمشق، الذي سمح للفرنج بدُخُول دمشق، وشراء السلاح منها، ليدعموه في حربه ضدَّ الصَّالح أيُّوب، فقام الشَّيخ عزّ الدِّين، وأفتى في جامع دمشق بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع خطبة الصَّالح، فها كان من الصَّالح إلَّا أن عزله من خطبة الجامع، واعتقله (3).

ولكنَّ الأجيال اللاحقة للأسرة الأثيوبيَّة تمكَّنت من تجاوز كلّ ذلك، فبرعوا في الفقه والحديث واللَّغة والشعر، وظهر منهم ساسة مُعنَّكون، لكنَّ رجال الدِّين كانوا قد سيطروا على بعض المناصب الدِّبلُوماسيَّة، واختصّوا بها كالرُّسُل والسِّفارات. وكانت هذه فُرصة ليحظى بهذه الوظائف الأكفَّاء من أهل البلاد.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 141.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.

<sup>3-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 302، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار 20/ 334.

<sup>1-</sup>ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار 20 / 241.

<sup>2 -</sup> النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. شُهبل زَكَّار 15/ 7\_6.

<sup>3 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 20/ 135.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 202 وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 20/ 334.

بالخوارزميَّة، وتمكَّن بدهائه من إقناعهم لتأييد الصَّالح أيُّوب، فقدموا معه، وفكّوا الحصار عن الصَّالح بسنجار، وهاجموا لُؤلُؤاً، ونهبوا جيشه، وهزموه، "وقلَّد \_بذلك \_الملكَ الصَّالح منَّة عظيمة، كانت سبب سعادته لمَّا مَلَكَ الصَّالح مصرَ "(1).

ولكن أشهر قُضاة العصر الأيُّوي بلا مُنازع كان ابن شدَّاد (2)، الذي بدأ عهده مع السَّلطان صلاح الدِّين، فكان قاضي العَسْكَر، وبعد وفاة السُّلطان، التحق ابن شدَّاد بالظاهر غازي بن صلاح الدِّين، وعاش عنده في حلب، وعندما قدم ابن شدَّاد على الملك الظَّاهر في حلب، "ولاه قضاءها، ووُقُوفها، وحلَّ عنده في رُتبة الوزارة والمشورة" (3). وبعد وفاته؛ كان مع ابنه العزيز بن الظَّاهر، "عُترماً مُكرَّماً مُتولِّياً الحُكْمَ في جميع عمالك حلب" (4).

وكان لمنصب القاضي من المكانة السياسيَّة والرفعة الاجتماعيَّة، وارتفاع الدخل ما جعله حلماً يتطاول إليه أكابر الأعيان، فبعد وفاة القاضي الفاضل ابن شدَّاد "كان كمال الدِّين عَمر بن العجمي، وهُو من أكابر حلب وأعيانها، متطاولاً إلى منصب القضاء، فبذل للعزيز ستِّين ألف درهم، وكُلِّ سنة خسين ألف درهم" (6).

ولكنْ؛ لم تكن حياة القُضاة كُلّها سعادة ورفعة، فقد واجه بعض القُضاة مُشكلات حقيقيَّة مع المُلُوك، ففي عام 629 هـ 1232م، قبض الملك الأشرف على القُضاة بدمشق، وصادر منهم أموالاً عظيمة (6).

إن هذا النوع من رجال الدِّين المُواجهين للباطل، المُتصدِّين لتجاوزات المُلُوك، لم يكن مرغوباً فيه، رغم ندرته في ذلك العصر. فالمُلُوك كانوا يرغبون في رجال ديس لا يهتمُّون بالسياسة، لذلك انصرف الأيُّوبيُّون لتشجيع شُيُّوخ الطُّرُق الصُّوفيَّة، وبناء الخوانق، والزوايا لهم، فهم لا يتدخَّلون في شُوُّون الحياة الدُّنيا، ويتفرَّغون للعبادة والتقشُّف، فغدت الشَّام في العصر الأيُّوبي مملكة الصُّوفيَّة (1).

### دور القُضاة:

كان القاضي في المالك الأيُّوبيَّة من كبار مُوظَّفي الدولة، وأعمدتها، ولذلك كان احتكاك القُضاة بالمُلُوك الأيُّوبيَّة أمراً مُحتَّاً، بل وشبه يومي، وتباينت العلاقة بينها سلباً وإيجاباً، فكان يحظى للقُضاة بلك المحبَّة ودعم الملك الأيُّوبي، فيقوى مركزه، وقد تزداد ثقة الملك به، فيُرسله في سفاراته، وكانت السفارات كلّها من نصيب القُضاة تقريباً، وذلك لعلمهم، وإمكانياتهم الشخصية، واختلاطهم بالحُكَّام والمُلُوك، فامتلكوا ميِّزات أهَّلتُهُم لهذا العمل الدبلوماسي الكبير الأُمنيَّة للمملكة وللملك، وبرز منهم قُضاة ترسَّلوا في سفارات كانت ذات أثر بارز في العلاقات بين الدُّول الأيُّوبيَّة، وبينها وبين الدُّول الأُخرى.

ونستطيع أن نعد القاضي بدر الدِّين يُوسُف بن الحَسَن الزرزاري من القُضاة المُقرَّبين من المُلُوك الأَيُّوبيَّة، فقد اتَّصل بالملك الأشرف، الذي نقله إلى قضاء بعلبك، بعد أخذه لدمشق عام 635 هـ الأيُّوبيَّة، فقد اتَّصل بالملك الأشرف، الذي نقله إلى قضاء بعلبك، بعد أخذه لدمشق عام 635 هـ 1238م، "وكان يسلك من التجمُّل وكثرة الماليك والدوابِّ وحُسْن الرِّيِّ ما لم يسلكه وُزراء الماليك الكبار"(2).

وفي عام 629 هـ 1232م قدم قاضي الرقَّة على السُّلطان الكامل، وذكر لـ ه ظُلـم الملـك الجـواد لأهلها، فرفع الكاملُ يدَ الجواد عنها، وسلَّمها إليه (3).

وفي سنجار؛ استطاع القاضي بدر الدِّين أن يحصل على ثقة الملك المصَّالح أيُّوب عندما كان في الجزيرة، فولاه قضاء سنجار، واعتمد عليه، فأدَّى القاضي إلى أيُّوب خدمة العُمر؛ إذْ إنَّ عندما حاصر الملك الرحيم لُؤلُؤ سنجار حلق القاضي لحيته، وتدلَّى من السُّور، واجتاز المحاصِرين، ولحق

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187.

<sup>2 -</sup> القاضي إبن شدَّاد: بهاء الدِّين أبو المحاسن يُوسُف بن رافع بن تميم، تُوفِّي بحلب عام 32 6 هـ.

<sup>3-</sup>زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 603.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 89.

<sup>5</sup> ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 92.

<sup>6 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 123، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 172.

<sup>1-</sup>ابن جُبَيْر، الرحلة، 256.

<sup>2 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 244.

# المبحث الثّالث:

# دور المرأة في العلاقات السيّاسيّة

لم يكن للنساء المُسلمات في عصر الحُرُوب مع الفرنجة أيّ دور عسكري، وبالتَّالي؛ لم يكن لهـنَّ دور سياسي يُذكر. وبشكل عامٌّ؛ فإنَّه لم يكن للمرأة في هذا المُجتمع أيُّ دور في الحياة العامَّة، حتَّى وإن كانت من بنات الأُسرة الأيُّوبيَّة الحاكمة، ونادراً ما كانت تُعرَف إحدى النساء، فإن حصل هذا، فبعلم حصَّلتُهُ، أو بفضل قدَّمتُهُ.

وإذا استثنينا بعض صفقات الزواج السّياسي ما بين أميرات وأُمراء الأسرات الحاكمة، والتي لم يكن للزوجات رأي فيها، فإنَّنا نجد أنَّه قد برزت بعض الحالات التي تستحقّ الوُّقُوف عندها في هذا المجال، فقد كان يتمُّ استخدام بعض نساء الأُسرة الأيُّوبيَّة في استعطاف الملك المُتصر لتخفيف وقع الهزيمة على قريب له، أو للخُصُول على بعض المكاسب الإضافيَّة من ملك لآخر، وهذه العادة، مع أنَّها كانت شائعة، وتعدَّدت حالاتها، ولكنَّ؛ نادراً ما كان يُجاب طلب النسوة، أو يُقبل توسُّلهنَّ، وغالباً ما كُنَّ يُردُّنَّ خائبات. ويبدو أن عادة شفاعة النساء كانت عادة تُركية قديمة، أخذها الأيُّوبيُّون عن الأتابكة الزنكيين، فعندما حاصر السُّلطان صلاح الدِّين المُوصل خرجت إليه نساء البيت الأتابكي، ومعهم بنت نُور اللِّين يستشفعنَ لفكِّ حصاره عن المَوصل، فردَّهنَّ صلاح اللِّين خائبات<sup>(1)</sup>. ولم يطل الأمر، فبعد وفاة صلاح الدِّين انتزع أخوه الملك العادل مملكة دمشق من الأفضل بن صلاح الدِّين، ونفاه إلى الجزيرة، فأرسل الأفضل والدته عام 599 هـ 1203م، إلى عمَّـ العادل، لتشفع له، ليُبقي عليه العادل بعض البلاد، فلم يُجبها (2)، ويُعلِّق ابن كثير على ذلك قائلاً: "عُوقب البيت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم لمَّا خرجت إليه نساء البيت الأتابكي وبنت نُور اللِّين، فَرَدَّهُنَّ، فجرى ذلك لابنه"(<sup>(3)</sup>.

أمًّا في مجال الحُكْم والسياسة؛ فكانت النساء الأيُّوبيات بعيدات عنها تماماً، على عادة ذلك الزَّمان، ولكن هذا لم يمنع من ظُهُ ور علامات فارقة بينهنَّ، مثل: ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل، التي تمكَّنت من حُكْم حلب لفترة طويلة وصيَّة على حفيدها النَّاصر. ومع أنَّه يُفترَض أن كثيرات من بنات المُلُوك الأيُّوبيَّة كُنَّ في أوضاع أُسرية تُتيح لهنَّ مُمارسة السِّياسيَّة لو كُنَّ قد أُعْدِدن لها، فالسُّلطان صلاح الدِّين خلَّف سبعة عشر ولداً ذَكَراً، ولم يُخلِّف سوى بنت واحدة هي مُؤنسة خماتون، تزوَّجهما ابن عمّها الملك الكامل بن العادل(3)، ويبدو أنَّها كانت من بين أصغر أولاده، ولم نسمع أنَّها قامت بأيِّ دور سياسي، أو حتَّى اجتماعي، لا في مملكة أبيها، ولا في مملكة زوجها، مع أنَّها ابنة سُلطان، وزوجة سُلطان. كذلك كان للملك الأشرف ابن العادل ابنة وحيدة هي ملكة خاتون، ولم يكن له أيُّ ابن ذَكر، ولم يُفكِّر الأشرف في إعدادها للحُكم، ولم يخصّها بشيء من ملكه، واكتفى بأنْ أوصى لها بماله، وببعض الأوقاف، ومع وُجُود المال الكثير لدى هذه الأميرة الأيُّوبيَّة، وعيشها في كنف أبيها، الذي هُو من أشهر وأقوى مُلُوك عصره، ومن ثَمَّ؛ لدى زوجَيْهَا: ابن عمّها الملك الجواد يُونُس بن ممدود ابن العادل، الذي بعد أن طلَّقها تزوَّجها ابن عمُّها الآخر المنصُّور بن الصَّالح إسماعيل بن العادل، وهي أمّ ولدّيه (4)، ومع ذلك؛ فلم تقم بأيِّ دور سياسي، أو اجتماعي واضح، عمَّا يدلُّ على عدم تقبل المُلُوك الأبُّوبيَّة لفكرة تسلُّم المرأة لأيِّ عمل سياسي.

وفي عام 635 هـ 1238م، احتلَّ الملكُ الكاملُ دمشقَ إثر موت شقيقه الملك الأشرف، وأخذ يتجهَّز لقصد حمص، "فأرسل إليه صاحبها الملك المُجاهد بنسائه، ودخلنَ على الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك "(1). وعندما انتهت دولة بني أيُّوب، وقامت دولة الماليك بقي الملك المُغيث عُمر بن العادل الثَّاني مُحاصراً في الكَرَك، وكان يخاف من الظَّاهر بيبرس سُلطان الماليك، فأرسل المُغيث والدته في عام 661 هـ 1263م لُلاقاة بيبرس في غزَّة، فاستقبلها، واستعطفتُهُ على ابنها، فوعدها خيراً، وطلب نُزُوله إليه، ولمَّا نزل أعدمه (2).

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 161، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 231.

<sup>2-</sup>زبدة الفكرة، الدُّوادَار، 80 ، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 16.

<sup>3-</sup>مُنتخبات التواريخ، صاحب حماة، 309 ، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 271.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

<sup>1-</sup>الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11/ 512. 2-المُختصر، أبو الفداء، 3/ 104 وزُبَّدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 223.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11/ 512.

تُخاطَب: "بالسّتر العالي الخاتوني" (1)، ولكن تسميتها الشائعة كانت: الصاحبة (2)، وهي اختصار لصاحبة الستر العالي.

ونستطيع القول إن الصاحبة أصبحت حاكمة حلب الفعليَّة، فعندما أشار الملكُ الكاملُ مصاحب مصر بتولية الصَّالح بن الظَّاهر على عسكر حلب، وأرسل إليه خلعة دليل تقديمه له، رفضت الصاحبة تسليمه الخلعة، وأَبْعَدَتُهُ خارج حلب، فقد استشعرت منه خطراً؛ لأنَّه الابن الأكبر لزوجها الملك الظَّاهر، ولم ترضخ لمشيئة أخيها الكامل سُلطان بني أيُّوب وقتها (3). وكذلك لم ترضخ لضغط الجار القوي، كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، الذي سعى ليكون الأفضل بن صلاح اللَّين أتابكاً للملك النَّاصر، وقد أيَّد هذا الرأي عدد كبيرٌ من كبار أُمراء العَسْكر الحلبي (4)، لكنَّ المصاحبة تصدَّت لأُمراء العَسْكر، وشَتتَ شملهم، ولم تلتفت لطلبات سُلطان السلاجقة، ولم ينسَ كيكاوس هذا الرفض لضَيْفَة خَاتُون، لكنَّه أَجَّل أمرها حتَّى تورَّطت في الهُجُوم على هاة عام 635 هـ، فعندما كانت مُعظم عساكر حلب نُحاصر مدينة حماة، أرسل كيكاوس إليها يطلب إقامة الخطبة، وضرب كانت مُعظم عساكر حلب نُحاصر مدينة حماة، أرسل كيكاوس إليها يطلب إقامة الخطبة، وضرب السّكة باسمه، فلم تقبل الصاحبة، وأرادت أن لا تستجيب له، لكنَّ المُستشارين نصحوها بالقبول، فوضعُ حلب العسكري في غاية الخُورة، فلم تشدَّد في رأيها عندما اقتنعت، ووافقت على طلبات كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم (5).

وظهرت رباطة جأش الصاحبة عندما هُزمت جُيُوش حلب أمام فرقة الخَوَارزميَّة، النذين اندفعوا نحو حلب، فتصدَّت الصاحبة لتنظيم عملية الدفاع عن حاضرة ملكها، وأعطت تعليهاتها إلى مُقدَّمي البلد، ووزَّعت عليهم المهامَّ لحفظ الأسوار والأبواب<sup>(6)</sup>. ويبدو أن الصاحبة قد انخرطت في العملية السِّياسيَّة تماماً، وتصرَّفت كملكة حقيقيَّة لملكة حلب، حتَّى إنَّها كانت في الأزمات ثُحلِّف

ولكنَّنا لا نعدم بعض النساء الأيُّوبيات اللواتي لعبنَ أدواراً سياسيَّة، أو اجتماعيَّة، مُتنوِّعة، ومُتفاوتة التأثير لسبب، أو لآخر، وممَّنْ يُشار إليهنَّ في هذا السياق:

### ضَيْفَة خَاتُون بنت الملك العادل(1):

بعد وفاة الملك العزيز بن الظّاهر غازي صاحب حلب عام 634 هـ 1237م، عهد بالملك لولده النّاصر يُوسُف، وكان عمره نحو سبع سنين، فتولّت الوصاية عليه جدّته لأبيه ضَيْفة خَاتُون (2) أمّ الملك العزيز، فكانت المرجع في الأُمُور كلّها (3). ومع أن ضَيْفة خَاتُون حكمت بشكل مُباشر، لكنّها فضّلت أن تكون هُناك واجهة من الرجال مُثارس سُلطتها من خلفهم، فشكّلت ما يُشبه مجلس حُكْم لمملكة حلب، مُؤلّف من الأمير شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني، والأمير عزّ الدِّين عمر بين عمل، ووزير الدولة جمال الدِّين القفطي، إضافة إلى مُتوبِّي القلعة، التي تضمُّ حَزْنَة المملكة، وأموالها (4). وكان الواسطة بين مجلس الحُكْم وضَيْفة خَاتُون، هُمو طواشيها جمال الدولة إقبال الخاتوني، الذي "يحضر بينهم للمُشاورة، فإذا اتَّفقوا على شيء دخل إلى جَدَّة النّاصر، والدة العزيز، وعرّفها ما اتَّفق عليه الجهاعة، فتأذن في فعله "(5). ولم تكتف ضيفة، بالإشارة بفعل الأُمُور واتّخاذ القرار الأخير، بل كانت "العلامات على التواقيع والمُكاتبات إليها وحدها، فهي التي تمضيها بخاتها" (6)، "فكانت الأُمُور كلها منوطة بها" (7). وأُضيفت إلى اسمها الألقاب الرفيعة، فكانت

<sup>1 -</sup>ضَيْفَة خَاتُون: 582 ـ 640 هـ، توفَّيت في قلعة حلب، ودُفنت فيها تجاه الصّفة التي دُفن فيها ولدها الملـك العزيـز، ولم تُدفَن في التربة التي بَنَتْهَا في منطقة الفردوس خارج باب المقام، وهي من روائع الأبنية الأيُّوبيَّة، وأكبرها، فيها مسجد ورباط . ( أحياء حلِّب وأسواقها، خير الدِّين الأسدي، 299 ).

<sup>2 -</sup> عناً يُلاحَظ هُنا أنَّه عندما تُوفِي زوج ضَيْفَة خَاتُون، للك الظَّاهر غازي، وترك ابنه الصغير مُحمَّد ولياً لعهده، تشكَّل مجلس للوصاية، لم يكن فيه لضيفة وُجُود، وتمَّ تجاهلها تماماً على العادة السائدة، ولكنَّها كانت الشخصية الأقوى والمرجع الأخير في حالة الوصاية على حفيدها، فلهاذا لم تأخذ الدور نفسه في الوصاية على ابنها؟! هل كان ذلك لوُجُود شخصية طَغْريل القويَّة؟! وهُو مُتولِي القلعة والمُتحكِّم بالسلاح والأموال، أم لعدم نُضح ضيفة بها يكفي لتولي هكذا مهام؟! ونحنُ نرجَع الاحتهال الثَّاني.

<sup>3-</sup>الْمُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.

<sup>4 -</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 118.

<sup>5 -</sup> زُبْلَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

<sup>6 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 118.

<sup>1-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 119 ـ 190، 428 ـ 288 ـ

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

<sup>4-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 339.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 284.

بابنته فاطمة خاتون (1)، وفاطمة أمها السّتّ السوداء (2)، وهذه المُصاهرة لا يُمكن أن تكون بعيدة عن تدبير ومآرب السّتّ السوداء، أحبّ زوجات الملك الكامل إلى قلبه.

ويبدو أن السّت السوداء ظلّت تتدخّل في الحياة السّياسيَّة في أيَّام حُكْم ابنها في مصر، كيا كانت تفعل في عهد زوجها الكامل، فعندما أمسك النَّاصر داودُ الصَّالح أيُّوبَ، واعتقله في الكَرَك، وهُو مُنافس ابنها العادل، وكان مُتوجِّها لأخذ مصر منه، عملت والدة العادل وليمة عظيمة، "عمل فيها ألف رأس غنم" (3). وعندما عاد داود، وأطلق الصَّالح أيُّوب من سبجنه، "عظم ذلك على العادل، وعلى والدته" (4). وبمُقابل الدور الفعَّال للسّت السوداء؛ نُلاحظ على العكس من ذلك أن أم الملك الصَّالح أيُّوب، وهي جارية سوداء اسمها ورد المُنى (5)، لم يكن لها أيُّ تأثير على الملك الكامل، وبالتَّالي؛ لم يكن لها أيُّ تأثير على الملك الكامل، وبالتَّالي؛ لم يكن لها أيُّ تأثير على الملك الكامل،

## ستّ الشَّام:

بنت أيُّوب وأُخت السُّلطان صلاح الدِّين، كانت مُتزوِّجة من عُمر بن لاجين، وهُو من رجال دولة السُّلطان صلاح الدِّين، وقد أنجبت له حُسام الدِّين مُحمَّد، الـذي تُوفِي في حياتها. وبعد وفاة زوجها عمر طلبها ابن عمِّها ناصر الدِّين مُحمَّد، وتزوَّجها، فأقامت في حمص حتَّى وفاته. برزت ستُّ الشَّام بالخدمة الاجتهاعيَّة، فقد كانت كثيرة البرِّ والإحسان، بابها ملجأ للقاصدين، ويُعمَل بدارها من أنواع الأدوية كل سنة بألوف الدنانير لتُفرِّقها على الناس، كها بَنَتْ مدرستيَّن بدمشق، وأوقفت عليها أوقافاً كثيرة. تُوفِيَتْ بدمشق عام 616 هـ 1219م، ودُفنَتْ بتُربتها الحسامية (6).

#### غازية خاتون بنت الكامل:

عندما تُوفِي الملك المُظفَّر محمود صاحب حاة عام 642 هـ 1244م، خلفه ابنه المنصُور محمَّد، وله من العُمر عشر سنين، فتولَّت الوصاية عليه والدته غازية خاتون، التي شكَّلت مجلس وصاية مُؤلَّفاً من سيف الدِّين طَغُريل، وشيخ الشُّيُوخ شرف الدِّين بن مُحمَّد، والطواشي مُرشد، والوزير بهاء الدِّين بن التاج، وكان جميعهم يرجعون إليها<sup>(3)</sup>، وحفظت المُلكَ لابنها حتَّى بلغ أشدَّه، فسلَّمتُهُ مقاليدَ الأُمُور، 'وكانت من أحسن الناس سيرة وزُهداً وعبادة ''(4). ثُمَّ توفيت في قلعة حاة عام 656 هـ 1258م.

#### الستّ السوداء:

وتُعرَف ببنت الفقيه نصر  $^{(5)}$ , ويبدو أن السواد اسم فقط، ولا يبدلُّ على سواد بشرتها؛ إذْ لم يُشرُ أحد إلى ذلك، وهي جارية تزوَّجها الملك الكامل، وأنجبت له ابنه العادل الثَّاني أبا بكر  $^{(6)}$ , وكان فا دور كبير في نزع الصَّالح أيُّوب الابن الأكبر للملك الكامل من ولاية العهد، وتولية ابنها العادل مكانه؛ حيثُ سَلْطنَهُ أبوه في حياته عام 630 هـ 1233م، "وكان الكامل يُحبُّه، ويُحبُّ أمَّه حُبَّا زائداً"  $^{(7)}$ . وعندما أرسل الملك العزيز بن الظَّهر صاحب حلب القاضي بهاء الدِّين بين شدَّاد إلى الملك الكامل عام 626 هـ 1229م، يطلب منه أن يُزوِّجه إحدى بناته، وافق الكامل على تزويجه

الناس والمُلُوك المُجاورين "لها ولابن ابنها النَّاصر صلاح الدِّين"، فيحلفون (1). ولم تُسلِّم ضَيْفَة خَاتُون الحُكْمَ لابن ابنها طوال حياتها، فحكمت ستَّ سنوات، واستمرَّت في ملكها حتَّى ماتت عام 640 هـ 1242م، فاستردَّ حفيدُهَا عرشَهُ، وحَكَمَ مُستقلاً، وكان عُمره نحو ثلاث عشرة سنة (2).

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 665.

<sup>2 -</sup> المُحتصر، أبو الفداء، 3/ 142.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 373.

<sup>4 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 166.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180. وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 767/ 7. ويُقال بأنَّها كانت مُولَّدة سمراء، اسمها ورد الندي. (مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 73).

<sup>6 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 119.

<sup>1-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 313.

<sup>3-</sup>المُختَصر، أبو الفداء، 3/ 173.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 196.

<sup>5-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 142.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367.

#### أمة اللطيف:

"الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي" (1)، زوجة الملك الأشرف مُوسى صاحب همص، وهي إحدى شهيرات عمرها بالعلم، فقد "كانت فاضلة، ولها تصانيف" (2)، ومن أثارها مدرسة دار الحديث بدمشق، التي وَقَفَتْهَا على الحنابلة (3). وبعد أن تزوَّجها الأشرف أُخذت منه همص، فسافر بها إلى تلّ باشر والرحبة، فتُوفِّيت مُناك عام 653 هـ 1255م (4). وربعة بأموالها أكثر من علاقته بعلمها، فبعد موتها ظهر لها من الأموال ما يُساوي سِتّهاتة ألف دينار، غير الأملاك والأوقاف (5).

#### المُصاهرات السِّناسيَّة:

يبدو أن عادة التقارب بين الأُسر عن طريق المُصاهرة كانت تُطبَّق ـ أيضاً ـ في عالم السياسة، فكثيراً ما أحكمت العلاقات السياسيَّة بعض الزيجات، وينطبق ذلك داخل تفرُّعات الأُسرة الأيُّوبيَّة، أو بينها وبين الأُسر المالكة التي تربطها بها علاقة تحتاج إلى توطيد، وطالما كان عقد النزواج يبدلُّ على الوُدِّ المُتبادل بين عملكتين، أو يطلبه ملك من ملك أقوى منه ليضمن دعمه، أو ليتقي مطامعه. ولم يكن هُناك شرط مُحدَّد لإتمام المُصاهرة بين البُيُوتات المالكة، وأُمرائها، إلَّا شرط الإسلام، فكل أصهار الأسرة الأيُوبيَّة إلى بُيُوت مالكة أُخرى؛ فكان لا ينطبق عليه هذا الشرط وُفقاً لتعاليم الشرع الإسلامي. فقد قام الملك العادل بالتفاوض مُطوَّلاً مع ينطبق عليه هذا الشرط وُفقاً لتعاليم الشرع الإسلامي. فقد قام الملك العادل بالتفاوض مُطوَّلاً مع ملك إنكلترا ريتشارد من أجل الزواج بأُخته (6). وكذلك تزوَّج الملك الأوحد بن العادل صاحب خلاط ابنة ملك الكرج إيواني، وهي مسيحيَّة، وبعد وفاته؛ تزوَّجها أخوه الملك الأشر ف (7).

# المُصاهرات السيّاسيّة داخل البيت الأيُّوبي:

كان من أشهر المُصاهرات التي جرت بين بُيُوتات الأُسرة الأيُّوبيَّة:

#### المُصاهرة بين العادل والظاهر:

أوثق السُّلطان صلاح الدِّين صلته بأخيه العادل، فزوَّج ابنه الظَّهر غازي من غازية خاتون ابنة العادل<sup>(1)</sup>، ولكن غازية خاتون مالبثت أنْ ماتت، وصادف أنْ ساءت العلاقة بين الظَّاهر غازي وعمّه العادل، وجرت بينها حُرُوب ومُناوشات وحصار بدمشق، ثُمَّ استتبَّ الأمر للعادل، وبرز كأكبر قُوَّة أيُّوبية بعد استيلائه على مصر ودمشق والكرك وبعض الجزيرة، وخاف الظَّهر أن يفعل به عمّه ما فعله بأخيه الأفضل صاحب دمشق، ويسلبه مُلكه، فأرسل يطلب منه المُوادعة، واعترف له بالسَّلطنة، وكإقرار على صفاء النُّفُوس؛ أرسل الظَّاهر قاضي عسكر السُّلطان صلاح الدِّين السَّابق وقاضي حلب الحالي ابن شدَّاد إلى عمّه العادل ليخطب له ابنته ضَيْقة خَاتُون عام 608 هـ، فوافق العادل "وزوَّجها، وزال ما بينها من الإحن" (2).

#### مُصاهرات الملك الكامل:

كان للسُّلطان الملك الكامل عدداً من البنات، كُنَّ مجالاً رحباً لمُناوراته السِّياسيَّة مع مُلُوك وأُمراء آل بيته، وذلك من خلال تزويجهنَّ، أو الوعد بذلك. وكان أوَّل مَنْ طلب وُدَّ الملك الكامل عن طريق مُصاهرته هُو الملك العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، فقد سيَّر القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد إلى الملك الكامل وهُو على حصار دمشق عام 626 هـ 1232م؛ ليطلب منه يد ابنته فاطمة خاتون، فوافق الملك الكامل، وتمَّ عقد النكاح<sup>(3)</sup>.

وبعد أَخْذ الملك الكامل لدمشق من أبن أخيه النَّاصر داود بن المُعظَّم سار إلى حماة، وسلَّمها إلى الملك المُظفَّر، بعد أن نزع أخيه عنها، وانطلق الكامل إلى بلاد الجزيرة، فلحقه المُظفَّر، وطلب منه

<sup>1 -</sup> البداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 182.

<sup>2 -</sup> الدارس، النعيمي، 2/ 63 و87.

<sup>3-</sup>البداية والنِّهاية، أبن كثير، 13/ 182.

<sup>4 -</sup> الدارس، النعيمي، 2/ 63.

<sup>5 -</sup> شفاء القُلُوب، أَحمد الحنبلي، 230. ويذكر الحنبلي أن أمة اللطيف كانت مختصَّة بخدمة ربيعة خاتون بنت أيَّوب، وحصل لها منها أموال عظيمة، ولمَّا توفيت ربيعة عام 643 هـ وقعت أمة اللطيف بالمُصادرة، وحُبست بالقلعة ثـلاث سنين، ثُمَّ أُطلقَتْ، فتزوَّجها الأشرف مُوسى صاحب حمص عام 646 هـ، قُبيل أخذ حمص منه بقليل. راجع : (شفاء القُلُوب، 230).

<sup>6 -</sup> الْفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 13/ 377.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الْكُرُّوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 20/ 131 ـ 146.

<sup>1 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 327.

<sup>-</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 114، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 20/ 632 ـ 633، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 328. 3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 665.

# المُصاهرات الأيُّوبيَّة خارج الأُسرة:

كان أوَّل مَنْ أصهرَ إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة من حُكَّام شهال العراق هُـو مُظفَّر الـدِّين كوكبـوري صاحب إربل، فقد طلب يدَ ربيعة خاتون أُخت السُّلطان صلاح الدِّين، فزُفَّت إليه، وقد أنجبتْ لـه بنتاً، تزوَّجها \_ فيها بعد \_ زنكي بن أرسلان شاه الأتابكي (1). في عام 607 هـ 1210م، طلب صاحب المَوصل الأتابك نُور الدِّين أرسلان شاه بد ابنة الملك العادل، وتزوَّجها (2).

ويبدو أن زواج المُلُوك الأيُّوبيَّة من خارج الأُسرة، وإصهارهم إلى أسر حاكمة أُخرى كان قليلاً جدَّا، أو شبه معدوم، وذلك بسبب سيطرة الأُسرة الأيُّوبيَّة على أغنى المالك، وأقواها. ولكن الخلافات بين مُلُوك البيت الأيُّوبي دفعت ببعضهم للتحالف مع أسر حاكمة أُخرى، وتقوية هذا التحالف بالتزوَّج منهم، كما كان حال الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق، الذي تـزوَّج أُخت ناصر الدِّين أرتق صاحب ماردين عام 620 هـ 1223م (3)، والتزاوج بين الأُسرة الأيُّوبيَّة وبني أرتق يعود إلى عصر السُّلطان صلاح الدِّين، الذي زوَّج ابنة أخيه العادل إلى قُطب الدِّين سقان بـن نُـور الدِّين مُحمَّد صاحب ماردين (4).

ولعدم وُجُود بنات مُؤهَّلات للزواج لدى السُّلطان صلاح الدِّين، عند تأسيسه لدولته، فإنَّه كان يُزوِّج بنات أخيه العادل من أبناء الأسر الحاكمة التي يُريد توثيق الصلة بها، فبعد تزويجه ابنة العادل لصاحب ماردين زوَّج ابنة أُخرى للعادل إلى قيصر شاه بن قليج أرسلان سُلطان سلاجقة الرُّوم، وذلك عندما قدم على السُّلطان عام 587 هـ 1191م. وأنجبت هذه الزوجة لقيصر شاه ابناً أصهر هُو بدوره إلى خاله الملك الأشرف، وكتب له الأشرف عليها بحران عام 629 هـ أصهر مُو بيدو أنَّه مات عنها، أو طلَّقها؛ لأنَّها رافقت أبيها الأشرف إلى دمشق، وتزوَّجت هُناك ابن عمِّها الملك الجواد يُونُس بن محدود.

يد ابنته غازية خاتون (1)، فوافق الكامل، وعقد له (2)، وتبدو هذه المُصاهرة في ظاهرها نبوع من ردِّ الجميل، ولكنَّها في حقيقة الأمر و تأكيداً لأمر المُظفَّر، ودعهاً له بتقرُّبه من سُلطان البيت الأيُّوبي.

أمًّا ابنة الملك الكامل الثَّالثة؛ فهي عاشوراء خاتون، وكان الملك النَّاصر داود قد طلبها من عمّه الكامل، فوافق، وكتب له عليها، وعندما كان الكامل في حملته ضدَّ سلاجقة الرُّوم شعر أن إخوته وآل بيته من بني أيُّوب قد تآمروا عليه، فعاد وقد نقم على داود لاعتقاده بأنَّه كان صاحب دور كبير في تأليبهم عليه، فأجبره على طلاق ابنته، فطلَّقها داود (3). ولمَّا اكتمل تحالف ممالك الشَّام عام كبير في تأليبهم عليه، فأجبره على طلاق ابنته، فطلَّقها داود (ألى ولمَّا اكتمل تحالف ممالك الشَّام عام الملك هـ 1237م ضدَّ الملك الكامل صاحب مصر، بقي النَّاصر داود متأرجحاً بولائه، فحاول الملك الأشرف زعيم حلف الشَّام أن يستميله، فعرض عليه أن يزوِّجه ابنته الوحيدة، وأن يجعله وَليَّ عهده، لكنَّ داود رفض العرض، وذهب إلى مصر، "فَشُرَّ به الكامل، وجدَّد عقده على ابنته عاشوراء، التي طلَّقها منه" (4).

وهكذا يتَّضح أن مُعظم المُصاهرات ضمن الأُسرة الأيُّوبيَّة كانت نابعة من مصالح سياسيَّة وأغراض لمصلحة الأب، أو الزوج، أو كلَيْهما معاً أحياناً.

# المُصاهرة بين بيتي عماة وحلب:

في عام 643 هـ 1246م، أرسل الملكُ المنصُورُ صاحبُ حماة رُسُلَهُ إلى حلب، يطلب العقد على ابنة خالته عائشة خاتون بنت العزيز مُحمَّد بن الظَّاهر (5)، أُخت الملك النَّاصر الشَّاني. وفي عام 645 هـ 1247م، أرسل المنصُور رُسُلَهُ لاصطحاب عروسه إلى حماة، فوصلتها، ومعها أمّها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل (6)، وهذه المُصاهرة هي تقوية لمركز حماة، فمملكة حلب الأيُّوبيَّة هي - الآن - أكبر قُوَّة في الشَّام، وتقوية الأواصر مع بينها الحاكم فيه الكثير من الدعم لمملكة حماة.

<sup>1 -</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 121.

<sup>2 -</sup> ذَيْل الرَّوْضَتَيْن ، أبو شامة ، من الموسوعة الشاملة ، د. شهيل زَكَّار 20/ 147.

<sup>3-</sup>النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 315، والمنصُوري، ابن نظيف، 97.

<sup>4 -</sup> لقد وهم ابن شدَّاد في حديثه عن الملك المسعود رُكن الدِّين مودود بن محمود بن محمَّد بن قرا أرسلان، عندما قال:

<sup>&</sup>quot;كان والله مُزوَّجاً بابنة السُّلطان الملك العادل، فليًّا مات والله أساء إليها". (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 520)، والصحيح أن قُطب الدِّين الذي تزوَّج ابنة العادل هُو عمّه، وليس أباه.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 235

<sup>1 -</sup> غازية: شقيقة المسعود صاحب اليمن، ووالدة المنصور صاحب حماة، وأخيه الأفضل ابن المُظفّر.

<sup>2 -</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 145.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 159.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 357.

<sup>6 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 422، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.

#### المبحث الرَّابع:

سُكَّان المناطق الفرنجيَّة في ساحل الشَّام

لم تكن الحُدُود السِّياسيَّة في الشَّرْق العَرَبي زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة لها أيّ معنى ديني، أو عرْقي، حتَّى إنَّه لم يكن هُناك خطِّ حُدُود واضح، أو محدّد على الأرض، وعلى العموم؛ كان الفرنج \_ في خالبية أيَّامهم \_ محصورين في شريط ساحلي ضيِّق ومُتقطِّع أحياناً.

كما أن الفرنج لم يُشكِّلوا في مناطقهم أكثرية سُكَّانية، فقد كان مُعظم السُّكَّان من المُسلمين والمسيحيين المحلِّيِّيْن، الذين استمرُّوا في تعاطي أعمالهم السابقة، وخاصَّة زراعة الأرض. بينها عاش الفرنج كسادة إقطاعيين، أو فُرسان مُقاتلين في المُدُن والحُصُون، التي شكَّلت نقاط تحكُّم وسيطرة. فعندما لا تكون لهم قُوَّات في الميدان نراهم يعيشون خلف أسوارهم (1).

كان المُسلمون يُسمّون شريط الساحل الشّامي الطراز الأخضر، وذلك لارتفاع مُعدّل المطاره، وخُصُوبة أرضه (2)، وحتّى ضمن هذا الشريط، فَلَمْ يُكوِّن الفرنجُ دولةً واحدةً، بل انقسموا بعد استيطانهم مُباشرة - إلى وحدات سياسيَّة، فالحملات الفرنجيَّة جمعت جُنُوداً من أُصُول مُختلفة، ظلّت مُتايزة، وأسّست دُولاً مُنفصلة، بل ومُتعارضة المصالح والأهواء في كثير من الأحيان. وصحيح أنَّهم تمتّعوا بوحدة دينيَّة، لكنَّهم كانوا من عناصر قومية وعرْقية شتَّى، لكُلّ منهم لُغته وعاداته، فقد غلب على سُكَّان مملكة القُدْس البرغنديون، وعلى إمارة أنطاكية النورمان، وعلى إمارة طرابلس البرونسيون، وقد انتقلت خلافات المُؤسِّسين إلى أبنائهم، ومن ثَمَّ؛ إلى أحفادهم. ويبدو أن الانقسام والتجزئة بين المُسلمين قد انتقلت بعدوى الجوار إلى الفرنجة، حتَّى إن أُمراء ومُلُوك من المُسلمين ضدَّ حلف مُقابل من فرنجة ومُسلمين.

واستمرَّ سلاجقة الرُّوم في طلب مُصاهرة الأُسرة الآيُوبيَّة، فقد كانت الأسرتان تُشكِّلان أكبر قُوبَيْن في المنطقة، فأرسل غياث الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى ضَيْفَة خَاتُون صاحبة حلب يطلب منها أن تُزوِّجه غازية خاتون بنت الملك العزيز، التي هي أُخت الملك النَّاصر وَلِيَّ العهد، على أن يتزوَّج الملك النَّاصر أُخت غياث الدِّين (1). وفي عام 652 هـ 1254م، تمَّ النزواج. فقدمت ملكة خاتون، بنت كَيْقُبَاذ وأُخت كيخسرو صاحب الرُّوم، إلى زوجها الملك النَّاصر صاحب حلب (2)، وهي ابنة خالة والده العزيز (3)، وبالوقت نفسه وصلت غازية خاتون بنت الملك العزيز عُمَّد إلى بلاد الرُّوم، وتزوَّجها كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم (4).

وعندما استمال الملكُ الـصّالح نجم اللدِّين أيُّوب الخوارزمية، وهُو في الجزيرة أراد ربط الأواصر معهم، فزوَّج مُقدَّمهم بركة خان بأُخته من أمَّه. ولجأ الخوارزميَّة إلى الأُسلُوب نفسه، فعندما خرجوا على أيُّوب، عام 643 هـ 1246م بعد عَلَّكه مصر، كاتبوا عملوكه وقائد جُيُوشه رُكن الدِّين بيرس، واتَّفقوا معه، ولتأكيد الاتِّفاق زوَّجوه منهم. كذلك عندما اتَّصل الخوارزميَّة بالناصر داود بن المُعظَّم صاحب الكرَك، ووافقهم على أن يكون معهم ضدَّ الـصَّالح أيُّوب، ولتأكيد التعاون بينهم زوَّجوه منهم (5).

وبعد أن قامت دولة الماليك بمصر، وقضوا على حُكْم الأيُّوبيَّن فيها، أراد الأمير فارس الدِّين أقطاي الجمدار، أكبر الماليك، وأقواهم، والمُتطلِّع إلى السُّلطة، أن يُصهر إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة، ليدعم مركزه في مصر في صراع قدَّر أنَّه واقع لا محالة من أجل الانفراد بالسَّلطنة، وهكذا زواج سيُؤمِّن له غطاء شرعياً، سيكون مُنافسوه محرومين منه، فطلب يد أُخت الملك المنصُور صاحب حماة، وهي بنت الملك المُظفَّر محمود، وتمَّت المُوافقة، وخرجت العروس من حماة صوب مصر، "ممَّا جعل المُعزّ أيبك مُنافسه على السُّلطة يُعجِّل بقتله"، وعادت العروس إلى حماة (6).

<sup>1 -</sup> فنُّ الحَرْب، سميل، 109 و 108 و109 Milliam of Tyr, p. 486 و109 A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p. 486 و أو الطراز الأخضر، 2 - قال الحريري يصف وضع الشَّام قبل معركة حطِّين: "هذا؛ وسواحل لشام كلّها بيد الفرنج، وهُو الطراز الأخضر، وهُو ما بين جبل لُبنان وبحر الرُّوم". ( الإعلام والتبيين، 97 ).

وقال الوزير العزيزي يُوسُف بن المُجاور يمدح السُّلطان صلاح الدِّين:

هذا الطراز الأخضر استفتحته، فزهي بثوب من عِلاك مسجف ( عُبُون الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 178 ).

ورُوي \_ أيضاً \_ أن أحدهم قال: وسيفتح البيت المُقدَّس بعدما يطوي الطراز، ويقتل قبصرا.

وروي ـ الصاحل المصطفّة على البحر من الداروم جنوباً حتّى بلاد أنطاكية شالاً. ( غُيُون الروضتين، أبو شامة، 2/ 170)

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.

<sup>2 -</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.

<sup>3 -</sup> زُبْكَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.

<sup>4 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 422.

<sup>5 -</sup>السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.

<sup>6 -</sup> ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 58.

جيرانهم، وأعدائهم المُسلمين، فانقسموا إلى إمارات، ودُويلات، وفشات، وطوائف (1)، وقد يكون لطبيعة أرض الشَّام وتباينها الجَغرافي دور مهم في هذا الانقسام بين الفرنجة.

وبتقادم الزمن ظهر جبل فرنجي جديد، له صفات خاصَّة، ورُبَّا كان من أهم ميزاته زوال رُوح التعصُّب الأعمى، الذي ميَّز رجال الحملة الأُولى، ولأن تدنُّق الحُجَّاج المُقاتلين الوافدين من أُورُوبا لم ينقطع، فقد انقسم المُجتمع الفرنجي في الشَّام إلى طبقتيَّن كبيرتَيْن مُتهايزتَيْن (2)، مع وُجُود طبقة صغيرة، لكنَّها كانت واضحة، وهي طبقة الفقراء 3، والتي لم تكن تهتم على الأغلب \_ إلَّا بتأمين قُوبَها، وهي خليط من الطبقتَيْن التاليتين:

1- الوافدون: وهم القادمون الجدد، وغالباً؛ هُم من الحُجَّاج المتأجِّجين بالحاسة الدِّينيَّة، والراغبين في القتال، لكنْ؛ - في الغالب - تكون إقامتهم مُؤقَّتة.

2-البلديون: أو البوليانز، وهم أبناء الجيل النَّاني والنَّالث وما بعدهم، مَّنْ وُلد على أرض الشَّام، وتأثّر بعادات أهلها، وتقاليدهم، وحضارتهم. وقد انتشرت فكرة خاطئة مفادها أن البوليانز هُم أبناء زيجات مُختلطة بين الفرنج والسُّكَّان المحلِّيِّن من مسيحيين ومُسلمين، ولكن ذلك تنفيه إشارات واضحة من مُؤرِّخي الحملات المُعاصرين لها، والتي تؤكِّد بأنَّ البوليانز تحدَّروا من صليبين أصليين، وهم جيل صليبي جديد، وأن تسمية البوليانز مشتقَّة من كلمة فرنسية تعني صغير الحيوان (pullus - Polain)

لقد بلغ الخلاف بين البلديين والوافدين إلى درجة العداء الصريح، فبعد تتويج ملك فرنجي على مملكة القُدُس من الوافدين انتشرت أنشودة تقول:

ولم يكن الانقسام السّياسي للكيانات الفرنجيّة في الشَّرْق هُو الأساس لتوزيع القوى العسكريَّة فيها، فقد كانت الطوائف العسكريَّة مُتعدِّدة ومُتنوِّعة الولاءات، فأيّ مملكة أو إمارة فرنجية لم تكن تُسيطر على كلّ القوى العسكريَّة المُتواجدة على أراضيها، فالملك أو الأمير له قُوَاته الخاصّة، وهُناك قُوَّات أخرى تُقيم على أراضيه بشكل دائم أو مُؤقَّت، فمن القُوَّات الدائمة الطوائف الرُّهبانية المُقاتلة؛ مثل: الاسبتاريَّة، والدَّاويَة، والتَّيُوتُون، وغيرهم.

كذلك كانت تُقيم في المُدُن السَّاحليَّة الكُبْرى الجالبات التَّجاريَّة؛ مثل: البنادقة، والجنوية، والبيازنة، والتي كانت تُشارك في القتال لدعم الفرنجة بشكل فعَّال، لكنَّها كانت مُتصارعة مُتنافسة، بل ومُتحاربة فيها بينها، ولا تخضع لسُلطة البلد اللذي تُقيم فيه، فقد حمتهم الامتيازات والحُقُوق الخاصَّة، التي عالباً عما حصلوا عليها. أمَّا القُوَّات المُؤقَّتة؛ فهم الحُجَّاج المُقاتلون المتدفِّقون فُرادى وجماعات، فقد شكَّلوا قوى عسكريَّة لا يُستهان بها في كثير من الأحيان، لها قادتها، ونُظُمها، واستراتيجيَّتها الخاصَّة، وأهمُّ ميزانهم الحهاسة الدِّينيَّة، والاندفاع للقتال.

كما أن عملكة القُدْس لم يكن لها إلَّا سيادة اسمية على الإمارات الأُخرى، إضافة إلى استقلال طائفتي الدَّاويَة والاسبتاريَّة عن أيّ سُلطة حتَّى سُلطة ملك القُدْس، وانتهائهم إلى البابا مُباشرة، وإعلانهم بأنَّهم لا يخضعون إلَّا لأوامره، وقد أدَّى صراع هاتَيْن الطائفتيْن فيها بينهها (1) وصراعاتها على السيطرة التي بلغت حدَّ الاقتتال الداخلي أحياناً، إلى وُقُوعهما في كثير من الانتكاسات السِّياسيَّة والعسكريَّة، وكانت من عوامل نهاية سيطرتهم في الشَّرْق.

# التقسيمات الاجتماعيَّة للفرنج في سُورية:

عندما وصلت الحملة الفرنجيَّة الأُولى إلى بلاد الشَّام كانت تضمُّ جمعاً واحداً من الناس، وإنْ اختلفت أُصُولهم، لكنَّ أهدافهم واهتهاماتهم واحدة، وبتعاون كبير وانسجام فائق بينهم تمكَّنوا من احتلال مناطق واسعة من بلاد الشَّام، لكنْ؛ ما إنْ أقاموا فيها حتَّى أُصيبوا بعدوى التَّمزُّق من

<sup>1 -</sup> مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار من الموسوعة الشاملة، 1 / 11 \_ حـول الاسـتيطان الفرنجي، راجع: Prawer. Colonization activities in the Latin kingdom of Jerusalem, P.P.: 1063

<sup>2 -</sup> المصدر السَّابق، الصفحات نفسها.

<sup>3 -</sup> المصدر السَّابِق، الصفحات نفسها، كانت تُسمَّى طبقة الفقراء: Tafurs. قارنْ بها كلمة: طفر وطفران باللَّهجة العامِّيَّة في بلاد الشَّام.

<sup>4 -</sup> راجع: دراسة مرغريت مُورغان لذيول وليم الصُّوري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 8/ 239.

<sup>1 -</sup> العلاقات بين العَرَب والفرنج، زكي نقَّاش، 31.

أمًّا عن استشراق الفرنجة البلديين؛ فهُو أمر طبيعي جدًّا، تفرضه طبيعة الحياة في الشَّرْق، فقد استخدموا الأطبَّاء والطبَّاخين والحَدفيين من أهل البلاد، كما لبسوا الثياب الفضفاضة المحليَّة في بُيُونهم، وزيَّنوا قُصُورهم بالفسيفساء والزُّجاج اللُوَّن، وصدحت فيها الأطيار، وتخلَّلتها النوافير، واستخدموا الصابون للنظافة، والسُّكَر للتحلية، واستساغوا الأطباق الشَّرْقيَّة (1)، وأتقن قسم منهم وفيهم بعض الأُمراء اللُّغة العَرَبيَّة، فكانوا يُترجمون بين الوافدين والمُسلمين (2).

ونُلاحظ أن العديد من الصداقات قد عُقدت بين رجال من الفرنج البلديين وبين المُسلمين، ورُبَّا من أشهرها ما تحدَّث عنه أُسامة بن مُنقذ من صداقات له مع أُمراء وفُرسان من الفرنج(3).

ولكن كل ذلك ما كان ليجعل الفرنج البلديين سوريين، أو يُبعدهم عن أورُوبيَّتهم، وما كان استشراق البلديين وصداقاتهم مع أندادهم من المُسلمين إلَّا حوادث فردية وقضايا سطحية (4)، فلا الفرنج امتلكوا الجرأة لينعتقوا من رُوحهم الصَّليبيَّة نهائيَّا، ولا المُسلمين قبلوهم كأمر واقع، أو مُعتمل وُجُوده، بل رفضوهم على الدوام، ولم يعترفوا بوُجُودهم في أيّ حال من الأحوال، وخير مثال هُنا على عدم قبول المُسلمين للفرنجة ـ رغم اضطرارهم للخُضُوع لهم بالقُوَّة أحياناً ـ هُو موقف قاضي مدينة جبلة منصور بن نبيل الذي كان مُقرَّباً لبوهيموند أمير أنطاكية، وعال ثقته، ومع ذلك؛ فها إنْ لاحت قُوَّات صلاح الدِّين على مقربة من مدينته، حتَّى خرج إليه، وساعده على تحريرها، ويقول ابن الأثير مُعلِّلاً موقفه: "فَحَمَلَتُهُ الغَيْرَةُ للدِّين على قَصْد السُّلطان" (5).

ومع كلّ الاتّفاقيات والهُدنات والمُفاوضات والتبادل التّجاري، فقد ظلّت النظرة الإسلاميّة للفرنج على أنّهم غرباء، احتلّوا بلاد المُسلمين، ويجب طردهم، وبالرغم من فترات الضعف التي مرّ بها المُسلمون، إلّا أنّهم - في النتيجة - حصدوا ثار رفضهم، وعدم قبولهم للأمر الواقع، وطردوا الفرنجة نائيّاً من الأرض العَرَبيّة.

"على الرّغم من البلديين لدينا ملك من الوافدين إن هذا البغض وهذا الحقد سيجعلنا نفقد علكة القُدْس "(1).

وقد أحسَّ العَرَب بهذا الانقسام في مُجتمع الفرنجة، فكانوا يُسمُّون الوافدين: الغربا<sup>(2)</sup>، وأحياناً؛ البَحْريين<sup>(3)</sup>، نظراً لقُدُومهم من البحر. ولكن العَرَب المُسلمين لم يستفيدوا مُطلقاً من هذا الانقسام، فلا شيء كان يُوحِّد البلديين والوافدين مثل عداوتهم للمُسلمين.

كذلك كان البلديون يشعرون بحاجتهم الماسّة لقُوّة الوافدين لاستمرار الحَرْب المُقدَّسَة، فالوافدون هُم وقودها، وهذا ما ساعد على استمرار الحياة المُشتركة بينها، وحال دُون حُدُوث انعزال إمارات الفرنج عن أُورُبا نهائيًا، فكُلَّما أحدق الخطر بالإمارات الفرنجيَّة زادت التصاقاً بأُورُبا، ويقيناً بأهميَّة الوافدين.

لذلك؛ عندما تكوَّن مُجتمع فرنجي جديد يضمُّ الأجيال التي وُلدت في سُورية لم ينفصل عن أُورُبا، ولم يندمج في السَّرُق الإسلامي، بل كانت استمرَّت الهُوَة الواسعة بالفصل بينها؛ بحيثُ لا يُمكن لأحد أن يربط بين طرفَيْهَا (4). ورُبَّها كان من مُكرّسات هذا الانفصال بقاء الفرنجة في سُورية طبقة حاكمة، وبقاء مُعظم السُّكَان السوريين مسيحيين ومُسلمين الخاضعين لحُكُم الفرنجة مُتمتّعين بكلِّ مُقوِّمات وُجُودهم من حيثُ اللَّغة، والدِّين، والعادات، وكانت مسألة تبعيتهم إلى الفرنجة مسألة الوقت الذي يحتفظ فيه الفرنجة بقُوَّهم، وبكلَّ بساطة؛ كانت تعود المياه إلى مجاريها بالنَّسبة للسُّكَان عندما يُهزَم الفرنجة، وتنسحب قُوَّاتهم.

Monro, The Kingdom of Crusaders p.p.: 105-120 - 1

<sup>2 -</sup> إبن شدَّاد، النَّوادر السُّلطانيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار 15/ 222+ 198.

<sup>3-</sup>أسامة بن مُنقذ، كتاب الاعتبار، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 12/ 246+240+192.

<sup>4-</sup>فنُّ الحَرْب، سميل، 85.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/7.

<sup>1 -</sup> ذيل وليم الصُّوري، مخطوطة ليون / 828 ( 1184 ـ 1197 )، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الـشاملة، د. سُهيل زَكَّار 8/ 300.

<sup>2-</sup>راجع: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 140.

<sup>3 -</sup> النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 15/ 222.

<sup>4 -</sup> فَنُّ الْحَرْب، سميل، 88.

# المُسلمون تحت حُكْم الفرنجة:

لم يُحاول الفرنجة - بشكل جدِّيِّ - تحويل المُسلمين عن دينهم، مع أنَّهم قد أغلقوا مُعظم المساجد الإسلاميَّة (1)، وظلّت اللَّغة العَرَبيَّة مُتداولة في كُلِّ المناطق الفرنجيَّة، وحتَّى في المُدُن، ولم تترك اللَّغات الأُورُبيَّة - اللاتينيَّة، أو الفرنسيَّة، أو غيرها - أيَّ أثر في السُّكَّان المحلِّيِّيْن، كها أن الموارنة - المذين كانوا أقرب السُّكَّان إلى اللاتين - فقد ظلُّوا يتكلَّمون العَرَبيَّة.

ويبدو أن اللُّغات كانت مُتعدِّدة في مناطق السيادة الفرنجيَّة، ولم تتفوَّق إحداها على الأُخرى، حتَّى إنَّنا نسمع أن الفرنجي كان يحتاج إلى ترجمان في طرابلس<sup>(2)</sup>، وكان كتاب ديوان التجارة في عكًا "يكتبون بالعَرَبيَّة، ويتكلَّمون بها" (3).

وبشكل عامً؛ نستطيع أن نقول إن السُّكَّان المحلِّبِيْن لم يـذوبوا في المُجتمع الفرنجي، وبالوقت نفسه، لم يكن لهم أيّ تأثير في الحياة العامَّة للمهالك الفرنجيَّة، ولا في العلاقات بـين المهالك الأيُّوبيَّة والإمارات الفرنجيَّة (4).

# الفلاحون المُسلمون:

يصف ابن جُبَيْر في رحلته -التي اجتاز فيها بلاد الشّام من دمشق إلى عكّا -حال الفلاحين المُسلمين تحت حُكْم الإقطاعيين الفرنجة، يقول: "رحلنا من تبنين وطريقنا كلّه ضياع مُتَّصلة، وعهائر مُنتظمة، سُكَّانها كُلُها مُسلمون، وهُم مع الإفرنج على حال ترفيه . . . وذلك أنَّهم يُودُّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها، وجزية عن كُلِّ رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير نصف الغلّة عند أوان ضمّها، وجزية عن كُلِّ رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يُؤدُّونها، ومساكنهم بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، وكلّ ما بأيدي الفرنج من المُدُن بساحل الشّام على هذه السبيل، رساتيقهم كلّها للمُسلمين، وهي القرى والضياع . . . ونزلنا ضيعة من ضياع عكّة على مقدار فرسخ، ورثيسها الناظر فيها من

يُعتَقد \_ حتّى الآن \_ بأنَّ الغالبية العُظْمَى من السُّكَان في الإمارات أو المالك الفرنجيّة التي تأسست في سُورية، كانوا من العَرب المسيحيين، أو من المُسلمين، فالفرنجة كانوا \_ بغالبيَّهم \_ فرساناً ومُقاتلين شكَّلوا طبقة حاكمة إقطاعية، كان وُجُود الفلاحين المحلِّيِّيْن ضروريّاً لوُجُودها. وحتَّى في حال توفُّر أعداد من السُّكَان الفرنجة، كما في حالة المُدُن، فوُجُود السُّكَان المحلِّيْن ليقوموا بالأعهال اليومية ضروري، لأن الفرنجة كانوا \_ غالباً \_ مشغولين في الحُرُوب التي تقتضي منهم حشد كلّ طاقاتهم البشرية المُقاتلة. كلّ ذلك دفع الحُكَّام الفرنجة لترك حيِّز واسع من حُرِّيَة العمل، ورُبَّها الإدارة الذاتية، فضلاً عن قيامهم بشعائرهم اللّينيّة، وثمارسة عاداتهم وتقاليدهم بكلّ تسامح. إن هذا التسامح الفرنجي، والجهد الواضح من قبلهم لإقامة علاقات حسنة مع السُّكَان المحليِّيْن، ما إن هذا التسامح الفرنجي، والجهد الواضح من قبلهم لإقامة علاقات حسنة مع السُّكَان المحليِّيْن، ما إماراتهم، وبالتَّالي؛ زيادة مواردهم المالية (1). لكن؛ مع كلّ ذلك ظلَّ السُّكَان المحليُّيُون \_ مُسلمون ومسيحيُّون \_ ينظرون إلى الفرنجة كغُرباء، وقد أظهرت الأحداث أنَّهم حائياً \_ كانوا ينتظرون ميلان ومسيحيُّون \_ ينظرون إلى الفرنجة كغُرباء، وقد أظهرت الأحداث أنَّهم حائياً \_ كانوا ينتظرون ميلان المحليُّي نافوا عُنصُراً اقتصاديًا مُؤمَّراً في دعمه لالله المُؤرب الفرنجيَّة، لكنُ؛ عندما كان يتمكَّن قائد مُسلم من إحسان الاستفادة منهم، فإنَّهم كانوا لمُشكّلون خطراً عُيناً على الفرنج، ولذلك قال عنهم وليم الصُّوري: "ما من عدوً أسوأ من العدوً الموافية.

السُّكَّانِ المحلِّيُّونِ تحت سُلطة الفرنجة:

<sup>1 -</sup> كان الفرنجة يُسمّون المسجد: ماهومري، نسبة إلى النبي مُحمّد (ص)، وحوّلوا الكثير من المساجد في المناطق التي احتلُّوها إلى كنائس، ولكنْ؛ فيها بعد، أُعيد افتتاح بعضها، أو على الأقلّ، مسجد في كُـلِّ مدينة كبيرة لـصلاة الجالية الإسلاميّة التّجاريّة، وبعض السُّكَّان المحلّيّن من المُسلمين.

<sup>2 -</sup> الشُّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 216.

<sup>3-</sup>الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.

<sup>4 -</sup> يصف ابن جُبَيْر علاقة المُسلمين المحلِّيِّن بالفرنجة في منطقتي عكًّا وصور فقط.

<sup>1- 222</sup> Couiton. Medieval Panorama. P: 322 وراجع ما كتبه ابن جُبَيْر الذي زار أراضي الفرنجة ومُدُنهم عام 1184م، الرحلة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 11/ 58.

<sup>2 -</sup> العبارة اللاتينيّة هي:

<sup>&</sup>quot;nulla enim pestis efficacior ad nucen dum quam fam liaris inimicas"
(A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p.109)

ولكنْ؛ لنا أيضاً مُلاحظات على ما ذكره ابن جُبَيْر، منها:

1 - هل كان كُلُّ المُسلمين يلقون المُعاملة نفسها في كُلِّ عمالـك الفرنج؟! يبدو أن هـذا الأمر مشكوك فيه (1).

2- هل ذكر ابن جُبَيْر ما ذكره عن حال الفلاحين المُسلمين لدى الفرنج لتمجيد الفرنج؟ أم لغرض آخر؟ أم لمُجرَّد الذِّكْر؟

في الحقيقة؛ لا يُمكن الجزم بأيِّ جواب، لكنْ؛ بالتَّأكيد، لم يكن ابن جُبَيْر يقصد مدح مُعاملة الفرنج، وليس هُو من السذاجة؛ بحيثُ يُؤكِّد على تلك المعلومات لمُجرَّد ذكْر حَدَث سيخدم الفرنج، الفرنج، وليس هُو التقيّ المُؤمن الداعي للجهاد ضدَّ الفرنج، المُحرِّم للتعامل معه (2).

وعلى الأغلب؛ كانت معلومات ابن جُبَيْر صحيحة في مكانها، لكنّه ذكرها لتنبيه حُكّام السُلمين لحُسن مُعاملة الفلاحين، وعدم فرض الضرائب الباهظة، وليُنبّه لفوائد ذلك على الدولة، وعلى السُّكَان. لذلك؛ يذكر ابن جُبيِّر أن مُعظم الفلاحين المُسلمين في بلاد الفرنجة قد استهواهم عَدْلُ الفرنج، يقول: "وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يُبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المُسلمين، وعُمَّاهم، لأنَّهم على ضدَّ أحواهم من الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المُسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي من جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدَّه وعدوِّه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله "(6).

# المسيحيُّون المحلِّيُّون في إمارات الفرنجة:

لم يتمكَّن الفرنجة من احتواء نصارى المنطقة من عرب وسريان وأرمن وغيرهم، فقد كان الفرنجة يعدُّون الأُمم الأُخرى أبناء الفرنجة يعدُّون أنفسهم، كما قال وليم الصُّوري: رعايا المسيح، ويعدُّون الأُمم الأُخرى أبناء الضلال (4)، وهذا الضلال ينسحب \_ أيضاً \_ على المسيحيين الشرقيين في سُورية، الذين احتكّوا بكشرة

المُسلمين مُقدَّم من جهة الإفرنج على مَنْ فيها من عُمَّالها من المُسلمين، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة مُقبلة (1)1.

ونستنتج ممَّا ذكره ابن جُبَيْر:

1 - أن الفرنجة حرصوا على عمارة الأرض واستثمارها، يقول: "طريقنا كُلُّه ضياع مُتَّصلة، وعمائر مُنتظمة".

2 - أن كُلَّ الفلاحين في أراضي الفرنج من المُسلمين، ورُبَّما هُم فلاَّحو الأرض القُدماء، وجدهم الفرنج فيها، فاحتفظوا بهم، يقول: "رساتيقهم كُلُّها للمُسلمين، وهي القُرى والضياع".

3 - حرص الفرنج على استقرار الفلاحين في الأرض، والاعتناء بهم، "وهُم مع الأفرنج على حال ترفيه".

4- لم يفرض الفرنجُ ضرائبَ باهظةً، بل كانت ضرائبهم مُعتدلة، يتمكَّن الفلاحون من تأديتها بسُهُولة ويُسر.

5- لم يتلخّل الفرنجُ بالشُّؤُون الدّاخليّة للرعايا المُسلمين، "مساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم".

6 - وضع الفرنج لكُلِّ قرية مسؤولاً من أهلها، "الناظر فيها من المُسلمين مُقدَّم من جهة الإفرنج". ويبدو أن أحوال هؤلاء الرُّؤساء كانت جيِّدة جدَّا، ولهم حُرِّيَّة واسعة في التصرُّف، فقد استضاف مسؤول قرية صغيرة قريبة من عكًا قافلة إسلامية، دُون أن يتحرَّج من السُّلطات الفرنجيَّة، وكان غنياً لدرجة أنَّه تمكَّن من القيام بواجب الضيافة نحوهم جميعاً، "فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة مُقبلة، وأحضرهم صغيراً وكبيراً".

<sup>1 -</sup>الشُّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 216.

<sup>2 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، 280.

<sup>3 -</sup> الرحِلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 14/ 61.

<sup>4 -</sup> نقلاً عن وليم الصُّوري ( الحُرُوب الصَّليبيَّة – روايات شهود عيان، د. سُهيل زَكَّار 401 ).

<sup>1 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار 14/ 61.

# المبحث الخامس؛ العلاقات بين السُكَّان عبر الحُدُود العلاقات التِّجاريَّة:

قال ابن جُبَيْر في رحلته: "ومن أغرب ما يحدث في الدُّنيا، أن قوافل المُسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المُسلمين "(1)، وهذا دليل واضح على تقديم المنفعة الناتجة عن التبادل التَّجاري على الخلافات السِّياسيَّة والعسكريَّة؛ حيثُ يبدو أن المُسلمين والفرنج قد توصّلوا إلى اتَّفاقيات كان الالتزام بتطبيقها أقوى من الالتزام السِّياسي، أو العسكري، وهذا دليل على ترسُّخ قيم للتعامل القائم على المنفعة المُتبادلة لم يَعْتَدُ عليها ذلك العصر، بدليل استغراب ابن جُبَيْر لما يحصل، ونسب ذلك إلى "الاعتدال في السياسة" (2).

لقد كان حجم التبادل التّجاري كبيراً جدّاً، في مقاييس ذلك الزّمان، بين الإمارات الفرنجيّة وعملكة القُدْس، التي كانت تُشكّل الواجهة البَحْريّة، وتضمُّ الموانئ التّجاريّة لبلاد الشَّام، وبين ببلاد السُّرة التي تُشكّل العمق الاقتصادي، والمنفذ المفتوح باتّجاه بلاد الشَّرق الأقصى، ودليلنا على ذلك مُو تدفُّق الدراهم الفرنجيَّة الكبير على دمشق، يقول أبو شامة في أحداث عام 658 هـ 1260م: "وابتلى الناس في هذه السنة بغلاء شديد، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليَافيَّة، وكانت كثيرة الغشِّ، وكثرت في البلد كثرة عظيمة "(3).

وبالتَّاكيد؛ فإن كثرة الدراهم اليافية جاءت ثمن بضائع بيعت للفرنج. كما يُـشير إلى ذلـك كون كُتَّابِ ميناء عكَّا من الفرنج النصارى "يكتبون العَرَبيَّة، ويتكلَّمون بها، (4).

وكان الفرنج يتساهلون في فرض الضرائب على التجارة الداخلة إلى أراضيهم، فهي عهاد حياتهم الاقتصاديّة، فالضريبة كانت ديناراً صوريّاً وقيراطاً على كل شخص يعبر الحُـدُود إلى مناطق

بالفرنجة، من خلال تواجدهم في مُعظم مناطق السيطرة الفرنجيَّة، وفي مناطق القتال بينهم وبين السُلمين.

لكنْ؛ بشكل عامٌ، كان دور المسيحيين الشرقيين في الحُرُوب مع الفرنجة هامشياً ضعيفاً، وذلك لوُجُود فواصل مُهمَّة بينهم وبين الفرنجة، الذين نظروا إليهم - في أحسن الأحوال - على أنَّهم مسيحيين هراطقة مُستعربين، ولم يعدُّوهم بأفضل من المُسلمين، فإذا قدروا على قَتْلهم كان به، وإلَّا فَسَلْبُ كنائسهم وأراضيهم لا بأس به (1).

وقد نظر الفرنجة إلى مسيحيًى السَّرْق نظرة دونية، وعدُّوهم شعباً غير مُحبُّ للقتال<sup>(2)</sup>، ووصف وليم الصُّوري السريان بقوله: "هُو شعب نعتبره ضعيفاً، ومُحتَّثاً" (<sup>3)</sup>، مع العلم أن وليم ليس من الوافدين، فقد وُلد في سُورية، ومع ذلك؛ بقيت لديه نزعة التفوُّق كفرنجي. لكنْ؛ من كلِّ ذلك يجب أن نستثني حالة المسيحيين الأرمن والمسيحيين الموارنة، والتي عالجنا كلاً منها على حدة في هذا الكتاب.

<sup>1 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 58.

<sup>2-</sup>الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 59.

<sup>3-</sup> ذَيْلِ الرَّوضَيَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار 20 / 179.

<sup>4 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، 275.

<sup>1 -</sup> الشُّرق والغَرْب، كلود كاهن، 97.

A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, P. 109-2 وفنَّ الحَرْب، سميل، 97.

<sup>3 -</sup> تاريخ الأعمال المُنجَزة فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 7/ 459.

خُتلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"(1). ويقول وليم الصُّوري: "إن عادة اقتسام السُّلطة بشكل مُتماثل بين المسيحيين والكَفَرَة قد سادت لسنوات كثيرة، وكانت ماتزال تُطبَّق في هذا الوقت، كما قُسمت الضرائب والجزية بشكل مُتاثل بينها أيضاً "(2).

إن هذه المناصفات والمُثالثات تُشكِّل دليلاً على حسِّ عال بالواقعية لدى الفريقين، فلو لا هكذا اتَّفاق لبقيت مساحات واسعة من الأراضي مُعطَّلة عن الإنتاج، وتشرَّد فلاحوها، وتبعثروا؛ ليُشكِّلوا عبنًا على هذا الفريق، أو ذاك. ولذا؛ نجد أن منطقاً خاصًا في بعيض الأصعدة كان يسود مُجريات الأحداث، فبالرغم من الخُرُوب التي لم تنقطع لسنوات، وما رافقها من إغارات، وكرِّ، وفَرِّ، وتحرُّكات عسكريَّة كُبْرَى وصغرى، فقد استمرَّ الفلاحون في زراعة الأرض، ودفع الضرائب، كما كانوا يفعلون دائماً، فالحُرُوب هُنا، مع تعدُّدها، لم يُسجّل أنَّها سبَّت مجاعة، وبشكل عامٍّ؛ لم يرافقها عمليات نهب كُبْرى كالتي ترافق مُعظم الحُرُوب. سيطرة الفرنجة، وهُو مبلغ معقول جدًّا بالنِّسبة لرُّسُوم ذلك الزَّمان، كما يقول ابن جُبَيْر (1). كذلك يُؤكِّد ابن جُبَيْر على حسن المُعاملة، فكان للتُّجَّار في مناطق السيطرة الفرنجيَّة حُرِّيَّة التّصرُّف والتنقُّل والإقامة؛ حيثُ أحبّوا، فيقول: "طلب رحل مَنْ لا سلعة لـه، لـ ثلا يحتوي عـلى سلعة مخبوءة فيـه، وأطلق سراحه، فنزل حيثُ شاء، وكلّ ذلك برفق وتؤدة، دُون تعنيف، ولا حمل "(2).

علماً أنَّنا لا نعتقد بأنَّ البابوات كانوا يستثنون إمارات الفرنجة في الشَّرْق من تحريهاتهم المشدَّدة للتجارة مع المُسلمين (3)، ولكنْ؛ حتَّى بين أُورُوبا نفسها وبين المالك الأيُّوبيَّة كانت التجارة تسير بدُون عوائق، فواردات سُورية عبر الإمارات اللاتينيَّة كانت لا تنقطع عن أُورُوبا(4).

كذلك لم تتوقَّف عن التدنُّق إلى أُورُوبا مُنتجات مصر من الكتَّان والسُّكُّر والحريس (5)، والبهارات من الشُّرْق الأقصى عبر مصر (6)، وبالطريقة نفسها؛ كانت واردات أُورُوبا تتدفَّق على مصر وشُورية<sup>(7)</sup>.

#### المناصفات:

كانت كثير من المناطق في أراض فلسطين تُسمَّى المناصفات، أو المثالثات، وهي مناطق مُتنازَع عليها بين المُسلمين والفرنج، ولم يستطع أيُّ منهم السيطرة العسكريَّة عليها بـشكل نهائي، وحتَّى يستفيد الطرفان، اتَّفقا على السهاح بعهارة الأرض، واقتسام منتوجاتها، مُناصفة، أو مُثالثة، وكانت مدينة صيدا وما حولها من أكبر المُناصفات بين المُسلمين والفرنج، وقد اجتاز ابن جُبَيْر في رحله بطرف إحدى هذه المناصفات، وهي أراضي بانياس، فيقول: "وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المُسلمين، لهم في ذلك حَدٌّ يُعرَف بحَدِّ المُقاسمة، فهم يتشاطرون الغلَّة على استواء، ومواشيهم

<sup>1-</sup>الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 14/ 60.

<sup>2 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/62.

<sup>3 -</sup> كتاب الأسرار، مارينو سانوتو \_ تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار 38 / 17 - 76 - 79 - 81 - 81 وجولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 40 / 359.

<sup>4 -</sup> كتاب الأسرار، مارينو سانوتو-تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. شهبل زَكَّار 38 / 71 - 145.

<sup>5 -</sup> كتاب الأسرار، مارينو سانوتو-تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 69.

<sup>6 -</sup> كتاب الأسرار، مارينو سانوتو-تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 68.

<sup>7 -</sup> كتاب الأسرار، مارينو سانوتو-تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 71.

<sup>1 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 60. 2 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 7/ 458.

القسم الثَّاني مراكز القوى الدّاخليَّة ودورها في العلاقات الخارجيَّة

# الفصل الأوَّل

#### دور أرباب السيف

#### ورجال الإدارة في العلاقات الدوليَّة

المبحث الأوَّل:

طوائف العسكر

كان كلّ الأُمراء وقادة الجُند في حياة مُؤسِّس الدولة الأَيُّوبيَّة السُّلطان صلاح الدِّين، بمَنْ فيهم أفراد عائلة السُّلطان، جُرَّد أعوان، مع أن بعضهم لم يُخف نواياه في التطلُّع إلى السُّلطة العليا في الدولة، أو الاستقلال بها تحت يده من البلاد.

لكنّ وُجُود شخصية القائد الذي التفّ الجميع تحت لوائه منعت أصحاب المطامع من تحقيق آما لهم. وكان من الطبيعي أن يختلف الأمر بعد موت صلاح الدّين؛ حيثُ ظهرت طموحات كثير من الشّخصيّات العسكريّة، الذين كانوا قادة في الجيش، أو نُوَّاباً في بعض الإقطاعات، أو كانوا زعاء البعض طوائف الجُند، أو المجموعات القبَلية، وخاصّة من الأكراد، المذين اعتبروا أن دولة صلاح الدّين هي دولتهم. ولغياب شخصية السُّلطان القويّة، التي كانت تُسيطر على كلّ ما حولها، بدأت بعد موته ـ تتشكّل مراكز قوى حول هؤلاء الأُمراء، حيناً ضمن بوتقة العشائرية، وحيناً آخر من خلال الولاء لشخص، مثل طوائف الماليك الأسديّة والنّاصريّة. ولكن هؤلاء الأُمراء عملوا منفردين في كثير من الأحبان، ثقة بنفسهم، وباضيهم العسكري والسّياسي مع السلّطان صلاح مول أولاده أوَّلاً، وفيا بعد؛ ضدهم مع عمّهم العادل، ثُمَّ ظهر منهم مَنْ عمل لنفسه بشكل مُباشر. عول أولاده أوَّلاً، وفيا بعد؛ ضدهم مع عمّهم العادل، ثُمَّ ظهر منهم مَنْ عمل لنفسه بشكل مُباشر. عمّا يعملنا نعتقد أن نظام الإدارة في الدولة الأيُوبيّة كان يمنح قدراً كبيراً من الحُرِّيّة للأمراء في إقطاعاتهم، وولاياتهم، مع اشتراط الولاء للسُّلطان. لكنْ؛ بعد تجزئة الدولة بوفاة السُّلطان صلاح الدّين ترسّخ الاستقلال الإداري للحُكَّام، وأصبح الولاء لسُلطان البيت نسبياً ورمزياً، ورُبَّا توقّف الدّين ترسّخ الاستقلال الإداري للحُكَّام، وأصبح الولاء لسُلطان البيت نسبياً ورمزياً، ورُبًا توقّف الدّين ترسّخ الاستقلال الإداري للحُكَّام، وأصبح الولاء لسُلطان البيت نسبياً ورمزياً، ورُبًا توقّف

الدِّين، ومن مُنطوِّعة الأكراد، وكانوا قوام الفرقة المطلوبة منه مُقابل إقطاع حمص في دولة الـسُّلطان نُور الدِّين محمود (1). وبعد وفاة أسد الدِّين الكبير تبرز مُلاحظتان على الفرقة الأُسَديَّة:

1 ــ لم ينتقل ولاء الأُسَديَّة كما هُو مفروض إلى أولاد أسد الدِّين، وخاصَّة أنَّه كان مـنهم أمـير كبير مُتشوِّف للسَّلطنة هُو الملك القاهر مُحمَّد بن أسد الدِّين شير كوه، فلم يلتفت إليه الأسَديَّة، ويبدو أن القاهر \_بالمُقابل \_لم يتوجَّه نحوهم بأيِّ بادرة لاستقطابهم، مَّا يدلُّ على أن ولاءهم بالكامل انتقل إلى صلاح الدِّين، كما انتقلت إليه خلافة أسد الدِّين في مناصب مصر، ورُبِّما لأن الأسَديَّة هُم مَن اختار صلاح الدِّين، ودعمه في حُكْم مصر.

2 - بسبب شخصية السُّلطان صلاح الدِّين، أو رُبَّها بسبب ظُرُوف الحَرْب الطويلة التي عاشها خلال حياته السِّياسيَّة كلِّها، لم تظهر الأُسَديَّة كقُوَّة مُنفصلة، أو ذات شأن في تقرير أيِّ من أُمُور الدولة الصَّلاحيَّة، مع أنَّهم كان من المُمكن أن يُشكِّلوا قُوَّة لا يُستهان بها بحال تجمُّعهم في بدايات حُكْم السُّلطان صلاح الدِّين، بل إنَّنا نستطيع القول إنَّهم القُوَّة الكُبْرَى التي قامت عليها دولته، فهم الأُمراء والقادة، قبل أن يُنشئ صلاح الدِّين مماليكه الصَّلاحيَّة ورجال دولته الخاصِّين به. ولكن ؛ لمُجرَّد غياب شخصية السُّلطان المتميِّزة الآسرة، ظهرت الأسَديَّة تُحاول أن تحقِّق مكانة مُتميِّزة في الدولة، من خلال اللعب على حبال الخلافات بين كبار الوَرَثَة أبناء صلاح الدِّين وعمّهم العادل.

وكان من قوى الأُسَديَّة ورجالهم بعد وفاة صلاح الدِّين:

1 . سيف الدِّين يازكوج: وهُو مُقدَّم الأسَديَّة، وكبيرهم (2)، كان يتولى منصب الحاجب بدمشق في دولة صلاح الدِّين (3).

2 . أبو الهيجاء السمين (4): من كبار مُقدَّمي الأَسَديَّة، وكان صلاح الدِّين قد ولاَّه القُدْس بعد تحريرها، واستمرَّ بها حتَّى عَزَلَهُ الملك العزيز بن صلاح الدِّين صاحب مصر عام 589 هـ 1193م.

1 - الشَّرْق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 155. 1 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 88، والروضتيّن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19 / 468.

عند حُدُود الخطبة والسَّكّة، وكانت أحسن حالات الولاء للسُّلطان تُترجَم بدعمه بفرقة من العَـسْكَر

عندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين كان أُمراء دولته في دمشق، من خارج العائلة، قـد التقـوا لُبايعة وَصيِّه وابنه الأكبر الملك الأفضل، ومنهم:

حُسام الدِّين بشارة، مُقدَّم الجميع. وبدر الدِّين مودود، شحنة دمشق، وأخيه سعد الـدِّين. وناصر الدِّين منكورس بن خمارتكين، أمير صهيون وبرزية. وسابق الدِّين عُثمان بن الداية، أمير شيزر وأبو قبيس. وعزّ الدِّين إبراهيم بن شمس الدِّين بن المُقدَّم، أمير بغراس وكفر طاب وفامية. وبدر الدِّين دلدرم بن بهاء الدِّين ياروق. وكلّ من: خشترين بن حسين الهكاري، أنـوشروان الـزرزاري، ميمون القصري، عزّ الدِّين أسامة الجبلي، شمس الدّين سنقر الكبير، سنقر المشطوب، آيبك الأفطس، علكان، وملكان، وكلّ هؤلاء كانوا لا خُبز لهم (1)، ممَّا يعني أنَّهم بـدُون إمـارات أو منـاطق يحكمونها لحساب دولة السُّلطان صلاح الدِّين.

انقسمت دولة صلاح الدِّين بعد وفاته سياسياً وعسكريّاً بين ثلاثة من أبنائه؛ سمَّاهم هُو قبل موته، وتوقّع أنَّهم الأفضل للحفاظ عليها، وألحق بقيَّة إخوتهم بهم كأمراء صغار. فكان الأفضل في دمشق، والعزيز في مصر، والظاهر في حلب. ورافق انقسام الدولة انقسام ولاء أُمراء الجيش وقُـوَّاده، فظهرت ـ على الفور ـ طوائف كانت معروفة أثناء حياة السُّلطان، لكنَّها كانت جُمزءاً من هيكلية دولته، دُون أن يكون لها مواقف مُنفردة. وكان المسوّغ الشرعي لـشُلطة هـذه الطوائف هُـو الجهاد، أمَّا المسوغ القانوني؛ فهُو تكليف السُّلطان. ومن أهمِّ هذه الطوائف، طائفتا الأَسَديَّة والصلاحية:

آ . الأسكيّة: هُم عاليك أسد الدِّين شير كوه، وحواشيه الأكراد(2)، ويُمكن أن نُنضيف لهم بعض المُتحالفين معهم، والمُنضمِّين إليهم، وقد كان مع أسد الدِّين شيركوه ثمانية آلاف مُقاتـل لـدى استقراره بمصر، خسائة منهم يُشكِّلون فرقة الأُسَديَّة (3)، وهؤلاء الخمسائة هُم من مماليك أسد

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 5. 4 - راجعْ ما وَرَدَ عنه في بحث أُمراء العَسْكَر، من هذا الكتاب.

<sup>1-</sup>النَّوادر السُّلِطانيَّة، ابن شدَّاد، 248، ومُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أيُّوب،311، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 197.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابنَ تغري بردي، 6/ 123. 3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. شُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.

ودُفن في سفح جبل قاسيون، ويُقال له: جهاركس، أو إياز جركس، وكان ينولَّى بانياس والشقيف وهونين للعادل<sup>(1)</sup>.

2. فارس الدِّين ميمون القصري: "منسوب إلى قصر الخُلفاء بمصر، أخذه صلاح الدِّين من هُناك "(<sup>2</sup>)، وكان يتولَّى نابلس<sup>(3)</sup>، وكان الملك الظَّاهر بن صلاح الدِّين يُعظِّمه، ويحترمه أكثر من بقيَّة الصَّلاحيَّة، لذلك نقموا على الظَّاهر بسببه (<sup>4)</sup>. عاش ميمون بقيَّة حياته في بلاط الظَّاهر بحلب، وهُو آخر مَنْ بقي من كبار الصَّلاحيَّة؛ إذْ تُـوفِي عام 610 هـ 1213م بحلب<sup>(5)</sup>، وخلَّف أموالاً كثيرة (<sup>6)</sup>.

3. فخر الدِّين ألطنبا المحتَّاف<sup>(7)</sup>: كان من كبار الصَّلاحيَّة المُؤيِّدين للأفضل بن صلاح الدِّين ضدَّ عمِّه العادل<sup>(8)</sup>، ولكنَّه كان يشكُّ بنوايا الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين، فعمل له دعوة، وللَّ شرب علم من فلتات لسانه سُوء نيَّته تجاهه، فهرب الجحَّاف من مُعسكر الأفضل والظاهر، وهم يُحاصرون دمشق، وانضمَّ إلى عمِّهما العادل<sup>(9)</sup>.

4. ألبكى الفارس: قَبَضَ عليه الأفضل بمصر بعد هرب الصَّلاحيَّة منها، كان جريشاً، له مواقف تُذكر، فقد واجه الظَّاهر غازي، واتَّهمه بالغدر علانية، وضرب أُسامة الصلاحي الـذي خان طائفته، وانضمَّ للعادل (10).

5. زين الدِّين قراجا: من مُقدَّمي الصَّلاحيَّة، "كان أميراً أديباً خيِّراً عاقلاً(1)، تُوفِّي بدمشق عام 604 هـ 1207م، ودُفن بسفح جبل قاسيون" (2).

3. عزّ الدِّين جرديك: مُقدَّم الأَسَديَّة بعد أبو الهيجاء السمين(1).

4. مرزوق الطشندار: وكان كما يظهر من اسمه يتولَّى منصب الطشندار للسُّلطان صلاح الدِّين في دمشق، وقد حجَّ عام 607 هـ(2).

أزكش: وكان يختصُّ بأبي الهيجاء السمين.

# ب، أُمراء الأكراد:

وهم بقايا ضُبَّاط جيش أسد الدِّين شيركوه الكبير، وغالباً؛ هُم من جُنُود الحلقة غير الماليك، وقد ظهر منهم: ابن كهدان، وفخر الدِّين البانياسي، ومثقال الجمدار، وبهرام التاجي (3).

ونُلاحظ أن الأَسَديَّة، في دولة صلاح الدِّين ودول أولاده وعمّهم، قد أصبحوا جيلاً قدياً من الأُمراء الكبار، وغالباً ما كانت شُهرتهم العسكريَّة السابقة هي سبب عَتُعهم بالقُوَّة السِّياسيَّة، ورُبَّا بسبب خبراتهم الكبيرة المُكتَسَبة، بينا عددياً عمُم أقلُّ بكثير من مُنافسيهم الصَّلاحيَّة، وذلك بسبب موتهم بالخُرُوب، وبعامل السِّنِّ. بينا امتازت الفرقة الصَّلاحيَّة بعديدها الأكبر، وبتحكُّم أكثر وأهم بمناصب الدولة التي حظاهم بها السُّلطان، وبكونهم شُبَّاناً أكثر من الأسَديَّة، وبالتَّالي؛ امتلاكهم للقُوَّة، ولرُوح المُغامرة.

ب الصّلاحيَّة: وهم مماليك صلاح الدِّين، وأُمراء دولته، وقد أخذ صلاح الدِّين بتشكيل فرقة خاصَة به مُنْذُ أن حكم مصر، وكان قوامها في البداية - ثلاثة آلاف وخمسائة فارس (4)، ومنهم:

ا ، فخر الدِّين جهاركس، مُقدَّم الطائفة الصَّلاحيَّة، وكبيرهم  $^{(5)}$ . كان أحد حُجَّاب دمشق في حياة السُّلطان صلاح الدِّين  $^{(6)}$ ، تُوفِّي عام 607 هـ 1210م أو 608 هـ 1211م في دمشق،

<sup>1 -</sup> زَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 159. 2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 115.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 88.

<sup>4 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 18.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 115.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 220.

<sup>7 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 41 -20، أصل الاسم تركي من مقطعين، ألتون: الذهب، بغا: ثور. وقد ذكره ابن واصل

باسم الجحاد. (مُفرِّج الكُرُوب، 3/91).

<sup>8 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 14. 9 - المنصوري، ابن نظيف، 20

<sup>10 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 87، والنُّبُوم الزَّاهرَة، ابنِ تغري بردي، 6/ 123.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 149.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 9.

<sup>4 -</sup>مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 711 ـ 208.

<sup>6 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 5. وغالباً ما كانت وظيفة حاجب تعني أحد قادة الحامية بدمشق.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

وبعد استتباب الأمر للعادل في الشَّام، كان أُسامة من مُجملة أُمراثها، فسلَّمه العادل بيروت، فحصَّن قلعتها عام 593 هـ 1197م، وترك بها جماعة من الجُند<sup>(1)</sup>، فخافوا من الفرنج، وانهزموا، وبقيت القلعة خالية، فأخذها الفرنج، "فأخذ الناس يلعنون أُسامة لتفريطه فيها، قال عهاد الدِّين الكاتب:

إن بيع الحُصُون من غير حرب سُنة سَنَة سَنَه البيروت سامة (2) وقال بعضهم والفرنج يُحاصرون حصن تبنين يُذكّر بها فعله أُسامة:

سلّم الحصن ما عليك ملامة ما يلام الذي يروم السلامة فعطاء الحُصُون من غير حرب سُلّة سَلّة سَلّة سَلّة سَلّة الم

ولمّا وصل الأفضل إلى حُكُم مصر، وهرب منها الصّلاحيَّة، انضمَّ إليهم في القُدْس أُسامة، وكاتبوا العادل<sup>(4)</sup>. وفي عام 596 هـ 1700م، كان أُسامة أميراً للحجِّ الشَّامي بتكليف من الملك العادل. وفي عام 597 هـ 1701م، التقاه الملك الأفضل وهُو منفي في صر خد، فدعاه لمُوافقته، فوافق معه أُسامة، وحلف له، فعرفه الحال، والاتّفاق بينه وبين جماعته من الصّلاحيَّة، فكتب أُسامة مُباشرة إلى العادل، فأخذ حذره (<sup>5)</sup>. وبذلك ؛ نجد أن أُسامة قد خرج على طائفة الصَّلاحيَّة التي ينتمي إليها، وخان قضيَّة رفاقه مع الأفضل، وانتقل إلى جانب العادل، ويبدو أن فراسته واستقراءه للأُمُور قد أوحيا له بأنَّ الفوز للعادل.

ولًا نَدَبَ العادلُ أُسامة لمُفاوضة الصَّلاحيَّة تصدَّى له ألبكى الفارس المصلاحي، وأغليظ لمه القول، وضربه (6)، وكادت الصَّلاحيَّة أن تفتك به، لولا أنَّه استجار بميمون القصري، وما ذلك

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71.

6. علاء الدِّين شقير: وكان من الصَّلاحيَّة، الذين قبض عليهم الأفضل بعد هرب زملائهم من مصر (3).

. أسد الدِّين قرا سنقر<sup>(4)</sup>: ويُقال له تحريفاً سرا سنقر، وكان من حُجَّاب دمشق في عهد صلاح الدِّين (5).

8 ، مُبارز الدِّين سنقر: وكان يُميَّز عن قرا سنقر بإضافة الحلبي إلى اسمه، أو بتسمية سنقر الكبير، وكان \_ أيضاً \_ من حُجَّاب دمشق في عهد صلاح الدِّين، وله ولد عُرف باسم الظهير بن سنقر، تُوفِّ سنقر الكبير الحلبي عام 620 هـ 1223م (6).

9. طَعْرِيل المهراني: وهُو \_ كما يدلُّ اسمه \_ من الأكراد المهرانية، وقد انسحب من جيش الأفضل خلال حصاره دمشق، والتحق بالعادل<sup>(7)</sup>.

10 . آيبك فطيس: وهُو من الصَّلاحيَّة، الذين قبض عليهم الأفضل بمصر.

11 . بهرام الرُّومي، وبهرام القارصي: وهُما من الصَّلاحيَّة، الذين هربوا من عند الأفضل

بمصر.

. 12. عزّ الدِّين أسامة الجبلي: كان من حُجَّاب دمشق أيّام صلاح الدِّين (8)، "ومن أجلاء الأُمراء الصَّلاحيَّة "(9). بعد وفاة صلاح الدِّين، وتسلُّم ولده الأفضل حُكْم دمشق، فارقه عزّ الدِّين أُسامة إلى مصر، لأُمُور نقمها عليه، فاستقبله الملك العزيز، وأكرمه، فأخذ أُسامة يُحرِّضه ضدَّ الأفضل (10)، وقرَّب الملك العزيز إليه عزّ الدِّين أُسامة حتَّى أصبح صاحب سرِّه وحاجبه والواسطة بينه وبين عمّه العادل (11).

<sup>2 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 74، رُبَّها كانت ضرورة الشعر في هذا البيت التي حوَّلت اسم أُسامة إلى سامة هي التي جعلت كثير من المُؤرِّخين المُتأخِّرين يُطلقون عليه اسم: سامة.

<sup>3 -</sup>الروضتين، أبو شامة، 2/ 233.

<sup>4-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 92.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

<sup>1-</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْنَ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 121.

<sup>3-</sup>مُفرِّج الْكُرُوبِ، ابن واصل، 3/19.

<sup>4 -</sup> اسم تركي من مقطعين، قره: أسود، سنقر: صقر.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 5.

<sup>6 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْنَ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 258.

<sup>7 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 9.

<sup>8 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 5.

<sup>9 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 39.

<sup>10 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 39.

<sup>11 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 55.

جهاركس على الأفضل أربعين ألف دينار، قبض منها ثلاثين ألف، ولم يقبل قراجا بأقل من أخذ صر خد من الأفضل ثمناً لتأييدهما له في حربه ضدَّ عمَّه عام 597 هـ  $1201م^{(1)}$ .

ولكنْ؛ من ناحية أُخرى، نجد أن الواقع السِّياسي المُرزَّق من جهة، وشخصيَّات أبناء صلاح الدِّين الذين لم يكن بينهم مَنْ يرقى لخلافة والده من جهة أُخرى، كان لها دور مُهمّ في تـصرُّفات الأُسَديَّة والصلاحية غير المُلتزمة، أو التي تتَّصف بعدم الوفاء. فقد كان الملك العزيز عُثمان بن صلاح الدِّين ضعيف الشخصية، حتَّى تمكَّن جهاركس مُقدَّم الصَّلاحيَّة من السيطرة عليه، فغدا الحاكم الفعلي للدولة، ممَّا أدَّى إلى نقمة الأُسَديَّة، الذين انفصلوا عن جيش العزيز أثناء تحرُّك نحو السَّام لأُخْذها من أخيه الأفضل، والتحقوا بدمشق.

وبعد موت العزيز صاحب مصر استدعت الأسَديَّة الملك الأفضل لحُكْمها، فهرب الـصَّلاحيَّة من مصر، وعادوا مع العادل إليها، على أن يكون أتابكاً للمنصور بن العزيز، فقام الأسَديَّة بالمُزاودة على الصَّلاحيَّة، وحسَّنوا للعادل عَزْلَ المنصُّور، والاستقلال بالأمر تقرُّباً إليه، وإبعاداً للصلاحية، فخلعه العادل، وتسلطن، ولمَّا دعا ميمونُ القصري جماعتَهُ للوُّقُوف ضدَّ العادل أجابوه: "إنَّنا قد افتُضحنا بين الناس بأنَّنا نُقيم في كُلِّ يوم ملكاً، ونعزل ملكاً، ثُمَّ إلى مَنْ تُسلِّم الأمر؟ الأفضل ما فيه رجاء، وباقي إخوته غير الظَّاهر ليست لهم في النفس عظمة، والظاهر فها يُمكنه أن يُخلي بلاده، ويصير إلينا"ا(2).

وانتهى أمر الطائفة الصَّلاحيَّة، بموت مُقدَّميها الكبار قراجا وجهاركس وأُسامة، "وصفت حُصُونهم للملك العادل والمُعظَّم من بعده ((3). إِلَّا حنقاً من الصَّلاحيَّة على خيانته لهم، وهُو منهم. وبعد استتباب الأمر للعادل في مصر والشَّام استقرَّ أُسامة في حُكْم قلعة كوكب، وبلدة عجلون (1) التي بني فيها قلعة (2).

وكان من المفروض أن يكون أُسامة رجل دولة العادل الأوَّل، ولكنَّنا نجد أن سُوء التفاهم قد استفحل بين أسامة وبين الملك المُعظّم بن العادل والي دمشق، فترك أسامة الشَّام عام 607 هـ 1210م، وذهب إلى مصر لعند العادل "ليستريح من معاندة المُعظَّم له"(3). وبدلاً من تكريمه وحمايته طلب منه العادل تسليم حصني كوكب وعجلون، فرفض أُسامة، ثُمَّ مالبث المُعظَّم أن وصل إلى مصر عام 608 هـ 1211م، فخاف أسامة، وهرب في البرِّيَّة نحو قلاعه في الشَّام، فتبعه المُعظَّم، وأمسكه، وسجنه في قلعة الكَرَك (4)، ونسلَّم المُعظَّمُ حُصُونَهُ، وخرَّب قلعة كوكب.

# الصراع السيّاسي بين الأسديّة والصلاحية:

كانت الطائفة الأُسَديَّة ومَنْ ينضمُّ إليهم من الأكراد يكرهون العادل، لكنْ؛ دعتهم الـضرورة إليه (5)، فالصلاحية كانوا مُؤيِّدين للأفضل في صراعه مع عمِّه العادل. ففرضوا \_بذلك \_موقفاً على الأُسَديَّة لا يرغبون به، فمن المعروف أن "الفرقة الأُسَديَّة والأكراد كانوا مُحبِّين للملك الأفضل "(6)، ولكنْ؛ في الحقيقة، ونتيجة الستقراء الأحداث، نجد أنَّهم \_جميعاً \_كانت محبَّتهم الأُولى ووالأؤهم الأوَّل لأنفسهم، فقد كانوا يميلون حيثُ تميل المصالح والمكاسب، وكان تجمُّعهم ضمن طائفتَيْ الأُسَديَّة والصلاحية لتشكيل قوى كُبْرَى، أوَّلاً للتصدِّي للطائفة المُنافسة، ومن ثَـمَّ؛ لإحـداث تـأثير أقوى، وتحقيق مكاسب أكثر.

فعزّ الدِّين أُسامة رأى أن مصالحه مضمونة أكثر مع العادل، فخرج عن الصَّلاحيَّة، وأيَّد العادل، بل إنَّنا نستطيع أن نقول إنَّه كان سبباً قوياً من أسباب تفوُّق العادل على أبناء أخيه. واشترط

<sup>1 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 16.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 117.

<sup>3 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 209. وراجع: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 293.

<sup>1 -</sup> مُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أيُّوب، 311.

<sup>2-</sup>تقع عجلون على جبل عوف، نسبة لقبيلة عوف من جرم من قضاعة (إمارة الكَرَك، يُوسُف غوانمة،184).

<sup>3 -</sup>المنصُوري ، ابن نظيف، 62.

<sup>4 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 76 - 68 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 209.

<sup>5 -</sup> النُّاجُوم الزَّاهرَة، ابن تغرى بردي، 6/ 123.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 87.

ولا علاقة له بأُمُور الحُكْم وسياسة الرعية، ويبدو أنَّه تصرَّف مع أهل حديثة نصيبين كأنَّهم مجموعة من الجُند بإمرته، مَّا دفعهم للتظلُّم إلى السُّلطان، الذي أدرك الخطأ بتعيينه، فعزله، وأعاده إلى صُفُوف الجيش، وهُو مكانه الطبيعي.

ونستنتج أن أبا الهيجاء كان شخصية عسكريَّة قاسية، وهـذا سرُّ نجاحـه في الجـيش وتزعُّمـه لطائفة مُحاربة، أمَّا في الإدارة؛ فالأمر يحتاج لمواهب أُخرى يبدو أنَّها لم تكن متـوفِّرة لـدى أبي الهيجـاء. لكنَّ هذه التجربة الإدارية لن تكون الأخيرة، فبعد موت السُّلطان صلاح الدِّين في دمشق عام 589 هـ 1193م، استمرَّ أبو الهيجاء أميراً من أمراء الجيش، الذي انتقلت قيادته إلى أولاد صلاح الـدِّين، وانضمَّ أبو الهيجاء إلى الملك العزيز بن صلاح الدِّين صاحب مصر، فقد بايعه بعد وفاة والده، وحلف له، ووثق به الملك العزيز، "وما كان يظنُّ أنَّه يحنث في يمينه، وأنَّه تـصدر منـه مخـامره عليـه، واجتمعت عليه الأُمراء الأُسَديَّة، وخوَّفوه من الملك العزيز، ولم يزالوا به حتَّى أجابهم إلى مُفارقته، والانضهام إلى الملك العادل والملك الأفضل" (1).

دخل أبو الهيجاء بقُوَّة في الصراع على السُّلطة، فقد كاتب الملك الأفضل، وطلب مع عمُّه العادل إلى مصر، بعد أن عمل هُو والأسكيَّة على تفريق العَسْكَر عن العزيز حتَّى تخلَّى عنه الأُمراء (2). ولَّمَا تحرَّك الأفضل من قاعدة حُكْمه دمشق، لأخذ مصر من أخيه العزيز ومعه عمّه العادل عام 591 ه وصل الأفضل إلى القُدْس، وكانت مع العزيز، فعزل نائب العزيز فيها عزّ اللِّين جرديك، وولَّى عليها أبو الهيجاء السمين (3). وهذه الولاية لأبي الهيجاء على القُدْس، المدينة ذات الأهمِّيَّة الاستثنائية في الدولة، دليلاً على تقدُّمه وعُلُقِ منصبه، وفي الحقيقة؛ لم نتمكَّن من سماع أيّ أخبار عن كيفية إدارة أبي الهيجاء للقُدْس الشريف، لأنَّه كان مشغولاً عنها بالصراع بين الأفضل والعزيز وعمّها، فقد رافق جيش الأفضل والعادل إلى مصر، تاركاً القُدْس مع نُوَّابه (4). وبعد الاتِّفاق بين العادل والعزيز عاد الأفضل من مصر ومعه أبو الهيجاء السمين (5)، الذي بقي في القُدْس مقرّ ولايته الجديدة.

1 - ويجعلها الراوندي: " أبو الهيج"، وهُو تصحيف، وربيًا كان ذلك بفعل الترجمة، راجعٌ: راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.

ساهم عدد من قادة الجُند و أُمراء العَسْكَر \_بشكل أو بآخر \_في العلاقات الدوليَّة للسَّلطنة الأَيُّوبيَّة، وكان من أكثرهم تأثيراً:

#### 1 . أبو الهيجاء السمين:

كُنيته أبو الهيجاء(1)، ولقبه حُسام اللِّين، ولكنَّه اشتُهر بالسمين؛ " لأنَّه كان كثير السمن "(2)، فقد قيل إنَّ بطنه إذا ركب يصل إلى عُنق الفَرَس(3). وينتسب أبو الهيجاء إلى قبيلة من الأكراد تُسمَّى المهرانية (4)، التي كانت مساكنها بالقُرب من بلدة إربل (5)، واستطاع أبو الهيجاء أن يكون مُقدَّم طائفة الأكراد بكاملها في الجيش الأيُّوبي<sup>(6)</sup>، وحليفاً قوياً لأُمراء الطائفة الأَسَديَّة (<sup>7)</sup>، ثُمَّ

رافق أبو الهيجاء السُّلطانَ صلاح الدِّين في حُرُوبه مُّنْذُ أن دخل الشَّام، وكان معه في الجزيرة عام 578 هـ 1191م، عندما ضمَّ مُعظم مُدُنها وقلاعها إلى دولته. ولمَّا فتح صلاح الدِّين بلدة: حديثة نصيبين، ولَّى عليها أبو الهيجاء السمين، وتابع تقدُّمه نحو المَوصل، "ولَّا عاد إليها لقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظُلمه، فأنكر عليه ظُلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه" (9)، وإنْ دلَّت هذه الحادثة على شيء فإنَّها تدلُّ على أن أبي الهيجاء شخصية عسكريَّة، يعرف بشُؤُون القتال،

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11، والنَّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 141. 4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2، 5/ 605. ويقول ابن الأثير إنَّه من الأكراد الحكمية، راجعٌ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47.

<sup>7 -</sup> زُنْدَةَ الْحَلَبِ، ابن العديم، 2/ 605 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل ، 3/ 47.

<sup>8 -</sup>النَّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.

<sup>9 -</sup> الكامل، ابن الأثير، 11/ 488، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 124.

المبحث الثَّاني: أُمراء العَسكُر

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 51.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 52.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 52.

<sup>5 -</sup> زُبْدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 606.

وفي العام 592 هـ 1196م، وبعد فشل الأفضل في أخذ مصر، وعودته إلى دمشق، تحرّك العزيز من مصر في هجمة مُعاكسة على دمشق، وكانت معه الطائفة الصّلاحيَّة مُنافسو الأسَديَّة، "ولمَّا وصل الملك العزيز إلى القُدْس وبه أبو الهيجاء السمين، وكان خائفاً من الملك العزيز السذي "عزم على منازلته"، فطلب أبو الهيجاء تسليم القُدْس "على أن يرحل بهاله، فأُجيب إلى ذلك، وتسلَّم الملكُ العزيزُ منه القُدْسَ" (1)، "فرحل أبو الهيجاء السمين والمهرانيَّة والأَسَديَّة، وساروا إلى دمشق" (2).

وفي عام 592 هـ 1196م، تمكن العزيز من أخذ دمشق من أخيه الأفضل، وكان ذلك انتصاراً للطائفة الصَّلاحيَّة، التي التفَّت حول العزيز وعمّه العادل، على الطائفة الأَسَديَّة، التي التفَّت حول الأفضل، ويبدو أن أبا الهيجاء عرف أن أيّام عزِّه قد ولَّت مع نَفْي الأفضل إلى صرخد، وقرَّر مُفارقة الشَّام، فتوجَّه شرقاً، وعبر الفُرات نحو الموصل، وهُناك طلبه ديوان الخلافة إلى بغداد، فسار نحوها، ووصلها في عام 593 هـ 1197.

"قدم حُسام الدِّين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه، ودخل أبو الهيجاء في زيّ عظيم، فرتّب الأطلاب على ترتيب الشَّام، وكان في خدمته عدَّة من الأُمراء، وكان معه ولد أخيه عزّ الدِّين كور الفرس، وجاء هُو بعد الكُلِّ في العدَّة الكاملة والسلاح التّام، وخرج - أيضاً - أهل بغداد للقائه، وكان رأسه صغيراً، وبطنه كبيراً جدَّاً؛ بحيثُ كان بطنه على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز، فعمل في الساعة كُوزاً من طين على هيئته، وسبقه، فعلَقه في السُّوق، فليًا اجتاز به ضحك، ثمَّ عمل - بعد ذلك - أهل بغداد كيزاناً سمّوها: أبو الهيجاء السمين على صُورته.

وأكرمه الخليفة، وأقام له الضيافات، ثُمَّ أمره أن يُجرِّد جماعة من أصحابه مع عسكر الخليفة إلى همذان، فجرَّد جماعة، فلمَّا بعدوا عن بغداد، نهبوا خزانة الخليفة، وقتلوا جماعة من عسكره، ومضوا إلى المُوصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، فنقل الخليفة أبا الهيجاء إلى دار عند النَّظاميَّة كانت لسُلطان دمشق مُجير الدِّين آبق، ووكّل به. ثُمَّ خلع عليه بعد ذليك " (3)، "وأخرِم إكراماً كثيراً،

ثُمَّ جُهز مُقدَّماً على العساكر البغدادية إلى همذان، فسار إليها" (1). وكان قد "طلب أمير العلم في

بغداد وحسام الجاندار ومعين الكاشي نائب الوزير إلى الخليفة أن يُكلِّف أبا الهيجاء السمين بالقُدُوم

إلى همذان "(2)، فقد كانت الاضطرابات تعمُّها، والقوى المتصارعة على السُّلطة فيها كلّ يوم لهم

موقعه. فكتب الخليفة إلى أبي الهيجاء "رسالة للسير إلى همذان، وطرد الجمع هُناك" (3)، إن هذا

الطلب الشخصي لأبي الهيجاء دليل على شُهرته العسكريَّة الواسعة، التي وصلت بغداد، وجعلت

المُتسلِّطين على الخليفة فيها يُقنعونه بطلبه لإنهاء الاضطرابات في همذان. ولم يتخلُّف أبو الهيجاء عن

سيقود العمليات العسكريَّة فيها، أو أيّ دراسة للقوى المُتواجدة هُناك، إن كان ذلك يعتبر دليلاً على

بلحظة واحدة "(4)، وخمدت الفتنة (5)، وهذا النصر الخاطف لا شكَّ أن عامل المُفاجأة قد لعب فيه

دوراً حاسياً، إضافة إلى شجاعة قائد الحملة، لكنَّ الأُمُّور بخواتيمها، فقد "هجم مياجق على همذان،

واشتبك مع أبي الهيج السمين، ودارت الحَرْب مُدَّة يومَيْن، وهرب أبو الهيج "(6)، ونتيجة لهذه

الهزيمة، التي كلُّفت ديوان الخلافة مبالغ كبيرة مع عدد لا يُستهان بـ مـن جنـدها، سـاء موقـف أبي

الهبجاء تجاه الديوان والخليفة، "فخاف أبو الهيجاء من الديوان، ولم يُمكنه المقام، فعاد يُريد إربل؛

لأنَّه من بلدها، فتُوفِّي قبل وُصُوله" (7)، في عام 594 هـ 1198م، "وكان أميراً شُجاعاً مقداماً عارضاً

مُتجمِّلاً سيوساً ١١(8). ولم يختر أبو الهيجاء لنهايت سوى بلاده ومسقط رأسه، ومع كُلِّ الأمجاد،

ثقة قويَّة بالنفس وشجاعة نادرة، لكنَّه لن يكون تصرُّف قائد مُحنَّك، ولن يكون محمود العواقب.

إن هذه المُوافقة الفورية لأبي الهيجاء، والتحرُّك الفوري بدُون أيِّ استطلاع للمنطقة التي

" فلمًّا وصل أبي الهيجاء مع جُنُوده إلى همذان، حاصروا الملك أوزبك، واستولوا على همذان

الطلب، وتوجُّه على الفور من بغداد إلى همذان على رأس جيش الخليفة.

<sup>1 -</sup> الكامل، ابن الأثير، 12/ 125.

<sup>2 -</sup> راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.

<sup>3 -</sup>راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.

<sup>4-</sup>راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.

<sup>5 -</sup> راحة الصُّدُور، الراوندي، 541.

<sup>6 -</sup>راحة الصُّدُور، الراوندي، 542.

<sup>7 -</sup> الكِامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.

<sup>8 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 145.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 3/ 70.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 605.

<sup>3-</sup>ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 141.

التي كانت له في الشَّام، فلم يقصدها؛ لأنَّه يُدرك أن قاعدته السِّياسيَّة فيها قد انتهت مع نهاية الملك الأفضل، الذي كان يُمثِّل الظلَّ الباهت لأبيه السُّلطان صلاح الدِّين.

#### 2. ابن المشطوب:

هُو عاد الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن سيف الدِّين علي بن أحمد بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن أبي المخلول مرزبان اله كاري<sup>(1)</sup>، فهُو كُردي من الأكراد اله كارية<sup>(2)</sup>، "كان أميراً كبيراً وافر الحُرْمة عند المُلُوك، وكان عالي الهمَّة، غزير الجُود، واسع الكرم، شُجاعاً، أبيَّ النَّفْس، تهابه المُلُوك، له وقائع مشهورة في الخُرُوج عليهم"، ويُعدُّ واحداً من أبرز أُمراء السُّلطان صلاح الدِّين<sup>(3)</sup>، كما كان سيِّد الأكراد اله كارية، وزعياً مُطاعاً لهم، حتَّى لُقِّب بملك اله كارية (4). وقد ولد ابن المشطوب سنة 575 هـ 1179م؛ تقديراً (6).

والمشطوب هُو والده أبو الحُسَيْن سيف الدِّين علي، لشطبة كانت بوجهه، "وكان أميراً شُجاعاً، صابراً في الحُرُوب، مُطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدِّين شيركوه إلى مصر في المرَّات الثلاث، ثُمَّ عاد بعد سلطنة صلاح الدِّين إلى البلاد الشَّاميَّة "(أ)، فأصبح من أكابر أُمراء السُّلطان صلاح الدِّين، "وكان يُسمَّى في الدولة الصَّلاحيَّة بالأمير الكبير، ولم يُشاركه أحد في هذا الاسم"، وقد رتَّبه صلاح الدِّين في عكًا لمَّا خاف عليها من الفرنج مع بهاء الدِّين قراقوش، وبعد استيلاء الفرنج عليها تخلَّص من الأَشر، والتحق بالسُّلطان، ولكنَّه تُوفِّي في العام نفسه 588 هـ 1197م، وصُلِّي عليه في المسجد الأقصى (7).

ظهر ابن المشطوب على ساحة الأحداث السيّباسيّة، مشل مُعظم أُمراء العَسْكَر، بعد وفاة السُّلطان، وبدء الخلافات بين أولاده وعمّهم العادل على اقتسام التركة. كان الأمير عاد السِّين أحمد بن المشطوب قد ورث إقطاع ثلثي نابلس، وذلك بعد وفاة والده الأمير سيف الدِّين عليّ، الذي كان له إقطاع نابلس بكاملها، لكنْ؛ بعد وفاته قام السُّلطان صلاح الدِّين برَصْد ثُلث إقطاعها لمصالح القُدْس الشريف، وأقطع الباقي إلى عهاد الدِّين أحمد (1)، وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين كانت نابلس تبع عملكة الملك الأفضل، الذي استقلَّ بدمشق.

ويبدو أن ابن المشطوب بدأ مُغامراته السِّياسيَّة باكراً، فعندما كان الملك العزيز يقود حملة مصر عام 594 هـ 1198م، لنجدة عمَّه السُّلطان العادل بمُواجهة الفرنج المُحاصرين لحصن تبنين، بلغ العزيز أن مجموعة من أُمراء الجُند بينهم ابن المشطوب قد عزموا على قتله، عنَّا اضطرَّه إلى العودة مُسرعاً نحو مصر (2). وسكت عليها الملك العزيز، حتَّى سنحت له فُرصة الانتقام من ابن المشطوب، فعندما وقع الخلاف بين الملك العزيز وأخيه الأفضل صاحب دمشق قيام العزيز بإقطاع نبابلس، وهي إقطاع ابن المشطوب كها أنَّها تتبع الأفضل صاحب دمشق، فامتنع ابن المشطوب من تسليمها لمقطعها الجديد، "فوقع الشَّرُ بين الأفضل والعزيز" ((3)، ولنَّا انتهى الصراع بين الأخويُن، بطرد الأفضل من دمشق، فضًل ابن المشطوب الالتحاق بخدمة العادل، لذلك كان ضمن قُوَّاته على حصار ماردين عام 595 هـ 1991م، ولنَّا اضطرُّ العادل لـ ترك الحسار، المشطوب أي المصر، ورتَّب معه عدداً من الأُمراء من بينهم ابن المشطوب (4)، ولنَّا فشل الحصار، ورتَّب معه عدداً من الأُمراء من بينهم ابن المشطوب (4)، ولنَّا فشل الحصار، ورتَّب معه عدداً من الأُمراء من بينهم ابن المشطوب (4)، ولنَّا فشل الحصار، وعمّهم العادل.

فبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين نجد أن ولاء ابن المُسطوب للملك الأفيضل هُمو امتداد لولائه لوالده السُّلطان، ولذلك شارك ابن المشطوب مع ميمون القصري وقراجا بالاجتماع الذي

<sup>1 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 720.

<sup>2 -</sup> الهكارية: جبال فوق الموصل ( المُتظم، ابن الجوزي، 17 / 7 ). ـ ويقول ياقوت: بلدة وناحية في جزيرة ابن عمر، يسكنها أكراد يُقال لهم هكارية. ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: الهكارية ).

<sup>3 -</sup> دُرَر الْمُقُود، المقريزي، 2/ 343، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 584، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180، والمُواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 120، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 16، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، ١/ ٦١٦، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 198-

<sup>5 -</sup> وفيات الأعيان، أبن خلكان، 1/ 180.

<sup>6 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابنَ تغري بردي، 6/ 117.

<sup>7 -</sup> النُّجُومُ الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 117، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.

<sup>1-</sup>التاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 524، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

<sup>2-</sup>من عقد الجان، العيني، أحداث عام 594 هـ، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 59/ 12.

<sup>3-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 8.

عُقد عام 596 هـ 1200م، واتَّفقوا فيه وحلفوا على تولية الأفضل في مصر (1). ورُبَّها كان لـدَعْم ابـن المشطوب للأفضل دور حاسم، وذلك لأهمِّيَّة موقع وتُوَّة ابـن المشطوب في الدولـة، التي تجـزَّأت، وانقسم أُمراؤها شيعاً وأحزاباً.

وعندما سار الأفضل عام 597 هـ 1201م، بقُوّاته لأخذ دمشق، قاعدته القديمة من عمّه العادل، كان ابن المشطوب يُقاتل بكُلِّ حمية واندفاع على باب الحديد<sup>(2)</sup>. ولمّا شعر الأفضل بتغيّر نية أخيه وشريكه في حصار دمشق الظّاهر غازي، اتّصل سرّاً بعمّه العادل، ويبدو أن ذلك كان بتدبير ومشورة ابن المشطوب، فهُو الوحيد الذي حضر اجتهاعهم السّري قُرب دمشق؛ حيثُ اتّفقا على إنهاء الحصار مُقابل إقطاعات في الجزيرة يُعطيها العادل لابن أخيه الأفضل (3). ولكنَّ الغريب أن نجد ابن المشطوب بعد فشل حصار دمشق يسير مع الظّاهر غازي، الذي يبدو أنّه استهاله، فقد وعده بأنْ يُقطعه منبخ وقلعة نجم، ولمّا كانت منبح لا تخضع لسُلطان الظّاهر، فقد سيّر ابن المشطوب نُوّابه لاستلام قلعة نجم، فها سلّموها إليهم (4).

وفي عام 598 هـ 1202م، بعد وُصُول ابن المشطوب مع الظّاهر إلى حلب، أخذ يُطالبه بتنفيذ وعده بإقطاع منبح، والقيام "بحصارها، وأخذها له" (5)، ويبدو أن الظّاهر كان في موقف حرج أمام وعده، فهُو يرغب في كسب ابن المشطوب إلى جانبه في الصراع القريب المُتوقَّع ضدَّ عمِّه العادل؛ لأنّه يعرف أن ابن المشطوب من الذين يُعتمَد عليهم في هذا الصراع، ولا يُريد في الوقت نفسه أن يُحكِّمه في شيء من البلاد، رُبَّها لشكُوك في نفسه، أو لخوفه من شخصية ابن المشطوب القويَّة. ولكنْ؛ في النتيجة، نقَد الظّاهر وعده لابن المشطوب، وأخذ منبح، وأقطعها له (6)، لكنَّ شكَّ الظّاهر بابن المشطوب لم يتبدَّد، فلخوفه من أن يتمرَّد في منبح، ويعصى عليه في قلعتها، قام بهَدُم القلعة،

وتخريب أسوارها، قبل أن يُسلِّمها إليه (1). ويُقال إن الملك الظَّاهر \_ بعد تسليمه منبج لابن المشطوب، \_ قد بلغه أنَّه ينوي العصيان، فسار إليه بالعسكر، وهدم قلعة منبج، وسُورَهَا، فغضب ابن المشطوب، وترك خدمة الظَّاهر، وسار نحو الشَّرْق (2).

وعندما سوَّى الظَّاهر أُمُوره مع عمَّه العادل، واصطلحا، وتعاهدا، كان من مُجلة الأُمُور التي اتَّفقا عليها أن يطرد الظَّاهر ابن المشطوب، وحلف أن لا يستخدمه أبداً. وقصد ابن المشطوب الملك العادل، فها قبله، ولكنَّه سمح لابنه الأوحد أيُّوب صاحب مَيَّافارقين أن يستخدمه عنده، فها وقع بينها اتَّفاق، فقرَّبه الأشرف بن العادل، وأحسن إليه، وأرضاه (3).

ويبدو أن الملك الأشرف رغب باستخدام ابن المشطوب؛ لأنّه كان يستعدُّ للتحرُّك في الجزيرة، فَحَمْلَتُهُ على ماردين كانت وشيكة، لذلك؛ أرسل في عام 599 هـ 1203م، ابن المشطوب رسولاً إلى الملك الأفضل في سُمَيساط، ليدعوه إلى الحُضُور بقُوَّاته للمُشاركة في الحملة على ماردين، وشارك ابن المشطوب مع الأشرف في الحملة، فأقطعه الأشرف رأس عين الخابور (4) مكافأة على جُهُ وده ظاهراً، وبالتَّاكيد؛ كان للأشرف من وراء ذلك هدف خفيّ، فالكُلُّ يعرف أن ولاء ابن المشطوب القديم كان للأفضل، ورأس عين كانت من جُملة البُلدان التي أعطيت للأفضل في التسوية بينه وبين عمّه، ثمَّ أخذت منه، فأراد الأشرف الإيقاع بين ابن المشطوب وبين الأفضل بمنحه بلدة يعتقد الأفضل أنّها من حُقُوقه المسلوبة.

ولمّا تحركت قُوَّات أتابك المَوصل نحو الجزيرة للتصدِّي للأشرف، أرسل ابن المشطوب إلى والله العادل يستشيره فيها يفعل  $^{(5)}$ ، وأعاد العادل ابن المشطوب بسُرعة إلى ولده الأشرف مشيراً بعدم المُجازفة بقتى الاتابىك، ولكن المعركة وقعيت في العام نفسه 599 هـ 1203م، ولأبُدَّ أن ابن المشطوب كان أحد أبطالها، ولحقت بجيش الأتابك هزيمة شنيعة  $^{(6)}$ .

<sup>1-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 101.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.

<sup>3-</sup>المنصوري، ابن نظيف، 25.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 38 - 39.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 40.

<sup>6-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 40-41.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 73.

<sup>2-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 18.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 17.

<sup>4-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 20 ــ 21.

<sup>5 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 21.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 3/ 131.

وفي عام 601 هـ 1205م بعد انتصار الأشرف "خاف الظَّاهر غازي من قُوَّة عمَّه في السَّام، فسيَّر إلى البلاد، وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب" (1). ولكن؛ سُرعان ما عادت الأُمُور إلى نصابها، فلم نُلاحظ أيَّ تحرُّك لابن المشطوب، وإن كان هذا يدلُّ على استعداده الدائم للعمل ضدَّ العادل، ورُبَّها الْخُرُوجِ على أيِّ نظام أيُّوبي بشكل عامٍّ، بعدما رأى من صراعهم على الحُكْم.

وفي عام 605 هـ 1208م، "مات الأمير جناح الـدِّين الهكاري أخو المشطوب، وتغيّرت أحوال عماد الدِّين المشطوب "(2)، ولا بُدَّ أنَّه كان عَوْناً كبيراً له حتَّى تغيَّرت أحواله بعد موته، ولكن ذلك لم يُسبِّب تغيُّر موقفه من الدولة، أو تغيُّر موقف الدولة منه، فبعد مُدَّة بسيطة كان ابن المشطوب يُشارك في حملة العادل على سنجار، وحصارها، "فليًّا أخذ العادل بـلاد الخـابور أعطـي إلى ابن الشطوب بلدة المجدل" (3).

# مُحاولة ابن المشطوب خلع السُّلطان الكامل:

نزل الفرنج على دمياط لأَخْذها، من أجل السيطرة على مصر، في أواخر أيَّام الملك العادل، وكان نائبه في مصر ابنه الملك الكامل، الذي سارع بجمع العَسْكُر، ونزل مُقابل الفرنج لـدفعهم عـن دمياط، وكان العادل في الشَّام يجمع الجُيُوش، ويُسيِّرها إلى مصر، ولكنَّه تُوفِّي فجأة قُرب دمشق عام 615 هـ 1218م. ولَّا وصلت أخبار وفاته إلى مُعسكر الكامل عند دمياط كان ابن المشطوب أحد كبار أُمراء العَسْكَر، فاعتقد أن الفُرصة قد لاحت له لتحقيق مشروع رُبَّها كان يحلم بـ مـن سـنوات طويلة، وهُو الوُصُول إلى قمَّة السُّلطة في الدولة، فعندما بلغه موت العادل عزم على خلع الملك الكامل من السَّلطنة وتولية أخيه الفائز إبراهيم(4).

وكان ابن المشطوب يعتمد على كونه "من أجَلِّ الأُمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد المكارية ينقادون إليه، ويطيعونه (١٥)، واتَّفق مع مجموعة من الأُمراء (٥)، منهم الأمير عزّ الـدّين

2 - المنصوري، ابن نظيف، 57 ، ولا ندري هل هُو عمُّه أم أخوه؟ فأخو المشطوب تعني أنَّه عمّه، ثُمَّ يعود لينعت عاد

فخشي على نفسه منهم، فخرج اا(5).

مشروع ابن المشطوب:

الدِّين بالمشطوب، فربها كان يقصد أن المُتوفَّى أخوه.

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 52.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 60.

الحميدي، والأمير أسد الدِّين الهكاري، والأمير مُجاهد الدِّين(1)، كذلك أفسد قلوب جماعة من

الجُند (2)، "وكان عسكر مصر أكثره من الأكراد وابن المشطوب ملكهم "(3)، فاجتمع مع مَنْ وافقه،

وقال لهم عن الملك الكامل: "هذا صبيّ خفيف، ولا يأتينا منه خير" (4)، "فليًّا بلغ الكامل دخل

عليهم، فإذْ هُم جُتمعون وبين أيديهم المُصحف، وهم يحلفون الأخيه الفائز، فعندما رأوه، تفرَّقوا،

1 - فضَّل ابن المشطوب سلوكَ التآمر ليحقِّق هدف بالوُّصُول إلى السُّلطة، وبالتَّأكيد؛ كان

2 - اختار ابن المشطوب أسوأ الأوقات بالنِّسبة للدولة وللأُمَّة، فقد مات السُّلطان العادل،

يُقَدِّر أنَّه مع شخصية قويَّة كالكامل لن يكون إلَّا واحداً من الأُمراء في أحسن الأحوال، لـذلك فكَّر

بتبديل السُّلطان، واختار أخاه الفائز لتقديره \_ أيضاً \_ أنَّه سيكون أسهل قياداً، ومطبَّة مُناسبة لحُكُم

الدولة بواسطته، أو حتَّى بدونه بعد مُدَّة، فهدفه من العملية هُو أن "بصير له التحكُّم في الملكة" (6).

والفرنج يرابطون بقُوَّات عظيمة أمام دمياط، وبالتَّأكيد؛ كقائد عسكري كان يعرف معنى الانقلاب

السِّياسي الذي كان ينوي تنفيذه في مثل تلك الظُّرُوف، وانعكاسه على الموقف العسكري، وهذا ما تمَّ

فعلاً، مع أن المُؤامرة قد انكشفت للكامل الذي هرب من المُعسكر إلى إشموم طناح، لأنَّه لم يعد

يعرف مَنْ معه ومَنْ هُو ضدَّه من العَسْكَر، فلمَّا أصبح الجيش، ولم يجدوا الملك الكامل، تركوا

مُعسكرهم في العادلية بها فيه، ولحقوا بالكامل، عمَّا مكَّن الفرنج من أخذ المُعسكر بها فيه، والعُبُور إلى

ضفَّة دمياط، ومُحاصرتها من البرِّ والبحر، ولو تابع الكامل هربه من مصر لكانت بكاملها لقمة سائغة

<sup>2-</sup>مفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 16.

<sup>4 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 158.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 314، والمواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 16.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

<sup>3 -</sup> كَنزَ الدُّرر، ابن آيبك 7/ 198.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

<sup>6 -</sup> المواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405.

مُؤيِّديه، الذين قد يقومون بعمل ما، في وقت لا يحتمل أي خلاف في صُفُوف جيش يواجه الأعداء. أمَّا نفيه؛ فقد يكون له ألف تبرير، وريثها تنكشف الحقيقة تكون الأُمُور قد هدأت.

# ابن المشطوب في الشَّام:

كانت أوَّل محطَّة لابن المشطوب في الشَّام هي حماة، ولابُدَّ أنَّه أمضى وقته في الطريق وهُو يفكِّر في الانتقام، وفي مشروع بديل عن مشروعه المُخفق للسيطرة على مملكة مصر. وبالفعل؛ نستطيع أن نرى فيها قام به ابن المشطوب ملامح مشروع حاول تنفيذه في الشَّام أوَّلاً، وفي الجزيرة ثانياً.

فعندما وصل ابن المشطوب إلى حماة كان مُجرَّداً من جميع ماله، سوى نفقة الطريق التي أعطاها له الملك المُعظَّم، ومن جميع رجاله سوى أربعة عماليك (1). ويبدو أنَّ قَصْدَ حماة كان اختياراً من ابن المشطوب، بدليل نتائج توقُّفه فيها، فعند وُصُوله إلى حماة تلقَّاه صاحبها المنصُور، فأكرمه، وقام بضيافته (2)، عمَّا يجعلنا نُرجِّح أن هُناك مُراسلات سابقة بينها، أو على الأقلِّ أن المنصُور طَلَبَهُ إليه وهُو في الطريق من مصر، ووعده بالدَّعْم والنصرة. ولم يُضيِّع ابن المشطوب وقته؛ إذْ سُرعان ما أخذ بجَمْع الرجال في حماة، وكان من الطبيعي أن تنضمَّ إليه جُمُوع الأكراد فيها، وفي ما جاورها من البُلدان، واستخدم غيرهم من المُرتزقة الذين وصفهم ابن العديم بأنَّم "أرباب الفساد" (3)، حتَّى صار جمعه حوالي ثمانيائة فارس، وألفا راجل (4).

وبالتَّأكيد؛ كان ابن المشطوب \_خلال عملية جمع الرجال \_يُتابع مُشاوراته مع الملك المنصُور صاحب حماة، الذي "ساعده بالمال والرجال على ذلك" (5). ولكنْ؛ كان لكُلِّ من الرجلَيْن أهدافه المُختلفة، فابن المشطوب كان هدفه الواضح هُو تشكيل إمارة خاصَّة لنفسه، تعفيه من تحكُّم مُلُوك بني أيُّوب، وذلك بأنْ "يتغلَّب على بعض الأطراف" (6).

#### نفي ابن المشطوب من مصر:

علم الملك المُعظَّم من أخيه الكامل ما يُحاوله ابن المشطوب، فتكفل له بتسوية الموضوع، وحلف المُعظَّم أنْ لا ينزل عن فرسه حتَّى ينفيه من الديار المصريَّة (1)، وركب المُعظَّم إلى خيمة ابن المشطوب، فلُهل، "وأدهشه وُقُوف المُعظَّم ببابه" (2)، "فاستدعاه ليركب معه، ويسايره" (3)، "فاستمهله، حتَّى يلبس خُفَّيه وثيابه، فلم يُمهله، فركب معه وهُو آمن (4)، "وسايره إلى أن خرج من المُعسكر "(5)، وكان المُعظَّم قد أعدَّ خسين مملوكاً من خيرة مماليكه، ووضع عليهم عشرة من آل أيُوب، على أن يلحقوا به إذا خرج من المُعسكر، فليًا وصلوا إليه التفت المُعظَّم إلى ابن المشطوب، وقال له: "يا عهاد الدِّين، هذه الديار المصريَّة لنا أو لك؟ فقال: الله، الله، يا خونسد، أنا مملوك بني أيُوب، فقال المُعظَّم: نحنُ ما عُدنا نريدك، تبلى بغيرنا، ولا تبلى بنا" (6)، ثمَّ سلَّمه إلى أصحابه، وأمرهم بإخراجه من مصر، ونفيه إلى الشَّام (7)" فها وجد سبيلاً للامتناع، ولا قدر على المُدافعة، "فساروا به إلى الشَّام (8).

كانت خُطَّة المُعظَّم في غاية البساطة، مع أنَّها تحتاج إلى الكثير من الجُرأة، فقُوَّة ابن المشطوب تكمن بكونه بين أتباعه ومُؤيِّديه في المُعسكر، ومتى عُزل عنهم لا يُمكنه إلَّا التسليم. ويبدو أن المُعظَّم قد فضَّل نَفْيَةُ على قَتْله، مع أنَّه كان يُمكنه ذلك بعد إخراجه من المُعسكر، لأن القتل لن يُبرَّر أمام

<sup>3</sup> ـ إن التصرُّف غير المُتوقَّع من الكامل، بدُخُوله المُفاجئ على المتآمرين وهم يتعاهدون، ويُقسمون، ثُمَّ مُغادرته المُفاجئة للمُعسكر، أربك ابنَ المشطوب وجماعته، وأفشل الخُطَّة بكاملها، ولكن الذي قلب ميزان القوى، ومنع من تجديد مُحاولة ابن المشطوب مرَّة أُخرى، هُو وُصُول الملك المُعظَّم إلى أخيه الكامل في مُعسكره الجديد بإشموم طناح.

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 77.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

<sup>3 -</sup> زُبُدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29 ، بينها يقول ابن نظيف إنَّه رحل عن حماة بسبعهائة فارس فقط. ( المنصُوري، 77 ).

<sup>5 -</sup> زُبُدَة الْحَلِّب، ابن العديم، 2/ 649.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

<sup>1 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 198.

<sup>2 -</sup> دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 343.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 315.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 18.

<sup>6 -</sup> كَنز الدَّررِ، ابن آيبك، 7/ 199.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.

<sup>8 -</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1/ 315.

أمّا المنصُور؛ فيبدو أنّه كان يرخب في زعزعة مُلك أبناء العادل، وتحريض الأفضل، ودعمه لاستعادة البلاد، أو بعضها منها، وبالتّأكيد؛ فإن مصلحته في هذه العملية هي كسر طوق أبناء العادل، الذي يزداد إحكاماً حوله من الجنوب والشهال. وبحال نجاح الأفضل وابن المشطوب فستكون له اليد الطولى عليها، ويكون قد ضمن دوراً أقوى لمملكة هماة في الصراعات السّياسيّة والعسكريّة التي قدّر أنّها ستقوم بعد وفاة العادل، ومع اختلاف الأهداف البعيدة بين المنصور وابن المشطوب فقد تمّ الاتّفاق على الشكل الأوّلي للتّحرّك.

فبعد المُساهمة الكبيرة للمنصُور في إعداد القُوَّة العسكريَّة التي ستُرافق ابن المشطوب الأبدَّ أنّه قد وجَّه، أو شجَّع على الأقلِّ، انضهام قاضي حماة الشَّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن الشيخ شرف الدِّين بن عصرون إلى حاشية ابن المشطوب<sup>(1)</sup>، حتَّى يُشكِّل الجانب الإداري والغطاء الشرعي في مُرافقته لهذا المُغامر، والتي كان المنصُور يُرجِّح نجاحها، فالشيخ نجم الدِّين هُو الأداة التي أمل أن تكون فعَّالة للسيطرة على نزوات ابن المشطوب، وتوجُّهه وُفق رغبة المنصُور، ويدلنُّنا على ذلك ما شرطه الشَّيخ نجم الدِّين على ابن المشطوب، الذي وعده بأنْ "يُحكِّمه فيها يملكه من البيلاد، وأنَّه الإعرامة المُنتظرَة، ومُستشاراً، ووزيراً ناصحاً، ومُوجِّهاً لابن المشطوب، وهذا أمر شائع في الممالك الأيُّوبيَّة، ورُبَّها كان أبرز أمثلته القاضي الفاضل في دولة السُّلطان صلاح الدِّين.

ولابُدَّ أن الحليفَيْن قد اتَّصلا بالملك الأفضل، الذي شرط المنصُور على ابن المشطوب أن تكون الحَرَكة لصالحه، وباسمه، وطلب منه "أن يمضي بمَنْ جمعه من العساكر إلى الأفضل "(3). وكان الأفضل في هذا الوقت قد اتَّفق مع سُلطان سلاجقة الرُّوم على أن يحتلا حلب، وتُسلَّم إلى الأفضل، وبلاد الأشرف، ويأخذها السُّلطان الرُّومي.

ونستنتج من مجريات الأحداث أن الأفضل وسلطان الرُّوم قد راسلا المنصُور، ورُبَّما اتَّفقا معه، وتحالفوا، وأن دعم المنصُور لابن المشطوب جاء في سياق هذا الحلف، فهُ و - رَسْميًا - يضمن

كونه في حماة، وتحت يد صاحبها، الذي لا يميل لهكذا اتِّفاق، فقد دفع الأموال، وقدَّم الرجال لتحقيق

الحذر بعدم مُشاركته المُباشرة ضدَّ مملكة حلب والملك الأشرف، فالنتائج غير مضمونة، وبالوقت

نفسه؛ يُقدِّم الدعم السِّرِيُّ للأفضل وحليفه الزُّومي بتجهيز ابن المشطوب مادِّيًّا وعسكريًّا، وتوجيهـ ه

نحوهما، فعندما طلب المنصور من ابن المشطوب التّوجُّه نحو الأفضل أبلغه - صراحة - أنَّه هُو

وسُلطان الرُّوم كيكاوس سيقومان معه، ويُساعدانه (1).

وفي عام 616 هـ 1219م، تحرَّك ابن المشطوب مع عساكره من حماة، وقد أعلن أن "وُجهته نحو الأفضل في سُمَيساط، ليتَّفق معه ومع سُلطان الرُّوم كيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه "(3)، ولكن ابن المشطوب بدلاً من أن يتحرَّك بسرِّيَّة، ويعبر بلاد حلب بسُرعة لينضمَّ إلى حُلفائه الأفضل وكيكاوس، نجد أنَّه بحرَكة رعناء لا تدلُّ على أيِّ حنكة عسكريَّة، يخترق عَلناً وبصُورة استعراضية \_أراضي حلب، مُجتازاً قنسرين باتِّجاه نهر الساجور؛ حيثُ وجد خيل جند حلب ترعى في المروج، فاستاقها، وأقام عند الساجور (4) بدلاً من أن يتحرَّك بسُرعة شمالاً نحو سُمَيساط.

ويبدو أن هذا المشروع قد طرق أساع الملك الأشرف، الذي سارع إلى مُراسلة ابن المشطوب لإفساد حَرَكَته، التي قدر أنّها ستكون مُؤثّرة جدّاً، وخاصّة ضمن الأحداث المتلاحقة ضدّ أبناء العادل، فالفرنج يُطبقون على دمياط، وسلاجقة الرُّوم يُهاجمون الجزيرة مع حليفهم الأفضل، فكتب الأشرف إلى ابن المشطوب وهُو بحهاة يعده بإقطاع يُرضيه، فامتنع عن القبول، لأن الأتّفاق تمّ بينه وبين الأفضل وكيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه، "وكانت مُراسلته لهما قد سبقت عرض الأشرف" في نفس ابن عرض الأشرف" في نفس ابن المشطوب، لأن الإمارة تأتيه بالراحة، ولكن المشكلة هي اتّفاقه المُسبق مع أعداء الأشرف، وخاصّة

<sup>1-</sup>زُبْدَة الحَلّب، ابن العديم، 2/ 649.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 30.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 249.

وهُنا؛ لابُدَّ أن نتساءل، هل ابن المشطوب بهذه السذاجة العسكريَّة التي ظهر بها؟ إن كان الجواب بالنفي، فلابُدَّ أن الأمر مرسوم ومُدبَّر، وأنَّه يتحرَّك وُفقاً خُطَّة حاكها بسرِّيَّة تامَّة مع الأشرف.

وجاء تصرُّف الأشرف ليُفسِّر سبب حَرَكة ابن المشطوب غير المُتوقَّعة، فنظراً لتفرُّق عساكر الأشرف في السُّهُول والمروج لرَّعْي خُيُولهم، كما هي العادة في كلِّ ربيع، نفترض أنَّه كان في قلَّة من جُنده، "فأركب الأشرف مَنْ بحضرته من العَسْكَر خلف ابن الشطوب، فقبضوا عليه على الساجور، ومعه الشَّيخ ابن أبي عصرون، وساقوهما إلى الأشرف، فعفا عنهما، وأقطع عماد الدِّين رأس عين"(1)، وأعطاه زليبا ملكاً (2). إن ما قام به الأشرف يدلُّ على أن حَرَكَة ابن المشطوب للاستيلاء على خيل حلب هي مسرحية لتبرير ما يليها، فالمُراسلات بين الأشرف وبين ابن المشطوب كُلِّكَتْ بالنجاح قبل أن يغادر حماة، واتَّفقا فيها على إخراج الأمر بهذا الشكل، فابن المشطوب خرج لينضمَّ لِحُلفائه، لا ليقوم بنهب الْخُيُول كفعل بعض اللَّصُوص، ثُمَّ إنَّه حتَّى لم يتصرَّف كاللصوص اللَّذين يهربون بالغنيمة بأقصى شرعة، فقد أقام ينتظر على ضفاف الساجور.

وماذا فعل الفُرسان والمشاة الذين كانوا معم، واللذين يُسْكِلُون قوام جيش لا بأس به في المعايير العسكريَّة لذلك الزَّمان؟ لم نسمع عن أيِّ مُقاومة لهم مُقابل شرذمة من جُنُود الأشرف جُمعت على عجل، وتمكَّنت من القبض على قائدهم ابن المشطوب ومُستشاره الشَّيخ نجم اللِّين بسُهُولة فائقة، ثُمَّ يأتي العفو السريع للأشرف عن ابن المشطوب، ويزيده إقطاعاً مُهيًّا هُو رأس عين، كُلُّ ذلك يزيدنا يقيناً أن كلُّ شيء كان مدروساً ومُحطَّطاً ومُتَّفقاً عليه، وبأنَّ جُهُود الملك المنصُور صاحب حماة قد باءت بالفشل، ولاأبدَّ أنَّه تحسَّر كثيراً على ما دفعه لابن المشطوب، ورُبَّها علَّل نفسه بفُرصة أُخرى.

# وهُنا؛ لابُدَّ من مُلاحظة ما يلي:

كان ابن المشطوب - وإنْ جاء عابراً - جُزءاً من حَرَكة كيكاوس لاحتلال الجزيرة وحلب، مُوظِّفاً الملك الأفضل كواجهة شرعية لأخذ البلاد باسمه، وبالتَّأكيد؛ كان ابن المشطوب يعي دوره في العملية، ويأمل بالكسب الكبير منها، فالوُّعُود كانت تنهال عليه بلا حساب، لكنَّ؛ لماذا تجاوب مع

الأشرف، وترك حُلفاء أقوياء، تُناسبه تطلُّعاتهم ضدَّ أبناء العادل، يبدو أن غدر كيكاوس بالأفضل قد بلغ ابن المشطوب، إن لم تكن هزيمته أمام الأشرف هي السبب المباشر في هذا التحوُّل بموقف ابن المشطوب، فاستجاب لدعوة الأشرف، واتَّفق معه على إخراج عملية الانضام إليه بـشكل يحفظ لـه ماء وجهه، وينفي عنه صفة الغدر أمام صاحب حماة أوَّلاً، وأمام الأفضل وصاحب الرُّوم ثانياً.

### ابن المشطوب في الجزيرة:

لم يطلُ استقرار ابن المشطوب في إقطاعه، ولتطلُّعه إلى تحقيق مركز أكبر، أو "لما في نفسه من الغدر والفساد"(1)، قام في عام 616 هـ 1219م، بالخُرُوج على الأشرف، وانضمَّ إلى أعدائه، الـذين شكَّلوا حلفاً ضدَّه. فقد اتَّفق ابن المشطوب مع صاحب ماردين، وهُو من الأعداء الدائمين للأشرف، من أجل الخُرُوج على الملك الأشرف(2)، وسلَّمه ابن المشطوب رأس عين، فعوَّضه عنها بإقطاع أرجيش، وبقيت زليبا ملكاً له<sup>(3)</sup>.

وفي عام 617 هـ 1220م، راسل مُظفَّرُ الدِّين كوكبوري صاحبُ إربل مُلُوكَ الأطراف يستميلهم إليه ضدَّ الملك الأشرف وحليفه بدر الدِّين لُؤلِّ وصاحب المَوصل، فأجابه ابن المشطوب(4)، "وجمع جمعاً كثيراً من الأكراد والمُفسدين" (5)، فطلب منه كوكبوري التحرُّك إلى ماردين للاجتماع مع صاحبها ومع صاحب آمد، لمنع الأشرف من العُبُور نحو المَوصل لمُساعدتها ضدًّ هُجُوم كوكبوري عليها<sup>(6)</sup>، فكان اللقاء عند دنيسر قُرب ماردين. ولكنَّ تحرُّك الأشرف السِّياسي كان كفيلاً بزعزعة الحلف قبل تحرُّكه العسكري، فقد اتَّصل بصاحب آمد، وهُو أكثر الحُلفاء عرضة للإغراء، وأعطاه بلد حاني وجبل جور، ووعده بتسليم دارا له، فترك الحُلفاء، وانضمَّ للأشرف، فانحلَّ الحلف، واستتبَّ الأمر للأشرف من جديد (7).

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 30، راجعْ أيضاً: زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650. 2 - المنصُوري، ابن نظيف، 77. الإقطاع يُعطى مُقابل تقديم عدد مُحدَّد من المُقاتلين عند الحاجة، ويُمكن استرداده، أمَّا الملك؛ فلا يُمكن نزعه من صاحبه إلَّا بالحَرْب.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 70.

<sup>2 -</sup> زُبْدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 55 6، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، / 121.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 78.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 242.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 70.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442.

فسلَّمه لُؤلُؤ إلى الحاجب، الذي حمله إلى الأشرف في حَرَّان (1)، فأمر الأشرف بإلقائه في جُبِّ بقلعة حَرَّان عام 617 هـ 1220م (2). وبقي ابن المشطوب في سجنه الرهيب مُدَّة عامين، حتَّى تُوفِي عام 619 هـ 1222م (3) من القمل، ومن الجوع، ومن ضغط القيود عليه (4).

وكان موت ابن المشطوب بهذه الصُّورة المُرعبة هي نتيجة لأفعاله بحسب رأي بعض المُؤرِّخين، فأبو الفداء يرى أنَّه "لقي بغيه، وخُرُوجه مرَّة بعد أُخرى" (5)، وابن واصل يقول: "لقَّاه الله عاقبة ما فعله بالمُسلمين في دمياط، وسعيه الرديء، إلى أن كادت ديار مصر تُنزَع من أيلي المُسلمين" (6). ودُفن ابن المشطوب في حَرَّان، حتَّى " بنت له ابنته قبَّة على باب مدينة رأس عين، ونقلته من حَرَّان إليها" (7).

أمَّا الشَّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن شرف الدِّين بن عصرون، قاضي حماة السَّابق، ومُرافق ابن المشطوب، فقد عانى من الاعتقال حتَّى مات ابن المشطوب، فقفع فيه لدى الملك الأشرف، فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ أثناء سفارته للملك الكامل، فقبلت شفاعته، وأطلقه من سجنه (8).

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.

لكنَّ ابن المشطوب أصرَّ على عصيانه، فقاد عسكره، واتَّجه صوب نصيبين في جمع قلبل، على أمل أن يحقِّ نصراً بمُفرده، ولكنَّه واجه هزيمةً غير مُتوقَّعة من والي نصيبين ابن صبره، فتفرَّق جنده، وهرب. وعندما كان يسير فارَّا على طُرُق سنجار خرج صاحبها الأتابكي، وكان مُوافقاً للأشرف، فقبض على ابن المشطوب (1). ولكن الغريب في الأمر أن أفكار ابن المشطوب لاقت قبولاً عند صاحب سنجار، فقد استطاع إقناعه بالخُرُوج على الأشرف، ولمَّا طلبه الأشرف منه امتنع من تسليمه، وأطلقه (2)، فعاد ابن المشطوب من جديد حُرَّا، "فجمع معه مَنْ يُريد الفساد" (3)، ويبدو أنَّهم كانوا وعاد إلى سنجار، ثمَّ خرج منها ثانية للإغارة، ويبدو أن صاحب الموصل كان قد استعد له، وجهّز عسكراً هزموه، فهرب ابن المشطوب ليتحصّن في تلَّ أعفر، فحاصروه، فحضر لُولُؤ، وعرض عليه التُزُول بالأمان، فنزل، وأكرمه لُؤلُؤ، وأخذه إلى المَوصل؛ حيثُ كان موقف العاقمة مُفاجئاً، فعندما دخل ابن المشطوب إلى المَوصل، "فرح الناس به، ودعوا له لمحبَّتهم له" إن هذه المحبَّة تُحيِّر الباحث، فرجل مثل ابن المشطوب خارج على القانون أغار على بلاد المَوصل، ونهبها، وقاتيل الباحث، فرجل مثل ابن المشطوب خارج على القانون أغار على بلاد المَوصل، ونهبها، وقاتيل عسكرها، وتهدّها، فلهاذا تُحبُّه العامّة؟!

وهُنا؛ لا نجد إلَّا التخمين، فلا نعتقد أن خُرُوجه على النظام هُو السبب، ولا تحدّيه للمُلُوك الذين هُم \_غالباً \_مكروهون من العامّة، ولكنْ؛ على الغالب، إن الصفات التي تمتّع ابن المشطوب، وما شاع عنه من بطولة وشجاعة وذكر مُغامراته العسكريَّة، التي من المُحتمل أنّها قد تضخّمت عدّة مرَّات، هي سبب هذه المشاعر من الناس نحوه.

ولكن بدر الدِّين لُؤلُق لم يقدِّر شعور الناس، ولم يهتم به على الإطلاق، بل كانت حساباته السِّباسيَّة هي الأهم، فقد غدر بابن المشطوب، وألقى القبض عليه، واعتقله، ورُبَّها كان ذلك بطلب من الأشرف الذي أرسل الحاجب عليّ، وهُو من أكبر أصحابه، ليطلبه من بدر الدِّين، ويأتيه به،

<sup>2-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180،وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 121، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.

<sup>3 -</sup> السُّلُوكِ، المقريزي، 1/ 333، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180، والمُختصر، أبو الفداء،3/ 125.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 121.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 4/ 76.

<sup>7 -</sup> وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.

٩- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76 ـ كان الشَّيخ أبو البركات نجم الدَّين بن شرف الدَّين بن عصرون حم والدة فخر الدِّين بن شيخ الشَّيوخ، فقد تزوَّج والد فخر الدِّين الشَّيخ صدر الدِّين مُحمَّد ابن عهاد الدِّين عُمر بس حمويه بابنة شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون، وأنجبت له فخر الدِّين وإخوته. ووالدتهم هي ابنة أخ لنجم الدِّين صاحب ابن المشطوب، وهي التي أرضعت الملك الكامل، فكان ذلك سبب تقدُّم أولادها عنده. راجعع: دُرَر العقود الفريدة، المقريزي 2/ 313، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 1/ 793.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 71 - 72.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 4/ 72.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 343.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، أبن واصل، 4/ 72.

أُصُول فارسية، انتهجت طريق العلم والفقه والصُّوفيَّة، وموطنهم القديم "من بحر آباد من رستاق جوين" ((1)، ويُقال إن حمويه بن علي جدِّهم "من ولد رزم بن يونان أحد قُوَّاد كسرى أنو شروان، وتولَّى حمويه قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان، ودبَّر دولته" (2).

بقي الشَّيخ عاد الدِّين عُمر في مشيخة شُيُوخ الصُّوفيَّة حتَّى دُخُول صلاح الدِّين دمشق، فأقرَّه عليها حتَّى تُوفِي عام 577 هـ181م، فولَّى صلاح الدِّين صدر الدِّين مُحمَّد بن عهاد الدِّين مكان والده في المشيخة بدمشق $^{(3)}$ . وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً $^{(4)}$ ، وتزوَّج صدر الدِّين مُحمَّد بابنة القاضي شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن أبي عصرون، فأنجبت له عشرة أو لاد $^{(5)}$ .

وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين وتوكِّي أخيه الملك العادل في مصر والشَّام "كان صدر الدِّين جليلاً مُعظَّماً عند العادل "(6)، وكان هُو الرسول المُعتمَد للملك العادل إلى دار الخلافة، فقد ترسَّل عنه إلى الخليفة النَّاصر أكثر من مرَّة (7)، في مهمَّات الأُمُور (8). وامتدَّت مشيخة صدر الدِّين ليُصبح شيخ الشُّيُوخ في مصر والشَّام (9)، وولاه العادل المناصب الشرعية في الجزيرة، ثُمَّ استدعاه من دمشق إلى مصر ليُولِّيه التدريس بالمدرسة الشافعية فيها (10)، وليتولَّى مشيخة خانقاه الصُّوفيَّة سعيد السعداء (11).

#### رجال الدولة

كان هُناك عدد من الرجال العظام من خارج البيت ومماليكه اعتمد عليهم الأيُّوبيُّون، منهم رجال دين، أو وزراء، ومنهم الحُجَّاب، أو الخُدَّام، وكان لكُلِّ من هؤلاء الرجال علاقة بواحد من مُلُوك الأيُّوبيَّة، أو أكثر، وقد ترتَّب على هذه العلاقة مواقف سياسيَّة وعسكريَّة في حياة منطقة معيَّنة، أو الدولة بشكل عامٍّ.

# أولاد شيخ الشيُّوخ:

مع أن الدِّين الإسلامي لم ينصّ على وُجُود مراتب دينيَّة، فإنَّنا نجد أن بعض الوظائف الدِّينيَّة قد فرضت نفسها مع الزمن، ومن حاجة الناس إليها. وبذلك اكتسبت كلمة الشَّيخ معنى دينياً؛ حيثُ أصبحت تُطلَق على الفُقهاء، أو القُضاة، بمعنى صاحب العلم، ولكنَّها بعد انتشار الطُّرُق الصُّوفيَّة اكتسبت معنى جديداً، فالشيخ هُو رئيس وقائد الطريقة الصُّوفيَّة، وله أتباع ومُريدون وتلاميذ. ثُمَّ وُجد للطُّرُق الصُّوفيَّة منصب شيخ الشُّيُوخ، "الذي وُجد \_ أوَّل الأمر \_ في بغداد"(1)، وأُطلق على مَنْ يتولَّى نظر الزوايا والخانقاوات (2) الصُّوفيَّة في البلاد.

وأوَّل مَنْ تولَّى مشيخة شُيُوخ الصُّوفيَّة في الشَّام هُو الشَّيخ عهاد الدِّين أبي الفتح عُمر بـن عـلي ابن مُحمَّد بن حمويه، الذي "قدم إلى الشَّام في الأيّام النورية، ففوّض إليه الشهيد نُور الدِّين مشيخة الصُّوفيَّة بالشام، وجعل إليه نظر الخانكاهات بها"(3)، وكان نُور الدِّين يحترمه، ويحبُّه 4، والشيخ عهاد الدِّين هُو "ابن الفقيه أصيل خراسان أبي الحُسَيْن عليّ ابن الإمام الزاهد علم الزهّاد أبو عبد الله مُحمَّد بن حمويه الحمشوني الجويني الشافعي "(5)، فأبناء شيخ الشُّيُوخ مـن آل حمويـه أو الجـويني هُـم مـن

<sup>1 -</sup> ابن الفوطى، تلخيص مجمع الآداب، 3/ 453.

<sup>2 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شَامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 240، وخطط الآثـار، المقريـزي، 2/ 346، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 193، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

<sup>4 -</sup> شفاء القُلُوب، الحنبلي، 300.

<sup>5 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 194، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

<sup>8-</sup>كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 1/ 193، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

<sup>9 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 19.

<sup>10 -</sup> الروضتين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 477.

<sup>11 -</sup> سعيد الشَّعداء: خانقاه للصُّوفيَّة في شارع الجهالية في القاهرة، كانت داراً لسعيد السُّعداء الأُستاذ قنبر أحد الأُستاذيْن المُحنَّكَيْن في قصر الخليفة المُستنصر الفاطمي، قتله الخليفة المُستنصر، ورمى برأسه من القصر عام 544 هـ. وكانت الدار تقع مُقابل دار الوزارة، ولمَّا تولَّى صلاح الدِّين حُكْمَ مصر عمل هذه الدار برسم الصُّوفيَّة الواردين من البلاد، ووقفها عليهم، فعُرفَتْ بالخانقاه الصَّلاحيَّة، أو النَّاصريَّة، وكان يُنعَتُ شيخُهَا بشيخ الشُّيُوخ، ولا يتولَّى

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 26.

<sup>2 -</sup> الزاوية أو الخانقاه، ويُقال لها الخانكاه: هي مكان عُمارسة الصُّوفيَّة لطقوسهم التعبُّدية.

<sup>3-</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوحة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 338، وكذلك انظر: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257، وكذلك انظر: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257، وكذر الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 193.

<sup>4 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 240.

<sup>5-</sup>دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

الكامل، حتَّى غدا رجل دولته الأوَّل، فاستخدمه في وظيفة أبيه صدر الدِّين، فكان رسوله إلى الخليفة في بغداد. وفي عام 633 هـ 1236م "جمع له رئاسة العَلَم والقلم، ولم يُجمع ذلك لأحد قبله"(1)، وتنقَّل عهاد الدِّين في عدَّة ولايات، ثُمَّ تولَّى مشيخة الشُّيُوخ بالخانقاه الصَّلاحيَّة سعيد السعداء (2)، وتولَّى التدريس في المدرسة النَّاصريَّة.

وكان عاد الدِّين مع الملك الكامل في حملته على دمشق. ولمَّا تُوفِّ الكامل أقام عادُ الدِّين الملكُ الجوادُ يُونُسَ بن محدود، ابن أخي الكامل نائباً عن الملك العادل بن الكامل الذي تولَّى السَّلطنة بمصر بعد وفاة والده، ثُمَّ عاد إلى مصر، فوجد الأمر على غير ما يُحبُّ (3) فالملك العادل قد قبض على أخيه فخر الدِّين يُوسُف، ولمَّا قابل عادُ الدِّين الملكَ العادل حَمَّله مسؤولية تسليم دمشق للجواد، وَهَمَّ بالقبض عليه، فهوَّن الأمر على العادل، وتعهَّد له بإحضار الجواد إلى القاهرة، فسمح له بالسير إلى دمشق، ولمَّ افقته إلى السلطة على الجواد، طلب منه تسليم دمشق، ومُرافقته إلى القاهرة، "وماطله الجواد، فأحضر الوُلاة الشادين، وأبلغهم عزل العادل للجواد عن دمشق" (4)، والتفت عاد الدِّين إلى الملك المُجاهد صاحب حمص حليف الجواد القوي (5)، والذي ما إنْ سمع بقصد عاد الدِّين دمشق حتَّى سبقه إليها (6)، داعاً للجواد (7)، وأقنعه بالتهاسك والتحالف معه ضدَّ البيعي الكامل الصَّالح أيُّوب صاحب الجزيرة، والعادل الثَّاني صاحب مصر (8)، وتمكَّن المُجاهد من السيطرة على الجواد الذي "بقي لا يفعل شيئاً إلَّا برأي صاحب حص "(9).

وأراد عماد الدِّين الضغط على المُجاهد، فطلب من الجواد إخراجه من دمشق، وطالب المُجاهد بدفع ما كان قد عرضه من أموال على الملك الكامل قبل وفاته (10)، واعتمد عماد الدِّين على

وعندما وُلد الكامل مُحمَّد بن الملك العادل 573 هـ1177م، كانت ولادت قريبة من ولادة أحد أبناء صدر الدِّين، وللعلاقة الوثيقة بين صدر الدِّين والملك العادل، قامت زوجة صدر الدِّين بنت أبي عصرون بإرضاع الملك الكامل (1)، وهذه عادة كانت شائعة بين الأسر حتَّى زمن ليس ببعيد، وذلك في حال نقص حليب الأمّ، أو لزيادة الاهتمام بالمولود، وبهذه الحالة؛ يُصبح الرضيع أخاً لكُللً أولاد المرأة المُرضعة، وهكذا أصبح الكامل أخاً بالرضاع لأولاد صدر الدِّين (2)، لذلك؛ تقدَّموا في دولة الكامل، وكانت لهم إمرة السيف والقلم (6).

ولمّا نزل الفرنج على دمياط، وأخذوا بُرج السلسلة عام 615 هـ 1218م، أرسل الكامل نائب مصر إلى أبيه العادل في الشَّام شيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين رسولاً لطلب النجدات (4). وكذلك أرسله الكامل عام 617 هـ عندما احتلَّ الفرنج دمياط إلى الخليفة النَّاصر يستنجده، فمرض صدر الدِّين، ومات في المَوصل "وعُمره ثلاث وسبعون سنة " (5)، ويقول ابن واصل إن مهمَّته كانت إلى بدر الدِّين لُولُؤ صاحب المَوصل 6، ورُبَّها وفاته في المَوصل هي التي أوهمت ابن واصل.

وبعد وفاة صدر الدِّين بدأ نجم أولاده بالصُّعُود، وأخذت أساؤهم تظهر في دولة الكامل، وهُم: 1 . عماد الدِّين عُمر<sup>(7)</sup>: (581 • 636 هـ 1185 • 1239):

وُلد عباد الدِّين بدمشق عام 581 هـ 1185م، وعندما استدعى الملـك العـادل والـده صـدر الدِّين من دمشق إلى مصر، رافقته أُسرته، وأولاده، فنشأ عباد الدِّين في مصر (8)، وكـان مُقرَّبـاً للملـك

<sup>1 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

<sup>2 -</sup> الخانقاه الصَّلاحيَّة: هي خانقاه سعيد السعداء التي سبق تعريفها.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، الحنبلي، 389.

<sup>4 -</sup> دُرر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، ، 1/ 276.

<sup>6 -</sup>مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 721.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الْكُرُوب، ابن واصل، 3/ 195.

<sup>8 -</sup> تاريخ الإسلام، الذهبي، 31 6 م 640/ 20.

<sup>9 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 173.

<sup>10 -</sup> التاريخ الصالحي، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 604.

مشيختها إلَّا الأكابر والأعيان. ( المواعظ والاعتبار، المقريزي، 3 / 401 )، وقد تحوَّلت \_فيها بعد \_ إلى مسجد سعيد السُّعداء ( النُّبُّوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 4/ 8 ـ 50 ـ 148 وخُطط الإِثار، المقريزي، 2/ 415 ).

<sup>1 -</sup> لبعد تاريخ ولادة الكامل عن تاريخ ولادة أيّ من أولاد صدر الدِّين الذُّكُور الأربعة، فلابُـدّ أن أُمَّهـم أرضـعته مـع إحدى بناتها.

<sup>2 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

<sup>3-</sup>مُفِرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

<sup>4 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 222.

<sup>5 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 240.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُوُوب، ابن واصل، 4/ 19.

<sup>7 -</sup> ترجمته في: شذرات الذهب 5/ 181، والتَّكملة لوفيات النَّقَلَة، المنذري، 3/ 506.

<sup>8 -</sup> دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

قُوَّة العادل الثَّاني سُلطان مصر، الذي اعتبر نفسه نائباً عنه في دمشق، وعلى ضعف الملك الجواد، لكنَّه لم يأخذ بالحسبان ردَّة فعل المُجاهد سيِّد دمشق الفعلي، والذي سيفعل المُستحيل للحفاظ على نُفُوذه فيها، فطلب المُجاهد من عهاد الدِّين، مُلَوِّحاً بالوعُود والوعيد، أن يكتب للعادل الثَّاني ينصحه بـترك دمشق، فراوغ عماد الدِّين، وقال: إنَّه سيكتب بعد أن يُصلِّي خارج دمشق، فأدرك المُجاهد أنَّه سيهرب إلى بعلبك(1)، فقرَّر المُجاهد مع الجواد قتل عهاد الدِّين ابن الشَّيخ اغتيالاً، ونفَّذا ذلك. وهُناك خـلاف على شخصية مُنفِّذ هذا الاغتيال السِّياسي، فابن تغري بردي يقول: إن المُجاهد "أمر بعض نصارى قارا بقتله" (2)، بينها يقول ابن العميد والمقريزي: إنَّهم اتَّفقوا مع نُـوَّاب الإسماعيليَّة، فقتلوه مُقابل مال(3)، بينها لا يُحِدِّد أبو شامة هُويَّة مَنْ قتله(4)، وقد نُفِّذَتْ عملية الاغتيال داخل قلعة دمشق عام 636 هـ 1239م، وكان ممَّنْ حضر الصلاة عليه المُؤرِّخ أبو شامة (5).

# 2. مُعِين الدِّين حسن ( 588 ، 583 هـ 1192 ، 1246م)(6):

كان مُعين الدِّين وريث المشيخة أوَّل الأمر، فقد ولي منصب أباه في مشيخة الشُّيُوخ بمصر، ثُمَّ استخدمه الملك الكامل في الرسالة إلى الخليفة في بغداد، وأقامه بعدها نائباً للوزارة في مصر، حتَّى مات الكامل عام 635 هـ 1238م. وفي عام 637 هـ 1240م لَّـا استتبَّ الأمر للصَّالح أيُّوب في سلطنة مصر "استوزر الصَّالح مُعين الدِّين الحَسَن، ومكَّنه ونوَّض إليه تدبير المملكة، فقام بـوزارة الصَّالح أحسن قيام" (7). ثُمَّ قدَّم الصَّالح أيُّوب مُعين الدِّين على العَسْكَر (8)، فبعد معركة غزَّة وانتصار الخَوَارزميَّة حُلفاء أيُّوب على الفرنج وحُلفائهم أُمراء الشَّام، وجَّه أيُّوب جُيُوش مصر بقيادة

لم يمنع مُعين الدِّين الخوارزميَّة من خراب دمشق، ولم يحمها منهم فقط، بل حافظ على الشَّام لملكه أيُّوب، وتصرَّف بمسؤولية القائد، كما أن اختياره الساحل لإقطاع الَّخوَارزميَّة كان على ما يبدو يقصد منه عدَّة أُمُور، رُبَّها كان منها: تقديره لقُوَّة الخَوَارزميَّة وقُدرتهم على حماية الساحل، الذي استعاد

مُعين الدِّين لإنهاء المعارضة في الشَّام. وفي عام 642 هـ 1244م خرج مُعين الدِّين بالعسكر من مصر

"ومعه الدهليز السُّلطاني والخزائن، وأقامه السُّلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على راس السماط،

ويركب كعادة المُلُوك، وأن يقف الطواشي الاستدار على خدمته على السماط، ويقف أمر جاندار

وتسهيلاً لمهمّته في الشَّام، التي كان أيُّوب يُدرك \_ تماماً \_ مدى صُعُوبتها، فالشام بكاملها من المُلُوك

الأَيُّوبيَّة حتَّى الفرنج مُتَّحدون جميعاً ضدَّه، لكنَّ المصَّالح أحسن استغلال نصره في خزَّة عليهم،

وإبريقاً وعكَّازاً، وقال له: اشتغالكَ بهذا أَوْلَى، فأرسل له طبلاً وزمراً وغلالة حرير"(2)، وكانت

رسالة إسهاعيل تقول: إنكَ فقيه تهتمُّ بأُمُور الصلاة والوضوء، وشيخاً يحتاج لعكَّاز، والحَرْب ليست

لكَ. فردَّ على الصَّالح إسماعيل يقول برسالته: إنكَ لا تُحسن إلَّا عمل المغاني، ولبس الحرير، ولن

يكون لكَ مصلحة في القتال. وبالفعل؛ أثبتت الحوادث أن مُعين الدِّين رجل سيف وقلم، فقد تمكَّن

من فرض الاستسلام على دمشق، ودخلها عام 643 هـ 1246م(3). وبعد دُخُول دمشق، أقدم مُعين

الدِّين على القيام بعمل سياسي سيكون له نتائج كبيرة، فقد منع الخوَارزميَّة، أصحاب نصر غزَّة

ومُساعديه في حصار دمشق، من دُخُول المدينة التي كانوا يُمنّون نُفُوسهم بأسلابها، ولمُكافأتهم على

إن هذا التكريم من الصَّالح أيُّوب لمُعين الدِّين يدلُّ على مدى اعتماده عليه، وثقته به، ومُساعدةً

وصل مُعين الدِّين إلى دمشق، وألقى عليها الحصار، فأرسل إليه الصَّالح إسماعيل "سجّادة

وأسرع لجني ثمار هذا النصر على يد مُعين الدِّين.

أتعابهم أقطعهم الساحل الشَّامي بمناشير كَتبَهَا لهم (4).

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 420.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 421.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أَبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 20/ 344.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 423.

<sup>1-</sup>تاريخ الإسلام، الذهبي، 311 ـ 640/ 20.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغرى بردي، 6/ 314.

<sup>3 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّن، ابن العميد، 24 ودُرّر العُقُود، المقريزي، 2/ 315.

<sup>4 -</sup> ذَيْل الرَّوضَٰتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَار، 20/ 329. راجع مناقشة ذلك في مبحث العلاقات

<sup>5 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 329.

<sup>6 -</sup> ترجَمته في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 48، والعبر، الذهبي، 5/ 175، ودول الإسلام، القدسي، 2/ 112، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 352، وشذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 218، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 755.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.

<sup>8 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

# 4. فخر الدِّين يُوسُف(1):

كانت ولادة يُوسُف بدمشق بعد الثانين وخسائة 580 هـ 1184م (2)، وقُتل عام 647 هـ 1249 شهيداً بدمياط. بعد تولي الكامل سلطنة مصر، أمَّره، وجعله نديها له، وبعثه رسولاً إلى الفرنج، وإلى إخوته في الشَّام، وإلى الخليفة في بغداد، وسلَّمه قيادة الجيش وتدبير المملكة (3)، فخلع العامة وهي شعار الفُقهاء، ولبس الشربوش وهُو لباس الأُمراء (4)، وكان "عظيها في الدولة الكاملية" (5). ويبدو أن ثقة الكامل بفخر الدِّين كانت بلا حُدُود، واعتهاده عليه كان كبيراً، فقد كان رسوله الخاص إلى الإمبراطُور فريدريك النَّاني، وهُو الذي أشرف على تنفيذ اتّفاقية تسليم القُدْس لفريدريك، ورافق الإمبراطُور في زيارته لها، عا جعل صداقته مع الإمبراطُور تتعمَّق إلى درجة تبادل الرسائل معه (6)، ويُقال بأنَّ فريدريك قد منحه رُتبة فارس (7).

واستمرَّ على وضعه المُميَّز في الدولة آيَّام العادل الثَّاني ابن الكامل فقد "كان الأمير فخر الدِّين ابن شيخ الشُّيُوخ من أجَلِّ الأُمراء، وأعظمهم عند العادل، ويقتاد به جماعة من الأُمراء والجُند" وكان رئيساً مُعتشياً (9)، لكنَّه واجه محنة شديدة بعد مقتل أخيه عهاد الدِّين بدمشق. ورُبَّها اعتبر فخر الدِّين أن السُّلطان العادل الثَّاني مسؤولاً عن مقتل أخيه عهاد الدِّين بإرساله إلى حتفه في دمشق، فأراد الانتقام منه، ورُبَّها كان هذا سبباً مُباشراً حرَّك لدى فخر الدِّين نيَّة مبيَّتة ضدَّ السَّلطنة الأيُّوبيَّة، التي كان فخر الدِّين من أكثر الناس معرفة بالفساد، الذي أصبح عليه مُلُوكها وأُمراؤها.

وأثناء الحصار تُوفِّي مُعين الدِّين ابن الشَّيخ في دمشق عام 643 هـ 1246م "عن ستّ وخسين سنة "(1)، "وكان بين بُلُوغ أُمنيَّته وحُلُول منيَّته أربعة أشهر ونصف، وكان جواداً كريمًا "(2)، وصُلِّي عليه بجامع دمشق، ودُفن بجبل قاسيون، عند أخيه عهاد الدِّين عمر (3).

# 3. كمال الدِّين أحمد (584/639 هـ 1188 - 1241م):

عندما أخذ الكامل بلاد الجزيرة كلَّف كمال الدِّين بالنيابة فيها، ثُمَّ طلبه إلى مصر لتولِّ تدريس الفقه الشافعي في مدارسها<sup>(4)</sup>. وبقي كمال الدِّين على منزلته ومكانته في أيَّام العادل الثَّاني بن الكامل<sup>(5)</sup>. وفي عهد الملك الصَّالح أيُّوب قدَّمه على الجُيُوش غير مرَّة (6).

وفي عام 639 هـ 1241م، جعله الصَّالح أَيُّوب مُقدَّم حملته على السَّام لقتال النَّاصر داود صاحب الكَرَك وحليفه الملك الجواد صاحب دمشق، فاشتبك معهم قُرب القُدْس، فهزموه، وأسروه، وقام النَّاصر داود بإطلاق سراحه، فتوجَّه إلى مصر، ولمَّا بلغ غزَّة تُوفِي فيها، وكان ذلك في العام نفسه 639 هـ 1241م (7)، وبنى أخوه مُعين الدِّين على قبره هُناك قبَّة (8).

<sup>1 -</sup> ترجمته في : تلخيص محمع الآداب، ابن الفوطي، 3/ 453.

<sup>2 -</sup> شذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 238.

<sup>3 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

<sup>4 -</sup> الشربوش: قلنسوة طويلة مثلثة الشكل، كان يستعمله أرباب السيف من الأُمراء ( المُعجم المفصل بأسهاء الملابس عند العَرَب، رينهارت دوزي، ترجة د. أكرم فاضل)، والكلمة معربة عن سربوس الفارسية، وتعني غطاء الرأس. (الألفاظ الفارسية المعرّبة، السَّيِّد أدى شير، مادَّة: سربوس).

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.

<sup>6 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، ١٩٥٥ ـ 194 ـ يُورد ابن نظيف نصّ رسالتَيْن من فريدريك إلى فخر الدّين.

<sup>7 -</sup> سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 82.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 215.

<sup>9 -</sup>شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 238 ـ 239.

<sup>1 -</sup> شذرات الذهب، ابن العهاد، 5/ 218.

<sup>2-</sup>المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 200.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَّتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 349.

<sup>4 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 347.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.

<sup>6 -</sup> خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 347.

<sup>7-</sup> واختلف في سنة وفاته بين 639 هـ و 640 هـ ، فهي عند أبي شامة ( ذَيْـل الرَّوضَـتَيْن، 7)، وابـن تغـري بـردي ( النُّجُـوم الزَّاهرَة، 7 ) في عام 640 هـ . بينها يقول ابن واصل ( مُفرِّج الكُرُوب، 7 )، والمقريزي ( السُّلُوك، 7)، إن وفاته كانت عام 639 هـ . 8 -النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 345، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 300 ـ 301 .

وتابع فخر الدِّين مُباشرة مهمَّة أخيه المُتوفَّى، فقاد العَسْكَر نحو الشَّام، وحاصر النَّاصر داود، أحد أطراف التحالف مع الفرنج ضدَّ الصَّالح أيُّوب، حتَّى أجابه إلى ما طلبه منه (1). وفي عام 445 هـ 1247م، حاصر طبرية، وفتحها، ثُمَّ "حاصر عسقلان، وقاتل عليها قتالاً عظيهاً، وفتحها "(2)، وكانتا قد سُلِّمتا للفرنج عام 641 هـ 1243(6).

وفي سنة 646 هـ 1257م، هاجم سُلطان حلب النَّاصر الثَّاني حمص، وتمكَّن من إجبار صاحبها الأشرف مُوسى حليف النَّاصر أيُّوب على النسليم (4). كان النَّاصر أيُّوب مشغولاً بمرضه عن إنجاد حليفه ملك حمص (5)، لكنَّه مع ما هُو عليه من الضعف تحرَّك إلى الشَّام، وأقام بدمشق، وأرسل جيشه مع نائبه (6) في دمشق فخر الدِّين بن الشَّيخ لاستنقاذ حمص من يد الحلبيين (7)، فأحكم فخر الدِّين حصار حمص، ورماها بالمجانيق (8)، ولمَّا أرسل النَّاصر الثَّاني النجدات من حلب لفكً حصار حمص تصدَّى لها فخر الدِّين، وأوقع بهم خسائر كبيرة (9)، وشدَّد فخرُ الدِّين الحصارَ على حمس، حتَّى أشرف على أخذها (10).

وفي هذه الأثناء وصل إلى السُّلطان أيُّوب بدمشق الخبر بأنَّ "الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص لقصد الديار المصريَّة "(11)، فترك حصار حمص، وسحب قُوَّاته، وتوجَّه نحو مصر (12). ويبدو أن السُّلطان كان يملك معلومات عن مكان إنزال الحملة الفرنجيَّة، وعرف أن دمياط هدف لويس، فشحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة، وعهد لبني كنانة وهُم مشهورون بالسُجاعة والإقدام

وبعد أن سيطر الصَّالح آيُّوب بن الكامل على دمشق في تحدَّ كبير لسلطنة أخيه العادل في مصر، وجد فخر الدِّين الطريق لإزاحة العادل من السَّلطنة، وبالتَّأكيد؛ كان فخر الدِّين يعتقد أن مصالحه مع أيُّوب ستكون أفضل عمَّا هي عليه مع أخيه العادل، فكاتبه، "واستحثَّه على سُرعة القُدُوم إلى مصر، واطَّلع النَّاصر داود على ذلك، فأطلع العادل، فقبض عليه، واعتقله في قلعة الجبل (1)، عام 641 هـ 1243م، وأقام فخر الدِّين في سجنه ثلاث سنين؛ حيثُ "الاقى شدائداً وضرَّاً" (2)، "وما كان يُمكنه النوم من القمل (3).

ولًا دخل الصَّالح أيُّوب مصر بعد أن قبض على أخيه العادل أخرج فخر الدِّين من سبجنه، فغادر السجن في موكب عظيم "اجتمع له خلق من الرعية، ودعوا له، لأنَّه كان مُحبَّباً إلى الناس لكرمه وحُسن سيرته، فبلغ الصَّالح ذلك، فاستشعر منه، ولم يُعجبه، وأمره بلزوم بيته، فلزم بيته غير مضيق عليه" (4).

إن ما جرى، من سجن فخر الدِّين بسبب أيُّوب، ثُمَّ الإقامة الجبرية بأمر من أيُّوب، يدل على علو همة هذا الأمير الذي وجد نفسه قادراً على التدخل في أمر السَّلطة والمصراع عليها، فإنْ صحَّ اتَّصاله بأيُّوب (5) فهُو دليل على وُجُود مشروع لديه لدُّخُول لعبة السُّلطة، ودعمه لوُجُود سُلطان يناسب مصالحه ضدَّ سُلطان لا يناسبها، ولم يكن فخر الدِّين لينسى بناء القاعدة الشَّعبيَّة لمشروعه المُستقبلي، فالأعداد الكبيرة من الناس التي احتفلت يوم خُرُوجه من السجن كانت من الضخامة والفاعلية؛ بحيثُ أخافت السُّلطان الجديد أيُّوب، فألزمه بيته حتَّى عام 643 هـ 1246م، حيث جاءته الضارَّة النافعة، فقد تُوفِي أخوه مُعين الدِّين، ولم يبق من أولاد الشَّيخ غير فخر الدِّين يُوسُف، "فأفرج عنه السُّلطان أيُّوب، وخلع عليه، وأمَّره، وقدَّمه، وبالغ في الإحسان إليه "(6).

<sup>1 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري / 203.

<sup>2-</sup>المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري / 216، وأخبار الأيُّوبيُّن، ابن العميد، 36.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.

<sup>4-</sup>العبر، الذهبي، 5/ 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

<sup>5-</sup>النُّجُومِ الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 328، والمُختصّر، أبو الفداء، 3/ 177.

<sup>6 -</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 379.

<sup>7 -</sup> العبر، الذهبي، 5/ 188.

<sup>8-</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

<sup>9-</sup> العبر، الذهبي، 5/ 188.

<sup>10 -</sup> السُّلُوك، المَقريزي، 1/ 431.

<sup>11-</sup>وفيات الأعيان، أبن خلكان، 6/ 259.

<sup>12 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 379، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 177.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 200.

<sup>3-</sup>مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 755، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، أحداث عام 643.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 5/ 276

عَلَى اللهِ عَلَى اللهُ عَرَّوج اللهُ عَرُوج اللهُ عَرَوج اللهُ عن دمشق نحو مصر قد تمَّ بدعوة من أُمراثها، ولائِدَّ أن فخر الدِّين كان أبلغهم تأثيراً في قرار التحرَّك نحو مصر قبل أن يثبت أيُّوب أقدامه في الشَّام.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 424.

لحاية المدينة من الداخل (1)، ثُمَّ أمر السُّلطان نائبه في القاهرة ابن أبي علي بتجهيز الأُسطُول، وتسييره في النيل نحو دمياط (2)، واستكمل أيُّوب استعداداته العسكريَّة بتوجيه نخبة قُوَّاته مع قائد جيشه ورجل دولته الأوَّل فخر الدِّين يُوسُف إلى دمياط للتصدِّي للحملة المُتوقَّع وُصُوها من البحر. وتمركز فخر الدِّين بقُوَّاته على الساحل في جيزة دمياط من الغَرْب، وأصبح فرع النيل المُسمَّى دمياط يفصل بينه وبين المدينة (3)، وهُو موقع استراتيجي أثبت نُزُول الحملة الفرنجيَّة أمامه أنَّه كان مُوفَّقاً باختياره، فقد حَصَرَ بقُوَّاته جيشَ الفرنج، الذي تمكن من النُّزُول إلى البرِّبين فرع دمياط وساحل البحر، وسدَّ

ويصف شاهد عيان فرنجي رافق حملة لويس ما وجده الفرنج ساعة وُصُوهم ساحل مصر يقول: "وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمُسلمين على الخُيُول، وعلى الأقدام، وكان مصبُّ النيل في الوقت نفسه مُغطَّى بالسُّفُن العازمة على إعاقة هُجُوم شعبنا" (4) "ونزل الفرنج في البرِّ الذي عسكر فيه المُسلمون، فناوشهم المُسلمون، واستشهد بعضهم. ولمَّا أمسى الليل رحل فخر الدِّين بمَنْ معه من العساكر... وخلا البرِّ الغربي للفرنج "(5)، ولم يُقتَلُ من العَسْكَر أحد، سوى شيخ من المُتطوِّعة جاء من الكَرك، واستشهد في هذه المُناوشات (6).

ويبدو أن فخر الدِّين لم يُحاول منع إنزال الفرنجة على البرّ المصري بشكل جدِّيِّ، ولم يتصدَّ للحملة في وقت حرج جدًّا للغُزاة هُو ساعة تدافعهم نحو البرّ لإقامة رأس جسر لهم فيه، فلو فعل ذلك مع استعداداته الكُبْرَى، وفُقدان الفرنجة لعامل المُفاجأة، أو سرِّيَّة الحملة، وقتاله على أرضه وبين شعب يدعمه، فعلى الأقلّ؛ كان قد أوقع خسائر جسيمة في صُفُوف حملة لويس التَّاسع، ولكان أجبره على تغيير مكان الإنزال، إنْ لم نقل منعه نهائيًّا، ولكننا نجد أن فخر الدِّين على عكس كُلِّ التوقُعات والاحتالات العسكريَّة التي يملك زمامها، قام بسحب قُوَّاته بعد مُناوشات بسيطة، بدت

استعراضية أكثر منها حربية، وعبر نحو دمياط نُحْلِياً الساحة للفرنج لإتمام إنزالهم، وفتح \_عامداً، أو مُهملاً \_طريق دمياط أمام الفرنجة بأهون الأسباب، وأسهلها، علماً أن الفرنج لم يضغطوا عسكريًا عليه لإجباره على الانسحاب، ولم يُشكِّلوا تهديداً حقيقيًّا لقُوَّاته.

كان انسحاب فخر الدِّين مُثيراً لدهشة الجُند والسُّكَان والفرنجة على السواء. فلهاذا انسحب خارقاً كُلَّ التَّقاليد العسكريَّة، وضارباً عرض الحائط بمصير دمياط، بل الديار المصريَّة، والدولة كُلّها؟!.

كان فخر الدِّين أكثر المُقرَّبين من السُّلطان أيُّوب، وحضر معه من السُّام إلى مصر، وكان رفيقه ونديمه في الطريق، لذلك كان يُدرك فخر الدِّين مدى استفحال مرض السُّلطان، ورُبَّما كان يتوقَّع موته بين لحظة وأُخرى، ووريث المملكة الوحيد في أقصى الشَّام، إنَّا على ما يبدو الفُرصة التي انتظرها فخر الدِّين طويلاً، فالمعركة مع الفرنج يُمكن أن تطول على أسوار دمياط، لكنَّ المعركة على السُّلطة ستُحسم بشكل سريع إذا مات السُّلطان، فقرَّر الانسحاب نحو المُعسكر، لكنَّ النتائج المُفجعة لانسحاب رُبَّا كانت أكثر بكثير عمَّا توقَّع.

فانسحاب كُتلة الجيش الكُبْرَى بدُون قتال، دفعت حامية دمياط بقيادة الأمراء الكنانيين للانسحاب منها، "فليًّا رأى أهل دمياط رحيل العَسْكَر، خرجوا، ولم يبقَ بالمدينة أحد" وعندما تقدَّم الفرنج نحو المدينة، وجدوا الأبواب مُفتَّحة، وليس بها أحد، فاعتقدوا أنَّها مكيدة، وأحجموا عن دُخُوهًا أوَّل الأمر (2)، ثُمَّ دخلوها، وعَلَّكوا ما بها من السلاح والمُون والـذخائر صفواً عفواً (3). "وعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدِّين من أقبح ما يشنع به" (4)، وعدَّما بعمض المُورِّخين سُوء تدبير (5)، أو قبيح رأي (6)، ولكنَّها تبقى بدُون تفسير مُقنع إلَّا إذا اعتبرنا أن السعي للسُّلطة كان من أهم دوافع فخر الدِّين، والأحداث التَّالية تُوكِّد ذلك:

عليهم طريق التقدُّم البرّيّ نحو الداخل.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220.

<sup>3-</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 179، والسُّلُوك المقريزي، 1/ 439.

<sup>4 -</sup> السُّلُوكِ، المقريزي، 1/ 438.

<sup>5 -</sup> كَنِرْ الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 369.

<sup>6 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 330.

<sup>1-</sup>البيان والإعراب، المقريزي، 20 - 21، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 178.

<sup>2-</sup>البيان والإعراب، المقريزي، 21.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، ٦/ 437.

<sup>4 -</sup> جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 43/ 1177.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.

<sup>6 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219.

لًّا وصل فخير اللِّين وعساكره، وخلفهم الأُمراء الكنانيون، وأهل دمياط إلى مُعسكر السُّلطان في أشموم طناح، أمر السُّلطان بشنق الأُمراء الكنانيين(1)، "وكانوا نيِّفاً وخسين أميراً(2)، وتغيَّر السُّلطان على الأمير فخر الدِّين، وقال: أما قدرتُم تقفون ساعة بين يدَيْ الفرنج؟! وقامت الشناعة من كُلِّ أحد على الأمير فخر الدِّين" (3).

وهُنا؛ نجد تناقضاً كبراً في موقف السُّلطان أيُّوب، فقد نتفهَّم إعدامه للأمراء الكنانية بأنَّه تدبير عسكري أثناء الحَرْب لمنع غيرهم من التهاون، لكنْ؛ ما هُو مُبَرِّر تغاضيه عن فخر الدِّين، وهُـو السبب الرئيس لضياع دمياط، خاصَّة وأن تُخالفته للأوامر العسكريَّة بالانسحاب دُون قتال جلية واضحة؟! فهل كان السُّلطان \_حقًّا \_غير قادر على عُقُوبته، أو على الأقلُّ مساءلته، أو أنَّه كان رجل الجيش القوي؟! فإن لم نقل: إن السُّلطان خاف منه، فقد نقول: إنَّه كان بأمسِّ الحاجة إليه في مثل تلك الظُّرُوف، ورُبَّما كان ردّ فعله القوي تجاه الكنانيين لعدم قدرته على التصرُّف مع فخر الـدِّين. ويُسبِّر المقريزي بعبارة دبلوماسية جدًّا موقف السُّلطان تجاه فخر الدِّين؛ حيثُ يقول: "وكان الوقت لا يتَّسع إلَّا للصبر والتغاضي "(4)، ولكنْ؛ حتَّى هذا التغاضي لم يُعجب أُمراء العَسْكَر، وخافوا أن يكون السُّلطان قد بيَّت لهم الغدر، فَهَمُّوا بقتله، لكنَّ فخر الدِّين أشار عليهم بالصبر، حتَّى يتبيَّن أمر السُّلطان، "وقال لهم: إنَّه على فراش الموت، وإلَّا فهُو تحت أيديكم؛ فتركوه "(5).

فهل نستشفُّ بوادر انقلاب عسكري على السُّلطان؟ وإن كان ذلك حقيقة فيبدو لنا أن التاريخ يُعيد نفسه، ففي الظُّرُوف نفسها والمكان نفسه كان ابن المشطوب يُدبِّر مُؤامرة لخلع الكامل، وها هُو فخر الدِّين ومعه مجموعة من أُمراء العَسْكَر يُريدون الإطاحة بأيُّوب ابن الكامل.

وكما فعل الكامل من قبل أسرع أيُّوب مُغادراً أشموم طناح نحو المنصُورة، ولكن المرض كان قد نال منه، وانتظار موته بالمرض هُو الذي دفع عنه الموت بسُيُوف أُمراء الجُند الموالين لفخر الدِّين.

وبالفعل؛ لم تطلُّ حياة السُّلطان، فتوفي بعد وُصُوله المنصُّورة، دُون أن يـوصي بخلافتـه إلى أحد، ولا حتَّى لولده تُوران شاه، فهُو يعرف أنَّه لا يصلح للحُكْم (1)، فظهرت على الفور ثلاث شخصيًّات كلِّ منها يتشوَّف للسَّلطنة، وكالعادة؛ لم يختلفوا أوَّل الأمر، بل اتَّفقوا، ورتَّبوا أُمُور الدولة بعد وفاة سُلطانها أحسن ترتيب، وهُم:

1. شَجَر الدُّرِّ، جارية أيُّوب وزوجته، وأمّ ولده خليل المُتوفَّى، وأقرب الناس إليه، وقد أخذت زمام المبادرة واستدعت كلاً من:

2. الطواشي جمال الدُّين مُحسن، وكان أقرب الناس إلى السُّلطان، وأكثرهم مُلازمة له.

3. الأمير فخر الدِّين؛ مُقدَّم الجيش، والأمير الأكثر شعبية بين الناس، وقد عرف الفرنج مكانته، قال عنه جوانفيل: "كان فخر الدِّين أعظم الناس مكانة في العالم الإسلامي" (2).

واتَّفقت معهم على تدبير المملكة (3)، وشكَّلوا ما يُشبه مجلس حُكْم انتقالي، يتَّضح فيه جناحان، الأوَّل : سياسي، وتُمثِّله شَجَر الدُّرِّ، والثاني: عسكري، ويُمثِّله فخر الدِّين. وكانت أُولى خطوات مجلس الحُكُم هذا أنْ طلب الأمراء والقادة والوُّلاة والجُند ليحلفوا، وأداء القَسَم هُو الضمان الشرعي لولاء الناس، وكان نصُّ القَسَم الذي أُملي على الناس يتضمَّن الولاء للسُّلطان؛ فهم لم يعلنوا موته بعد، ومن ثَمَّ؛ لابنه تُوران شاه، ولفخر الدِّين قائداً عامًّا للجيش، وأتابكاً لتُوران شاه، ومُدبِّراً لدولته (4)، وكتبوا إلى نائب القاهرة ابن أبي علي ليحلف الناس على ذلك (5).

من ذلك كُلِّه؛ يبدو لنا أن الأمير فخر الدِّين هُـو رجـل الدولـة الأقـوى، الـذي يُـسيطر عـلى الجيش، مع أن مماليك السُّلطان أيُّوب يُشكِّلون قُوَّة قتالية كبيرة فيه، لكنْ؛ على ما يبدو، لم يكونوا قد وصلوا إلى التحكُّم بالقيادات العُليا، ولم تبرز كفاءتهم وأهليّتهم للقيادة بعد، ولن ينمّ ذلك حتَّى تجري معركة المنصُورة. ونستطيع أن نتوقّع أن فخر الدِّين رضي أن يكون الرجل الشَّاني اسميًّا، بعد تُوران شاه بن أيُّوب، لعدَّة أسباب:

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، ٦/ 444،

<sup>2 -</sup> سبرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 83.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1 / 444.

<sup>1 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.

<sup>2 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

<sup>5 -</sup> شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 237، \_وانظر أيضاً: المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 216، والـسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

1\_ تأمين غطاء شرعي تتمُّ الدعوة له، بعد إعلان موت أيُّوب، فالدعوة المُباشرة لنفسه ستُواجه معارضة شديدة من الأطراف كُلِّها.

2 كان فخر الدِّين يشكُّ بإمكانية وُصُول تُوران شاه إلى مصر، ففي الشَّام أعداء كُثُرٌ لتُوران شاه يتربَّصون به، وسيتكفَّلون بمنعه من إتمام سفره، إضافة إلى مخاطر الطريق الأُخرى من أقاصي شال الشَّام حتَّى مصر (1).

3\_ مُوافقة فخر الدِّين على سلطنة تُوران شاه تهدئة فعَّالة لمعارضيه المُتوقَّعين، وأولهم شَجَر الدُّرِّ التي تتمتَّع بولاء مماليك أيُّوب وهم جمرة الجيش، وأخطرهم ابن أبي على نائب السُّلطان في القاهرة.

أمًّا على أرض الواقع؛ فقد سبقت الأفعال النوايا، فالوقت لا يكاد يتَّسع لتردُّد مُتردِّد، ولا لتأتِّ مُتأنِّ، فمُباشرةً؛ أخذ الأمير فخر الدِّين بالتصرُّف بالمملكة، وتدبير أُمُور الدولة والجيش، وأعاد إقطاع البلاد بمناشير جديدة (2)، "وأخذ فخر الدِّين بالاستبداد والاستقلال بالمملكة، وصار يركب في موكب عظيم، وجميع الأمراء في خدمته" (3).

وقد وصلت أصداء ذلك إلى مُعسكر لويس التَّاسع، واعتقدوا بأنَّ فخر الدِّين قد خلف السُّلطان رَسْميَّا، ويُؤكِّد ذلك جوانفيل، مُرافق الملك، الذي كتب يقول: "اختار المُسلمون مكان السُّلطان، الذي مات واحداً اسمه فخر الدِّين، وحمل على رايته التي تألَّفت من ثلاثة أقسام:

على القسم الأوَّل، رنك الإمبراطُور فريدريك. وعلى الثَّاني، رنك سُلطان حلب. وعلى الثَّالث، رنك سُلطان القاهرة " (4). وحَمُلُ فخر الدِّين لهذه الرنوك الثلاثة ما هُو إلَّا تعبير عن التحالف الوثيق مع فريدريك، والرمز الثَّاني للشام التي تتبع لسُلطان مصر، وليس رمز حلب كا اعتقد جوانفيل.

وبالمُقابل؛ كان الرجل الآخر القوي وهُو نائب القاهرة ابن أبي على لا يُفوِّت الوقت. فقد

تتالت عليه الكُتُب من المنصُورة باسم السُّلطان أيُّوب، "وشكَّ بعلامة السُّلطان، فدقَّق بأخبار

المُعسكر حتَّى عرف موته، فاشتدَّ خوفه من فخر الدِّين، وخشي أن يتغلَّب على المُلك، فاحتاط

لنفسه "(1)، ولمَّا كان يعرف تمام المعرفة قُوَّة فخر الدِّين، وأنَّـه لا قبَـلَ لـه بمُنافسته، فقـد تعلُّـق أملـه

بحُضُور تُوران شاه، فأرسل قُصَّاده تترى نحو تُوران شاه لإحضاره على جناح السُّرعة، وكتب لـ ه

يقول: "المصلحة في السُّرعة، ومتى تأخّرت فات الفوت، وتغلَّب الأمير فخر الدِّين على البلاد" (2).

- بشكل شبه دقيق - تأزُّم الوضع بين السُّلطان أيُّوب وفخر الدِّين بعد انسحابه من دمياط.

أمَّا نتائج ذلك، وعلاقة فخر الدِّين بابن أبي على نائب القاهرة؛ فقد وصلتهم مُسْوَّشة في أوَّلها،

ومعكوسة في آخرها، ورُبَّها كان السبب في صياغتها من قبّل الكُتَّاب المرافقين للحملة، واللذين

تجربة، والأقوى، والأكثر أتباعاً، والأشدُّ استعداداً لهذا الأمر. ولكن القدر كان له بالمرصاد، عندما

أخرجه من حلبة الصراع بأهون الأسباب، فقد هاجم الفرنج - ليلا - المنصُورة ؟ حيثُ يُعسكر المسلمون

"الذين لم يشعروا إلَّا والفرنج معهم في المُعسكر، وكان فخر الدِّين في الحَّام، فخرج مدهوشـــاً، وركـب

فرسه في غير اعتداد، وليس معه سوى بعض مماليكه والأجناد، فلقيه طلب الفرنج الدواية، وكانت

طلبته الفرنج، فقتلوه "(4)، "فقد طعن، ووقع ضربتان في وجهه، فسقط "(5). جاء استشهاد فخر الدِّين

في موقعة المنصُورة ليُحقِّق له ولمُنافسيه على السواء أُمُوراً عظيمة: بالنِّسبَة له، فقد محا \_ باستشهاده مُدافعاً

عن المنصُورة -عارَ تراجعه عن دمياط، وبالنسبة لمُنافسيه، فقد أزاحه الموت من أمامهم بأيسر السبل، كما

وكانت الدلائل كُلُّها تُشير إلى تفوُّق فخر الدِّين في أيِّ صراع قادم على السُّلطة، فهو الأفضل

وكانت أخبار مصر السِّياسيَّة تصل إلى الفرنج بواسطة عُيُونهم، أو عبر الأسرى، وعمَّا وصلهم

<sup>1 -</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، ٦/ 445.

<sup>3 -</sup> التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1124.

<sup>4-</sup>السُّلُوكَ، المقريزي، 1/ 447.

<sup>5 -</sup>مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 91. ـ وينفرد صاحب مرآة الجنان بجعل وفاة فخر الدِّين عام 648 هـ، بيـنها هـي ــوُفقـاً لتأريخ الموقعة، ولكُلِّ مَنْ ترجم له من المُؤرِّخين ـ عام 647 هـ.

<sup>1 -</sup> العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يُوسُف، 142.

<sup>2 -</sup> المنشور: رُقعة من الورق، يُكتب عليها اسم الإقطاع، واسم صاحبه.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 445.

<sup>4 -</sup> سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 82 \_ 83.

# المبحث الرَّابع:

# دور بعض الأتباع

كان من الطبيعي في نظام الحُكْم الأثّنوي، وطريقة عمل الجهاز الإداري فيه، أن يرتقي الموهوبون من أصغر المراتب في الحاشية إلى تولِّي بعض المناصب الحكومية، وأن يصلوا إلى أعلاها في بعض الأحيان، معتمدين على شخصياتهم المتفوِّقة، وعلى مواهب إدارية مُتميِّزة، وبشكل خاصٌ؛ على قُربهم من الملك، أو الحاكم، الذي كان في أمسِّ الحاجة إلى رجال أكفَّاء، يعرفهم، ويثق بهم. ويبدو أنَّهم لم يُدركُوا حقيقة كانت تتكرَّر أمامهم، وهي أنَّهم كُلَّا اقتربوا من الشُّهرة والنجاح أكثر اقتربوا من النَّهاية أكثر، فعلى الدوام كانت المُلُوك تبطش بعُالها عند اقترابهم من القمَّة، ورُبَّا كانت ضربة استباقية، يُوجِّهونها ضدَّ مطامع استقلالية كانوا يفترضون وُجُودها.

#### 1 ، الحاجب علي:

يبدو من التسمية أنَّه كان حاجباً للملك الأشرف، وأن علاقته به كانت قديمة، حتَّى حاز على ثقته الكاملة، فكان "حُسام الدِّين الحاجب على نائب الملك الأشرف في بلاده"(1)، ورسوله في المهيَّات من الأُمُور. فقد بعثه الأشرف بمهمَّة ديبلوماسية إلى أخيه المُعظَّم ليردعه عن الهُجُوم على حمص وحاة عام 619 هـ 1222م(2).

وكان الحاجب على يُعدُّ من أخصًّ أصحاب الأشرف، والمُقرَّبين إليه، لذلك نجد أن الأشرف \_ بعد عصيان المُظفَّر عليه \_ أخذ منه خِلاط، وأرسل الحاجب عليّ نائباً له فيها (3)، وأهميَّة خِلاط تؤكِّد لنا مدى اعتهاد الأشرف على الحاجب على. وجاءت الأحداث لتُثبت جدارة الحاجب على، ففي عام 623 هـ 1226م، بعد أن قام شرف الملك، وزير جلال الدِّين منكبري ونائبه في تفليس، بنَهُ ب أعهال أرزن الرُّوم، مرَّ في طريق عودته بالقُرب من خِلاط ومعه قُوَّة من جيشه، فاعترضهم الحاجب عليّ "واستنقذ

أتاح استشهاد فخر الدِّين لقُوَّة جديدة بالظهور، وهي عماليك الصَّالح أيُّوب، المصالحية، أو البَحْريَّة، الذين تصدّوا لهُجُوم الفرنج على المنصُورة، وأوقعوا بهم خسائر فادحة، ولمع - من يومها - اسم بيبرس البندقداري، وفارس الدِّين أبو الهيجاء، وغيرهما (1). وبموت فخر الدِّين؛ فقدت الدولة آخر رمز يُمثِّل العصر الأيُّوبي، ومهَّد موته لقيام عصر جديد؛ هُو عصر الماليك.

كان فخر الدِّين "عاقلاً جواداً عدحاً مُدبِّراً خليقاً بالملك عبوباً إلى الناس" ويُتابع ابن تغري بردي قائلاً عنه: "ولمَّا مات الملك الصَّالح أيُّوب على دمياط نُدب للمُلك، فامتنع، ولو أجاب لم خالفوه "(3)، وهذا خبر ضعيف، لا تدعمه الوقائع التي جرت، ونعتقد أن ابن تغري بردي قد وَهمَ بذلك، ولكنتا نحار أمام تفسير ما حصل: "فَيَوْم مقتله نهب عماليكُهُ وبعضُ الأُمراء دارَهُ، وكسروا صناديقه، وخزائنه، وأخذوا أمواله، وخُيُوله، وأحرقوا داره "(4). هذا التصرُّف لا يتمُّ عادةً لل ضدَّ شخص مكروه مستبدِّ، ويأتي كانتقام لأفعال قام بها، وهُنا؛ نستبعد هذه الأسباب، وسيبقى سرُّ هذا التصرُّف لا يجد تفسيراً منطقياً إلَّا إذا حاولنا التوصُّل إلى مقاربة بالاستنتاج، فقد يكون ظرفُ الحُرْب والفَلَتانُ الأخير بموت السُّلطان، ثُمَّ موت أقوى الرجال بعده، وعدم وُجُود أيِّ قريب لفخر الدِّين في الدولة يُخشَى منه، فهُو آخر إخوته وفاةً. لكنْ؛ يبقى التفسير ناقصاً؛ لأن مَنْ قام بالنهب والحرق هُم عاليكه، الذين هُم تربيته، وأولاد نعمته!.

<sup>1-</sup>كَبْزِ الدُّررِ، ابن آيبك، 7/ 376.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 363.

<sup>3 -</sup> النُّجُومُ الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 363.

<sup>4-</sup>السُّلُوكْ، المقريزي، 1/ 8 44.

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655.

<sup>2 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، و 9 و رُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655.

<sup>3 -</sup>مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 4/ 188.

ما معهم من الغنائم، ثُمَّ عاد بعسكره سالمين "(1). وعندما هاجم جلال الدِّين منكبري خِلاط في العام نفسه، وكان يتمتَّع بسُمعه مُرعبة، وجيش قوي، خاصَّة بعد أن فتح تفليس عاصمة الكرج، قام الحاجب علي بواجب الدفاع عن خِلاط بوجه هذه القُوَّة العاتية خير قيام (2)، وبعد أن تمكَّن جلال الدِّين من احتلال حاضر خِلاط، قاد الحاجب عليّ الهُجُوم المُعاكس بنفسه، "وترجَّل الحاجب عليّ، ووقف في نحر العدوِّ، وأبلى بلاءً عظيمًا "(3)، حتَّى أجبر جلالَ الدِّين عن التراجع عن خِلاط (4).

وفي عام 624 هـ 1227م، سار الحاجب عليّ، "وهُو النائب عن الملك الأشرف بخلاط، والمُقدَّم على عساكرها، إلى بلاد أذربيجان، فيمَنْ عنده من العساكر، "وتسلَّم خوى، وما جاورها من الحُصُون بالاتِّفاق مع زوجة (5) جلال الدِّين خوارزم شاه (6)، وأخذ خزائن جلال الدِّين، وعائلته، وعاد إلى خِلاط، فقيل له: "بشس ما فعلت، اعتديت عليه، لتُتلف البلادَ، فلم يُفكّر "(7)، ولذلك اتَّهمه بعض المُؤرِّخين بأنَّه سبب هُجُوم جلال الدِّين منكبرتي على خِلاط فيها بعد، وأخذها (8).

ذلك كُلُّه يدلُّ على أن الحاجب على قد امتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، تجاوزت المتعارف عليه بالنَّسبَة لنائب في خِلاط، كما أن أعماله العسكريَّة هذه، على ما هي عليه من الخُطُورة تجاه الخَوَارزميَّة، وما ستجرُّه من مُحاولات انتقامية، فإنَّما في الوقت نفسه في تتحت عينَيُ الأشرف على هذا النائب، الذي يتصدَّى لأقوى جيش في المنطقة، ويردّه، ثُمَّ يغزوه في بلاده، ويأخذ بعضها منه، وسيجعله الأشرف يدفع ثمن هذه الظاهرة من القُوَّة والإخلاص، وإن كانت في خدمته. والغريب أن مَنْ سيتصدَّى للحاجب على أوَّلاً هُو سيِّده الأشرف، الذي اعتبره خطراً شديداً عليه، ويبدو أن الحاجب على مُل المُور كُلُّها، واعتقد أنّه يُحسن البلاء في سبيل الملك الأشرف، فعاد، على الملك الأشرف، فعاد،

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 456.

"وجمع العَسْكَر لقصد الخوارزمي" (1)، لكنَّ تحرُّك علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم بالقُرب منه جعله يُؤجِّل العمل ضدَّ الخوارزمي، ويلتفت إليه، فبعد أن "استولى كَيْقُبَاذ على أرزنجان أراد التوجُّه إلى أرزن الرُّوم، ليأخذها، وفيها ابن عمِّه طَغْريل شاه بن قلج أرسلان، فلمَّا سمع صاحبُها أرسل إلى الأمير حُسام الدِّين عليّ بخلاط يستنجده، وأظهر طاعة الأشرف" (2)، وتحرَّك الحاجب عليّ أرسل إلى الأمير حُسام الدِّين عليّ بخلاط يستنجده، وأظهر طاعة الأشرف" (2)، وتحرَّك الحاجب عليّ لحاية أرزن الرُّوم، ورُبَّها كان يخشى بأنْ يثني كَيْقُبَاذ بخلاط بعد توسُّعه نحو أرزن الرُّوم. ولَّا علم كَيْقُبَاذ بتحرُّك الحاجب عليّ تراجع عن أرزن الرُّوم (3).

وهُنا؛ طار صواب الأشرف من قُوَّة الحاجب على وتحكُّمه في الجزيرة، فبعد تبصدِّيه للخورازمي، وأَخْذ بلاده، وخزائنه، لم يبقَ إلَّا التصدِّي للرومي، حتَّى يُبصبح الحاجب على ملك الجزيرة، وحاكمها الحقيقي، ويبدو أن الغيرة والحسد كانا يوغران صدره على الحاجب علىّ، وكان تخوُّفه منه يزداد مع كلِّ انتصار له، ولم يُفكِّر الأشرف بأنَّ هذه الانتصارات باسمه، وتُجيَّر لحسابه، بل فوق هذا، فالناس يقولون إن واحداً من أتباع الأشرف يفعل كذا، وكذا، وكذاً.

لكنَّ المُّلك عقيم، والمُّلُوك قتلوا أخوة لهم، فكيف بتابع غريب؟!

وفي عام 626 هـ 1229م، أرسل الأشرف إلى خِلاط مملوكه عزّ الدِّين آيبك، وهُو مـن أكـبر الأُمراء عنده (5)، وكان يتولَّى نيابة منطقة دارا للأشرف (6)، فالمهمَّة جليلة تستدعي رجلاً جليلاً للقيام بها، ويبدو أن العداء كان مُستحكماً بين عزّ الدِّين آيبك والحاجب عليّ (7)، فلذلك اختاره الأشرف.

ولًا وصل آيبك إلى خِلاط، "وصله كتاب الأشرف بالقبض على الحاجب على الأهر ف اعتقله آيبك، وبعد أيّام وصل كتاب إلى الأشرف "بأنّ الحاجب عليّ مات بالإسهال، وكان الأمر على غير

<sup>2-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 136.

<sup>3-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/461.

<sup>4-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 190.

<sup>5 -</sup> زوجة جلال الدِّين: هي بنت جبهان خواجا وزير جلال الدِّين سُلطان الخَوَارزميَّة، أرسلها الحاجب عليّ إلى الأشرف، فانتقم جلال الدِّين بالهُجُوم على خِلاط، وفتحها، وأخذ منها ابنة ملك الكرج زوجة الأشرف. (أخبار الثُّوبيَّيْن، ابن العميد، 15).

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 138، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.

<sup>7 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 140.

<sup>8 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 161.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.

<sup>4-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.

<sup>6 -</sup> أخبار الأيوبيين، ابن العميد، 15.

<sup>7 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.

<sup>8 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 180.

ويبدو أن أبلغ رَدِّ على الأشرف لقتله الحاجب علي، لا لذنب سوى تميُّزه، وتوفيقه، كان من جلال الدِّين الخوارزمي، الذي جاء مقتل الحاجب في مصلحته، فقد حصر خِلاط، وملكها، وأسر عزّ الدِّين آيبك النائب الجديد للأشرف بها، وقتله (1).

وجاء العدوُّ الأكبر للحاجب على الذي هُو جلال الدِّين منكبري، فانتقم لـه مـن الأشرف؛ حيثُ أخذ خِلاط منه عام 627 هـ 1230م، وردَّ إلى الحاجب على اعتباره، فقد شعر الناس بفقده، كما قام جلال الدِّين بالانتقام له من آيبك، فقتله.

#### 2 . الخادم صواب:

هُو شمس الدِّين صواب العادلي، نسبة إلى الملك العادل بن أيُّوب، فقد "كان أكبر الخُدَّام العادلية، وأوثقهم" (2). كان صواب خادماً طواشياً (3)، تربَّى في ظلِّ الملك العادل، ولمَّا تُوفِي العادل، والمَّا تُوفِي العادل، والمَّاتُ فِي العادل، والمَّاتُ في التعادل، انتقل للخدمة مع ابنه، ووَلِيَّ عهده الملك الكامل، الذي سلَّمه قيادة الجيش، فكان يُضرَب به المشلُ في الشجاعة (4)، وذُكر أنَّه "أحد الفُرسان المذكورين، كان إذا حمل يقول: أين أصحاب الخصي "(5). كان له أيَّام عرِّه أكثر من مائة خادم، وأكثرهم أصبحوا فيها بعد أمراء (6)، وكان صاحب برِّ، وصدقة، ومعروف بين الناس (7).

وفي عام 629 هـ 1232م، تحرَّك الكامل نحو بلاد الشَّرْق قاصداً آمد، فاصطحب معه ابنه الصَّالح أثيُوب، وبعد فتح آمد ولَّى الكاملُ ابنهُ الصَّالح نائباً عنه في آمد وبلاد الشَّرْق، ولكنَّه وضع معه شمس الدِّين صواب، فكان صواب يتصرَّف في كُلِّ شيء "والصَّالح في صُورة النائب فقط" (8)، فكان لصواب النقض والإبرام في كافَّة أُمُور حُكْم بلاد الشَّرْق، أمَّا الصَّالح؛ فهُو صُورة معه (9).

ذلك "(1)، فقد قتله آيبك غيلة (2)، ولم يعلم أحد من الناس السبب في قتله. فقيل "إن الكامل أمر أخاه الأشرف بذلك لأشياء باطنة، لم يطّلع الناس عليها" (3)، وقد يكون للكامل المصلحة ذاتها التي للأشرف في التخلّص من الحاجب على، أمّا ما عدا ذلك؛ فهي عالباً \_ تكهّنات من الناس؛ لإيجاد سبب لعمل لم يجدوا له سبباً ظاهراً.

أمَّا صاحب كتاب أخبار الأثُّوبيَّيْن؛ فيجعل سبب قتل الحاجب على هُو أَخْذه لزوجة جلال الدِّين منكبري، الذي سبب هُجُوم جلال الدِّين على خِلاط، وأَخْذه زوجة الأشرف منها، "فَسَيَّر الأشرف إلى مملوكه عزّ الدِّين صاحب دارا في أن يقبض على الحاجب، ويقتله، فقتله "(4).

وهُنا؛ يجب أن نذكر أن هُجُوم جلال الدِّين الناجح على خِلاط، وفَتْحها، وأَخْذ زوجة الأشرف منها كان بعد قتل الحاجب علي، وأثناء ولاية عزّ الدِّين آيبك عليها.

إن كُلَّ ما عرفناه عن الحاجب على هُو أن لقبه حُسام الدِّين، وأنَّه ابن حَمَّاد (5)، وأنَّه "من أهل المَوصل، واتَّصل بخدمة السُّلطان الأشرف، وصار من أخصِّ أصحابه، وأزلامه" (6). وقال ابن الأثير عن الحاجب على: "كان حافظاً لصاحبه، مُشفقاً عليه، وحسن السيرة في الرعية" (7).

وقال ابن واصل عنه: "كان \_ رحمه الله \_ حسن السيرة، كريباً، كثير البرِّ، والصدقات، عمَّر الخانات في طُرُق السبيل" (8). ولم نعرف من أهله سوى أخ له اسمه بدر الدِّين عُثان، كان قد ترقَّى في خدمة الأشرف أيضاً، حتَّى إنَّه كان رسوله إلى دار الخلافة عام 622 هـ (9)، فليَّا سمع الأشرف بموت الحاجب على ألقى القبض على عُثان "وأخذ جميع ما له، واستقاله، وبقي في الاعتقال مُدَّة، ثُمَّ أطلقه "(10).

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.

<sup>2 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 309، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.

<sup>3 -</sup> الطواشي: هُو مملوك خصي، وكان يُخصَّص للخدمة في دُور النساء.

<sup>4-</sup>شذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 149.

<sup>5 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري ، 148.

<sup>6 -</sup> شذرات الذهب، ابن العياد، 5/ 149، والمُختار، ابن الجزري، 159، ومرآة الجنان، البافعي، 4/ 60.

<sup>7 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 159.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17 ــ 134.

<sup>9 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.

<sup>1 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 180.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.

<sup>4 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.

<sup>5-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485، والمنصوري، ابن نظيف، 173.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.

<sup>7 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263، \_ راجع ترجمة الحاجب على في: شذرات الذهب، ابن العهاد، 5/ 119.

<sup>9-</sup>المنصُّوري، ابن نظيف، 118، حاشية المُحقّق من تاريخ ابن الفُرات، 5 / 172.

<sup>10 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 180.

وفي عام 631 هـ 1234م، تحرَّك الملك الكامل من مصر ليقوم بحملته ضدَّ سلطنة سلاجقة الرُّوم، وانضمَّ إليه كُلُّ مُلُوك بني أيُّوب، وأُمرائهم، فتشكَّل لديه أكبر جيش آيُّوبي بعد عصر صلاح الدِّين (1)، وكان الخادم صواب هُو قائد مُقدِّمة الجيش "الشاليش" (2).

ولمَّا عجز الكامل عن اجتياز الممرَّات الجبلية لدُخُول بلاد سلاجقة الرُّوم، شكَّل قُوَّة بقيادة المُظفَّر ملك حماة ومعه الخادم صواب، فأوقع بهم جيش علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وأسر المُظفَّر، كها أسر صواب، لكنَّ علاء الدِّين أطلقهم، وأكرمهم (3)، وعاد صواب ليُقيم في آمد نائباً كها كان.

وفي عام 632 هـ 1235م، تُوفِّي شمس الدِّين صواب في آمد وهُو نائب للكامل فيها، ودُفن بها ودُفن بها فيه من بها<sup>(4)</sup>. وبعد وفاة صواب استقلَّ أيُّوب بن الكامل بحُكْم بلاد الجزيرة، وتسلَّم حصن كيفا، بها فيه من الذخاثر والمال، وصار يحكم في آمد، وبلادها، وحَرَّان، والرقَّة، والرُّهَا، وسروج، ورأس عين، وما يتبع تلك المُدُن من البلاد<sup>(5)</sup>.

# 3 . الخادم طَغْريل:

عندما اشتد المرض بالملك الظّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين، عهد بالمُلك لابنه الصغير نُحم ولقبه العزيز، وكان عُمره ثلاث سنين، وتجاوز بذلك ما جرت به العادة من تولية الابن الأكبر، وكان ذلك خوفاً منه على مُلكه من عمّه العادل، فابنه العزيز هُو في الوقت نفسه إبن بنت العادل، فأمل أن يحافظ بذلك على المُلك في ذُرِّيته، ولصغر سنِّ العزيز جعل من عملوكه طَغْريل مُربِّياً وأتابكاً لولده، ليقوم بأمره، ريثها يبلغ أشده.

كان طَغْريل \_ ولقبه شهاب الدِّين (1) \_ علوكاً للظاهر غازي من أصل رومي، وثق بـ ه، وأمل

منه أن يحفظ مُلك ولده الصغير. ولمَّا مات الملك الظَّاهر قام طَغْريل بأمر العزيـز، وأمَّـر مملكـة حلب

خير قيام، كان الملك الأشرف بن العادل يقول عنه: "إنْ كان لله وَليّ في الأرض فهُو هذا الخادم" (2).

وقد ذكره المُؤرِّخ ابن الأثير، وهُو من ناقدي البيت الأيُّوبي ومَنْ يلفُّ لفَّه، قال: " هُو من خيار عباد

الله، أَحْسَنَ السيرةَ، وعَدلَ في الناس، وأزال كثيراً من السُّنن الجارية، وأعاد أملاكاً كانت قد أُخذت

من أربابها، وقام بتربية الطفل أحسن قيام، وحفظ بلاده، وملك ما كان يتعذَّر على الظَّاهر مُلكه، وما

أقبح بالمُلُوك وأبناء المُلُوك أن يكون هذا الرجل الغريب المُنفرد أحسن سيرة وأعفّ عن أموال الرعية

وقال عنه ابن الجزري: "كان صالحاً زاهداً محسناً مُتصدِّقاً يُحِي ثُلث الليل صلاة، ويجالس

وأقرب إلى الخير منهم، ولا أعلم - اليوم - في وُلاة أُمُور المُسلمين أحسن سيرة منه ١١(٥).

الصالحين، وكان واسطة خير. وكان قد طهَّر حلب من الفُّسق والفُّجُور والمكس والخُمُور (4)".

<sup>1 -</sup> رسم بعض المُؤرِّخين الاسم: طغرل، وبعضهم بزيادة ياء فيه: طَغْريل. راجعْ ترجمته في: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 7/ 100، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 215 ـ 216، والنَّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 286، وشذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 145.

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 154.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 313.

<sup>4 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 154.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.

<sup>2 -</sup> المُختَّار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 149.

<sup>3-</sup>المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 149، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصلٍ، 5/ 78.

<sup>4 -</sup>مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 60، وشذرات الذهب، ابن العهاد، 5/ 149، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 159، ـوينفرد ابن شدَّاد، فيذكر أن صواب تُوفِي عام 633 هـ ( الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 524 ).

<sup>5 -</sup> مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، و / 134.

# الفصل الثَّاني العلاقات الخارجيَّة للقبائل البدويَّة

المبحث الأوَّل:

سلطة الدولة وقُوَّة البدو

مع أن الحُكَّام الأَيُوبيِّن كانوا أكراداً بأصلهم، فلم يُلاحَظ اهتهاماً خاصًا منهم بالأكراد، أو بتميُّز لوضعهم، أو بتحامل على المجموعات والقوميات الأُخرى. ويُمكن أن نردَّ ذلك إلى أن الأُسرة الأيُّوبيَّة الحاكمة قد تعرَّبت تماماً بثقافتها، وتربيتها، فقد نشأ أفراد الأُسرة الأيُّوبيَّة ''نشأة عربية إسلامية، وشغفوا حُبًا باللَّغة العَربيَّة، وآدابها، وعُلُومها، وقرَّبوا إليهم الشعراء، والعُلهاء، والكُتّاب''(1)، وكان لتعلُّقهم الشديد بالإسلام أكبر الأثر بسرعة تعرُّبهم، وهذا ينطبق على كُلِّ والأكراد، وليس على الحُكَّام الأيُّوبيِّن فقط (2)، وإن الصدامات المحدَّدة التي تمَّت بين الأيُّوبيِّن وبعض القبائل العَربيَّة، مثل حملتهم في مصر على بني كنز الدولة، أو الجذاميين، فهي حالات خاصَّة، تمَّت ضغط ظُرُوف سياسيَّة خاصَّة (3).

وعلى العكس من ذلك؛ نجد أن ما ارتقى إليه أُمراء القبائل العَرَبيَّة في مصر والشَّام في العصر الأَيُّوبي فاق كُلَّ ما سبقه، وذلك نتيجة لتنامي دورهم السِّياسي والعسكري، إن كان في الصراعات الدِّاخليَّة بين مُلُوك البيت الأَيُّوبي، أو في الصراع ضدَّ فرنج الساحل الشَّامي، فقد أحدث العادل منصب إمرة العَرَب في الشَّام، وقلَّده للأمير حديثة (4) بن عقبة بن فضل بن ربيعة (5)، وتوارث هذا

<sup>1 -</sup> في تاريخ الأيُّوبيِّين، أحمد العبادي، 2/ 94.

<sup>2 -</sup> لقد بلغ من تعرُّب الأكراد في العصر الأيُّوبي روايتهم للحديث، وتعمُّقهم في الفقه، وتذوُّقهم للشعر العَرَبي، ونظم بعضهم لبديع الشعر، انظرُ: ديوان الملك الأمجد الأيُّوبي، وكذلك قصيدة جُندي كُردي في رثاء أمّ المُظفَّر ملك حماة. (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 124).

<sup>3 -</sup> دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، 118.

<sup>4 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 117.

<sup>5 -</sup> صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 206، \_يقول ابن خلدون: إن الإمرة على العَرَب كانت زمن العادل لعيسى بن مُحمَّد بن ربيعة، ثُمَّ بعده لمانع بن حديثة بن عقبة بن فضل، الذي تُوقِّ عام 630 هـ، وخلفه ابنه مهنَّا، ومهنَّا بن مانع هُو الذي حضر معركة عَبْن جالُوت مع المُظفَّر قطز، وأقطعه بعدها سلمية. ( العبر، ابن خلدون، 6 / 18 ).

المنصبَ أبناؤه، وازدادوا رفعة وعزَّة ومنعة، حتَّى أصبح الأمير منهم يُسمَّى ملكاً (1)، ولا يختلف عن المُلُوك إلَّا بطريقة حياته البدويَّة (2). وكانت رتبة الإمرة تعني منح بُوق يُضرَب على بابه، وفي تحرُّكاته، وعَلَم يرفعه أثناء مسيره (3).

وقد نظّمت الدولة الأيوبيّة - فيها بعد - علاقاتها مع أُمراء البدو من خلال ديوان خاصٌ، يُشرف عليه موظّف عالي المُستوى؛ يُسمَّى المهمندار، رُبَّا كانت وظيفته تُعادل مرتبة وزير لشُوُون البدو، وكان يتمتَّع بمعرفة دقيقة لقبائلهم، وأنسابها، والعلاقات فيها بينها، "ويتلقّى الرُّسُل والعَرَبان البدو، وكان يتمتَّع بمعرفة دقيقة لقبائلهم، وأنسابها، والعلاقات فيها بينها، "ويتلقّى الرُّسُل والعَرَبان الواردين على السُّلطان، ويُنزهم دار الضيافة، ويتحدَّث في القيام بأمُورهم "(4). ومُعظم معلومات المُورِّخين عن هذه الوظيفة مُستمدَّة من مهمندار عاصر أواخر الدولة الأيوبيّة وأوائل المملوكية هُـو بدر اللَّين أبو المحاسن يُوسُف بن أبي المعالي بن زماخ المعروف بابن سيف الدولة، لأنّه - فيها يقال من ذُرِّيّة سيف الدولة الحمداني(5)، ويُضيف ابن حَبَر عن بدر اللَّين مهمندار العَرَب: "وُلد سنة النتيّن وستُّاية، وكان مُتجدِّداً - من أُمراء السيف - وله يد في النَظْم والتاريخ، وله تصانيف في النتيان والبديع"(6). وعلى ما يبدو؛ لم يكن الهدف من إقامة إمرة البدو تسليط قبيلة على بقيَّة القبائل، أو رفعها فوقهم، وهذا أمر حسَّاس جدَّا في التعامل مع البدو، بل كان لاتِّساع أراضي الدولة وتداخل الحُدُود مع الدُّول المُحيطة وضمن المالك الأيُوبيَّة نفسها، ولعدم اعتراف البدو بهذه الحُدُود وتراً الأهمُّ من ذلك ضبط استغلال القبائل البدويَّة للصراعات الإقليميَّة، فتقوم الدولة بدعم قبيلة ويَّة عن طريق تسمية شيخها أميراً للعرب، لتساعد الدولة في ضبط بقيَّة القبائل.

ونتيجة لتنامي دور القبائل في الدولة الأيُّوبيَّة، ومن بعدها في الدولة المملوكية، نجد أن عدداً لا يُستهان به من المُؤرِّخين قد أفردوا مُؤَّلفات عن الأعراب<sup>(1)</sup>، وكُلُّ مَنْ كَتَبَ عن العصر الأيُّدوي لا يُتَ تَحَدُّث عن الأعراب بقليل أو بكثير، فكان لهم - بذلك - فضل حفظ أحداث ومعلومات كانت - حتاً - ستضيع لو لم يقوموا بتدوينها في مُؤلَّفاتهم. وهُنا؛ لابُدَّ من الإشارة إلى ظاهرة بدت شبه عامَّة في الكتابة عن البدو، أو الأعراب، فقد ركَّز الكُتَّاب على مَيْل البدو للفساد والتخريب، ومع أن هذا لا يُمكن إنكاره في ذلك العصر، ولكنَّه تعميم يُخطئ أكثر عا يُصيب في شموله لكُلِّ ما يقوم به الأعراب، فلم تُؤخذ بعين الاعتبار الأمُور التَّالية:

1 \_ نظرة الدولة إلى البدو، فقد كانت \_ غالباً \_ متعالية، إنْ لم نقل إنَّه كان فيها من الاحتقار للأعراب الشيء الكثير.

2 - شعور الأعراب بأنَّهم أُبعدوا - بالقُوَّة - عن مسرح السياسة في بُلدان لهم فيها أكثر بكثير عمَّا للحُكَّام الغرباء بأصلهم على الأقلِّ.

3 ـ انعزال المُلُوك والأُمراء في الدولة عن مُشكلات الشعب بشكل عامٌ، ممَّا يستدعي \_ في كثير من الأحيان \_ ردَّ فعل شعبيًّا، إنْ كان في المُدُن، أو الأرياف، أو لدى البدو، ولكُلِّ طريقته في التعبير عن المُطالبة بحقِّه، أو تأكيد وُجُوده.

4 دائماً كانت الدولة تُواجه تحرُّكات الأعراب بأقصى ما تملك من العنف، الإجلاء، والقتل، والنهب، ذلك كُلُّه لابُدَّ أن يترك أحقاداً قابلة للإثارة كُلَّم اسنحت الفُرصة.

ولذلك نجد أن مُعظم مَنْ كَتَبَ في ذلك العصر عن البدو قد كَتَبَ بنَفَس الدولة، وبوُجهة نظرها، وبرؤياها لقضية الأعراب. ولكنْ؛ إذا أردنا أن نكون صادقين أكثر، فإن واقع الأعراب نفسه كان يتحمَّل جُزءاً كبيراً من المسؤولية، وذلك لعدَّة أسباب، منها:

1 - اعتاد البدو على طريقة للكسب، أصبحت - مع مُرُور الوقت - مشروعة في عُرْفهم؛ وهمي لنهب.

<sup>1 -</sup> العبر، الذهبي، 5/ 344.

<sup>2 -</sup> حول إمرة العُرَب راجعُ: العبر، ابن خلدون، 6 / 18.

<sup>3 -</sup> وهي تعادل إمرة طبلخاناة أيَّام الماليك، راجعٌ: قبائل العَرَب، العمري، 16.

<sup>4 -</sup> صبيح الأعشى، القلقشندي، 4/ 22.

<sup>5 -</sup> ابن حَجَر، الدُّرر الكَامنة، 5/ 231.

<sup>6 -</sup> ابن حَجَر، الدُّرر الكَامنة، 5/ 231.

<sup>1 -</sup> مثل: المقريزي: البيان والأعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، والقلق شندي: قلالد الجمان، وابن قضل الله العمري: قبائل العرّب، وغيرهم.

## المبحث الثَّاني:

#### المجال السيّاسي والعسكري للبدو

كان البدو \_ مُنْدُ قيام الدولة العَربيَّة الإسلاميَّة \_ يُشكِّلون طبقة لما كبانها المُستقلّ، وقد حافظوا على هذا الكيان ماداموا مُحافظين على طبيعة حيانهم ضمن البيئة البدويَّة وعندما بدأت سيطرة الدولة العباسيَّة تتراخي، وقواها تضمحلُّ، أخذت القبائل العَربيَّة البدويَّة تضرض تُفُوذها، فهي مازالت قوى عسكريَّة، لها نوع من التنظيم، مكَّنها من لعب دور جديد من أدوار الصراع بين البداوة والحضر على أرض الشَّرُق العَربي، التي طالما تصادما عليها، فكُلَّما ضعفت سُلطة الدولة الحضرية في المُدُن، ازداد تُفُوذ البدو عليها، حتَّى إثمَّم تمكَّنوا \_ في هذه المرحلة التاريخية \_ من إقامة دُول حقيقيَّة فوق مراكز حضرية مُهمَّة في شيال بلاد الشَّام، إن مرحلة شُيوخ القبائل البدويَّة في مُدُن الشَّام، اللذين كرهوا إحلال الأمن، وقاوموا مركزية الحُكْم، قد حوَّل البلاد إلى حالة من الفوضي، لا تُحسَد عليها، عمَّا فتح الباب أمام قوى التُّر كهان الغريبة، ومكَّنها من التغلغل إلى البلاد بفضل القُوَّة وبعض التنظيم اللذَيْن امتلكها حُكَّامهم السلاجقة. ولكنْ؛ لم يكن دور البدو الدائم هُو تدمير المراكز الحضرية، ففي بعض الأحيان أحيوها؛ بحيثُ تألَّقت حتَّى التوهُّج، كها في دولة بني حدان، التي ظهرت كقُوَّة تُمثَل العصبية العَربيَّة (1).

وبعد قيام الخلافة العبّاسيّة حدث تحوّل كبير في طبيعة البنية العسكريّة للدولة العربيّة الإسلاميّة، فقد اعتمد العبّاسيون في تنظيمهم العسكري على جيش نظامي محترف، حلَّ محلَّ القبائل العَربيّة والجُند المتطوِّعة والمُجاهدين، وبالتّالي؛ قُطعت الصلة الرَّسْميَّة بين الدولة والقبائل عندما أُلغيت أُعطياتهم من ديوان الجُند، ولم تُحيِّد الدولة \_ بذلك \_ قُوَّة البدو العسكريَّة، بل فقدت وسيلة مُهمَّة للسيطرة على هذه القُوَّة. ومع تغلغل الضعف في الإدارة العبّاسيّة زحفت قبيلة خفاجة من الجزيرة العربيّة، في مطلع القرن الرَّابع الهجري، وسيطرت على الكوفة والمناطق التي حولها(2).

2 \_ ضعف الشُّعُور الوطني والدِّيني لدى البدو، نتيجة لعوامل عديدة، أدَّى لتقديم مصلحتهم الآنية على كُلِّ ما عداها في مواقفهم، وتصرُّ فاتهم.

3 \_ ضغط الظُّرُوف البيئية على البدو، كسنوات الجفاف مثلاً، في ظلِّ غياب مُساندة فعَّالة، من المُجتمعات المستقرَّة في الأرياف والمُدُن، لتجاوز تلك الظُّرُوف.

4 \_ إِنَّ تَخَلُّف مُجتمع البداوة وافتقاده للتنظيم، أقام هُوَّة بينه وبين المُجتمع الحضري، مع كُلِّ ما بينهم من احتكاك، ذلك كُلُّه جعل الأعراب هدفاً سهلاً للدولة، تستطيع التعامل معه وُفق مُقتضيات الظُّرُوف، فإمَّا قتلاً وتشريداً، وإمَّا تحالفاً واستغلالاً لقُوَّة البدو العسكريَّة.

ولكننا - الآن - لا نستطيع إلّا أن نعترف أنّه كان للأعراب كثير من المواقف الجهادية ضدّ أعداء الأُمّة، ومن المواقف الوطنية التي كانت تتفجَّر عندما يُحسن القائمون على الدولة توجيهها ورعايتها. ورُبّها كانت كُلُّ تصرُّ فات البدو اللامنضبطة موجَّهة ضدَّ الدولة، فلضغطها المدائم عليهم كانوا يستغلُّون وقت حاجتها إليهم أكبر استغلال، فعندما استدعى الملك الأشرف عام 615 هـ كانوا يستغلُّون وقت حاجتها إليهم أكبر استغلال، فعندما استدعى الملك الأشرف عام 615 هـ المائم مانع بن حديثة وعُربانه لمُساعدته في التصدِّي لهُجُوم سُلطان الرُّوم كيكاوس على الجزيرة وحلب، "عاثت العربان في بلد حلب، والملك الأشرف يُداريهم لحاجته إليهم" (أ). وفي عام 620 هـ 1223م، قامت قُوَّة مُسلَّحة كبيرة من الأعراب، واعترضت قافلة الحبجِّ الشّامي، ولولا حنكة قائد القافلة أمير الحاج شرف الدِّين يعقوب بن يُحمَّد الموصلي، الذي صانع الأعراب بهاله، وصان القافلة منهم، بالترغيب والترهيب (2)، وإلَّا لكانوا فتكوا بها دُون أيِّ وازع ديني، أو مُراعاة وصان القافلة منهم، بالترغيب والترهيب (2)، وإلَّا لكانوا فتكوا بها دُون أيِّ واذع ديني، أو مُراعاة عام 262 هـ 1225م، فخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، ونهبوا القُرى (3)، وقد اعتبروا أنّها فُرصتهم عام 262 هـ 1225م، فخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، ونهبوا القُرى (3)، وقد اعتبروا أنّها فُرصتهم للانتقام، ولكن؛ مَن ؟ من الضُّعفاء، والبُسطاء، وصغار التُّجَّار، وليس من الحُكَّام، أو القادة، ولكن؛ يبدو أن الأعراب لم يكن لديهم وعي كاف لإدراك الفرق بين الجهتيّن.

<sup>1 -</sup>ظهر الإسلام، أحمد أمين، 7/ 58، ـ وكذلك راجع: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 1/ 198.

<sup>2 -</sup> حول بني خفاجة راجعٌ كتاب: بنو خفاجة، مُحمَّد عبد المنعم خفاجي.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 265، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 645. 2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 418.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 428.

كذلك تحرَّك بنو أسد نحو العراق، وأقاموا الإمارة المزيدية (١)، وكانوا من القُوَّة؛ بحيثُ حصلوا على اعتراف السُّلطة البويهية المُتحكِّمة في بغداد عام 403 هـ 1012 م، واستمرَّت هذه الإمارة تُسيطر على بسِّ وسط العراق من البصرة حتَّى تكريت، إلى أن حلَّ السلاجقة علَّ البهويين، فقضوا عليها تدريجياً.

كيا أن عدداً من هذه الإمارات أو الدُّويلات البدويَّة تشكَّلت على الحُدُود البيزنطيَّة عندما ضعفت قُوَّة الدولة العبَّاسيَّة عن حمايتها، ودور دولة بني حمدان لا يُنكر في ذلك، كذلك قامت إمارة ال الشَّيخ البدويَّة في آمد<sup>(2)</sup>. وعلى أنقاض الدولة الحمدانية أقام بنو كلاب إمارتَيْن مُستقلَّتيْن؛ وهما الإمارة العقيلية التي قامت في بلاد الجزيرة<sup>(3)</sup>، والدولة المرداسية<sup>(4)</sup> في حلب. أمَّا الشكل الآخر اللذي ظهرت فيه قُوَّة القبائل البدويَّة؛ فكان من خلال الصراعات بين الدُّول القائمة قُربهم، فقد كانت القوى البدويَّة المُتاواجدة في المنطقة هي التي تُرجِّح كفَّة الصراع بينها، وذلك وُفقاً لمصالح القبيلة، وبغَضِّ النظر عن أيِّ اعتبار آخر، وهذا ما دفع ابن فضل الله العمري للقول: "أمَّا في الواقع؛ فكُنتُ أراهم حائبً مع الغالب" (5).

# البدو في الدولة الأيُّوبيَّة:

عندما أرسى السُّلطان صلاحُ الدِّين قواعدَ دولته كانت القبائل العَرَبيَّة كما كانت قبل خمسمائة عام، وكما ستستمرُّ لألف عام قادمة، تجوب أرض الدولة في مصر والسَّام، وتتجوَّل على حُدُودها، دُون أن تعترف بهذه الحُدُود، فبين العراق والشَّام وبين نجد والشَّام، وبين برقة وبلاد مصر، تتحرَّك كثير من هذه القبائل، ولا يحدُّ من تحرُّكها أو يُحدِّده إلَّا عاملَيْن: الأوَّل طبيعي، وهُو وُجُود الأعشاب لرعي خُيُولها ومواشيها، والثاني: سياسي، فلكُلِّ قبيلة، أو مجموعة قبلية، مناطق نُفُوذ، ومجال حيوي لا تتركه إلَّا بالقُوَّة. ولكنْ؛ غالباً ما كانت القبائل العَربيَّة، أو تحالُفُ هذه القبائل، يُشكِّل قُوَّة عسكريَّة وسياسيَّة ضاغطة على الدولة، فيحظون بالامتبازات والإقطاعات والمُساعدات المالية والألقاب لشُيُوخهم. وكان عدد أفراد القبيلة يعني الشيء الكثير في تحديد موقعها بالنَّسبَة لبقية

القبائل، أو بالنِّسبَة للدولة المُجاورة لها، فعدد الأفراد هُو عدد المُقاتلين، ومُعظم مُقاتلي البدو كانوا فُرساناً يمتازون بخفَّة المُناورة.

وكان اعتباد المالك الأثُّوبيَّة على البدو كبيراً مُنْذُ آيَّام السُّلطان صلاح الـدِّين، ولكـنْ؛ ضـمن الواقع التالي:

1 - تساند القبائل العَربيَّة الجيش الأيُّوبي كقُوَّة مُنفصلة بتنظيها بها القبلية، ويُمكن أن تُقاتل كأحد الأجنحة المُستقلَّة للجيش، وذلك نظراً لطريقة تسليح البدو الخفيفة، وطرائقهم الخاصَّة في القتال، الذي هُو - غالباً - فردي، وغير منضبط، ضمن خُطَّة المعركة العامَّة.

2\_يندر أن نجد معركة لم يُجنّد فيها الأيُّوييُّون البدو للقتال فيها معهم، إلَّا أنَّنا نُلاحظ \_ دائماً \_ صيغة الحذر في التعامل الأيُّوي مع البدو، وخاصَّة في الأعمال الحَرْبيَّة؛ حيثُ يُمكن أن ينقلب البدو في أيِّ لحظة لنهب أثقال الجيش الحليف إذا ما لاحت هزيمته، كما حدث في معركة دمياط عندما نهبوا معسكر المُسلمين (1).

3 عالباً ما كانت تنعكس الصراعات بين المالك الأيُّوبيَّة على القبائل البدويَّة المحالفة لها، فتجري معارك بين القبائل لا مصلحة مُباشرة فيها لكلا الطرفَيْن، إلَّا إرضاء لأحد المُلُوك الأيُّوبيَّة.

4 - كُلَّما كانت الدولة أضعف وعجزت عن تجنيد الجُيُوش ازداد اعتهادها على البدو كقُوَّة عسكريَّة بديلة؛ حيثُ كانت موجُودة دائها، ومُستعدَّة أن تُقاتل دائها، ونادراً ما يهمُّها مع مَنْ تُقاتل، أو ضدَّ مَنْ، حتَّى شكَّل البدو في بعض الأحيان - قُوَّة كُبْرَى لبعض الدُّول الأيُّوبيَّة، فقال عنهم ابن فضل العمري: "وهم أسوار المُدُن، وحَفَظَة الطُّرُق، ولم يـزل منهم أثمَّة للطلائع، وجناح للجُيُوش" (2).

5 مُنْذُ ما قبل قيام الدولة الأيُّوبيَّة، خاصَّة القرنَيْن العاشر والحادي عشر الميلاديَّيْن، والسشرق العَرَبي يشهد حالة من تعاظم الدور السَّياسي والعسكري للبدو، مع أن ذلك لم يترافق بزيادة كبيرة في أعدادهم، أو نُمُوِّ لمواردهم الاقتصاديَّة (3)، فَتَعَامُلُ الدُّول الأَيُّوبيَّة مع البدو كان تعاملاً مع واقع قائم، لكنَّ الأَيُّوبيَّيْن ـ غالباً ـ ما كانوا يُسيطرون عليه.

<sup>1 -</sup>حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 36 / 99.

<sup>2 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 69.

<sup>3 -</sup> النَّرْق والْغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 31.

<sup>1 -</sup> حول هذه الإمارة راجع كتاب: الإمارة المزيدية، عبد الجبَّار ناجي.

<sup>2 -</sup>مروج الذهب، المسعودي، 5/ 145.

 <sup>3-</sup>راجع كتاب: الإمارات العَربيَّة في بلاد الشَّام، مُحمَّد مرسي الشَّيخ 4-راجع كتاب: بنو مرداس الكلابيون، مُحمَّد أحمد عبد المولى.

<sup>5 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 13.

# المبحث الثَّالث:

قبائل البدو من غير العرَب

كانت كلمة بدو في العصر الأيُّوبي تشمل القبائل العَرَبيَّة البدويَّة ومجموعات عرْقية أُخرى، أهتها: التُّركان، والأكراد، وكانوا - بغالبيَّتهم العُظْمَى - من المسلمين السُّنَّة، وقد اتَّبع الـتُّركان مذهبَ أبي حنيفة، بينها اتَّبع الأكرادُ مذهبَ الشافعي (1).

وهم قبيلة الأغُزُ من التُّرك، ويُعدُّون اثنَيْن وعشرين بطناً، أوَّلهم وأشهرهم: قنق، ومنها السلاطين (2). ويقول أبو الفداء: إن الغُز، وهم طائفة من التُّرك، قصدوا خراسان، وهزموا السُّلطان سنجر، وكانوا يعيشون في بلاد ما وراء النهر، حتَّى أخرجهم منها الخطا، "وكانوا كُفَّاراً، وكان مَنْ أسلم منهم وخالط المُسلمين يصير ترجماناً بين الفريقَيْن، .. ثُمَّ قيل تركهاناً بالكاف العجمية، ولمَّا أسلم الغُز جميعهم قيل لهم: تراكمين "(3)، ويُؤكِّد أبو الفداء أن الغُز هُم التُّركمان، ولكنَّه لم يكن مُقنعاً في تفسيره لاسم تركهان، فالجذر ترك هُو أساس التسمية كها هُو واضح، وليس له علاقة بالترجمة.

مع امتداد دولة السلاجقة، وبعد مقتل الوزير البساسيري، بدأ الغُزّ بالانتشار في شهال الشَّام، وأخذت قُوَّتهم تتزايد فيه. ثُمَّ عرف الشَّام مجموعة من التُّركهان باسم: الناوكية، عبرت إلى الساحل الشَّامي من الأراضي البيزنطيَّة بزعامة مُقدَّمهم: قرلو، ويبدو أن الناوكية ليس اسم عشيرة، بل هُو اسم لتجمُّع كان خارجاً على السُّلطان السلجوقي(4). ثُمَّ تدفَّقت نحو الشَّام مجموعات مُتعلِّدة من التُّركان، وبرزت أسهاء مُقدَّميهم، مثل: جبق، وأرتق (5)، وصندق. وغدا الشَّام مجالاً للصراع بين قُوَّتَيْن بدويَّتَيْن، الأُولى من الأعراب المُتسلِّطين على مناطق واسعة من البلاد، وهم مُتشيِّعون، والنَّانية من الأتراك السُّنَّة، تُريد أن تحلُّ محلُّ الأعراب، وقد مهَّد الصراع بينها للسيطرة السلجوقية \_فيها بعد\_على الشَّام (6).

1 -روايات المُؤرِّخ ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 898.

مُناسب للتدخُّل في شُؤُونها، بعد موت ملكها، وقيام ابنه الصغير مكانه (6).

عسكريَّة كبيرة، تُهدِّد دُولاً وممالك قويَّة، ومثال ذلك:

4-مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 327، و الكَّامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 179.

5 - زُبْدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 ـ 681.

2 - راجعُ : مملكة حمص، منذر الحايك، 247. 3 - الشَّرْق الأدنى - الأيُّوبيُّون، السَّيِّد الباز العريني، 165.

6 - راجع تفصيل ذلك في مبحث العلاقات مع سلاجقة الرُّوم في هذا الكتاب.

1 - الشَّرْق والغَرْبِ، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 229.

2 - ديوان لغات التُّرك، الكاشغري، 1/ 56.

3-المُختصر، أبو الفداء، 3/ 26.

4 - ناوك: كلمة فارسية تعني القوس، وربِّها كانت الناوكية تعني جماعة الرماة.

5 - أرتق: أسَّس الدولة الأرتقية في شهال الشَّام.

6 - مدخل إلى تاريخ الخُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 1 / 170 \_ 126.

وفي أيَّام حُكْم السلاجقة، وبعدهم الزنكيون، تدفَّقت على شيال بلاد الشَّام والجزيرة قبائل

تركهانية بقضِّها وقضيضها، وهي ماتزال على حالة البداوة، وقامت بالانسياح فيها، تُمارس الرعبي،

وتربية الماشية، يُشتُّون في سُهُول الجزيرة، ويُصيِّفون في سُفُوح طوروس(1)، ورُبَّها كانت سُهُول حمـص

آخر ما وصلته القبائل التركمانية جنوباً (2)، وقد شكَّلت مصدراً كبيراً للمُتطوِّعة في الجُيُوش الأيُّوبيَّة،

فالسُّلطان صلاح الدِّين ومَنْ جاء بعده من مُلُوك بني أيُّوب كانوا يقومون بحملات مُنظَّمة جَمْع

ولكن هذه المجموعات القبلية التركمانية، ربَّما لعدم توحُّدها، أو لعدم قُدرتها على تنظيم

نفسها، لم تُشكِّل قُوَّة عسكريَّة أو سياسيَّة ضاغطة على المالك الأثُّوبيَّة، فلم يكن لهم أيّ حساب في

ميزان القوى الأيُّوبي إلَّا من خلال قيامهم باضطرابات وقَطْعهم الطريق عندما ينضطرب الأمن، أو

تسنح لهم الفُرصة (4). ولكنْ؛ عندما تتبنَّى دولة أو تدعم جماعة مُنظَّمة قبائل الـتُّركيان هـذه، وتُحاول

تسخيرها لمصالحها، فسُرعان ما نجد أن أحد أُمراء التُّركيان قد ظهر على الساحة، ومعه قوى

الساحة أمير تركهاني اسمه قنغر، يمتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، مكَّنته من الإغارة على أراضي علكة

حلب، وهزيمة جيشها، "فتخوَّف أُمراء حلب أن يكون ذلك بـأمر الرُّومـي، فأرسـلوا لـه، فـأنكر،

وأمره برَدِّ ما أُخذ، فردَّ بعضه، وانكفَّ عن العيث والفساد" (5). ويبدو أن الأمر برُمَّته كان بتوجيه من

كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، بقصد توطيد هيمنته على مملكة حلب الأيُّوبيَّة، التي اعتقد أن الوقت

1 . قنغر التركماني: بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب عام 634 هـ 1237م، ظهر على

التُّر كهان، ويدفعون لهم النفقات، مُقابل خدمتهم في الجيش (3).

العلاقات بين التُّركمان والممالك الأيُّوبيَّة:

من طريقة الحياة نفسها، كان لابُدَّ أن يؤدِّي إلى صدامات بينهما، ففي عام 622 هــ 1225م، جرت معركة كبيرة بين مجموعات من القبائل العَرَبيَّة وتجمُّع لقبائل التُّركمان قُرب الرقَّة (1).

3. الياروقية: وهم جماعة من التُّركان، ينتسبون إلى ياروق، وهُو زعيم قديم هم وجَدّ مُقدّمهم دلدُرُم، وقد ظهرت الباروقية كمجموعة عشائرية مُقاتلة في آيّام السُّلطان نُور الدِّين بن زنكي، وكانت حلب مقرّهم الرئيس، فقد سكنوا في ربضها؛ حيثُ عرفت محلّتهم بالباروقية (2). وكانت إقطاعاتهم في جبل السهاق وتلّ باشر وغيرها (3)، وخدموا بعد موت نُور الدِّين مع ابنه في حلب، وشاركوا مع قُوَّات الأتابكة ضدَّ توسُّع السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة (4). وبعد أَخذ السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة (4). وبعد أَخذ السُّلطان صلاح الدِّين لحلب انضمُّوا إليه، وكانوا ضمن عسكر ابنه الملك الظاهر غازي بحلب طالما كان والده السُّلطان حياً، ولمَّا تُوفِي صلاح الدِّين عام 889 هـ 1193م، ترك الباروقية خدمة الظَّاهر، والتحقوا بعمّه الملك العادل (5)، وكان ذلك بسبب خوفهم من انتقامه منهم، فقد "تكبَّروا، وتحامقوا على الظَّاهر، وقصَّروا في خدمته في حياة أبيه، وكانوا يُعظِّمون دلدُرُم بن ياروق، ويركبون كُلُّهم في خدمته كأنَّه السُّلطان "(6)، فلَّا استقلَّ الظَّاهر بملك حلب اعتقل مُقدَّمهم دلدرم بن ياروق، وطرد الباروقية كُلَّهم من حلب، وأخذ إقطاعاتهم، ثُمَّ شفع الملك العادل بدلدرم، فأطلقه الظَّاهر؛ حيثُ الضَمَّ إلى العادل (7).

#### ب، الأكراد:

يقول المقريزي: "اعلمُ أن الناس قد اختلفوا في الأكراد"، وبعد أن يعدِّد أقوال لا يُعتَدُّ بها حول أصلهم، يقول: "إنَّما هُم قبيل من قبائل العجم، وهم قبائل عدَّة" (8). وهذا هُو القول الفصل في اعتقادنا. وقد تواجدت قبائل الأكراد في المناطق نفسها من شال الشَّام والجزيرة إلى جانب

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 172.

وبعد عام واحد؛ انقلبت الآية مع قنغر، ففي عام 635 هـ 1238م، نزل السُّلطان الكامل (1) من مصر، وحاصر دمشق، وأخذها، فاستعدَّت حلب للحصار، واستقدمت اللَّه اتلين والتُطوَّعة لاستخدامهم، ووصل قنغر التركيان، فاستخدم بحلب، وقُدِم على النُّركيان، ولكن القدر لم يتح لقنغر الدفاع عن حلب، فأثناء استعداد السُّلطان الكامل لغزو حلب مرض، ومات بدمشق (2)، فقام الحلبيون بالقبض على قنغر التركيان، وحبسوه بقلعة حلب، ونهبوا خيامه ودوابّه، فلم يعد هم به حاجة، كذلك كان الأمر بالنِّسبة له مع سلاجقة الرُّوم، فبعد أن استخدموه، تركوه لمصيره في حلب (3).

2. ابن دودي التركماني: أثناء تحرُّك الخَوَارزميَّة في الجزيرة وشيال الشَّام، ومُهاجمتهم لملكة حلب ضمّوا إليهم جموعاً من التُّركيان المُتواجدين في المنطقة، وكانوا أعداداً كبيرة، فقد ذكر أنَّهم "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة "(4)، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التُّركيان سبعة آلاف لكانوا كثيرين. وكان يقود جُمُّوع التُّركيان هذه رجل منهم اسمه ابن دودي (5)، أو ابن دودا(6).

ولكن تصدِّي المنصُور إبراهيم ملك حسس للخَوَارزميَّة وحُلفائهم التُّركان عام 640 هـ 1243 م، وإلحاقه بهم هزيمة شنيعة (7)، أدَّت إلى تشتُّت قوى التُّركان مرَّة أُخرى، وتبعشرهم في الجزيرة وشيال الشَّام. كما أن وُجُود قُوَّتَيْن بدويَّتَيْن هما القبائل العَربيَّة والقبائل التركهانية، مع ما لهما

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الْحَلَّب، ابن العديم، 2/ 647، والتاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 529.

<sup>3-</sup>زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.

<sup>4 -</sup> التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 260.

<sup>5 -</sup> التاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 528.

<sup>6 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 601

<sup>7 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 602 ـ 604.

<sup>8 -</sup> الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 83.

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 685.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 686.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الْحَلِّب، ابن العديم، 2 / 687.

<sup>4 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 311، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/ 470، وزُبْدَة الحَلَب، ابس العديم، 2/706، \_ الجفالة: هُم من جفل، أو فزع من شيء، ومضى هارباً على وجهه، أمَّا الجوابنة؛ فَجَمْعٌ مُفرده جوبان، وفيها عدَّة أقوال، فيُمكن أن تكون نسبة إلى قبيلة جوبي الكُردية (السُّلُوك، المقريزي، 1/4)، ونستبعد ذلك، فالحديث هُنا عن التُّركان. ويُمكن أن تكون نسبة إلى جوبان وهي من قُرى مرو (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: جوبان). ومن التُستخدامات اللاحقة لهذه الكلمة نميل إلى الاعتقاد بأنّه كان يقصد بالجوابنة المُقاتلين المشاة الذين لا يحترفون القتال، أثمَّ تطور معنى الكلمة فيا بعد لتُطلَق على مَنْ يعمل برعي المواشي بالأجرة، (سيرة منكبرتي، النسوي، 107، ودراسات في تاريخ الرستن، منذر الحايك، 251).

ي عرب المسلم المعالم المسلم ا

<sup>6-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 470، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 305.

<sup>7-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170.

التُّركان، وكانت مجموعات بدوية كُردية، مُنْذُ القرن الخامس الهجري، قد هاجرت إلى تلك المناطق على دفعات، إمَّا على شكل مجموعات عسكريَّة، أو تحرُّكات قَبَلية، واستطاع بعضها تأسيس الدولة المروانية في ديار بكر<sup>(1)</sup>، لكنَّها ظلَّت أقليَّة همُّها الصراع مع المجموعات البدويَّة التركهانية على مناطق النُّفُوذ، والاشتراك في أحداث الشغب كُلَّها سنحت الفُرصة. ولم يكن لها أيُّ دور سياسي أو عسكري إلَّا من خلال التطقُّع العسكري كأفراد في الجيش النظامي، أو كعشائر تُقاتل كقُوَّات مُساندة للجيش النظامي، وقد كانت عدَّة قبائل من الأكراد تُقاتل مع جيش عهاد الدِّين زنكي في هُجُومه على الرُّهَا<sup>(2)</sup>. وحاول نُور الدِّين بن زنكي مُوازنة التُّركهان بالأكراد، فاستخدمهم بجيشه بكثرة، وكان الأكراد قد أخذوا بالتدفُّق على شهال العراق والشَّام بعد أن دمَّر الكرج دولة منوجهر أو بني شدًاد الكُردية، وهذه الهجرة ستُمهِّد لانتقال السُّلطة من دولة الأتابكة التُّركهان إلى دولة الأيُّوبيَّن

1. القيعرية: وهم قوم من الأكراد، ينسبون إلى بلدة قيمر (4)، هاجروا إلى الشّام كمجموعة قبلية، وكان زعيمهم في دمشق ناصر الدِّين أبو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري الكُردي، وكانوا حامية دمشق في عهد الملك الصّالح أيُّوب، وهم الدِّين استدعوا الملك النّاصر يُوسُف، وفتحوا له أبواب دمشق، بعد قتل الماليك للملك المُعظَّم بن الصّالح أيُّوب في مصر (5). وقاتلوا مع النّاصر يُوسُف في هُجُومه على مصر ضدَّ الماليك، وثبتوا معه عند الهزيمة، وقُتل في تلك المعركة جماعة من أمرائهم (6). ولكنّهم ما لبثوا أن حاولوا قلب دولة النّاصر يُوسُف عندما كان في عنده أمام التّنار، "فخاف النّاصر، وتخيّل من الأُمراء القيمرية، الذين في دمشق، فاضطرب، مقيّد الله الله المناهم (6).

الأكراد(3). ومع قيام الدولة الأيُّوبيَّة برزت على الساحة مجموعات من الأكراد يجمعهم الانتساب إلى

1- أبو المعالي ناصر الدَّين حسين بن علي، وقيل: ابن عبد العزيز القيمري الكُردي، مُقـدَّم جُيُـوش الملك النَّـاصر يُوسُـف الثَّاني، وهُو الذي سلّمه دمشق، تُوفِّ مُرابطاً في الساحل عام 665 هـ. ( الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 1/ 335 ). 2-القلائد الجوهرية، ابن طولون، 1/ 91 - 127.

الشهرزورية من الكَرَك، فغادروها نحو ساحل فلسطين الجنوبي، وأقاموا هُناك(6).

3 - الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 1/ 339.

2، الشهرزورية:

ويبدو أن القيمرية \_مُنذُ قُدُومهم إلى دمشق مع الملك النَّاصر يُوسُف \_ قد استقرُّوا فيها،

وشادوا فيها من المعالم العمرانية ما خلَّد اسمهم حتَّى الآن، فَحَيُّ القيمرية الواقع شرق الجامع

الأموي، والمنسوب إليهم هُو من أهمِّ معالم مدينة دمشق القديمة، وقد أخذ الحيُّ اسمَهُ من المدرسة

القيمرية التي أنشأها الأمير ناصر الدِّين القيمري(1)، ومن تسمية هذا الحيِّ أُطلق اسم باب القيمرية

على الباب الشرقى للجامع الأموي(2). كما تُوجد مدرسة أُخرى باسم القيمرية، تُسمَّى القيمرية

الصُّغْرَى(3). وفي دمشق \_ أيضاً \_ حارة القيمري، وهي في حيِّ الصالحية عند البيارستان القيمري(4).

وهم مجموعة من الأكراد، ينتسبون إلى شهرزور(5)، فرُّوا من أمام غزو هُولاكُو لـشال

العراق، وقدموا إلى دمشق، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف فارس، ومعهم أولادهم ونساؤهم،

فاستخدمهم الملك النَّاصر يُوسُف، وأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال والإقطاعات، وكمان ذلك

بطلب من القيمرية، وبتزكيتهم للشهرزورية أمام النَّاصر. ولكن الشهرزورية لم يقتنعوا بم حصلوا

عليه، ولم يزدهم إحسان النَّاصر إلَّا عصياناً، ثُمَّ تركوا مُعسكر النَّاصر، والتحقوا بالملك المُغيث

صاحب الكرّك، وبعد هزيمة المُغيث أمام قُوَّات النّاصر عام 657 هـ 1259م، طلب النَّاصر إبعاد

بلدة واحدة، أو قرابة عائلية وعشائرية، وكان منهم:

<sup>4 -</sup> وهُو جانب جامع الشَّيخ عيي الدِّينَ، شُيِّد عام 656 هـ ( الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 2/ 158، والمروج السندسية، ابن كنان، 34، ومُعجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهاي، 1/ 221، ومعالم دمشق التاريخية، إيبش وشهابي، 46 ). 5 - شهرزور: كُورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، والمدينة في صحراء، أهلها من الأكراد العُصاة، ولهم بطش وشدَّة. ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: شهرزور ).

<sup>6 -</sup> أخبار الأنبوليين، ابن العميد، 46، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 505.

<sup>1 -</sup> مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّلبيَّة، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 2/ 294.

<sup>2 -</sup> روايات الْمُؤرِّخ الرهاوي المجهول، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 63.

<sup>3-</sup>مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 2/ 280.

<sup>4 -</sup> قيمر: قلعة في الجبال بين الموصل وخِلاط. ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: قيمر ).

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 463.

<sup>6 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 8.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.

#### المبحث الرَّابع:

#### أعراب الشام ودورهم السياسي

كانت بادية الشّام - مُنْذُ القدم - مكاناً تنتشر فيه القبائل العَرَبيَّة، التي مازالت تعيش حالة البداوة، وتعدُّ أن هذه البادية موطنها، وأن سُهُول الشَّام هي عُمقها الحيوي، الذي تفزع إليه، سلْماً، أو حرباً، عند الخطر، وعند انعدام مصادر الحياة في البادية. وكانت ممالك الشَّام الأيُّوبيَّة تلتفُّ كقوس حول بادية الشَّام من حلب، إلى حماة، فحمص، فدمشق، فالكرك، وكُلُّ من هذه المُدُن كانت تقوم بدور البوَّابة ما بين البادية والسُّهُول السَّاحليَّة، ومن ثَمَّ؛ البحر. وكان جُزء كبير من اقتصاد مُدُن الشَّام، التي تُشكِّل كُلُّ منها إحدى الدُّويلات الأيُّوبيَّة، يستند بشكل كبير - إلى تبادل المُنتجات مع سُكَّان البادية، وجُزء آخر من هذا الاقتصاد يعتمد على تسيير القوافل التِّجاريَّة عبر البادية، لذلك كانت علاقات تلك المالك مع البدو على غاية من الأهميَّة، وللسبب نفسه؛ كان لأُمراء البدو علاقات كانت علاقات تلك المالك مع البدو على غاية من الأهميَّة، وللسبب نفسه؛ كان لأُمراء البدو علاقات مُتميِّزة مع مُلُوك بني أيُّوب في الشَّام.

وكان لمُلُوك الشَّام الآيُّوبيَّة أسباب أُخرى لا تقلُّ أهيَّية عن الأسباب الاقتصاديَّة لإقامة أوثق العلاقات مع البدو، فللقبائل البدويَّة طريقتها الخاصَّة في القتال، التي تعتمد على الكرِّ والفَرِّ والسُّرعة الهائلة في التحرُّك، ولا تستطيع الجُيُوش النَّظاميَّة بجاراتها بذلك، ثمَّ أجبر المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام على اصطناع كُلِّ منهم للقبائل البدويَّة التي تجاوره، لا ليأمن شرَّها فقط على أريافه وقوافله التّجاريَّة، بل لتكون وقت الحاجة و رديفاً لقُوَّاته، أو طليعة لها، أو للتصدِّي لعُربان المُلُوك المُعادين له. وقد استخدم المُلُوك الآيُّوبيَّة في الشَّام القبائل البدويَّة في كُلِّ حُرُوبهم، إمَّا بشكل قُوَّات عسكريَّة رديفه لكتلة الجيش النظامي، وإمَّا على شكل كهائن، تنقضُّ في الوقت المُناسب على قُوَّات العدوِّ. كما استخدموا القبائل البدويَّة لشنِّ الحَرْب الاقتصاديَّة في بلاد خصومهم عن طريق رعي الزروع وقطع الأشجار ونهب القرى (1). وبلغ من اختصاص المُلُوك الآيُّوبيَّة في الشَّام بجهاعات وقبائل من البدو أنّه كان يُقال "عرب الملك المُعرَّم "وعرب الملك المُجاهد" (3)، "وعرب الملك المُعظَّم" (4).

كذلك كانت قبائل البدو تدفع الضرائب للملك الذي تعيش في جواره، وكانت الضريبة المفروضة عليهم اسمها العدّاد، وماتزال هذه الضريبة مفروضة في وقتنا الحاضر، ولها الاسم ذاته، وهي تُحدّد وُفقاً لعدد الأغنام أو الإبل التي يملكها كُلُّ شخص، فيقوم الوكيل ويُسمّى عند البدو العدّاد بِعد الماشية، ويتسلّم ضريبة كُلِّ رأس منها. ويبدو أن وُجُود أمير لعرب الشّام لم يمنع المُلُوك الأيّوبيّة من القيام بواسطة وكلائهم الخاصّين من القيام بالعدّاد، وأخذ الضريبة مُباشرة من البدو دُون واسطة أمير العرب المُرب المنسرة، فيها كانت وظيفته سياسيّة وعسكريّة فقط بعُرف المُلُوك الأيّوبيّن. ولاعتهاد البدو على تربية الماشية، فقد كان يتمُّ في أماكن تواجدهم رعبي كثيف للأعشاب، لمذلك كانت السُلطات المحليّة تُزيجهم من طريق الحملات العسكريّة، أو عن طريق الملك في تنقُلاته، لتوفير الأعشاب للحملة، أو للحاشية، ودوابّ الحمل، والركوب العديدة فيها (2).

#### قبائل الشَّام العرَبيَّة:

بعد الفتح العَرَبي الإسلامي لبلاد الشَّام تدفَّقت نحوها القبائل العَرَبيَّة، وانتشرت القبائل الشهالية العدنانية في كافَّة مناطق الشَّام جنوباً وشهالاً ما عدا منطقة الوسط، حمص وباديتها، فقد اختصَّت بها القبائل العَرَبيَّة الجنوبية اليهانية. ولكنْ؛ مع مُرُور الزمن، كانت هُناك تبدُّلات ديموغرافية كبيرة، حتَّى إنَّنا لا نكاد نرى أيَّ ملامح للتقسيم السَّابق في العصر الأيُّسوبي، فمُنْذُ العصر الفاطمي سيطرت القبائل اليهانية على جنوب ووسط الشَّام، فقد كانت ـ وقتها ـ قبيلة طيء اليهانية، بزعامة آل الجرَّاح، أكبر القبائل في جنوب الشَّام، ووسطه.

وكانت جذام اليهانية تُسيطر على وسط وشهال فلسطين، ومنهم بنو مسرَّة، وبنو فيض، وبنو شجاع، في القُدُس، وما حولها، والعناترة حول بلدة الخليل. وكان بنو نمير في الكفرية ونمرين (3) في حوران. وفي وسط سُورية؛ نجد بني زبيد وأبناء عمَّهم بني ربيعة من طيء اليهانية ينتشرون في غوطة

<sup>1-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 622.

<sup>2 -</sup> رسالة جوزيف دي كانسي، من فُرسان مُستشفى القدِّيس يُوحنَّا إلى الملك إدوارد الأوَّل، الموسوعة الشاملة، د. شها ذكًا د، 36 / 369.

<sup>3-</sup>كفرية ونمرين: لا نجد الآن اسم كفرية في حوران، أمَّا اسم نمرين؛ فمع عدم وُجُوده حرفياً، فإنَّ هُناك قُرى في حوران تحمل أساء: نمر ونمرة. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، 427 - 428).

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 470.

<sup>2 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.

<sup>3 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 254.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 142.

دمشق، وشهالها. وفي جنوب فلسطين؛ انتشر بنو جرم من طيء، ويُقال لهم بنو ثعلبة (1). ومن طيء حايضاً حكانت قبيلة غيد، التي انتشرت ما بين الشَّام والعراق والحجاز، ومنها البطنين. كذلك كانت بقايا قبيلة غسَّان، وهي من الأزد، من كهلان اليهانية، ومنهم طائفة في حمص. واستطاعت عدَّة بطون من طيء أن تُسيطر على مناطق واسعة جنوب فلسطين وجنوب شرقي الأردن، كذلك نجد زعها طيء في فلسطين من آل الجرَّاح قد استولوا على الرملة (2)، وأظهرت طيء سيادتها على القبائل في جنوب الشَّام آيام شيخهم دغفل بن الجرَّاح وأولاده مفرج وحسَّان (3)، اللذّين تحالفا مع الفاطميين أوَّلاً، ثُمَّ اصطدما بهم. وانتهت سيادة آل الجرَّاح بوفاة حسَّان بن دغفل عام 433 هـ 1043م وفي ظلَّ آل الجرَّاح كان يعيش بنو مهيد في وادي مُوسى، وكانوا يقطعون الطريق هُناك، ويخضعون وفي ظلَّ آل الجرَّاح كان يعيش بنو مهيد في وادي مُوسى، وكانوا يقطعون الطريق هناك، ويخضعون لنصُور بن دغفل (5)، وحول الكرَك عاش بنو مهدي وبنو عقبة، وزعيمهم سابق الدِّين عيَّنه بن مهدي، الذي كلَّفه السُّلطان بيبرس بحهاية الطريق حول الكرَك (6)، وبنو مهدي هؤلاء من عذرة، من قضاعة الحمرية السبئية، ومنهم بطون كثيرة، وبنو عقبة من جذام (7). أمَّا بنو عاملة، وهم من قبيلة سبأ اليهانية؛ فقد تواجدوا بكثافة في شهال فلسطين، حتَّى سُمِّيَثُ الجبالُ هُناك باسم جبال عاملة.

ومن قبائل عامر بن صعصعة تفرَّعت بنو هلال حول بلدة صرخد في الجولان، حتَّى سُمِّي جبل حوران - جبل اللَّرُوز الآن - باسم جبل هلال. وتفرَّع - أيضاً - عن عامر بن صعصعة بنو عقيل ابن ربيعة، فقد خرجوا من البحرين إلى العراق، ثُمَّ إلى الجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ أسَّس زعيمهم قريش وابنه مُسلم الدولة العقيلية هُناك. ويتواجد في بلاد حلب وجبل الأحص وأطراف الجزيرة تحالف قبلي من أعراب شتَّى يُعرَفون بآل بشَّار، وهم لا ينقادون لأمير واحد، ولو اجتمعوا لما أمن شرَّهم (8).

وفي أيَّام دولة الملك الكامل بن العادل ظهر بنو كلاب على بني ربيعة، الذين اعتذروا عن حمل الغلال إلى مدينة خِلاط، فقد قال مانع بن حديثة وغنام بن طاهر للكامل: "إن الجهال غربت في البرِّيَّة، ولمَّا قام بالأمر بنو كلاب حقد الكامل على مانع وغنام، وعندما أتياه عند أَخْذه لآمد، وبتخهها، وقال: والله؛ لولا إنكها عربيان لأفعلنَّ بكها الواجب "(3)، ونستدلُّ من قول الكامل أن صفة العُرُوبة التي يحملها الأعراب كانت من الصفات ذات التقدير الخاص لدى مُلُوك بنبي أيُّوب، واستفادت كلاب من هذه الحادثة، فتقرَّبت إلى الكامل، الذي قدَّمهم، وأكرمهم، وكذلك تقرَّبوا من الملك الأشرف، وكانوا معدودين من أتباعه (4).

أمًّا أشهر القبائل القيسية الشمالية في بلاد الشَّام؛ فهم بنو كلاب، وقد انتشروا شمال حلب

وحتَّى شُفُوح جبال طوروس والدروب إلى بلاد الـرُّوم، ويعد ضعف الدولة العبَّاسيَّة وقع على

عاتقهم مهمَّة التّصدِّي للبيزنطيين، وسُجِّلَتْ مآثرهم الجهادية ضدَّ الرُّوم في السيرة الشُّعْبيَّة المعروفة

باسم: الأميرة ذات الهمَّة. والمرداسيون فرع منهم أسَّس الدولة المرداسية، ما بين 415 ـ 472 هـ

1025 \_1080م. واستمرَّت قبيلة كلاب وتفرُّعاتها في مواقعهم التاريخية شمال السَّام حتَّى العمصر

المملوكي، ولكنَّهم لم يخضعوا لقيادة مُوحَّدة، ممَّا جعلهم يخضعون لزعامة آل فضل(1)، وقد قال عنهم

الأمير علاء الدِّين ألطنبغا نائب السَّلطنة بحلب: "لو كان لهم شيخ كُف، يجمع صُفُوفهم لما

استطاعت قبيلة أُخرى الوُقُوف إلى جانبهم"، وقال عنهم ابن فضل الله: "وبنو كلاب عرب أطراف

حلب والروم، ولهم غزوات معلومة وغارات لا تُعدُّ، ولا ترال تُباع بنات الرُّوم وأبناؤهم من

سباياهم، وهم يتكلَّمون بالتُّركيَّة ... وهم عرب غُز، رجال حُرُوب، وأبطال جُيُوش "(2).

وحول حمس كان مُناك بنو خالد، أو عرب حمس، وهم يدَّعون النسب إلى خالد بن الوليد (5)، "ولعلَّهم من ذوي قرابته من بني خزوم" (6). وهُناك بنو زبيد منتشرون في الشَّام، منهم

<sup>1 -</sup> قبائل العركب، العمري، 144.

<sup>2 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 143.

<sup>3 -</sup> قبائل العَرّب، العمري، 144.

<sup>4 -</sup> قبائل العرب، العمري، 144.

<sup>5-</sup>صبح الأعشى ، القلقشندي، 4/ 214، وقبائل العرب، العمري، 143.

<sup>6 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 254.

 <sup>1 -</sup> وقد نقلهم صلاح الدِّين من جنوب فلسطين إلى مصر عام 1187/583، لأنَّه شكَّ بتعاملهم مع الفرنج. ( قلائد الجيان، القلقشندي، 1/ 322، والروضتيَّن، أبو شامة، 2 / 526، وقبائل العَرَب، العمري، 107 ).

<sup>2 -</sup> ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 31.

<sup>3 -</sup> راجع: وقيات الأعيان، ابن خلكان، مادّة: حسَّان بن دغفل.

<sup>4 -</sup> حول آل الجرَّاح راجع كتاب: الإمارة الطائية في بلاد الشَّام، مُصطفى الحياري.

<sup>5 -</sup>الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 12/ 158.

<sup>6 -</sup> السُّلُوكُ، المقريزي، 1/ 492.

<sup>7 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 213 - 2/ 334 - 130 / 130 - 7

<sup>8 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 145.

بصرخد، ومنهم بغوطة دمشق، "وهم جماعة نوفل الزبيدي" (١)، ونوفل كان يُشارك النَّاصر الشَّاني بحملته على مصر، ولَّا غدر العزيزية بالناصر، وانكسر، "أخذه نوفل الزبيدي وجماعة من مماليك وأصحابه، وعادوا به إلى الشَّام "(2). ونوفل هُو الأمير ناصر الدِّين سيِّد عرب زبيد، كان ذا وُجهة وحُرِمة ومكانة، وقد تُوفِي عام 675 هـ 1276م(3). ويقول ابن العميد: "بعد تفرُّق جُمْع الملك الصَّالِحِ أَيُّوبِ هاجمه عند نابلس حُسام الدِّين لُؤلُّو، وهُو من غلمان عمِّه الصَّالِح إسماعيل، ومعه جُمُوع عظيمة من العَرَبان اليزيديين "(<sup>4)</sup>، وغالباً؛ فهذا تصحيف، وهم العَرَبان الزبيديون، وليس البزيديين. ومع تعدُّد قبائل الشَّام، فقد كان بنو ربيعة هُم وُجُوهها.

في العصر الأيُّوبي ساد بنو ربيعة جميعَ قبائل العَرَب في الشَّام والعراق والجزيرة، ويقول عنهم ابن فضل الله العمري: "أهُم مُلُوك البرّ، وأُمراء الشَّام والعراق والحجاز" (5). وكانوا يتبعون لأقربائهم بني الجرَّاح (6) في العصر الفاطمي، وجَدُّهم ربيعة نبغ بين قبائل العرَّب أيَّام الأتابك زنكي من بني ربيعة بالإمرة على العَرَب بتقليد من السُّلطان، ولم يبدأ ذلك العُرْف حتَّى أيَّام الملك العادل بن

أرضاه بأنْ سيَّاه أميراً ببُوق وعَلَم (3)، وهي رتبة عسكريَّة.

أَيُّوب؛ حيثُ أمَّر منهم حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة (1)، ومنحه العادل - رَسْميًّا - لقبَ أمير

العَرَب. وفي الحقيقة؛ استمرَّ هذا اللقب طيلة العصر الأيُّوبي غير واضح المعالم، غير مُحدَّد المهيَّات

والواجبات، وذلك لطبيعة الحُكْم في المالك الأيُّوبيَّة، فصحيح هُناك سُلطان أعظم تدين لـ الطاعـة

جميع، أو مُعظم، وأحياناً بعض، المالك الأيُّوبيَّة، لكنَّه \_غالباً \_لم يكن يملك قُوَّة كافية لفرض كُلِّ ما

يُريد، وسلطنته خارج مملكته كانت ـ دائماً \_ تخضع لتقييم المصالح المحلِّيَّة والسياسة الإقليميَّة، لذلك،

ومع وُجُود منصب أمير العَرَب ظلَّت قبائل الشَّام البدويَّة تتحالف مع المالك الأيُّوبيَّة، وتخوض

حُرُوبِها، وتلتزم بمُعاهداتها مُنفردة، فالانقسام الأيُّوبي السِّياسي حمى الانقسامات البدويَّة، ورعاها

لتسخيرها وُفقاً لمصالحه، وبالتَّالي؛ لم يتمكَّن السُّلطان الأيُّوبي من إعطاء أمير العَرَب قُوَّة كافية

لإخضاع كُلِّ القبائل له، ولأسرته، ولذلك؛ سيرتفع شأن منصب أمير العَرَب مع قيام دولــة الماليــك

المتنامي، إن كان في الصراع ضدَّ الفرنجة، أو في الصراعات الدّاخليَّة بين ممالك البيت الأيُّوبي. ويسدو

أن لقب أمير العَرَب في العصر الأيُّوبي لم يكن رتبة دائمة للشخص، فيُمكن تبديله ومنح اللقب إلى

شخص آخر، كذلك لم يكن وراثياً بالضرورة، فإذا مات أمير العَرَب يعود الأمر للسُّلطان، فقد يُـولِّي

ابنه، إذا كان أهلاً لها، أو يُولِّي غيره. فعندما تُولِّي حديثة أمير العَرَب قام الملك الكامل بقسمة الإمرة

نصفَيْن، انصفاً لمانع بن حديثة، ونصفاً لغنام أبي طاهر بن غنام الأ الأمرة كاملة إلى أبي بكر

علي بن حديثة، وبقي فيها، حتَّى إنتزعها منه الظَّاهر بيبرس في سلطنته لأُمُور حقدها عليه، وأعطى

الإمرة إلى عيسى بن مهنًّا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة. ولَّا قصد أحمد بن طاهر بن

غنام الملك الظَّاهر بيبرس، وسأله أن يُشركه في إمرة العَرَب كما كان جَدّه، لم يقبل بيبرس، ولكنَّه

إن ما دفع العادل لإحداث منصب رسمي لإمرة العَرَب هُو - بلا شك - دور القبائل العَرَبيَّة

<sup>2 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 117.

<sup>3 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 117.

<sup>1 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 206، وقبائل العَرَب، العمري، 117.

وولده نُور الدِّين (7)، وكان بنو ربيعة يدَّعون أن نسبهم يتَّصل بالبرامكة، لكنَّ الحمداني المهمندار نفى ذلك النسب، وقال: "الأصحُّ في نسب ربيعة إنَّه: ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جرَّاح"، ويمتدُّ في نسبه إلى طيء (<sup>8)</sup>، وطيء هي من قحطان اليهانية (<sup>9)</sup>، وقد بدأ ظُهُور بني ربيعة في القرن السَّادس الهجري \_12م(10)، ومع أن الأمير مانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة كان أمير عرب الشَّام بلا مُنازع في عصر الدولة الأتابكية البورية بدمشق أيَّام طُغْتَكِيْن، لكنَّه لم يُصرِّح لـ ه، ولا لغيره،

<sup>1 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 112.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 8٠

<sup>3 -</sup> راجع ترجته في: النهل الصافي، ابن تغري بردي.

<sup>4 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 29.

<sup>5 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 112.

<sup>6 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.

<sup>7 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 112.

<sup>8 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 112.

<sup>9-</sup>صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.

<sup>10 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 27.

وينقسم بنو ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ هُم المشهورون، وما عداهم أتباع، ولكُـلِّ مـن الثلاثـة أمـير مُختصٌ به:

1 . آل فضل: نسبة إلى فضل بن ربيعة، وهم أعلاهم، وأرمقهم مكانة، وديارهم من حمص إلى الفُرات<sup>(1)</sup>.

2 ، آل علي: نسبة إلى علي بن حديثة بن عقبة، وقد ارتقوا لمنصب الإمرة آيّام الأشرف خليل ابن قلاوون، فبعد أن قبض على مهنًّا بن عيسى قلَّد الإمرة إلى مُحمَّد بن أبي بكر بـن عـلي، وهـم أهـل بيت عظيم الشأن، ديارهم مرج دمشق، وغوطتها(2).

3 . آل مرا: نسبة إلى مرا بن ربيعة، وهم رجال صناديد، وأبطال مناجيد، منازلهم في الجولان وحوران (3). وقد أورد عدَّة مُؤرِّخين وصف دُخُول فُرسان آل مرا إلى دمشق بترتيبهم العسكري، بعد بلاثهم الحَسَن في موقعة حمص ضدَّ التَّتَار، قال ابن فضل الله: "أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح، على الخيل المسومة والجياد المُطهَّمة، عليهم الكزغندات الحُمر في الأطلس المعدني، والديباج الرُّومي، وعلى رُؤُوسهم البيض، مُقلَّدين بالسُّيُوف، بأيديهم الرماح، كـأنَّهم صُـقُور عـلى صُقُور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب(4).

وكان بنو ربيعة في العصر الأيُّوبي "وأوائل المملوكي أكابر وسادات العَرَب ووُجُوهها، ولهـم عند السلاطين حُرمة كبيرة، وصيت عظيم الأ(5). وتتبع لهم كُلُّ قبائل الشَّام العَرَبيَّة، وتدين لهم بالولاء بنو كلب، وبنو كلاب وآل بشَّار، وبنو خالد، ومَنْ بالشام من غزية، وغيرهم، ولا يُوجد في ذلك الوقت "أمَنْ لا يؤثر صُحبتهم، ويُظهر محبَّتهم "(6).

"وقد رأيتهم في الوقائع مع مَنْ غَلَبَ" (1).

1 - صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204.

2-صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 208.

لكنَّ مواقفهم العامَّة لم تتغيَّر، ولم تتبدَّل، فالغزو والنهب كُلَّما لاحت لهم الفُرصة، ولا صديق

وهذا ما كانت عليه كُلُّ قبائل الأعراب؛ حيثُ يبدو أنَّهم متى لمسوا ضعفاً من الدولة،

هم، ولا عدق، إلَّا من خلال مصالحهم الخاصَّة، رغبة فيه، أو رهبة منه، ولذلك قال عنهم المهمندار:

أو المملكة التي هُم بجوارها، أو من قبائل أُخرى اندفعوا بغريزة لا تُقاوَم، للسلب والنهب، ففي عام

624 هـ 1227م، اندفعت غزية البطنين نحو حمص في عزِّ سطوة وقُوَّة ملكها المُجاهد، ونهبوا

ما حول المدينة، "وأخذوا حتَّى غنم أهل البلد، فوقع الصوت، وركب العَسْكَر، وتبعوا العَرَبان إلى

مُعظم الطريق، وكان فيهم قُوَّة ومنعة لكثرتهم، فعادوا عنهم بمُراسلة جرت بينهم، وذلك توفيقاً من

الله لحقن الدماء "(2)، فقد كان فُرسان غزية يُشكِّلون قُوَّة أكبر من قُوَّة عسكر حمص، لـذلك؛ تمكَّنوا

من الاحتفاظ بها نهبوه من حمص، ومضوا، ورجع العَسْكَر يحمدون الله على سلامتهم، وحقن دمائهم.

معركة حمص النَّانية ضدَّ النَّتَار، "وأثّروا أثراً حسناً، وعملوا في النَّتَار عملاً جيداً "(3).

لكنَّنا لا نستطيع إلَّا أن نستثني كثيراً من المواقف لبني ربيعة ، فقد قاتلوا، وخاصَّة آل مـرا، في

كذلك شارك الأمير زامل بن علي مع فُرسان بني ربيعة في معركة حمص الأولى مع الأشرف

مُوسى صاحب حمص، وتمكَّنوا من هزيمة قُوَّة كبيرة للتَّثَار عام 659 هـ 1260م (4). وأيضاً؛ يُسجَّل

لبني زبيد موقفهم مع الملك النَّاصر النَّاني، فبعد هزيمته على أبواب مصر من قبَل جيش الماليك بقيادة

آيبك، كان بنو زبيد وأميرهم ناصر الدِّين نوفل من القلَّة الذين وقفوا معه، وحموه "، وعادوا به إلى

<sup>1 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 141 -

<sup>3 -</sup> قبائل العَرَب، العمرى، 141.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442.

<sup>5 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 8.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 141.

<sup>-</sup> بس حرب حمري، و 1 من الموري، و 1 من المورد الوصف أيضاً في: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 690، وصُبح الأعشى، 4 - قبائل العَرَب، العمري، 142، - وقد ورد الوصف أيضاً في: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 690، وصُبح الأعشى، 3 - قبائل العَرَب، العمري، 138. القلقشندي، 4/ 209.

<sup>5 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.

<sup>6 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 141.

#### المبحث الخامس:

## أعراب الشأم ودورهم العسكري

نظراً لانقسام المهالك الأيُّوبيَّة في الشَّام، ولقيام المُنافسة وحتَّى الخُرُوب فيها بينها، فقد استعان كُلُّ منها بها حوله من القبائل البدويَّة، وسخَّرها لمصالحه، وجعلها سنداً حسكريًّا في حملاته ومعاركه، إضافة للصدامات العسكريَّة مع الدُّول الأُخرى خارج البيت الأيُّوبي، ممَّا أعطى قيمة عسكريَّة كُبْرَى للبدو في بلاد الشَّام. بينها نُلاحظ أن دورهم العسكري في مصر كان ينحصر بالدفاع ضدَّ الغزوات الفرنجيَّة، أو بالقيام بثورات ضدَّ الدولة، وذلك لقيام مملكة أيُّوبية مُوحَّدة في مصر، وعدم وُجُود دُول عُجاورة تطمع في أراضيها سوى الحملات الفرنجيَّة القادمة عبر البحار.

# أهمُّ الأدوار العسكريَّة التي لعبها البدو في الشَّام في العصر الأيُّوبي:

إن ما قام به بنو ربيعة بقيادة أميرهم مانع بن حديثة في التصدِّي لحملة عز الدِّين كيكاوس على حلب، رُبًا كان من أهم أدوارهم، وأكثرها إظهاراً لقُوَّتهم، فقد تمكنوا عام 615 هـ 1218م من هزيمة سلطان سلاجقة الرُّوم، وردِّه إلى بلاده، بعد أن احتلَّ عدَّة بُلدان في الجزيرة، وكان كيكاوس قد تحالف مع الصَّالح صاحب آمد والأفضل بن صلاح الدِّين صاحب سُمَيساط، وتقدَّموا لاحتلال بلاد الجزيرة وحلب (1)، فجمع الأشرف قُوَّاته، وطلب الأمير مانع وعربانه، فأتوه بجموعهم، ولمَّا سمع كيكاوس بتحشُّد الأشرف سير إليه "ألف فارس هُم خيار عسكره وأبطاهم" (2)، فوقع عليهم العَرَب، واحتووا عليهم، وعلى سوادهم، وركب الملك الأشرف، فوصل إليهم، وقد استباحوهم قتلاً وأسراً.. ولمَّا سمع كيكاوس ذلك سار عن منبح هارباً" (3)، وعاد إلى بلاده مكسوراً (4)، "ولمَّا وصل الأشرف كانت العرَّب قد فرغت منهم "(5)، لقد بدأ العَرَبُ المعركة ضدَّ كيكاوس، وهم الدين انتصروا فيها، إنَّها العَرَب عبالغعل معركتهم وحدهم؛ حيثُ لم يضرب فيها الأشرف بسيف سوى شُيُوف العَرَب.

وفي عام 620 هـ 1223م، عندما خرج الملك المُعظَّم يُريد احتلال حمس وحاة أقام مُعسكره في سلمية، وقدَّم قُوَّات البدو المُرافقة له لتقطع إمداد حاة بالميرة، والتصدِّي للنجدات القادمة إليها(1). ثُمَّ ركَّز المُعظَّم حملته باغبًاه حمص، فسيَّر عام 623 هـ 1226م، جماعة من الأعراب المُرافقين له، وهم عرب دمشق، فنهبوا قرى حمص، وخرَّبوها(2)، ولمَّا كان المُعظَّم يحُرِّك البدو لتنفيذ مخطَّطاته التوسُّعية في الشَّام، وإجهاد أعدائه، بينها قُوَّاته تستريح، فكَّر الأشرف والمُجاهد بالطريقة نفسها، فطلب المُجاهد من الأشرف تحريك بني ربيعة من شهال حلب باتِّجاهه لنجدة حمص، وبالفعل؛ أسرع مانع بن حديثة بعربانه نحو حمص، ولكن شهوة النهب اجتاحتهم في الطريق، خاصَّة أثبَم وجدوا أمامهم قرى المعرَّة وقرى حماة والجُيُوش الأيُّوبيَّة بعيدة عنها، مشغولة ببعضها، ولن تفكِّر بمطاردتهم، بل على العكس تُريد مداراتهم للاستفادة من قُوَّهم، فاندفعوا نحو هذه القرى العزلاء، فنهبوها، واقتسموا بيادرها، ورفضوا تأدية ضريبة العدَّاد في ذلك العام (3).

إن البدو سلاح فتاًك، ولكنّه ذُو حَدَّيْن، وعلى مَنْ يُريد الاستفادة منهم أن يتحمَّل نزواتهم، ولذلك؛ لم يُحرِّك الملك الأشرف ساكناً حيالهم، وحتَّى لو أراد فإنّه لن يتمكَّن من القيام بأيِّ عمل عسكري ضدَّهم، فقُوَّات الملك المُعظَّم تُعسكر في سلمية، وهي تترصَّد حَرَكاته. وبعد أن حزم الملك المُعظَّم أمره، وهاجم حمص بقُوَّاته، أعاد الأشرف الأنصال بهانع، وطلب منه نجدة حمص، فاندفع بعربانه، "وتركوا أظعانهم بمرج دابق، وساروا جريدة إلى حمص "(4)، ويبدو أن ما تركوه في مرج دابق هي المنهوبات التي عجزوا عن السير بها. ومع كُلِّ فسادهم ونهبهم، فقد هاجم مانع بتُوَّاته الخفيفة جيشَ الملك المُعظَّم، فتصدَّت لهم عرب دمشق، وجرت بينها عدَّة وقعات (5)، لم تكن حاسمة، ولم تُودِّ إلى نتيجة واضحة.

وفي عام 624 هـ 1227م، أطلق الملك المُعظَّمُ أخماه الملك الأشرف، وسمح له بمُغمادرة دمشق، بعد أن حلف الأيهان المُغلَّظة على الولاء، وما إنْ غادر الملك الأشرف، حتَّى رجع عن أيهانه

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 126.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.

<sup>3-</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، أبن واصل، 4/ 777، وزُبْدة الحَلَب، أبن العديم، 2/ 660.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 74.

<sup>2 -</sup> مُفرِّجُ الكُّرُوبُ، ابن واصل، 3/ 267.

<sup>3 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 74.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 3/ 265.

كُلُها؛ بحُجَّة أنّه كان مُكرهاً عليها، "فندم المُعظَّم، وسيَّر العَرَب إلى بلد حمص وحماة، فعاثوا فيها" (1) ، "ونزلوا الزرَّاعة من أرض حمص، وأرض جوسيه، ومكثوا أيَّاماً يُغيرون على البلاد، ويعودون إلى منازلهم "(2) ، وكان يقودهم سنجر المُلقَّب أمير العَرَب، وهُو مملوك الملك المُعظَّم (3) ما يدلُّ على قيادة مُباشرة للملك المُعظَّم لهؤلاء الأعراب. لقد جرى كُلُّ ذلك والملك المُجاهد مُهمل لهم، حتَّى أعهاهم الطمع ببلاده، عندها "ركب إليهم بمَنْ معه وأولاده، وأذن لأهل بلده في النهب، وأطمعهم، فيا كان بأقلَّ من نصف نهار حتَّى نهبوهم، وسبوهم، وقتلوا وجرحوا خَلْقاً "(4) . وهُنا؛ فلاحظ غياب قُوَّات بني ربيعة عن هذه الأحداث بسبب الوقعة بين الأمير مانع بن حديثة أمير آل فضل وابن عمّه الأمير منيع قُرب بارين (5)؛ حيث هُزم الأمير منيع، وجُرح، وانسحب أتباعه إلى بعلبك (6) ، ولكن؛ إن غابت بُمُوع عربان بني ربيعة، فإن أميرهم مانع لم يغث عن مطاردة المُجاهد لعربان دمشق، فقد حضرها مع المُجاهد، وحصل على نصيبه من الغنائم (7) .

في عام 642 هـ 1244م، أيضاً؛ اصطدم عسكر حماة بعربان بني ربيعة بغياب أميرهم مانع عند المُجاهد في حمص، وكانوا بقيادة أخيه الأمير علي، وانتصر العَرَبان "ولولا عسكر حلب لم يبق من عسكر حماة بقيَّة "(8). وبعد أن فتح الملكُ الكاملُ آمدَ في عام 629 هـ 1232م، خاف مانع بن حديثة منه "وانسحب إلى العراق، وعمل معه الخليفة من المكارمة ما لا عمله مع غيره"، ثُمَّ عاد في العام نفسه من العراق "وانصلح حاله مع الملك الأشرف" (9). وفي عام 630 هـ 1233م، كان مانع وأبناء عمّه غنام ومنيع مُحيِّمَيْن في غوطة دمشق، ولمَّا خرج الملك الأشرف للصيد دعوه إليهم، فأقيام عندهم آيَّاماً (10). وعندما توخَّلت قبيلتا خفاجة وغزية في بادية الشَّام غرباً، ونزلوا في تدمر، فخاف عندهم آيَّاماً (10).

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.

بعض جواريها، وأقطعته إقطاعاً يُرضيه" (7).

من أذاهم الملك الأشرف والملك المُجاهد فاتَّفقا مع أُمراء عرب الشَّام على قصدهم، وساروا إليهم،

ونهبوهم (1). وفي عام 630 هـ 1233م، مات الأمير حُسام الدِّين مانع ابن حديثة أمير العَرَب، فأمّر

الملك الأشرف ابنه مهنًّا بن مانع (2)، ويبدو أن تأمير مهنًّا على العَرَب كان باتِّفاق الملكَيْن الأشرف

الحنكة والدراية بتقلُّباتهم، فعندما قامت الصاحبة ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حلب بتقريب

أحلاف العَرَب، استوحش الأمير علي بن حديثة أمير آل فضل، واختار التوقيت الصعب بالنِّسبَة

لحلب، فانضمَّ إلى قُوَّات الحَوَارزميَّة التي تهاجمها، وعندما التقي عسكر حلب بالخَوَارزميَّة عام 638

هـ 1241م، كمن الأمير علي بعربانه بين البساتين، وانقض على مُؤخِّرة العَسْكَر الحلبي، ففتك بها،

فانهزم الحلبيون(4)، ولكن الضربة الكُبْرَى للحلبيين جاءتهم من خُلفائهم أحلاف العَرَب، الذين

كانوا يُقاتلون معهم، فما إنْ لاحت هزيمة العَسْكَر الحلبي، حتَّى انقضوا عليه، فنهبوا أثقاله، "وكانوا

أشد ضرراً عليه من انتهاب أموالهم من أعدائهم "ا(5). وبعد هذا الغدر من الأحلاف بعسكر حلب

عاد الأمير عليّ عن تحالفه مع الخَوَارزميَّة، وتركهم (6)، ولكن العلاقة مع حلب كان قد تولاها ابن

عمِّه الأمير طاهر بن غنام، "فقد اتَّصل بخدمة الحلبين، وأُمِّر على سائر العرّب، وزوَّجته الصاحبة

لقد كانت علاقة ممالك الشَّام الأيُّوبيَّة بالبدو علاقة في مُنتهى الحساسية، وتحتاج إلى كشير من

والمُجاهد معاً؛ حيثُ خلعا عليه، وحمل مانع، ودُفن في سلمية (٥).

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 368، \_راجعٌ ترجمة مهنَّا بن مانع في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 205، والـضوء اللامع، السخاوي، 5/ 146، والمُختصر، أبو الفِداء، 3/ 205، والأعلام، الزركلي، 7/ 317.

<sup>3-</sup> المنصوري، ابن نظيف، 254، - استمرَّ آل مهناً في دَفْن أُمرائهم في سلمية، وعُرفت لهم مقبرة هُناك تقع شهال السلمية بعدَّة كيلومترات تُسمَّى جبَّانة الشَّيخ فرج، وقد دُفن فيها عيسى بن مهناً عام 680 هـ (شذرات الذهب، ابن العهاد، 6 / 22)، ومحمد بن عيسى بن مهناً عام 724 هـ وماتزال شاهدة قبره ماثلة هُناك. (عشائر الشَّام، أحمد وصفي ذكرا، 1 / 88).

<sup>4-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، والمُختصِر، أبو الفداء، 3/ 167، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.

<sup>5 -</sup> زُبُدَةَ الْحَلَّب، ابن العديم، 2/ 595، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.

<sup>6 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.

<sup>1 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 206.

<sup>2-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 142.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 142.

<sup>4-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 142.

<sup>5-</sup>صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204\_234.

<sup>6 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 145 ــ 136.

<sup>7 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 143.

<sup>8 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 145.

<sup>9 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 249.

<sup>10 -</sup>المنصُّورُي، ابن نظيف، 254.

#### المبحث السَّادس:

#### دور القبائل البدوية في مصر

لم تتوقّف القبائل العَرَبيَّة عن قصد مصر للتوطُّن والإقامة مُنْذُ الفتح العَربي الإسلامي، وأوَّل المناطق التي توطَّنت فيها هذه القبائل كانت في الدلتا، شُمَّ بدأت القبائل العَربيَّة تتوغَّل جنوباً في الصعيد، حتَّى جاورت النوبة، وخالطتها. وكانت قبيلة جذام قدمت إلى مصر مع عَمرو بن العاص، وهي قبيلة يمنية تنتسب إلى كهلان وسبأ، ومن جذام كان بنو زيد الذين استقرُّوا في الشَّر قيَّة حول بلبيس، ومنها - أيضاً - بنو سعد، وكانت مناطق سُكناهم حول الفسطاط، وكان منهم شاور السعدي وزير العاضد الخليفة الفاطمي (1). وبشكل عامِّ؛ انتشر بنو جذام حول الدلتا في الحوف الشرقي والحوف الغربي (2). ومن جذام كان نمي أبو خثعم من ولد مالك بن هلبا بن مالك بن سويد، الذي تقدَّم في دولة الصَّالح أيُّوب، وبلغ عنده منزلة عالية، وقد أقطعه، وأمَّره، واقتنى الماليك، وفي دولة المُعزّ أيبك قدَّمه على عرب مصر، حتَّى قتله غلمانه، فجعل المعزّ ولدَيْه سُلمى ودَغَش مكانه (3). وحول دمياط نزلت قبيلة سِنْسِ وهم من الغوث بن طيء، وكان لهم أيَّام الفاطميين شأن، وتجاورهم وحول دمياط نزلت قبيلة سِنْسِ وهم من الغوث بن طيء، وكان لهم أيَّام الفاطميين شأن، وتجاورهم جاعة من كنانة بن خزيمة قدموا آيَّام الخليفة الفاطمي الفائز (4)، وفُرسان بني كنانة هُم الذين كلَّفهم الصَّالح أيُّوب بالدفاع عن دمياط، وانسحبوا منها، فشنقهم.

وفي صعيد مصر؛ انتشرت قبائل مُتعدِّدة، وتداخلت مناطق سُكُناها، لكنْ؛ يُلاحَظ أن قبيلة هلال قد أقامت حول أسوان، وإلى الجنوب منها. ثُمَّ قبيلة يُليِّ، وكانوا في بلاد إضميم، وتوزَّعوا من أسيوط حتَّى عيذاب وحول سوهاج. كما كانت هُناك مجموعة من قريش أقامت في الاسمونين. أمَّا أكثر عرب الصعيد عدداً وتوزُّعاً؛ فقد كانت جهينة (5)، وهي من قضاعة، وكانت تُقيم في الأشمونين، وتنتشر ما بين منفلوط وأسيوط. ومن قضاعة كانت قبيلة كلب التي سكنت حول

السُّلطان صلاح الدِّين، وأخذ يدعو للأمير داود بن العاضد (3).

قبائل البربر في مصر:

منفلوط، وكذلك بهراء من قضاعة سكنت في أقصى صعيد مصر، وحتَّى بـ الد الحبشة، "وكثروا

هُناك، وغلبوا على بلاد النوبة، وهم يُحاربون الحبشة(1). وفي صعيد مصر؛ كانت - أيضاً - قبيلة

الكنوز، وأصلهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، قدموا إلى مصر من اليهامة زمن الخليفة

العبَّاسي المُتوكِّل، وأقاموا في أعالي الصعيد، وتصدّوا لغارات البجة (2)، ثُـمَّ اختلطوا بهم، وتزوَّجوا

منهم، حتَّى سيطروا على بلادهم، ومنهم بنو مسروق، الذين ينتسب إليهم مُحمَّد بن على حامي أسوان

وزعيم ربيعة، ولَّا مات؛ خلفه ابنه أبو المكارم هبة الله بن مُحمَّد بن علي، وهُو الـذي ظفر بـأبي ركـوة

الثائر الأموي الخارج على الحاكم بأمر الله، فأكرمه الحاكم، ولقَّبه كَنزَ الدولة، وأصبحوا يُعرَفون

كُلُّهم بكنز الدولة، أو الكنوز، وآخر أُمرائهم قَتَلَهُ الملك العادل عام 507 هـ عندما جمع لحرب

بعد هجرة القبائل العَرَبيَّة نحو بلاد المغرب، اختلطت بالقبائل البربرية بالمُصاهرة والحلف

والولاء، فحمل قسمٌ كبيرٌ من القبائل البربرية أنساباً عربية بالولاء، وبعد ذلك؛ انتقلوا للتعريب

اللُّغوي(4)، "وذلك أن قبائل العَرَب نزلت على قبائل البربر، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المُجاورة لهم،

حتَّى صاروا جنساً واحداً" (5). وعندما قامت الدولة الفاطمية في المغرب، كانت القبائل البربرية عماد

جُيُوشها. وبعد أن احتلَّ جوهر الصقلي مصر، وضمّها إلى الدولة الفاطمية، ومن ثَمَّ؛ جعلها قاعدة

الدولة، أدَّى ذلك إلى هجرة بُمُوع كبيرة من قبائل البربر إلى مصر، وجاءت هذه القبائل تحمل أنساباً

عربية، وتنقسم إلى يهانية، مثل قبيلة هوارة، التي انتشرت غربي النيل، وقيسية؛ مثل قبيلة لواته، التي

عبرت إلى شرقي النيل (6)، فكان لهم مُعظم بلاد البهنسا، وتفرَّقوا في الجيزة والمنوفية والبُحَيْرة (7)، وقد

<sup>3 -</sup> البيان والإعراب، المقريزي، 44.

<sup>4-</sup>دراسات في تاريخ المُرُوبة، عبد المجيد عابدين، مُلحق البيان والإعراب، 132.

<sup>5 -</sup> وصف أفريقية الشهالية والصحراوية، الإدريسي، 35.

<sup>6 -</sup> دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، مُلحق البيان والإعراب، 132.

<sup>7 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 157.

<sup>1 -</sup> قلائد الجان، القلقشندي، 44 / 2 6. 3 - البجة: قبائل م

<sup>2 -</sup> قيائل العَرَب، العمري، 169.

<sup>3-</sup> قبائل العَرَب، العمري، 171.

<sup>4 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 156.

<sup>5 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 157.

#### المبحث السَّابع:

العلاقات الدوليّة لقبائل البدو

#### قبائل العَرَب والثَّثَّار:

عندما استولى التَّتَار على أرمينيا والبلاد التي كانت للدولة الخَوَارزميَّة في عام 629 هـ 1232م، اهتمَّ الخليفة المُستنصر غاية الاهتام، "واستخدم عرباناً كثيرة" (1).

وفي عام 657 هـ 1259م، عندما هرب النَّاصر يُوسُف الثَّاني أمام الغزو المغولي للـشام سار باتِّجاه مصر، وعندما وصل البلقاء النجأ إلى أعراب تلك المنطقة، فأجاروه (2)، عندها؛ تسحَّب أحد غلمانه، وهُو حسين الطبردار الكُردي، واتَّصل بالتتار، وأعلمهم بمكانه، فهاجمت القُوَّات المغولية أعراب البلقاء، وقبضوا على النَّاصر يُوسُف، ثُمَّ وضعوا فيهم السيف، وبعد أن "غنموا أولادهم، ونساءهم، وأنعاماً شيئاً كثيراً، واستاقوا الجميع "(3). ومن جهة أُخرى؛ وفي العام نفسه، جرت حادثة لا نرى لها أيَّ علاقة بالحادثة السابقة، قام الأعراب بالإغارة "على خيل الجشار التي للتَّكار ومَنْ يتعلَّق بهم، فاستاقوها، وكانت ترعى بالمرج بتـلّ راهـط ومـا حولـه "(4)، " فـساقت وراءهـم التَّتَر، فلم يُدركُوا لهم الغبار، ولا استردُّوا منهم فَرَسَاً، ولا حماراً" (5). ومن المؤكَّد أن جموعاً كبيرة من أعراب مصر وأعراب الشَّام شاركت ضدَّ التَّتَار في موقعة عَيْن جالُوت (6).

#### قبائل العَرَب والفرنج:

في العلاقات بين قبائل البدو والفرنج لا يُمكن أن نخرج بحُكْم مُطلق، فقبائـل البـدو بلغـت من التقرُّق الجَغرافي والانقسام السلالي مبلغاً كبيراً، ولم يُشكِّلوا - في أفضل الأحوال - تجمُّعاً قبلياً، أو اتِّحاداً يضمُّ مُعظم العَرَبان، ولكونهم يعيشون بهذا الشكل من الانتشار الواسع والاختلاف

واندرجت القبائل البربرية في مصر تحت اسم العَرَب والأعراب، ورُبَّا لحياة البداوة، ولتعربهم الكامل مع بداوتهم، فكان يُطلَق عليهم اسم عرب هوارة وعرب لواته (2). وكانت قبائل الأعراب في مصر على اختلاف أنسابها تشترك جميعاً مشل عرب الشَّام - بحُبِّ القتال، واغتنام الفُرص للسلب والنهب، فنجدهم عوناً لكُلِّ خارج على الدولة؛ إذْ لم يتمكَّنوا هُم بأنفسهم من الخُرُوج عليها، وقتالها. وكان مُعظم قتالهم من أجل الغنائم(3)، أو للسيطرة على البلاد، فكانت الحُرُوب تقع بين القبائل البدويَّة، فتُودي بالكثير منهم، كالواقعة التي جرت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية عام 636 هـ 1238م، وقُتل فيها كثير منهم، حتَّى أرسل الملكُ العادلُ مَنْ يُصلح بينهم (4).

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 232، كذلك راجع: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.

<sup>2-</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1/ 427، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 213، والبداية والنَّهاية، ابن كثير، 13 / 220.

<sup>3-</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 408.

<sup>4 -</sup> ذَيْلَ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 409.

<sup>5 -</sup> البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.

<sup>6 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 417.

<sup>1 -</sup> المقفى الكبير، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 1/ 295، ـ وقد وصف الشريف أبو يعلى مُحمَّد بن عُمَّد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم هذه الحادثة، فقال شعراً:

كان بمصربدر له عليها الأمر

يقتل كُلّ ساعة من أهلها جماعة

في النيل من دمائهم ولج في إفنائهم

<sup>2 -</sup> المقفى الكبير، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 1/ 295.

<sup>3 -</sup> يروي أُسامة بن مُنقذ دوافع البدو للقتال، فيصف هُجُومهم عليه قائلاً: "فحمل علي العَرَب فوقعتُ . . فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف، وقال: هات الوزن . . ثُمَّ أخذ حصاني وسيفي" (كتاب الإعتبار، أُسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 12/ 157).

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 393.

والتنازع، فمن الطبيعي أن يكون بينهم اللُّصُوص النهَّابون، وكذلك وُجُود ذوي النخوة والمروءة والكروءة والكرم، ونجد مَنْ يتعامل مع الفرنجة، ويدلُّم على عورات المُسلمين، وفي المُقابل؛ نجد المُجاهدين الذين يبلون في أعداء الأُمَّة أحسن البلاء.

منذُ بدايات الغزو الفرنجي لبلاد الشّام وجد الفرنجة مَنْ يتعاون معهم من البدو، وقد تجلّى هذا التعاون بأوضح صُورة أمام أسوار حلب عام 518 هـ 1124م، عندما حاصر الفرنجُ المدينة، وبدا لهم أن سُقُوطها سيفتح أمامهم أبواب سُورية الدّاخليَّة، فاتّصلوا مع دبيس بن صدقة، صاحب الحلّة في العراق وأمير بني أسد، واتّفقوا معه على أن يُساعدهم لاحتلال حلب. كما اتّفقوا مع سالم بن مالك العقيلي، سيّد بني عقيل وصاحب قلعة جعبر، وساندت قُوَّاتُ القبائل العَربيَّة قُوَّات الفرنج في المُجُوم على حلب، وارتكبوا الفظائع، ونكلوا بالموتى، حتّى جاء البرسقي أمير الموصل، وأنقذ حلب (1). وكان هذا التعاون اختباراً مُفيداً للفرنج، تعرّفوا فيه على إمكانية التعامل مع البدو، والاستفادة من قُوَّتهم العسكريَّة مُقابل بعض المكاسب.

وفي بدايات دولة صلاح الدّين، وعندما كان مشغولاً في الجزيرة يُحاصر حَرَّان عام 578 هـ 1191م، قامت حملة فرنجية من الكرّك، وتوجَّهت نحو الحجاز، "لينبشوا الحُجرة النبوية، وينقلوه إليهم، ويأخذوا من المُسلمين جعلاً على زيارته "(2)، وسارت الحملة في مراكب من ميناء العقبة، وعلى وصلت ساحل المدينة، "ودهًا على عورات الساحلين من العرّب من أشبه ركابها في الكُفر "(3)، "وكان معهم طائفة من مُرتدَّة العرّب"، ولمّا كان صلاح الدّين لا يستطيع الحَرَكة، كلّف نائبه بمصر سيف الدولة بن مُنقذ، فَسَيَّر الحاجب لُؤلُؤ الأرمني، "فتداركهم، وبذل الأموال، فهالت إليه العَرَب للذهب"، فاستسلم الفرنج (4). وفي الحقيقة؛ يحار المرء أمام تفسير موقف كهذا لأعراب الحجاز، ولا يجد سبباً لتعاونهم مع الفرنج لنبش الحُجرة النبوية إلّا السبب الذي جعلهم يتخلُّون عنهم، وهُو الخهو، والحوع والحهل التي كانوا يعيشونها في غالب أيَّامهم؟!

وفي أثناء حملة ملك إنكلترا ريتشارد على فلسطين، كان يُعسكر قُرب قلعة النطرون، "فوصل

إليه اثنان من البدو، وأخذا من الملك الأمانَ والثقة، وأقسم له يميناً تعهدا به بأنَّها سيخدمانه

بإخلاص، وسيُطلعانه على كهائن جيش صلاح الدِّين، وعن كُلِّ ما يدور حول صلاح الـدِّين وجميع

أهل البلاد"(1)، إن هذا التصرُّف قد لا يُمثِّل سلوك كُلِّ بدو فلسطين، لكنْ؛ في كثير من الأحيان،

كُنَّا نجد مثل هذه الحالات، فهي طريقة سهلة للعيش لضعاف النُّفُوس، خاصَّة في حال غياب أيِّ

شعور ديني، أو قومي، أو وطني. ويبدو أن الملك ريتشارد قد أعجبه موضوع استخدام البـدو، وأنَّــه

اهتمَّ بهم كأدلاء وجواسيس مأجورين، واعتمد عليهم، وسَيَّرَهُم يتسقَّطون له الأخبار، فعلم منهم

بمسير قوافل منصر نحو الشَّام، "وكنان العندوُّ يترقَّب أخبارهم، ويتوصَّل إليها بالعرّب

المُفسدين "أ(2)، واندمج الملك ريتشارد بلعبته مع البدو، ووثق بهم إلى درجة كبيرة، حتَّى إنَّــه "ركــب

568 هـ 1173م، لطرد البدو من منطقة الكرك، لمنعهم من مُساعدة الفرنج اللذين استخدموهم

جواسيس وأدلاء (4)، وهي أوَّل غزوة لصلاح الدِّين من مصر، وكانت في عهد نُور الدِّين، لذلك

أرسل له صلاح الدِّين رسالة من إنشاء القاضي الفاضل يشرح له فيها أسباب هذا التحرُّك

العسكري، قال: "علم المملوك بما يُوثره المولى، فإن يقصد الكُفَّار بما يقصُّ أجنحتهم، ويفلُّ

أسلحتهم، ويقطع مواردهم، ويُخرِّب بلادهم، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة

أنْ لا يُبقى في بلادهم أحد من العَرَبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفر إلى عزِّ الإيمان، ومَنْ اجتهد فيه عامَّة

الاجتهاد، وعدَّه أفضل أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن

صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجدبين يدّيه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً "(5).

وبلغ تعامل البدو مع الفرنجة حدًّا أزعج صلاح الدِّين إلى درجة أنَّه قاد حملة خاصَّة عام

مع العَرَب بجمع يسير، وسار حتَّى أتى القفل، فطاف حوله في صُورة عربي "((3).

<sup>1-</sup>ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّارٍ، 8 / 434.

<sup>2 -</sup> النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 232.

<sup>3 -</sup> النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 232.

<sup>4-</sup>الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 206.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 225، والروضتيّن، أبو شامة، 1/ 206.

<sup>1 -</sup> مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، شُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 260 ـ 261.

<sup>2 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُونَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 88.

<sup>3 -</sup> من رسالة للعاد الأصفهاني في: الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 18/ 435.

<sup>4 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُونِّق عبد الطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 88.

اة شديدة كان المُسلمون يعانون منها لتعامل البدو مع أعدائهم، وإطلاعهم وإطلاعهم ونهبوا ما حولهم، وقد يُفسَّر الأمر بأنَّما طبيعة البدو، وفطرتهم بالسلب والنهب، فها إن وجدت لها منتفسًا حتَّى إنطلقت، ولكنْ؛ مها كان السبب فهُو غير مُهمِّ بجانب فعلهم المُنكَر، اللذي لا يُمكن تبريره إلَّا بجهلهم المطلق لأيِّ مصلحة عامَّة هي مصلحتهم فيها بعد. وبالتَّاكيد؛ لم يكونوا ليُدركُوا حجم البلاء الذي يُسببونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرَّسْمي وبالتَّاكيد؛ لم يكونوا ليُدركُوا حجم البلاء الذي يُسببونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرَّسْمي

وبالتَّأكيد؛ لم يكونوا ليُدركُوا حجم البلاء الدي يُسبِّبونه للبلاد، فبلغ الاستباء الرَّسْمي والشعبي من البدو في تلك الآونة مبلغاً كبيراً، حتَّى إن بعض الناس - وقتها - رأوا أن الفرنج أرحم من البدو<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن بطش الملك الصَّالح أيُّوب هُو الذي منع تكرار حوادث البدو في حملة لويس التَّاسع على دمياط، واحتلاله لها. لكنُ عما إن تلوح الفُرصة حتَّى يعود البدو إلى عاداتهم التي لا يُبدِّلونها، فبعد أن أحرق المُسلمون الجسورَ التي بناها لويس للعُبُور عليها من أجل الهُجُوم على المُسلمين، جاء بدوي إلى مُعسكره، وأخبره أن بإمكانه أن يدلَّه على مخاضة تُمكِّن جيشه من العُبُور إلى جهة المُسلمين، شريطة أن يُعطيه خسهائة دينار، ودفع لويس المال، وعبر الجيش الفرنجي، وفاجؤوا المُسلمين في مُعسكرهم (2)، ويُتابع جوانفيل مُرافق الملك لويس رواية ما حدث، فيقول: "بعدما هزمنا المُسلمين، وطردناهم من خيمهم، وتركوا تُحيَّمهم فارغاً، اندفع البُداة للقيام بنهبه، ولم يترك اللَّصُوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كُلَّ شيء خلَّفه المُسلمون . . ومن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عَدَّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم" (3).

وبعد كُلِّ ما ذكرناه هل نستطيع الحُكْم على قبائل البدو بالعبالة المطلقة للفرنج؟! لا أظن ذلك، فإن ما ورد هُو نصف الحقيقة، وهُو لا ينفي أنَّه كان لكثير من طوائف البدو مواقف وطنية، ووقفات يُسجِّلها التاريخ لهم، فقد كان جيش صلاح الدِّين لا يخلو من فُرسان البدو المُتطوِّعة للجهاد. فعندما كان السُّلطان تُخيِّماً في مرج عُيُون، وضع مجموعة من فُرسان بني ربيعة في كمين إنّها - إذنْ - معاناة شديدة كان المُسلمون يعانون منها لتعامل البدو مع أعدائهم، وإطلاعهم على عوراتهم، لم يجدُ لها صلاح الدّين حلاً سوى نقل قبائل البدو من مواقع إقامتهم إلى داخل بلاده؛ لقطع اتّصالهم بالعدوِّ الفرنجي. ثُمَّ أصبحت هذه السياسة عامّة، يُطبّقها صلاح الدّين حيثها شك بتعامل البدو مع الفرنجة، فبعد فَتْح صلاح الدِّين للبلاد قام عام 583 هـ 1187م، بنقل بني ثعلبة من منطقة غزَّة إلى مصر؛ لأنَّهم كانوا يتعاملون مع الفرنج كأدلاء وجواسيس (1)، فقد "كانوا يداً مع الفرنج على المُسلمين "(2).

ومع أن صلاح الدِّين لم يتوقَّف عن الاستعانة بالبدو كقُوَّات خفيفة الحَرَكة لُساندة جيشه، لكنَّه تعلَّم بعد هزيمة الرملة \_ أثبَّم سلاح ذو حَدَّيْن، فها إن لاحت الهزيمة حتَّى انقلبوا على جيش صلاح الدِّين ينهبون أثقاله ومتاعه (3) وأجمع المُؤرِّخون أنَّه كان للأعراب موقف نُحزِ في معركة دمياط عام 615 هـ 1218م، فقد كان الملك الكامل مُرابطاً بجيش مصر أمام الفرنج الزاحفين لاحتلال دمياط، وكان أبوه الملك العادل في الشَّام يجمع النجدات، ويُوجِّهها إليه، وفي هذه الأثناء؛ مات العادل، وما كادت الأخبار تتسرَّب إلى مصر بموته "حتَّى وقع الطمع في الملك الكامل، وثارت العَرَب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم، واشتدَّ ضررهم" (4). "ولمَّا عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العَرَب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المُجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالغوا في الإنساد، فكانوا أشدَّ على المُسلمين من الفرنج "(5).

مع أن تصرُّف قبائل البدو هذا لا يُمكن أن يُبرِّره أيُّ عذر نضعه لهم، لكنَّه قد يبدو ردَّ فعل على معاناة طويلة من ظُلم السُّلطة الأَيُّوبيَّة، التي ما إن انشغلت عنهم بالفرنج حتَّى ثاروا عليها،

1 - قلائد الجان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، وصبح الأعشى، القلقشندي، 1/ 322،

والروضتَيْن، أبو شامة، 2 / 526.

<sup>-1</sup> 

<sup>2 -</sup> قبائل العَرَب، العمري، 107، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، \_ وقد وهم عبد المجيد عابدين بتعليله نقلهم صن جنوب فلسطين إلى مصر، واعتقد أنهًا مكافأة قدَّمها صلاح الدِّين لهم، يقول: "وكان لقبائل طيء فضل كبير في تُحاربة الصليبيين، فأراد صلاح الدِّين أن يكافئهم، فنقل منهم جرماً وثعلبة إلى الحوف الشرقي". ( دراسات في تاريخ العُرُوبة \_ مُلحق البيان والأعراب، 116).

<sup>3 -</sup> الشَّرْق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 166.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326، وكذلك راجعٌ: شفاء القُلُوب، الحنبلي، 301.

<sup>1-</sup>السُّلُوك، المقرزي، 1/ 200، - بعد أن احتلَّ الفرنجُ دمياطَ أرسل الكامل يجمع المُتطوَّعين من القاهرة، والإثارة حاسة الناس أبلغوهم أن ملك الفرنج قد أقطع ديارَ مصر الأصحابه، فقال الشاعر الشَّعْبي: يُهدِّدونا بأهل حكًا أن يملكونا وأهل يافا ومَنْ لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا

<sup>2 -</sup> جين جوانفيل، حياة القديس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 88.

<sup>3 -</sup> جين جوانفيل، حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 99.

عليهم، كما كانوا يفعلون بجُيُوش المُسلمين. لذلك ظلَّ الفرنج حذرين غايـة الحـذر في تعـاملهم مـع البدو، بل رُبَّما كانوا يخافون منهم، ويتَّضح هذا الخوف من خلال الصُّورة التي نقلها عن البدو مُؤرِّخو الفرنجة، فيقول عنهم بوتشارد راهب جبل صهيون:

"البدو يملكون أعداداً كبيرة من الماشية، ويقومون برعايتها، لا يمتلكون مكاناً دائماً للإقامة، يقصدون المراعي، ويُقيمُون خيامهم . . مُقاتلون مُتفوِّقون، يُحبُّون الحَرْب، ويستخدمون السيف والرَّمح في المعركة، ولا يستخدمون النَّشَّاب، ويقولون إنَّها دناءة أن تنتزع حياة إنسان بواسطة سَـهْم، وهُم شُجعان، ولا يرتدون إلَّا قميصاً فوقه عباءة فضفاضة، ويُغطُّون رُوُّوسهم بقطع قاش "(1).

ويقول الراهب الدومينيكاني فيلكس فايري: "إن البدو يزجُّون أنفسهم في أعظم المخاطر من دُون خوف، لاعتقادهم بأنَّ الموت أمر مَقْضي من الله لا يُمكن تجنُّبه "(2).

ويقول عنهم جين جوانفيل مُرافق الملك لويس في حملته على مصر: "ولا يعيشون في قُرى، أو مُذُن، بُيُوتهم أكوام مربوطة إلى أعمدة، عليها جلود أغنام مُعالجة بالشّب، يرتدون عباءات من الصوف، يلفُّون أنفسهم بها، ويعتقدون أن الانسان لا يموت قبل اليوم المحدَّد له، فلـذلك يرفضون لبس الدُّرُوع، وشتيمتهم: عليكَ اللعنة مثل فرنجي يلبس الدُّرُوع خوفاً من الموت" (3)، ويُلخِّص فيليكسُ فايري النظرةَ إلى البدو في العصر الأيُّوبي بقوله: "إن البدو مكروهون من المُسلمين والمسيحيين سواء <sup>11(4)</sup>. للفرنج، فكشفوهم، وحاصروهم، فقاتلوا، حتَّى قُتلوا عن آخرهم، وكان فيهم ثلاثة من أُمراء بني ربيعة (1). كذلك كان السُّلطان صلاح اللِّين يعرف قيمة البدو كأدلاء، فنجدهم يتقدَّمونه في مسيره (2)، ثُمَّ يُسلِّطهم على مُعسكرات العدوِّ، فيقضُّون مضاجعهم، وينهبون ما وصلت إليه أيديهم، حتَّى إنَّهم في أحد الأيَّام أحضروا للسُّلطان كنيسة المُعسكر الفرنجي، وهي خيمة كبيرة (3)، وهذا دليل على جسارتهم على العدق، واقتحامهم لمُعسكراته، حتَّى إنَّهم فكُّوا خيمة الكَنيسَة من وسط

وعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين مُرابطاً أمام للفرنج على حصار عكَّا بلغه أن جمعاً من الفرنج يخرجون للاحتطاب وللاحتشاش من طرف النهر، "فأكمن لهم جماعة من العَرَب، وقيصد العَرَب لخفَّتهم على خُيُولهم، وأمنه عليهم، فخرجوا، ولم يشعروا بهم "(4)، "وحالوا بينهم وبين خيامهم "أ(5)، "وهجموا عليهم، وقتلوا منهم خلقاً عظيهاً، وأسروا جماعة، وأحضروا رُؤُوساً عدَّة "(6). وفي عام 647 هـ 1249م، بعد أن احتلَّ الفرنج دمياط استنفر الملك الصَّالح أيُّوبُ الناسَ، "فوصلت عربان كثيرة جدًّا، وأخذوا في الغارة على الفرنج، ومُناوشتهم" (7). وكُلُّ ذلك مواقف وطنية وجهادية يجب أن نتذكَّرها، إلى جانب كُلِّ ما كان يُذكِّر لهم من مواقف سيِّئة.

#### صُورة البدو لدى الفرنج:

قبِل الفرنجُ التعاملَ مع البدو، وبلا شكِّ؛ فقد أفادوا منهم في مواقف كثيرة، وخاصَّة للدلالـة في مسالك بلاد مجهولة بالنِّسبَة إليهم، ومعروفة بدقَّة بالنِّسبَة للبدو. وبالمُقابِل؛ عـاش الفرنج معانـاة كبيرة من البدو، فهم لم يُخلصوا لهم في يوم من الأيَّام، وكانوا -على الدوام - ينتظرون الفُرصة لينقضُّوا

1 - الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زّكَّار، 13/ 198، - والأَمراء هُم: زامل بن تبل بن مرا بن ربيعة أمّير بني ربيعة، والأمير حجي بن منصُور بن دغفل بن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مـرا

بن ربيعة، وآخرون غيرهم.

<sup>2 -</sup> النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 253.

<sup>3 -</sup> الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 194.

<sup>4-</sup>النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 116.

<sup>5 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 207.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 2/ 294.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

<sup>1-</sup>بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39/ 242.

<sup>2-</sup>جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابرى، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 43 / 1194.

<sup>3 -</sup> حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 100.

<sup>4 -</sup>جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1194

# الفصل الثَّالث

# العلاقات السّياسيّة والعسكريّة الخُوَارزِميّة

المبحث الأوّل:

فرقة المُقاتلين المرتزقة

توجَّهت مُعظم عساكر جلال الدِّين الناجية من سُيُوف التَّيَار إلى بلاد سلاجقة الرُّوم، وقصدوا السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، الذي رحَّب بهم، واستخدمهم في جيشه (1)، وذُكِر أن كَيْقُبَاذ هُو الني استدعاهم، فوافقوا على خدمته، وأقسموا له، فأقطعهم الأراضي في إرزن الرُّوم (2). وظهرت نوايا كَيْقُبَاذ بعد استخدام الخَوَارزميَّة، فخاض أوَّل معاركه بهم ضدَّ الأَيُّوبييِّن؛ حيثُ هاجم خلاط، واحتلَّها بمُساعدة فعَّالة من فرقة الخوَارزميَّة، كذلك هاجم عدَّة مُدُن وقلاع ايُّوبية في الجزيرة (3)، ما دفع بني أيُّوب للتَكتُّل، وجمع قُوَّاتهم، والسير بحملة عسكريَّة كُبْرَى نحو الجزيرة عام الجزيرة (3) ما دفع بني أيُّوب للتَكتُّل، وجمع قُوَّاتهم، والسير بحملة عسكريَّة كُبْرَى نحو الجزيرة عام الحروس، والمير بعملة عالم على ما خلف عمرًات طوروس، أو ما كان يُعرَف بالدربندات (4).

وعندما تُوقَّى كَيْقُبَاذ، وتولَّى مكانه ابنه غياث الدِّين كيخسرو<sup>(5)</sup>، "ارتباب بالخَوَارزميَّة، فقبض على أُمرائهم، وانفضَّ الباقون عنه، وعاثوا في الجهات" (<sup>6)</sup>. وفي الحقيقة؛ كانت نقمة غيباث الدِّين على الخَوَارزميَّة لأنَّهم تلكَّؤوا بمُبايعته، فحبس مُقدَّمهم خير خيان، الذي تُوفِّي في سبجنه، وهرب الباقون نحو ملطية وخرتبرت، ثُمَّ سُمَيساط، يُغيرون، وينهبون، ثُمَّ انحدروا مُغيرين ما بين حَرَّان والرُّهَا

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 325.

<sup>2 -</sup> مُحتصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 229.

<sup>3 -</sup> كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 314، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 307.

<sup>4-</sup>مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/2/595، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.

<sup>5-</sup>شذرات الذهب، أحمد الحنبلي، 5/ 168، والعبر، الذهبي، 5/ 139.

<sup>6 -</sup> العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

#### المبحث الثَّاني:

الصَّالح أيُّوب وفرقة الفوارزميَّة

في عام 634 هـ 1237م، سمع بأخبار فرقة الخوارزميَّة أمير حصن كيفا الصَّالح أيُّوب بن السُّلطان الكامل، وكان نائباً لأبيه في الجزيرة (1)، فأرسل يستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له (2)، فاستقدمهم أيُّوب "وأفاض عليهم الأرزاق" (3)، وأعفى جميع أُمرائه من مهامِّهم، وأعطى أخبازهم للخوارزميَّة (4). ويقول ابن خلدون إن سبب استقدام أيُّوب للخورازمية "ليحسم عن البلاد ضررهم "(5)، ولكن استخدام أيُّوب للخوارزميَّة لا يدلُّ على ذلك أبداً، فقد تقوَّى بهم، وهاجم أعداءه، وكانوا سبب سعده وارتقائه قبل أن ينقلبوا عليه.

في المرحلة الأُولى من التعاون بين أيُّوب والخَوَارزميَّة، وهي مرحلة الجزيرة، كان معهم كراكب الأسد، تهابه الناس، وهُو لمركوبه أهيب<sup>(6)</sup>، وحتَّى يضمن ولاءهم له زوج أُخته من والدته بمُقدَّم الخَوَارزميَّة بركة خان، وزوج ابنه المُغيث عُمر من ابنة بركة خان، ومع ذلك؛ كانوا "يُظهرون طاعتهم حيناً، ويتغاضون حيناً، ويطلبون منه ما يفوق طاقته "(<sup>7)</sup>. فالخوارزمية حتَّى بعد انضامهم لتُوَّات الصَّالح لم يتحوَّلوا إلى قطعة عسكريَّة، ولم تتركهم رُوح التمرُّد. وعندما تحرَّك الملك الكامل لحصار حمص عام 635 هـ 1238 م، طلب من ابنه أيُّوب الهُجُوم على الرحبة، التي تتبع لمملكة حص، فسار إليها الصَّالح، وحاصرها ومعه الخوَارزميَّة، الذين ما إن سمعوا بموت الكامل، وشعروا بحرج موقف ابنه الصَّالح، حتَّى تمرَّدوا، وحاولوا القبض على سيِّدهم الصَّالح، فهرب منهم، والتجأ إلى سنجار، فنهب الخوَارزميَّة معدَّاته وأمواله (<sup>8)</sup>، وتفرَّقوا في البلاد الجزرية يتحكَّمون بها (<sup>9)</sup>، ويُهارسون كُلَّ ما يخطر على البال من الموبقات والأذى للناس.

وسروج<sup>(1)</sup>، وعاشوا على النهب والتعرُّض للقوافل، وفرض الأتاوات على الحُكَّام. فحاول غياث الدِّين استرضاءهم، لكنَّهم لم يوافقوا على العودة إليه<sup>(2)</sup>. وشكَّل الخَوَارزميَّة مجموعات مُتنقِّلة، ارتكبت من القتل والنهب والفواحش ما فاق ارتكابات التَّتَار؛ بحيثُ لن يُمكن لأحد أن يُسوِّغ وحشيَّهم بفقر، أو عطالة<sup>(3)</sup>. وقد بلغ عدد مُقاتلي الخَوَارزميَّة في بدايات تواجدهم في الجزيرة نحو خسة آلاف فارس<sup>(4)</sup>، ثُمَّ أخذوا بالتزايد بسبب انضام أفراد ومجموعات إليهم، وأكبر المجموعات التي عملت معهم كانت من التُّركان (5)، فأصبح تعدادهم ما بين عشرة آلاف فارس (6)، واثنيُ عشر ألف (7).

ولأن الخَوَارزميَّة كانوا يعيشون عيشة العصابات، فإنَّهم لم يعودوا يخضعون لقائد واحد، بل كان لهم عدَّة مُقدَّمين، كان أكبرهم حُسام الدِّين بركة خان، الذي تمكَّن من الظهور على بقيَّة المُقدَّمين لم كزه السَّابق، "فقد كان أمير حاجب السُّلطان جلال الدِّين، وهُو شيخ داهية له رأي ورواء، ودونه يأتي عزّ الدِّين صاروخان، شحنة الجهال التي لجلال الدِّين وهُو شيخ بطين أبله، ثُمَّ بهاء الدِّين كشلو خان تربية جلال الدِّين، وبهادر، وبكجري، وتبلو، وغيرهم "(8). ويبدو أن مُقدَّمي الخَوَارزميَّة اعتمدوا في زعامتهم على مناصبهم القديمة في جيش جلال الدِّين.

وكان الخوارزميَّة يتنقَّلون ويُقاتلون مُصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم وخيامهم وتُمتلكاتهم، وعندما استولوا على بعض اللَّذُن والحُصُون، أو حصلوا عليها كإقطاع انتقلوا للسَّكَن بها. وقد عمل الخوارزميَّة في الجزيرة والشَّام كفرقة مُرتزقة حقيقيَّة، تُؤجِّر سُيبُوفها ورجالها لَمنْ يدفع لها أكثر، وعندما لا يجدون مَنْ يعملون لحسابه، كانوا يعملون لحسابهم الخاصِّ. وعلى هذا الأساس فلا يُمكن أن نتوقَّع منهم الالتزام بميثاق، أو الوفاء بعهد، أو الإخلاص لسبِّد مُعيَّن. ولكُلِّ هذا لا نستطيع أن نعدَّهم من المُتطوِّعة، أو من مُحترفي الجُندية، فهم مُرتزقة يحترفون الارتزاق كمجموعة واحدة.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 255.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 378.

<sup>3 -</sup> العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

<sup>4-</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 311.

<sup>5-</sup>العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

<sup>6 -</sup> يُقال هذا التشبيه لَنْ يُصاحب اخُكَّام ( الدُّرَّة المضية، ابن صصرى، 20 ).

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 153.

<sup>8 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 692.

<sup>9 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.

 <sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 230، ومُختصر سلجوق نامه، ابن اليبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال السدِّين، 250 ـ 1 - 25، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 283.

<sup>2 -</sup> مُحتصر سلجوق نامه، ابن اليبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 261 ـ 263.

<sup>3-</sup>من ذكريات الغزو الفرنجي، د. شاكر مُصطفى، 101. 4-تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640 / 32.

<sup>5-</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 5/ 296، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 476، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331.

<sup>6 -</sup> تاريخ الزَّمان، ابن العبري، 276.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل 4/ 325.

<sup>8 -</sup> تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 ـ 640/ 32، وأخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 32، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 353.

من لُؤلُؤ<sup>(1)</sup>. وعاد الصَّالح أَيُّوب إلى حصن كيفا مهاباً، وحوله الخَوَارزميَّة، فوجَّههم صوب آمد لطرد جيش سلاجقة الرُّوم، الذين آثروا السلامة، وانسحبوا نحو بلادهم<sup>(2)</sup>.

وعادت أُمُور الصَّالح أَيُّوب للانتظام مع الخَوَارزميَّة في الجزيرة، فأخذ يتطلَّع إلى الشَّام، وجاءته الفُرصة تسعى في عام 636 هـ 1239م، عندما طلب الملك الجواد يُوسُف بن محدود بن العادل، الذي تولَّى دمشق بعد وفاة عمِّه الكامل، من الصَّالح أيُّوب أن يُبادله على دمشق بالرقَّة وسنجار وعانة، فوافق الصَّالح، وأسرع نحو دمشق، وتسلَّمها منه (3). ورتَّب أيُّوبُ ابنتُه المُعظَّم تُوران شاه في حصن كيفا (4)، وترك الخَوَارزميَّة في إقطاعاتهم حَرَّان والرُّهَا لحراسة مُمتلكاته في الجزيرة. ويبدو أنَّهم فرضوا سُلطتهم كأمر واقع مُناك، فقد "تسلطن الخَوَارزميَّة على بلاد الجزيرة، وبالغوا في العيث والفساد"، وخطبت المُلُوك وُدَّهم، حتَّى إن المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين تـزوَّج ابنة عـمِّم مُقدَّمهم يركة خان (5).

ويبدو أن أيُّوب كان ينظر لموضوع المبادلة مع الجواد بمنظار آخر، فربها كان يعتبر أن دمشق هي حقّه بالإرث عن والده الكامل، وأن الجواد مُغتصب لهذا الحقّ، لذلك عندما اتَّفق معه بيت له الغدر، وما إن سار الجواد عن دمشق حتَّى أتبعه برسول إلى الخَوَارزميَّة ليقبضوا عليه، ولكن الجواد ولحُسْن حظّه \_ كشف الرسالة، وسار في البادية مُتخفِّياً، حتَّى وصل عانة، فأقام فيها (6). وفي عام 637 هـ، استولى لُؤلُؤ صاحب المَوصل على سنجار، وطرد الجواد منها (7)، ولم يبقَ للجواد سوى عانة، فباعها للخليفة المُستنصر، ومن غرائب الأُمُور أنَّه سار \_ بعد ذلك \_ إلى حَرَّان، وأقام بين الخَوَارزميَّة، وانضمَّ إليهم (8).

وانتهز هذه القُرصة سلاجقةُ الرُّوم، فاتَّفقوا مع صاحب ماردين، وهاجوا مدينة حَرَّان، وكان بها المُغيث بن الصَّالِح أيُّوب، فهرب إلى قلعة جعبر، وأكمل عليه الخَوَارزميَّة الذين وقعوا على أثقاله، فنهبوها (1). وكذلك كان حال بدر الدِّين لُولُو، فهُو يتحيَّن الفُرص. ولَّا مات الكامل طمع لُولُو باحتلال بلاده، فبدأ بسنجار، وحاصرها، وكان بها الصَّالِح أيُّوب، فطلب منه الصُّلح، فأصر لُولُو على حمله إلى بغداد في قفص (2). ولَّا بلغت الشدَّة بأيُّوب أقصاها لم يجد منقذاً له سوى الخوارزميَّة، على حمله إلى بغداد في قفص (2). وكآخر سهم في جعبة الصَّالِح أطلق قاضي سنجار بدر الدِّين السنجاري نحو الخَوَارزميَّة، فقد دلاه من السور ليلاً، ومضى إلى الخَوَارزميَّة، ووافقهم على كُلِّ ما طلبوه من إقطاعات: حَرَّان، والرُّهَا، وغيرها (4)، "واستماهم، وطيَّب خواطرهم بكثرة ما وعدهم به، فإلوا إليه "(5)، كما أطمعهم القاضي بدر الدِّين بأموال لُولُق، ووعدهم أن تكون غنيمتهم الخاصَّة (6).

وفي هذه الأثناء كان المُغيث بن أيُّوب يُحاول اللُّجُوء إلى حلب، فردُّوه، فسار نحو حَرَّان، وهُناك وصله كتاب أبيه الصَّالح أيُّوب بالاتِّفاق مع الخَوَارزميَّة، ويطلب منه القُدُوم معهم لدفع لُؤلُو عن سنجار، فسار المُغيث مُسرعاً نحو الخورازمية، واندفعوا جميعاً نحو سنجار (7)، وكبسوا لُؤلُواً، فنجا وحده، ونهبوا خزائنه وأمواله وجميع ما كان في عسكره (8)، واستغنى الخَوَارزميَّة بها سلبوه

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الْحَلِّب، ابن العديم، 2/ 689.

<sup>2 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 1197، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299.

<sup>3-</sup>زُبُدَةَ الْحَلَبُ، ابن العديم، 2/ 689، والنَّجُوم الزَّاهْرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299، ـ بينها يقول ابن العميد: إنَّهـم كانوا "يتنقَّلون من مرج إلى مرج، ويأكلون، ويشربون". (أخبار الأَيُّوبيَيِّن، 27)، وهذا وَهُمَّ؛ إذْ لا يُمكن للخَوَارزميَّة أن يُفوِّتوا هكذا فُرصة من الفوضي لجمع المكاسب.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سمباط، 12/

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 269.

<sup>6 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 27، ونهاية الأرّب، النويري، 25/ 233.

<sup>7 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.

<sup>8 -</sup>النُّجُوم الزَّاهرَة، أبن تغري بردي، 6/ 299، ونهاية الأرّب، النويري، 25/ 233، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 27.

<sup>1 -</sup> مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 704، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 300.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الْكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 889.

<sup>3-</sup> تاريخ الإسلام، الذهبي، 3 6 3 ـ 6 4 0/ 20.

<sup>4-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 691.

<sup>5 -</sup> تاريخ الإسلام، الذهبي، 31 6 ـ 640 / 32.

<sup>6 -</sup> نهاية الأرب، النويري، 29/ 244.

<sup>7 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 2/ 166، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 320.

<sup>8 -</sup> الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

كما يبدو أن المُجاهد \_ بطُرُقه المعهودة \_ قد شغل أفكار الخَوَارزميَّة حول أملاكهم في الجزيرة، فليًا تأكَّد لهم طول المقام عادوا إلى بلادهم (1).

وكان المُظفَّر صاحب حماة في طريقه إلى حمص عندما ارتدَّ الخَوَارزميَّة عنها، فخاف أن يقصدوه؛ لأنّه يُشكِّل لهم غنيمة سهلة على الطريق، فلا قُوَّة جيشه ولا تحالفه مع الصَّالح أيُّوب يحميانه منهم، فاتر الإسراع نحو أسوار حماة يتحصَّن بها<sup>(2)</sup>. وبعد أن عرف الخَوَارزميَّة أن تُخطَّطات الصَّالح أيُّوب لامتلاك مصر قد انتهت به في سبحن الكَرك، "تحرَّكت أطهاعهم، وعاثوا في بلاد الشَّرْق والجزيرة" (3). وبقدر الأعداء الذين اكتسبوهم بفسادهم اكتسبوا من الحُلفاء، فقد وجَدَ فيهم اللَّوك الحاقدون والأُمراء المنبوذون ملاذاً ومُتنفَّساً لغلّهم على المُلوك والمهالك. فانضمَّ إليهم الملك الجواد يُونُس بن ممدود، الذي اعتقد أنَّه غُبن بتسليمه دمشق للصَّالح أيُّوب (4). وكذلك الصَّالح إسهاعيل بن المُجاهد الذي لم يحصل على نصيب من تركة أبيه في حص (5). وعلي بن حُدَيْفة أمير بني ربيعة الذي حقد على حلب لتقريبها أحلاف الأعراب (6). وانضمَّ هؤلاء جميعاً إلى الخَوَارزميَّة. كما دخل حلفهم المُظفَّر شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، لأنّه شعر بأطماع سلاجقة الرُّوم تمتدُّ إلى بلده، فأعلم الحلبين، وطلب حلفهم، فلم يوافقوه لاتّفاقهم المُسبق مع صاحب الرُّوم (7)، علماً بأنَّ بلده، فأعلم الحلبين، وطلب حلفهم، فلم يوافقوه لاتّفاقهم المُسبق مع صاحب الرُّوم (7)، علماً بأنَّ المُظفِّر هُو شقيق ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حلب. كذلك تمكن المُظفِّر شهاب الدِّين من استبالة النُّركان الكرمانية بالمال والوُعُود (8)، ويُمكن أن نعزو قيام التحالف الخوارزمي ليُقابل التحالف الشَّامي حلب حمص دمشق (9).

#### حصار حمص:

وصل الصَّالح أيُّوب إلى قناعة مفادها أنّه طالما بقي الملك المُجاهد في حمص فلن يستقرَّ مُلكه في دمشق، فلم يُضيِّع أيُّوب وقته في دمشق، وجدَّد تحالف والده الكامل مع المُظفَّر في حماة، وطلب منه تحريك جُيُوشه نحو حمص، وأرسل للخورازمية يطلبهم لحصار حمص، وتحرَّك هُو بعسكر دمشق نحو حمص، حتَّى وصل إلى ثنية العقاب<sup>(1)</sup>. سبق الخوارزميَّة جميع القُوَّات الحليفة، وألقوا حصارهم على حمص قبل أن تصل إليها قُوَّات المُظفَّر من حماة، أو قُوَّات الصَّالح من دمشق، وهذا ما أتاح للملك المُجاهد الاتّفاق معهم، ودفع ما يُرضيهم مُقابل انسحابهم عن مدينته (2). وبالتَّاكيد؛ فإن تواطؤ الخَوَارزميَّة ضدَّ سيِّدهم ووَلِيّ نعمتهم الصَّالح، الذي سلَّطهم على البلاد والعباد، لم يكن من أجل مال المُجاهد فقط، بل يبدو أنَّهم وضعوا في حسبانهم أُمُوراً أُخرى، رُبَّها كان المُجاهد قد لـمَّح لها خلال مُفاوضته معهم، ومنها:

1 ـ خطر لقائهم بقُوَّات دمشق وقُوَّات حماة المُتحالفتَيْن، فقد يخطر ببال الصَّالح أيُّوب ـ بعد أخذ حمص، وقد توفَّرت له كُلُّ أسباب القُوَّة ـ أن يُصفِّي حسابه القديم معهم.

2\_إذا استولت القُوَّات الحليفة على حمص فسيكون كُلُّ شيء للصَّالح أيُّوب، فأجور الخَوَارزميَّة مدفوعة سلفاً في إقطاعات الجزيرة، وبالتَّالي؛ ستكون خسائرهم في المعركة وجُهُودهم مائنة.

4\_ لمس الخَوَارزميَّة مدى قُوَّة تحصين حمص، وعزيمة المُجاهد الصلبة، فوضعوا احتمال عدم النجاح في أخذها، ففضَّلوا مكسباً مضموناً بلا تعب.

5 \_ أثبتت الخَوَارزميَّة أمام حمص أنَّها فرقة مُرتزقة حقيقيَّة، وأنَّها مع مَنْ يدفع، وهذه النقطة لائبَدَّ أن المُجاهد كان يُدركها تماماً، وقد أجاد استخدامها.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 280.

<sup>2 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 369.

<sup>3 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وزُبْكة الحَلَب، ابن العديم، 501.

<sup>4 -</sup> الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

<sup>5 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 176، و تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 31.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، وزُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 501.

<sup>7 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 304.

<sup>8 -</sup> تُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، 276.

<sup>9 -</sup> الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 85.

<sup>1-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163، و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 280.

ثُمَّ استباحوا المعرَّة وكفر طاب<sup>(1)</sup>، قبل أن "يرجعوا إلى بلادهم، وهي حَرَّان، وما معها، بعد أن أخربوا بلد حلب" أو يُجاول بعض الدارسين لوقائع الخوّارزميَّة أن يُبرِّر فظائعهم تلك بأنَّها نتيجة للعنف الذي تعرَّضوا له من قبَل التَّتَار، وأن العنف والفظائع كادت تُصبح من سهات الحُرُوب المتعارف عليها (3)، ولكنْ؛ نجد أنَّه من الأفضل النظر إلى حالة الخوّارزميَّة من جميع النواحي: الاجتهاعيَّة، والعسكريَّة، والاقتصاديَّة، والنفسية، إنَّها حالة لا تعرف الاستقرار بأيِّ شكل، فهم مع أيِّ كان، وضد أيِّ كان، ينقلبون على الحليف، ويحالفون العدوَّ، كُلُّ ذلك انطلاقاً من المصلحة الآنية، بدُون أيِّ استراتيجية في علاقاتهم، أو حُرُوبهم. فانقلبوا إلى فرقة من المُرتزقة، بلا مبادئ، وبلا أيِّ وازع.

## ورُيَّما كان من أهمُّ أسباب الهُجُوم الخوارزمي على حلب:

- 1 ـ أخذ الحلبيون لجعبر وبالس مُبادلة، بعد أن كادت تقع بأيديهم.
- 2 تحريض الصَّالح أَيُّوب للخَوَارزميَّة ضدَّ حلب، التي شكَّلت حلفاً مُعادياً لـ مع حمص ودمشق.
  - 3 تحالف حلب مع غياث الدِّين كيخسر و عدوّ الخَوَارزميَّة القديم.
  - 4 ـ غنى أرض حلب، وتفرُّق جيشها مابين نجدة كيخسرو وحماية القلاع والحُصُون.
- 5\_رفض ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حِلب طلب مُحمَّد تركان بن بركة خان للزواج بإحدى بنات البيت الأيُّوبي، وإهانتها للرسول(4).

وفي عام 638 هـ1241م(1)، قام الخَوَارزميَّة وحُلفاؤهم بالضغط على الحافظ نُور الدِّين

أرسلان ابن العادل صاحب بالس وقلعة جعبر، بتحريض من ابنه الذي النجأ إليهم، وطلب حصار أبيه، فقام الحافظ ـ نتيجة لعجزه عن حماية أملاكه ـ بتسليمها إلياً خته ضَيْفة خَاتُون، الوصية على عرش حلب، فانقض الخوّارزميّة يُغيرون على جعبر وبالس<sup>(2)</sup>، ومعهم نجدة صاحب ماردين المنصور الأرتقي (3). فتصدّى لهم عسكر حلب بقيادة المُعظّم تُوران شاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، والتقى الجمعان في وادي بزاعة قُرب البيرة، فهاجم الحوّارزميّة جيش حلب من أمامه، وخرج عليه على بن حديثة بعربانه من الحلف، فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة (4)، ووقعت المُلُوك والأُمراء بين على بن حديثة بعربانه من الحلف، فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة (4)، ووقعت المُلُوك والأُمراء بين قتيل، وأسير (5)، فقد قُتل منهم: الصَّالح بن الأفضل صاحب سُميساط، والزاهر بن السُّلطان صلاح الدِّين، وأسر تُوران شاه، وأخيه نصرة الدِّين أن فاستعد الحلبيون للحصار، "وتدفق الحَوَارزميَّة نحو حلب، وبثُّوا سراياهم حتَّى اعزاز وتلّ باشر وطرف العمق، وارتكبوا من الفواحش ما لم يفعله أحد من الكُفّار "(7)؛ حيثُ انقضُّوا على منبح، واستباحوها، وفعلوا فيها فعلَ التَّنار (8)؛ إذ "ارتكبوا الفواحش بالنساء في الجامع علانية، وقتلوا الأطفال "(9). كذلك كان فعلهم في سرمين؛ حيثُ دخلوا دار الدعوة الإسماعيليّة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنًا منهم أنَّس حيثُ دخلوا دار الدعوة الإسماعيليّة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنًا منهم أنَّم عيشرون على قُربانها خوفاً من الإسماعيليّة، فدخلوها قهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها (10)،

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.

<sup>2 -</sup> مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 3/ 733.

<sup>3 -</sup> يُقدِّر ابنُ واصل نجدة ماردين للخَوَارزميَّة بحوالي 12 ألف فارس، (مُفرِّج الكُرُوب، 5/ 283).

<sup>4 -</sup> يُعلِّلُ ابنُ شَدَّادَ هذه الهزيمة، وهُو الذي كان يكتب في بلاط حلب، بأنَّ جيش حلب كان مُشتَّاً في عدَّة مهام عسكريّة، يقول: " لمَّا قصد الخوارزميةُ حلبَ كان عسكرها مُفرَّقاً في البلاد، بعضه بحمص لمَّا أغار الفرنج على بلدها، وبعضه في الرُّوم صحبة الأمير حُسام الدِّين ألطاش بن تركهان، وبعضه بقلعة جعبر مع الأمير ناصر الدِّين أبي المعالي الفارسي، وبعضه بعزاز بسبب التركهاني الآغا خرية، ولم يكن بحلب \_يومئذ - إلَّا دُون الألف فارس، خرج بهم المُعظَّم تُوران شاه بن صلاح الدِّين". ( الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 465).

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 349.

<sup>6 -</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.

<sup>7 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 697.

<sup>8 -</sup> زُبِّدَة الحَلِّب، ابن العديم، 504، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 284.

<sup>9 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 406، \_ وكذلك حول فظائع الخوارزميَّة في المعرَّة راجعٌ: ما أورده ابن واصل في: مُفرِّج الكُرُوب، 5/ 285.

<sup>10 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.

<sup>1 -</sup>مُفِرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 928 ــ 290.

<sup>2 -</sup>المُختَصر، أبو الفداء،167.

<sup>3 -</sup> الأتراك الخوارزميُّون، صبرى سليم، 73.

<sup>4-</sup> الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 143، - وراجع مناقشة أسباب العداء بين الخوارزميَّة والحلبيين في: الأمحراك الحوارزميُّون، صبري سليم، 70 - 71.

المبحث الثَّالث:

المنصور إبراهيم يتصدّى للخوارزمية

ضجَّت الشَّام بأخبار الَّخَوَارِزميَّة، وما فعلوا بحلب، وجيشها، فوصل الخبر إلى الملك المنصُّور إبراهيم صاحب حمص، وكان يستعدُّ للإغارة على معاقل الفرنج "وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس، فساق بالعسكر حتَّى وصل حلب، وأقام خارج باب الرابية يستقدم العَسْكَر"، وأرسلوا إلى المصَّالِح إسماعيل، فَسَيَّرَ نجدةً أُخرى(1)، وإلى المُظفَّر صاحب مَيَّاف ارقين، فَمَاطَلَ،

وخرج الملك النَّاصر يُوسُف النَّاني ابن العزيز صاحب حلب الستقبال المنصُور، وكان عمره إحدى عشرة سنة (3). وحين سمع الخوارزميَّة بوصول المنصور إلى حلب، عادوا إلى إقطاعاتهم، وتجمَّعوا في حَرَّان للتوجُّه نحو حلب لضرب قُوَّات المنصُور قبل أن يكثر جمعه، "وظنُّوا أنَّهم يبادرون لصُلحهم، وقد انفصل عنهم علي بن حديثة "(4)، وبالمُقابل؛ قرَّبت المصاحبةُ ضَيْفَة خَاتُون الأميرَ طاهرَ بن غنام، وأَقْطَعَنْهُ وزوجته، وسَمَّتْهُ أميرَ جميع العَرَب<sup>(5)</sup>.

وخرجت الفرقة الخوارزميَّة وأحلافها من حَرَّان عام 638 هـ، فعبروا الفُرات عند الرقَّة، وخرج الملك المنصُور إبراهيم، وعَسْكَرَ في النيرب، ولَّما وصلت الْحَوَارِزميَّة إلى نـواحي ديـر حـافر والجبول، ناوشتهم العربان المتحالفة مع المنصور، فمضى الخوارزميَّة إلى سرمين، ونهبوا دار المدعوة الإسهاعيليَّة فيها، ثُمَّ زحفوا إلى المعرَّة، فتحرَّك المنصُور بقُوَّاته من النيرب إلى تلِّ السُّلطان، فالحيار (6)، ومن اتِّجاه حَرَكَة المنصُور نتبيَّن أنَّه كان يقصد أن يقطع عليهم طريق العودة نحو مواقعهم في الجزيرة.

ولَّما تبيَّن الخَوَارِزميَّة نوايا المنصُور، ولمسوا فيه القُوَّة والعزيمة، اضطُرُّوا للهرب، مُتَّبعين دائـرة

واسعة حتَّى لا يصطدموا به، فاندفعوا نحو كفر طاب، وأحرقوها، ثُمَّ شيزر، فهاجموا ربضها، وهُناك

علموا أن المنصُور يتنبَّعهم، فاتَّجهوا شرقاً نحو حماة، فاجتازوا بها دُون التعرُّض لها، بـل أن بعضهم

دخلها، فباع، واشترى، لانتهاء صاحبها إلى الصَّالح أيُّـوب (1). ثُـمَّ توجَّهوا إلى سلمية، فالرصافة،

وهُناك حاول المنصُور الإيقاع بهم، فسبقتُهُ إليهم مجموعة من العَرَب المُلحقين بجيشه، فألقى

الخَوَارِزميَّة أثقالهم، وغنائمهم، وأسراهم، واندفعوا إلى الرقَّة، فانشغل العَرَب بالاستيلاء على

الغنائم، فتمكَّن الخَوَارِزميَّة من الإفلات والوُّصُول إلى الفُرات مُقابِل الرقَّة (2)، بينها كان المنصُور

وجيشه في صفِّين، وكان جُلُّ همِّه أن يسبقهم لمنع عُبُورهم الفُرات، فتأخَّر عنهم ساعة، تمكَّنوا خلالها

من التحصُّن وحفر خندق دفاعي حولهم في بستان البليل، ثُمَّ تمكَّنوا من عُبُور الفُرات إلى الرقَّة،

ومنها توجُّهوا إلى حَرَّان، ومن هُناك؛ توجُّهوا صوب الرُّهَا؛ حيثُ عسكروا قُربها مع مَنْ تمكَّنوا من

جُمْعه من القُوَّات عند جبل يُدعى جَلْهَان. أمَّا المنصور؛ فقد استمرَّ بملاحقتهم مع جيشه، ولكنَّه لم

يعبر وراءهم مُقابل الرقَّة، فهي إقطاع لهم، فقد خشي من مُفاجأة فيها، لذلك ذهب شالاً إلى البيرة،

فعبر الفُرات على جسرها، وهُناك وافاه ثلاثة آلاف فارس هُم نجدة صاحب الرُّوم (3)، وَعَسْكَرَ بين

المُواجهة مهما كانت النتائج، فهل كان ذلك تقديراً لقُوَّة جيش المنصُور؟ أو لسُمعته كقائد عسكري؟

أو لعدم رغبتهم في معركة لا غنيمة من ورائها؟ يبدو أن كُلَّ ذلك أجبرهم على أن يمضربوا في الأرض

لتجنُّب لقاء مكشوف مع المنصُور إبراهيم، وكان هدفهم اللحاق بالمُدُن والحُصُون التي سيطروا

وكان هرب الخَوَارزميَّة هذا شيئاً جديداً في تكتيكهم العسكري، وهم اللذين اتَّبعوا أُسلُوب

عليها في الجزيرة للتحصُّن بها.

<sup>1 -</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 366، وذيل المُختصر، ابن الـوردي، 2/ 244، ومُفـرِّج الكُـرُوب، ابـن واصـل، 5/

<sup>2-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 323.

<sup>3-</sup>ئختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، 264.

<sup>4 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ و69، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286.

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 898.

<sup>2 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 466.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286.

<sup>4 -</sup> وكان رسول حلب هُو ابن العديم ( زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699 ).

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 287.

<sup>6 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 699، \_ تلّ السُّلطان: يُعرّف بالفنيدق، يبعد عن حلب نحو مرحلة على طريق دمشق. \_الحيار: حيار بني القعقاع، صقع من برية قنسرين، بينه وبين حلب يومان. (ياقوت، مُعجم البُلدان، مادّة: تلّ السُّلطان، ومادَّة: حيار ).

وعند جلهان داهمهم المنصُور، فلم يجدوا بُدًّا من القتال "فكثَّروا سوادهم بالجال، وعملوا رايات من القصب، وحشدوا معهم سُكَّان بعض المناطق (١١١)، وما اتِّباعهم لهذه الحيل إلَّا دليل على خوفهم من اللقاء. وبالفعل؛ فقد كان تقديرهم لقُوَّة المنصُور وجيشه صحيحاً، فعندما بدأت المعركة في 7رمضان 638 هـ 1241م (2)، "كُسرت الخوارزميَّة، واستُبيح عسكرهم، وهربوا حتَّى الخابور، ثُمَّ التجؤوا إلى عانة لأنَّها بلد الخليفة "(3). وكانوا قد مرُّوا في طريق هربهم بحران، فأخذوا نساءهم منها، وانطلقوا.

ويبدو أن المنصور كان يُدرك أنَّه ما لم يستأصل شأفتهم فلن تسكن فتنتهم، وأراد أن يُحقِّق ذلك، ففوَّت عليه الخَوَارزميَّة الفُرصة بالتجائهم إلى مناطق سيطرة الخليفة؛ حيثُ لا تطولهم سُيُوف المنصُور. ويبدو أنَّه كان مُرحَّباً بهم هُناك، فقد سار مُحمَّد تركان بن بركة خان إلى بغداد، وكان عمره نحو عشر سنين، فتلقَّاه الحاجب، واستقبله الوزير، وقُلِّد سيفاً، وأُسكن داراً، ثُمَّ تبعه ابن كشلو خان (4). وكانت تلك الحفاوة جُزء من خُطَّة الخليفة للاستعانة ببقايا الجيش الخوارزمي في محنت أمام تهديد التَّشَار، ففي عام 631 هـ 1234م، استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس خوارزمي (5)، وبالتَّأكيد؛ كان يأمل بانضهام الفرقة الحَوارزميَّة التي كانت في الجزيرة إليه، لـذلك آواهـم في عانـة، واستقبل أولادهم، وأكرمهم غاية الإكرام.

وبعد هذه الضربة الكبيرة للخوارزميَّة استولى المنصور على مناطقهم في الخابور وقرقيسياء، وضمَّها إليه (6)، وكذلك استولى على حَرَّان دُون قلعتها (7)، وكان نائب الخَوَارزميَّة فيها هُو شهاب الدِّين زندري كاتب الإنشاء في ديوان دولة الخَوَارزميَّة بعهد منكبري، فراسله المنصُور

سرًّا لتسليم القلعة (1). فسُلِّمَت القلعة للحلبيين، الذين استولوا على سروج والرُّهَا ورأس عين

وجملين والموزر والرقَّة وأعماها، وكُلُّها من مُمتلكات الصَّالح أيُّوب، كذلك سلَّمَ المُعظَّمُ تُوران شاه بن

الصَّالح أيُّوب آمدَ إلى سلاجقة الرُّوم المدعومين بجيش حلب، بعد هُجُومهم عليها، على أن تبقى له

قلعة الهيثم وحصن كيفا(2). أمَّا بدر اللِّين لُؤلُّؤ صاحب الموصل؛ فقد سار إلى نصيبين ودارا،

وأخذها، وحرَّر من سجن الخَوَارزميَّة في دارا المُعظَّم تُوران شاه ابنَ السُّلطان صلاح الدِّين قائد

جيش حلب الأسير<sup>(3)</sup>، ولا ندري هل كان ذلك التوزيع ضمن اتّفاق عامّ تمّ فيه توزيع مناطق

المُوصل، فها كان من صاحبها بدر الدِّين لُؤلُؤ إلَّا أن اتَّفق معهم، وسلَّمهم نصيبين، بعد أن تأكَّد أنَّه

لا طاقة له بهم، وأنَّه قد يستفيد من الفوضي التي يُحدثونها في الجزيرة (4)، وفي عام 640 هـ 1242م،

عادوا للاتِّفاق مع حليفهم القديم المُظفَّر غازي بن العادل صاحب مَيَّافارقين، لأنَّ عكان يخشى من

هُجُوم سلاجقة الرُّوم عليه، وطلب التحالف مع حلب، فلم يحالفوه، فاضطُرَّ للتعلُّق مرَّة أُخرى

بركب الخَوَارزميَّة، الذين ساروا إليه للهُجُوم على آمد، فبرز عسكر حلب مع المُعظَّم تُوران شاه نحو

آمد، فارتدَّ عنها الخَوَارزميَّة، واعتصموا بمَيَّاف ارقين، فحاصرهم الحلبيون (5)، وبعد عدَّة وقعات

1- يُقيم الخَوَارِزميَّة في أطراف بلاد الرُّوم، ويُعيِّن لهم سُلطان سلاجقة الرُّوم إقطاعات

2\_تعطى ضَيْفَة خَاتُون، الوصية على عرش حلب، لأخيها المُظفَّر غازي من الإقطاعات ما

استمرَّ الخَوَارزميَّة في عانة تحت حماية الخليفة حتَّى عام 639 هـ 1241م، فخرجوا نحو

الخَوَارِزميَّة؟ أم هُو تحقيق للأمر الواقع، فكُلُّ منهم أخذ ما وصلت إليه يده؟.

معهم جرت مُفاوضات انتهت باتِّفاقهم على:

تختاره هي من غير شرط.

 <sup>1-</sup> محتصر سلجوق نامه، ابن بيبي، تعريب: محمّد السعيد جمال الدّين، 265.
 2 - مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 734، ومُحتصر سلجوق نامه، ابن بيبي، تعريب: محمّد السعيد جمال الدّين،

<sup>3 -</sup> زُيْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 702، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 323. 4 - زُيْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 703، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 309.

<sup>5 -</sup> زُيْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 803.

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 507.

<sup>2 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 410.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 508.

<sup>4 -</sup> الحوادث الجامعة، ابن الفوطى، 144.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 176.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 411، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العمديم، 508، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 245.

<sup>7 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 344.

وبعد وُصُول المنصُور إلى حلب ضمَّ عَسْكرَهَا إليه، ثُمَّ توجَّه إلى الجزيرة، وسار معه شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر عملكة حلب مُساعداً ومُستشاراً (1). وتوجَّه المنصُور إلى آمد ينتظر نجدة الرُّومي لمنازلة مَيَّافارقين، لكنَّ هُجُوم التَّتَار على أرزن الرُّوم جعل المنصُور ينسحب إلى رأس عين. وتحرَّك الخَوَارزميَّة بسُرعتهم المعهودة إلى دنيسر، ثُمَّ إلى إقليم الخابور، فتبعهم المنصُور، ونبزل المجدل (2). وعمَّ يلفت النظر هُنا انسحاب المنصُور خوفاً من التَّيَار، وانهاكه بمطاردة الخَوَارزميَّة، فالسلبية الشديدة تجاه التَّتَار من قبَل مُلُوك بني أيُّوب، قبل هُجُوم التَّتَار على مُمتلكاتهم وممالكهم، كانت مُدهشة، فالسُّلُوك السلبي نفسه كان للملك المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، مع أن التَّتَار قد وصلوا إلى خرتبرت المُجاورة ليَّافارقين (3)، هذا؛ إنْ لم نذكر الخَوَارزميَّة الأعداء القدماء للتَّتَار.

ولمّا التقى المنصُورُ الخوارزميةَ عند المجدل وجد معهم جمعاً عظيماً من التُركان (4)، والملك المُظفّر غازي بثُوّاته، الذي أرسل يغلظ في الكلام للمنصُور، ويطلب النُّرُول له عن الجزيرة بكاملها، وإلّا، فالحرب (5). والتقى الجمعان يوم الخميس 23 صفر 640 هـ 1243م (6). فدارت الدوائر مرَّة أُخرى على الخَوَارزميَّة، وحُلفائهم، وولُّوا "منهزمين أقبح هزيمة" (7)، "ونُبت أمواهم، ونساؤهم (8)، كذلك تبدَّد شمل التُّركان، وأُسروا، ونُهبوا (9)، "ونزل الملك المنصُور في خيمة الملك المُظفَّر، واستولى على خزائنه (10)، ثُمَّ توجَّه الملك المنصُور إلى حلب، فخرج الملك النّاصر إلى منبج للقائه، واجتمع به، وسار معه حتَّى حلب (11)، ومن هُناك؛ عاد المنصُور إلى حمص ليُتابع الجهاد ضدَّ الفرنج (12).

إن هذا الصُّلح الغريب الذي يحصل فيه الجانب الأضعف، ليس على المكاسب الأكبر، بل على المكاسب كُلّها، لا يُفسِّره إلَّا ضغط التَّنار على سُلطان سلاجقة الرُّوم، وتحسبه منهم، فضغط بدوره على حُلفائه في حلب، وتنازلوا للخَوَارزميَّة وحُلفائهم عيًّا أرضاهم من البلاد، والإقطاعات، وغيرها، ورُبَّا لعدم قناعة الجميع، ماعدا الرُّومي، بهذه الهُدنة "فلم ينتظم من الأمر شيء "إلَّا إطلاق أسرى الخَوَارزميَّة بحلب" (3).

وبعد أن اطمأنَّ الخَوَارزميَّة لضعف أعدائهم راحوا - من جديد - يعيشون فساداً، واشتطُّوا بالطلب، فقد طلبوا من حلب زيادة إقطاعاتهم، ولمَّا رفض طلبهم هاجموا المَوصل، فاستنجد بدرُ الدِّين لُوْلُو بالناصر صلاح الدِّين الثَّاني صاحب حلب (4). وطلب النَّاصر يُوسُف من الملك المنصُور إبراهيم القُدُوم لنجدته، فلبَّى مُسرعاً، ولمَّا وصل "خرج الملك النَّاصر وأكابر المدينة، والتقوه إلى ظاهر حلب "(5). وكذلك طلب الحلبيون نجدة الرُّومي جلال الدِّين كيخسرو، فتأخَّر عن نجدتهم لغارات التَّتَار على بلاده، وملكهم أرزن الرُّوم (6). ولجأ الخَوَارزميَّة - هذه المرَّة - لتغطية جرائمهم بموقف سياسي، فأخذوا "يُظهرون للناس أنَّهم يفعلون ما يفعلونه خدمة لصاحب مصر، فإن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزباً على الصَّالح صاحب مصر "(7)، ولكن سلوكهم السَّابق واللاحق يُثبت أن ما يفعلوه طبيعة متأصِّلة فيهم، لا يتركوها، ولا تتركهم.

<sup>1-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.

<sup>2 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 704.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكِّكُرُوبِ، ابن واصل، 5/ 310. وِمرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 338.

<sup>4 -</sup> كان مُقدَّم التَّركان ابن دودي (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 695، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512)، وهُو ابن دودا في: ( الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد 8/2/2/2 وكنز النَّرر، ابن أيبك، 8/2/2/2 . وذكر الحنبلي أنَّه كان معه "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة ". (شفاء القُلُوب، 331)، وأكَّد الرَّقْم ابن شدَّاد ( الأعلاق الخطيرة، 8/2/2/2 "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة ". (شفاء القُلُوب، 331)، وأكّد الرَّقْم ابن شعة آلاف لكانوا كثيرين. 470، وابن العديم، زُبْدَة الحِلَب، 2/2/2/2، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التَّركان سبعة آلاف لكانوا كثيرين.

<sup>5 -</sup> الأعلاق الخطيرة، أبن شدًّاد، 3/ 2/ 467.

<sup>6 -</sup> المُحتصر، أبو الفداء، 3/ 770، ورُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.

<sup>7 -</sup> المُختصِر، أبو الفداء، 3/ 170.

<sup>8 -</sup> كَنْزِ اللَّارِر، ابن أيبك، 7/ 350، والحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 151.

<sup>9 -</sup> مرآة الزُّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.

<sup>10-</sup>زُبْدَة الْحِلِّب، ابن العديم، 125، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 170، والأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 467.

<sup>11 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.

<sup>12 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 311، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

<sup>3</sup>\_يدخل المُظفَّر شهابُ الدِّين غازي في هذه الهُدنة، ويُسالم مَنْ يدخل بها.

<sup>4</sup> يدخل السعيد نجم الدِّين غازي صاحب ماردين في الهُدنة، ويحلف لصاحب حلب(1).

<sup>5</sup>\_ تُطلق أسرى الخَوَارزميَّة من حلب(2).

<sup>1-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 306.

<sup>2-</sup>زُبُدَةَ الْحَلِّب، ابن العديم، 2 / 703\_704.

<sup>3 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 306.

<sup>4 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.

<sup>5 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، أبن العديم، 509 \_ 510 .

<sup>6 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 2/ 467.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 303.

#### المبحث الرَّابع:

#### الفرقة الخوارزمية في معركة غزّة

وفي هذه الأثناء؛ عادت أُمُّور الصَّالح أيُّوب للانتظام من جديد، عندما تمكَّن من الاستيلاء على مصر، فانتعشت آمال الخَوَارزميَّة، ورُبَّها تطاولوا بمطامعهم للسيطرة على الشَّام من خلاله. ولم يجعلهم الصَّالح أيُّوب ينتظرون طويلاً، فهُو لم ينسَ دمشق التي سلبها منه عمُّه الصَّالح إسهاعيل، فكاتَبَ أيُّوبُ الخوارزمية، واستدعاهم نحوه. ولمَّا سمع بذلك الصَّالح إسهاعيل، شعر بخطر مُواجهة الخَوَارزميَّة (1)، فاتَّصل بالفرنج، وقدَّم لهم تنازلات كبيرة لعقد التحالف معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب (2). وبالفعل؛ فقد تحرَّك الخَوَارزميَّة عام 642 هـ 1245م، من الجزيرة نحو مصر، "وما مرُّوا بموضع إلَّا ونهبوه، وعاثوا فيه "(3)، وكانت قُوَّاتهم قد أصبحت أكثر من عشرة آلاف مُقاتل (4) بما انضاف إليهم من التُّركهان، كها "انضمم إلى الخَوَارزميَّة جماعة من القيمرية قدموا معهم من الشَّرق "(5)، كانوا بزعامة ناصر الدِّين وبهاء الدِّين القيمري (6)، فالخوارزمية لم يُشكِّلوا تكتُّلاً عرْقياً. وكُلّ مَنْ تستهويه حياة المُغامرة والعيش مُرتزقاً بسيفه كان بإمكانه الانضام إليهم.

ولطبيعة التشكيلة العسكريَّة للخَوَارزميَّة بشكل عامِّ، ولطريقة تحرُّكهم عبر البلاد، نستنتج أنَّهم لم يكونوا يحملون إلَّا الأسلحة الشخصية، فالمعدَّات الثقيلة ووسائط الحصار لم تكن من اهتهاماتهم، لذلك تجنَّبوا المُدُن الحصينة، وساروا نحو الصَّالح في مصر "وهم يَقْتُلُون، ويَسْبُون، فانجفل الناس من بين أيديهم" (7). وقد تحاشى مُلُوك الشَّام بمَنْ فيهم المنصُور إبراهيم والصَّالح

وعلى الرّغم من هذه الضربة الموجعة للخوارزميّة، ومع كُلِّ ما لحق بهم من قَتْل وأَسْر، فيبدو أنَّهم استطاعوا تجاوز محنتهم مع حلول عام 640 هـ، فجمعوا فلوهم، وعادوا لعاداتهم القديمة، فعاثوا فساداً في الجزيرة، وهاجموا الخابور ورأس عين، ونهبوهما، ونهبوا التُّركهان حُلفاء الأمس (1) ومدُّوا أذاهم إلى ضواحي حلب. وكانت الوصية على عرش حلب ضَيْفَة خَاتُون بنت الملك العادل قد توفيت، واستقلَّ حفيدها الملك الناصر يُوسُف بالحُكُم في حلب، فأرسل جيشها لمطاردتهم بقيادة جمال الدولة إقبال الخاتوني، فتجمَّع الحَوَارزميَّة في ماردين، ومعهم قُوَّات المُظفَّر شهاب الدِّين صاحب مَيَّافارقين، والسعيد نجم الدِّين صاحب ماردين (2)، "واحتمّوا بالجبال، وحَصَرَهُم عَسْكُرُ حلب، وخندقوا حولهم، وجرت وقعات "(3)، ولكن جيش حلب لم يظفر منهم بطائل، فعاد إلى بلده (4)، وكانت عدَّة أسباب وراء هذه النتيجة السلبية، منها:

1 - غياب جيش حص المُدرَّب، مع غياب نجدات أُخرى مُهمَّة وُجدَت في المَّات السابقة. 2 - غياب شخصية القائد العسكري المُخطِّط الشجاع، التي تحقَّقت في الملك المنصُور.

وتكرَّر تدخُّل علاء الدِّين كيخسر و سُلطان سلاجقة الرُّوم، فَخَطَرُ النَّدَار أصبح على أرض الواقع، بعد أن كان يلوح في الأفق، والقائد التتاري بايجو نوين يضرب بالجِّاهيْن؛ الأوَّل: نحو بُلدان الحُليفة العبَّاسي، اربل، فدقوقا، والثاني، بالجِّاه عملكة سلاجقة الرُّوم، في خرتبرت، وأرزن الرُّوم (5)، عمَّا يعني حصر الجزيرة بين فكَّيْ كيَّاشة. فقام كيخسر و بإرسال "نائب المملكة شمس الدِّين الأصبهاني إلى شهاب الدِّين غازي، وإلى صاحب ماردين والخوارزميَّة، وأصلح بينهم "(6)، وكما في المرَّة الأُولى كانت التسوية والصُّلح من حساب حلب والرُّومي، فقد أُعطي صاحب ماردين رأس عين، والخوارزميَّة خرتبرت، وغيرها، والمُظفَّر غازي أُعطي خِلاط، وعاد شمس الدِّين بقسم من عسكر حلب نجدة على التَّتَار (7).

<sup>1 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابنِ واصل، 5/ 332.

<sup>2 -</sup> حُرُوب فريدريك النَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار-رواية جُون لي ميج، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35 / 207.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.

<sup>4 -</sup> حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

<sup>6 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، أبن العميد، 32 وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 353.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

<sup>1 -</sup> مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/2/ 738.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 314.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

<sup>4 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 514.

<sup>5 -</sup> مُحتصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 280.

<sup>6 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

<sup>7 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.

النصارى في كنيسَة القيامة "(1)، فالقُدْسُ كانت مدينة غير مُحَصَّنة وُفق اتِّفاقية تسليمها من الملك الكامل إلى الإمبراطُور فريدريك (2).

وسار الخوارزميُّون إلى غزَّة، وأرسلوا يُخبرون الصَّالح أيُّوب بقُدُومهم (3)، فأكرم رُسُلَهُم، وأرسل هم الخيل والخلع والأموال (4)، وأمرهم الانتظار في غزَّة، ووعدهم بالشام (5). فأقاموا فيها ريثها أعاد الصَّالح أيُّوب ترتيبَ جيشه، وقدَّم عليه أخصَّ عماليكه؛ وهُو رُكن الدِّين بيبرس الصالحي، وأمره بالزحف إلى غزَّة؛ حيثُ انضمَّت إليه الحَوَارزميَّة (6).

وهُنا؛ تحرَّك المنصُور إبراهيم، فقاد جُيُوش تحالف آيُّوبية الشَّام، والتقى قُوَّات الفرنجي مع عكَّا، وسار بالِّجاه مصر. وفي عام 643 هـ 1246م، التقت قُوَّات التحالف الشَّامي ـ الفرنجي مع قُوَّات التحالف المصري – الخوارزمي. ولكن المعركة الحقيقيَّة دارت بين فريقَيْن فقط هُم الخَوَارزميَّة وَالفرنجة، فقد فرَّ من المعركة المصريُّون والشَّاميُّون كلاهما، "وثبتت الديوية والاسبتاريَّة، وقاتلوا إلى أن قُتلوا جميعاً، ولم يبقَ منهم إلَّا نفر يسير أسروهم" (7)، وقام الخَوَارزميَّة بتطويق الفرنج، "وأفنوهم قتلاً وأسراً" (8). ولم يتم في هذه المعركة أيُّ اشتباك بين المنصُور إبراهيم والخَوَارزميَّة، الـذين اختاروا الفرنج هدفاً لُمجُومهم، فالنصر هُنا خوارزمي، والهزيمة فرنجية.

وكان من الصعب على فرنج الساحل الشَّامي أن يتحمَّلوا هزيمة بهذا الحجم، فقد جرَّدتهم من مُعظم قواهم، وأصبحوا بحاجة ماسَّة إلى مُساعدات فورية (9)، وستكون هذه الهزيمة من أهممً دوافع الحملة الفرنجيَّة السابعة (10).

إساعيل الصدام مع الخوارزميَّة، واكتفوا بالتحصُّن داخل مُدُنهم (1)، عَّا مكَّن الخَوَارزميَّة من الوُصُول بسُرعة إلى فلسطين.

انطلق الخوارزميَّة من نصيبين، فقطعوا القُرات عند الرقَّة، وانقسموا هُناك إلى قسمَيْن، قسم الخذ طريق حمس البقاع دمشق<sup>(2)</sup>، وقسم سار على البرِّيَّة حتَّى غوطة دمشق<sup>(3)</sup>، ومن هُناك؛ توجَهوا جيعاً نحو طبرية، فاستولوا عليها، ثُمَّ اندفعوا نحو القُدْس، وهاجموها (4). وصل الحَوَارزميَّة إلى القُدْس عام 642 هـ 1244م، واصطدموا بالحامية الصَّليبيَّة فيها، وخاضوا معها قتال شوارع، واضطرَّت الحامية للاستنجاد بأقرب حُلفائهم في الشَّام النَّاصر داود، الذي جعله هُجُوم الخَوَارزميَّة يتحصَّن في الكَرَك، ولم يجازف بالخُرُوج لمُساعدة حُلفائه الفرنج في القُدْس، إنَّها استغلَّ وضعه الخاص لدى الخَوَارزميَّة (6)، وأرسل بطلب الأمان لحامية القُدْس مُقابل تسليم المدينة (6)، وخرجت الحامية من القُدْس، لكنَّ الحَوَارزميَّة خدعوهم برفع الأعلام الفرنجيَّة في القُدْس، فعادوا صوبها؛ حيثُ انقشَص عليهم الخَوَارزميَّة بعد ذلك بالقُدْس بقوله: " دخلت الخوارزميةُ القُدْسَ، وبذلوا السيف واصل ما فعلته الخَوَارزميَّة بعد ذلك بالقُدْس بقوله: " دخلت الخوارزميةُ القُدْسَ، وبذلوا السيف في مَنْ كان فيه من النصارى، ولم يُبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقيامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنَّها مقبرة المسيح عليه المعاه، ونبشوا قبور مُلُوك المفرنج التي بقيامة، وأحرقوا عظام الموتى "(8)، " وقتلوا بطرك الرُّوم، وأحرقوا جماعة كثيرة من الفرنج التي بقيامة، وأحرقوا عظام الموتى "(8)، " وقتلوا بطرك الرُّوم، وأحرقوا جماعة كثيرة من

<sup>1 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 33.

 <sup>2 -</sup> الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، د. حسن مبيض، محاضرة في الجمعية التاريخية السُّوريَّة،
 15/ 3/ 8/ 1998.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 337.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، ٦/ 316.

<sup>5 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، أبن العميد، 32.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.

<sup>7 -</sup> ابن العميد، أخبار الأيُّوبيَّيْن، 33.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 338.

<sup>9-</sup>الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجة: السَّيِّد الباز العربني، 118.

<sup>10 -</sup>العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 50.

السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

<sup>2</sup>\_تمَّ اعتراض هذه الفرقة قُرب بعلبك، وأسر قائدها. ( لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 254 ).

<sup>3 -</sup> مرأة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 741.

<sup>4 -</sup> تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيهان، ترجة: السَّبِّد الباز العربني، 3/ 371، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أنتوني بريدج، ترجة: أحمد غسان سبانو، 262، - كانت القُدْس مدينة غير مُصَّنة وُفقاً لاتِفاقية تسليمها لفريدريك، وقد أزال النَّاصر داود ما بقي من تحصيناتها عندما احتلَها قبل أن يُعيد تسليمها للفرنج مُقابل التحالف معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب. 5 - كانت أمّ النَّاصر داود خوارزمية (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 337)، وأبوه الملك المُعظم كان حليفاً لجلال الدِّين منكبري خوارزمشاه، يُقسم برأسه، ويركب بخلعته. (المنصُوري، ابن نظيف، 96)، كما زوَّج المُعظَّم ابنته، وهي أُخت النَّاصر داود، إلى منكبري (مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 708).

<sup>6 -</sup> تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنِسيهان، 3/ 392.

<sup>7 -</sup> راجع: رسالة مُقدَّم الاسبتاريَّة في القُدُس. ( التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/

<sup>8 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 337.

ووُفقاً لاتِّفاقية الصُّلح مع ابن الشَّيخ ضمن المنصُورُ لنفسه مملكة حمص كاملة، وضمن إسهاعيلُ بعلبك وبصرى، وسُلِّمَتُ أبوابُ دمشق لقُوَّات ابن الشَّيخ (1).

وخرج المنصور بجيشه سالماً نحو حمص، وتوجّه إسهاعيل نحو بعلبك (2). وتوجّهت شُكُوك ابن الشَّيخ نحو الخوَارزميَّة، فمنعهم من دُخُول دمشق، بعد أن تسلَّمها عام 643 هـ 1246م، واكتفى بمنحهم الإقطاعات في الساحل، فلم تُعجبهم، واعتبروها غير كافية (3)، وبالتَّأكيد؛ كان وراء هذا الموقف من الحَوَارزميَّة، مُقابلة مُقدَّمهم للمنصُور إبراهيم، فقد تمَّتْ اتِّفاقية الصُّلح وعملية التسليم دُون علم الخَوَارزميَّة، "الذين لم يكونوا حاضرين وقت الصُّلح، فلمَّا علموا بوُقُوع الصُّلح غضبوا" (4)، وشعروا بتغيُّر نيَّة المصريين عليهم، "وكانوا يظنُّون بأنَّ السُّلطان إذا انتصر على عمِّه الصَّالح إسهاعيل يُقاسمهم البلاد. فليًّا مُنعوا من دمشق، وصاروا في الساحل، تغيَّرت نيَّاتهم، واتَّفقوا على الخُرُوج عن طاعة السُّلطان "(5). ولَّا كثر فسادهم بأعمال دمشق، كتب ابن الشَّيخ بخَبَرهم إلى الملك الصَّالح أيُّوب، فطلب منه رَدْعَهُم، فتنمَّروا عليه (6).

ثُمَّ نقم الصَّالح أيُّوب على مُعين الدِّين ابن الشَّيخ تسهيلَهُ خُرُوج إسهاعيل سالماً من دمشق، فعزله، وكلَّف حُسامَ الدِّين بن أبي علي والياً على دمشق، ولم تطلُ أيَّام مُعين الدِّين، فقد تُوفِّي عام 643 هـ 1246م، بعد عزله بمُدَّة وجيـزة (7). فاشـتطَّ الخَوَارزميَّة عـلى ابـن أبي عـلي بطلب الإقطاعـات والولايات، ولمَّا لم يُجبهم امتعضوا لذلك(8).

وبعد معركة غزَّة مُباشرة أرسل الصَّالح أبُّوب وزيره مُعين الـدِّين ابـن الـشَّيخ (1) بعـسكر إلى الشَّام، وأمر الْحَوَارزميَّة باتِّباع أمره، فسار حتَّى وصل دمشق عام 642 هــ 1244م، وحاصرها (2)، "واشتد الحصار على دمشق، وأسقط بيد الصَّالح إسهاعيل لفناء ما عنده من الذخائر، ولقلَّة الرجال معه ((3) وكعادتهم؛ "عاث الخَوَارزميَّة في أعمال دمشق ((4).

ولًّا عاد المنصُور إبراهيم إلى دمشق منهزماً، "فلم يُقبل عليه الصَّالح إسماعيل كعادته، فعسر عليه ذلك" 5، وأخذ المنصُور إبراهيم المُبادرة، ويبدو أنَّه أراد أن يسبق الصَّالح إسماعيل، أو أنَّه شكَّ فيه، "فخرج من دمشق، وتحدَّث مع بركة خان مُقدَّم الخَوَارزميَّة في الصُّلح، وعاد إلى دمشق"(6)، ويُوضح الأمر ابن العميد بقوله: "وعزم الملك المنصُور أن يُسلِّم دمشق إلى الخَوَارزميَّة من باب شرقي نكاية في الملك الصَّالح إسماعيل، ثُمَّ انثنى عن هذا العزم خوفاً على المُسلمين من الْحَوَارِزِمِيَّة "(7). وكان اتِّصال المنصُور إبراهيم ببركة خان مُقدَّم الْحَوَارِزِميَّة دليل اختيار ذكي من المنصُور، فابن الشَّيخ القائد العام لقُوَّات التحالف المصري - الخوارزمي يرى نفسه صاحب قنضيَّة، ويُريد أن يُثبت إخلاصه لسُلطانه الصَّالح أيُّوب، بينها يعرف الجميع كيف يَرْضى بركة خان. عندها شعر ابن الشَّيخ بخُطُورة هذا الاتِّصال، فالخوارزمية لا يُوثَق بهم، وقد يبيعونه في اتَّفاق مُحتمل مع المنصُور الداهية، الذي جرَّب التعامل طويلاً مع الخَوَارزميَّة، وكذلك خاف الصَّالح إسماعيل، فأسرع بإرسال وزيره أمين الدولة (8) إلى مُعين الدِّين بن الشَّيخ (9)، فاتَّفقت المصالح كُلُّها على عقد الصُّلح، وتساهل الوزير ابن الشَّيخ، واتَّفق مع المنصُور وإسماعيل بشُرُوط مُرضية لهما.

<sup>1 -</sup> ابن الشَّيخ: مُعين الدِّين الحَسَن بن شيخ الشُّيُوخ، تُونِّي عام 644 هـ 1247م، عن ستَّ وخمسين سنة، راجع فقرة أو لاد الشَّيخ في هذا الكتاب.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَيَّيْن، أبو شامة، 174.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 348.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 19 3.

<sup>5 -</sup> أخبار الأثيوبيَّيْن، أبن العميد، 33، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 339. 6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 197، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 643، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 753.

<sup>7-</sup> أخبار الأبوبيّين، ابن العميد، 33. (طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 2/ 234 ـ و23).

<sup>9 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 21، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 753.

<sup>1 -</sup> خُطط الشَّام، مُحمَّد كُرد على، 2/ 98\_99.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 324.

<sup>3 -</sup> تُحفة ذوى الألباب، الصفدى، 2/ 133.

<sup>4 -</sup> البداية والنِّهاية، ابن كثر، 13/ 178.

<sup>5 -</sup> البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

<sup>6 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 358.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 350. 8 - العبر، ابن خلدون، 5/ 358.

وبقدر قلق الصَّالح أيُّوب من الخَوَارزميَّة وحلفهم الجديد كان سروره باعتزال المنصُور إبراهيم لهم، وقرَّر أن يبذل كلَّ جهده لضمِّ المنصُور إلى جانبه، لكنَّه بدأ بحليف الخَوَارزميَّة الأقرب والأخطر، "فخدع السُّلطان عملوكه رُكن الدِّين بيبرس حتَّى فارق الخَوَارزميَّة، وقدم إليه، فاعتقله" بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

وفي هذه الأثناء "عظمت مضرَّة الحَوَارزميَّة ببلاد الشَّام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمات" (1)، حتَّى شُمِّيت هذه السنة "سنة الحَوَارزميَّة" والتي انتهت بحصارهم لدمشق عام 643 هـ 1246م (3)، وكان معهم الصَّالح إساعيل بقُوَّات بعلبك (4)، والنَّاصر داود بقُوَّات الكَرَك (5). ولم يترك الصَّالح أيُّوب لعمّه إساعيل الفُرصة لتجديد التحالف مع المنصُور إبراهيم، فقد سبقه إليه، وكاتبه (6). "وأخذ الصَّالح نجم الدِّين في إعال الحيّل والتدبير، ومازال بالمنصُور إبراهيم صاحب حمص حتَّى مال إليه "(7). "وصلح ما بين الملك المنصُور صاحب حمص والسُّلطان الملك المصَّور وحصل بينها التّصافي والتّواد "(8).

وكذلك كَتَبَ الصَّالح آيُّوب إلى الحلبين، "هؤلاء الخَوَارزميَّة قد أخربوا البلاد، والمصلحة أن نتَّفق عليهم"، فأجابوه، وخرج شمس الدِّين لُؤلُؤ مُقدَّماً على نجدة حلب (9).

وعندما كان الحَوَارزميَّة يشدِّدون حصارهم على دمشق، "وألَّوا في القتال، ونهب الأعمال، وضايقوا دمشق، ومنعوا عنها الميرة" ((10)، بدأ المنصُور إبراهيم \_ بعد إبرام اتَّفاقه مع الصَّالح أيُّـوب \_

#### نهاية فرقة الخُوارزميّة

لقد انهارت أمال الخَوَارزميَّة بحليفهم أيُّوب، ولكنَّهم رأوا أن بإمكانهم تدارك الأمر، فانقلبوا عليه، وأعلنوا موقفهم منه بالهُجُوم على داريّا<sup>(1)</sup>، ونهبها<sup>(2)</sup>، وأخذوا بالاتّصال بأعداء الصَّالح آيُّوب لتشكيل حلف جديد، غايته ضرب أيُّوب الذي استخدمهم لتنفيذ أغراضه في الجزيرة ومصر والشَّام، ثُمَّ تخلَّى عنهم. وكان أوَّل مَنْ تمَّ الاتّصال به ''الأمير رُكن الدِّين بيبرس الصالحي<sup>(3)</sup> قائد حامية غزَّة، فأصغى إليهم''، وصار معهم<sup>(4)</sup>. ''وكاتبوا الصَّالح إسهاعيلَ، فحالفوه على الصَّالح أيُّوب، ففرح بذلك، ونقض الصَّلحَ الذي كان قد وقع منه'' أقلى أنه وقع منه'' أنها المَّالِح الذي كان قد وقع منه'' أقلى المَّالِح الذي كان قد وقع منه'' أقلى المَّالِح اللهُ اللهُ اللهُ المَّالِح اللهُ اللهُ المَّالِح المَالِح اللهُ المَالِح اللهُ المَّالِح اللهُ المَّالِح اللهُ المَّالِح اللهُ المَّالِح اللهُ المَّالِح اللهُ المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَالِح المَالِح المَّالِح المَالِح المُلْكِ المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَالِح المَالِح المَّالِح المَالِح المَالِح المَالمُ المَّالِح المَّالِح المَّالمُ المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالمُولِع المَّالِح المَالمُولِع المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح المَّالِح

وراسلوا النَّاصر داودَ صاحب الكَرَك، فحالفهم، وتروَّج منهم، وكانت أُمُّه خوارزمية، وسارع بالاستيلاء على نابلس والقُدُس والأغوار (6)، وتحالفوا ـ كذلك ـ مع عزّ الدِّين آيبك المُعظَّمي صاحب صر خد (7).

واتَّفقت كلمة الجميع على حرب الصَّالح أَيُّوب<sup>(8)</sup>، ولكنْ؛ هل حاول الخَوَارزميَّة استهالة المنصُور إبراهيم إلى حلفهم، فهُو من أبرز أعداء أيُّوب؟ أم أنَّهم لم يُحاولوا ذلك، وأبعدوه عن حلفهم عمداً؟.

ولغياب ما يُوضِّح ذلك، فالاحتمال الثَّاني هُو الأرجح، لأن العداء بين المنصُور والخَوَارزميَّة كان قد بلغ جدَّاً لا رجعة فيه، حتَّى في تلك الظُّرُوف المتقلِّبة الأهواء. كما يجب أن لا يغيب عن البال دور الحلبيين المُعادي للخَوَارزميَّة، وتأثيره في حليفهم المنصُور.

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء3/ 176، والتُّبُّوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 322، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 254. 2 - البداية والنِّهاية، ابن كثر، 13/ 178.

<sup>3-</sup>ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أَبُو شَامَة، 178.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 352، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175.

<sup>6 -</sup> البداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، أبن واصل، 5/ 359.

<sup>9 -</sup> المُختارِ من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201.

<sup>10 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.

<sup>1 -</sup> داريًا: قرية كبيرة جنوب غربي دمشق، وهي من قُرى غوطتها، راجعٌ: المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري.

<sup>2 -</sup> البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، والعبر، الذهبي، 5/ 174، وتُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 33.

<sup>3 -</sup> وهُو أكبر أُمراء الصَّالح أَيُّوب، وهُو غير رُكن الدِّين بيبرس البندقداري، الذي تسلطن ـ فيها بعد ـ على مصر

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/22.

<sup>5 -</sup> البداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

<sup>6 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 337، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 324.

<sup>7-</sup>نهاية الأرّب، النويري، 29/ 14.

<sup>8 -</sup>النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 423 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 351

المنصُور، فقد قال شمس الدِّين لُولُؤ مُقدَّم نجدة حلب: "لَّا التقينا على حمص رأيتُ الخَوَارزميَّة خَلْقاً عظياً، وكُنَّا بالنِّسبَة إليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض" (1).

ولمَّا بدأت المعركة 643 هـ 1246م، لم تُغن كثرة جُمُوع الخَوَارزميَّة عنهم شيئاً، ولم يشتوا أمام قُوَّات المنصُور، الذي برهن على أنَّه الوحيد بخبرته وشجاعته القادر على التعامل مع الخَوَارزميَّة عسكريًّاً. "وكُسِرت الخَوَارزميَّة أشدّ كسرة، وقُتلَتْ مُلُوكهم، وسُبيَتْ نساؤهم، وغُنمَتْ أموالهم، كسرهم الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد أسد الدِّين "(2).

وكان يوم المعركة "يوماً مشهوداً، قتل فيه عامَّة الخَوَارزميَّة" (3)، وقُتل مُقدَّمهم بركة خان (4). "وتبدَّد فيها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة "(5). "ولمَّا وصل خبر كسرهم إلى الملك السصّالح أيُّوب بديار مصر (6)، فرح فرحاً عظياً، وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص، وحصل بينها النصافي بسبب ذلك "(7). واستطاع الملك المنصُور إبراهيم بقدراته العسكريَّة وحنكته وشجاعته أن يزيل بلاء الحَوَارزميَّة عن المُلُوك والمهالك، وعين العباد والبلاد، "وكفى اللهُ الناسَ شرَّهم، فإن البلاد كانت منهم في بلاء عظيم "(8).

بالاستعداد لمُواجهة الخَوَارزميَّة (1)، "وشرع في جمع الجُيُوش من الحلبين والسُّر كمان والأعراب" (2)، ونجدة قدمت من حماة (3)، فبلغ الخبرُ الخوارزمية، وخافوا غائلة ذلك، وقالوا: "دمشق ما تفوت والمصلحة قتاله عند بلده" (4). وترك الخَوَارزميَّة حصارَ دمشق، عمَّا مكَّن جُندها من مُغادرة المدينة، والانضام إلى القُوَّات التي جمعها المنصُور إبراهيم (5).

ولا نستطيع أن نُفسِّر تَرْكَ الخَوَارزميَّة حصار دمشق بأنَّه لمباغتة المنصُور عند بلده، فلو كان هذا هدفهم لساروا مُباشرة نحو حمص، لكنَّ تحرُّكهم كان من دمشق نحو مرج الصُّفَّر؛ حيثُ جمعوا قُوَّاتهم مع قُوَّات الصَّالح إسهاعيل صاحب بعلبك، والنَّاصر داود صاحب الكَرَك، وعزّ الدِّين آيبك صاحب صلخد<sup>(6)</sup>.

وهذا ما يدلُّ على أن السبب الحقيقي لتركهم دمشق هُو خوفهم من حَصْر المنصُور لهم بين قُوَّاته وبين دمشق، لذلك انسحبوا إلى مرج الصُّفَّر؛ حيثُ تمكَّنوا من اللقاء مع حُلفائهم. وعندما تحرَّكوا نحو حمص كان المنصُور قد أنهى استعداداته، وسار جنوباً، حتَّى وصل قُرب بُحَيْرة حمس (٢)، وعلسم بتقددُّم الحَوَارزميَّة نحوه، فتابع مسيره حتَّى التقاهم عند القصب، أو عُيُون القصب (8). وكانت جُمُوع الحَوَارزميَّة وحُلفاؤهم يتمتَّعون بتفوُّق عددي كبير على قُوَّات

<sup>&</sup>quot;مرحلة قبلي حمص" (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359). وأنَّها: "منزلة بريد من حمص من قبليها" (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 325). وكُلُّ هذه الدلائل تُشير إلى مكان واحد يُسمَّى - الآن - عين التَّنُور، وهي عدَّة عُيُونٍ ماء، تُشكَّل بُحَيْرة صغيرة، ينمو عليها القصب بكثرة، تبعد حوالي 10 كم جنوب بُحَيْرة حمص.

<sup>1 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 357.

<sup>2 -</sup>ذَيْل الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.

<sup>3 -</sup> البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، ويُضيف ابن واصل: "قتله مملوك من مماليك الأمير سعد الدِّين بن الدريوش أحد أُمراء حلب الكبار". ويقول ابن الجزري: " قتل بركة خان الخوارزمي، أحد الخانات الأربعة، وكان أصلحهم في الميل إلى الخير، والرّفق بالناس، وكان الصَّالح أيُّوب قد صاهره، وأحسن إليه، ثُمَّ جرى منه ما جرى، ولمَّا قُتل انحل نظام الحَوَّارزميَّة ". ( المُختار من حوادث الزَّمان، 205 ).

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المُقريزي، 2/ 323.

<sup>6 -</sup> وهم د. عاشور حين ذكر: "وتمكن الصَّالح أيُّوب من إنىزال الهزيمة بالخَوَارزميَّة بين بعلبك وحمص". (مصر والشَّام، عاشور، 116)، فمع أن هزمهم. 7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.

<sup>1 -</sup> وهم ابن خلدون بقوله: " وبعث نجم الدِّين من مصر إلى يُوسُف النَّاصر يستنجده على دفع الخَوَارزميَّة عن دمشق، فسار في عساكره ومعه إبراهيم بن شيركوه ". والصحيح أن النَّاصر يُوسُف صاحب حلب لم يسر لقتال الحَوَارزميَّة، فقد كان \_ وقتها \_ صبيًا عمره بحُدُود خس عشرة سنة، ولكنْ؛ سارت نجدة من قُوَّات حلب، انضمَّت إلى قُوَّات المنصُور إبراهيم، الذي كان قائد المعركة ضدَّ الحَوَارزميَّة.

<sup>2 -</sup> البداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 178، والعبر، الذهبي، 5/ 181.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضِيتَيْن، أبو شامة، 178.

<sup>4 -</sup>البُداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 178، ـ قال بهذا الرأي بركة خان كبير مُقدَّمي الخَوَارزميَّة، ويبـدو أنَّـه فرضـه عـلى بقيَّة الحُلفاء. ( مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزى، 8/ 2/ 760 ).

<sup>5-</sup>العبر، الذهبي، 5/ 181، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13 / 179.

<sup>6-</sup>المُختار من حُوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201، ـ مُرج الصُّفَّر: سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها نحو 38 كم، بين قريَتَيْ الكسوة وغباغب. ( دمشق الشَّام في نُصُوص الرّحّالين، أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، 1/ 74 ـ ح/ 1 ).

<sup>7 -</sup> البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

<sup>8 -</sup> ذكرت عُيُون القصب في: عقد الجهان، العيني، 1/ 315، وذكرت القصب في: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 355، وشفاء القُلُوب، أحد الحنبلي، 377، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175، والنَّجُوم، ابن تغري بردي، 6/ 325. وذكر أن اللقاء كان" بظاهر حمس" ( السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323). وأنَّه كان "بين أرض بعلبك وحمس". ( ذَيل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178)، وكلَّها تدلُّ على موضع في منطقة واحدة. وقد عُرِّفَتُ عُيُون القصب أو القصب بأنَّها:

# القسم الثَّالث العلاقات الدوليَّة لإمارات وممالك الجزيرة الشَّاميَّة

وتشتَّت فلول الناجين من الحَوارزميَّة في البلاد، والنجأت جماعة منهم مع مُقدَّمهم كشلو خان والصَّالح إساعيل إلى حلب، فقبض عليهم صاحبها، "وملا بهم الحُبُوس" (1)، وبعد أن أطلقهم النَّاصر يُوسُف (2) ذهبوا مع كشلوخان، والتحقوا بالمغول، فخدموهم (3)، "واندمجوا في جملتهم "(4). وهربت مجموعة مع النَّاصر داود إلى الكرِّك، واستولوا على نابلس(5)، فأرسل النَّاصر أيُّوب جيشاً حاصر الكرك، حتَّى سلَّم إليه داودُ الخوارزميةَ الذين عنده (6). وذهب قسم منهم ليخدم في مصر (7)، وخدمت جماعة منهم في الشَّام (8)، وقسم من الخَوَارزميَّة النجـأ إلى صر خـد مـع آيبـك٥، وبذلك تحوَّل الحَوَارزميَّة من فرقة مُرتزقة مُنظَّمة إلى أفراد مُرتزقة، فهم لا يعرفون سوى القتال حرفة لكسب العيش.

إن ما قامت به فرقة الحَوَارزميَّة في الشَّام والجزيرة، وما حقَّقته من انتصارات على ممالك أيُّوبية كبيرة وعريقة وعلى تحالف الفرنج في غزَّة، كُلُّ ذلك يُشير إلى محصلة واحدة هي ضعف المُؤسَّسات العسكريَّة التي أقامتها المالك الأثُّوبيَّة في الشَّام ومصر، يُقابل ذلك ضعف فاضح في القوى العسكريَّة لفرنجة الساحل الشَّامي، فهزيمة غزَّة كشفت بهلهل المُؤسَّسة العسكريَّة الفرنجيَّة في الشَّرْق.

<sup>1-</sup>مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 2/ 8/ 762.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.

<sup>4 -</sup> العبر، ابن خلدون، 5/ 358.

<sup>5 -</sup> البداية والنّهاية، ابن كثر، 13/ 179.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 24.

<sup>7 -</sup> مُفرِّجُ الكُرُوبُ، أبن واصل، 5/ 359، والنَّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 326. 8 -صدق الأخبار، ابن سمباط، 1/ 336، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، والنَّبُحوم الزَّاهـرَة، ابـن تغـري بردي، 6/ 325.

<sup>9 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن أيك، 7 / 359.

# الفصل الأوَّل

# الأيُوبيُّون في الجزيرة الشَّاميَّة

المبحث الأوَّل

الجغرافية السياسية للجزيرة الشامية

كانت تسمية الجزيرة تُطلَق في الغالب على جزيرة ابن عُمر. أمَّا الجزيرة الشَّاميَّة؛ فقد أطلق عليها الجَغرافيون والمُؤرِّخون العَرَب عدَّة تسميات، منها: البلاد الشَّرْقيَّة (1)، أو السَّرْق (2)، وهي تسمية - كما هُو واضح - تصحُّ بالنِّسبة لموقعها من حلب فقط، ولا تصحُّ بالنِّسبة لدمشق مثلاً. وسُمِّيتُ بلاد الأطراف ومُلُوكها مُلُوك الأطراف، وهي تسمية تصحُّ بالنِّسبة للمالك والإمارات الأيُّوبيَّة، كما دُعيَتْ بلاد الشَّرْق الفراتية (3).

ورُبَّها كانت أكثر التسميات التي تنطبق على الواقع هي تسميتها بقاطع الفُرات (4)، ولكنَّهم \_ أحياناً \_ كانوا يُسمُّونها الجزيرة بشكل عامِّ (5).

أمَّا التسمية التي نجدها أكثر ملائمة؛ فهي: الجزيرة الشَّاميَّة، لأنَّها جزيرة بين الفُرات وروافده، ودجلة وروافده، وتقع في أعلى بلاد الشَّام.

وبذلك نستطيع أن نحدِّد أن الجزيرة الشَّاميَّة هي الأراضي الممتدَّة من نهر الفُرات غرباً حتَّى نهر دجلة شرقاً، وأعالي الفُرات وروافده شهالاً، وهذه المنطقة جبلية في الشهال عموماً، تتخلَّلها سُهُول خصبة، وتعبرها طُرُق تجارية هامَّة جدَّاً، ونجد في رحابها تسميات عديدة، مثل: ديار ربيعة، وديار بكر، وديار مضر، نسبة إلى القبائل العَرَبيَّة التي سكنتها مُنْذُ القدّم.

<sup>1 -</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82.

<sup>2 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/453.

<sup>3 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201.

<sup>4 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العباد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 13/ 466، \_ قاطع الفُرات: الأراضي الواقعة شيال شرق الفُرات حتَّى نهر دجلة. ( ابن العديم، زُبْدَة الحَلَب، 2/ 548).

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/82.

أمَّا الفرنج، فبعد تحرير عهاد الدِّين لإمارة الرُّهَا؛ لم يعد لهم أيُّ تأثير يُذكر في السياسة الجزرية. ويبقى في الجنوب الشرقي أتابكة المَوصل، لكنَّهم لم يستطيعوا أن يتجمَّعوا ضمن البيت الواحد، ولا أن يتَّخذوا موقفاً مُوحَّداً دائهاً، بل على العكس، كانت خلافاتهم وحُرُوبهم وتنازعهم للسيطرة على المُدُن والقلاع تستهلك قواهم باستمرار.

ولكنَّ القُوَّتَيْن الدائمتَيْن الرئيستَيْن اللتَيْن ظهرتا على مسرح الصراع هُنا في هذا العصر هما قُوَّة سلاجقة الرُّوم والقوى الأيُّوبيَّة.

ومع أن بناء دولة سلاجقة الرُّوم كان يقوم - أساساً - على توجُّه جهادي ضدَّ بيزنطة المسيحيَّة، فقد كانت تلتفت نحو الجزيرة عندما تواجه صُعُوبات عسكريَّة على الجبهة البيزنطيَّة، لكنَّ الصراعات على السُّلطة داخل البيت السلجوقي، وابتداء الضعف في مفاصل الدولة، منع من أن يكون لهم دور حاسم في الجزيرة، عمَّ أتاح للأيُّوبيين الانفراد بالسيطرة شبه المطلقة فيها من أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين وحتَّى قُدُوم الغزو المغولي.

أمَّا القُوَّة الأَيُّوبيَّة؛ فقد وُجِدت ولها توجُّه مشابه تماماً لتوجُّه السلاجقة، فالدولة الأَيُّوبيَّة قامت على أساس الجهاد والتصدِّي للاحتلال الفرنجي، ولكنْ؛ لغلبة الهُدُوء على الجبهة الفرنجيَّة، بعد وفاة صلاح الدِّين، ولتشعُّب الأملاك الأَيُّوبيَّة في قلب الجزيرة، وأهمِّيَّة مواردها، وموقعها، فقد كان لها الدور الأكبر في التأثير على السياسة الأَيُّوبيَّة، والتأثُّر بمُجرياتها.

لذلك يُمكننا القول إن المناطق الجزرية كانت المعترك السِّياسي والعسكري الرئيس بين قوى المنطقة الكُبْرى والصُّغْرَى.

ومع أن هذه الجزيرة تبدو إقليهاً خاصًا، بكُلِّ ما فيها من مُقوِّمات، لكنَّها تلتصق بشدَّة بطرفَيْن: الشَّام من جهة، والعراق من جهة أُخرى، فهي رأس مُثلَّث، ضلعاه الشَّام والعراق، وقاعدته بوادي الشَّام والعراق، وهذا ما دفع البعض لتسمية المنطقة بكاملها بالهلال الخصيب.

كانت الجزيرة الشَّاميَّة تتمتَّع بثروات اقتصاديَّة، أتاحتها خُصُوبة أرضها، ووفرة أمطارها، وتوفُّر العديد من الموادِّ الخَامِّ فيها مع كثافة سُكَّانية عالية، إضافة لموقعها التِّجاري التُميِّر؛ حيثُ كانت مُعظم طُرُق التجارة الدّوليَّة تمرُّ فيها، كلُّ ذلك ساعد على نُمُوِّ أجهزة إدارية مُتطوِّرة لمالكها وإماراتها (1).

ورُبَّما لا نكون مغالين إذا قلنا إنَّه خالباً، بعد حسم المصراع بين أفراد البيت الأيُّوبي على دمشق - تكون الأطراف هي السبب الأكبر لخلافاتهم، فالعلاقات الأيُّوبيَّة تمحورت لفترات طويلة حول مُدُن الجزيرة والشمال الشَّامي.

فشهال الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة كانا يُشكِّلان فُسيفساء من المهالك والإمارات والمُدُن المُستقلَّة، بل وحتَّى القلاع المُستقلَّة.

ولعبت في تشكيل تلك المنظومة الفسيفسائية العجيبة الطبيعة الجبلية لتلك المنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي عسكريًّا واقتصادياً، وكونها من أهم عمرًّات التجارة بين الشَّرُق والغَرْب، وتنوُّع سُكَّانها العجيب ما بين مُسلمين ومسيحيين، منهم العرَب، والمستعربون، والسريان، والفُرْس، والأتراك، والأكراد، وغيرهم، إضافة إلى عامل سياسي آخر هُو وُقُوع هذه المناطق بين عدَّة قوى سياسيَّة وعسكريَّة كُبْرى، فالأيُّوبيون في الشَّام، ولهم عُتلكات هامَّة في الجزيرة، وهم يتطلَّعون للسِّ سُلطتهم نحو عملكة سلاجقة الرُّوم في آسيا الصَّغْرى. وسلاجقة الرُّوم وهم يمدُّون أنظارهم وأيضاً ونحو الجزيرة، ورُبَّها عبرها نحو الشَّام، ولم يكن تدخُّل سلاجقة الرُّوم في الجزيرة دفاعياً فقط، لَخَعْلها حاجزاً ضدَّ الخطر الأيُوبي، بل هُجُومياً لضمِّها إلى دولتهم، والتحرُّك منها نحو الشَّام. كذلك وُجدَتُ عملكة أرمينيا الصُّغْرَى على مقربة منها، وإنْ كان توجُّهها الأساسي صوب الإمارة الفرنجيَّة في أنطاكية.

<sup>1 -</sup> الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 12.

من مضافات حلب، وعندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين كانت السِيرة بيـد ابنـه الزاهـر داود، فـأقرَّه عليهـا أخوه الشقيق الظَّاهر غازي صاحب حلب(2)، وفي عام 632 هـ 1235م، اشتدَّ مرض الزاهر، فاستدعى ابن أخيه العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، وسلَّمه البيرة، ولَّا تُوفِّي، قام العزيز بترتيب أحوالها(3).

بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقَّة، تبعد عن الضفَّة الغَرْبيَّة للفرات حوالي أربعة أميال (4). وكانت بالس تتبع لمملكة نُور الدِّين بن زنكي، وقد أقطعها لغلامه حيدر، وملـك البلـد بعـد وفـات حيدر أولاده، إلى أن أخذها منهم الظَّاهر غازي بعد ملكه حلب (5)، ثُمَّ أخذها منه عمُّه العادل بعد سيطرته على دمشق ومصر، فَأَقْطَعَهَا إلى ابنه الملك الحافظ أرسلان شاه مضافة لقلعة جعبر، وعندما خاف الملك الحافظ تآمر أبنائه وعلاقتهم المُريبة بالحَوَارزميَّة، راسل أُخته ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل القائمة بأُمُور حلب نيابة عن حفيدها الملك النَّاصر صلاح الدِّين النَّاني، وعرض عليها تسليمها جعبر وبالس مُقابل إعزاز، فوافقت، وتمَّت المبادلة عام 638 هـ 1241م، وبقيت بالس ضمن مملكة النَّاصر صاحب حلب، حتى استولى عليها المغول، فتفرّق أهلها في البلاد(6).

بَهَسْنَا: بفتحتَيْن وسُكُون السِّين ونُون وألف، قلعة حصينة عجيبة من أعمال حلب، وهي بالقُرب من مرعش وسُمَيساط (7)، وتقع بفم الدربند، ولها ضياع كثيرة.

وكانت ضمن مملكة النَّاصر يُوسُف الثَّاني، حتَّى استولى هُولاكُو على حلب، فباعها مُتولِّيها سيف الدِّين العقرب إلى ملك الأرمن صاحب سيس (8). وهي - اليوم - ضمن الأراضي التُّركيَّة شيال غرب عينتاب<sup>(9)</sup>.

خِلاط: بكسر أوله، البلد العامرة المشهورة (1)، وكان يُقال لها أخلاط، ولكنن ؛ بلغة العصر الأَيُّوبِي كان اسمها المُتداول هُو خِلاط. وهي على الحُدُود ما بين بلاد المُسلمين والأرمن، ويتكلُّم أهلها ثلاث لغات: العَرَبيَّة والفارسية والأرمنية، ويعتقد بعضهم أنَّها سُمِّيَتْ خِلاط لاختلاط اللُّغات بها(2)، وسيرد الحديث بالتفصيل عنها في فقرة قادمة.

سُمَيساط: أولُّه ضمٌّ، وفَتْح ثانيه، بلدة في أعالي الشَّام من طرف بلاد الرُّوم شرقي جبل اللكام، تقع على الشاطئ الغربي للفرات، وهُو من عندها يحمل السُّفُن والأطواف إلى بغداد (3). دخلت في مُلك صلاح الدِّين عندما أرسى قواعد حُكْمه في الجزيرة، ثُمَّ أقطعها لأخيه العادل قبيل وفاته، ولَّا أخذ العادلُ دمشقَ من ابن أخيه الأفضل على أقطعه سُمَيساط، وهي البلدة الوحيدة التي بقيت معه حتَّى مات عام 622 هـ 1225م(4)، فاختلف أولاده مع عمِّهم(5)، ثُمَّ استتبَّ الأمر بينهم على تولية المُؤيَّد ناصر الدِّين مُحمَّد بن الأفضل، وأن يكون مُدبِّر دولته عمّه المُفضّل قُطب الـدّين مُوسى. وفي سنة 632 هـ 1235م، أخذ الملك العادل منهما شُمَيساط.

وبعد تراجع الكامل عن الجزيرة وتحكُّم الحَوَارزميَّة فيها، استولى علاء الدِّين كَيْقُبَاذ على شُمَيساط مع ما حولها، وظلَّت ضمن سلطنة سلاجقة الرُّوم، حتَّى استولى عليها التَّتَار عام 658 هـ

البيرة، أوجسر البيرة: هي بلدة عندها جسر لعُبُور الفُرات(7)، قُرب سُمَيساط، وبها قلعة حصينة (1). كان صاحبها شهاب الدِّين بن أرتق، ثُمَّ سلَّمها إلى السُّلطان صلاح الدِّين، فأصبحت البيرة

<sup>1 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: البيرة.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 156، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 267، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 2/ 258.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/88.

<sup>4 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: بالس.

<sup>5 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 1/2/2/ .

<sup>6 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 1/2/23.

<sup>7 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموى، مادّة: بَهَسْنا.

<sup>8 -</sup> تاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 8/ 155.

<sup>9-</sup>راجع حول بَهَسْنا: صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 121، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.

<sup>1 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خِلاط.

<sup>2 -</sup> سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الخشَّاب، 40، ـ وكانت خِلاط من أعظم المالك، وذكر أنَّها تُقارب الديار المصريَّة في المنزلة، وأنَّها تشمل على نحو سبعين بلداً ( مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176)، ولـذلك كانـت تُـسمَّى المملكة الخلاطية ( راجع نقش قلعة دمشق في ملاحق هذا الكتاب ).

<sup>3-</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سُمَيساط، وتقويم البُلدان، أبو الفداء، 267، والمسالك والمالك، ابن خُرْدَاذْبَه، 174، وبغية الطلب، ابن العديم، 1/ 634، وآثار البلاد، القزويني، 494.

<sup>4 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/2/197.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 429.

<sup>6 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/2/191.

<sup>7 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 548.

# المبحث الثّاني مرحلة التأسيس الأيوّبي صلاح الدِّين يدخل الجزيرة:

كان صاحب قلعة البيرة (1) شهاب الدِّين الأرتقي (2)، في طاعة عز ّ الدِّين مسعود صاحب المُوصل، وفي عام 577 هـ 1181م، مات شهاب الدِّين، ومَلَكَ القلعة ابنُهُ، فطلب ابن عمَّه الإذنَ من صاحب المُوصل بحصر البيرة، وأُخْذها، فوافق، فاستنجد صاحبُ البيرة بالسُّلطان صلاح الدِّين، وعرض عليه أن يكون في خدمته (3).

وفي عام 578 هـ 1182م، طلب مُظفَّرُ الدِّين كوكبوري (4) من السُّلطان صلاح الدِّين أن يعبر الفُرات إليه، فاجتمع به عند البيرة، وراسل صلاحُ الدِّين مُلُوكَ الجزيرة، فأجابه نُور الدِّين مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا على أن يفتح آمد، ويُسلِّمها له. وكان أوَّل بلد حصره صلاح الدِّين وحُلفاؤه في الجزيرة هُو الرُّهَا، التي سلَّمها صاحبها فخر الدِّين مسعود الزعفراني بالأمان، فأعطاها صلاح الدِّين إلى مُظفَّر الدِّين كوكبوري مع حَرَّان (5). ثُمَّ سار إلى الرقَّة، فتركها فطب الدِّين ينال بن حسان المنبجي، فأخذها صلاح الدِّين، وسار منها إلى الخابور (6)، فأخذه مع قرقيسيا وماكسين وعرابان (7)، وسار إلى صفيِّن، فملكها (8). وفي العام نفسه 578 هـ 1182م، قرقيسيا وماكسين وعرابان (7)، وسار إلى صفيِّن، فملكها (8). وفي العام نفسه 578 هـ 1182م،

قلعة نجم: تقوم على ضفَّة الفُرات اليمنى، تُحيط بها وديان عميقة، وتبعد عن منبج 32 كم نحو الشيال الشرقي (1). عندها جسر يُعبَر عليه يُعرَف بجسر منبج، عمَّرها نجم غلام جني الصفواني مولى ابن صفوان العقيلي (2)، وهي قلعة حصينة توالى عليها عدَّة حُكَّام، حتَّى أخذها السُّلطان صلاح الدِّين، واستقرَّت بعده بيد ابنه الظَّاهر غازي، الذي ولَّى عليها عتيقه بدر الدِّين إيدمر، فأعاد إعارها عام 613 هـ 1216م، ثُمَّ استردَّها منه الملك العزيز بن الظَّاهر، وكانت بيد الملك النَّاصر النَّاني عندما استولى عليها التَّار (3).

تلّ باشر: قلعة حصينة وكُورة واسعة شهال حلب بينها وبين حلب يومان  $^{(4)}$ . بعد أن تسلّمها السُّلطان صلاح الدِّين أَقْطَعَهَا إلى الأمير بدر الدِّين دلدرم بن ياروق، ولمَّا تُوفِّي تولاها من بعده ابنه، ولمَّا خرج عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى الجزيرة انتزعها من يد ابن دلدرم، ولكن ؛ بعد هزيمته، استردَّها الأشرف، وسلَّمها لمُدبِّر مملكة حلب طَغْريل  $^{(5)}$ ، وبقيت تلّ باشر وقلعتها بيد الأتابك طَغْريل، حتَّى أخذها منه الملك العزيز غصباً عام 629 هـ 1232م  $^{(6)}$ .

مَيَّافارقين: بِفَتْح أوَّله، وتشديد ثانيه، أشهر مدينة في ديبار بكر<sup>(7)</sup>. تسلَّمها صلاح الدِّين خلال توسُّعه في الجزيرة عام 587 هـ 1191م، وقبيل وفاته أَقْطَعَهَا مع بُلدان الجزيرة إلى أخيه العادل. وفي عام 598 هـ 1202م، أعطى العادل مَيَّافارقين لابنه الأوحد نجم الدِّين أَيُّوب، وضمَّ اليها خِلاط سنة 604 هـ 1212م، فضمَّ أخوه الأشرفُ خِلاط إلى بلاده (8)، وأُضيفَتْ مَيَّافارقين إلى أخيه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي (9).

215

<sup>1 -</sup> البيرة: قلعة مُطلَّة على الفُرات، راجع ما سيأتي عنها في هذا المبحث.

<sup>2 -</sup> هُو ابن عمِّ قُطب الدِّين إيلغازي بن إلبي بن تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 475 \_ 476.

<sup>4 -</sup> ابن زين الدِّين علي بن بكتكين، مُقطَع حَرَّان من قبَل الأتابك عزَّ الدِّين.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 482.

<sup>6-</sup> الخابور: رافد كبير لنهر الفُرات، والمقصود هُنا الأراضي الواقعة على ضفاف الخابور، ويبدو من رسالة للقاضي الفاضل أنَّا بلاد وافرة الخصب، فيعدها مزرعة الموصل، ومصدر تموينها؛ إذْ يقول: "وبلاد الخابور وهي مُستغلات الموصل" ( رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167).
7-رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167.

<sup>8 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 484.

<sup>1 -</sup> المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، إشراف: العهاد مُصطفى طلاس، مادَّة: قلعة نجم.

<sup>2 -</sup> التنبيه والأشر اف، القلقشندي، 331.

<sup>3 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 473 .

<sup>4 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تل باشر

<sup>5 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 9.

<sup>6 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف،250.

<sup>7 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الجموي، مادَّة: مَيَّافارقين.

<sup>8 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/453 ـ 455.

<sup>9 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

الحاجة. وكان تقي الدِّين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي السُّلطان صلاح الدِّين، أوَّل مَنْ أقطع في الجزيرة، فقد أعطاه عمّه مَيَّافارقين، ثُمَّ أقطعه حَرَّان والرُّهَا، إضافة لما كان معه في الشَّام.

فسار إليها تقي الدِّين بجنده من على حصار عكاً، ولمَّا وصل مَيَّا فارقين طمع فيها حولها، فاستولى على حاني في ديار بكر، واصطدم بسيف الدِّين بكتمر صاحب خِلاط، فهزمه، وفي هذا الوقت الحرج غدر الفرنج بالمُسلمين، ودخلوا عكاً، "ونسب السُّلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره إلى الملك المُظفَّر تقي الدِّين"؛ حيثُ سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بخلاط، وغيرها (1)، وربَّا كان يُفكِّر في التوسُّع أكثر، لكنَّه أثناء حصاره لملاذ كُرد تُوفِّي فجأة، فحمله ابنه ناصر الدِّين مُحمَّد للى مَيَّافارقين، ودفنه فيها (2)، واستولى على ما كان لوالده في الجزيرة، وراسل ناصر الدِّين مُحمَّد السُّلطان صلاح الدِّين طالباً إقراره مكان والده، فلم يرَ السُّلطان في ذلك مصلحة؛ خُطُورة البلاد، وحداثة سنَّ طالبها، كما لم يرغب بتسليم بلاد الجزيرة، التي هي عمقه الاستراتيجي، إلى صبي غرِّ، فتمرَّد ناصر الدِّين على السُّلطان ابنه الأفضل لرَدْعه، فتمرَّد ناصر الدِّين على السُّلطان ابنه الأفضل لرَدْعه، وهُنا؛ تدخَّل العادل أخو صلاح الدِّين ليقطع الطريق على الأفضل، وطلب إقطاع الجزيرة من صلاح وهُنا؛ تدخَّل العادل أخو صلاح الدِّين ليقطع علاح الدِّين البلاد الجزرية إلى أبية السُّلطان أبيه المربابقاء وهي حرَّان والرُّها وسُميساط ومَيَّافارقين وحاني، وسَيَّرهُ إلى ابن تقي الدِّين ليتسلَّم منه البلاد عام وهي حرَّان والرُّها وسُميساط ومَيَّافارقين وحاني، وسَيَّرهُ إلى ابن تقي الدِّين ليتسلَّم منه البلاد عام بيد تقي الدِّين، وطلب فوقها قلعة جعبر، وكانت مع الظَّهر بحلب، فاخذها (6).

وفي عام 579 هـ 1283م، حاصر صلاحُ الدِّين آمدَ، وأخذها من حاكمها بهاء الدِّين بن نيسان، وسلَّمها إلى نُور الدِّين بن قرا أرسلان (2) حسب وعده. ولمَّا تُوفِّي نُور الدِّين عام 581 هـ 1185 أقرَّ صلاح الدِّين ولده سقهان عليها، ولقَّبه قُطب الدِّين، وكان عهاد الدِّين أخو نُور الدِّين يقود عسكر آمد في خدمة صلاح الدِّين، فأراد أَخْذَ آمد، فلمَّا فاتته، أخذ حصنَ خرتبرت (3). وتسلَّم صلاح الدِّين مَيَّا فارقين بالأمان في العام نفسه 581 هـ 1185م، وفي عام 586 هـ 1190م، تُوفِّي زين الدِّين يُوسُف صاحب إربل، وسُرَّ أخوه مُظفَّر الدِّين بوفاته، وقدَّم خسين ألف دينار إلى السُّلطان صلاح الدِّين حتَّى أخذ إربل، ونزل عن حَرَّان والرُّهَا وسُمَيساط (5).

# تقي الدِّين في الجزيرة:

كانت حلب أكبر المالك الأثبوبيّة في شمال الشّام، ومركز الثقل الأثبوبي، وهي التي تُوازن بقواها وبنُفُوذها السَّياسي مملكة المَوصل الأتابكية في شمال العراق. ولقد أدرك صلاح الدِّين أهمِّيَّة حلب عندما ولَّى عليها ابنه الظَّاهر غازي. وكانت مملكة حلب تضمُّ - أوَّل الأمر -: إعزاز ومنبج، وعدد من البلدات الأصغر والقُرى الزراعية الخصبة. وفي الشمال الشرقي من حلب تقع بلاد الجزيرة الشَّاميَّة.

في عام 587 هـ 1191م، بعد أن استردَّ صلاح الدِّين البلاد الجزرية، من مُظفَّر الدِّين كوكبري، وأَقْطَعَهَا إلى ابن أخيه تقي الدِّين إضافة إلى إقطاعه، وكان يقطع هذه المالك، على العادة الجارية، لقُوَّاده ولأهل بيته، لتتحوَّل هذه الإقطاعات إلى عدد من الجُنُود يخدمون تحت السلاح وقت

<sup>1 -</sup> التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، 522.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 62.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/82، والفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة المشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/466.

<sup>4 -</sup>الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 3.

<sup>5-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82/ 83/ 11، والفَتْح القِسِّي، العاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 11/ 466.

<sup>6 -</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 83.

<sup>7 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466.

<sup>1 -</sup>سنجار: بكسر السين وتسكين النون، وهي تعريب سنكار. ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سنجار )، وهي بلدة تقع \_ الآن \_ في العراق، وهي على جبل بحمل الاسم نفسه، وتمتدُّ شُفُوحه حتَّى تدخل الحُــدُود السُّوريَّة، وسنكار اسم فارسي، أصله من مقطعَيْن سنك: الحجر وخارا: الصلد، خُفُّف إلى سنكار.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 493.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 514.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 515.

<sup>5 -</sup> التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، 521.

# الأحلاف السيّاسيّة والتحرُّكات العسكريّة في الجزيرة بعد وفاة صلاح الدِّين:

بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين انتقض الأُمراء والمُلُوك المُعاهدين على خلفائه، وكان أوَّهم بكتمر صاحب خِلاط، ثُمَّ أيَّده صاحب ماردين، وراسلوا أتابكة المُوصل وسنجار، وتحالفوا، وأصبحت المناطق الأيُّوبيَّة مهدَّدة من السمال ومن السَّرْق، وتحرَّكت الجُيُوش صوبها، وأرسلوا للعادل: "أن اخرُجْ من بلادنا". وباتت السيطرة الأيُّوبيَّة في الجزيرة مهدَّدة تماماً، وكان امتحاناً مُبكِّراً يتعرَّض له العادل، بل الدولة الأيُّوبيَّة بكاملها بعد موت مُؤسِّسها. لكنَّ الإرادة الإلهية أوَّلاً، وعزيمة العادل، والتفاف الأيُّوبيَّة حوله ثانياً، حوَّلا كُلَّ ذلك إلى نصر كبير للأيُّوبية، وتأكيد على إحكام

# قبضتها في الجزيرة. في مُعسكر الحُلفاء:

1 - كانت الضربة الأُولى التي وُجِّهَتْ للخُلفاء هي مقتل بكتمر صاحب خِلاط؛ إذْ اغتالته الباطنية وهُو في أوج تنمُّره وشماتته بموت صلاح الدِّين، فقد ظهر بـشعار الـسَّلطنة، وتلقَّب بالملـك النَّاصر، وراسل الأُمراء والمُلُوك، وعندما بدا وكأن السعد يجاريه، سقط بخناجر الباطنية، لتنهار دعامة قويَّة من الحلف المناوئ للأيُّوبية (1).

2\_تردّد عزّ الدِّين مسعود صاحب الموصل، وتلكَّا في التحرُّك العسكري ضدَّ الأيُّوبيّة لاحتلال بلادهم الجزرية، وعندما تحرَّك في الجيش داهمه المرض، فعاد محمولاً في محفَّة إلى المَوصل، وتبعه جيش التحالف الأتابكي بدُون أن يُحرز أيَّ نتيجة.

3\_ وجد صاحب ماردين نفسه وحيداً في الميدان، "نتضرّع، وتذرّع، وتشفّع، حتّى عفا عنه" العادل.

4 \_ تحرَّك العادل بسرعة " فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم، فأنجدوه"، وتحرَّكت الفرق الأَيُّوبيَّة نحو الجزيرة من كُلِّ مكان، وأوَّلها وأقربها نجدة حلب، ثُمَّ حمص وبعلبك ودمشق.

ولم يعد هذا التجمُّع الأيُّوبي بلا مكسب، فقد استغلَّ العادل تجمُّع النجدات، وتراجع الأتابكة، فأمر ابنه الظافر بقيادة الجُند، واحتلال مدينة سروج، وكانت لعماد الدِّين، فاحتلُّها، ثُمَّ احتلَّ الرقَّة، واستولى على بلاد الخابور<sup>(2)</sup>.

# الملك العادل يُوطد الدكم الأيُّوبي

تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، فخرج صاحب المَوصل عـزّ الـدِّين ومعـه حُلفاؤه، ونزل دنيسر السترجاع بلاد الجزيرة، فالأتابك يعدُّون البلاد إرثاً شرعياً لهم من نُور اللِّين، غصبهم إيَّاها صلاح الدِّين، فأسرع العادلُ، ونزل حَرَّان، واستنجد بعساكر ابنِّي أخيه الظَّاهر صاحب حلب، والأفضل صاحب دمشق، فأنجدوه، ولكن الحلف الأتابكي تفكَّك بمرض عنزّ الدِّين، فاغتنم العادلُ الفُرصة، واحتلَّ سروج، ونزل إلى الرقَّة، فولَّى عليها ابن أخيه الظافر (1). وفي عام 596 هـ 1200م، تمكّن العادل من أخذ دمشق من ابن أخيه الأفضل، وأعطاه بدلاً عنها مَيَّافارقين وسُمَيساط وسروج (2)، ومعها رأس عين وجملين وقلعة نجم (3). وفي عام 608 هـ 1211م، أعطى العادلُ إلى ولده المُظفَّر غازي الرُّهَا مع مَيَّافارقين (4).

### آ. إقطاع الملك العادل في الجزيرة:

كان للعادل إقطاع مُعظم أراضي دولة صلاح الدِّين في الجزيرة؛ حيثُ كان يحكمها نيابة عن أخيه، وبعد وفاته استقلَّ بها، وظلَّت هذه البلاد بتصرُّف نُوَّابه حتَّى عام 598 هــ 1202م، عندما استقرَّ له سُلطان البلاد، واستولى على حُكْم مصر ودمشق، قام بتوزيع بـلاده بـين أولاده: فالكامـل في مصر، والمُعظَّم في دمشق، وأمَّا ولايات الجزيرة؛ فقد وزعها كما يلي:

. الأشرف مُوسى: وعيَّن له حَرَّان والرُّهَا وسروج، وكلّ ما له في الشَّرْق، ما عدا مَيَّافارقين،

. الأوحد نجم الدِّين أيُّوب: اختصه بمَيَّافارتين (5)، نيابة عن والده.

. الحافظ أرسلان شاه: جعل له قلعة جعبر، وبلدة بالس، نيابة عن والده (6).

<sup>1 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 436. 2 - الفَتْح القِسِِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 436.

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 444.

<sup>3 -</sup> روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 452.

<sup>4 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 114.

<sup>5 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/2/453.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.

# المبحث الرَّابع

القوى السيّاسيّة في الجزيرة الشّاميّة مُشكلة أخلاط<sup>(1)</sup>:

لم يتمكّن صلاح الدّين من ضمّ أخلاط إلى مملكته (2)، فقد كانت تحت حُكْم سيف الدّين بكتمر، الذي استولى على السُّلطة بها بعد موت مولاه شاهر من \_ شاه أرمن \_ بن سكهان ملك أخلاط، واستطاع بكتمر حفظ مملكته من توسُّع السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة، وعرف نواياه تجاه خِلاط، لذلك حقد عليه، وعند وفاة السُّلطان أظهر الابتهاج، وتلقّب بالملك النَّاصر، وهُ و لقب صلاح الدِّين أن وتحالف مع أتابك المُوصل، ويُقال إن بكتمر هُو مَنْ شكَّل الحلف ضدَّ الأيُّوبيَّة، ولكنَّ قتله المُفاجىء عام 589 هـ 1193م، بعد شهرَيْن من وفاة صلاح الدِّين بأيدي الإسهاعيليَّة، أنهى كُلَّ خطر كان يُشكِّله بكتمر على الأيُّوبييِّن (4). وهذا الاغتيال السِّياسي الأوَّل الذي نفَّذه الإسهاعيليَّة بعد وفاة صلاح الدِّين، تأكيداً لتمسُّكهم بالتحالف مع خلفائه، قد وفَر على الأيُّوبيَّة الكثير من المتاعب، وفكَ فعليًا \_ تحالف مُلُوكُ الأطراف ضدهم، بعد قتل المحرِّك والمُدبِّر والأشدّ حقداً عليهم.

فملك خِلاط بعده مملوكه آق سنقر ولقبه هزار ديناري، وتسمَّى: الملك بدر الدِّين، لكنَّه لم يعش طويلاً بعدها، فقد تُوفِّي عام 595 هـ، فولَّى الأُمراء مُحمَّد ابن صاحب خِلاط السَّابق بكتمر، وكان شابًا فاسداً (5) جاهلاً، قتل أتابكه شجاع الدِّين قتلغ، الذي كان حَسَنَ السيرة مع الجُند والرعية، واشتغل هُو باللهو والشراب، فانتقض عليه الناس، وملَّكوا سيف الدِّين بلبان، وكان مملوكاً لشاه أرمن، وتسلَّم خِلاط (6)، فكتب جماعة ابن بكتمر للملك الأوحد ابن العادل صاحب مَيَّافارقين

وتبلور الوضع السِّياسي بعد هذا الاختبار للدولة الآيُّوبيَّة، بتأكيد سلطنة العادل على كامل أراضي الجزيرة، كما تأكّدت على الشَّام. فمُلُوك الجزيرة وأُمراؤها، إمَّا يتبعون مُباشرة لـوُلاة العادل، أو مُحالفون له، خاضعون، يخطبون له على منابرهم، ويسكُّون اسمه على نقودهم.

#### موقف حلب:

في عام 594 هـ 1198م، أنجد الظّاهر عمَّه العادلَ في هُجُومه على ماردين، ولمَّا وقع الخلافُ بينه وبين عمِّه، إثر وفاة العزيز، وتحرَّك الظَّاهر مع أخيه الأفضل لأَخْذ دمشق، دعم الظَّاهر تحالفَ أتابكة سنجار والمَوصل، فهزموا جيشَ العادل، وأجلوه عن ماردين (1). وبعد فشل خُطَّة الظَّاهر بأَخْذ دمشق من عمِّه العادل راسلَ حُسامَ الدِّين يولق صاحب ماردين، وحاول تأليف حلف معه ومع أُمراء الجزيرة، بمَنْ فيهم أخوه الأفضل. وعندما عاد العادل للهُجُوم على ماردين عام 599 هـ 1202م، تدخَّل الظَّاهر، إنَّا هذه المرَّة بوساطة سلمية، كانت لمصلحة كُلِّ الأطراف.

فقد سار الأشرف نائب والده العادل في حَرَّان إلى ماردين، وحاصرها عام 599 هـ، فأدرك صاحبها أنَّه سيكون الخاسر الأكبر باعتباده على حلف مُتفكِّك أصلاً، لا يجمعه إلَّا المصلحة، وتُفرِّقه المصلحة، فأرسل للظاهر صاحب حلب، الذي وافق على السعي بالصَّلح، ووافق العادل على الصَّلح مُقابل مائة وخسين ألف دينار، وأن تُقام له الخُطبة والسّكَّة في ماردين (2). إن مُوافقة العادل تدلُّ على عدم تأكُّده من النجاح العسكري، فقد فشل ابنه الأشرف بتحقيق نصر عسكري تجاه ماردين (3) وربَّا لا العادل ولا الأشرف كانا يتوقّعان نصراً عسكرياً ضدَّ بلدة محصنة كهاردين، وقلعتها الشهيرة (4). وبالمُقابل؛ ضمن العادل حُصُوله على 150 ألف دينار نقداً، والخطبة والسّكَة في ماردين، مع نجدة عساكرها له عند الطلب. وحصل الظاهر على عمولة هي 20 ألف دينار، وإقطاع قرية القرادي (5) من صاحب ماردين (6).

 <sup>1 -</sup> يُفشِّر ناصر خسرو سبب تسميتها، فيقول: هي بين بلاد المُسلمين والأرمـن، ويتكلَّمـون بهـا ثـلاث لغـات: "المَربيَّـة، والفارسية، والأرمنية، وأظنُّ أنَّها سُمِّيتُ أخلاط لهذا السبب". ( سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب د. يحيى الخشَّاب، 39 ).

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 255.

<sup>3-</sup>الفَيْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 13/ 436.

<sup>4 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 13/ 436.

<sup>5 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 14 / 84.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 253.

<sup>1 -</sup> عقد الجمان 1/ 2/ 228، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 62، والعبر، ابن خلدون، 5/ 588. 2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103.

<sup>3 -</sup> مملكة حلب، كمال بدور، 149.

<sup>4-</sup>راجعْ: الإمارات الأرتقية، عهاد الدِّين خليل، 164.

<sup>5-</sup>القرادي: قرية من أعمال شبختان ( الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 179 ).

 <sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 213، والمنصوري، ابن نظيف، 38، - بينها يقول المقريزي بأنَّ المبلغ هُو: عشرة آلاف فقط، ( السُّلُوك، 1/ 161).

يستدعونه إلى خِلاط، فسار إليها<sup>(1)</sup>، وكان قد طلب النجدة من أبيه العادل، فأرسل له جيشاً كبيراً (2)، تمكن بواسطته الأوحد من هزيمة بلبان (3). لكنَّ بلبان استنجد بمغيث الدِّين طغرل شاه بن قلب أرسلان السلجوقي (4)، صاحب أرزن الرُّوم (5)، فسار إليه بنفسه ومعه العَسْكَر، فهزموا الأوحد (6)، فعاد إلى مَيَّافارقين. وطمع طغرل شاه بأخلاط، وغدر ببلبان، فقتله؛ ليملك خِلاط، لكنَّ أهلها لم

وتخوّف أصحاب اللّذن المُجاورة من قُوّة الأوحد، التي تُعدُّ امتداداً لقُوّة والده العادل وأخيه الأشرف، وهي أكبر القوى العسكريَّة والسِّياسيَّة في الجزيرة، فحاولوا النيل منه، ولكنَّ دَعْمَ أخيه الأشرف جعلهم يتراجعون (8)، واستفاد الأوحد من وُجُود قُوّات أخيه الأشرف، فهاجم قلعة أوان، وهي للكرج، فملكها (9)، فخاف مُلُوك المُدُن المُجاورة، واتَّفقوا على ترك طاعة العادل، وأعلنوا طاعة خسرو شاه بن قلج أرسلان سُلطان سلاجقة الرُّوم، وخطبوا له، وراسلوا الكرج يُحرِّضونهم ضدَّ الأوحد (10)، فتحرَّك ملك الكرج عام 607 هـ 1210م، إلى خِلاط، وحاصرها بقُوَّاته، وفي إحدى المُجات لجيش الكرج على أبواب خِلاط سقط ملكهم عن جواده، فأسرع المُدافعون عن الباب، وأسروا الملك، واقتادوه إلى الأوحد، الذي فاوضه على إطلاق سراحه مُقابل عدَّة شُرُوط، منها: وأسروا الملك، واقتادوه إلى الأوحد، الذي فاوضه على إطلاق سراحه مُقابل عدَّة شُرُوط، منها: تسليم بعض القلاع، وإطلاق خسة آلاف أسبر مُسلم، ودفع مائة ألف دينار، وتزويج ابنة ملك

يُسلِّموها له، وقاوموه، فعاد إلى بلاده. واستدعوا الملك الأوحد، وسلَّموه المدينة سنة 604 هـ(7).

الكرج للملك الأوحد، وإقامة هُدنة بينها مُدَّتها ثلاث سنوات<sup>(1)</sup>، فتخاذل مُلُوك المُدُن المُجاورة لِخلاط المُتحالفين ضدَّ الأوحد وأبيه العادل، وقصدوا العادل وهُو في حَرَّان، واعتذروا إليه، وعادوا إلى طاعته<sup>(2)</sup>.

وبعد مرض عُضال تُوفِّي الملك الأوحد نجم الدِّين أيُّوب بن العادل في مدينة ملاذ كُرد، ودُفن بها (3) سنة 605 هـ 1208م (4) نتسلَّمها أخوه الملك الأشرف صاحب الجزيرة، واستقرَّت في ملكه (5) وأُضيفَتْ مَيَّا فارقين إلى المُظفَّر شهاب الدِّين غازي (6) ، فعظم شأن الأشرف بمُلكه خِلاط، وهي قصبة أرمينيا (7) ، فعظم أمره، وتلقَّب شاهرمن (8) بعد أن ملكها. وفي عام 617 هـ 1220م، وقبيل توجُّه الأشرف من الجزيرة إلى مصر لنجدة أخيه الكامل ضدَّ الفرنج الدِين قيصدوا دمياط، وأخطع الأشرف أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي خِلاط ومعها كُلِّ أعمال أرمينية ومَيَّا فارقين وحاني، وأخذ منه الرُّهَا وسروج، ولمَّا قصدتُهُ رُسُلُ الكرج يطلبون التحالف معه ضدَّ المغول، أحالهم إلى المُظفَّر غازي (9).

وبعد عودة الأشرف من دمياط انقلبت موازين التحالفات الأيُّوبيَّة؛ حيثُ اتَّفق الأشرف مع الكامل ضدَّ المُعظَّم، فأرسل المُعظَّم للمُظفَّر غازي يستميله ضدَّ الأشرف، فهال معه، وخلع طاعة

<sup>1-</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 274، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113.

<sup>2 -</sup> ذيل المُختصر، ابن الوردي 2/ 127، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 75.

<sup>3 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 455، \_ الأوحد هُو: أيُّوب بن أبي بكر العادل بن أيُّوب لقبه نجم الدِّين، تُوفِّ في ملاذ كُرد، ودُفن بها. ( ذَيُل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81 )، وهُو صاحب مَيَّافارقين إقطاعاً من والده، واستولى على خِلاط بدعوة من أهلها. ( مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175 ).

<sup>4-</sup>انقسم المُؤرِّخون حول تحديد سنة وفاة الأوحد أيُّوب بن العادل، فهي في عام 609 هـ لـدى أبي شامة، ذَيْـل الرَّوضَيِّن، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار،20 / 158، والحنبلي، شفاء القُّلُوب، 275، وهي في عام 607 هـ لدى ابن نظيف، المنصُوري، 650، وأبي الفداء، المُختصر، 3 ـ 113، وابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3 ـ 208.

<sup>5 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،، 14/84، والكامل في التاريخ، 12/253، وذَيَل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/158.

<sup>6 -</sup>مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208. 7 -ثُجِفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 124، راجعْ أيضاً: سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الحشَّاب، 39.

<sup>8 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 113، \_شاهرمن: أو شاه أرمن؛ أيْ ملك الأرمن نسبة لعدد الأرمن الكبير في خِلاط. 9 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 399.

<sup>1 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/84، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 255، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، ومن عقد الجهان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، أحداث عام 995 هـ، 59/ 17.

<sup>2 -</sup>روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 459.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 21/ 272.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، أبن واصل، 3/ 176.

<sup>5-</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/88.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. شهيل زَكَّار، 5/ 459، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، 14/ 84، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، وروايات ابن العبري، ابن العبري، 5/ 459.

<sup>9 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 274.

<sup>10 -</sup> ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 127، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 75.

المبحث الأوّل

الملك الأفضل في الجزيرة

كان الأفضلُ أكبرَ أولاد صلاح الدِّين، ووَلِيَّ عهده، وبعد وفاة والده كوَّن مملكة دمشق، التسي كانت إقطاعاً له في حياة والده السُّلطان، وهي تمتدُّ من حُدُود حمص شهالاً إلى حُدُود العريش جنوبــاً، يفصلها عن بعض السواحل المناطق المحتلَّة من قبَل الفرنج.

وفي عام 592 هـ 1196م، تمكَّن الملك العادل من إخراج ابن أخيه الأفضل من دمشق إلى صرخد(1)، وبعد موت العزيز ابن صلاح اللِّين صاحب مصر تمكَّن الأفضل من الوُّصُول إلى حُكْم مصر عام 595 هـ 1199م، لكنْ؛ نتيجة التحاسد بين الأخوة أبناء صلاح الدِّين، وشخصية الأفضل غير القيادية (2)، فقد طُرد الأفضل من مصر عام 596 هـ 1200م، وعاد إلى صرخد، ثُمَّ خسرها \_ أيضاً \_ بعد مُغامرته الْفاشلة لأَخْـ ذ دمشق عام 597 هـ 1201م. وأثناء حصار الأفضل وأخيه الظَّاهر للعادل بدمشق، راسل العادلُ الأفضلَ، ووعده بالبلاد الشَّرْقيَّة، فانسحب من الحصار، وعمل على تفشيله، وسلَّمه العادل مَيَّافارقين (3) وسُمَيساط وسروج (4)

1 -صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولايـة حـسنة واسـعة. (مُعجـم البُلـدان، ياقوت الحموي، مادَّةِ: صرخد)، ويُقال لها - الآن - صلخد، وهي مدينة في جبل العَرَب، تتبع مُحافظة السويداء السُّوريَّة. ( المُعجم الجُغرافي للقطر السوري، مادَّة: صلخد ).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 143.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 126.

4 - زُبُردة الحَلَب، ابن العديم، 444.

الأشرف(1)، ويبدو أن أهمَّ دوافع المُعظَّم تجاه المُظفَّر هي أهمِّيَّة عملكة خِلاط، واتِّساعها، وموقعها الذي يُشكِّل شوكة في جنب الأشرف تُعيقه عن الحَرَكة، إضافة إلى كونها صلة وصل لا غنى عنها ما بينه وبين الخوارزمي حليف المُعظَّم، والتي ستُدخله إلى عالم الجزيرة، ومنها إلى الشَّام.

ففي عام 621 هـ 1224م، قصد الأشرفُ خِلاط بجُيُوشه، وتمكّن من هزيمة المُظفّر عندما تصدَّى له، فهرب إلى خِلاط، لكنَّ أهلها فتحوا أبوابها للأشرف، فتحصَّن المُظفَّرُ في القلعة، وأنزله الأشرف بالأمان، وأخذ منه خِلاط، وأبقى عليه مَيَّافارقين (2)، وأرسل الأشرف حاجبَهُ حُسام اللِّين على نائباً إلى خِلاط<sup>(3)</sup>، فقام بمهمَّته خير قيام (4)، ودافع عنها ضدَّ الخوارزمي وجيشه القوي، وأجبره على التراجع (5)، كما تصدَّى لكَيْقُبَاذ، ودفعه عن أرزن الرُّوم (6)، ممَّا جعل الأشرف يتوجَّس خيفة من قُوَّته، فأرسل مملوكه عزّ الدِّين آيبك إلى خِلاط، وأمره بقتل الحاجب علي، فقتله (7)، وتـولَّى عـزُّ الـدِّين خِلاط، حتَّى هاجمها جلال الدِّين خوارزمشاه، وفتحها عام 627 هـ 1230م، ولَّا دخلهـا "فعـل في ذلـك فعْلَ النَّثَر، فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد وسبى عسكرُهُ الحريمَ، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكَفَرَة "(8)، ثُمَّ قبض على عزِّ الدِّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط، وسلَّمه إلى مملوك الحاجب علي، فقتله (9)، فقام الأشرف، وجمع عساكرَ الشَّام، وحالف علاء الدِّين كيقباد سُلطان سلاجقة الرُّوم، والتقوا جلالَ الدِّين، فهزموه، "واسترجع الأشرفُ خِلاط، وقد صارت خراباً يباباً" (10).

<sup>5 -</sup>المُختصر، أبو الفداء 3/ 101، قلعة نجم: قلعة حصينة على الفُرات، بناها نجم غلام جني الصفواني، وكانت تتبع لبني حسَّان أصحاب منبج، وبعد وفاة حسَّان بن كمشتكين البعلبكي عام 542 هـ 1147م، أقْطَعَ السُّلطان نُورُ الدِّين منبجَ ومعها قلعة نجم إلى ابنه قطب الدِّين ينال ابن حسَّان. وعندما تولَّى السُّلطان صلاح اللَّين كان ينال من أشلَّ الأمراء عداوةً له، والتحريض عليه، فحاصره السُّلطان، وأسرِه عام 572 هـ 1176م، (الكامل، ابن الأثير، 11/ 

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 55 6، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 134.

<sup>2 -</sup>زُبُدَة الحَلَب، أبن العديم، 2/ 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبىد اللطيف، 14/ 84، والمُختصر، أبو

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 188.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 136.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 190.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الْكُرُوب، ابَّن واصل، 4/ 263، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485، وأخبار الأثيوبيِّين، ابن العميد، 15.

<sup>8 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 295.

<sup>9 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 146.

<sup>10 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299.

الظَّاهر قد سلَّمها للأفضل"(1)، ولكن ابن الأثير يرى الأمر من وُجهة نظر أُخرى؛ حيثُ يصف ما قام به الملك الظَّاهر نحو الملك الأفضل بقوله: "وكان هذا أقبح ما سُمع عن ملك يُزاحم أخاه في مثل قلعة نجم، مع خسَّتها وحقارتها وكثرة بلاده وعدمها لأخيه "(2).

ثُمَّ تابع العادل وابنه الأشرف تنفيذ تُخطَّطهما ضدَّ الأفضل، "فأخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل، وكذلك جملين، بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه، ولم يُبقوا عليه سوى شُمَيساط لاغير "(<sup>(3)</sup>.

كانت مُحاولة الأفضل الأخيرة، قبل أن يفقد كُلَّ أمل له ضمن أُسرته الأيُّوبيَّة، هي التذلُّل لعمِّه العادل، واستعطافه، فأرسل والدته إلى حماة؛ ليشفع صاحبها المنصُّور عند العادل لإبقاء بـلاده عليه، لكنَّ العادل لم يلتفت لذلك(4)، عندها؛ وجد الأفضل نفسه وحيداً ضمن البيت الأيُّوبي، فأعداؤه هُم أخوه وعمّه وأبناء عمِّه، ممَّا زاد الأفضل حنقاً، ودفعه باتِّجاه مُعاكس، فالتفت خارج البيت ليجد كيكاوس (5) سُلطان سلاجقة الرُّوم قريباً منه، ومُرحّباً به، ورُبَّما لأنَّه عدوّ البيت الأيُّـوبي انتمى إليه، وخطب له على منابر سُمَيساط(6)، فكان انتقام الضعيف من الأقوياء.

وعندما تُوفِّي الملك الظَّاهر صاحب حلب، في عام 613 هـ 1216م، وجد كيكاوس في الأفضل ضالَّته، فهُو وسيلته للسيطرة على الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ الدُّخُول إلى الشَّام.

فأثار مطامع الأفضل، ووعده بأَخْذ حلب، وتسليمها له، "وكان كيكاوس يُريد الملك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصُّل إليه" (7).

ماردين والعودة إلى حَرَّان بلغ كرم الأشرف غايته مع ابن عمّه؛ حيثُ أعطاه بلدة جملين (1). إن هذا الإكرام \_بالتَّأكيد \_ أدهش الأفضل، وجعله ينساق مع ما خطَّط له العادل وابنه الأشرف، من الاعتقاد بمحبَّتها، وتقديرهما له، والتَّخلِّي عن كُلِّ شكِّ بها، أو حذر منها.

ويبدو أن العادل كان يُدرك تماماً ما يفعل، فقد وضع الأفضل في الجزيرة ليبعده أوَّلاً عن

مراكز القوى في دمشق ومصر، وليضعه تحت إشراف ومراقبة ولده الأشرف صاحب إقطاع الجزيرة،

وكانت لدى العادل مخططات أُخرى تتعلَّق بالأفضل، رُبَّها لم يطلع عليها سوى ابنه الأشرف الذي

سينفِّذها لاحقا. ففي عام 599 هـ 1203م، طلب الأشرف من الأفيضل القُدُوم بعساكره للتوجه

معه في الحملة ضدَّ ماردين، وبالفعل وصل الأفضل إلى حَرَّان ورافقه الأشرف الذي كان يظهر السود

والاحترام للأفضل، حتَّى إنَّه عندما استولى على رأس عين الخابور سلمها له، وبعد الصُّلح مع

ولكن ضربها له لم يتأخَّر كثيراً، ففي العام نفسه أرسل الملك العادل عسكره ونوابه واستعاد جملين من الأفضل، وانتزع منه سروج وشبختان والموزر والسن (2)، ويُحاول ابن العديم تبرير فعل الملك العادل بقوله: "وعصى الملك الأفضل على عمّه الملك العادل في البلاد التي كان أعطاه إيَّاها" (3)، فها زاد على أنْ أظهره مُتمرِّداً على عمّه صاحب الشرعية الملك العادل، سُلطان البلاد، الذي تفضَّل على الأفضل بها، مع أنَّه لا يُوجد دليل على عصيانه، ولا مُبرِّر لهذا العصيان المُفترض.

وقام الظَّاهر أخو الأفضل بحَرَكَة مُفاجئة، رُبَّها تدلُّ على تنسيق مع العادل، واقتسام سرِّيٍّ لبُلدان الأفضل بينهما، فاستولى الظَّاهر على قلعة نجم (4)، وقد برَّر ابن العديم - أيـضاً - فعلمة الظَّاهر بأخيه الأفضل بأنَّ الظَّاهر تخوَّف من أَخْذ العادل لقلعة نجم، وهي ذات موقع استراتيجي مُهم م بالنِّسبَة لمملكته، ويُضيف مُذكِّراً ومُؤكِّداً تبريره لأَخْذ الظَّاهر قلعة نجم، فيقول: "وكان الملك

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، كذلك راجع: الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/2/475.

<sup>2-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 38، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 104.

<sup>4 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 104.

<sup>5 -</sup> هُو السُّلطان عزّ الدِّين سُليان بن قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب الرُّوم. 6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. شهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زُكَّار، 5/ 427.

<sup>7 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.

<sup>=</sup>الأفضل، لكنَّه عاد، واستردَّها، وأَقْطَعَهَا لعتيقه الأمير بدر الدِّين أيدمر ، حتَّى نزعها منه العزيز بن الظَّاهر عام 629 هـ، وفي أيّام الملك النَّاصر الثَّاني استولى عليها التَّتار، وخرَّبوها. ( الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 476 ).

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 38.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة ٱلْحَلُّب، أبن العديم، 2 / 623، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشَّاميَّة،

<sup>3-</sup>زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 623.

<sup>4 -</sup> روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 427، والأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 1/ 2/ 475.

المُفضَّل مُوسى، واستقرُّوا بها إلى عام 632 هـ 1235م؛ حيثُ أخذها منهم الملك العادل، وعوَّضها عنها جملين (1).

وهكذا أكملَ العادلُ مُخطَّطه تجاه الأفضل الذي كان يتصوَّره الأقوى بين أبناء صلاح الدِّين، ولكنَّه كان على ما يبدو بعيداً عن مغاور السياسة وألاعيبها، بسيطاً، مع أنَّه جمع الفضائل والأخلاق الحَسنة، وعلَّل أبو الفداء ما جرى معه بأنَّه كان "قليل الحظِّ" (2)، لكنَّ الأرجح أنَّه سُوء تدبير أكثر منه قلَّة حظِّ، فله من الخبرة والتجربة، في دولة أبيه، رُبَّا ما يفوق ما كان لأخيه الظَّاهر غازي أو العزيز.

وهُنا؛ نُلاحظ أن العادل قد تجاوز صلاح الدِّين بحُسْن التدبير لتدريب أبنائه، ورُبَّها كان ذلك بسبب انشغال صلاح الدِّين الدائم بالجهاد، فقد أمضى جُلَّ عمره على صهوة جواده، وكان يرى أن تحرير الأرض رسالة عليه أن يُؤدِّيها، فلم يلتفت إلى ما سواها، بينها التفت العادل لترتيب شُؤُون أولاده بعد موت صلاح الدِّين، وساعده على ذلك توقُّف الأعال الحَرْبيَّة الكُبْرى مع الفرنج.

ففي عام 615 هـ؛ طلب كيكاوس من الأفضل أن يُكاتب أُمراء حلب الـذين يميلون إليه، فكاتبهم، ووعدوه (1)، وكان عدد من مُستشاري عزّ الدِّين كيكاوس قـد "حسَّنوا لـه قـصد حلب، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنَّه في طاعتك، ويخطب لك، والناس مائلون إليه، فاستدعاه، وأكرمه، واتَّفقا على قصد البلاد، وأن حلب وأعالها للأفضل وبلاد الأشرف لعزّ الدِّين "(2).

ساند الأفضلُ كيكاوس، ورافقه في هُجُومه على مُتلكات حلب، "وساروا، فملكوا رعبان، وسُلِّمت للأفضل، لكنْ؛ لمَّا مُلكَتْ تلّ باشر أخذها عزّ الدِّين كيكاوس لنفسه، وكذلك منبج، فنفرَ الأفضل، وقال: هذا أوَّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمُلك الأفضل" (3).

"ولمَّا تحقَّق الأفضل من سُوء نيَّة كيكاوس، أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لُمُور الزمن في غير فائدة؛ لئلا يتحصَّل لعزّ الدِّين مقصوده" (4).

وكان تراجع الأفضل عن دعم كيكاوس من الأسباب القويَّة لهزيمته أمام قُوَّات حلب والأشرف مُوسى (5)، فقد تراجع منهزماً، واستردُّوا كُلَّ ما استولى عليه.

وعاد الأفضل ليقبع في سُمَيساط، "ولم يتحرَّك بعدها في طلب مُلك، إلى أن مات عام 622 هـ "(6) مات عام وكان موته فجأة، وله من العمر سبع وخمسين سنة (7).

واختلف أولاده وأخوته في ملك سُمَيساط بعد موته، ولم يقو أحد منهم على الباقين ليستبدَّ بالأمر (8)، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على المُؤيَّد ناصر الدِّين مُحمَّد بن الأفضل علي، وأن يكون مُدبِّر دولته عمّه

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.

<sup>3 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.

<sup>5 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 74، وعن مُعامرة الأفضل مع كيكاوس راجع:

Pre Ottoman, Clud Cahen, p 123

<sup>6 -</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 119.

<sup>7 -</sup> بعد أن مات الملك الأفضل علي في سُمَيساط نُقل ليُدفَن في ظاهر حلب بالقُرب من مشهد الهروي، خارج باب المقام جنوب حلب. وهُو الآن في حيِّ الفردوس، قُرب مدرسة ورباط ضَيْقة خَاتُون بنت العادل.

<sup>8 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 155، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 429.

<sup>1 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/2/195.

الأشرف مُوسى ملك الجزيرة

بعد وفاة العادل عام 615 هـ 1218م، حدثت التجزئة النَّانية للدولة الأيُّوبيَّة، وانعكست بأوضح صورها في الجزيرة، التي كانت شبه مُوحَّدة تحت سُلطة العادل وأبنائه، الذين هُم نُوَّاب له فيها، وأصبح الملك الأشرف بن العادل ملك الجزيرة بلا مُنازع، فهُو أكبر قُوَّة فيها، وصاحب مُعظم بلادها، وعلى الفُرات كان لأخيه الحافظ أرسلان شاه إمارة صغيرة تتشكَّل من قلعة جعبر وبلدة بالس<sup>(1)</sup>. ونستطيع أن نُميِّز في حُكُم الأشرف للجزيرة أربعة مراحل:

# المرحلة الأُولى:

بدأت علاقة الملك الأشرف بالجزيرة الشَّاميَّة عندما وضع والده السُّلطان العادل تحت إمرته قُوَّة عسكريَّة عام 599 هـ 1203م، ووجهه لاحتلال ماردين، ومع أن الحملة لم تُضطر للقتال، فقد حقَّقت مكسباً كبيراً؛ إذْ قام صاحب ماردين بطلب وساطة الظَّاهر غازي صاحب حلب للصُّلح مع السُّلطان العادل، وتمَّ الأمر على أن يدفع للسُّلطان مائة وخسين ألف دينار، ويدخل تحت طاعته بإعلان الخطبة، وضرب السَّكة باسمه (2). وكانت حملة الملك الأشرف أداة ضغط فعَّالة لقبول صاحب ماردين الخُضُوع للسُّلطان العادل، وبالوقت نفسه؛ مهَّدت لصعود نجم الملك الأشرف في الجزيرة.

لكنَّ السعد الحقيقي للأشرف جاء بمُبادرة منه عندما قرَّر التّصدِّي للمُجُوم الأتابك نُور الدِّين صاحب المَوصل، الذي غرَّر به أُمراء الشَّام اللاجئين إليه، وهوَّنوا له أَمرَ الملك الأشرف، فكان اللقاء قُرب بلدة باشرى (3)، وبالكاد؛ نجا نُور السدِّين بنفسه نحو المَوصل، وأُخذت جُنُوده ما بين أسير وقتيل، فَسَيَّرَ الملك الأشرف يعلم والده السُّلطان العادل، "فاستعظم العادلُ ذلك، وما صدَّقه "(4). وكما بسرع الملكُ الأشرفُ في قيادة المعركة العسكريَّة، ضدَّ أتابك المَوصل، بسرع

- أيضاً - في توجيه الدقّة السّياسيّة، واستغلال نتائج نصره، فقد رتّب مُعاهدة صُلح في أوائل عام 600 هـ 1204م، مع الأتابك، وتحالفا معاً (1)، ليتحوّل الملك الأشرف، وقبل أن يُولِّيه والده إقطاعَهُ في الجزيرة، إلى الرجل الأوَّل فيها، وإلى سُلطان حقيقي لها. وبعد استتباب الأمر للعادل وتولِّيه سلطنة الأيُّوبيَّة في الشَّام ومصر ولَّى ابنَهُ الأشرف مُوسى على مُعظم مُمتلكاته الجزرية، وكانت قاعدتها حَرَّان، ووضع معه أخاه الأوحد في ولاية مَيَّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس (2).

### المرحلة الثَّانية

بدأت عام 598 هـ؛ حيثُ حكم نائباً عن أبيه على ولاية الجزيرة، وفيها ظهرت شخصيته السِّياسيَّة ومعاركه السِّياسيَّة وأميَّزت بالنجاح، فقد حالفه التوفيق في كُلِّ تحالفاته السِّياسيَّة ومعاركه العسكريَّة، وتُعدُّ هذه المرحلة جُزءاً من دولة العادل.

### المرحلة التَّالثة:

وهي المرحلة الأساسية والهامَّة للأشرف وللجزيرة. بدأت عام 615 هـ 1218م، وفيها انفراد بالحُكْم بعد موت والده العادل، ونشطت فيها العلاقات السيّاسيَّة والتحرُّكات العسكريَّة لدولته الجزرية مع كُلِّ الإمارات المُجاورة، إنْ كانت أيُّوبية، أو غيرها.

في عام 616 هـ 1219م، تُوفِّي نُور الدِّين صاحب المَوصل، وقام الموصي بدر الدِّين لُولُون، وخطب للسُّلطان الكامل، وللملك الأشرف<sup>(3)</sup>، بها يعني وضع نفسه تحت طاعتها، وطلب حمايتها له، فقد كان لُؤلُو يُدرك الأطهاع التي سيواجهها في تدبيره لدولة صبي صغير. وفعلاً؛ فقد تحرَّك زنكي ابن عزّ الدِّين مُطالباً بأنْ يكون هُو الوصي على ابن أخيه في المَوصل، ودعمه مُظفَّر الدِّين صاحب إربل الذي رآها فُرصة طيبة للتدخُّل في شُؤُون المَوصل، فسارع لُؤلُو لطلب نجدة الملك الأشرف<sup>(4)</sup>، ولكن الملك الأشرف كان مشغولاً عن المَوصل بالحلف الذي شكَّله كوكبري ضدَّه في الجزيرة، فقد راسل مُلُوكها، وكان من أبرز مَنْ لبَّى دعوته، كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، وصاحب آمد

<sup>1 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 80.

 <sup>3 -</sup> باشرى: بليدة قُرب الموصل بين جزيرة ابن عُمر ونصيبين، فيها سوق، وتقصدها القوافسل.
 ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: باشزى ).

<sup>4 -</sup> المنصُّوري، ابن نظيف، 40 ـ 41.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 41.

<sup>2-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/ 453.

<sup>3-</sup>زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2 / 649.

<sup>4 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.

# العلاقات الجزرية للأشرف مُوسى:

في عام 617 هـ 1220م، "أقطَعَ الأشرفُ مُوسى مدينة خِلاط وجميع أعمال أرمينية ومدينة مَيَّافارقين في ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدِّين غازي، وأخذ منه الرُّهَا ومدينة سروج "(1)، "وجعله وَلِيَّ عهده في البلاد، التي له جميعها، وحلَّف له النُّوَّاب والعسكر "(2).

ويبدو أن الأشرف كان يرغب في تقوية مركز أخيه شهاب الدِّين غازي، وتدريبه على الحُكْم، ورُبَّما كان ذلك إعداداً له ليكون خليفته ووريثه، فالأشرف لم ينجب خلال حياته سوى بنت واحدة، ومُشكلة الوراثة كانت مُشكلة تحتاج للكثير من التفكير والتدبير. وقد أتى هذا التدبير في وقت بالغ الحرج بالنَّسبة للأشرف، وبالنسبة لكلِّ المالك الأيُّوبيَّة، فبعد تسيير الأشرف لأخيه غازي إلى خِلاط جمع عسكره، وتوجه إلى مصر، فلمياط كانت قد سقطت بيد الفرنج، ومصر مُهدَّدة بالسُّقُوط، وبالتَّالي؛ كامل المملكة الأيُّوبيَّة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى؛ كان هُناك خطر، رُبَّما يكون أكبر، لكنْ؛ بتقدير الأشرف كان خطراً يُمكن تأجيل مُواجهته لما بعد مُواجهة خطر الفرنج، "فلمًا أتاه رُسُلُ الكرج يطلبون المُوافقة لردِّ التَّر، اعتذر بالمسير إلى مصر، وقال لهم: إني قد أَقْطَعْتُ ولاية خِلاط لأخي، وسبَّرتُهُ يطلبون المُوافقة لردِّ التَّر، اعتذر بالمسير إلى مصر، وقال لهم: إني قد أَقْطَعْتُ ولاية خِلاط لأخي، وسبَّرتُهُ إليها؛ ليكون بالقُرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتُمُ إلى نصرته حضر لدفع التَّرَ "(ق). ويبدو من هذا الجواب أن الأشرف لم يكن يُقدِّر خطر التَّتَار حقَّ قدره، رُبَّا لعدم وُجُود معلومات كافية لديه عن قُوَّة التَّتَار، إضافة إلى أن الاحتكاك المُباشر معهم لم يكن قد حصل بعد.

وكان الأشرف في مسيره إلى مصر شبه مُجبر تجاه المُلُوك والأُمراء الأَيُّوبيَّة، وخاصَّة تجاه إلحاح أخيه المُعظَّم صاحب دمشق، الذي حضر إليه في مطلع عام 618 هـ 1221م، واجتمع به عند حَرَّان، وأقنعه بالمُساهمة في الحملة ضدَّ الفرنج، فقد "كان الأشرف مبايناً لأخيه الكامل في الباطن "(4).

ولكنْ؛ بعودة الأشرف من غُزاة دمياط عام 620 هـ 1223م، تغيَّر موقفه كُلِّيًا من اخوته؛ إذْ يبدو أن هُناك اتِّفاقاً تمَّ بعد دمياط بينه وبين الكامل صاحب مصر ضدَّ المُعظَّم صاحب دمشق، وكان

وحصن كيفا، وصاحب ماردين، وكان الأتّفاق بينهم على أن يكونوا في طاعة كيكاوس، ويخطبوا له، كما أكمل كوكبري الحلقة باتّصاله بأمراء جند الملك الأشرف، فانحاز إليه بعضهم، وتركوا الملك الأشرف، وساروا للقاء صاحب آمد؛ لمنع الملك الأشرف من الحَرَكة لمُساعدة المَوصل. ولكنْ؛ حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد تراجع صاحب آمد عن الحلف، وعاد إلى طاعة الملك الأشرف<sup>(1)</sup>، ولأبدّ أن الثمن الذي حصل عليه صاحب آمد من الملك الأشرف، وهُو مدينة حاني وجبل جور، كان سبب انقلاب موقفه. ومرّة أُخرى؛ يُثبت الملك الأشرف أنّه ملك الجزيرة بلا مُنازع، فما يعجز عنه بالقُوّة العسكريَّة يستطيع تحقيقه بالمُناورات السِّياسيَّة، فانحلَّ حلف كوكبري، وعاد الجميع إلى طاعة الملك الأشرف رقمً فن من شرائه، فضرب الحلف الأشرف جهده السِّياسي نحو أضعف نقاط الحلف، وهُو صاحب آمد، وقمًّ من شرائه، فضرب الحلف بأكمله.

وجاء ردُّ الملك الأشرف على الحلف السَّابق سريعاً وناجحاً، ففي مطلع عام 617 هـ 1220م، استغلَّ لجوء ابن المشطوب إلى سنجار، وسار إليها، فتسلَّمها من صاحبها (3)، وعوَّضه الرقَّة (4)، يقول أبو الفداء: "وهذا من سعادة الملك الأشرف، فأباه نازل سنجار في مُحُمُوع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه بأهون سبب "(5). ويقول ابن واصل: "وهذه الواقعة من مُحملة سعادته الخارقة، فإن أباه العادل نازلها في جميع مُلُوك أهل بيته، فلم ينلُ منها غرضاً، وأخذها الملك الأشرف عفواً بلا تعب". ثُمَّ أخذ الملك الأشرف الرقَّة بعد ذلك (6)، وتابع زحفه نحو الموصل لدعمها، عا أجبر كوكبري لعقد الصَّلح مع صاحبها، ثُمَّ التفت الملك الأشرف إلى صاحب قرقيسيا (7)، فقبض عليه، وأخذها منه (8). كما استولى على دنيسر (9).

<sup>1 -</sup> الكامل، ابن الأثير، 12/ 442.

<sup>2 -</sup> الكامل، ابن الأثير، 12 / 443.

<sup>3 -</sup> كان صاحب سنجار هُو الملك الأمجد محمود بن قُطب الدِّين مُحمَّد بن عهاد الدِّين زنكي بن مودود بن زنكي.

<sup>4 -</sup>ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 2/ 122.

<sup>5 -</sup>المُختصر؛ أبو الفداء، 3/ 125.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 73. 7 - قرقيسيا: مُعرَّب كركيسيا من كركيس، وتعني الحلبة، تقع على نهر الخابور قُرب الرحبة. ( مُعجم البُلـدان، يـاقوت

الحموي، مادَّة: قرقيسيا ). 8-زُيْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 651.

<sup>9-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3 / 125، دنيسر: بلد مشهور من نواحي الجزيرة قُرب ماردين. ( مُعجم البُلدان، يــاقوت الحموي، مادَّة: دنيسر ).

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 399.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 412.

<sup>3-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 399.

<sup>4 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أَبو شامة، 128.

انعكاس ذلك في الساحة الجزرية أن المُعظَّم ـ الذي وجد نفسه محصوراً بين أخوَيْه الكامل من الجنوب والأشرف من الشمال ـ بدأ التحرُّك في الجزيرة لإثارة المتاعب في وجه الأشرف. ففي عام 623 هـ 1226م، ورد على المُعظَّم رسول مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين كوكبوري بن على كوجك، صاحب إربل، يغريه بغزو مُدُن الشَّام حمص وحماة، لأن مُلُوكها كانوا يداً واحدة مع الأشرف(1)، وإن مُظفَّر الدِّين سيشغل الأشرف عن الجزيرة بخُرُوجه إلى المَوصل(2).

بدأ المُعظَّم خُطَّته مع أخيه شهاب المدِّين غازي، نائب الأشرف في خِلاط، فحرَّضه على عصيان الأشرف، واستهاله نحوه (3). وحاول الأشرف تدارك الأمر، فطلبه ليُقدِّم إليه بحَرَّان، "فامتنع، وأظهر العصيان، فجمع الأشرفُ عساكرَ الشَّرْق، وسار إلى خِـلاط"(4). فخرج غـازي، وقاتله، فهُزم، وهرب إلى خِلاط، التي فتحها أهلها للأشرف، فتحصَّن غازي بالقلعة، وطلب العفو من أخيه، فأجابه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط<sup>(5)</sup>.

يبدو \_ للوهلة الأُولى \_ أن عصيان غازي لأخيه الأشرف حَرَكَة خرقاء لا معنى لها، ولكنْ؛ بالتَّأكيد، كان لغازي دوافعه القويَّة لهذا التصرُّف، ومرتكزات بدت له ثابتة لتأمين النجاح، إنَّه \_ بالتَّأكيد \_ كان يُدرك قُوَّة الأشرف في الجزيرة، وتحالفه مع الكامل صاحب مصر أقوى وأكبر المالك الأَيُّوبيَّة، وقبل كلِّ ذلك فالأشرف هُو صاحب الإحسان إليه، بنيابته في خِلاط، وبجعلـه وَليّ عهـده. ولكنْ؛ إذا وسَّعنا دائرة الرؤية خارج الجزيرة فإنَّنا نرى أن هُناك ما شبَّع غازي على العصيان، فالمُعظَّم ومعه قُوَّات دمشق يُشكِّلان سداً منيعاً بوجه الكامل، وقُوَّات مصر التي لن تستطيع نجدة الأشرف، الذي سيُواجه حليفهم الثَّالث مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، الذي سيتحرَّك في شيال العراق، وعلى خُدُود دولة الأشرف الشَّرْقيَّة، فيُعيقه عن مُهاجمة غازي، الذي وزَّع عسكره على الحُصُون، وانتظر تحرُّكُ الحُلفاء (6).

فبعث المُعظَّم، ورحَّل الخوارزمي<sup>١١(4)</sup>.

أمَّا إنعام الأشرف عليه بولاية كبيرة وتوليته عهده؛ فإن غازي رُبَّها كان يُدرك أن الأشرف قـ د

يستردّها منه في أيِّ وقت، ورُبّها كان يستعجل الأُمُور، فلا يُريد أن ينتظر حتَّى وفاة الأشرف، وفي هذه

الحالة \_ أيضاً \_ لا شيء مضمون، فالقُوَّة والتحالفات الجيِّدة هي التي تنضمن السيطرة والتحكُّم

بالولايات، وليس عهداً قد يكون لا قيمة له؛ إذْ لم يُقرُّه سُلطان مصر والمُلُوك الآخرون من بني أيُّوب،

بل ورُبَّها المُلُوك المُجاورون من خارج البيت الأثِّوي. لكنَّ الذي لم يُقدِّره غازي بشكل صحيح هُو قُوَّة

حُلفاته، فالمُعظَّم لم يستطع التحرُّك من دمشق بعد أن هدَّده الكامل والأشرف أنّهم سيقصدونه،

ويأخذون دمشق إنْ تحرَّك منها(1)، أمَّا مُظفَّر الدِّين؛ فقد تحرَّك من إربل نحو المَوصل وهي في حلف

السريع، أمَّا مُظفَّر الدِّين كوكبري؛ فهُو بعيد نسبياً، ولم يستطع أن يُحقِّق أيَّ نجاح ضدَّ المَوصل حليفة

الأشرف، لذلك؛ امتدَّت أنظار المُعظَّم نحو قُوَّة كبيرة في الشَّرْق هي الدولة الحَوَارزميَّة، التي كانت

قُوَّاتِها تتراجع غرباً نحو بُلدان الجزيرة تحت ضغط تقدُّم التَّسَار، فاتَّسل المُعظَّم بالخوارزمي جلال

الأشرف، ليشغله عن التفكير بمُهاجمة دمشق، فتحرَّك الخوارزمي عام 623 هـ 1226م، نحو

خِلاط، وحاصرها أربعين يوماً (3). وأمام قُوَّة الخوارزمي الكبيرة فيضل الأشرف أسهل الطُّرُق،

فذهب إلى أخيه المُعظَّم، وأظهر له الخُضُوع، "وسأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خِلاط..

وبعد توثيق التحالف بين المُعظَّم والخوارزمي طلب المُعظَّم منه منازلة خِلاط، أكبر مُدُن مملكة

فشلت خُطط المُعظَّم ضدَّ الأشرف في الجزيرة، فغازي كان أمره هيِّناً، وانتهى عصيانه بفشله

الأشرف، فحاصرها "عشرة أيَّام بلا طائل، ولمَّا لم يتحرَّك أحد عاد" (2).

الدِّين منكبرتي طالباً التحالف معه ضدَّ الأشرف وحُلفائه في الجزيرة.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 422.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 422.

<sup>3-</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 284.

<sup>4 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، أحداث عام: 623/ هـ، 20 / 384، \_ويقول ابن العديم: "كان الأشرف في دمشق . . . . فوردت الأخبار بنُزُول خوارزم شاه على خِلاط، ومُحاصرتها، . . فوافق الأشرف أخاه على ما طلبه منه، ورحَّل خوارزم شاه عن خِلاط". ( زُبْدة الحَلَّب، ابن العديم، 2/ 661 )، ونحنُ نُرجِّح أن يكون الأشرف قد توجُّه إلى دمشق بعد حصار الخوارزمي لخِلاط.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 125.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.

<sup>4 -</sup> ذَيْل الرَّوضَٰتَيْنَ، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهبل زَكَّار، أحداث عام: 620 هـ، 25/ 257. 5 - زُبِّدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الـشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20 / 273.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 422.

اتِّفاق الملك الأشرف والملك الكامل عقب نصر دمياط:

ذهب الملك الأشرف إلى مصر لنجدة أخيه الكامل بعد احتلال الفرنج لدمياط، مع أنهم كانا على تباعد في الرأي والمصلحة، فقد كان ذهاب الملك الأشرف تحت ضغط وإلحاح أخيه الملك المُعظَّم، الذي كان على أتمَّ اتِّفاق وتفاهم معه. ولكنْ؛ بعد عودة الملك الأشرف من مصر انقلبت المُيُول، وبان للعيان اتِّفاق الملك الأشرف مع الكامل لتحييد الملك المُعظَّم عن الساحة.

عام 618 هـ 1221م، عادت المُلُوك الأيُّوبيَّة وجُيُوشهم بعد انتصارهم في واقعة دمياط، وبقي الملك الأشرف عند الكامل، ولم يشر أيُّ من مُؤرِّخي أحداث هذه الفترة إلى أيِّ مباحثات، أو اتَّفاق جرى بين الأخوَيْن، ممَّا أدَّى لتبديل مواقفهم اتجاه بعضهما، وتجاه بقيَّة الأخوة أبناء العادل. ولكن مُجريات الأحداث تدلُّ على أن مباحثات سرِّيَّة - وغالباً على انفراد - بين الكامل والملك الأشرف قد جرت، وأن اتِّفاقات سياسيَّة وعسكريَّة عدَّة قد تمخَّضت عنها تلك المباحثات، وإن كنَّا لا نعرفها بالتحديد، لكنَّ خُطُوطها قُرئَتْ من خلال تصرُّفات الأخوَيْن السِّياسيَّة والعسكريَّة

وكان لذلك الاتِّفاق غير المُعلَن نتائج على غاية من الأهمِّيَّة في الشَّام والجزيرة. كان أوَّل عمل قام به الملك الأشرف فور عودته من غُزاة دمياط إلى الجزيرة في العام نفسه 618 هـ 1221م، هُو انتزاع الرقَّة من يد الأمجد محمود بن قُطب الدِّين، وكان قد عوَّضه بها بدلاً عن سنجار، وأقام الملك الأشرف في الرقَّة (1)، ولا ندري لم قام بهذا العمل؟ وفي هذا الوقت بالذات؟ إلَّا أن يكون قد بيَّت نزع الرقَّة منه قبل سفره إلى دمياط، وبعد فراغه من خطر الفرنج، وانشغاله بهم، عاد، واستردَّها.

#### أصداء التحالف في الجزيرة:

عندما شعر الملك المُعظَّم بالتقارب بين أخوَيْه، قدَّر أنَّه سيدفع من مملكته ونُفُوده ثمنَ هذا التقارب، فبدأ يتلمَّس طُرُقاً للرَّدِّ على تحالف أخوَيْه، وبالتَّأكيد؛ فكَّر الملك المُعظَّم بكُلِّ من حوله من الْمُلُوك، وكانت الساحة أمامه كما يلي:

1 \_ إخوته الآخرون: مُعظمهم أصحاب قلاع وبُلدان صغيرة، ولا يُسكِّلون إلَّا قُوَّة تأثير بسيطة، ما عدا أخيه المُظفَّر غازي صاحب خِلاط، فاتَّصل به، وحَسَّن له الْخُرُوج على الملك الأشرف، والانضام إليه، ولا ندري بها وعده! فهل وعده بمُلك الجزيرة بعد إزاحة الملك الأشرف٢؟! وفي الحقيقة؛ يجب أن يكون الوعد بهذا المُستوى، فغازي وَلِيّ عهد الملك الأشرف(2)، وصنيعته، ويعرف أنَّه سيخلفه بعد موته؛ إذْ لا وارث له، ومع ذلك، جعله الوعد يُقدم على الخُرُوج عليه.

2 - مُلُوك بني أيُّوب وابن عمِّهم المُجاهد: وكانوا كُلُّهم محالفين للأشرف، ويداً واحدة ر<sup>(3)</sup>معه

3 ـ صاحب حلب الملك العزيز مُحمَّد طفل صغير ووصيّه طَغْريـل مُتَّفـق بـشكل كامـل مـع

4 \_ في حماة الملك النَّاصر قلج أرسلان مُتحالف مع الملك الأشرف، الـذي يـضمن لــه مُلكــه، فقد اغتصب حقَّ أخيه المُظفَّر في ملك حماة بعد موت أبيه.

5 \_ الملك المُجاهد صاحب حمص، كان من أفضل حُلفاء الكامل، وأقواهم، يُطلعه الكامل على مُراسلاته $^{(4)}$ ، ويُشاوره $^{(5)}$ ، ولا تنقطع هدايا الكامل إليه $^{(6)}$ .

إذاً؛ على الملك المُعظَّم أن يلتفت خارج البيت الأيُّوبي من أجل تــأمين دعــم قــوي يكــسر عنــه طوق أخوَيْه من الشمال والجنوب، فامتدَّت أنظاره نحو مُظفَّر الدِّين كوكبري بن زين الـدِّين كجـك صاحب إربل، فالمودَّة بينهما سابقة.

وكان كوكبري قد طلب من الملك المُعظَّم عام 622 هـ 1225م، إرسال ابنه ووَلِيّ عهده النَّاصر داود ليُقيم لديه في إربل (7)، فاعتمد الملك المُعظَّم على وُجُود ابنه في بـ لاط المُظفَّر، وأرسل لـ ه

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 105.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.

<sup>2 -</sup> زُبُدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.

<sup>4 -</sup>المنصُّوري، ابن نظيف، 147.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/1 261.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 262، والمنصُوري، ابن نظيف، 157+ 258.

<sup>7 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 110.

عام 623 هـ 1226م، رسولاً يشرح حال الشَّام، ويعرض عليه التحالف معه (1)، وعاد الرسول بجسواب الرسالة، التسي عرفنا أنَّا كانت بالمُوافقة نتيجة للأحداث اللاحقة. كما قام الملك المُعظَّم بمُراسلة الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، وطلب منه التحالف ضدَّ الملك الأشرف، فوافق، واتَّفقا على ذلك (2).

واتَّفق الملك المُعظَّم مع أكبر قُوَّة خارجية كانت تلوح في الأُقُق الشيالي الشرقي وهي الدولة الخوارزميَّة، فقد راسل السُّلطان جلال الدِّين، وحالفه، ونتيجة للخوف من قُدُوم جلال الدِّين إلى المنطقة تحرَّكت القُوَّة الخارجيَّة الثَّانية، وهي دولة سلاجقة الرُّوم، فحالف سُلطانها كَيْقُبَاذ الملك الأشرف<sup>(3)</sup>.

واتَّضح في المنطقة معالم حلفَيْن كبيرَيْن، الأوَّل: دبَّره ورتَّبه الملك المُعظَّم، وأكبر قُوَّة فيه الدولة الحَوَارزميَّة، ومعهم مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، والمسعود صاحب آمد والمُظفَّر غازي صاحب خِلاط.

أمَّا الحلف الثَّاني؛ فهُو حلف انتظم فيه مُعارضو الحلف الأوَّل، وفيه \_حُكُماً \_الملك الكامل وأخاه الملك الأشرف، وحليف الملك الأشرف القديم بدر السِّين لُوْلُو صاحب المَوصل، وانضمَّ اليهم كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم.

بدأ التحرُّك العملي لحلف الملك المُعظَّم، بإعلان المُظفَّر شهاب الدِّين غازي العصيان على أخيه الملك الأشرف في خِلاط، فسار إليه الملك الأشرف، وحاصره، وأنزله من قلعتها بالأمان، فاستردَّها منه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط (4).

بسُقُوط خِلاط بيد الملك الأشرف<sup>(2)</sup>.

أمًّا مُظفَّر الدِّين كوكبري؛ فقد سار من إربل بجُيُوشه، وألقى الحصار على الموصل، وكان

أمَّا الملك المُعظَّم؛ فقد وصله رسول كوكبري بخُرُوجه إلى المُوصل، وُفقاً للاتِّفاق، طالباً منه

فيها بدر الدِّين لُوْلُو حليف الملك الأشرف(1)، ومُعظم جنده في نجدة الملك الأشرف الذي كان

يُحاصر أخاه المُظفَّر في خِلاط، فحاصر كوكبري المَوصل عشرة أيَّام، ثُمَّ رحل عنها، بعد أن علم

التحرُّك لأخذ مُدُن الشَّام، فقاد الملكُ المُعظَّمُ جيشَهُ، وتوجَّه إلى حمص، وكانت في غاية القُوَّة، فلم ينلُ

منها طائل<sup>(3)</sup>، وأوعز الملك الأشرف إلى حليفه الرُّومي كَيْقُبَاذ ليتحرَّك صوب آمد، ويُحاصرها، فَسَيَّرَ

كَيْقُبَاذ صوبها عسكرَهُ، فاحتلُّوا قلعة الكختا(4)، فراسلَ صاحبُ آمد الملكَ الأشرف، وأعلنَ الطاعة،

وللمرَّة النَّانية؛ يعود صاحب آمد عن مواقفه، فطلب الملك الأشرف من علاء الدِّين كَيْقُبُاذ الكفّ

عن آمد ورد ما أخذ منها، فرفض، وأدَّى الأمر إلى اشتباك بين عساكر الملك الأشرف القادمين لنجدة

آمد وعساكر كَيْقُبَاذ، فانتصرت عسكر سلاجقة الرُّوم، واحتلُّوا حصناً جديداً لآمد هُـو حـصن

يوماً. ولمَّا قصد الملكُ الأشرفُ الملكَ المُعظَّمَ، والتقاه في دمشق، أرسل الملكُ المُعظَّمُ إلى الخوارزمي يطلب

منه ترك حصار خِلاط، فأجابه، ورحل عنها(6). فلهاذا لم يوافق الرُّومي حليفه الملك الأشرف، ولم يرحل

عن آمد، بينها وافق الخوارزمي على طلب حليفه الملك المُعظُّم، ورحل عن خِلاط؟!

وبالمُقابل؛ طلب الملك المُعظَّم من حليفه الخوارزمي مُهاجمة خِلاط، فحاصرها الخوارزمي أربعين

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 125.

 <sup>4 -</sup> قلعة الكختا: من بلاد الجزيرة كانت تتبع آمد، وهي قلعة عالية البناء لها بساتين ونهر، تبعد عن ملطية مسيرة يومّين.
 ( تقويم البُلدان، أبو الفداء، 263 ).

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203، \_حصن منصُور: من ثُغُور الجزيرة، يحاذي الفُراث، وينحدر النهر الأزرق من شماله الغربي ( بُلدان الخلافة الشَّرْقيَّة، كي لسترانج، ترجمة: بشير فرنسيس، 215 ).

<sup>6 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطَّيف، المُوسـوعة الـشاملة، د. سُـهيل زَكَّار، 20/ 284، والمُختـصر، أبـو الفداء، 3/ 136، وزُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 661.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 124، ـ الرسول هُو الشّرف بن عنين الشاعر المعروف بالهَجّاء الدمشقي.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203

<sup>4 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 273، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 134، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 138، حيثُ يقول ابن واصل: "وهذه مكرمة للبيت الأثيوي، لم يكن مثلها لأحد من المُلُوك قبلهم، وخُصُوصاً آل سلجوق، فإذا ظفر أحد منهم بأخيه أو ابن عمَّه الخارج عليه، إمَّا أن يوسطه بالسيف، أو يخنقه بوتر القوس، وأحسن أحواله أن يعتقله، ويُضيِّق عليه، إلى أن يموت كمداً".

إن الرُّومي كان يُحقِّق انتصارات، ويستولي على حُصُون، في ظلِّ وضع مثالي من الفوضى في الجزيرة، وتضارب المصالح، التي صبَّتْ كُلُّها ضمن سياسته التوسُّعية في الجزيرة، كما كان يُدرك مقاماً حضعف الملك الأشرف عن مُواجهته، وخاصَّة بعد أن توزَّعت قُوَّاته ما بين الجزيرة؛ حيث ثبَّت هُجُوم الخوارزمي قُوَّاتِ الملك الأشرف في خِلاط، وبين هماية حمص وحماة من هُجُوم الملك المُعظَّم عليهما(1).

بينها نجد أن الخوارزمي قد قبل لأنّه واجه مصاعب كبيرة في خِلاط، فرغم دُخُول ه ربض البلدة، فقد واجهتُهُ مُقاومة عنيفة، كلَّفتُهُ خسائر كبيرة، هُو في غنى عنها (2)، كها أنّه كان غير مُطمئنٌ لُخطُوطه الخلفية، فخلفه التّتَار في الشَّرْق، وهُو يُريد أن يتفرَّغ لهم بأقصى سُرعة، لـذلك؛ اغتنم طلب الملك المُعظَّم، ورحل ببعض الكرامة من أمام خِلاط.

نتيجة لتعقَّد الوضع السِّياسي والعسكري في شمال الشَّام اتَّفق الملك الأشرف والملك المُعظَّم على اللقاء، وأن "يرحل كُلُّ منهما عن الموضع الذي يُحاصره"، فالتقيا في القريتيَّن، وسار الملك الأشرف مع الملك المُعظَّم حتَّى دخلا دمشق<sup>(3)</sup>.

ويبدو من هذه الأحداث وتطوُّراتها أن الملك الأشرف هُو صاحب فكرة الاجتهاع "قصداً لقطع مادَّة الشَّرِّ "(<sup>4)</sup>، وهُو الذي سار إلى الملك المُعظَّم، وذهب معه إلى عاصمته دمشق، وأظهر الملك المُعظَّمُ السرورَ بذلك، وزيَّن البلد<sup>(5)</sup>، ولكنُ؛ هل هُو مسرور بلقاء أخيه؟ أم بحُصُوله عليه كالأسير المُعظَّمُ السرورَ بذلك، وزيَّن البلد<sup>(5)</sup>، ولكنُ؛ هل هُو مسرور بلقاء أخيه؟ أم بحُصُوله عليه كالأسير بأيسر الطُّرُق؟ " فحاله في الباطن بخلاف ما أظهر، والرُّسُل مُتردِّدة بينه وبين خوارزم شاه .... وصار بينها اتِّحاد كُلِيَّ" (<sup>6)</sup>، وفي عام 623 هـ 1226م "كان الملك الأشرف في دمشق كالأسير...

فوردت الأخبار بنُزُول خوارزم شاه على خِلاط، ومُحاصرتها... فوافق الملكُ الأشرفُ أخاه على ما طلبه منه (1)، فأطلقه، وعاد الملك الأشرف للجزيرة.

#### المرحلة الرابعة:

بدأت بوفاة المُعظَّم عام 624 هـ 1227م، وأَخُذ الأشرف دمشق، وتسليمه بعض مُدُن الجزيرة للكامل عام 626 هـ 1229م. لم يكن النَّاصر داود بن المُعظَّم يملك مُؤهِّلات والده، فبعد أن خلفه في حُكْم عملكة دمشق، عرض عليه الأشرف الانضام إلى حلف الشَّام ضدَّ الكامل، فأبى، وانحاز إلى الكامل في الكامل كشف سريعاً عن أطاعه بدمشق، وسار نحوها عام 625 هـ وانحاز إلى الكامل في الكامل كشف سريعاً عن أطاعه بدمشق، وسار نحوها عام 625 هـ 1228م، فاستنجد داود بعمَّه الأشرف، فسارع إليه مع المُجاهد، ولكنَّها بدل دُخُول دمشق، أو الإقامة حولها للدفاع عنها، التقيا الكامل، وعقدا مؤتمر العوجا، الذي تقرَّر فيه نزع دمشق من داود، وتسليمها للأشرف، مُقابل تسليم الأشرف للكامل عدَّة بُلدان في الجزيرة، منها: الرقَّة، والرُّهَا، وغيرها 6.

وتمتاز هذه المرحلة بنزوع الأشرف إلى حياة الترف والدعة بدمشق، وتحوُّل القُوَّة الكُبْرَى في المُجزيرة من الأشرف إلى الكامل، الذي كانت مُشكلته مع الجزيرة هي مُشكلة المسافة والبُعْد عنها، وغالباً ما كانت تسبقه الأحداث إليها.

وكان الكامل قد أرسل إلى فريدريك يعده بالقُدْس إن حضر لنصرته ضدَّ أخيه الملك المُعظَّم، ولكن أيَّام الملك المُعظَّم لم تطلْ، فقد تُونِي عام 624 هـ 1227م، وخلفه ولده النَّاصر داود في دمشق، عا سهل مهمَّة الملك الأشرف والكامل في أَخْذ مملكته. ففي سنة 625 هـ 1228م، تحرَّك الكامل من مصر "وأرسل داود يستدعي الملك الأشرف من بلاده الشَّرْقيَّة.... ودخل الملكُ الأشرف دمشق، فأعجب بها، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه "(4)، بينها وثق داود بالملك الأشرف، "لمَّا خدعه بعذوبة لسانه، فَسَيَّره إلى الملك الكامل، معتمداً في إصلاح أُمُوره عليه، فلم يألُ جهداً أن ساق بعذوبة لسانه، فَسَيَّره إلى الملك الكامل، معتمداً في إصلاح أُمُوره عليه، فلم يألُ جهداً أن ساق

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 661.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 5/ 125.

<sup>3-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479.

<sup>4 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 350.

<sup>1-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 1461.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 125، ـ القريتَيْن: بلدة في البادية جنوب شرقي حمص.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 179.

<sup>5 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

الحصار "(1). ورُبَّما كان الأمر قد تقرَّر مُسبقاً بين الملك الأشرف والكامل، وأرادا تطبيقه ضدَّ الملك المُعظَّم، فليًّا مات، طبَّقاه ضدَّ ابنه داود، فأخذا منه دمشق، ونَقَّذا الاتِّفاق.

وفي عام 626 هـ 1229م، تسلَّم الملكُ الأشرفُ دمشقَ، وأعطى للكامل عوضاً عنها ـ حَرَّان، والرُّهَا، ورأس عين، والرقَّة، والموزر، وبذلك؛ دخل الكاملُ عالم الجزيرة الشَّاميَّة من أوسع أبوابه، وأصبح القُوَّة السِّياسيَّة والعسكريَّة الأكبر في البلاد الجزرية، بعد أن تخلَّى الملك الأشرف له عن مواقعه بها. ويبدو أن الملك الأشرف "اقتنع بدمشق، واشتغل باللهو والملاذ "(2)، وأهمل أُمُور الجزيرة، ولكن الغريب في الأمر أنَّه ـ في الوقت نفسه \_ أخذ موقع زلبيا من أخيه الحافظ، وأمر بعارة قلعة فيه (3). فهل هي مُحاولة من الملك الأشرف لإثبات الوُجُود في الجزيرة؟!

كان أوَّل مَنْ أسفر عن مطامعه في الجزيرة بعد تبدُّل الأوضاع فيها هُو جلال الدِّين الخوارزمي، فقد هاجم خِلاط، وحاصرها، وحالف الخوارزميَّ، وأنجده، وهُو على حصار خِلاط، كُلّ من صاحب سرماري، وصاحب أرزن الرُّوم (4). وطال حصار الخوارزمي لِخلاط دُون أن يتحرَّك الملك الأشرف لنجدتها، رُبَّها لأنَّه مشغول بتقرير أمر دمشق، وتأمين ما حولها، ففي الوقت الذي كان فيه الخوارزمي يُحاصر خِلاط كان الملك الأشرف يُحاصر بعلبك (5)، أو - رُبَّها - لأنَّه يعرف مُسبقاً أن لا طاقة له بالخوارزمي دُون تحالف قوي يدعمه، وهذا التحالف لم يتمكَّن من تحقيقه بسُرعة، وإلَّا فكيف نُفسِّر تخلِّيه عن خِلاط المدينة الغنية ذات الموقع الاستراتيجي؟!

وفي عام 627 هـ 1230م، تمكَّن خوارزم شاه من دُخُول خِلاط بخيانة من القائد المُكلَّف بحراسة أحد الأبواب<sup>(6)</sup>، ولحنقه من المُقاومة الشرسة التي واجهته "فعل بأهلها ما يفعله التَّتَرَ" (<sup>(7)</sup>، "فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد، وسبى عسكرُهُ الحريمَ، وباعوا الأولاد كما يُفعَل بالكَفَرَة" (<sup>(8)</sup>).

بأيديهم، ولا يتعرَّض أحدهم لما بيد الآخر "(5).

الكبير بضَمِّ الشَّام إلى مصر، وتشكيل مملكة واحدة منهما تحت حُكْمه.

"وبلغ الملك الأشرف أَخْذ الخوارزمي خِلاط، وهُو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتى الرقَّة"،

"نُمَّ سار إلى حَرَّان، وكتب إلى حلب والموصل والجزيرة، فجاءته العساكر، ورحل يُريد الرُّوم "(1)،

ويبدو أن هذا الدُّخُول القوي لخوارزم شاه إلى مسرح الجزيرة قد أزعج كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة

الرُّوم، فخلاط مفتاح بلاده (2). ورُبَّها بسعي من كَيْقُبَاذ ورغبة من الملك الأشرف جَمَعَا جيـشاهما، بعـد

أن وحَّد الخطر المُشترك بينها(3)، وتمكَّنا من هزيمة جلال الدِّين، واسترجع الملك الأشرف

خِلاط(4)عام 628 هـ 1231م "وهي خراب يباب، ثُمَّ وقعت المُراسلة بينهم، وتحالفوا على ما

ذلك لمُجرَّد أن خِلاط من أملاك الملك الأشرف؟ وكأن خطر الخوارزمي لن يتعدَّى خِلاط إلى مُمتلكاته

وجد الملك الأشرف أن الوقت قد صفا له، فتخلَّى عن الجزيرة ومشاكلها للكامل، وتفرَّغ للهوه

وملذَّاته بدمشق (7)، مُفسحاً المجال لأخيه الكامل للتحرُّك في الشَّام والجزيرة، ومُحاولة تحقيق مشروعه

في الجزيرة، فقد "رجع الكامل قاصداً مصر "(6)، بلا مُبالاة، وكأن أمر الجزيرة لا يعنيه أبداً.

ومع أن الكامل كان في الرقَّة فإنَّه لم يُشارك في الحَرْب مع الملك الأشرف ضدَّ الخوارزمي، فهل

وبعد استرجاع خِلاط، وكفّ شرّ الخوارزمي بالاتّفاق معه، والحلف القديم مع الرُّومي،

<sup>1 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 299.

The Encyclopedia of Islam, vol: IV, p 817 - 2

Pre Ottoman, Clud Cahen, p 128-3

<sup>4 -</sup> مُفِرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 159.

<sup>5-</sup>المُختصِر، أبو الفداء، 3 / 147.

<sup>6 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.

<sup>7 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

<sup>1 -</sup>الفوائد الجلية، الأمجد حسين بن داود، 219.

<sup>2-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 189، حوادث عام 26/ هـ.

<sup>4-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 83.

<sup>5 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 189.

<sup>6 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 4 29.

<sup>7 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 294.

# المبحث الثَّالث

### الملك الكامل في الجزيرة

انقسم عهد السُّلطان الكامل في الجزيرة الشَّاميَّة إلى قسمَيْن:

# 1. مرحلة الوفاق الأيُّوبي والاعتراف بسلطنة الكامل:

بعد أن أخذ الكامل دمشق عام 626 هـ 1229 م، من ابن أخيه النَّاصر داود، سلَّمها لأخيه الأشرف، الذي أعطاه بدلاً عنها عدَّة مناطق في الجزيرة، منها: حَرَّان، والرقَّة، والرُّهَا، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر (1).

"وبقي للأشرف من البلاد الشَّرْقيَّة: نصيبين، وسنجار، والخابور، وبلاد خِلاط. وكانت مَيَّا فارقين بيد المُظفَّر شهاب الدِّين غازي أخيها، وجعبر بيد أخيها الآخر الحافظ أرسلان شاه"(2). وَسَيَّرَ الكاملُ شمسُ الدِّين صوابَ الخادمَ (3)، وفخرَ الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ إلى الجزيرة، يتسلَّمانها من الملك الحافظ، ومن بدر الدِّين قابيا (4)، وكانا ينوبان عن الأشرف فيها.

ولم تمتدّ تُمتلكات الكامل من مصر حتَّى الجزيرة وحسب، بل اعترف به جميع مُلُوك بني أيُّـوب سُلطاناً أعظم عليهم، ومرجعاً للبيت الأيُّوبي دُون أن يخرج أيُّ منهم عن طاعته، وتحقَّق بذلك القسم الأوَّل من مشروع الكامل، وهُو ضَمُّ الشَّام إلى مصر تحت حُكْمه، وهذا الحُلم كان يراود كُلَّ مَنْ شعر بتفوُّقه من مُلُوك بني أيُّوب.

ولتحقيق كامل المشروع تحرَّك الكامل بقُوَّاته من مصر عام 629 هـ 1231م، بعد أن مهَّد لنجاح مشروعه بسلسلة من المُصاهرات، ربط بها مَنْ يخشى معارضتهم من المُلُوك الأيُّوبيَّة، فقد زوَّج النجاح مشروعه بسلسلة من المُك العزيز صاحب حلب (5)، كها زوَّج الكاملُ ابنتَهُ الأُخرى غازية خاتون

من الملك المُظفَّر صاحب حماة، وفي طريقه مرَّ بالكرك، فعقد لصاحبها ابن أخيه النَّاصر داود بن المُعظَّم على ابنته النَّالثة عاشورا خاتون. وغطَّى الكامل تحرُّكه العسكري بإظهار هدف يُمكن قبوله في الشَّام، ويُسوِّغ به خُرُوجه بهذه القُوَّة، فقد أعلن أنَّه يُريد انتزاع آمد<sup>(1)</sup>من يد ملكها المسعود بن الصَّالح عمود.

وكانت آمد مع قُوَّة خُصُونها لا تستحقُّ هذا الجمع العسكري الهائل الذي وصل مع الكامل، والذي قال عنه ابن واصل في أحداث عام 631 هـ 1234م، ما يلي: "شاهدت من العساكر وكثرتها ما غلب على ظني إنَّه لم يجتمع مثله في الأعصار القريبة منَّا لملك من المُلُوك "(2).

وأثبت صاحب آمد في المحنة التي تعرَّض لها مع الكامل أنَّه غير جدير، لا بالحُكُم، ولا بالقيادة، فمع سماعه بتوجُّه مُلُوك بني أيُّوب مُجتمعين مع الكامل ضدَّه، وعزمهم على خلعه، أرسل وزيره شرف العلاء بهدايا للكامل والأشرف في حَرَّان، فاعتُقِل الوزير، والمسعود صاحب آمد لا يحترز، ولا يستعد (3).

وينتقد ابن نظيف تصرُّف صاحب آمد الذي لم يُقدِّر حجم الخطر القادم نحوه، فقد أرسل رسولاً إلى الملك المُجاهد ليتوسَّط له عند الكامل، "ولم يبذل إلَّا ذهباً، ولا طلب بعض البلاد، ولا نزل عن شيء . . ولم يزل في قلَّة عقله" (4).

وحاصر الكاملُ مدينة آمد بقُوَّات هائلة الحجم والفعَّالية، وهاجمتُهَا العساكر، ونقبت الأسوار، فطلب أهلُهَا الأمان، فأجابهم الكامل<sup>(5)</sup>. ونزل صاحبها إلى الكامل، فاعتقله وسبجنه في حصن كيفا<sup>(6)</sup>.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 257.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 257.

<sup>3 -</sup> الخادم شمس الدِّين صواب العادلي، من كبار مماليك السُّلطان العادل، تُوفِّي عام: 632 هـ 1243م ( النُّبُحُوم النَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 287).

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 177.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

<sup>1-</sup> تنبع أهميَّة آمد من كونها محطَّة تجارية بالغة الأهمَّيَّة بين شلاث دُول: السَّلطنة الأَيُّوبيَّة في الجزيرة والسَّام، وسلطنة سلاجقة الرزم في الأناضول، ومملكة أرمينيا الصُّغْرَى في كيليكيا. ـ راجعُ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 460، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 10 / 44.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 74.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 236.

<sup>4 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 237.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 237.

<sup>6 -</sup> ابن دقياق، نُزهة الأنام، أحداث عام 623 هـ مخطوط (المنصُوري، ابن نظيف، 238 \_ 244 ).

الظَّاهر غازي صاحب حلب، وذلك لتحالفه وعلاقته المُميَّزة وجيرته بحُدُود مُشتركة طويلة مع صاحب الرُّوم، ومع ذلك؛ فقد أرسل قطعة من عسكره نجدة للكامل (1).

وكذلك تخلّف صاحب بانياس، فقد تُوفِّ العزيز بن العادل صاحبها عام 630 هـ 1233م، وخلفه ولده الظَّاهر، ثُمَّ مالبث أن تُوفِّ، فخلفه أخوه السعيد ابن العزيز، وهُو طفل (2).

وحضر مع السُّلطان الملك الكامل أخوه الملك الأشرف، فقد كانت هذه الحَرْب بالاتّفاق معه أوّلاً، ولتعرُّض الرُّومي لمدينة خِلاط وهي للأشرف. وكذلك كان معه الملك النَّاصر داود بن المُعظَّم صاحب الكرَك، والملك المُجاهد صاحب حمص، والملك المُظفَّر صاحب حماة، كذلك كان مع الكامل كُلُّ من إخوته: الملك الصَّالح عاد الدِّين إسهاعيل، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، وكذلك كان مع الكامل الملك الزاهر مجد والملك المُظفَّر شهاب الدِّين صاحب البيرة، وأخوه الملك المُفضَّل مُوسى صاحب سُمَيساط، وابن أخيها الملك الصَّالح أحمد بن الظَّاهر صاحب عين تاب، وغيرهم، حتَّى قيل: "إنَّه كان في وابن أخيها الملك الصَّالح أحمد بن الظَّاهر صاحب عين تاب، وغيرهم، حتَّى قيل: "إنَّه كان في معسكر الكامل ستَّة عشر دهليزاً لستَّة عشر ملكاً (3).

# 2 . مرحلة الانقسام الأيُّوبي، وحلف الشَّام ضدَّ السُّلطان الكامل:

لكنّ كُلّ ذلك لم يغن الكامل شيئاً، فيروي لنا الأمجد حسن بن الملك النّاصر داود ما حصل بين المُلُوك الأيُّوبيَّة، يقول: "إلَّا أن الكامل - فيما بلغني - كان قد تفوَّه بها وغر صدور أهله عليه، وسدَّد سهامهم بالتخاذل إليه، وذلك إنَّه قال: أريد أن أجعل البلاد سفقتيُّن، فأضمّ الشَّام إلى مصر، وأُعوِّض مُلُوكه في الرُّوم، فحَذِر كُلّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حتفه بظلفه. فخبِرت أن المُجاهد انتصب لهذه القضية، فكان ابن بجدتها وشيخ نجدتها، فاجتمع بوالدي وبالملك الأشرف وجماعة من المُلُوك مُقدَّمي النُّجُد، فحذرهم عاقبة التغرير، وقرَّر معهم أن الحزم كُلَّ الحزم في التلكُّو والتقصير. . فتنسَّم الملكُ الكاملُ الأخبار، وطار تخيُّله منهم كُلَّ مطار "(4).

وسلّم الكاملُ آمدَ لابنه الصّالح أيّوب ليكون نائباً عنه فيها (1) "ورتّب معه الطواشي شمس اللّين صواب العادلي، لأنّه كان من أكبر الخدم العادلية، وأوثقهم عنده، وجعل إليه النقض والإبرام في جميع الأُمُور، والملك الصّالح معه صُورة "(2)، وقصد \_ بذلك \_ إبعاد أيّوب عن القاهرة، حيثُ ترك الكاملُ ابنّهُ الآخر العادل نائباً فيها، ووَليّباً للعهد. وتابع الكاملُ تسلّم القلاع حول آمدة، فصبح بمُواجهة مُباشرة مع سُلطان سلاجقة الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ بن كيخسرو، وكان الصدام بينها لا يُحتاج لأكثر عا هُو قائم فعلاً، فالحُدُود المُشتركة بينها طويلة ومتداخلة، وفي الحقيقة؛ لم تكن هُناك حُدُود واضحة المعالم، وبالتّأكيد؛ كان كُلٌّ منها يُفسِّر هذا الوضع لصالحه، إنْ لم نقل إنْ كُلاً منها كانت لديه رغبة كبيرة لتعديلها لصالحه، وتبيّن أن لكُلٌّ منها مشاريعه الخاصّة في عملكة الآخر، فالرُّومي كان لا يُخفي اهتهامه بالسيطرة على مناطق الفُرات شريان الحياة بين الجزيرة والشّام، والكامل تكشّفت مُخطّطاته لاحتلال بلاد الرُّوم بسُرعة (4).

وكانت المُبادرة الأُولى من كَيْقُبَاذ، الذي اغتنم فُرصة هُجُوم الكامل، وقام باحتلال عدَّة قلاع كانت تتبع لآمد، منها: كركر، وكرفازاك، والسويداء، شراءاً من مُتسلِّميها، فتضاعفت نقمة الكامل على الرُّومي، الذي أحنقه \_ أيضاً \_ بمنعه التُّركهان عن القُدُوم لبيع الميرة لعسكره (5).

وهُنا؛ يُقرِّر الكامل تنفيذ الجُزء النَّاني من مشروعه الكبير، والهُجُوم على دولة سلاجقة الرُّوم واحتلالها، لنقل إقطاعات مُلُوك الشَّام الأَيُّوبيَّة إليها، وضمّ الشَّام -بشكل كامل - إلى مصر بدولة واحدة، وملك واحد. لكنْ؛ يبدو أن حسابات الكامل كانت غير دقيقة، فإمَّا أنَّه قد بالغ في ثقته بنفسه، بالسيطرة الكاملة على المُلُوك الأَيُّوبيَّة، الذين رُبَّها خدعه منهم التفافهم حوله، وتنفيذهم لأوامره، أو سُوء تقديره لقُوَّة خصمه الرُّومي، وبالأخصّ؛ لطبيعة بلاده، وحصانتها، واتساعها. ومع أن كُلَّ مُلُوك بني أيُّوب قاطبة كانوا مع عساكرهم في خدمته، ولم يتخلَّف منهم سوى العزيز بن

<sup>1 -</sup> أخبار الأثيوبيَّيْن، ابن العميد، 18، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.

<sup>3 -</sup> قلاع آمد هي: الجبابرة - أكل - كركر - حصن كيفا - كرفازاك - قلعة نجم - الهيشم - باتاسا - الجديدة - القرشية. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17 و 4/ 277).

<sup>4-</sup>راجع: السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي علاء الدِّين قيقباذ، نورة باذباب، مجلَّة المُؤرِّخ العَرَبي، 1 / 2.

<sup>5 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 240\_24.

<sup>1-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 76.

<sup>3-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75\_76.

<sup>4-</sup>الفوائد الجلية، الأمجد حسن بن داود، 218.

ويروي المقريزي الواقعة نفسها، فيقول: "واتَّفق نفور بني أيُّوب من الملك الكامل، سبب أنَّـه حفظ عنه أنَّه قال لخواصِّه: إنْ صار لنا مُلك الرُّوم نُعوِّض مُلُوك الشَّام والشرق مملكة السرُّوم بعدل ما

بأيديهم، ونجعل الشَّام والشرق مضافاً إلى ملك مصر. فحَذَّر من ذلك المُجاهد، وأعلم بـ الأشرف، وأحضر بني عمِّه وأقاربه، وأعلمهم ذلك، فاتَّفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السُّلطان علاء

الدِّين بالميل معه، وخذلان الكامل، وسيَّروا الكُتُبَ بذلك، فاتَّفق وُقُوعها في يد الملك الكامل، فَكَتَمَهَا، ورحل راجعاً"(1).

ونستنتج من النصِّين السابقين أن:

1 - اتِّفاق النُّصُوص على أن الكامل صرَّح عن مشروعه بضمَّ الجزيرة والشَّام إلى مصر.

2 - أنَّه يُريد تعويض المُلُوك من آل بيته بدل ممالكهم في الجزيرة والشَّام بممالك وإقطاعات في

3 ـ الملك المُجاهد هُو مَنْ قام بإبلاغ المُلُوك الآيُّوبيَّة بمشروع الكامل.

4 - مُوافقة جميع المُلُوك الأيُّوبيَّة على التحالف ضدَّ الكامل ما عدا الملك المُظفَّر صاحب حماة، الذي انتظم في حلفهم ظاهراً، وكان في باطنه مع الكامل (2). وكان لدى بعضهم دوافع ومبرّرات للوُقُوف في وجه السُّلطان الكامل، فمثلاً:

أ\_الملك النَّاصر داود كان ينقم على الجميع سلب دمشق منه، وقد جاءته فُرصة مُواتية للانتقام من مُلُوك بني أيُّوب، فعمل على تفريق كلمتهم.

ب - الملك الأشرف كان قد طلب من الكامل الرقَّة لنقص موارده، فلم يجبه، وتَقَوَّل كُلٌّ منها على الآخر، فحملها الأشرف على الكامل(3).

أمًّا الآخرون؛ فلا مبرِّرات لهم، خاصَّة شيخهم وتُحرِّكهم الفاعل الملك المُجاهد، فقد حصل من الكامل على سلمية، وهي خُلمه القديم.

5 \_ الدور الفعَّال للملك للمُجاهد(1) في هذه القضية، الذي تتَّضح لنا أهمِّيَّته من خلال التساؤلات التي تنشأ عن الخبر الذي نقله، وهي:

أ- هل قال الكامل ذلك القول فعلاً ؟ عندها نستنتج أن المجاهد قد وضع الكامل تحت مراقبته الشديدة، وأن له عُيُوناً وآذاناً في حاشية الكامل، وذلك انطلاقاً من طبيعة تكوين المُجاهد، الذي اعتاد الحذر والشكَّ.

ب ـ قد يكون الكامل لم يقل ذلك الكلام، وهذا احتمال وارد، فالمُجاهد وحده هُـو مصدر الحديث، عندها يُمكن أن نقول إن المُجاهد قد اختلق الحكاية بكاملها لضرب الكامل، الذي تزايدت قُوَّته لَحَدِّ الخطر، وبات مُتحكِّماً في مُلُوك الشَّام.

لكنَّ قبول مُلُوك البيت الأيُّوبي لأقوال المُجاهد فوراً وبلا مناقشة، وفيهم أخوة الكامل، يـدلُّ إمًّا على الثقة الزائدة بالمُجاهد، وهذا احتمال ضعيف فيها بين أفراد البيت، الـذين اعتادوا عـدم الثقة بأحد، وخاصَّة الأقرباء، أو على أن نيَّاتهم جميعاً كانت مُتَّفقة على التخوُّف من الكامل وقُوَّته.

ولدينا رواية تُؤكِّد هذا الاحتمال، وتُبيِّن أن المُجاهد قد توقّع ذلك، دُون أن ينسبه للكامل، فقد ذُكر أن المُجاهد قال للأشرف: "إنْ حَكَمَ الكامل على الرُّوم أخذ جميع ما بأيدينا" (2)، أو أنَّه قال له: المتى أخذ الرُّوم تعبنا به، وبقينا بين يدَيْه يُقلِّبنا كيف شاء الهُ.

6 - علم السُّلطان الكامل باتِّفاق المُلُوك عليه مُباشرة، إنْ كان بوُقُوع الكُتُب بين يدَيْه، وهذا احتمال ضعيف، أو بواسطة عُيُونه في بلاطات مُلُوك آل بيته، فهذا يدلُّ على تبادل عدم الثقة بينهم، ووضع العُيُون والجواسيس لتنشُّم الأخبار خشية الغدر.

توقَّف السُّلطان الكامل على النهر الأزرق في أوائل بلد الرُّوم أمام الدربند، وبدأت المصاعب تواجهه، ومنها:

 <sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369.
 2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 316.
 3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 316.

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 282. 3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 122، وكنز الدُّرِّ، ابن آيبك، 7/ 318.

1 \_ وجد أن الرُّومي قد سدَّ في وجهه الدربند، وهُو الممرُّ الوحيد لبلاد الـرُّوم، بالتحـصينات والحراسة المُحكمة.

2 - أُجبر على أن يعسكر في رُقعة ضبِّقة من الأرض، عَمَّا أدَّى إلى "قلَّة الأقوات في عسكر الكامل"، وارتفعت الأسعار، فكان الجُندي مُضطرًا لأن يصرف أكثر عمَّا يكسب، وبالتَّالي؛ يبدأ بالتذمُّر، وإثارة الفوضي.

3 \_ أحسَّ السُّلطان الكامل بتخاذل مُلُوك الأَيُّوبيَّة من حوله، وهذا مُثير للرُّعب؛ حيثُ يُمكن أن يُؤتَى من مأمنه، ويُمكن لإخوته وأبناء عمومته أن يكونوا أكبر خطراً من الأعداء عليه.

ويبدو أن السُّلطان الكامل قد شعر باختلاط الأوراق، بعد علمه بانتشار إشاعة نقل المُلُوك الأَيُّوبيَّة إلى أرض الرُّوم بعد أَخْذها، وأيقن أن مشروعه بات في مهبِّ الريح، فقرَّر العمل بسُرعة، فرحل نحو أطراف بَهَسْنَا. وجاءته مشورة صاحب خرتبرت كَحَلِّ مُنقذ عندما عرض عليه دُخُول بلد الرُّوم من جهة بلده، ويبدو أن الكامل بعد أن أصبحت لديه معطيات جديدة حول فساد نيَّة مَنْ معه من المُلُوك له يعد قادراً على المُجازفة ودُخُول بلاد الرُّوم بنفسه، كذلك لم يردْ أن يُرسل أياً من المُلُوك غير الموثوق بولائهم له، بمَنْ فيهم إخوته، ونظراً لثقته بالمُظفَّر صاحب حماة، فقد أمره بالتحرُّك مع ميمنة الجيش إلى بلد الرُّوم عبر خرتبرت، وأرسل معه عملوك والده ورجله الأوَّل شمس الدِّين صواب العادني، ونخبة أُمراء الجيش المصري كقُوَّة مُتقدِّمة تتألَّف من خمسة وعشرين ألف فارس، وبالتَّأكيد؛ فإن السُّلطان كان ينوي أن يلحق بهذه القُوَّة ومعه كامل الجيش إذا حقَّقت النجاح.

وفي الحقيقة؛ فإن ما تمَّ هُو خُطَّة عسكريَّة جيِّدة، تُـوَمِّن دُخُـول عمـق الـرُّوم بقُـوَّة استطلاع قتالية، تلتفُّ خلف تحصينات الرُّومي في الدربند، وتُفاجئه، لكنْ؛ يبدو أن سُوء النيات بين القادة أدَّى إلى تسرُّب أخبار القُوَّة المُهاجمة، إن لم نقل إن الأخبار وصلت عبر كُتُب المُلُوك الأَيُّوبيَّة إلى الرُّومي، مع طلبهم التحالف معه ضدَّ الكامل<sup>(1)</sup>، فقد انقضَّ اثنا عشر ألف فارس من عسكر الـرُّوم عـلى فرقة المُظفَّر، واضطرُّوهم إلى اللُّجُوء إلى قلعة خرتبرت، بعد أسر عدد كبير منهم.

1-المُختصر، أبو الفداء، 3 / 155.

2-مُفرِّج الكُّرُوبْ، ابن واصل، 5/ 77/ 81، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 162، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131.

3-الفوائد الجلية، الأمجد بن داود، 219.

4 - الفوائد الجلية، الأمجد بن داود، 219.

5-المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.

6-شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 17 3.

7 - ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 165.

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369.

ثُمُّ وصل علاء الدِّين بقُوَّاته، وحاصر قلعة خرتبرت مُدَّة أربعة وعشرين يوماً، لم يجرؤ خلالها السُلطان الكامل على إنجاد القلعة، أو الهُجُوم على قُوَّات الرُّومي لفكِّ الحصار عن المُظفَّر، بل فضًل السُلطان الكامل تركه لمصيره، بدلاً من أن يُغامر بمصيره هُو بين فكَيْ كيَّاشة المتآمرين عليه، النين السُلطان الكامل تركه لمصيره، بدلاً من أهل بيته، وبين عدوِّه القوي الشرس علاء الدِّين كَيْقُبُاذ، انها أمكنه التحرُّك لقتال كيُقبُاذ وفكَ الحصار عن المُظفَّر في خرتبرت "أ". وكانت الحسارة الكُبْرى الفاحب خرتبرت، فقد طلب المُظفَّر الأمان، فأمِّن، وخرج، وتسلَّم علاء الدِّين القلعة والقلاع السبعة التي حولها، وأنهى حُكْمَ الفرع الأرتقي فيها (2). وتراجع الكامل لأنَّه "لم يرَ المقارعة بأنصار قد تفرَّقت عزماتهم "(3)، ولم يستطع الكامل فعل شيء مع الملك المُجاهد المُدبِّر الحقيقي للتحرُّك ضدَّه، ولا مع الأشرف أقوى مُلُوك الشَّام، فصبَّ جام غضبه على النَّاصر داود، ويصف ذلك الأجد بن النَّاصر داود بقوله: "ورتَّب فوات تلك المملكة على سعي والدي، فعدَّه عليه أكبر ذنب، فليًا فارقه من دمشق آذنه بحرب" (4)، وألزمه بطلاق ابنته عاشوراء، فطلَّقها (5).

وبدا على الساحة وكأن الأُمُور قد انعكست على سعي الكامل، الذي خرج يطلب بلاد الرُّوم ومعه كل مُلُوك بيته، فعاد، وقد انقلبوا عليه جميعاً، وأرسلوا يطلبون منه عدم الخُرُوج إلى الشَّام (6)، ولأن خيوط اللعبة السِّياسيَّة منوطة بشخص الملك في الدُّول الأَيُّوبيَّة، فقد كانت تتداخل الأُمُور، وقد يحدث انهيار سياسي وعسكري بحال وفاة الملك، فلا تُوجد مُؤسَّسات سياسيَّة أو عسكريّة تتابع نهج الملك، الذي كان كخيط السبحة الذي ينظم حبَّاتها، فإذا انقطع تبعثرت، وهذا ما حدث في الشَّام عندما تُوفِي الملك الأشرف بدمشق عام 635 هـ 1238م (7).

### العلاقات الأيُّوبيَّة مع مُلُوك الأطراف

المبحث الأوَّل

العلاقات الأيوبيّة مع الأراتقة

كانت الإمارة الأرتقيَّة قد انقسمت إلى فرعَيْن، الفرع الأوَّل: في آمد، ومعها حصن كيفا، وكانت السِّياسة العامَّة لهذا الفرع الأرتقي هي التَّحالف مع الأَيُّوبيَيْن. أمَّا الفرع الأرتقي الثَّاني؛ فكان في ماردين. وكانت مواقف صاحب ماردين على الدّوام مُناهضة للأيُّوبيَّيْن، وهُو مع أيِّ حلف يقوم ضدَّهم (1). وكانت هُناك بعض الإمارات الأرتقيَّة الصّغيرة مشل السّويداء، ودارا، وهي غير ذات أهيِّيَّة سياسيَّة، أو قُوَّة عَسْكَريَّة.

#### 1 . ماردين:

تُعدُّ ماردين من أشهر مُدُن الجزيرة، وهي "مبنيَّة على جبل كالدَّرَج، بعضه دُون بعض، ولارتفاع البلد ومساكنه لا يعلو فوقه طير، ويُرى السّحاب دُونها"(2)، وبها " قلعة مشهورة على قبَّة جبل الجزيرة، مُشرفة على دنيسر، ودارا، ونصيبين"(3).

وقد تملَّك ماردينَ سقيانُ بن أرتق في فترة صراع القادة السّلاجقة على السُّلطة في الجزيرة، وعندما تُوفِّي سقيان عام 498هـ 1105م، خلفه ابنه نجم الدِّين إيلغازي، الـذي تُوفِّي عـام 516هـ 1122م. وتولَّى بعده ابنه حسام الدِّين تمرتاش، وكان مُعاصراً لنُور الـدِّين بـن زنكـي، وتُحالفاً لـه، فعندما فتح نُور الدِّين قلعة الصَّور، سلَّمها له. ولَّا تُوفِّي تمرتاش عـام 547هـ 1152م، خلفه ابنه نجم الدِّين إليي، ومن بعده؛ تولَّى ابنه قُطب الدِّين إيلغازي، الذي تُـوفِي عـام 580هـ، وخلفه ابنه

<sup>1-</sup> الإمارات الأرتقيَّة، عهاد الدِّين خليل، 170.

<sup>2-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 542.

<sup>3-</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ماردين - حول وصف المدينة، راجع: الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 8/ 2/2 ـ 3 542. و 542.

يقول عنها ياقوت: "آمد: بكسر الميم، ما أظنُّها إلَّا لفظة رُوميَّة، بلد قديم حمين، مَبني بالحجارة السُّود على نشز، دجلة تُحيط بأكثره مُستديرة به كالهلال<sup>(1)</sup>.

بعد أن استولى صلاح الدِّين على آمد، سلَّمها إلى صاحب حصن كيفا نُور الدِّين مُحمَّد بن قرا أرسلان، الدِي تُوفِي عام 581 هـ، فأقرَّ صلاح الدِّين عليها ولده قُطب الدِّين سقان ( 581 – 597 هـ 1105م )<sup>(2)</sup>. وبعد موت صلاح الدِّين عام 589هـ 1193م، قام قُطب الدِّين بإرسال أتابكه الصّلاح قتلغ آبه إلى العادل، يطلب عهداً على آمد، ويخطب إليه ابنته، وكان خائفاً من استرجاع العادل لآمد منه، فهي من الفُتُوح الصّلاحيَّة، وقد وهبها صلاح الدِّين لأبيه نُـور الدِّين، فوافق العادل<sup>(3)</sup>. ثُمَّ أخذ قُطب الدِّين يتصرَّف كالحاكم المُستقلِّ، ويدخل في التّحالفات، ويسعى لتقوية مركزه.

#### 3، حصن كيفا:

يقول عنها ياقوت: "ويُقال كيبا، وأظنُّها أرمنيَّة، وهي بلدة وقلعة عظيمة، مُشرفة على دجلة بين آمد، وجزيرة ابن عُمر من ديار بكر "(4)، وكان حصن كيفا يُضاف لَنْ يلي ديارَ بكر، وأكثر ما كان مُضافاً إلى آمد. وقد عَلَّك سكهان بن أرتق صاحب ديار بكر حصن كيفا، وبعد وفاة سكهان؛ تولَّى الحصنَ ولدُهُ داودُ، ومن بعده؛ ابنه قرا أرسلان، ثُمَّ ولده نُور الدِّين مُحمَّد المُعاصر لنُور الدِّين بن زنكي والمُحالف له (5).

#### 4. حَرْتيرْت

بالفَتْح، ثُمَّ الشُّكُون، وفَتْح التَّاء، وباء مكسورة، وراء ساكنة، وهُو اسم أرمني للحصن المعروف بحصن زياد، يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الرّوم، بينه وبين ملطية مسيرة يومَيْن، وبينها الفُرات (6). وهي قلعة حولها سبعة من الحُصُون، وقد أسَّس إمارة خَرْتَبِرْت الأرتقيّة عهاد الدِّين أبو بكر قرا أرسلان، شقيق حاكم حصن كيفا في ذلك الوقت، وذلك في حُدُود عام 581هـ 1185م.

حسام الدِّين يولق أرسلان وهُو طفل، ولصغر سنَّه كان يتولَّى تدبير دولته نظام الدِّين ألبَقِش، ومعه عملوكه لُؤلُؤ.

في عام 594هـ 1198م، أرسل نظام الدِّين البقش (1)، مُدبِّر علكة حسام الدِّين يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي الأرتقي صاحب ماردين، إلى العادل يستدعيه؛ ليُسلِّمه ماردين، على أن يُعوِّضه عنها، فسار العادل بسُرعة نحوها، ولكنَّ نظام الدِّين ندم، ولم ينف له، فطلب العادل النّجدات، فوصله من العزيز في مصر ألف فارس، ومن الظّاهر في حلب خمسائة، فحاصر العادل ماردين، واستطاع الاستيلاء على المدينة، وصمدت القلعة (2).

ولوفاة العزيز المُفاجئة ترك العادل ابنه الكامل مُحاصراً قلعة ماردين، وتوجَّه مُسرعاً نحو دمشق (3)، ونتيجة لهذا الوضع؛ وقع الصُّلح بين الأفضل نُور الدِّين صاحب المَوصل وابن عمَّه عهاد الدِّين صاحب سنجار، وعزِّ الدِّين صاحب جزيرة ابن عُمر (4)، واتَّفقوا على إنجاد ماردين، وساروا الدِّين صاحب من ماردين، بعد أن كادت تسقط بيده (5).

ولمَّا مات حُسام الدِّين يولق، تولَّى المُلكَ أخاه الأصغر قُطب الدِّين أرسلان، فقتىل نظام الدِّين البقش ومملوكه لُوْلُوْ، وانفرد بالحُكُم في ماردين، وأعالها $^{(6)}$ ، حتَّى تُوفِّي عام  $^{(6)}$ هـ  $^{(6)}$  فتولَّى ابنه المنصور أرتق $^{(7)}$ . وفي سنة  $^{(6)}$ هـ  $^{(6)}$ م، اجتمع مماليك أرتق على قَتْل سيِّدهم، فقتلوه وهُو نائم، وولُّوا ابنه الملك السّعيد إيل غازي، وكان مجبوساً في قلعة البارعيَّة  $^{(8)}$ .

<sup>1-</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 557.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80، و الرّوضتَيْن، أبو شامة، 2/ 234.

<sup>3-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 95.

<sup>4 -</sup> الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 1/ 148.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 102 ، و الباهر، ابن الأثير، 194.

<sup>6 -</sup> كان يتبع لماردين قلعة البارعيَّة وقلعة الصَّوَر.

<sup>7 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 2/ 555 \_557.

<sup>8-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/ 558.

<sup>1 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: آمد.

<sup>2-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 514 ـ 519.

<sup>3-</sup>الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 142.

<sup>4-</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: كيفا، - وهي - اليوم - في تُركيا، راجعُ: بُلدان الخلافة الشّرقيّة، 144.

<sup>5-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/ 498.

<sup>6 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: خَرْتَبِرْت، و ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 132.

#### العلاقات مع ماردين:

كان أوَّل احتكاك بين الأراتقة والعادل في عام 594هـ 1198م، فقد "ورد إلى العادل كتاب النظام مُدبِّر عملكة حسام الدِّين يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي الأرتقي صاحب ماردين، يستدعيه ليُسلِّمه ماردين "(1)، فسار العادل نحوها، لكنَّ النظام ندم، وغيَّر رأيه، وتحصَّن في ماردين، فطلب العادل النّجدات من ابن أخيه العزيز صاحب مصر، الذي أرسل له ألف فارس، ومن ابن أخيه الغزيز صاحب مصر، الذي أرسل له ألف فارس، ومن ابن أخيه الظاهر صاحب حلب، الذي أرسل له خمسائة فارس، فتمكَّن العادل من احتلال ربيض ماردين، وحاصر قلعتها (2)، واستولى على ولاياتها، ومُدُنها، مثل: رأس عين، ودنيسر.

وشدَّد العادلُ الحصارَ على قلعة ماردين، ولم يبقَ سوى التسليم، فورد الخبر بوفاة العزين صاحب مصر، وتولية أخيه الأفضل مكانه (3)، فقرَّر العادل التَّحرُّك نحو دمشق. لكنَّ ضعف القلعة الذي عاينه شجَّعه على مُتابعة حصارها ببعض جُنده مع ابنه الكامل (4). واغتنم التحالف الأتابكي فرصة غياب الكامل، فوحَّدوا قُوَّات المُوصل وسنجار وجزيرة ابن عُمر، وتحرَّكوا لإنجاد ماردين، وتمكَّنوا من إجبار الكامل على فكِّ الحصار (5)، ونجت ماردين من الوُقُوع بيد العادل. ووقف في هذه الحرب أمير حصن كيفا الأرتقي على الحياد؛ إذْ لم نسمع له أيَّ نشاط سياسي، أو تحرُّك عَسْكري.

وبعد فشل الأخوَيْن الظّاهر والأفيضل أمام دمشق، وانسحابهم عنها، زاد ذلك في قُوَّة العادل، فلمَّا رجع الظّاهر إلى حلب، اتَّصل بحُسام الدِّين يولق صاحب ماردين، واتَّفق معه على تشكيل حلف جزري ضدَّ العادل، لكنَّه فشل بالقيام بأيِّ عمل مُجد لاتِّفاق الفائز بن العادل مع نُور الدِّين صاحب الموصل.

ولم ينسَ العادلُ ماردينَ، فعندما استقرَّ وَضْعه في مصر ودمشق قام في عام 599هـ 1202م بإرسال حملة عسكريَّة يقودها ولده الأشرف إلى ماردين، وطلب النّجـدات من المَوصـل وسـنجار،

# بداية العادقات بين الأراتقة والدّولة الأيُّوبيَّة:

أثناء حملة الجزيرة عام 578هـ 1182م، راسل صلاحُ الدِّين مُلُوكها وأُمراءها، فوافقه نُـور الدِّين بن مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي (1) صاحب حصن كيفا، على أنْ يُسلِّم صلاح الدِّين آمد إليه، إذا فتحها. وفي العام نفسه 578هـ 1182م، سلَّم حاكم آمد بهاء الدِّين بن نيسان البلدة إلى صلاح الدِّين، الذي وفي بوعده، وسلَّمها إلى نُور الدِّين مُحمَّد (2)، وبعد أنْ تُوفِي؛ أقرَّ صلاح الدِّين مكانه ولده قُطب الدِّين سكهان (3)، "وذلك بعد أنْ حضر الصّلاح قتلغ أبه في عام 584هـ 1188م، وهو أتابك قُطب الدِّين، وأخذ لصاحبه مُلك ديار بكر عهداً، وقد أحضر قُضاة بلاده شُهُوداً، وخطب لـصاحبه ابنة العادل، وكان خائفاً على آمد، فهي من فُتُوح السُّلطان، وهبها لأبيه نُور الدِّين بـن قـرا أرسـلان، فأشفق من استرجاعها بعد وفاة والده، ورغب بالمُصاهرة للمُظاهرة "(4).

ولا يخفى أنَّ تدبير أتابك أمير آمد الأرتقي كان يعتمد على عدَّة أُمُور، منها: استعطاف صلاح الدِّين، وتذكيره بالعُهُود القديمة مع والد الأمير، وتوثيق عُرى التقارب بالمُصاهرة، عن طريق طلب يد ابنة العادل للأمير، فصلاح الدِّين لا تُوجد لديه بنات أو أخوات يصلحنَ للزّواج، والعادل هُو أخوه، ومُستشاره، ووزيره.

وكذلك حرص صلاح الدِّين على توثيق الصّلة وتأكيد العُهُود، فإقراره الأمير الأرتقي على آمد هُو جُزء من سياسة الاستقرار التي انتهجها نحو الجزيرة، فهي عُمقه الاستراتيجي، وهي مصدر المُتطوِّعة للجيش، ومكان الإمداد بالجُنُود، ومصدر عظيم لموارد الدّولة.

واستمرَّت هذه السِّياسة للدولة الأثيوبيَّة تجاه الجزيرة حتَّى وفاة السُّلطان صلاح الدِّين، الذي كانت جُهُوده وتوجُّهاته الأساسيَّة نحو حرب الفرنج، وبعد وفاته؛ تغيَّرت استراتيجيَّة الدولة، فقد التفت العادل لتوطيد نُفُوذه، وأخذ ما بأيدي أولاد أخيه من البُلدان، مُنطلقاً من منطقة الجزيرة، التي كانت بها إقطاعاته الكُبرى.

<sup>1</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80.

<sup>2-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80 ، و الرّوضتيّن، أبو شامة، 2/ 234.

<sup>3 -</sup> الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 58.

<sup>4-</sup>الباهر، ابن الأثير، 194.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 102، و الباهر، ابن الأثير، 194، و الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 62، و والعبر، ابن خلدون، 5/ 588 .

<sup>1-</sup>حول نسب الأراتقة راجع: تاريخ آمد ومَيَّافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشَّاملة، د. شهيل زَكَّار، 17 / 262.

<sup>2 -</sup> الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 11/ 484 - 493.

<sup>3-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 516.

<sup>4 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 142.

وزوَّج كُلُّ منهما ابنته للآخر، في زواج مُقايضة سياسي، ستبدو نتائجــه بعــد مُــدَّة قريبــة، وكــان ذلــك بمُباركة الأشرف، وإذنه (1).

ولكنَّنا \_بسُرعة \_نرى ماردين تعود لعدائها التقليدي للأيُّوبيَّة، فقد كانت أسرع الإمارات الجزريَّة بالانضهام إلى حلف علاء الدِّين الخوارزمي، ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، المذين ضمُّوا إليهم المُعظَّم الأيُّوبي صاحب دمشق، ضدَّ الأشرف صاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الكُبرى في الجزيرة، وحليفه أخيه الكامل صاحب مصر، وخطب في ماردين لعلاء الـدِّين الخوارزمي إشعاراً بـسَلْطنته عـام 623هــ 1226م، وتحدِّياً لسلطنة الكامل<sup>(2)</sup>.

وفي عام 625هـ 1228م، اضطُرُّ الأشرف لاستعراض قُوَّته في الجزيرة، حتَّى عاد صاحب ماردين إلى طاعته، وكدليل على شَكِّ الأشرف به، وليُبقي على الخوف في نفسه؛ رفض أن يحلف لـ ه على إقراره في بلاده، مع أن رسول الخليفة قد تدخَّل مُتوسِّطاً في هذه القضيَّة (3). وقبل أن ينطلق الأشرف في زيارته إلى مصر، وفي العام نفسه 625هـ 1228م، أعطى أوامر واضحة لنُوَّابه في الجزيرة: أخيه الحافظ صاحب جعبر، وعزِّ الدِّين آيبك نائب خِلاط، بأنْ يلتزموا الهُدُّوء والحـذر مع صـاحب ماردين، وأنْ لا يُماجموه إلَّا إذا بدأهم هُو بالهُجُوم (4)، فينتهز ناصر الدِّين صاحب ماردين الفُرصة، ويشنّ الهُجُوم على أراضي حصن كيفا، فيسلب، وينهب، ويحرق (5). ولم يكتف بذلك، بل سعى \_ أبيضاً ـ لتحريض صاحب الرّوم لغزو الجزيرة وأملاك الأيُّوبيين خاصَّة، وكان الرّومي يستعدُّ لغزو أنطاكيـة، فأرسل له صاحب ماردين يقول: "ما لمضيّك إلى أنطاكية معنى. البلاد خالية، والأشرف عند الكامل. . . فتُسيِّر إليَّ عسكراً لآخذ لكَ تلك البلاد". فقام الرّومي بالعمل وحده، دون التّعامل مع صاحب ماردين، ونفَّذ بقُوَّاته عدَّة إغارات محدودة في الجزيرة، لم تُسفر عن شيء يُذكر، وعاد إلى بلاده (6).

فأمدُّوا الأشرف بالعساكر، فسار إلى ماردين، وهزم عَسْكَرَهَا(1)، ثُمَّ حاصرها، ولكنَّ الحصار لم يكن فعَّالاً ، ولم يُؤدِّ إلى نتيجة، فتدخَّل الظَّاهر غازي بالصُّلح بين ماردين والعادل<sup>(2)</sup>. فالظّاهر عندما لم يتمكَّن من التَّدخُّل العسكري كان يرغب \_ضمنيًّا \_ بعدم تملُّك العادل لماردين، حتَّى لا يزداد قُوَّة بها في الجزيرة، لذلك؛ وجد أنَّ الصُّلح في مصلحته أوَّلاً، وفي مصلحة ماردين ثانياً، فهو يضمن وُجُودها، وكذلك وجد العادل في الصُّلح مصلحة مُؤتَّتة له، وذلك لعدم تحقيق الأشرف نجاحاً عسكريًّا في مهمَّته. ولكنْ؛ ظهر العادل بمظهر المُنتصر معنويًّا، فقد حمل إليه صــاحب مــاردين، وُفقــاً لبُنُود الصُّلح، مائة وخمسين ألف دينار، وخطب له ببلاده، وضرب السَّكَّة باسمه، ووعد أن يكون عَسْكَرُهُ بخدمته حين الطّلب<sup>(3)</sup>. وبدا الظّاهر في تدخُّله بهذا الصُّلح كأنَّه وسيط رخيص، وليس ملكاً يتدخَّل لحلِّ الخلافات، وإقرار السَّلْم، فقد كانت أُجرته على هذه الصَّفقة قرية القرادي، وعشرين ألف دينار، كما ذكر بعض المُؤرِّخين (4)، أو عشرة آلاف دينار \_ فقط \_ كما ذكر بعضهم الآخر (5).

# ماردين وسياسة العداء للأيُّوبيين:

ربها لأن آمد كانت إقطاعاً من صلاح الدِّين للأراتقة؛ فقد احتفظت على الدوام - بولائها للسِّياسة الأيُّوبيَّة العُليا، أمَّا الإمارة الأرتقيَّة الأُخرى في ماردين؛ فإنها كانت تتبع سياسة معاكسة لها، فقد كانت - في الأعم الأغلب - تتبع سياسة العداء للأيُّوبيين، حتَّى إنها كانت - على الدوام - ملجاً للأُمراء الفارّين من المالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة الخارجين منهم على الأشرف، فقد استقبل أمير ماردين الأرتقي عام 618هـ 1221م مُبارزَ الدِّين سنقر الصّلاحي، الذي خالف الأشرف، وخرج عن طاعته (6).

ولكن هذه السياسة العامَّة بالعداء للأبُّوبيين كانت \_ أحياناً \_ تشهد تراجعاً ملموساً، فعندما كان الملك المُعظَّم في الجزيرة عام 618هـ 1221م، استقبله ناصر السِّين صاحب ماردين في قلعته،

<sup>1-</sup>ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 128، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 413، و النُّجُوم الرّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 239.

<sup>2 -</sup> الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 159.

<sup>4-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 163.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 163.

<sup>6 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 165.

<sup>1 -</sup> المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 80.

<sup>2 -</sup> الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179.

<sup>3-</sup>الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139، و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمُختَصر، أبو الفداء، 3/ 103، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 161، والمنصُوري، ابن نظيف، 38.

<sup>4-</sup>الكامل في النَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179، مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139.

<sup>5 -</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1/ 161، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمنصُّوري،

<sup>6 -</sup>ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 134.

وفي عام 626هـ 1229م، وتحت تأثير هذا التّجاهل من الرّومي، وربيا لأسباب آنيّة أقوى، قام صاحب ماردين بقَطْع الخطبة للرّومي في بلاده، وخطب للكامل، وضرب السّكّة باسمه، اعترافاً بالتّبعيّة له (1). ويبدو أن هذا التّحوُّل عن الرّومي، وإعلان الطّاعة للملك الكامل، والسير ضمن بوتقة السّياسة الأيُّوبيَّة الشّبه مُوحَّدة تحت شعار سلطنة الكامل، استمرَّ حتى عام 629هـ 1232م، عندما حاصر الكامل آمذ، وفيها الفرع الأرتقي المُنافس لفرع ماردين، فبدل دعم صاحب ماردين لابن عمّه في آمد، قام بإرسال مبعوثيه بحملون الهدايا إلى الكامل، ومعهم بعض عمَّا يحتاجه العَسْكر في الحصار؛ كالخيّم، والأكسية (2).

وبعد فَتْح آمد عام 630هـ 1233م، قدم على الملك الكامل أولاد صاحب ماردين، ولي العهد وأخوه، للتهنئة بالفَتْح، فأكرمها الكامل (3)، كُلُّ ذلك يدلُّ على بهجة حُكَّام ماردين بسُقُوط آمد، فالعلاقات بينها كانت دائمًا \_ سيِّئة، والتّنافس قائم، وكُلُّ إمارة منها كانت تسعى لسَلْب الأُخرى بعض مناطقها (4).

ولكنْ؛ مُباشرة بعد سُقُوط آمد تعود ماردين لتبدِّل موقفها من الأيُّوبيَّة، وتنقض تحالفها وطاعتها للكامل، وربها كان ذلك لسُوء تدبير نائب الكامل في آمد ابنه نجم الدِّين أيوب، ففي العام نفسه لسُقُوط آمد تحالف صاحب ماردين الملك السعيد إيلغازي نجم الدِّين مع كَيْقُبَاذ ملك الروم، وقامت قُوَّاتها المُشتركة بالهُجُوم على حرَّان، قاعدة الأشرف في الجزيرة، وعلى الرّها، وعلى الرّقة قاعدة الكامل، "وفعلا بالجزيرة ما لا تفعله التَّرَ "(5).

وفي عام 635هـ 1237م، سارعت ماردين للدُّنُول في حلف السَّام، الذي ضمَّ عمالـك دمشق وحمص، وسلطنة سلاجقة الرّوم، ومملكة حلب، ضدَّ العادل بن الكامل سُلطان مصر، لكنْ؛ شرعان ما انسحبت ماردين من هذا الحلف، واتَّفق صاحبها مع الخوارزميَّة، اللذين كانوا يعيشون فساداً في الجزيرة، وشاركت قُوَّات ماردين العَسْكَريَّة بَهُجُوم مُشترك مع الخوارزميَّة على آمد، التي

كانت بيد السلاجقة الرّوم، واحتلّوها(1). كذلك هاجموا حرّان، وفيها المُغيث بن أيُّوب، فهرب منهم

إلى جعبر، فلحقوه، ونهبوا أثقاله (2). عمَّا جعل علكة حلب، التي كانت أكبر المُتضرِّرين من

الخوارزميَّة، تتَّخذ موقفاً مُعادياً لماردين حليفة الخوارزميَّة، وقامت بخُطوة عَسْكَريَّة هامَّة، فقد تحرَّك

جيش حلب عام 641هـ 1244م، بحملة ضدَّ ماردين، ولكنَّها انتهت بالصُّلح، وأقطع النَّاصر الثاني

صاحب حلب رأس عين لصاحب ماردين (3). ويبدو أنَّ صاحب حلب آثر هذا الاتِّفاق الـذي يقوم

هاجم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب الموصل عام 646هـ 1248م، مُتلكاتها في نصيبين، ودارا، ورأس

عين، فقام جيش حلب باحتلال نصيبين، التي كان للمَوصل جُزء منها، وأقطعها لـصاحب ماردين،

فتدخَّل الخليفة، وأرسل يشفع بصاحب الموصل لُؤلُّؤ، فقبل النَّاصر الشَّفاعة، وترك له نصيبين،

وأعطى صاحب ماردين بدلاً عنها ماكسين، والمجدل، وبعض مناطق الخابور (4). وفي عام 657هـ

1259م، وبعد اكتساح التَّتَار للعراق، استدعى هُولاكُو الملكَ السِّعيدَ صاحبَ ماردين، فاعتـذر

بمرضه، وأرسل ابنه المُظفَّر قرا أرسلان، ومعه هدايا كثيرة، فلم يعذره هُولاكُو، فأرسل السّعيد إلى

النَّاصر الثاني يعرض عليه المُشاركة في مشروع مُتكامل للتَّصدِّي للتَّشَار، وحمل العرض ابن شــدَّاد،

بالملك السّعيد، قال لي: أنا أُقرض صاحبكم - الملك النّاصر الثّاني صاحب حلب - ثلاثمائة ألف دينار

مصريَّة، ويُسيِّر لي ثلاثة آلاف فارس، أقترحهم عليه، ويصل إلى حلب بنفسه، وله عليَّ أنْ أُرحِّل التَّتر

عن مَيَّافارقين، فإذا بلغتُ غرضي من ذلك، اتَّفقتُ معه على قَصْد الموصل، وإخراجها من يدهذا

قال ابن شدَّاد: "لَّا أذن لي يشموط \_ ابن هو لاكو \_ بالعودة، رحلتُ إلى ماردين، واجتمعتُ

وتأكيداً لهذا الاتَّفاق؛ قام النّاصر الثاني بإرسال النّجدات العَسْكَريَّة إلى ماردين، عندما

على خسارته لبعض الأراضي لشُعُوره بالخطر الأكبر القادم من الشرق.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، أبن واصل، 5/ 187، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 119.

<sup>3-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 1/ 136.

<sup>4-</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 1/ 138، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 181، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

<sup>1 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 188.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 237-

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 239.

<sup>4 -</sup> الإمارات الأرتقيَّة، عهاد الدِّين خليل، 187.

<sup>5 -</sup> البداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 135.

المُنافق - بدر الدِّين لُوْلُق، وكان قد اتَّفق مع التَّتَار - ، فاستحلفتُهُ على ذلك، فحلف، ولمَّا قابلت الملكَ النَّاصرَ ؛ عرَّفتُهُ ما أشار به صاحب ماردين، فلم يحر جواباً ١١٠١٠.

وعاً نقله ابن شدًاد نتبيَّن رُوية سياسية وعَسْكَريَّة تامَّة الوُصُوح لدى السّعيد ملك ماردين، ومشروعاً عَسْكَريًا مُتكاملاً، ربها كان الأمل الوحيد لخلاص الجزيرة من وُقُوعها تحت نير التَّتَار، فقد كانوا يحاصرون مَيَّا فارقين، وصاحبها يُبدي بسالة خارقة في المُقاومة، أذهلت التَّتَار أنفسهم، وأي مُجُوم عليهم يجعلهم بين نارَيْن، ويُقوِّي فُرص النصر. كها يظهر لنا أن السّعيد كان يُدرك أهمِّية وبُجُود النَّاصر في حلب قريباً من المبدان، وأشَّر وُجُوده في تقوية النُّفُوس، وثبات الناس، ويطلب السّعيد: أنْ ينتقي هُو الفُرسان، خشية أنْ يُرسل له الناصر أغراراً، لا يصلحون للمهمَّة العظيمة. كها نجد ثقة كبيرة بالنَّفُس لدى السّعيد، فهُو يتعهَّد بترحيل التَّتَار عن مَيَّافارقين، ثُمَّ يضع خُطَّة تالية لذلك؛ وهي: مُطاردة النَّتَار حتَّى شال العراق، وأخذ المُوصل من يد بدر الدِّين لُوْلُو عميل التَّتَار. ولكن الغريب هو عدم ردّ النَّاصر على هذه الاقتراحات سلباً، أو إيجاباً، ممَّا نعلُه دليلاً على حَيْرته، وقد حاصروه في ماردين عام 865هـ 1260م، حتَّى سلّمها لهم ولده المُظفَّر قرا أرسلان في العام وقد حاصروه في ماردين عام 858هـ 1260م، حتَّى سلّمها لهم ولده المُظفَّر قرا أرسلان في العام وقد حاصروه في ماردين عام 858هـ 1260م، حتَّى سلّمها لهم ولده المُظفَّر قرا أرسلان في العام التّالي وقد حاصروه في ماردين عام 858هـ 1260م، حتَّى سلّمها لهم ولده المُظفَّر قرا أرسلان في العام التّالي 658هـ 1260م.

#### العلاقات مع آمد:

استمرَّ قُطب الدِّين سقهان بن نُور الدِّين مُحمَّد في حُكُم آمد، حتَّى تُوفِي عام 597هـ، فنولًى أخوه الملك الصّالح ناصر الدِّين محمود<sup>(3)</sup>، الذي أرسل وزيره ضياء الدِّين بن شيخ السّلاميَّة إلى الملك العادل، في مُحيَّمه على بُحيرة قدس، ليُجدِّد العُهُود معه، ويستحلفه لصاحبه الصالح حتى يقدم عليه بنفسه (4). واستمرَّ الصالح محمود بسياسة التقارب مع المالك الأيُّوبيَّة، وكانت علاقته جيِّدة جدًّا بالملك الأشرف، "وكان الأشرف بن العادل يُحبُّه "(5)، وقد زار الصّالح محمود الأشرف أكثر

من مرَّة، رغبة منه في الحفاظ على العلاقات الطَّيِّة مع الأَيُّوبيَّة عامَّة، والأشرف سُلطان الجزيرة خاصَّة. واستمرَّ الصالح بذلك، حتَّى تُوفِي عام 619هـ 1222م(1).

وتولَّى حُكْم آمد من بعده ابنه الملك المسعود رُكن الدِّين مودود (2)، وخالف المسعود سياسة أبيه المُوالية للملك الأشرف، فخرج عن طاعة الأيُّوبيين، وعُالفتهم، وانتمى إلى جلال الدِّين الخوارزمي، فحالفه، وخطب له، وأخذ المسعود بالهُجُوم على أطراف مَيَّافارقين، وفيها المُظفَّر غازي أخو الأشرف، وأعلن العداء السّافر للكامل والأشرف ولحليفه علاء الدِّين الرّومي.

وفي عام 623هـ 1226م، اتّفق مع المُعظّم صاحب دمشق، ومُظفَّر السدِّين صاحب إربال، وانضمَّ لحلفهم مع الحوارزمي، مُقابل تحالف علاء السدِّين كَيْقُبُاذ والأشرف والكامل، فطلب الأشرف من علاء الدِّين مُهاجمة آمد، فسيَّر عساكره نحو بلادها، وفتح عدَّة حُصُون تابعة لآمد، فخاف المسعود، وراسل الأشرف، مُعلناً العودة إلى التحالف معه، مُقابل أنْ يكفَّ علاء السدِّين عن بلاده، ويُعيد ما أخذ من حُصُونها. فوافق الأشرف، وراسل لعلاء السدِّين بذلك، فرفض "فأرسل الأشرف عساكره لمساعدة صاحب آمد، الذي جمع، وسار إلى عَسْكَر الرّوم وهُم يحصرون حصن المنع الكختين من بلاد آمد، فهُزم، وجُرح، واستولى عَسْكَرُ علاء السدِّين على الكختين، وهي من أمنع الحُصُون (3)، ويبدو أن نجدة الأشرف للمسعود لم تكن قوية بما يكفي لهزيمة الرّومي، فمُعظم عساكر الأشرف توجَهت نحو حمص لنجدتها ضدَّ هُجُوم المُعظم صاحب دمشق (4).

وفي عام 625هـ 1228م، قبل أن يُسيِّر الأشرف إلى الشام، أعطى تعليماته لأخبه الحافظ في جعبر، وناثبه عزّ الدِّين آيبك في خِلاط، بأنْ يُنجدوا صاحب آمد إذا هاجمه علاء الدِّين كيقباد (5).

ولمَّا استقرَّ الأشرف بدمشق، مُبتعداً عن الجزيرة ومشاكلها، يبدو أن المسعود صاحب آمد قد شعر بالراحة، وترك نفسه على سجيَّتها، فقد كان كثير الوَلَع بالنِّساء (1)، وأخذ بالتّعرُّض لنساء

<sup>1-</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.

<sup>2-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.

<sup>3-</sup>الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 170.

<sup>4-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 53.

<sup>5 -</sup> ذيل الروضتين، أبو شامة، 124، والبداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 93.

<sup>1 -</sup> الكامل في النَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 412 - وقد ذكره أبو شامة في ذيل الرَّوضتَيَّن ضمن وفيات عام 617، لكنَّه رجَّح أنْ تكون وفاته 619هـ ( ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 124 ).

<sup>2 -</sup> ذيل الرّوضتين، أبو شامة، 124.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202 ــ 203.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 163.

الرّعيَّة، حتَّى نُسب إلى الفُسق<sup>(2)</sup>، وهذا ما أعطى الكاملَ المُبرِّر الإظهار أطهاعه بنضمَّ آمد الأملاكه الجزريَّة، التي أخذها من الأشرف بدل دمشق. فكتب الكامل إلى الخليفة المُستنصر بالله يشكو إليه المسعود، ويُعدِّد معايبه، ويُركِّز على تعرُّضه لحريم الرّعيَّة، ويستأذنه في حصار آمد، وأخذها<sup>(3)</sup>.

وفي عام 629هـ؛ تحرَّك الكامل بجُيُوشه من مصر إلى الشّام، فانضمَّ إليه الأشرف، وسارا نحو الجزيرة، فشعر الملك المسعود صاحب آمد بالخطر، وعرف أنَّه هو المقصود بهذا التَّحرُّك، فأرسل وزيره شرف العلاء مُحمَّلاً بالهدايا للكامل والأشرف، فاحتجزوه حتَّى قبل التّعامل مع الكامل ضدَّ مليكه صاحب آمد، فأخذ يُضلِّله بكُتُبه كي لا يحترز. وسار الكامل إلى آمد ومعه مُلُوك وأُمراء الأيُّوبيَّة، وتابع المسعود مساعيه السِّياسيَّة، فأرسل إلى الملك المُجاهد، وهو شيخ الأيُّوبيَّة، ليتوسَّط له عند الكامل.

وأرسل صاحب ماردين الأرتقي نجدة عَسْكَريَّة للكامل ضدَّ قريبه المسعود صاحب آمد، ولمَّا بدأ الحصار والهُجُوم على الأسوار طلب أهلها الأمان (4)، فقد كانوا مُبغضين لصاحبهم لسُوء سيرته، فتخلّوا عنه، وتمنّوا زوال مُلكه (5)، ثُمَّ عرض المسعود التّسليم مُقابِل إقطاع بمصر، فوافق الكامل، وسُلِّمت آمد وقلعتها (6)، ووصل إلى الكامل وهُو عيل حصار آمد رسول الخليفة المستنصر حاملاً إليه التقليد (7)، عاً يعني مُوافقته على أَخْذ آمد، كها وصلته هدايا صاحب ماردين الأرتقي "تقرُّباً ومُصانعة "أقا، الذي شعر بالخطريق ترب منه، فحاول التقرُّب من الكامل، واسترضاءه. ونزل المسعود إلى مُعسكر الكامل، فأكرمه، وطلب منه تسليم القلاع الأُخرى، فكتب له إقراراً بها ما عدا حصن كيفا، "قال: ما هُو لي، ولا في حُكْمي". فتسلَّم الكاملُ بعضَ القلاع، وسيَّر قطعة من جيشه إلى حصن كيفا، وفاوض مَنْ في الحُصن، فلم يقبلوا، فضيَّق الكامل على صاحب

أَقْطَعَهُ هُناك، وأحسن إليه (<sup>5)</sup>.

آمد، وعذَّبه (1)، وفي عام 630هـ 1233م، سار الأشرف إلى حصن كيفا، ومعه صاحب آمد مُقيَّداً،

وطلب من النُّوَّاب تسليمه، فسلَّموه الحصن (2) بعد تعليب المسعود أمامهم (3). وولَّى الكامل ابنه

الصالح نجم الدِّين أيُّوب على آمد وقلاعها (4)، وسار راجعاً نحو مصر، ومعه صاحب آمد؛ حيثُ

بسلاجقة الرُّوم، ويتآمر معهم ضدَّه (6)، وعندما تُوفِي الكامل عام 635هـ 1238م، قام ابنه العادل

بإطلاق سراح المسعود، فتوجَّه إلى الشام، وأقام عند صاحب حماة الملك المُظفَّر، الـذي أكرمه، حتَّى

انفصل عنه مُتوجِّهاً إلى الشّرق، واتَّصل هُناك بالتَّتَار، فقتلوه طمعاً بها معه من المال<sup>(7)</sup>، وبسُوء تصرُّفه

وسُوء أخلاقه هَدَمَ الملكُ المسعود ما بناه أجداده الأراتقة في آمد خلال قرن ونصف من الزّمان، فقمد

السُّلطان الكامل، وبعد وفاة والده عام 635هـ 1238م، استقلَّ أيُّوب بإمارة ماردين والبلاد

الجزريَّة، التي كانت لوالد الكامل حتَّى عام 636هـ 1239م؛ حيثُ بادل ابن عمِّه الجواد، فأخذ منه

دمشق مقابل الرّقّة وسنجار وعانة، فترك أيُّوب الجزيرة، وتوجَّه إلى دمشق (9)، وجعل ابنه المُعظّم

وتحوَّلت آمد إلى ولاية أيُّوبيَّة، تُحكم مباشرة هي وقلاعها من قبَل نجم اللِّين أيُّوب ابن

تلاشت قُوَّة حُصُون آمد وكيفا أمام تخلِّي الرَّعيَّة عنه، ومُباركة الخليفة، وتصميم الكامل<sup>(8)</sup>.

ولم يطل الأمر بالملك المسعود حتَّى اعتقله الملك الكامل، وسجنه، مُدَّعياً أنَّه يتَّصل

تُورانشاه نائباً عنه في آمد وكيڤا.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 247.

<sup>2 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 246 ـ 247.

<sup>3 -</sup> المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 145.

<sup>4-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 422، والمنصُّوري، ابن نظيف، 244، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 159.

<sup>5-</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17، والنُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 250 - وينفرد ابن نظيف بالقول:

<sup>&</sup>quot;سار صاحب آمد إلى دمشق، وشرى داراً وبُستاناً". (المنصُوري، أبن نظيف، 244)، ويبدو انَّه وَهم في هذا، أو أنّه فعل ذلك أوّلاً، فُمّ سار إلى مصر.

<sup>6 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 562 ، والنُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 250.

<sup>7 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 159، وذيل الرُّوضتَيْن، أبو شامة، 124، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17.

<sup>8 -</sup> الإمارات الأرتقيَّة، عاد الدِّين خليل، 186.

<sup>9 -</sup> زُيدة الحَلَب، ابن العديم، 498.

<sup>1-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 520.

<sup>2-</sup>ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124.

<sup>3-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدًّاد، 3/ 2/ 521.

<sup>4-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 236\_237.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 5/ 117.

<sup>6 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 523.

<sup>7-</sup>البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.

<sup>8-</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1/ 243.

### العلاقات مع حَرْتَبِرْت:

ولم يكن لهذه الإمارة دور يُذكر في أحداث الجزيرة بسبب صغرها، وتطرُّ فها نحو الشّال (1)، وربيا كان أهم أدوار هذه الإمارة هُو دعوة صاحبها للملك الكامل عندما تعذَّر عليه عُبُور الدّربند للهُجُوم على بلاد سلاجقة الرّوم عام 631هـ 1234م، ليعبر من درب أمام حصنه، ولكنَّ قُوَّات كيقباد سُلطان سلاجقة الرّوم هزم الفرقة الأيُوبيَّة، التي أرسلها الكامل بقيادة المُظفَّر صاحب حاة، ولمَّا النجأ المُظفَّر إلى حصن خَرْتَبِرْت حاصره كَيْقُبَاذ، ثُمَّ أطلقه بعد أن استولى عليها (2).

وكنتيجة للعلاقات بين السلطنة الأيُّوبيَّة وإمارات الأراتقة نجد أنَّ الأراتقة قد حالفوا الأيُّوبيين مُنْذُ دُخُوهُم إلى الجزيرة الشّاميَّة، وسلَّم صلاح الدِّين مدينة آمد \_ بعد أنْ فتحها \_ إلى واحد من أُمرائهم، وصاهره، فقد كانت سياسة صلاح الدِّين الجزريَّة تهدف إلى تحقيق الاستقرار فيها، وربط أُمرائها بتبعيَّة مُباشرة، ليحصل على الدَّعْم المادي والعَسْكري، خاصَّة الجُند، ليتقوَّى على الحرب، ويتفرَّغ للجهاد.

ولكنّ الأُسرة الأرتقيّة كانت تنقسم إلى عدّة فُرُوع، منها: فرع آمد التّابع بولائه للأيُّوبيّة، وفرع ماردين المُهادن، أو المُعادي لهم حسب الظُّرُوف، فقد لعبت ماردين على حبال التّحالفات، طوراً مع سلاجقة الرّوم ضدَّ الأيُّوبيّة، وطوراً آخر مع الأيُّوبيّة ضدَّ سلاجقة الرّوم، إلى أنْ قضى الملك الكامل على حُكْمهم في آمد، واحتلّها، عندها؛ أعلنت ماردين العداء السّافر، وسعت للتّحالف مع كُلِّ عدوِّ للأيُّوبيّة، حتى جاء التّتار، فكانت ماردين من المُدُن القليلة التي ضربت أروع الأمثلة في المُقاومة. أمّا فرع خَرْتَبِرْت الأرتقي؛ فقد كان يُسيطر على قلعة صغيرة لم تكن ذات بال، ثُمَّ استولى عليها سلاجقة الرّوم نتيجة ولاء صاحبها للأيُّوبيَّة، ودَعْمه للملك الكامل في هُجُومه على بلاد السّلاجقة.

وعندما شعر كيخسرو سُلطان سلاجقة الرَّوم بالظُّرُوف اللَّائمة لتوسُّعه تحرَّك صوب آمد، واحتلَّ بعض قلاعها، وحاصرها، وكان بها المُعظَّم تُورانشاه، الذي جاءته نجدة الخوارزميَّة بعد إيقاعهم بصاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ، وبعد مُناوشات مع عَسْكَر الرّوم اضطُرُّ وهم للانسحاب عن آمد(1).

لخوارزميَّة عنه، عاد غياث الدِّين كيخسرو إلى حصار آمد، وشدَّد الضّغط عليها، فتركها تُورانشاه، وتوجَّه إلى حصن كيفا، فسقطت المدينة بيد كيخسرو، ودخلتُهَا عساكر سلاجقة الرّوم (2). وأقام المُعظَّم تُورانشاه في حصن كيفا، حتَّى خرج منه إلى سلطنة مصر بعد وفاة والده أيُّـوب عام 647هـ 1249م، واستناب في حصن كيفا ولده الملك الأوحد عبد الله ابن تُورانشاه.

ولمّا دخل التّتار إلى الجزيرة جاء الأوحد إلى هُولاكُو، وقدَّم له هديَّة، فأبقى عليه الحصنُ (3). واستمرَّت آمد بيد سلاجقة الرّوم حتَّى سنة 655هـ 1257م؛ حيثُ قصدها ناصر اللّين مُحمَّد بن المُظفَّر صاحب مَيَّا فارقين، لعلمه بمُكاتبة بدر اللّين لُولُو صاحب المَوصل لأهلها من أجل تسليمها له، فكتب ناصر اللّين إلى الملك السّعيد صاحب ماردين، وشرح له الموقف، وطلب نجدته، فأجابه. فتقدَّمت عساكر مَيَّا فارقين إلى آمد، وهزموا عَسْكَرَ الرّوم بها، واستولوا عليها (4).

وفي عام 657هـ 1259م، نزل هُولاكُو أمام آمد، وطلب من سيف الـدِّين بـن عـلي نائـب الكامل صاحب مَيَّافارقين في آمد أنْ يُسلِّمها له، فوافق، وقام هُولاكُو بتسليمها إلى عزِّ الـدِّين وأخيه رُكن الدِّين ابنَيْ غياث الدِّين سُلطان سلاجقة الرّوم، اللَّذَيْن تولَّيا حُكْم البلاد، بعـد مـصرع أبـيها غياث الدِّين كيخسرو إثر هزيمته عام 641هـ 1243م أمام التَّتَار (5)، ولَّا اقتسا البلاد؛ كانـت آمـد لرُكن الدِّين قلج أرسلان "ونُوَّابه بآمد مع نُوَّاب التَّتَار "(6).

<sup>1-</sup> الإمارات الأرتقيَّة، عهاد الدِّين خليل، 187.

<sup>2-</sup>ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 162.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج إلكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.

<sup>2 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ِ 343.

<sup>3-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/898.

<sup>4 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 24 5.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصِل، 5/ 326.

<sup>6-</sup>الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526.

# المبحث الثَّاني

### العلاقات الأيُّوبيَّة مع الأتابكة

لقد عُرفَتْ \_ في عصر الدُّويلات \_ عدَّة دُول باسم الأتابكية، منها: دمشق، والمَوصل، وحلب، وأرمينيا، وأذربيجان، وفارس، ولورستان، وكرمان (1)، وغيرها. وقامت هذه الدُّول على أنقاض الدولة السلجوقية، فقد اعتمد السلاجقة في حُكْمهم على عدد من القادة الأتراك، ولربطهم بالدولة وبالأسرة الحاكمة كان السُّلطان السلجوقي يعهد بتربية واحد من أولاده للبعض منهم، وقد يُزوِّجه أمّ الطفل مُطلَّقة السُّلطان السلجوقي برعايتهم لأولاده. فعندما قام السُّلطان السلجوقي محمود بتولية عاد الدِّين زنكي على الموصل عهد إليه السُّلطان بتربية ابنيه ألب أرسلان وفروخ شاه، مع أنَّه لم يُزوِّجه بأيٍّ من زوجاته السابقات، ومع ذلك؛ فقد عُرف باسم أتابك (3).

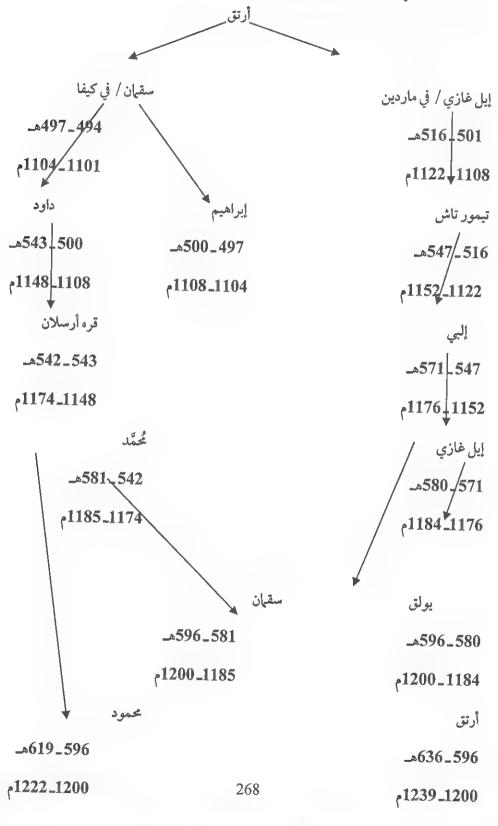
### أتابكة الموصل والجزيرة:

عندما قُتل الشهيد عهاد الدِّين زنكي على حصار جعبر، تجاوز الصدمة العنيفة في المُعسكر رجلان، الأوَّل هُو جمال الدِّين تُحمَّد بن علي أكبر مُستشاري عهاد الدِّين، الذي سارع إلى سيف الدِّين غازي بن عهاد الدِّين زنكي، وطلب منه التَّوجُّه نحو المَوصل، القاعدة الأساسية للدولة، لتنصيبه خليفة لوالده (4) بينها كان الرجل الثَّاني هُو شيركوه بن شاذي، الذي اصطحب نُور الدِّين محمود الابن الثَّاني لعهاد الدِّين إلى حلب، ونصَّبه فيها (5)، ومنها امتدَّت سيطرة نُور الدِّين على السَّام، ثُمَّ مصر. وبموت نُور الدِّين؛ خلفه ابنه إسهاعيل، الذي لم يكن - في الحقيقة \_ يملك أيَّ فُرصة أمام شخصية مُتميِّزة مثل شخصية القائد صلاح الدِّين، فيها إنْ تُوفِي إسهاعيل شابًا حتَّى كانت الشَّام ومصر كُلّها بيد صلاح الدِّين، وزال الفرع الشَّامي، ليبقى فرع المُوصل الأتابكي، ويستمرّ.

#### 1 - راجع كتاب:

269

# الْمُلُوكِ الأراتقة في ماردين وحصن كيفا



The Mohammedan dynasties, Lane-Poole.

<sup>2 -</sup> أعطى تاج الدولة تنش حمص إلى جناح الدولة حسين، وجعله أتابك لابنه رضوان بعد أن زوَّجه أمّ رضوان تركان خاتون. ( بغية الطلب، ابن العديم، 6/ 2806).

<sup>3 -</sup> أتابك لفظ تركى من مقطعين أنا أو أطا ومعناها أب، وبك معناها أمير.

<sup>4 -</sup> الكواكب الدِّرِّيَّة ، ابن قاضي شهبة ، 122 ، والكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، 11/ 113 .

<sup>5 -</sup> الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضيُّ شهبة، 122، والروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 120.

في أوَّل الأمر طمع سيف الدِّين غازي بن قُطب الدِّين مودود، في بلاد عمَّه نُور الدِّين، وهاجم الجزيرة(1)، لكن؛ بعد توجُّه صلاح الدِّين لأَخْذ حلب من إسماعيل بن نُور الدِّين، أدرك غازي أهمِّيَّة تلاحمه مع حلب، فما بعدها إلَّا المَوصل، لذلك أرسل نجدة قويَّة لها بقيادة أخيه عزّ الدِّين مسعود (2). ولَّا تُوفِّي إسهاعيل بن نُور الدِّين أوصى بحلب لسيف الدِّين غازي صاحب الموصل، وطلب منه أخاه عماد الدِّين زنكي أن يأخذ منه سنجار، ويُعطيه حلب، فوافق (3)، ولَّما أخذ صلاح

وفي عام 480 هـ 1087م، استقلَّ والي إربل زين الدِّين أبي سعيد يُوسُف ينالتكين بن زين الدِّين على بن بكتكين، وكَاتَبَ صلاحَ الدِّين، وانحاز له، مُقِرًّا بسلطنته، فكتب له منشوراً ببلاده (5)، وهكذا خرجت إربل عن المَوصل، ممَّا أضعف موقف عزّ الدِّين مسعود، الذي خلف أخاه، وقوى جانب صلاح الدِّين. كذلك التجأ إلى السُّلطان صلاح الدِّين صاحب جزيرة ابن عُمر (6) معزّ الـدِّين سنجر شاه بن سيف الدِّين غازي بن مودود، وكان يحثُّه على قصد المَوصل (7).

بدأت العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة الأيُّوبيَّة مع أتابكة المَوصل وسنجار أيَّام صلاح السِّين، الذي كان يعدُّ أنَّه وريث رسالة عهاد الدِّين ونُور الدِّين بالتحرير والتوحيد، لـذلك هـاجم الموصل،

الدِّين سنجار عاد، وبادل عليها عماد الدِّين مُقابل حلب(4).

وبلادها، وأخذ منهم حلب، أمَّا سيف الدِّين غازي وأخوه عزّ الدِّين مسعود وأبناؤهم من بعدهم،

فيرون أنَّهم أصحاب الدولة كُلُّها، وما صلاح الـدِّين إلَّا تـابع مُتمـرِّد، اسـتولى عـلى تركـة سـيِّده، وحرمهم منها، وقد عبروا عن هذا الموقف غداة موت صلاح الدِّين.

ولم يُقيَّض لدولة أتابكة المَوصل بعد وفاة سيف الدِّين غازي شخصية قويَّة مثل شخصية العادل الأيُّوبِي يلُّمُّ أطرافها، فاستمرَّت انقساماتها، وخلافاتها، وصراعها السِّياسي الدائم، بل والعسكري في بعض الأحيان. وكانت التجزئة أمراً واقعاً لا رادً له بعد وفاة كُلِّ سُلطان قوي له عـدَّة أبناء، أو حتَّى أُمراء، أو قُوَّاد أقوياء. فبحسب نظام الإقطاع العسكري السلجوقي يكتسب صاحب الإقطاع حقَّه مدى الحياة، وله حقُّ التوريث لأبنائه، وعلى هذا النظام قامت دُول الأتابكيات، وكان هُو سبب انقسامها، وضعفها.

# العلاقات الأيُّوبيَّة الأتابكية في عهد العادل:

كان أتابكة المُوصل وسنجار يجاورون الأملاك الأثُّوبيَّة في الجزيرة التي كان فيها إقطاع الملك العادل، وهُو كبير البيت الأيُّوبي بعد وفاة أخيه صلاح الدِّين. ويبدو أن عرَّ الدِّين مسعود صاحب المُوصل أراد اغتنام فُرصة موت صلاح الدِّين، فتناسى خلافاته مع أخيه عهاد الدِّين صاحب سنجار، وجمعا عسكرهما، وراسل مسعودُ مُلُوكَ الأطراف، وشكَّل تحالفاً قوياً ضدَّ الأيُّوبيَّة (1).

وتشكَّل حلف سياسي عسكري قلَّما شهدت مثله الجزيرة، من المعارضين للبيت الأيُّوبي، ومن الطامعين بعد وفاة عميد هذا البيت، فانضمَّ إلى هذا التحالف بكتمر صاحب خِلاط، الـذي كـان يضمر العداء لصلاح الدِّين ولأسرته، كذلك انضمَّ له صاحب ماردين، الـذي كـان أوَّل المُتحرِّكين عسكريًّا، فحاصر حصن الموزر، وكان صلاح الدِّين قد اقتطعه من ولايـة مـاردين، وألحقـه بالرهـا، وسارت قُوَّات التحالف تقصد الرُّهَا، وهي أكبر بُلدان الجزيرة وقتها، "وأرسلوا للعادل: أن اخرج من بلادنا"(2). إنَّه الحقّ القديم يُطالبون به الآن، فالبلاد \_ في اعتقادهم \_ هي مُلك جَدِّهم عهاد الدّين زنكي، قد ورثوها منه، وما صلاح الدِّين إلَّا مُغتصب لإرثهم الشرعي.

<sup>1 -</sup>الروضتَيْن، أبو شامة، 231 ـ 234، والباهر، ابن الأثير، 175، ومُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 2/ 5، وسنا الـبرق، البنْدَاري، تحقيق: ششن، 167.

<sup>2 -</sup> سنا البرق، البنداري، تحقيق: ششن، 186.

<sup>3 -</sup> سنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراوي، 185.

<sup>4 -</sup> سنا البرق، البنداري، تحقيق: نبراوي، 209.

<sup>5 -</sup> سنا البرق، البنَّدَاري، تحقيق: نبراوي، 249.

<sup>6 -</sup> يقول ابن خلكان: " أكثر الناس يقولون جزيرة ابن عُمر، ولا أدرى مَنْ ابن عُمر؟ وقيل إنَّها منسوبة إلى يُوسُف بن عُمر الثقفي أمير العراقيَّن، ثُمَّ أني ظفرت بالصواب في ذلك، وهُو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهُو عبد العزيز بن عُمر، فأضيفَتْ إليه. ورأيتُ في بعض التواريخ ابني عمر أوس وكامل، ولا أدري - أيضاً - من هما، ثُمَّ رأيتُ في تاريخ ابن المُستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن الأثير أنَّه من جزيـرة أوس وكامـل ِابنـي عُمـر بـن أوس الثعلميُّ. ( وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1 / 494\_أوردها عبَّاس العزَّاوي في كتابه: التعريف بالمَؤرِّخين).

<sup>7 -</sup> سنا البرق، البنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 250.

<sup>1 -</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9 / 227، \_إن رواية ابن الأثير، الذي يعيش في بلاط المَوصـل، تُظهـر أن قائـد هـذا التحالف هُو عزّ الدِّين مسعود صـاحب المَوصـل. ( الكامـل في التـاريخ، 9 / 227 )، بيـنها يعـدُّ ابـن واصـل أن هـذا التحالف كان بقيادة بكتمر أمير خِلاط، الذي كان يكره صلاح الدِّين. ( مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 16)، راجع أيضاً: مملكة حلب، كمال بدور، 141.

<sup>2 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

ويبدو أن عزّ الدِّين في تردُّده قد أضاع عدَّة شهور في مُفاوضات مع مُلُوك الأطراف ليُوحِّدهم ضدَّ الأيُّوبيَّة (1). ويذكر ابن الأثير تفاصيل مُهمَّة عن طبيعة التحرُّك الأتابكي ضدَّ العادل؛ فيقول:

"لًا بلغ عزّ الدِّين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب المُوصل وفاة صلاح الدِّين جمع أهل الرأي من دولته، وفيهم مُجاهد الدِّين قايهاز كبير دولته، والمُقدَّم على كُلِّ مَنْ فيها، وهُو نائبه فيهم، واستشارهم فيها يفعل، فسكتوا، فقال أخو مجد الدِّين أبو السعادات المبارك: أرى أن تخرج مُسرعاً جريدة فيمَنْ خفَ من أصحابك وحلقتك الخاص، وتتقدّم إلى الباقين باللحاق بك إلى نصيبين، وتُكاتب أصحاب الأطراف: مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وسنجر شاه، وابن أخيك صاحب جزيرة ابن عُمر، وأخيك عهاد الدِّين صاحب سنجار، تُعرِّفهم أنك قد سرت، وتطلب المُساعدة، فمتى رأوك قد سرت خافوك، وإن أجابك أخوك إلى المُوافقة، وإلاثبدَّأت بنصبين، فأخدتها، ثم سرت إلى الخابور وهُو له، فأقطعته، وتركت مُقابل أخيك عسكراً يمنعه من الحَرَكة، أو قصدت الرقَّة وتأتي حرَّان والرُّهَا، فليس فيها مَنْ بحفظها، فإن العادل قد أخذهما من ابن تقي الدِّين، ولم يُقمْ فيهما ليُصلح ما لهما. وليس وراءك ما تخاف عليه، فإن بلدك عظيم لا يُبالي بكُلِّ مَنْ ورائك. فقال مُجاهد الدِّين المصلحة أن تُكاتب أصحاب الأطراف، وتأخذ رأيهم، وتستميلهم، فقال أخي: سيُشيرون بترك المُحلحة أن تُكاتب أصحاب الأطراف، وتأخذ رأيهم، وتستميلهم، فقال الخي: سيُشيرون بترك المُحاء مَنْ يحفظها يجاهرونكم بالعداوة، ولم يتكلَّم أكثر خوفاً من مُجاهد الدِّين (2)".

فإذا تجاوزنا محاوزنا محاولة ابن الأثير تعظيم رأي أخيه أبي السعادات مُستشار عزّ الدِّين، فإنّنا لا نستطيع إلَّا الإقرار معه أنّنا أمام ملك مُتردِّد يُؤثر السلامة، ولا يُحبُّ المُغامرة، فخُطُط أبي السعادات تبدو أنّها تدبير مُحكم، لكنَّ مُجاهد الدِّين \_ رجل دولة الموصل القوي \_ كان يُفضِّل التأنِّي حتَّى يتم استجلاء موقف بقيَّة الأطراف، كي لا تجازف الموصل بتحرُّك قد يُكلِّفها الكثير. وفي الحقيقة؛ لم يكن العادل ليحتاج من أعدائه لأكثر من هذه الحكمة والتأنِّي ليُرتِّب أُمُوره؛ حيثُ عاجلهم برسالة تخبرهم بموت أخيه صلاح الدِّين، واتَّفاق الكلمة على ابنه الأفضل، وأنّه \_ أي العادل \_ مُدبِّر دولته، وأنّه قد سار في "عسكر جَمَّ لقصد ماردين"، التي تعرَّض صاحبها لبعض قُرى العادل، "فظنُّوه حقًا،

ففتروا عن الحَرَكة. ولمَّا سيَّروا الجواسيس علموا أنَّه في ظاهر حَرَّان ماثتي خيمة لا غير، فتحرَّكوا اللهُّاهر والأفضل الأثَّه فتحرَّكوا اللهُّاهر والأفضل العادل بمسيرهم نحو بلاده، استنجد بعساكر الظَّاهر والأفضل الثَّنه لا يَه لا يملك القُوَّة لدفعهم، خاصَّة أن الأُمُور السِّياسيَّة والعسكريَّة كانت ماتزال غائمة بعد فُقدان السُّلطان صلاح الدِّين، ولم تختبر بعد وحدة البيت الأيُّوبي، ولا مدى فاعلية قواهم.

فنزل عزّ الدِّين دينسرَ، ''ونزل العادل حَرَّان. ولَّا اقترب عزّ الدِّين من الرُّهَا ومعه أخوه، كان العادل قريباً منهم''(3)، وقد وصلتْهُ النجدات من حلب، ومن دمشق(4). مع ذلك؛ طلب العادل الصُّلحَ ''على أن تكون البلاد الجزرية: الرُّهَا، وحَرَّان، والرقَّة، وما معها، بيده على سبيل الإقطاع من عزّ الدِّين، فلم يُجبه إلى ذلك(5)!!.

لكنَّ المرض شُرعان ما داهم عزّ الدِّين مسعود، وأجبره على العودة نحو المَوصل، تاركاً جيشه مع أخيه عهاد الدِّين لإكهال المهمَّة التي خرجا من أجلها؛ وهي احتلال الجزيرة، لكنَّ عهاد الدِّين قرّر الصَّلح مع الملك العادل، رُبَّها لأنَّه كان مسالماً في طبعه، لَـيِّن العريكة، يُـوثر السلامة، أو لأن مرض أخيه جعله يُفكِّر في مشاكل البيت الأتابكي، ورأى أن عودته نحو سنجار غدت ضرورية، ومها كان الأمر فقد قرَّر الصُّلح، وكان ذلك يصبُّ في مصلحة العادل. فاضطرَّ صاحب ماردين للتضرُّع، وتشفَّع إلى العادل، فعفا عنه. ولم يُضيِّع العادلُ الفُرصة، واستغلَّ وُجُود النجدات معه، فأمر الظافر ومُهو بعسكر دمشق ــ أن يُحاصر سروج، وأمده، ففتحها. ثُمَّ تحرَّك العادل نحو الرقَّة، فتسلَّمها، وأعطاها إقطاعاً إلى ابن أخيه الظافر قائد نجدة دمشق (٥)، وكانت هي وسروج لعهاد الدِّين صاحب وأعطاها إقطاعاً إلى ابن أخيه الظافر قائد نجدة دمشق (٥)، وكانت هي وسروج لعهاد الدِّين معه، مثل: سنجار (٦). كذلك استولى العادل على بلد الخابور (٤) جميعه، وفرَّقه إقطاعاً على المُلُوك الذين معه، مثل:

<sup>1 -</sup>الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 338.

<sup>2-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 73.

<sup>1-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 100.

<sup>2 -</sup> زُبُدة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.

<sup>3-</sup> يقول ابن الأثير واصفاً العادل عند اقتراب قُوَّات الأتابكة منه: "فخاف خوفاً عظيماً". (الكامل في التاريخ، 12 / 100)، ورُبَّما كان هذا الخوف من إضافات ابن الأثير ليرضي سادة الموصل، الذين كتب في ظلِّ رعايتهم، وإلَّا فيما أدراه بخوف العادل، وإنْ كان قليلاً، أو عظيماً، علماً أنَّه لا داعي لخوف العادل، فقد وصلتهُ نجدات قويَّة. 4 - رُبِّدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 601.

<sup>5 -</sup> الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 14 / 939.

<sup>6 -</sup> زُبْدَة الْحِلَب، ابن العديم، 2/ 601.

<sup>7-</sup>شفاء القُلُوب، أَحد الحنبلي، 203، والفَتْح القِسِّي، العهاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436. 8-الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

<sup>273</sup> 

صاحب حماة، وصاحب حمص (1). إن هذا التوزيع للإقطاعات الأبدُّ أن العادل كان يقصد منه استهالة أُمراء ومُلُوك بني أيُّوب، وتقريبهم إليه، ولم يكن يقصد منه توزيع إقطاع عسكري حقيقي، بدليل استرجاعه ـ فيها بعد ـ لكُلِّ الإقطاعات التي وزَّعها في هذه المرحلة المُبكِّرة من مُلكه.

كان هذا أوَّل احتكاك عسكري بين الأيُّوبيَّة وأتابكة المَوصل، وقد تمَّ بعد وفاة صلاح اللِّين مُباشرة بتحرُّك أتابكي نحو الرُّهَا، التي تتبع للعادل، وفي هذا الصراع، وقف البيت الأتــابكي مُوحَّــداً مُقابل البيت الأنُّوبي، الذي خاض أوَّل امتحان له في الوحدة ضدَّ خطر خارجي؛ حيثُ أمدَّ كُلَّ أبناء صلاح اللَّه بن عمَّهم بالجُيُوش، ولكنَّهم لم يتوقّعه النالسياسة الأيّوبيَّة الجزرية - بعدها - ستُصبح صدى لصراعاتهم في الشَّام.

# الأتابكة وأولاد العادل، نُوَّاب الجزيرة:

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 85 ـ 59 .

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/2/ 453.

في عام 598 هـ 1202م، وبعد استتباب الأمر للعادل في الشَّام ومصر، سحب ابنَّهُ الكبير ووَليَّ عهده الكاملَ مُحمَّد من الجزيرة، وولاه مصر، وولَّى العادلُ ابنَهُ المُعظَّمَ عيسى دمشقَ، ومعها سُورية الجنوبية، وولَّى ابنَهُ الأشرفَ مُوسى على مُعظم مُمتلكاته الجزرية، وكانت قاعدتها حَرَّان، ووضع معه أخاه الأوحد في ولاية مَيَّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس(2). من هذا التوزيع؛ نستطيع أن نستنتج الأولويات في سياسة العادل، فيبدو واضحاً أن آخر اهتهاماته هي الجزيرة، بينها يُركِّز - بشدَّة - على مصر، فهي القاعدة الأساسية لحُكْم بني أيُّوب، ثُمَّ تليها الشَّام.

ولأن العادل كان يرغب بالحفاظ على مكاسبه في الجزيرة، وبالتَّالي؛ على دولته، فقد سعى جاهداً لتحقيق نوع من السِّلْم المحلِّيِّ في الجزيرة، خاصَّة في بداية عهده، وحاول أن يتجنَّب أيَّ مُغامرة عسكريَّة قد تقلب الوضع كُلَّه في وجهه، وكانت نصائحه لأولاده في الجزيرة تدلُّ على ذلك، خاصَّة أنَّه كان يشكُّ في تصرُّ فات ابن أخيه الظَّاهر غازي في حلب. ويبدو أن فشل صلاح الدِّين مرَّتَيْن أمام الموصل كوَّن لدى العادل فكرة خاطئة عن قُوَّة الأتابكة، ولم يُدرك ما آل إليه الحال بعد كُلِّ تلك السنوات والتغيُّرات في المَوصل.

ولكن الظُّرُوف كانت تصبُّ في مصلحة العادل، فقد وقع الانقسام ضمن البيت الأتابكي،

ففي عام 594 هـ 1198م، ونتيجة لتعدِّيات قُطب الدِّين صاحب سنجار على قرى تتبع المُوصل،

قام أمير المُوصل نُور الدِّين، واحتلَّ نصيبين، وهي من أملاك سنجار (1). فراسل قُطب الـدِّين الملـك

العادل، وكان بدمشق، وبذل له الأموال ليُنجده، ولاحت فُرصة نادرة للعادل تجعله يدخل وسط

عسكره، فاستعادها قُطب اللِّين، لكنَّ العادل-كعادته-أراد أن يستغلُّ وُجُود الجيش معه في

الجزيرة، فتوجَّه نحو ماردين، التي كان مُدبِّر المملكة فيها قد دعاه ليتسلَّمها مُقابل عوض (2)، ولكنَّه لم

يف للعادل(3)، وتحصَّن في ماردين، فهاجها العادل، واستولى على ربضها، وحاصر القلعة(4)، واستمرَّ

بحصارها، حتَّى دخلت سنة 595 هـ 1199م. وكان من المُتوقَّع أن لا تـصمد القلعـة طـويلاً أمـام

قُوَّات العادل، ومعه قُوَّات أيُّوبية كبيرة، لكنَّ حَدَثاً ما لم يكن بالحسبان، وقلب الموازين مرَّة أُخرى،

إنَّما - الآن - داخل البيت الأيُّوبي، فقد ورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، واستدعاء أخوه الأفضل

ليتربُّع مكانه على عرش القاهرة. وبدأ الخطر - الآن - يلوح من جانب حلب وصاحبها الظُّاهر بن

صلاح الدِّين، الذي أخذ يُدبِّر لأَخْذ دمشق من عمِّه العادل، فكان من مصلحته أن يُثبته على حصار

ماردين، فاتَّصل الظَّاهر بأتابكة المَوصل واتَّفق مع نُـور الـدِّين أميرهـا، ليتحـرَّك نحـو مـاردين لمنـع

سُقُوطها، وبذلك ضمن منع العادل من الحَرَكة نحو الشَّام. وعندما خرج الأفضل من مصر طالبـاً

معهم الظَّاهر الأيُّوبي ملك حلب، وصاحب ماردين. فالعادل - الآن - في وضع عسكري حرج،

وأملاكه غنائم سهلة لَمَنْ يتصدَّى لها. وتحرَّك جيش نُور الدِّين من المَوصل، ومعه قُطب الـدِّين مُحمَّد

وأخذ البيت الأيُّوبي بالانقسام، وعاد البيت الأتابكي للتجمُّع ضمن تحالف شمالي كبير، فكان

دمشق أرسل إلى نُور الدِّين يطلب التحالف معه، والمُساعدة ضدَّ العادل (5).

في هذه الأثناء، كان نُور الدِّين قد انسحب من نصيبين، وعاد للمَوصل بسبب وباء تفشَّى في

البيت الأتابكي بدعوة من أحد أفراده، فلم يتردَّد، وجمع قُوَّة كبيرة، وتحرَّك نحو الجزيرة.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، أبن واصل، 3/ 80.

<sup>3 -</sup> الروضتين، أبو شامة، 2/ 234.

<sup>4-</sup>الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 349.

<sup>5-</sup>الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيلَ زَكَّار، 14 / 351.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9 / 246.

<sup>274</sup> 

من سنجار، ومعزّ الدِّين سنجر شاه من جزيرة ابن عُمر، واتَّجهوا صوب ماردين، التي تـرك العـادل قلعتها تحت الحصار بقيادة ابنه الكامل مُحمَّد، وأسرع هُو صوب دمشق، التي كانت جُيُّوش أيُّوبية الشَّام ومصر تتحرَّك نحوها لحصارها، لكنَّ العادل تمكَّن من دُخُول دمشق، والثبات فيها.

واستطاع جيش الأتابكة هزيمة الكامل عند ماردين، فتراجع أمامهم، وكانت الفُرصة سانحة أمام التجمُّع الأتابكي وحُلفائهم لإعادة احتلال الجزيرة، وكانت نيَّة نُور اللِّين المُتابعة لأَخْذ حَرَّان (1)، لكنَّه \_ فجأة \_ يُقرِّر الانسحاب نحو قاعدته في الموصل مُحتجًّا بمرضه (2)، ويبدو أن حقيقة الأمر هي خلافه مع الظَّاهر الذي يذكر ابن الأثير بأنَّه كان بسبب طلب الظَّاهر الخطبة والسَّكَّة في المَوصل(3)، إن هذا السبب حتَّى وإنْ ذكره ابن الأثير فهُو مشكوك فيه، خاصَّة في ظلِّ هذا الظرف، فخطر العادل مازال قائماً. ويبدو لنا السبب الأكثر احتمالاً لعودة نُور اللِّين وانسحابه من مشروع التكتُّل ضدَّ العادل هُو عدم تطبيق الظَّاهر لبُنُود الاتِّفاق معه، فقد اتَّفقا على أن تكون لنُور الدِّين سروج والرقَّة، ولكن الظَّاهر قام بإقطاع سروج إلى الأمير سيف الدِّين بن علم الدِّين بن جندر قائد القُوَّة الحلبية لدعم التحالف الأتابكي ضدَّ العادل(4)، فقد تبيَّن نُور الدِّين حقيقة نواياه، وأدرك أن الظَّاهر يُريد استغلال كره الأتابك للعادل، وتجنيدهم ضدَّه، مُستفيداً من إيقاظ أحلامهم باستعادة الجزيرة. وجاء تنبُّه نُور الدِّين لذلك في الوقت المُناسب، ممَّا مكَّن العادل من الاحتفاظ بدمشق، ولذلك نعتقد أن موضوع الخطبة والسَّكَّة لم يكن ذا بال لدى نُور الدِّين، فهي شيء شكلي، ويُمكن أن يكون مرحلياً يتمُّ التَّخلِّي عنه عند اللزوم، خاصَّة إذا عرفنا أن نُور الدِّين كان قد سبق وعرض الخطبة والسّكَّة في بلاده على الظَّاهر عندما طلب التحالف معه ضدَّ العادل عام 606 هـ 1209م، أثناء هُجُوم العادل على سنجار، والاعتراف به سُلطاناً على كلّ بلاد الأتابكة (5). كما أن قُطب الـدّين مُحمَّد صاحب سنجار كان يخطب فعلاً للعادل ببلاده (6). هُنا؛ تبدو لنا السياسة الأيُّوبيَّة في الجزيرة \_بشكل جلي \_ كصدى لسياستهم في الشَّام.

وبعد طرد الأفضل من مصر، وخلع المنصور بن العزيز عن عرشها عام 596 هـ 1200م، انفرد العادل بملك مصر، ولم يبق في ساحة المُواجهة ضدَّه من أولاد أخيه سوى الظَّاهر في حلب، الذي أيقن أنَّه يكون سيكون التالي في أطماع عمِّه العادل، فعاد الظَّاهر لإحياء الحلف الشمالي من جديد، لحماية ظهره في الجزيرة والشرق، ليتفرَّغ للصراع المُقبل مع عمِّه العادل. اتَّصل الظَّاهر بنُور الدِّين أتابك الموصل، وحُسام الدِّين يولق صاحب ماردين، "وتحالفوا، وحلفوا"(1)، وظهرت فائدة هذا الحلف للظاهر عندما تحرَّك لحصار دمشق عام 597 هـ 1201م؛ حيثُ طلب من نُور الدِّين مُهاجمة مُتلكات العادل في الجزيرة، فتحرَّك نُور الدِّين من المَوصل ومعه ابن عمَّه قُطب الدِّين صاحب سنجار، وانضمَّ إليهما صاحب ماردين، وقصدوا رأس عين، وفيها الفائز بن العادل نائباً عن أبيه.

وهُنا \_ أيضاً \_ يُكرِّر نُورُ الدِّين انسحابَهُ بحُجَّة تفشِّي المرض بين قُوَّاته، ولكن الاحتال الأقوى لانسحابه هُو تواتر الأخبار من دمشق عن اختلاف الظَّاهر وأخيه الأفضل ورجحان كفَّة عمِّها العادل في صراعهم معه على دمشق. وليحمي نُور الدِّين ظهره خلال انسحابه، وليُعوِّض تورُّطه النَّاني، وانخداعه بوُعُود الظَّاهر، قام بعقد الصُّلح مع الفائز بن العادل، ثُمَّ انسحب نحو المُوصل، لينهار التحالف الشمالي مرَّة أُخرى (2)، ممَّا مكَّن الفائز للتفرُّغ في الجزيرة، فقلب الآية، وبـدلاً من ضغط الحُلفاء على العادل في الجزيرة لتسليم دمشق أخذ الفائز بالهُجُوم على تُمتلكات حلب لتخفيف الضغط العسكري عن دمشق، فهاجم بالس ومنبج، ولَّا تصدَّى له المبارز أقجا قائد جند حلب هزمه الفائز، وأمعن بنهب إقطاعات قادة جند حلب المُحاصرين لدمشق، حتَّى يشغل أفكارهم. ولكنَّ كُلُّ هذه الحَرَكَة للفائز في الجزيرة لم تكن إلَّا الجُزء الأوَّل في خُطَّته، التي سهَّلها له فشل التحالف الحلبي الأتابكي، فالجُزء الثَّاني، وهُو الأهمّ، كان التحاق الفائز مع جند الجزيرة بوالده العادل المرابط في نابلس لإنقاذ دمشق المُحاصرة.

وبعد أن استتبَّ الأمر للعادل داخل البيت الأيُّوبي، بإقصاء الأفضل وخُـضُوع الظَّاهر، غـدا العادل السُّلطان الأعظم للأيُّوبية، فله الخطبة والسَّكَّة في كُلِّ إمارات الشَّام، وبيده مُدُن عدَّة من الجزيرة، إضافة إلى تملُّكه مصر ودمشق وجنوب الشَّام. وكان الأمر على العكس من ذلك داخل

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.

<sup>2-</sup>الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14 / 196، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.

<sup>3-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.

<sup>4 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 3/ 145.

<sup>5 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو شامة، 3/ 105.

<sup>1 -</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 354، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 120، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630. 2 - الباهر، ابن الأثير، 196، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 126، والبداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 34.

أَخْذَهُ لسنجار قد لا يُعجبهم، من التآمر عليه، بينها لا يُشكِّل التّصدِّي المُعلَن للكرج أيَّ خطر عليهم، بل على العكس، فالعدوُّ كافر، وهذا جهاد لا يستطيع أيُّ منهم أن يتخلَّف عنه.

وسارع العادل إلى حُرَّان، وطلب أن يكون النجمُّع عليها (1)، فوصله ولده الأوحد صاحب أخلاط مع عسكره، وولده الأشرف بقُوَّات الجزيرة، والمنصُور صاحب حماة، والمُجاهد صاحب حمس، والأمجد صاحب بعلبك، والصَّالح صاحب آمد مع عسكرهم، كما وصلت عساكر الظَّاهر صاحب حلب، وصاحب السويداء وصاحب دارا بقُوَّاتهم (2)، والأطرف في الأمر وُصُول عسكر المنصُور صاحب سنجار (3). وعندما وصل العادل رأس عين بلغه انسحاب الكرج (4)، وذلك " أن الكرج لما عرفوا بحركته، خافوا، وكرُّوا عائدين إلى بلادهم (5). فالنقت العادل لتحقيق هدف الكرج لما عرفوا بحركته، خافوا، وكرُّوا عائدين إلى بلادهم (أفَّة فلا المرهما فُطب الدِّين معه في حملته؟! وكيف يُبرِّر ذلك أمام المُلُوك والأمراء من آل بيته؟! فلم يجد أفضل من إعلان الغضب على قُطب الدِّين؛ لأنّه تخلّف عن الحُضُور بنفسه، واكتفى بإرسال قُوَّاته، وقال: إنَّه "تجدّد له قصد سنجار لتخلُّف صاحبها عن وُصُوله بنفسه، واكتفى بإرسال قُوَّاته، وقال: إنَّه "أنجد له قصد فأحسن العادل استغلاله. وأعلن العادل أنّه سيتوجّه لمعاقبة صاحب سنجار أوّلاً، وأرسل إليه يطلب فأحسن العادل استغلاله. وأعلن العادل أنّه سيتوجّه لمعاقبة صاحب سنجار أوّلاً، وأرسل إليه يطلب تسليم سنجار مُقابل عوض، فرفض ذلك (7). وفي عام 205 هد 1208م، كان العادل يتحرَّك صوب سنجار، وفي طريقه أخذ نصيبن والخابور، ثُمَّ "نصب المجانيق، وقاتل سنجار، وأشرف على آخذها سنجار، وفي طريقه أخذ نصيبن والخابور، ثُمَّ "نصب المجانيق، وقاتل سنجار، وأشرف على آخذها عنوق"!"

البيت الأتابكي، فقد عادت الخلافات الأتابكية من جديد عام 600 هـ 1203م؛ إذْ قام قُطب الدِّين مُحمَّد بالانتهاء للعادل واللَّجُوء لحمايته بإعلان الخطبة والسَّكَة له في سنجار، ورُبَّها كان ذلك نكاية بأمير المَوصل نُور الدِّين، أو خوفاً من مطامعه، الني شرعان ما تبدَّت بهُجُومه على نصيبين، واحتلالها(1)، فأمر العادلُ ابنهُ الأشرف الذي أولاه حُكْم أملاكه في الجزيرة، وابنه الأوحد صاحب ميًا فارقين، بالتحرُّك لنجدة صاحب سنجار، فسارا ومعها نجدة صاحب حلب، فهزموا نُور الدِّين الذي هرب لا يُصدِّق بنجاته إلى المَوصل(2)، فالانقسام الأتابكي - الآن - يواجهه تجمُّع أيُّوي.

# الانقلاب في توجُّهات المَوصل السِّياسيَّة:

يبدو أن نُور الدِّين صاحب المَوصل قد أيقن \_ بعد تلك التجربة \_ أنَّ أيَّ تحرُّك ناجح يجب أن يكون بدعم وتأييد العادل، الذي أصبح القُوَّة الكُبْرى في المنطقة، وفي الوقت نفسه؛ كان العادل يسرى من مصلحته تفريق مُلُوك البيت الأتابكي، والدُّخُول بينهم؛ ليتمكَّن من السيطرة عليهم كها فعل مع أولاد أخيه، ففي عام 605 هـ 1208م، طلب العادل مُصاهرة نُور الدِّين، وخطب ابنته لأحد أولاده (3)، وسعى لإقامة تحالف معه، واتَّفقا على اقتسام المهالك الأتابكية الأُخرى؛ بحيثُ يأخذ العادل سنجار وهي لقطب الدِّين ابن عمِّ نُور الدِّين، ويأخذ نُور الدِّين جزيرة ابن عُمر، وهي المعادل سنجر شاه (4). وجاءت الفُرصة للعادل تسعى، فقد هاجم الكرج مملكة خِلاط، واحتلُّوا أرجيش (5)، وكانت للأوحد بن العادل، الذي استصرخ أباه (6)، فأعلن العادل التعبئة ضدَّ الكرج، الوكتب إلى البلاد بطلب العساكر، وأظهر أنَّه يُريد قصد الكرج "(7)، وكان ذلك ملائماً لإخفاء العادل حقيقة نواياه ضدَّ سنجار، ولم يُظهر اتَّفاقه مع صاحب المَوصل، لمنع قُطب الدِّين صاحبها من الاستعداد، وأخذه على غرَّة من جهة، ومن جهة أُخرى؛ لمنع الأمراء الأثوبيَّيْن، الذين قدَّر العادل أنَّ

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 57.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 75\_58.

<sup>4-</sup>زبدة لحلب، ابن العديم، 2/ 630.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 192.

<sup>6 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 57.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 191.

<sup>8 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 95\_58.

<sup>1-</sup>المُختصر، أبو القداء، 3/ 105.

<sup>2-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191.

<sup>4-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 286، ـ أمَّا ابـن نظيـف؛ فيقـول: إن خُرُوج العادل كان بسبب ما وصل إليه من تحالف أتابك المَوصل والظاهر مع جميع الشرقيين. ( المنصُوري، 57 ).

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 183.

<sup>6 -</sup>مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 3/ 190.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

عندما حاصر العادلُ سنجارَ كان نُور الدِّين صاحب المُوصل يهمُّ بإرسال نجدة عسكريَّة له مع ولده الظَّهر عزّ الدِّين مسعود لتنفيذ الاتُفاق المُسبق بينها، وإذْ برسول مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، الذي كانت له وُجهة نظر أُخرى، فقد شعر بأنَّ العادل قُوّة كُبْرى في مُجاورتها خطر شديد عليه، وعلى المَوصل، فأنفذ رسوله إلى صاحب المَوصل، وشرح وُجهة نظره، وعرض عليه التحالف لإنقاذ سنجار، التي ستكون حاجزاً أمام أطباع العادل بمالكهم. هُنا؛ أدرك نُور الدِّين أنّه استقدم أكبر الأخطار نحو حُدُوده، وخاف مغبَّة ما بعد سيطرة العادل على سنجار<sup>(1)</sup>، وربُّها كان مُظفَّر الدِّين كوكبوري حاكم إربل هُو مَنْ نمَّى هذا الخوف في نفس نُور الدِّين من خلال كُتُبه المُتواترة عليه، والتي يعرض فيها المُسائدة، ويدعوه للتصدِّي للعادل، وتشكيل تحالف ضدَّه، فوافق نُور الدِّين، وراسلا الظَّهر في حلب، فوافق، وانضمَّ إليهم، مع أن قُوَّة كبيرة من جيشه كانت مع العادل على سنجار. وأظهر غازي سبباً غبر حقيقي لتبرير خُرُوجه على عمِّه، فقال: إن العادل قد تصرَّف بقرية القرادي التابعة لماردين، والتي حصل عليها الظَّهر نتيجة عقد الصُّلح بين العادل وصاحب ماردين (2)، وبالطبع؛ فدوافعه الحقيقيَّة لا تخفى على أحد، فقوَّة العادل في الشيال ستكون ضدَّه أيضاً، والظاهر لديه شكُّ دائم بنوايا عمِّه، خاصَّة بعدما فعله بأخويُه الأفيضل والعزير (3). وراسل الحُلفاء الخليفة ليشفع لدى العادل بصاحب سنجار (4)، وما ذلك إلَّا لزيادة الضغط على العادل، وعَزْله سياسياً.

وأرسل مُظفَّر الدِّين إلى العادل يشفع في صاحب سنجار، "فلم يقبل، وقال: لا يجوز لي في الشرع تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد، وترك خدمة الأجناد، وفي مصلحة الجهاد "(5)، فكانت حُجَّته هي المصلحة العامَّة، التي لا يُراعيها صاحب سنجار وفساده وإتلافه للأموال العامَّة، كها اتَّهمه بالتقصير بحقِّ الجيش، وبواجب الجهاد، إنَّها تهمة كبيرة وحُجَّة مُسوَّغة في

العادل، ولم يتصرَّف بذلك من أجل الأتابكة، أو بتحريض الظَّاهر له (5).

ذلك الزَّمان. وكان ردُّ مُظفَّر الدِّين أنْ أفسد جماعة من عسكر العادل(1)، بأنْ استمالهم بالأموال

والوُّعُود بإقطاعات، ففسدت نيَّاتهم عن مناصحة العادل بالقتال معه، وهذه طريقة للتعامل كانـت

مُساعدة ابن عمِّه نُور الدِّين صاحب الموصل، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، ولمَّا كان العادل قد رفض

الشفاعة بسنجار، فتحرَّكا بعساكرهما نحوه (2). كذلك خرج الظَّاهر من حلب بقُوَّاته، وأرسل

للعادل يشفع بصاحب سنجار، وقال لرسوليه: "إنْ لم يقبل الشفاعة، فأعلماه أني خارج إلى بـلاده،

وأنْ يأمرا عسكر حلب أنْ يُفارقوه إلى الموصل، أو إلى حلب" (3)، وأرسل يُغري المُجاهد صاحب

حمص، والمنصُور صاحب حماة بالعادل، فكانت الضربة القاسمة لوحدة البيت الأيُّوبي واجتماعه في

القتال على سنجار، فتخاذل قُوَّاد العادل عن القتال، وتآمر مُلُوك الأثُّوبيَّة الذين معه، لا سيما المُجاهد

الذي كان يُذْخِل من جانبه الأقوات إلى سنجار (4)، وغالباً؛ فقد كانت للمُجاهد دوافعه الخاصَّة ضـدَّ

أُستاذ داره، والأمير آقباش، وهُو من خواصِّ مماليك الخليفة، للشفاعة بمصاحب سنجار، وترك

حصارها (6). فلاحت فُرصة الخلاص من هذا المأزق للعادل، فأظهر قبول وساطة الخليفة، ووافق

شريطة احتفاظه بنصيبين والخابور(٢)، ويُضيف ابن الأثير شرطاً آخر له، هُو دُخُول سنجار في

حلفه 8، ورُبَّما كتب ابن الأثير ذلك تسويقاً لمواقف صاحب الموصل المستقبلية ضدَّ سنجار

وفي هذه الأثناء، أرسل الخليفةُ النَّاصر رسولَهُ أبو نصر هبة الله بن المبارك بن النضحَّاك، وهُـو

واستمرَّ حصار العادل لسنجار حتَّى عام 606 هـ 1209م، فطلب صاحبها تُطب الـدِّين

شائعة جدًّا، فمُعظم الجُند جاهز سلفاً للاتِّفاق مع مَنْ يدفع أكثر.

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.

<sup>2 -</sup> الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 355.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 196.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

<sup>5-</sup>راجعُ: مملكة حمص الأيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 167.

<sup>6 -</sup> الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 14 / 355، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197، ـ بينها يقول أبو شامة: " وأرسل الخليفة ابن الضحَّاك أُستاذ داره آقباش الناصري يشفع إلى العادل" ( ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 67 )،

وهذا خلط بين الشخصيَّتين، رُبَّما كان ذلك بسبب خطأ في النسخ.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

<sup>8 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 302.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

<sup>3-</sup> يُضيف ابن العديم سبباً آخر لا نعتقد بصحّته، وهُو أن الحُلفاء قد وعدوه بالسَّلْطنَة، وأَنْ تكون الخطبة والسّكّة باسمه في بلادهم، ( زُبُدة الحَلَب، 2/ 630 ).

<sup>4 -</sup> الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 14/ 355.

<sup>5 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.

5 - إن قبول العادل لوساطة الخليفة ما هُو إلَّا مخرج حفظ به ماء وجهه، فقد أيقن بفشل الحصار، وتأكَّد من تخاذل بني أيُّوب من حوله، وأن الأُمُّور تكاد أن تنقلب عليه، فكانت وساطة الخليفة إنقاذاً له بالدرجة الأُولى.

ونستنتج من كُلِّ ذلك أن البيت الأتابكي بعلاقاته السِّياسيَّة والعسكريَّة لم يكن مُكافئاً للبيت الأيُّوبي، لا من حيثُ القُوَّة والتأثير، ولا من حيثُ وحدة البيت الأتابكي، فلم يكن لهم وزن إقليمي مُؤثِّر قادر على إحداث تغيُّرات جذرية في شهال العراق والجزيرة، حتَّى في حال استغلالهم لخلافات البيت الأيُّوبي، ونجد \_على الدوام \_ أن مُعظم أُمراء الأتابكة يخضعون لسلطان الأيُّوبيَّة، ويدعمونهم بالنجدات، ويخطبون لهم وينقشون اسمهم على السّكَّة في بلادهم، في مُعظم هذه المرحلة من الـزمن. إِلَّا أن عهد التفوُّق الأتُّوبي الكامل، والانفراد بالزعامة، قد تمَّ بوفاة نُور الدِّين أرسلان شاه صاحب الموصل عام 607 هـ 1210م، واقتسام طفليّه الصغيرَيْن عملكته (1)، وبدء وصاية بدر الدِّين لُؤلُّ ق مملوك أرسلان شاه (2) على الموصل. وبأبسط الطُّرُق زالت عقبة كأداء من أمام الملك العادل، وتحقَّق له الاطمئنان والراحة على حُدُوده الشَّرْ قيَّة (3).

# العلاقات مع الأتابكة في عهد الأشرف:

بعد موت السُّلطان العادل 615 هـ 1218م، كان الصُّلح بين الأيُّوبيَّة والأتابكة، الذي عُقد على أسوار سنجار مايزال قائماً، وحاول الملك الأشرف وهُو أقوى مُلُوك شمال الشَّام أن يحافظ على علاقاته مع الأتابكة ومُلُوك الأطراف على أساس ذلك الاتِّفاق، لكنَّ مُستجدًّات الأُمُور سبقتُهُ. ففي العام نفسه تُوفِّي عزّ الدِّين مسعود بن أرسلان شاه صاحب الموصل (4)، فتحرَّك عماد الدِّين زنكي بن أرسلان شاه صاحب قلاع الحميدية وعقر وشوش، واستولى على عدد من قلاع الموصل، ولَّا تـصدَّى وصاحبها، فموضوع التحالف شيء غير مضمون، إن لم يكن عن رغبة صادقة ومصلحة حقيقيَّة، لذلك لا نعتقد أن العادل قد اهتم كثيراً بشرط كهذا.

# وقفة مع تحرُّكات الحُلفاء ضدَّ العادل في حصار سنجار:

1 ـ تدخَّل الظَّاهر غازي في حصار سنجار مدفوعاً بمصالحه وعدائه القديم للعادل، ولخشيته من تزايد نُفُوذ عمِّه في الشيال، فأوفد رسولَيْن للعادل بمهمَّة علنية، يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، وبمهمَّة سرِّيَّة لتبليغ القُوَّات الحلبية في جيش العادل كي تعود إلى حلب، وأعلن أنَّه نقض اتُّفاقه مع العادل؛ لأنَّه احتلَّ قرية قرادي، ولم تكن القرية ذات بال، ولكنْ؛ وفي الحقيقة، كان الظَّاهر

2 - اتَّصل الخُلفاء بالملك المُجاهد صاحب حمص، الذي كان على رأس قُوَّاته على حصار سنجار مع العادل، واستهالوه، فالمُجاهد \_ أيضاً \_ يهمُّه أن لا تتَّسع عملكة العادل، فقد يتفرَّغ له بعد أن شاهد تصرُّ فه مع أولاد أخيه، وهم الأقرب له، "فأخذ المُجاهد \_بدلاً من القتال على سنجار وتشديد الحصار عليها من جهته \_يُدخل إليها الأغنام، وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يُقاتل عليها"(1)، وكذلك اقتدى به غيره من الأُمراء المُحاصرين لسنجار (2).

3 \_ توحّدت \_ بشكل غير مُتوقّع \_ قُوّات مُظفّر الدّين كوكبوري مع قُوّات نُور الدّين، ثُمّ تحرَّكا نحو سنجار، بعد أن أرسلا يشفعان لصاحب سنجار، ورفض العادل(3).

4 - ويبدو أن تزايد أنصار الحلف الشالي ضدَّ العادل، وتخاذل أصحابه، وتفرُّقهم، وتدخُّل الخليفة بقُوَّة بإرساله شخصيَّة مُهمَّة في السِّفارة إلى العادل هُـو بهـاء الـدِّين بـن الـضحَّاك أُسـتاذ دار الخلافة، يقول ابن الأثير حول إنفاذ مثل هذا الرسول: "وناهيكَ بهذا شرفاً وجلالة وقدراً لنُور الدِّين عند أمير المؤمنين؛ إذْ يُنفذ مثل أستاذ داره (4)، ومعه الأمير آقباش من خواصٌّ مماليك الخليفة "(5)، فاضطُرَّ العادل لقبول الوساطة، وفكّ الحصار عن سنجار (6).

<sup>1 -</sup> تولَّى في المَوصل عزّ الدِّين مسعود بن نُور الدِّين أرسلان شاه، وكان عمره عشر سنين. وتـولَّى أخـوه الأصـغر عـماد الدِّين زنكي قلاع: عقر الشوش والحميدية.

<sup>2-</sup> بدر اللِّينَ لُوْلُو: ابن عبد الله، الملك المسعود أبو الفضائل الأتابكي الرُّومي، عملوك أرمني اشتراه أرسلان شاه، وتمكّن عنده، حتَّى وثق به، فولاه الوصاية على ابنه. ترجمته في: الساهر، ابن الأثير، 23، والكامل، ابن الأثير، 12 / 238، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4 / 171، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2 / 126.

<sup>3 -</sup> الْأَيُّوبيُّون في شمال الشَّامُ والجزيرة، محمود ياسين التكريتي، 152.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامَّة، 114.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 286.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

<sup>3 -</sup> الباهر، ابن الأثر، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 14/ 355.

<sup>4-</sup>الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 14 / 355.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 287.

<sup>6 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 59، والباهر، ابن الأثير، 196، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

حُكُم الأتابك نهائيًا (1) عام 617 هـ 1220م<sup>(2)</sup>، وتسابع الأشرف مسيرته، وقُرب المَوصل جاءته رُسُلُ الخليفة للتوسُّط بالصُّلح، ورُسُلُ كوكبوري بإعادة القلاع للمَوصل، فقبل الصُّلح، وعاد<sup>(3)</sup>.

وهُنا نُلاحظ أنّه بغياب أي استراتيجية دينيّة كانت أو وطنية للمهالك في علاقاتها السّياسيّة والعسكريّة ببرز دور القائد الملك، وهُو غالباً ما يتحرَّك وُفقاً لمطامعه الشخصية، وأهوائه، وإذا مات، فقد تنقلب سياسة الدولة رأساً على عقب، وتنهار الاتّفاقيات والأحلاف كها حصل عند موت كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم.

# العلاقات الأبُّوبيَّة مع المُوصل بعد زوال حُكْم الأتابكة:

نتيجة لعدم ظُهُور شخصيًّات قويَّة، وللخلاف توطمع الإخوة وأبناء العمّ بمُمتلك ات بعضهم البعض، زال الحُكُم الأتابكي من المَوصل وسنجار. فقد تسلَّم الأشرف سنجار عام 617 هـ 1220 منعفواً بلا تعب"، بينها عجز أبوه العادل عنها، ومعه جميع مُلُوك البيت الأيُّوبي، فقد بادلها صاحبها محمود فروخ شاه بن قُطب الدِّين بالرقَّة، لكنَّ الأشرف ما لبث \_ بعد ذلك \_ أن أخذ منه الرقَّة أيضاً (4). وفي عام 621 هـ 1224م، أظهر بدر الدِّين لُولُو أن ناصر الدِّين محمود ابن عزّ الدِّين مسعود عام مسعود قد مات، واستولى على حُكُم المَوصل، الذي كان بيده فعليًّا مُنْذُ وفاة عزّ الدِّين مسعود عام 615 هـ 1218م (5).

وكان الملك الأشرف مايزال يُمثِّل أكبر قُوَّة أيُّوبية في المنطقة، وتوجُّهاته السِّياسيَّة تلتقي مع توجُّهات الظَّاهر في حلب، ومع سياسة أخيه المُعظَّم في دمشق، ومع اعتراف الأشرف الاسمي بالسَّلْطنَة لأخيه الكامل ملك مصر، إلَّا أنَّه كان مبايناً له في الباطن (6). لكنَّ الأشرف تحوَّل عن

له لُؤلُؤ الوصي على أمير المُوصل الصغير نُور الدِّين أرسلان شاه ابن عزّ الدِّين مسعود، هزمه عاد الدِّين بدعم ومُساعدة فعَّالة من مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، فلم يجد لُؤلُؤ أمامه إلَّا الالتجاء إلى الأشرف<sup>(1)</sup>.

أرسل الأشرف إلى كوكبوري يُذكِّره بمُعاهدة سنجار، ويُهدُّده، لكنَّ كوكبوري لم يلتفت لتهديده، فالأخبار كانت قد تسرَّبت بأنَّ الفرنج قد هاجموا مصر، وأنَّهم أخذوا دمياط، وأن الأيُّوبيَّة بكاملهم مشغولون بالدفاع عن مرتكز حُكْمهم في مصر. وهذا ما شجَّع مُلُوك الأطراف الآخرين على تشكيل حلف مُعادٍ للأشرف في شهال الشَّام، واتَّفقوا على طاعة عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، وخطبوا له على منابر بلادهم. وانضمَّ إلى الحلف كُلُّ من: صاحب آمد، وصاحب ماردين (2).

ولكنُ؛ مع كُلِّ الظُّرُوف الصعبة التي قامت في وجه الأشرف، فقد أرسل نجدة عسكريَّة قويَّة إلى لُؤلُؤ، مكَّنته من هزيمة عهاد السدِّين عام 616 هـ 1219م، عند قلعة العقر، فهرب إلى إربل مهزوماً، واستعاد لُؤلُؤ قُوَّته في المنطقة، وَسَيَّرَ نجدةً قويَّة مع ابنه إلى الأشرف، الذي أراد أن يضرب بلاد الفرنج في الساحل ليُخفِّف ضغطهم على الكامل في مصر. وتحرَّك كوكبوري من جديد، وضغط على الموصل، وتمكَّن من هزيمة لُؤلُؤ، الذي هرب، ودخل الموصل<sup>(3)</sup>. وازداد ضغط كوكبوري على الأشرف، فقد راسل بعض أُمرائه، واستهاهم، فتركوا الأشرف، والتحقوا به، ومنهم ابن المشطوب. وعندما أخذت قُوَّة التحالف تزداد وتبرز ضدَّ الأشرف، انهار هذا الحلف فجاة، فقد تُوفِّي زعيمه كيكاوس، واستغلَّ الأشرف الفُرصة، ففاوضَ صاحب آمد، فتخلَّى عن الحُلفاء، وانحاز للأشرف مُقابل حُصُوله على مدينة حاني وجبل جور (4). وسارع أعضاء الحلف لإعلان ولائهم للأشرف.

وتحرَّك الأشرف بقُوَّاته نحو المَوصل؛ لينهي أمر إربل، وفي الطريق؛ تلقَّاه صاحب سنجار محمود فروخ شاه، وطلب منه استلام سنجار وتعويضه الرقَّة بدلاً عنها، فأخذها الأشرف، وزال منها

<sup>1-</sup>المُختصر ، أبو الفداء، 3/ 125، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 343.

<sup>2 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، موسوعة 20/ 239، ومفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 73، \_بينها هي سنة 616 هـ لدى ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 12/ 343.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 242، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 333 ــ 346.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 73.

<sup>5 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 1 9.

<sup>6 -</sup>ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 246.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 335 \_ 337.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 342.

<sup>3 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 91.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 242.

سياسته هذه، وتحالف مع أخيه الكامل ضدَّ أخيه المُعظَّم، بعد عودتهم من معركة دمياط 618 هـ 1221م، التي تجمَّع فيها البيت الأيُّوبي بكامله ضدَّ الفرنج، وحقَّقوا نصراً عظيماً عليهم.

ولمَّا وجد المُعظَّم نفسه مُحاصراً بين أخويْه: الأشرف في الشهال، والكامل في الجنوب، تحرَّك صوب الجزيرة، وبدأ يُفتِّش عن حُلفاء ليتقوَّى بهم من جهة، وليشغل بال الأشرف بهم من جهة أخرى. وكان أوَّل حُلفائه مُناك مُو مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، ففي عام 623 هـ 1226م، أرسل إليه المُعظَّم في هذا الشأن مع الشرف بن عنين الشاعر الدمشقي المعروف بالهجَّاء، وعاد منه بجواب الرسالة (1)، ولتأكيد التحالف، وتعبيراً عن نجاحه، أرسل المُعظَّم عيسى ابنه النَّاصر داود إلى إربل ليُقيم في بلاط مُظفَّر الدِّين (2). وكذلك تمكن المُعظَّم من توثيق تحالفه مع صاحب ماردين وغيره من أمراء الجزيرة (3)، الذين كانوا يخشون تزايد قُوَّة الأشرف في شهال الشَّام.

وتمخّض تحالف المُعظّم مع مُظفَّر الدِّين عن خُطَّة هُجُومية تتمُّ بوقت واحد؛ حيثُ يُهاجم كُلُّ منهم البلاد المُجاورة له، فتوجَّه مُظفَّر الدِّين نحو المَوصل، وتوجَّه المُعظَّم نحو هماة وحمص (4)، لكنَّ ضغط الكامل والأشرف على المُعظَّم جعله يتراجع نحو دمشق دُون تحقيق أيِّ فائدة (5). ولعدم نجاح المُعظَّم في الشَّام فشل مُظفَّر الدِّين، وارتدَّ عن المَوصل.

# المُوصل تُستردُّ سنجار:

تُوفِّي الملك المُعظَّم بن العادل عام 624 هـ 1227م، وخلفه في دمشق ابنه النَّاصر داود، وفي عام 625 هـ 1228م، قام كُلُّ من: الكامل ملك مصر والأشرف صاحب الجزيرة بحصار دمشق، وعندما احتلاَّها أخذها الأشرف مُقابل تسليمه عدَّة مواضع في الجزيرة للكامل، منها: الرقَّة، والرُّهَا، وسنجار (6). فوضع الملك الكامل ابنه العادل ولياً لعهده في مصر، وولَّى بلاد الجزيرة لابنه الصَّالح أيُّوب.

في عام 635 هـ 1238م، بعد وفاة الأشرف أخذ الكامل دمشق من الصَّالح إسماعيل، اللذي

تولاً ها بوصية من الأشرف(1). وبعد ذلك؛ بأشهر قليلة تُوفِّي الكامل، فاستقلَّ ابناه، كُلُّ منها بها تحت

يده، وولَّى أُمراء الكامل ابن أخيه الجواد يُونُس بن ممدود بن العادل نائباً بدمشق، عن العادل بن

الكامل سُلطان مصر (2). وعجز الجواد عن القيام بأمر دمشق، وخاف من العادل؛ لأنَّه لم يُقرَّه في

نيابتها، فبادل الصَّالح أيُّوب على دمشق بالرقَّة وسنجار، وعانة (3)، وأقام الجواد في سنجار، وطلب

معاضدة لُؤلُؤ حاكم الموصل، فأجابه مُضمراً له الخديعة والغدر، والطفه، حتَّى تمكَّن من االستيلاء

على سنجار، وطرده منها (4)، وهكذا عادت سنجار إلى مملكة المَوصل في ظلِّ دولة بدر الدِّين لُؤلُؤ (5)،

الذي خلف أتابكة الموصل الزنكيين، والذي كانت سياسته وعلاقاته مع الأيُّوبيِّين استمراراً لعلاقة

لُؤلُو صراع النَّاصر مع أيُّوب على حمص، فاحتلَّ حصَّة حلب من نصيبين، ونهب عـدَّة مناطق تابعـة

لها، مثل: دار، ورأس عين، فأرسل النَّاصر جيشه، وهزم لُّؤلُّؤاً، واستعاد نصيبين بالكامل، بما فيها

حصَّة المَوصل، فسارع لُؤلُؤ إلى الخليفة ليُرسل إلى النَّاصر مُتوسِّطاً بالصُّلح بينها، فتنازل النَّاصر عن

نصيبين، التي كانت مصدر الخلافات بين الطرفَيْن، مُقابل مبلغ سنوي من المال يدفعه لُؤلُـوْ (6)، وفي

الحقيقة؛ يُمكن أن يُفسَّر هذا التنازل من قبل النَّاصر، وهُو الطرف الأقوى، برغبت للتفرُّغ لحرب

وفي عام 646 هـ 1248م، في عهد الملك النَّاصر الثَّاني صاحب حلب، استغلَّ بدر الدِّين

الأتابكة، وقد فرض ذلك الاستمرار موقع المُوصل، ومصلحة القائم بدولتها أيّ كان.

<sup>1 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 317، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 493.

<sup>2 -</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 389، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498

<sup>4-</sup> أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 30.

<sup>5 -</sup> حكم لُؤلُؤُ المَوصل مُدَّة خسين عاماً، ولَمَّا قدم التَّتَار عاهدهم، وحالفهم، وقاتل معهم، وقابل هُولاكُو عدَّة مرَّات، وكان هُولاكُو يثق به، فسلَّمه عدَّة بلاد، وتُوفِّي لُؤلُؤ عام 659 هـ 1261م، عن ستَّة وتسمعين عاماً، ففوّض هُولاكُو مُلكَه إلى ابنه الملك الصَّالح، الذي كان قد زوَّجه ابنة جلال الدِّين الخوارزمي، وانتفض الصَّالح على التَّتَار، وحالف بيرس سُلطان مصر، فأمدَّه بالجُنُود، لكنَّ زوجته راسلت التَّتَار، فهاجموا المَوصل، وبعد صُمُود بطولي، قتلوه شرَّ قتلة. (جامع التواريخ - هُولاكُو، رشيد الدِّين، 327 ـ 328).

<sup>6 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدًاد، 3/ 1/ 138، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وتاريخ ابن الوردي، 2/ 264، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 124.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 110. 3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 125، ومُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 257.

<sup>6-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 140، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 473.

أَيُّوبِ القادم بِجُيُّوش مصر لحصار حص، وانتزعها منه (1). ثُمَّ عاد بدر الدِّين لُوَلُـوْ ليستغلُّ انشغال النَّاصر الثَّاني بحربه ضدَّ الماليك في مصر، فاحتلُّ جزيرة ابن عُمر عام 649 هـ 1251م، واعتقل الملكُ المسعودُ آخرَ مُلُوك الأتابكة الزنكيين فيها، مُنهياً هذه الدولة إلى الأبد(2).

وفي النِّهاية؛ نُلاحظ أنَّه بعد أن فَقَدَ الأتابكةُ الأملَ باسترداد الشَّام، التي كانوا يعدُّونها ميراثهم الشرعي من نُور الدِّين، وبعد عدَّة معارك غير مُجدية مع صلاح الدِّين، وتسلّمه حلب منهم، هادنوه، ودعموه في جهاده ضدَّ الفرنج، ولكنْ؛ بعد موت صلاح الدِّين حاول الأتابكة الانقضاض على أخيه ووريثه في الجزيرة الملك العادل، وجمعوا جُيُوشهم، وحالفوا أُمراء الجزيرة، لكنَّهم \_ في النتيجة \_ عادوا حُلفاء مُقرِّين بخُضُوع اسميِّ للعادل، ولابنه الأشرف، وصحيح أن دولة الأتابكة عاصرت الدولة الأيُّوبيَّة، ولكنَّها لم تكن \_ في يوم من الأيَّام \_ نـدًّا لهـا، ولم تُـشكِّل أيَّ خطر عليهـا، فقـد كـان الأتابكة مُنقسمين مُتحاربين، مُتحاسدين، مُتباغضين، لا يليقون بميراث عهاد الدِّين الزنكي ونُور الدِّين محمود. ولذلك سارت دولتهم من ضعف إلى أضعف، حتَّى استولى عليها عملوك لهم هُمو بدر الدِّين لُؤلُؤ.

المُلُوك الأتابكة:

2\_عهاد الدِّين زنكي: 521\_541 هـ1127 م. 1146م.

3\_سيف الدِّين غازي: 541\_544 هـ 1146\_1149م.

5 ـ سيف الدِّين غازى: 565 ـ 576 هـ 1169 ـ 1180م.

6 عز الدِّين مسعود: 576 - 589 هـ 1180 ـ 1193م.

#### في المُوصل:

1\_ قسيم الدولة آق سنقر: ت 487 هـ 1094م.

4 - تُطب الدِّين مودود: 544 - 565 هـ 1149 - 1169م.

7 ـ نُور الدِّين أرسلان شاه: 589 ـ 606 هـ 1193 ـ 1210م.

9 ـ نُور الدِّين أرسلان شاه: 615 ـ 616 هـ 1218 ـ 1219م.

10 ـ ناصر الدِّين محمود: 616 ـ 630 هـ 1219 ـ 1233م.

1 ـ عهاد الدِّين زنكي: 511 ـ 593 هـ 1117 ـ 1197م.

2 ـ قُطب الدِّين مُحمَّد: 539 ـ 616 هـ 1179 ـ 1219م.

4 - جلال الدِّين محمود فروخ شاه: 616 - 617 هـ 1219 ـ 1220م.

1\_معزّ الدِّين سنجر شاه: 576\_605 هـ 1180\_1208م.

2\_محمود بن سنجر شاه: 605\_639 هـ 1248\_1241م.

3\_المسعود بن محمود: 639\_649 هـ1241\_1251م.

3 عاد الدِّين شاهنشاه: 616 هـ 1219م.

في جزيرة ابن عُمر:

في سنجار:

8 عزّ الدِّين مسعود: 606 ـ 615 هـ 1210 ـ 1218م.

<sup>1-</sup> مملكة حلب، كمال بدور، 145.

<sup>2 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 238.

القسم الرَّابع العلاقات الدّوليَّة للممالك الإسلاميَّة

# العلاقات الخارجيَّة لدولة الخلافة العبَّاسيَّة

المبحث الأوّل

صحوة الخلافة العباسية

انتعشت الخلافة العبّاسيّة بعد تفتّت دولة السلاجقة، واضمحلالها، فقد تخلّصت من تسلّط سلاطين السلاجقة، وتحكّمهم فيها، وخلافاتهم، وحُرُوبهم، التي عطّلت البلاد، وأودت بالعباد. وصحيح أن منصب الخليفة ظلّ على الدوام مرجعية دينيّة وشرعية لا يُستغنى عنها لأيّ حاكم مُسلم، فإن قُوّة هذه الشرعية كانت تتعلّق بشخصية الخليفة، وقدرته على تجسيد منصبه، وغالباً؛ كان الخُلفاء العبّاسيون في هذه المرحلة المُتأخّرة من دولتهم غير جديرين باسم الخلافة، وغير مُوهّلين لتمثيل الشرعية العُظمَى للدُّول الإسلاميّة كافّة، فتحوّلت الخلافة إلى رمز، وصارت السُّلطة الحقيقيّة بيد الشُّمراء المُتغلّبين، بها عُرفَ باسم: إمارة الاستيلاء (1)، لذلك ارتفعت بعض الأصوات تُطالب بتوحيد الخلافة والسَّلطة بيد السُّلطان المُسيطر (2).

ومع عودة السُّلطة للخليفة في بغداد، غدا منصب الخلافة يعني - فيها يعنيه - حاكم أواسط العراق، وهي المناطق التي تتبع لبغداد، وهي قابلة للزيادة والنُّقصان. وفي عام 575 هـ 1179م، تولَّى عرش الخلافة العبَّاسيَّة الخليفة النَّاصر لدين الله أحمد أبو العبَّاس بن الخليفة المُستضيئ، وكان الخليفة النَّاصر يتمتَّع بشخصية قويَّة، فتمكَّن من إعادة الهيبة لمنصب الخلافة، وأعاد السيطرة على عدَّة مناطق لم يمتد إليها نُفُوذ الخُلفاء مُنْذُ زمن طويل. "وكان النَّاصر قد ملا القُلُوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كها يرهبه أهل بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم" (3).

<sup>1 -</sup> الأحكام السُّلطانية، الماوردي، 31.

<sup>2 -</sup> غياث الأُمم في التياث الظّلم، الجويني - إمام الحرمين، 226.

<sup>3 -</sup> تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 5 40.

الأقاليم، ويُصغِّر عندهم أمر السُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، كُلُّ ذلك خوفاً منه؛ لـثلا يحـضر إلى بغداد، وتعود الخلافة كما كانت أيَّام بني سلجوق ١١(١).

أمَّا ابن الأثير؛ فيُلمِّح إلى ذلك تلميحاً، مُتحاشياً ذكر الخليفة، يقول وهُو يتحدَّث عن أسباب خُرُوج النَّتَار: "وقيل في سبب خُرُوجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك عمَّا لا يُذكر في بُطُون الدفاتر.

فكان ما كان عمَّا لستُ أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر "(2)

ثُمَّ يصرح ابن الأثير بها أحجم عنه أوَّلاً، فيقول: "وإنْ كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنَّه هُو الذي أَطْمَعَ التَّتَر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهُو الطّامَّة الكُبْرَى، التي يسعغر عندها كُلُّ ذنب عظيم" (3).

ومع أن ابن الأثير يذكر ما نسبه العجم أو الخَوَارزميَّة إلى النَّاصر دُون أن يُؤكِّد، أو ينفي، لكنْ؛ يظهر أنَّه يميل لتصديقه لُجرَّد عودته لذكْر الأمر، وإلَّا لنفاه عن الخليفة، ولَّا شدد في تبيان فظاعة هذا العمل. وتكرَّرت الاتِّهامات زمن الخليفة المُستعصم؛ حيثُ اتَّهم كثير من المُؤرِّخين الوزير ابن العلقمي بالتعامل مع التَّتَار، وتسهيل دُخُولهم إلى بغداد (4).

"واستولى مع العراق على إقليم خوزسنان، وغيرهما من الأطراف، وملك همذان، وأصفهان" (1). وكان للخليفة النّاصر "أصحاب أخبار في العراق، وسائر الأطراف، يُطالعونه بجُزئيات الأُمُور، وكُلِيّاتها "(2). وأمضى "الخليفة النّاصر مُدّة حياته في عزّة وجلالة وقمع للأعداء، وكان شديد الاهتام بمصالح الملك ... واستمرَّ خليفة سبعاً وأربعين سنة "(3).

وفي عهد الخليفة النّاصر؛ عظم شأن سُلطان الخَوَارزميَّة علاء الدِّين مُحمَّد بن تكش، الذي أراد أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من نُفُوذ في بغداد، بعد أن استولى على دولتهم، فطلب من الخليفة أن تكون له دار السَّلطنة في بغداد مع شُحنة من العساكر فيها، فرفض الخليفة، عمَّا أذَّم العلاقة بينها، فقام الخوارزمي بالطعن بصحَّة ولاية الخليفة، وحصل على فتوى بخُلعه، ونوى تنصيب خليفة في بلاده، والتوجُّه لنزع خليفة بغداد بالقُوَّة، وتحرَّك بالفعل نحوه، واحتلَّ عدَّة مناطق تابعة للخليفة، لكنَّه \_بسبب ظُرُوف خارجة عن إرادة الطرفَيْن \_فشلت حملته على بغداد، وعاد نحو الشَّرْق.

وكان سلاطين الخَوَارزميَّة، علاء الدِّين ومن بعده ابنه جلال الدِّين، يدَّعون بأنَّ الخليفة النَّاصر قد راسل التَّتَار، وأنَّه هُو الذي حسَّن لهم غَزْوَ بلاد الخَوَارزميَّة، وأَطْمَعَهُم فيها (4)، ويقول ابن واصل بعد ذكْره لهذا الخبر : "فإنْ كان صحَّ ذلك، فقد قدَّر الله تعالى انقطاع الدولة بهم"، فهُو لا يُؤكِّد ولا ينفي، بل يُذكِّر بالنتيجة، فإنْ كان ذلك صحيحاً، فإن التَّتَار هُم مَنْ قصى على الدولة العبّاسيَّة، وأزالوها من الوُجُود.

بينها يُؤكِّد ابن آيبك \_ نقلاً عن صاحب كتاب تاريخ بغداد \_ الواقعة بحذافيرها، يقول: "قال ابن واصل صاحب تاريخ بغداد: شهدت على جماعة من سراة الناس من أرباب دولة بغداد - كلَّ يذكر ويتقلّد في ذمته \_ أن الإمام النَّاصر كَتَبَ إلى التَّتَار يستدعيهم إلى البلاد، ويُهوِّن عليهم العُبُور إلى

<sup>1 -</sup> كَنز الدُّور، ابن آيبك، 7 / 217.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 362

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440.

<sup>4-</sup>راجعْ تفصيل ذلك في معرض دفاع حسن الأمين عن ابن العلقمي ( الغزو المغولي، 89 ـ 106 ).

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 170.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 163.

<sup>3-</sup>تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 74.

<sup>4-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 170.

# المبحث الثَّاني تنظيم الفُتُوَّة

لعب نظام الفُّتُوَّة دوراً كبيراً في العلاقات الدّوليَّة بين الخلافة العبَّاسيَّة والعديد من المالك الإسلاميَّة، وعلى الخصوص المالك الأيُّوبيَّة، وذلك من خلال الهدف السِّياسي البعيد، الذي حاولت الخلافةُ العبَّاسيَّة الوُصُولَ إليه عبر تنظيم الفُّتُوَّة، وهُو إعادة فرض سيطرتها على تلك المالك بأُسلُوب جديد.

يقوم نظام الفُّتُوَّة \_ أساساً \_ على مكارم الأخلاق، فهُو: "أَنْ تُقرِّب مَنْ يُبغضكَ، وتُكرِم مَنْ يُؤذيكَ، وتُحسن إلى مَنْ يُسيء إليكَ"، وهذه أُمُور حسنة مطلوبة، سُمِّيَتْ فُتُوَّة أم لم تُسمَّ<sup>(1)</sup>، وقد شهد هذا النظام ذروة مجده مع الخليفة العبَّاسي النَّاصر لمدين الله. "كان الخليفة النَّاصر شابًّا مرحاً الله الم وبالتَّأكيد؛ كان يمتلئ بالحيوية والرجولة، "والناس يتهيَّبون لُقياه الله )، فانعكست قُوَّة شخصيَّته على قُوَّة منصب الخلافة، والتمس النَّاصر طريقة جديدة لتقوية نُفُوذه على المالك الإسلاميَّة المُختلفة، التي تدين له بنُفُوذ معنوي، وليس له عليها أيُّ تأثير سياسي حقيقي، فسعى لتزويد منصب الخلافة بسُلطة أُخرى غير سُلطة الشرعية، تتمثَّل بسُلطة اجتهاعيَّة سياسيَّة أخلاقية، تُـودِّي -بحال انتشارها \_ إلى التفاف الجميع حول منصب الخلافة، الذي يرأس هذه السُّلطة، أو المُنظَّمة الجديدة، بغَضَّ النظر عن الاختلافات المذهبية للأتباع، ورأى أن ذلك يتحقَّق من خلال تنظيم الفُتوَّة (4).

لم تكن الفُتُوَّة أمراً جديداً في الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، فهي معروفة كتنظيم مُنْـذُ زمن ليس بالقريب، وقد تجلَّت فيها رُوح الفُرُوسيَّة العَرَبيَّة، ومكارم الأخلاق العَرَبيَّة الإسلاميَّة. وتعود بعض الأقوال بالفُتُوَّة إلى عهد الرسول (ص) الذي ألبس الإمام عليّ لباس الفُتُوَّة، ومَّا يُقال: إنَّ هذا اللّباس أُنزل على النّبي في صُّندُوق، ويستدلُّون على ذلك بالآية: يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري

سوأتكم ، ويذكرون تسلسلاً يمتدُّ من الإمام عليّ، إلى أنْ يصل إلى الخليفة النَّـاصر لـدين الله، الـذي

وكان صاحب الفُتُوَّة في بغداد أيَّام الخليفة النَّاصر هُو الشَّيخ عبد الجبَّار، فأحضره الخليفة، "وأعطاه خسمائة دينار، وخلع عليه، وعلى ولده، وكان شيخاً حسناً، له أتباع كثيرون" أ. ممَّا يعني أنَّه تنازل للخليفة عن منصب رئيس الفتيان، وما قام به الخليفة النَّاصر \_ بعد ذلك \_ هُو عملية إعادة تنظيم ورعاية لهذه المنظمة، فجعله ذلك رجلها الأوَّل، ورئيسها، ثُمَّ حدَّد قواعدها، ونشرها، وانتسب إليه في الفُتُوَّة أكابر الناس والمُلُوك. ففي عام 607 هـ 1210م، طلب الخليفة النَّاصر من كُلِّ مُلُوك المُسلمين أن ينتموا إليه في الفُتُوَّة، ويعدُّونه إمامهم بها، على أن تنتمي رعية كُلِّ منهم إلى

وقد وُضع للفُتُوَّة شُرُوط خاصَّة يجب أن تنطبق على مَنْ ينتمي إليها، ومنها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، ونصرة المظلوم، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وغيرها من قواعد الأخلاق التي حضَّ عليها الإسلام (4). وكانت هُناك أُمُور عديدة يُطلَب تطبيقها من المُنتسبين إلى تنظيم الفُتُوَّة، وكُلُّها يُستدَلُّ عليها من ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

\_طاعة الرؤساء والمُقدَّمين.

\_الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر.

\_نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف.

- حفظ الجار<sup>(5)</sup>.

\_التعاضد والتناصر بين الأعضاء.

\_حفظ العهد.

<sup>1 -</sup> الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 250.

<sup>2 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 14 / 74.

<sup>3-</sup>تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 14 / 74. 4-الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.

<sup>1 -</sup> الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 2/ 437.

<sup>2 -</sup> التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدُّم، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 21 / 256.

<sup>3-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.

<sup>4 -</sup> الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 229.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.

حفلات تنسيب المُلُوك لتنظيم الفُتُوَّة هي الحفلة التي أقامها الملك المنصُور صاحب حماة عام 622 هـ 1223م، وأقام الخطبة فيها قاضي حماة سالم بن نصر الله والد المُؤرِّخ ابن واصل (1).

وعندما استكمل الخليفة النّاصر تنظيمة الجديد نظرياً، بدأ بتسيير رُسُله إلى مُلُوك المُسلمين، طالباً منهم الانتهاء إليه عبر نظام الفُتُوَّة، وقد قبل الجميع ذلك، وانتسبوا للخليفة النّاصر (2)، فهذا لا يُنقص من مُلكهم شيء، وما سُلطة الفُتُوَّة إلّا سُلطة معنوية، لذلك لم يتخلّف منهم أحد. وقد "لبس السُّلطان العادلُ سراويلَ الفُتُوَّة للخليفة النّاصر "(3)، وكذلك أولاده الملك المُعظَّم والملك الكامل والملك الأشرف، ولبسها المُجاهد صاحب حمص، والملك الظاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب حلب، وكذلك أرسل لباس الفُتُوَّة إلى كيخسر و سُلطان الرُّوم (4). واعتقد الخليفة النّاصر ماحب الحليفة النّاصر بنظيم المُعنَّة حوله، وبالفعل؛ فقد أسبغت الفُتُوَّة مزيداً من الهيبة على منصب الخليفة (3)، فقد كان الملك الذي ينتسب إلى الخليفة يتبعه كُلُّ أركان دولته وأكابر بلاده. ولكن اهتهام الخليفة النّاصر بتنظيم الفُتُوَّة جعله يعتقد أنّها كُلّ ما يربطه بمُلُوك المُسلمين، حتَّى إنّه لم يُبصر أعظم المخاطر التي تحيق بهم، ففي عام 615 هـ 1218م، وصلت رُسُلُ الخليفة النّاصر إلى الملك الكامل (6) وهُو مُرابط على دمياط أمام قُوَّات الفرنجة التي احتلَّت المدينة، وأخذت تتقدَّم باتِّباه القاهرة، "فظنَّ الناس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فتبيَّن أنَّه لأجل رمي البُندُق، وكونه يُريد أن يكون هُو قبلته، فتعجَّب الناس من إمام العصر، وهمَّته (7). فكأن الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البُندُق فونه يُريد أن يكون هُو قبلته، فتعجَّب الناس من إمام العصر، وهمَّته (7). فكأن الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البُندُق لمحراط المؤلون ال

\_صدق اللهجة.

\_ العفّة عن المحارم<sup>(1)</sup>.

وما كُلُّ ذلك إلَّا استجماع لمكارم الأخلاق العَرَبيَّة، وتعاليم الإسلام في التعامل، ولرُوح الشجاعة والإيثار<sup>(2)</sup>.

وكان المنتسبون لتنظيم الفُتُوَّة يُسمّون الفتيان، أمَّا مَنْ ينضمُّ حديثاً لها؛ فيُدعى بالرفيق، ويُرشِّح الفتى الجُديد لقبوله في التنظيم فتيان قدماء، ثُمَّ يقام حفل تنسيب للمُنضمِّين الجُدُد، تُلقى فيه كلات، تشيد بالفُتُوَّة، وتربطها بتعاليم الإسلام من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة (3).

ويشرب المُنتسبون الجُدُد كأس الفُتُوَّة وفيه ماء وملح (4)، وهُو دليل قبول الأنظمة والتعاليم الخاصَّة بالفُتُوَّة. وكان الفتى ـ عند تنسيبه ـ يُلفُّ بملابس رقيقة من الكتَّان، أو القطن الأبيض، ثُمَّ يرتدي السروال الخاصَّ بالفُتُوَّة، وكان السروال هُو الشعار، أو الزيّ الخاصّ لهذا التنظيم، فجميع الفتيان يرتدون طرازاً خاصًا ومُوحَّداً من السراويل يميزهم عن بقيَّة الناس (5). ثُمَّ توضع على رأس الفتى طاقية صغيرة سوداء، وفوقها قلنسوة من الصوف الأبيض، ويضع على أكتاف قباء، أو عباءة خفيفة، يُلفُّ عليها حزام، يُعلَّق به سكِّين، أو خنجر، ويلبس في رجله خفَيْن (6). ورُبَّما كان من أشهر

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 164.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.

<sup>3 -</sup>تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 74.

<sup>4 -</sup> نكت الهميان، الصفدي، 19، ومجمع الآداب، أبن الفوطي، 4/ 1248.

<sup>5 -</sup> راجعُ: الشُّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.

<sup>6 -</sup> في عام 606 هـ، وصَل أمر الخليفة النَّاصر إلى شمس الدِّين بن البعلبكي قاضي فتيان دمشق بالتوجُّه إلى مصر ليـشدَّ الملك الكامل فُتُوَّة للخليفة. ( ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشَّاميَّة، سُهيل زَكَّار، 20 / 134 ).

<sup>7 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 75.

<sup>1 -</sup> التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 258.

<sup>2 -</sup> النُّظُم الدّبلُوماسيَّة، صلاح الدِّين المُنجّد، 151.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.

<sup>4-</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206 ، ح / 2، ورُبَّا كان امتداداً لشرب كأس الفُتُوَّة ما يُعرَف - الآن - بشُرب النخب. 5 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 89 - 143، والجامع المُختصر، ابن الساعي، 225 - 233. وفيه منشور الخليفة حول تنظيم الفُتُوَّة، ( تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، ترجمة: جُورِج حدَّاد، 252 / 252 )، يقول فيليب حتِّي: "إن تنظيم الفُتُوَّة تأثّر - على الغالب - بمُنظَّات الفُرسان الصليبيَّة"، ولكننا نعتقد أن مُنظَّات الفُرسان الصَّليبيَّة التي كانت نشأتها في بلاد الشَّام ما هي إلَّا انعكاس وتقليد لتنظيم الفُتُوَّة العَرَبية الإسلامي. كيا أن هُناك فارقاً كبيراً بين الفُتُوة المَربية الإسلاميَّة وأنظمة الفُرُوسيَّة الأوربيَّة، وهُو أن مكارم الأخلاق التي حرصت عليها الفُتُوة كانت تُطبَّق على الجميسع، بيسنها أخلاقيسات الفُرُوسيَّة الأوربيَّة، الأوربيَّة، معيد عاشور، 402 ). و

Stephenson, Meddle History, P.P: 239-240

<sup>6 -</sup> مجمع الآداب، ابن الفوطي، 1/ 1184.

#### النّبوية:

يبدو بأنَّ تنظيم الفُتُوَّة أصبح له مع الزمن تفرُّعات بأشكال عديدة، رُبَّم كان من أشهرها النبوية، التي يُؤكِّد ابن المعهار بأنَّها إحدى فرَق الفُتُوَّة بقوله: "ولم تزل الفُتُوَّة تنتقل، وهَلُمَّ جرَّا، إلى عصرنا هذا، حتَّى تفرَّعت، وصارت بُيُوتاً، وأحزاباً، وقبائل؛ كالرّهاصيَّة، والسّجينيَّة، والخليليَّة، والمولايَّة، والنبويَّة، لما حدث بينهم من الاختلاف، وكُلُّ منهم ذهب إلى رأي "(1).

وفي دمشق؛ عُرف أتباع تنظيم الفُتُوَّة بـ"النبوية (2)، وهم يدينون بالفُتُوَّة وبأمر الرجولة كُلّها، وكُلّ مَنْ ألحقوه بهم لحصلة يرونها فيه يحزمونه السراويل، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفُتُوَّة بَرَّ بقسَمه، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف"(3). وقد ذكر ابن جُبَيْر أن في مدينة دمشق: "طائفة تُعرَف بالنبويَّة سُنيُّون يدينون بالفُتُوَّة وأُمُور الرجولة كُلّها"(4).

وقد انتشرت فرقة النبوية، وتواجد أتباعها بكثرة في شهال العراق، وفي الجزيرة، فعندما صَلَبَ سيفُ الدِّين غازي الأتابكي أحد زعهاء النبوية في نصيبين، خرجت النبوية من المَوصل ونصيبين، وتبعهم خَلْق كثير من مُدُن الفُرات والخابور، وساروا طالبين صلاح الدِّين "(5)، إنَّه خُرُوج جماعي على حُكْم الأتابكة، والتحاق بخصمهم صلاح الدِّين. ويبدو أن هؤلاء النبوية أنفسهم قد مرُّوا في طريقهم على بلاد الإسهاعيليَّة في بزاعة والباب شهال حلب، وارتكبوا المذابح التي ذكرها ابن جُبَيْر في حديثه عن بلدة بزاعة، يقول: "ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة تُعرَف بالباب، وكان يعمرها

## من نشاطات الفُتُوَّة:

وكان من اهتهامات الفتيان الرمي بالبُندُق، وتدريب الحهام، وقد تفنَّن النياس في ذلك سواء الأُمراء أو المُلُوكُ<sup>(1)</sup>. وفي العصر الأيُّوبي كان الرمي بالبُندُق<sup>(2)</sup> قد شاع في مُعظم أنحاء الدولة العَربيَّة الإسلاميَّة، وهُو رياضة رمي وتدريب على التسديد، ويُستخدم للرمي على الطُّيُّور من أجل الصيد، أو الرياضة. وكان الخليفة العبَّاسي النَّاصر لدين الله قد منع رمي البُندُق إلَّا لَمَنْ ينتمي له<sup>(3)</sup>، وكذلك منع اللعب بالطُّيُّور الهوادي أو المناسيب<sup>(4)</sup>، وتربيتها، إلَّا أن تكون من طُيُوره، أو من نسلها<sup>(5)</sup>، ويقول ابن الأثير مُنهكِّمًا، مُقارناً الأخطار المُحدقة بالأُمَّة باهتهامات الخليفة: "فكان غرام الخليفة النَّاصر بهذه الأشياء من أعظم الأُمُور" (6).

لقد قصد الخليفة النّاصر من اهتهامه الكبير بنظام الفُتُوّة تقوية مركزه وزيادة فاعلية منصب الخليفة، وربط مُلُوك الأطراف والرعايا بشخص الخليفة، من حيثُ كونه زعيهاً فعليّاً، إضافة لكونه خليفة وإماماً شرعياً، ولكنّ كُلّ ما قام به النّاصر لتنظيم الفُتُوّة تهاوى بعد موته، بل ونستطيع القول إن هذا التنظيم كان متهاوياً مُنْذُ قيامه، ورُبّها كان ذلك بسبب كونه نظاماً يعتمد على شخص الخليفة، فلم يكن للفُتُوّة جهاز تنظيمي رابط ضابط قادر على الاستمرار بعد غياب النّاصر، وأرى أن الأهمّ من ذلك أن النّاصر أقام نظام الفُتُوّة على معان رُوحية وأخلاقية فقط، ولم يرتقِ به إلى قيمة معنوية وواقعية كُبْرى كانت من أولويات عصره ألا وهي الجهاد، خاصّة أن الفُتُوّة كانت تنظيهاً شبه عسكري.

<sup>1 -</sup> الفُتُوَّة، ابن المعمار، 147.

<sup>2 -</sup> النبوية: نسبة إلى النبَّوَّة التي كانت مُرادفة للفُتُوَّة، يقول ابن واصل في معرض حديثه عن الخليفة النَّاصر: " ولبس سراويلات النبُّوَّة والفُتُوَّة "، ( مُفرِّج الكُرُوب، 4 / 164 )، ورُبًا هي نبوية؛ لأنبَّم كانوا يعتبرون أن تعاليم الفُتُوَّة أخذها الإمام علي ( ر ) عن النبي تُحمَّد ( ص )، فكُلُّ تعاليمها مُستقاة من الأحاديث النبوية الشريفة، وكان صاحبها في ذلك العصر الخليفة النَّاصر، وهُو عبَّسي من بيت النَّبَوَّة أيضاً.

<sup>3 -</sup> تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار، ابين جُبَيْر، 252، \_وحول ذلك راجع : في التاريخ الشّامي، شاكر مُصطفى، 1/ 128 حيثُ يقول: "إن صلاح الدّين قد لبس سراويل الفُتُوّة "، وقد وهم في ذلك، فأوّل مَنْ لبسها من الأثّوبيّن هُو الملك العادل وأولاده، ثُمَّ بعض مُلُوك بني أيُّوب، عَنْ جاء بعد صلاح الدِّين. ( ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 20 / 61 ).

<sup>4-</sup>الرحلة، ابن جُبَيْر، 252 و 257 Urban Life in Syria Nicola Ziadeh, P. 167

<sup>5-</sup>تاريخ آمد ومَيَّافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 11 / 314.

<sup>1 -</sup> نكت الهميان، الصفدي، 91.

<sup>2 -</sup> البُندُق: مُفردها بُندُقة، وهي لفظة فارسية، وتُسمَّى - أيضاً - الجلاهق أو الجلاهقات. كُسرات صغيرة من حجر أو معدن أو طين يُعجَن، ثُمَّ يُشوى، (حول صُنع كُرات البُندُق من الطين راجعْ: السيرة الشَّعْبيَّة للظاهر بيبرس، رواية: الدِّيناري، 81، المكتبة الثقافية، بيروت / بلا)، وتُقذف الكُرات من ماسُورة بواسطة وتر القوس، أو بالنفخ. راجعْ: تاريخ التمدُّن الإسلامي، جُورجي زيدان، 5 / 159، واستُخدمت المزاريق لرمي البُندُق، وهي أنابيب تقذف البُندُقة بالنفخ، وقد تحوَّلت إلى البُندُقيَّة عندما استُخدم البارود فيها.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

<sup>4 -</sup> الموادي: السريعة الاهتداء إلى أبراجها.

<sup>-</sup> المناسيب: المنسوبة لآباتها؛ أي المعروف سلسلة نسبها، وهي نوع من الحائم التي كانت تُستخدم في البريد، وتُربَّى لهذه الغابة.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 400، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

مُنْذُ ثمان سنين قوم من الملاحدة الإسماعيليَّة، فطار شرارهم، . . حتَّى داخلت العصبية أهل البلاد، . . ووضعوا السُّيُوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم، وعجَّلوا بقَطْع دابرهم، وكُوِّمَتْ بهذه البطحاء جماجهم (1).

وقد اختلف في ترتيب أحرف النبوية (2)؛ حيثُ يجعلها بعضهم البنوية، من الأبناء، وهذا المنحى ضعيف، والأصحُّ ما رآه مُصطفى جواد بقوله: "الصحيح في ضبط هذا الاسم النبويَّة، نسبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، كالخليليَّة نسبة إلى إبراهيم الخليل، عليه السلام" ((3).

#### الخلافة بعد الإمام النَّاصر:

في عام 622 هـ 1225م، تُوفِّي الخليفة النَّاصر لدين الله، وقيل إنَّ الخلافة قد ماتت بموته (4)، فهُو الذي أعاد الكثير من القُوَّة السابقة لمنصب الخلافة، ولكنَّنا - بنظرة سريعة - نجد أن الخليفة النَّاصر لم يُحقِّق أيَّ شيء يُذكر عبًا كان لسلفه، ولا لما سيكون لخلفه من سُلطة على المالك الأيُّوييَّة، أو غيرها، التي كانت وستبقى تبعيتها للخلافة تبعية اسمية، تنحصر بمنح مُلُوكها التقليد والخلعة كرمز لشرعية حُكْمهم لبلاد يُسيطرون عليها فعلاً، لا تتوسَّع إلَّا بالحَرْب والقُوَّة، ولا ينزول حُكْمهم، أو تتقلَّص ولايانهم إلَّا بالحَرْب والقُوَّة.

وبعد وفاة النَّاصر؛ تولَّى الخلافة ابنُهُ الإمامُ الظَّاهر بأمر الله مُحمَّد، الذي استهلَّ خلافته بإرسال الرُّسُل إلى المالك الأَيُّوبيَّة بإرسال رُسُلهم إليه في العزاء بوالده، والتهنئة بولايته (5).

ولكن الظَّاهر لم تطلُ مُدَّة خلافته؛ حيثُ تُوفِّي عام 623 هـ 1226م، وتولَّى بعده ابنه المُستنصر بالله المنصُور أبو جعفر حتَّى وفاته عام 640 هـ 1242م. " فقلَّد أربابُ الرأي ولدَهُ المُستعـصم بـالله

فضعفت علاقات الخلافة بالمُلُوك الأبُّوبيَّة، وهم آخر مُلُوك الإسلام، ولم تعد الرُّسُل تعبر المسافات بين بغداد ومصر والشَّام. وممَّا زاد التباعد بين الطرفَيْن أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت بشكل عامِّ تتوجَّه لتجنُّب التَّتَار وكأنَّما تتعامى عنهم، بينها التَّتَار يجولون حول بغداد "وشرُّهم مُتزايد والخليفة والناس في غفلة عَمَّا يُراد بهم" (4).

حتى كان عام 656 هـ 1258م؛ حيثُ داهم التّار بغدادَ، واستباحوها قتلاً ونهباً وحرقاً، والغريب في الأمر أن عاصمة الإسلام تُنتهَكُ بعد حصار طويل، دُون أن يتقدَّم لنجدتها جُندي واحد، أو متطوِّع واحد، ودُون أن يقوم أحد من المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّن بمدِّ يد العون لعاصمة الخلافة، التي كان يستمدُ منها شرعية وُجُوده في الحُكُم، فهل هُو الدِّين يُوفَى لتقاعس خليفة بغداد وأُمراء العراق ومُلُوك الشَّرق الإسلامي عن نجدة الشَّام ومصر عندما داهمها الغزو الفرنجي، وتكالبت عليها الحملات، واحتلَّت قُدْسَ المُسلمين؟ أم هي القطيعة التي نتجت عن التجزئة الطويلة؛ حيثُ غدت مُمُوم المشرق لا تعني المغرب، وهُمُوم الشَّام لا تعني العراق؟! ولكنَّ المُستَغرَب في الأمر أن الجميع كانوا يُدركُون أن أيًا من الأعداء التّتار أو الفرنج كان لن يقف عند حَدِّ إذا أتيح له التقدُّم، وبالتَّالي؛ فالخطر يعني الجميع، ومع ذلك كان كُلُّ قسم يكتفي بالأماني الطيِّة نحو القسم الآخر.

عبد الله، واستبد بتدبير الخلافة أرباب دولته "(1)، وقام أفراد الحاشية بأسوأ دور بالنّسبة للخليفة في أسوأ وقت بالنّسبة للخلافة، فقد أغروه بجَمْع المال، "والاقتصار على بعض الجُند، وقطع الباقين، ومسالمة التّر، وحمل القطيعة إليهم، ليكفّوا عنه، وقالوا له: هذه الطائفة قد ملكوا مُعظم بلاد الإسلام، ولم يقف أحد من المُلُوك قدَّامهم، فالحزم مهاداتهم، ومُهادنتهم، وأن يُحمَل إليهم في كُلِّ سنة من المال ما يُرضيهم؛ ليكفُّوا، وينكفوا "(2)، والخليفة المُستعصم ضعيف الرأي، سيِّع التدبير (3).

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 5 / 321.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 322.

<sup>3-</sup>المُختَصر، أبو الفداء، 3 / 194.

<sup>4 -</sup> تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 418.

<sup>1-</sup>تذكرة بالأخبار عن اتَّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 224.

<sup>2 -</sup> نعتقد أن الخلاف نشأ عن خطأ في النسخ، وأن الأصل كان واحداً وهُو النبوية.

<sup>3 -</sup> مُصطفى جواد، مُقدِّمة كتاب الفُتُوَّة، ص70.

<sup>4 -</sup> تاريخ الخُلفاء، السُّيُّوطي، 405

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 116 ـ 118.

#### المبحث الثّالث

# العلاقات الدّبلوماسيَّة بين الأيُّوبييِّن ودولة الخلافة

بدأت العلاقات الفعليَّة بين دولة بني أبُّوب والخلافة العبَّاسيَّة بعـد وفـاة الملـك العـادل نُـور الدِّين عام 569 هـ 1174م، ودُخُول صلاح الدِّين إلى الشَّام، وضمّها إلى مصر، وتشكيل الدولة الأيُّوبيَّة، وذلك في عهد الخليفة العبَّاسي المستضيء بالله، الذي لم يهتم كثيراً فيمَنْ يُسيطر على السَّام، ولم يتدخَّل - بأيِّ شكل من الأشكال - لا ضدَّ صلاح الدِّين، ولا معه، فالخليفة يُرسل التقليد الذي يُمثِّل الشرعية الدِّينيَّة لَنْ غلب من الأُمراء، فالسُّلطة \_ فعليًّا \_ بأيدي الأُمراء المُتغلِّين، والإمارة هي إمارة استيلاء (1). فأرسل له صلاحُ الدِّين رسالةً مُطوَّلةً من إنشاء القاضي الفاضل، يشرح فيها قيامه بالدولة، وتوحيده للأقطار، وإقامة الخطبة العبَّاسيَّة فيها، وشرح الوضع الدولي من حولمه ومُعاناته وانتصاراته، ثُمَّ يطلب من الخليفة التقليد بها تحت يده من البلاد، وما سيُفتح فيها بعد (2)، ويبدو أن الخليفة المُستضيء لم يُرسل التقليد، ولم يمنح الخليفة صلاح الدِّين صفة الشرعية التي طلبها، وبالتَّالي؛ لم تقم علاقة سياسيَّة بين الطرفَيْن، وسينتظر صلاح الدِّين حتَّى تولِّي النَّاصر لدين الله منصب الخلافة عام 575 هـ 1179م، فيُرسل له التقليد عام 576 هـ 1180م، وتبدأ العلاقات الرَّسْميَّة والفعليَّة بين الدولة الأيُّوبيَّة ودولة الخلافة.

في عام 579 هـ 1183م، عندما كان صلاح الدِّين يُحاصر المَوصل، أرسل إليه الخليفة النَّاصر شيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين عبد الرحيم رسولاً يشفع في المُواصلة، وبعد إلحاح؛ قبل الشفاعة، فسار معه الرسول إلى سنجار؛ حيثُ شهد فتحها(3).

ولكن بعد الانتصارات المُدَوِّية على الفرنج وتحرير بيت المَقْدس، ضجَّ العالم الإسلامي باسم صلاح الدِّين، ولابُدَّ أن عديداً من المُقارنات قد أجراها الناس بينه وبين الخليفة النَّاصر، ولشخصية

الخليفة القويَّة لم يقبل بوضع مُتدنِّ أمام قائد عسكري يعدُّه يعمل بتفويض منه، فتوتَّرت العلاقات السِّياسيَّة بين الخليفة وصلاح الدِّين، وأعلن الخليفة أنَّه ينقم عليه عدَّة أُمُور، منها:

1 ـ ما شاع بأنَّ صلاح الدِّين يُريد قلب الخلافة، والاستيلاء عليها.

2 ـ تسمَّى صلاح الدِّين بالملك النَّاصر، وهُو يعرف أن النَّاصر هُو لقب الخليفة، الـذي عـدُّه تطاولاً عليه، وتشوُّفاً لمنصبه من قبَل صلاح الدِّين.

3 \_ إرسال جُندي بسيط في البشارة بفَتْح القُدْس إلى ديوان الخلافة، بينها جرت العادة إرسال أهم شخصيَّات الدولة في الأُمُور الجليلة، ممَّا عدَّه الخليفة تهاوناً بمنصبه، واستصغاراً له.

ثُمَّ قرَّر الخليفة كشف حقيقة نوايا صلاح الدِّين تجاهه، فأرسل تاج الدِّين أخا العماد الأصفهاني، الذي كان في حاشية صلاح الدِّين، لتسهيل مهمَّته في التعرُّف على بواطن الأُمُّور، وحمل تاج الدِّين رسالة فيها مُوجبات العتب، فردَّ صلاح الدِّين بأنَّه على الطاعة، مُذكِّراً الخليفة ما قام به من القضاء على الدولة الفاطمية، وردَّ مصر إلى حظيرة الخلافة العبَّاسيَّة، وهزيمته للفرنج، واستنقاذ بيت

ويبدو أن الأمر قد سُوِّي بين الرجلين؛ ممَّا سيُؤدِّي إلى علاقات طيِّبة بين الخلافة وخُلفاء صلاح الدِّين حتَّى انقضاء الدولتَيْن، ولكنْ؛ مَنْ يتمعَّن في بواطن العلاقات بين الخليفة والأيُّـوبيين سيُلاحظ أن نسبة كبيرة من الشكِّ كانت تُراود الخليفة في مدى إخلاص المُلُوك الأيُّوبيَّة.

ويبدو أن تقليد الخُلفاء العبَّاسيين للأمراء والمُلُوك المُتحكِّمين في السَّام، كان مُنْلُد دُخُول الفرنج إليها، يعني تنصيبهم وُلاة حرب وقادة بُجاهدين ضدَّ الغُزاة الفرنج. ورُبَّما لم يكن يُوجد ما ينصُّ على ذلك، لكنَّه الشائع والمُتعارف عليه في ذلك الوقت، فعندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، قام ابنه وخليفته الملك الأفضل بتسيير رسول إلى الخليفة في بغداد يحمل له "لامة الحَرْبِ التي لصلاح الدِّين، وفرسه، وستّة وثلاثين درهماً، لم يُخلّف من المال سواها"!(2).

<sup>1 -</sup> الأحكام السُّلطانية، الماوردي، 31.

<sup>2-</sup>صبح الأعشي، القلقشندي، 13/ 90.

<sup>3-</sup>التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدِّم الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 260.

<sup>1 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 121. 2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 409.

إنّا رسالة واضحة، فسلاح صلاح الدّين أُعيد إلى الخليفة بعد انتهاء مهمّته الجهادية، وما خلّفه من مال أُعيد - أيضاً - كرمز لولايته الإدارية على البلاد. كذلك الأمر كان يوم وفاة الملك المُظفّر صاحب هاة في عام 642 هـ 1244م، فقد حمل قاضي حاة "زرديّته وسيفه ولامة حربه" (1)، إلى الخليفة المُستعصم، وسار من حاة - في الوقت نفسه - رسول آخر إلى مصر يحمل إلى السُّلطان الصَّالح أَيُّوب سيف الملك للمُظفّر (2)، إنَّه إعلان بانتهاء المهمّة لصاحب الشرعية الكُبْرى الخليفة العبّاسي، وللسُّلطان الآيُّوبي الأكبر صاحب الشرعية الصُّغرى، فقد كان مُلُوك حماة - على الدوام - مُؤيّدين للسلاطين الآيُّوبيين، مُلتزمين بهم، وقلًا خرجوا عليهم مثلها كان يفعل مُلُوك حلب ومُلُوك حس. وكان الخليفة العبّاسي، إضافة إلى الشرعية التي تفرضه إماماً وخليفة، ذا مرتبة سياسيّة ودينية، تجعله أكبر منزلة من كُلِّ المُلُوك، بل إن كُلَّ المُلُوك حاكمين باسمه، يدعون له على منابر بلادهم، وينقشون اسمه مع اسم كُلِّ منهم على النقود المضروبة في بلاده.

كان الخُلفاء العبَّاسيون غالباً ما يُحاولون استهالة اللُوك والأُمراء الأيُّوبيِّيْن بالهدايا، وغيرها، ففي عام 622 هـ 1225م "وصل الشَّيخ شهاب الدِّين السهروردي إلى الملك الأشرف بالرقة بهدايا وتحف، وأشياء ما سمح خُلفاء بني العبَّاس لأحد من مُلُوك الأطراف بمثلها، من أقوال جميلة وطرف جليلة" (3) ماذا هذه المُعاملة الخاصَة من الخليفة النَّاصر للملك الأشرف؟! إنَّه أقوى المُلُوك المُجاورين لشهال دولة الخلافة، وليس له أيُّ مطامع فيها، إضافة إلى النزام بني أيُّوب المطلق بدعم الخليفة، وإنْ كان ذلك معنوياً فقط، فعلى الدوام كانوا يُجلُّون هيبة الخلافة، ويعملون على إعلاء شأنها، إضافة إلى الظُّرُوف المحرجة التي كانت تُحيط بالخليفة النَّاصر في ذلك الوقت، فقد هجم الخوارزمي جلال الدِّين منكبري على خوزستان، وكانت للخليفة، ووصل جُنُوده إلى أعهال بغداد، التي استعدَّت للحصار (4).

دخل عراق العجم، واستباح مملكة جلال الدِّين الخوارزمي، واستقبله السُّكَّان، وطلبوا منه قُدُوم الملك الأشرف لتسليمه توريز، وغيرها<sup>(2)</sup>، ولكن رسالة الخليفة كانت أسرع إليه، وفيها الهدايا والمال والمول الجميل، فاضطَّر الأشرف \_ إزاء هذه المُعاملة المتميِّزة \_ أن يُرسل رُكن الدِّين أمير جاندار بهدية إلى الخليفة يستأذنه بدُّخُول بلاد العجم، وعاد الجواب إلى الأشرف من الخليفة يأمره أن لا يتحرَّك من سنجار، فاضطرَّ إلى المكوث فيها بعدما كان قد تجهَّز للسير إلى بلاد العجم، فحرمه بذلك الخليفة من تلك البلاد الواسعة التي لم يسبق لبني أيُّوب أي سيطرة فيها (3).

وكان مُلُوك بني أيُّوب يقومون بكُلِّ واجبانهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، فعندما تُوقِي علي

وتكرَّر ذلك في عهد الخليفة المُستنصر عام 625 هـ 1228م، فقد "ورد على الملك الأشرف

رسول الديوان بهدايا وتحف، وفي الجملة إنعام خسين ألف دينار أتابكية، وقال لـ ه كُلّ قـول"، وممَّا

قاله: " قد عزمتُ على تسيير الرُّسُل إلى البلاد بأنَّ مَنْ لم يكن في طاعتكَ تركتُ الذمة منه"(1).

وفي هذه المرَّة نجد السبب أكثر وُضُوحاً، فالحاجب على بن حماد نائب الأشرف في خِلاط كان قد

وكان مُلُوك بني أيُّوب يقومون بكُلِّ واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، فعندما تُـوقيِّ عـلي ابن الخليفة النَّاصر عام 612 هـ 1215م، أرسل الخليفة يُعلم مُلُوك بني أيُّوب، "فجلسوا في العزاء، لابسين شعار الحُزن خدمة للخليفة" (4).

ولمَّا تُوفِّي الخليفة الظَّاهر وخلفه ابنه المُستنصر أرسل الملك الكامل وزيره مُعين الـدِّين بـن الشَّيخ مُعزِّياً ومُهنَّناً (5).

وكان مُلُوك بني أيُّوب يُجدِّدون الولاء للخُلفاء العبَّاسيين عبر أداء قَسَم الولاء، أو ما كان يُعرَف بالتحليف؛ حيثُ يحلف الملكُ بنصِّ قَسَم طويل يُلزمه بإعتاق عبيده وإمائه، وتطليق زوجاته، والبراءة من الدِّين . . . إنْ أخلَّ بنصرة الخليفة، أو عمل ضدَّه، وفي عام 627 هـ 1230م، حلف

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 155.

<sup>2-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 156 ـ توريز: رُبًّا هي تبريز، أشهر مُدُن أذربيجان ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: تبريز ).

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 715 ـ 158.

<sup>4-</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1 / 301.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 344.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 346.

<sup>2 -</sup> مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 347.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 110.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 152، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

الملك الكامل للخليفة المُستنصر في مدينة الرقَّة، بحُضُور رُسُل الخليفة وعلى رأسهم مُحيي الدِّين بـن الجوزي، وجميع مُلُوك بني أيُّوب (1).

ولم تنقطع الرُّسُل بين مُلُوك بني أيُّوب وبين ديوان الخلافة، فكان يندر أن يخلو عام من رُسُل تتردَّد برسائل وغيرها مُنْذُ أيَّام الملك العادل، فقد أرسل العادل رسالة إلى الخليفة النَّاصر عام 614 هـ 1217م، وعاد جوابها مع الشَّيخ صدر الدِّين بن حمويه (2).

وفي عام 627 هـ 1230م، أرسل الملك الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل برسالة إلى الخليفة المُستنصر، وعاد معه بجواب الرسالة مُحيي الدِّين بن الجوزي<sup>(3)</sup>.

وعاً يُلاحظ على تبادل الرسائل بين الخليفة ومُلُوك بني أيُّوب أن إسباغ الأهمِّيَّة على الرسالة يُستمدُّ من أهمِّيَّة شخصية الرسول، الذي كان يُنتقى من أبرز شخصيَّات البلاط، مع تركيز خاصًّ على كبار الفُقهاء والقُضاة لإلمامهم بأصُول الخطاب، وللاحترام المُتوقَّع حُصُولهم عليه من المُرسَل إليه.

وكان رسول الخليفة في ذهابه وإيابه، في أداء مهمَّته ويقابل المُلُوك الواقعين على طريقه، فعندما سَفَر مُحيي الدِّين بن الجوزي برسالة الخليفة المُستنصر إلى الملك الكامل في مصر عام 629 هـ 1232م، تلقّاه في حمص الملك المنصور بن المُجاهد وَليّ عهد مملكة حمص، وهُو في طريق ذهابه، ولمَّا عاد من أداء مهمَّته تلقّاه الملك المُجاهد بنفسه مع أولاده في مدينة دمشق، بينها تلقّاه الملك الأشرف عند قاد ا(4).

وعندما مرَّ شهاب الدِّين السهروردي رسول الخليفة النَّاصر بحلب عام 601 هـ 1205م، يحمل التشريف للملك العادل استُقبل فيها استقبالاً عظيباً، وجلس في مسجدها الجامع للوعظ، وحضر مجلسه كبار رجال حلب<sup>(5)</sup>، ولابُدَّ أن الاستقبال نفسه كان له في حماة وحمس<sup>(6)</sup>.

بدمشق، "يطلب منه الرُّجُوع عن حلف الخوارزمي"، ويعرض التوسُّط بالصُّلح بين المُعظُّم

واخوته، فرفض المُعظَّم (4)، ولم يكن هذا التدخُّل من الخليفة حرصاً على وحدة البيت الأيُّوبي،

ويبدو أن استقبال رُسُل الخليفة كان يتناسب طرداً مع ما يحمله من خبر مُتوقّع لمُلُوك

الأَيُّوبيَّة، فيبلغ الاهتمام به مداه مع حمله لخلع التقليد والتشريف، أو إن كان يسعى في مصلحة مُباشرة

لهم. ففي عام 629 هـ 1232م، عندما كان الملك الكامل في الجزيرة بسبب حَرَكَة التَّار حولها

وصله الخبر بوُصُول ابن الجوزي رسولاً من الخليفة المُستنصر، "فأمر بتلقِّي رسول الخليفة، وإتيانــه

إلى أيِّ موضع كان به، وهذا أوقع إهانة له، فلم يجتمع به إلَّا على السويداء، على السماط أيضاً،

هذه المُعاملة غير المُتوقّعة، والتي وصلت إلى حَدِّ الإهانة لرسول الخليفة حسب تقدير المُؤرِّخ ابن

من هذه السِّفارات يتعلَّق بأُمُور داخل البيت الأيُّوبي، أو يتعلَّق بأُمُور بين الأيُّـوبيِّيْن ومُلُـوك آخـرين.

فعندما كان الملك العادل يُحاصر سنجار عام 606 هـ 1210م، قدِم هبة الله بن المبارك بسن المضحاك

رسولاً من الخليفة النَّاصر يطلب منه ترك حصار سنجار، ويشفع في صاحبها(3)، فوافق العادل،

وفي عام 623 هـ 1235م، قدم ابن الجوزي رسولاً من الخليفة الظَّاهر إلى الملك المُعظَّم

وانسحب، وفي الحقيقة؛ كانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل.

إن اهتمام الكامل بأمر التَّتَار، وتقديره لعدم جدوى سفارة رسول الخليفة هي التي أدَّت إلى

ولم تكن سفارات الخليفة إلى بني أيُّوب لأُمُور تتعلَّق بالخلافة ودولتها فقط، بل كان قسم كبير

ولم يخرج على الطريق أحد له"(1).

أو رغبة في إزالة الخلافات بين مُلُوك بني أَيُّوب، بل ضدَّ الخوارزمي جلال الـدِّين، الـذي كـان يُهـدِّد الخليفة، ويجتاح مُمتلكاته.

<sup>1 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 236.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 236.

<sup>3-</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1 / 289.

<sup>4 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 264.

<sup>1 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 199.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1 / 307.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 195\_196.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 251 ـ 255 ـ 258.

<sup>5 -</sup> مُفرَّج الكُّرُوب، ابن واصل، 3 / 180.

<sup>6 -</sup> راجع : النُّظُم الدّبلُوماسيَّة، صلاح الدِّين المُنجِّد، 59.

إليه، والخليفة المُستعصم لم يشأ أن يُخاطر بالضغط على أيُّوب، وهُو القُوَّة النامية في المالك الأيُّوبيَّة، لذلك لم يستجب الخليفة للنداء، ولم يتدخَّل.

وكما لم يقم خليفة المُسلمين بأيِّ ردِّ فعل عندما سقط القُدْس الشريف؛ أُولى القبلتَيْن، وثالث الحَرَمَيْن بيد الفرنج<sup>(1)</sup>، فإنَّه كذلك فعل عندما حرَّر صلاح الدِّين القُدْس<sup>(2)</sup>، وكذلك فعل عندما أعاد الملك الكامل تسليم القُدْس للفرنجة عام 626 هـ، وكأن الكامل كان مُتأكِّداً من عدم مُبالاة الخليفة بقُدْس المسلمين، فلم يحسب له أيّ حساب، واكتفى بتكليف كاتبه جمال الدِّين الأشرفي بن أبي دبوقة الذي أرسله لتسكين الناس عندما قاموا عليه في الشَّام لتسليمه القُدُّس، بالمُرور على بغداد لإحاطة الخليفة علمًا بها جرى (3)، ويكفي بهذه المواقف تعبيراً عن حقيقة سُلطة الخُلفاء على مُلُوك الأطراف، ومنهم بني أيُّوب.

ولذلك نجد أن الخليفة لم يتجاوز الناحية المعنوية في دَعْمه لللُّوك بني أيُّوب، مُعتمداً على الشرعية التي يُمثِّلها، ففي أشدِّ الأزمات التي تعرَّضوا لها لم يُقدِّم لهم إلَّا رُسُلاً تدعمهم بالكلام المعسول، والاعتذار عن عدم إمكانية تقديم شيء آخر، فعندما ضاقت الأُمُور بالسُّلطان صلاح الدِّين وهُو في مُواجهة الفرنج أرسل يطلب المُساعدة من الخليفة النَّاصر، فأعاد الخليفة الرسول طالباً من صلاح الدِّين مُساعدته لأخذ تكريت، يقول القاضي الفاضل في ذلك: "وقف المملوك على كتاب بغداد، والمقصود الذي أرسل من أجله الرسول، وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المُساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها"، ثُمَّ يقول عن الرسول الذي سار إلى بغداد بالرسالة: "ولا شكَّ أنَّه أنسى الرسالة التي توجَّه فيها، فإنَّا بعثناهُ يلتمَّس لنا نفقة، فالتمسها

وعندما ضاقت الأُمُور بالسُّلطان صلاح الدِّين، وتكالبت عليه قوى الفرنج في معركة عكَّا، "ندب القاضي بهاء الدِّين ابن شدَّاد بالمضي إلى خليفة الوقت الإمام النَّاصر، وإعلامه بهذه الحادثة،

ولم يقتصر عمل رُسُل الخليفة على السِّفارة بينه وبين مُلُوك بني أيُّوب، بـل تعـدَّى عملهـم للسِّفارة بين مُلُوك بني أيُّوب أنفسهم، فعندما كان الملك الكامل يُعاصر دمشق عام 635 هـ 1238م "كان السفير بينه وبين الصَّالح إسهاعيل لتسليمها الصاحب مُحيي الدِّين أبو المُظفَّر يُوسُف بن الشَّيخ أبي الفرج بن الجوزي رسول الخليفة، الذي حضر ليُوقّع الصَّلح بين مُلُوك بني أيُّوب "(2).

كذلك في عام 629 هـ 1232م، وصل ابن الجوزي رسول الخليفة المُستنصر إلى الملك

الكامل، فصادفه على آمد، وقد فتحها، فهنَّاه، وشفع بصاحبَيُّ المَوصل وإربل، فقبل الكامل الشفاعة

وحلف لهم (1)، وما كان قبول الكامل بغَضِّ الطرف عن تحرُّك بدر الدِّين لُؤلُق ومُظفَّر الدِّين كوكبري

صاحبَيْ الموصل وإربل إلَّا للمُشكلات الكثيرة التي كان يتعرَّض لها الكامل في الجزيرة، ورُبَّا كان

أهمّها خطر التَّتَار، الذي أخذ يلوح في أفق الجزيرة، والدور الكبير الذي يُمكن أن يكون الكامل

وفي عام 633 هـ 1236م، عندما ساءت العلاقة بين النَّاصر داود وعمَّه الكامل "أرسل الخليفة الستعصم بالله رسولاً مشربشاً (3) من أكبر خواصِّه ليشفع فيه إلى الكامل، وإبقاء بلاده عليه، وقبل الكامل شفاعة الخليفة، وسافر داود إلى الكَرَك، وأقام آمناً، لانتسابه إلى الخليفة ١٥٠٠٠.

إن هذا يدلُّ على احترام كبير من قبَل مُلُوك بني أيُّوب لمنصب الخليفة، وحرص كُلِّ منهم على اكتساب الخليفة إلى جانب قضاياه الخاصّة.

ويبدو أنَّه كان للخليفة العبَّاسي رأي في التوسُّط والشفاعة بين مُلُوك بني أيُّوب، ويحـدِّد ذلـك وُفقاً لمصلحة دولة الخلافة، أو مصلحة منصب الخليفة، فعندما حاصرت قُوَّات الصَّالح آيُّوب دمشق عام 642 هـ أرسل صاحبها الصَّالح إساعيل إلى الخليفة "وزيره أمين الدولة إلى بغداد مُستشفعاً بالخليفة الستعصم بالله، ومُتوسِّلاً إليه ليُصلح بينه وبين ابن أخيه أيُّوب، ثُمَّ رجع من بغداد، ولم يتحصَّل على طائل من رسالته" (<sup>(5)</sup>، فالصالح إسهاعيل لم يتذكَّر الخليفة إلَّا عندما أَلَجُأَتَهُ الـضرورة

قد قدَّره للمَوصل ولإربل في مُقاومة هذا الخطر.

<sup>1 -</sup> المُنتظم، ابن الجوزي، 17 / 47.

<sup>2 -</sup> يقولُ كلود كاهن: " فخليفة مثل النَّاصر، وهُو شخصية مرموقة، كان يبحث عن كُلِّ ما يعلي مكانته، كان مثبطاً لعزيمة صلاح الدِّين بإجاباته الفاترة على نداءات الجهاد التي يُرسلها إليه ". ( الشَّرْق والغَرْب، ترجمة: أحمد السَّيخ،

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1 ِ / 355.

<sup>4-</sup>الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شُهَبَلُ زَكَّار، 19 / 309.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 242.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1 / 379.

<sup>3 -</sup> مشربش: يلبس الشريوش.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 111 ـ 113.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 341، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376.

#### المبحث الرّابع

# المُلُوك الأيُّوبيُّون وشعارات الشرعية العبَّاسيَّة

مع انقسام دولة الخلافة العبّاسيّة الفعلي، وسيطرة مُلُوك وأُمراء وقادة وزعهاء وشُيُوخ وغيرهم على مناطق مُتعدّدة من جسم الدولة، منها ما كان يُشكّل دُولاً كبيرة جدّاً، ومنها إمارات صغيرة، وأحياناً؛ قلعة أو بلدة لها حاكمها الخاصّ، وهُو يتصرّف بكُلِّ الشُّوُون السّياسيّة والعسكريّة والداخلية باستقلالية تامّة، ومع كُلِّ هذا الانقسام بقيت هُناك سُلطة اسمية للخليفة على كُلِّ الدُّول والدُّويلات المُستقلّة، انطلاقاً من أن الخلافة هي منصب ديني، والخليفة هُو إمام المُسلمين ومرجعهم الأعلى دينياً وسياسياً، وأيضاً؛ لأن البلاد بكاملها كانت لدولة الخلافة، وكُلِّ سيطرة على أيّ منطقة منها ليست شرعية، وصاحبها لا يملك الحق الشرعي في الحُكْم، لذلك كان كُلٍّ منهم مُضطرًا بشكل أو بآخر \_ أنْ يُقرَّ بسُلطة اسمية للخليفة في بلاده. وكان خُلفاء بني العبّاس المُتأخّرون يرضون بهذه السيطرة الاسمية، التي لا تتعدَّى ذكر اسمهم في خطبة الجمعة على منابر المساجد؛ بحيثُ يسبقه اسم الملك المحلّق، ونقش اسمهم على العملة التي يسكّها هذا الملك، أو ذاك، ضمن أراضي البلاد، التي كانت \_ فيها مضى \_ تُسمَّى أراضي الخلافة العبًاسيّة.

وكان هُناك شكل رسمي برُوتُوكُولي لمُوافقة الخليفة التي كانت مضمونة دائماً على أن يشمل بشرعية حُكْم المُلُوك المُتنفِّذين في أطراف الدولة، مع أن سُلطاتهم وأراضيهم كانت تقوم على حساب سُلطة وأراضي الخليفة، حتَّى لم يبقَ للخليفة إلَّا بغداد واسم الخلافة. هذا الشكل الرَّسْمي لمُوافقة الخليفة كان يلزم لكُلِّ حاكم جديد، بل، ولكُلِّ توسُّع يقوم به، وأحياناً؛ كان بحاجة إلى تجديد سنوي. ونُلاحظ أن مُعظم الخُلفاء المتأخِّرين قد استمرؤا هذه التمثيلية، فكانت رُسُلُهُم تترى إلى مُلُوك الأطراف بالمُوافقات الشرعية، التي عُرفَتْ بعدَّة أسهاء، منها:

1. التقليد: ويعني التولية، وهي من قلَّدتُهُ أمر كذا؛ أيْ وَلَيْتُهُ عليه (1)، فالتقليد هُو مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحُكُم في بلد، أو بلاد مُعيَّنة. وقد حرص المُلُوك الأَيُّوبيُّون حرصاً كبيراً على أن يتولَّى كُلُّ منهم عمله بمباركة شريفة من الخليفة، تتجلَّى بمنحه التقليد

وتساهم في توضيح حقيقة موقف الخليفة من مُلُوك بني أيُّوب هذه المحاورة التي جرت بين اللك المُعظَّم صاحب دمشق وابن الجوزي رسول الخليفة الظَّاهر، الذي طلب منه ترك التحالف مع الخوارزمي ضدَّ إخوته: "قال المُعظَّم: إذا رجعتُ عن الخوارزمي، وقصدني إخوي، تُنجدوني؟ قال: نعم. قال: ما لكم عادة تُنجدون أحداً، هذه كُتُب الخليفة النَّاصر لدين الله عندنا، ونحنُ على دمياط نكتب، ونستصرخ به، فيجيء الجواب: بأنَّا قد كتبنا إلى مُلُوك الجزيرة، ولم يفعلوا"(3).

وبالمُقابل؛ نجد أن الكامل نفسه، الذي لم يُنجده الخليفة النَّاصر على دمياط، عندما استنجد به الخليفة المُستنصر لدفع غائلة التَّتَار المُتقدِّمين نحو بغداد عام 635 هـ 1238م، جنَّد له الفُرسان مس ماله الخاصِّ، ورفض أن يستخدم أموال الخليفة (4)، وبالفعل؛ فقد وصل إلى بغداد ستُّائة فارس يقودهم إبراهيم بن خضر بن السُّلطان صلاح الدِّين، ثُمَّ تبعهم عساكر كثيرة يقودها المُظفَّر عُمر والملك السعيد ابنا الأبجد صاحب بعلبك، لمُساعدة الخليفة على دفع التَّتَار (5).

<sup>1 -</sup> مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُصطفى الخطيب، 109.

<sup>1 -</sup> الزرَّاق: الرامي بقوارير النفط لإحراق معدَّات العدوِّ، وسُمِّي بذلك لأن النفط كان يزرق بواسطة أنبوبة.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2 / 314. 3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 264.

<sup>4-</sup> أخبار الأيوبيِّين، ابن العميد، 21، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 380.

<sup>5 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 166.

لولايته، وإن كان ذلك شكلياً محضاً، ويأتي بعد مُباشرته الولاية الفعليَّة بالوراثة، أو بالتغلُّب، ورُبَّما كان هذا الحرص مبعثه إيهانهم وتمسُّكهم بشرعية الحُكْم الدِّيني، أو لكسب الناس بغطاء الشرعية، بعد أن كسبوا السُّلطة فعليًّا، والأغلب أنَّه كان للأمرَيْن اعتبارهما في سياسة المُلُوك الأثيوبيَّة.

نفي عام 576 هـ 1180م، وبعد سنوات قليلة من سيطرة السُّلطان صلاح الدِّين على الشَّام، أرسل الخليفةُ النَّاصر رُسُلَهُ تحمل التقليد ليصلاح الدِّين إشعاراً بالمُوافقة على تولِّيه منصب السَّلطنة (1). وعندما أراد السُّلطان صلاح الدِّين أَخْذ آمد، وضمّها إلى دولته عام 579 هـ 1183م، كتَبَ قبل الشروع في الحملة إلى الخليفة النَّاصر يطلب إذنه في قصد آمد، "نوصله تقليد بها"(2). وفي عام 604 هـ، عندما سيطر العادل على عملكة مصر وعلى دمشق والبلاد الجزرية أرسل أستاذ داره الدكز العادلي والقاضي خليل بن المصمودي قاضي العَسْكَر إلى الخليفة في بغداد "لطلب التقليد على مصر والشَّام والجزيرة"، فأكرما، وأجيبا(3)، وزيادة في التكريم أرسل الخليفة معها الشَّيخ شهاب الدِّين السهروردي ونُور الدِّين التركي الخليفةي (4)، يحملان من الخليفة إلى العادل "تقليداً بالبلاد التي تحت حُكُمه" (5)، "وقرأ صفي الدِّين بن شكر وزير العادل التقليد الذي أرسله الخليفة على كرسي نُصب له" (6)، عمَّا يُوضِّح لنا بأنَّ التقليد هُو مرسوم سياسي إداري ديني يصدره الخليفة بتولية جُزء من أراضي الخلافة إلى شخص يُذكر اسمه في التقليد مقروناً بصفات التقدير والتعظيم.

وفي عام 628 هـ 1231م، وصل رسول من الخليفة بالتقليد إلى السُّلطان الكامل، "وقلد تقليداً لم يُقلّد به غيره من سائر المُلُوك من بني العبَّاس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصَّالح، ولمَنْ عبَّنوه "(<sup>7)</sup>، فقد غدا التقليد منشور تفخيم وتعظيم وزيادة في القول والوصف للملك المُقلَّد، تبلغ حَدَّ الشطط في إغداق الصفات والنعوت عليه.

بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثُمَّ عادوا إلى القلعة الأ(8).

وبعد أن سيطر الملك الصَّالح أيُّوب بن السُّلطان الكامل عام 643 هـ على مصر والشَّام وصل رُسُلُ

الخليفة، الفلك مُحمَّد بن وجه السبع وجال الدِّين بن عبد الرحن بن الجوزي، ومعها التقليد . .

فنصب المنبر، وصعد عليه الرسول، وقرأ التقليد بالدهليز السُّلطاني، والسُّلطان قائم على قدمَيْه، حتَّى

فرغ من القراءة "(1)، ومع أن التقليد هُو قرار الخليفة بإقرار ملك من مُلُوك الأطراف على ولاية

استطاع مُلْكَهَا فعلاً، فإن المُلُوك الأيُّوبيَّة كانوا يُقدِّرون التقليد حتَّ قدره، فقيام أيُّوبِ واقفاً على قدمَيْه

أثناء قراءة تقليده لدليل كبير على مدى أهمِّيَّة التقليد بالنِّسبة إليه، فهُو النصُّ الـشرعي الـذي يُفـوِّض

إليه حُكْمَ البلاد شرعاً وقانوناً. ولا نستطيع هُنا إلَّا أن نُلاحظ أن مُعظم التَّقاليد كانت تـصدر لمُلُوك

الأسود(3)، والسواد هُو شعار بني العبَّاس(4)، وتكون خلعة التشريف مُذهَّبة عادةً، وتُسمَّى التشريف

الإمامي (5)، فهي تشريف من الإمام؛ أيّ الخليفة العبّاسي للشخص المرسّل إليه. وكان رسول الخليفة

يقوم بوَضْع التشريف على أكتاف الملك المُرسَل إليه، بعد قراءة التقليد، فيلبسه، ويسير بـ في شـوارع

بلده، أو بين خواصِّه (6). فعندما وصل إلى السُّلطان النَّاصر صلاح الـدِّين التقليد والتشريف من

الخليفة عام 576 هـ 1180م، "ركب النَّاصر بالتشريف" (7). وفي عــام 604 هــ 1208م، وصــل

تشريف من الخليفة النَّاصر إلى السُّلطان العادل، وإلى أولاده، ووزيره، "فركب العادل وولداه ووزيره

2-التشريف: أو خلعة التشريف، وهُو جبَّة، أو عباءة بلون أسود، لذلك قد يُسمَّى التشريف

بني أَيُّوب من الخُلفاء بناءً على طلب مُسبق منهم، مع رسول يحمل الهدايا اللائقة (2).

<sup>1 -</sup> السُّلُوك؛ المقريزي، 1 / 425، ومُفرِّج الكُرُّوب، ابن واصل، 5 / 352.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، أبن واصل، 5 / 350.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.

<sup>4-</sup>رُسُوم دارِ الخلافة، الصابيء، 93.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350.

<sup>6 -</sup> مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، 4 / 352، والتاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زكَّار، 21 / 256، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.

<sup>7 -</sup> التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسُّوعة الشِاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 256.

<sup>8-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 109.

<sup>1 -</sup> التاريخ المُظفِّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 256.

<sup>2 -</sup> التاريخ المُظفّري، ابن أبي الدم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 260.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 122.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 109.

<sup>6 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.

<sup>7-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 231.

وفي عام 623 هـ 1226م، وصل رسول الخليفة الظَّاهر مُحيي الدِّين بن الجوزي (1)، ومعه تشريفات إلى مُلُوك بني أيُّوب (2). وفي عام 643 هـ 1246م، بعد أن مَلَكَ الصَّالح أيُّـوبُ مـصرَ والشَّام، أرسل إلى ديوان الخلافة القاضي ابن أبي عصرون (3) "يلتمس التقليد بالديار المصريَّة والشَّام والشرق والتشريف الإمامي"، فجاء من الخليفة المُستعصم معه "رسول كبير من الديوان، وعلى يـده التشريف"، فوصل الرسول وأيُّوب مُحسِّم بالعبَّاسية، " فلبس السُّلطان التشريفَ الأسودَ

3- الخلعة: وهي ما يخلعه الخليفة أو الملك على أحد من الناس(5)، وكان خُلفاء بني العبَّاس كثيراً ما يهبون الخلع لأتباعهم. وأنواع الخلع التي كانت تُرسَل إلى مُلُوك بني أيُّوب كانت \_غالباً \_ما ترافق التقليد، وتكمل التشريف. وهي خلع أصحاب الجُيُوش، ووُلاة الحُرُوب(6)، فمُلُوك بني أيُّوب كانوا وُلاة دار الحَرْب في مُواجهة الفرنج مُنْذُ أن قامت دولتهم. والخلعة - في كثير من الأحيان - كانت تعني مُوافقة الخليفة على تقليد الملك في بلاده، وهي - عادةً - تتكوَّن من عمامة سوداء ورداء فضفاض - عباءة - أسود مُبطَّن، مُوشَّى بالذهب، وسيف مُحلَّى بالفضَّة والذهب، له حائل مُوشَّاة أيضاً. ثُمَّ يأتي الحملان، وهُو حصان بسرج مُزيَّن.

وكانت هُناك زيادة على هذه الخلع المُتعارف عليها تُزاد لأصحاب الفتوح من القُوَّاد، وهي طَوْق وسوارَيْن من الذهب(7)، وهذه الزيادة أُعطيَتْ لقُوَّاد دولة الخلافة، ولم ترسَل مع الخلع إلى مُلُوك بني أيُّوب إلَّا نادراً، ففي عام 599 هـ 1203م، أرسل الخليفةُ الخلعَ إلى الملك العادل وأولاده، فلبسوها(8)، ولم يُذكّر أنَّها تضمُّ الطُّوق والسوارَيْن. أمَّا في عام 605 هـ؛ فقـد وصـل إلى بغـداد مـن

دمشق قاضي عسكر الشَّام ابن المصمودي (1) رسولاً من الملك العادل، وتسلَّم الخلع للعادل وأولاده،

وكان في خلعة العادل الطُّوق والسواران (2)، وأرسل معهم الخليفة الشَّيخ شهاب الدِّين الـسهروردي

رسولاً لحمل الخلعة، واهتمَّ العادل كثيراً بهذه الخلعة، فقد "أرسل العَسْكَر للقاء الرسول، فتلقُّوه في

الغسولة (3)، وخرج العادل، وتلقَّاه في القصير (4) مع ولدَيْه الأشرف والمُعظَّم، وخُلِّقَت الأسواقُ،

وخرج الناسُ كُلُّهم، وكان يوماً مشهوداً"، ثُمَّ جلس العادل بقلعة دمشق، ولبس الخلعة، "وطُوِّق

بطَوْق ذهب ثقيل "(5). إنَّه تقدير كبير من الخليفة النَّاصر للملك العادل، واهتمام أكبر من العادل يدلُّ

على مُستوى أهمّيَّة تقليده بالخلعة والطَّوْق، فقام العادل وأولاده ومُلُّوك بني أيُّوب بإغداق الهدايا

والتحف على رسول الخليفة، وكانت كبيرة إلى درجة أن الخليفة قد أعرض عنه عند عودته إلى بغداد

بني أيُّوب، فوصل إلى الأشرف أوَّلاً، وكان في الجزيرة، "فأفاض عليه الخلع الإمامية الظاهرية، ثُمَّ

وصل حلب، فتلقًّاه الملك العزيز، فألبسه خلعة الخليفة، . . . فركب العزيز بها، وتوجَّه إلى دمشق،

وأَلْبَسَ المُعظَّمَ خلعةَ الخليفة، . . ثُمَّ توجَّه إلى مصر، فَأَلْبَسَ الكاملَ خلعةَ الخلافة المُكمّلة، بالطُّوق

الذهب" (7)، إنَّها خلع بالجملة لمُلُوك بني أيُّوب في الشَّام ومصر، ولكن خلعة السُّلطان الكامل هي

الخلعة الوحيدة المُكمّلة بالطَّوق الذهب، فالطَّوْق لم يُعدُّ من شعارات قُوَّاد الفتوح، بل من تمام الخلعة

وكمالها التي ينفرد بها سُلطان بني أيُّوب عن المُلُوك الآخرين. وفي عام 628 هـ 1231م، وصل رسول

وفي عام 623 هـ 1226م، توجَّه مُحيي الدِّين بن الجوزي رسولاً من الخليفة الظَّاهر إلى مُلُوك

بهذه الكمِّيَّة من الهدايا<sup>(6)</sup>.

الخليفة إلى السُّلطان الكامل بمصر يحمل الخلع من الخليفة (8)، ونفترض أن هذه الخلعة \_ أيضاً \_ كانت 1 - ابن المصمودي: نجم الدِّين خليل الحنفي الحموي، تُوفِّي عام 647 هـ 1243م، ( النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي،

<sup>2 -</sup> ذَيْلُ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 20 / 122. 3 - الغسولة: قرية تقع شال شرق دمشق، وهي \_حالباً \_قُرب مطار دمشق الدولي، ( المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: الغسولة ).

المسوري، فعاده المسوك؟. 4-القصير: قرية على طريق حمص، شمال دمشق بمرحلة. ( المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: القصير). 5-مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 109، والمنصُوري، ابن نظيف، 56.

<sup>6 -</sup> ذَيْلَ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 20 / 124.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 175.

<sup>8 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 231.

<sup>1 -</sup> أبو المُظفَّر مُحيى الدِّين يُوسُف بن جمال الدِّين أبي الفرج بن الجوذي.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 175.

<sup>3 -</sup> عزّ الدِّينِ بن عبد العزيز بن القاضي نجم الدِّين عبد الرحمن بن أبي عصرون، تُوفِّي في القُدْس عام 643 هـ.

<sup>4-</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 50 هـ 252، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 377.

<sup>5 -</sup> مُعجم المُصطلحات والألقابِ التاريخية، مُصطفى الخطيب، 165.

<sup>6 -</sup> راجع أنواع خلع أصحاب الجُيُوش ووُلاة الحُرُوب في كتاب: رُسُوم دار الخلافة، الصابيء، 93.

<sup>7 -</sup> رُسُوم دار الخلافة، الصابيء، 93.

<sup>8 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 61.

#### المبحث الخامس

قضية الملك الناصر داود والخليفة العباسي (وجه آخر للعلاقات بين الأيُّوبيِّيْن والخليفة):

في عام 630 هـ 1233م، تحرَّك الملك الكامل بعساكره من مصر نحو الجزيرة للتصدِّي لهُجُوم سُلطان سلاجقة الرُّوم، وفي طريقه مرَّ على الكرك، فاستقبله النَّاصر داود، واتَّفق معه، وقبل الكامل زواج ابنته عاشوراء من داود (1)، ورُبَّا أراد الكامل بهذه العلاقة مع داود تقوية مركزه في الشَّام، ويبدو أن داود لم ينسَ ما فعله عمُّه الكامل؛ حيثُ نزع منه دمشق، وأخذ منه قلعة الشوبك، فاستغلَّ النَّاصر داود فُرصة تآمر المُلُوك الآيُّوبيَّة على الكامل أثناء غزوه لبلاد الرُّوم، فانخرط في حلفهم ضدَّه. وصحيح أن الملك المُجاهد هُو مَنْ حرَّك المُلُوك ضدَّ الكامل، وأبلغهم أنَّه قال: "أريد أن أجعل البلاد سفقتَيْن، فأضم الشَّام إلى مصر، وأعوّض مُلُوكه في الرُّوم، فحذر كلّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حتفة بظلفه"، لكنَّ النَّاصر داود اللذي "لدغته أراقم بغيهم، وأنفذوا في انتزاع دمشق منه سهام أمرهم ونهيهم، علم أن القلق مُترتّب على ما يُحاولونه من الفتح، فخلل في سراتهم رأيه الناصع، وفاوضهم مُفاوضة أخذت من قلوبهم بالمجامع، فتنسَّم الملكُ الكامـلُ الأخبار "(2)، وعلم دور داود في التحريض عليه، ورُبَّها لأنَّمه الطرف الأضعف وقعت عليه ثاثرة الكامل، فألزمه بطلاق ابنته، وتهدُّده، "فخاف النَّاصر خوفاً عظيماً" (3)، ولـشدَّة خوف مـن الملـك الكامل ترك النَّاصر بلاده عام 633 هـ، وسار إلى بغداد لائذاً بالخليفة المُستنصر (4). كـان لجـوء داود لأعتاب الخليفة سابقة لمُلُوك بني أيُّوب، فلم يقصد أيٌّ منهم الخليفة فيها قبل، ويبدو أن ما اضطرَّ داود إلى ذلك هُو خوفه الشديد من عمِّه الكامل، خاصَّة أنَّه جرَّب مُعاداته سابقاً، فخرج من معركته معمه خاسراً مُعظم بلاده. ولكن الظُّرُوف - الآن - مُختلفة، فالملك الأشرف ومُلُوك السَّام مُعادون تماماً للملك الكامل، فلِمَ لَمْ يلجأ النَّاصر إليهم؟ بالتَّأكيد؛ إنَّها تجربته المرَّة السابقة معهم؛ حيثُ أوقعوه بين

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

تضمُّ الطَّوْق، فقد أصبح حقًا مُكتسباً للسُّلطان. وفي عام 643 هـ 1237م، وبعد أن تسلطن الصَّالح أَيُّوب، وسيطر على مصر ودمشق، أرسل إلى ديوان الخلافة يلتمس التقليد، فوصله رسول الخليفة، ومعه التقليد والطَّوْق الذهب<sup>(1)</sup>، فالطَّوْق أصبح حقًا ضمن خلعة الخليفة لَمَنْ يتولَّى منصب السُّلطان الأعظم من بني أيُّوب.

وكها كانت المُنافسة على السُّلطة بين آخر سلاطين بني أيُّوب في الشَّام وأوَّل سلاطين المهاليك في مصر كانت \_ أيضاً \_ بينها المُنافسة على خلعة الخليفة، فبعد أن سيطر الملك النَّاصر صلاح الدِّين النَّاني على الشَّام "أرسل ابن العديم رسولاً إلى الخليفة المُستعصم وصحبته تقدمه جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه" (2)، فالناصر يُريد أن يُؤكِّد شرعية الحُكْم الأيُّوبي الذي آل إليه مُقابل عدم شرعية حُكْم المهاليك، الذين استولوا على السُّلطة في مصر، فها كان من المُعزّ أيبك إلَّا أن أرسل شمس الدِّين سنقر (3)، "وصحبته تقدمه جليلة، وسعى في تعطيل خلعة النَّاصر يُوسُف" (4)، فآييك لم يطلب الخلعة لنفسه، رُبَّا لأنَّه كان يُدرك صُعُوبة مُوافقة الخليفة على ذلك، فحُكْمه في مصر لم يستقرّ بعد، وهُناك مشاكل كثيرة شرعية وعسكريَّة وإدارية ماتزال قائمة، لذلك كان جُلُّ ما يطمح إليه هُو علم منح الخليفة الخلعة للناصر يُوسُف.

أمَّا الغريب في هذا الأمر؛ فهُو موقف الخليفة المُستعصم الذي حار فيمَنْ يُرضي من الطرفَيْن، فقد قدَّما هدايا جليلة لا يُمكن أن يُنكر تأثيرها، ولذلك وجد الخليفة الضعيف الشخصية نخرجاً بأنْ المحضر سكِّيناً كبيرة من اليشم (5)، وقال لوزيره: أعط هذه السكِّين لرسول صاحب الشَّام، علامة منِّي في أن له خلعة عندي في وقت آخر (10)، وهذا أمر طبيعي بالنِّسبة للمُستعصم، فهُ و لم يشأ أن يدخل في صراع اللُّوك على السُّلطة، فدوره إقرار من يتغلّب منهم، وعندها تكون الخلعة من حقَّه الطبيعي.

<sup>2 -</sup> الفوائد الجلية في الفرائد النَّاصريَّة ـ سيرة النَّاصر داود، الأمجد حسن بن داود، 218.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 100، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.

<sup>2 -</sup> عقد الجهان، العيني، 1 / 117.

<sup>3 -</sup> سنقر الأقرع: من ماليك المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين، فارقه، والتحق بمصر.

<sup>4 -</sup> عقد الجان، العيني، 1 / 117.

<sup>5 -</sup> اليشم: حجر كريم.

<sup>6 -</sup> عقد الجمان، العيني، 1 / 117.

المطرقة والسندان، فعندما استنجد بعمَّه الملك الأشرف اتَّفق عليه مع عمِّه الآخر الملك الكامل، ونزعوا منه دمشق، لكُلِّ ذلك لم يجد داود أمامه إلَّا الخليفة، فقصده مُستجيراً به.

سار النّاصر داود إلى بغداد مع عدد من خواصّه، ولمّا وصل مدينة الحلّة، وهي تابعة للخليفة، استقبله أميرها شرف الدّين على بن جمال الدّين قشتمر، وأكرمه، وتابع بعدها داودُ طريقَهُ إلى بغداد، فأمر الخليفة المُستنصرُ حاشيتهُ باستقباله، وإنزاله بدار الوزارة، وقام النّاصر بتقديم هدايا نفيسة إلى الخليفة، فيها من التحف والجواهر (1)، "وكان طامعاً بمُقابلة الخليفة، فلم يُؤذَن له في ذلك، وطال مقامه في بغداد (2). ولم يُقصِّر الخليفة بُحقِّ ضيافة داود وإكرامه، فقد خلع عليه قبا أطلس (3)، وشربوش (4)، وفرساً بمركب ذهب وكنبوش (5)، وأعطي علماً وجفتاتين (6)، كما أُعطي خسة وعشرين ألف دينار، وعدَّة رُوُوس خيل، وبقح (7) ثياب فاخرة، وشُرِّف أتباعه (8)، ومع كُلِّ ذلك الإكرام لم يوافق الخليفة على استقباله، مُراعاة منه لخاطر الملك الكامل، فبالتأكيد؛ كانت مصلحة الخليفة مع سُلطان بني أيُّوب، لا مع أمير مغضوب عليه، يرتعد خوفاً من سُلطانه. ولكن داود لم يياس، واستمرَّ بنضرُّ عه للخليفة حتَّى يحظى بالمقابلة، وقد شجَّعه على ذلك أن الخليفة كان قد يياس، واستمرَّ بنضرُّ عه للخليفة حتَّى يحظى بالمقابلة، وقد شجَّعه على ذلك أن الخليفة كان قد ويقارن فيها بين استقبل مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين، والإعراض عنه، وأرسلها إلى الخليفة يستعطفه لمُقابلته (9)، وأعجبت القصيدة الخليفة، وأراد الجمع بين المصلحتيَّن، فاستدعاه سرَّا جَبْرًا لقلبه، وعدم الجَهْر

رعاية للكامل "(1). ثُمَّ سَيَّرَ الحليفةُ رسولاً مع النَّاصر ليشفع فيه إلى الكامل، حتَّى لا يتعرَّض لبلاده، وكان الرسول سعد الدِّين حسن بن علي من كبار خواصِّ الحليفة، فتلقَّاه الأشرف والكامل بدمشق، وسار الرسول مع النَّاصر داود ليُلبسه الحلعة في الكَرَك إشعاراً بتكريم الخليفة له، "وأقام آمناً لانتسابه إلى الحليفة "(2). ويبدو أن هذا ما سعى إليه داود، ولكنْ؛ إلى متى سيستمرُّ أمنه واستقراره في ما بقى له من البلاد؟!

بعد موت الملك الكامل، تنازع ولداه الصَّالح والعادل على السَّلطة، وتمكَّن الصَّالح أَيُّوب من أَخْذ دمشق، وسار إلى مصر، وفي الطريق؛ تخلَّى عنه جنده وأصحابه لُخُرُوج دمشق من يده، فقبض عليه النَّاصر داودُ، واعتقله في الكَرَك، ثُمَّ اتَّفق معه، وأخرجه، وتملَّك الصَّالح أيُّوب مصر، لكنَّه تنكَّر لعُهُوده، فدخل النَّاصر داودُ ضدَّه في حلف الشَّام.

لكنْ؛ بعد هزيمة غزَّة، وأَخْذ أيُّوب لدمشق، وضَغْط ابن الشَّيخ العسكري على داود، وحصاره في الكَرَك، ضاقت الدُّنيا به، فسار من الكَرَك نحو الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني في حلب، معتضداً به، ولاجتاً إليه عام 647 هـ 1249م، "وكان قد بقي عند داود من الجوهر مقدار كثير (3) وكان معه من نفائس الجواهر ما هُو كالنجوم الزواهر . . يقوَّم بضرورة البيع بخمسائة ألف دينار "(4). ويبدو أن داود خاف أن يطمع النَّاصر يُوسُف بالجوهر الذي معه، "فلم يجد عليه مأمناً سوى دار الخلافة . . فجمع ما عنده من الجوهر الثمين، وسيَّره وداعة إلى الإمام المستعصم، فليًّا وصل الجوهر إليهم، سيَّروا بوصُوله خطاً "(5)، فكان داود كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيثُ لن تقع عينه على تلك الثروة التي تصوَّر أنَّها في أكثر الأمكنة أمناً، إنَّها ذمَّة الخليفة. ولم يكن هذا التصرُّف الخاطئ الوحيد الذي ارتكبه داودُ، ويبدو فيه أن الحكمة والتعقُّل قد جانباه، أو أن الشدَّة والخوف

<sup>1-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3 / 157.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 100.

<sup>3 -</sup> قبا: من قباء وهُو ثُوب واسع، يُرتَدَى فوق الثياب العادية.

<sup>4-</sup>الشربوش: قلنسوة طويلة، شُرح سابقاً.

<sup>5 -</sup> الكنبوش: ما يُستَر به ظَهْرُ الفَرَس، وكفله، ويكون من خيوط الذهب، أو الصوف المرقوم، ويركب به القُضاة وأهل العلم. (صُبح الأعشى، القلقشيندي، 2 / 135 ).

و يتقدَّمان علامان يرتدي كُلِّ منها ثوباً من الحرير الأصفر، ويركب كُلُّ منها على فَرَس أبيض، ويتقدَّمان الاحتفالات. (تكملة المعاجم العَربيَّة، وينهات دوزي، مادَّة: جفته ).

<sup>7-</sup> بقج: جمع باقجة، وهي تُركية تعني الصُّرّة. ( النُّقُود العَرَبيَّة وعلم النميات، الأب أنستاس ماري الكرملي، 168).

<sup>8 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 161 - 162.

<sup>9 -</sup> مطلع القصيدة: ودان، ألَّتْ بالكِثيب ذوائبه وجنح الدَّجي وحفَّ تجول غياهِبُه

<sup>(</sup>راجع القصيدة في: ديوان الملك النَّاصر داود، 221).

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 106، (راجعٌ وقائع المُقابلة بين داود والخليفة في: الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن بن داود، 220).

<sup>2-</sup>مُفرَّح الكُّرُوب، ابن واصل، 5 / 113، والمُختصر، أبـو الفـداء، 3 / 157، والمُختـار مـن حـوادث الزَّمـان، ابـن الجزري، 162.

<sup>3 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.

<sup>4 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226، \_يقول أبو الفداء: "كان يُساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان". ( المُختصر، أبو الفداء، 3/ 179).

<sup>5 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226 \_227.

وبعد هزيمة النَّاصر يُوسُف أمام الماليك، أوعز داود إلى ولدَّيْه الظَّاهر شاذي، والأوحد يُوسُف أن يتوجُّها إلى بغداد ليُذَكِّرا الخليفة بقضيَّته، ولكنَّهما رُدًّا من الطريق قبل بُلُوغ بغداد، "وقيل إنَّ النَّاصر طلب ردَّهما، فعادا إلى دمشق"(1). وكان الخليفة قد أرسل الشَّيخ نجم الدِّين البادرائي(2)رسولاً ليُصلح بين النَّاصر يُوسُف والماليك، واستطاع - فعلاً - التوصُّل إلى الصُّلح وإطلاق الأسرى الشُّوام في مصر، فكتب أولاد داود إلى البادرائي وهُـو بدمـشق عـام 651 هـ 1253م، فرأف بحالهم، وحدَّث النَّاصر يُوسُف بأمر داود، فأطلقه، "مُشترطاً عليه ألَّا يُقيم عنده إلَّا ريثها يتجهَّز للسفر "(3)، ولم يجد داود مكاناً يلجأ إليه بعد إطلاقه من السجن "سوى قصد الخليفة . . . فتوجَّه يؤمّه، في وثوق من الرجاء، معتمداً على ما استودعه من المال والولاء "(4). ولكن النّاصر يُوسُف عمَّم على كُلِّ المُلُوك والأُمراء في الشَّام ألَّا يسمحوا لداود بإقامة، ولا يمدُّوه بمُساعدة، وعندما مرَّ داود على الرحبة وفيها الأشرف مُوسى بن المنصُور بن المُجاهد، فبالرغم من أوامر الملك النَّاصر يُوسُف "أرسل إلى النَّاصر داود مركبَيْن مُوسقَيْن دقيقاً وشعيراً" (5)، ولم يكتف بذلك، بل "سَيَّرَ إليه أشياء غير واحدة من جميع ما يحتاج إليه"(6)، وبذلك "قام الأشرف بن المنصُّور في خدمته بها يليق بمكارم أخلاقه الزكية"، ولكن هذا تحدِّياً لسُلطان الشَّام النَّاصر يُوسُف، الذي انزعج من الأشرف، "وسقاه من عتبه سهاماً، وسدَّد إليه من تخويفه سهاماً" (7). وأرسل النَّاصر يُوسُف إلى الخليفة يطلب منه عدم استقبال داود، فردُّوه من عانم، ومنعوه التنزوُّد بالمؤن، "وطلب وديعتم، فمنعوه إيَّاها" (8). ويبدو أن الخليفة كان لا يرغب أن يتبنَّى داود، الذي تحوَّل إلى مُشرَّد مشاغب غير مرغوب فيه في بلاده، ولدى سُلطانه النَّاصر، الذي كان الخليفة يُريد أن يحافظ على علاقات جيِّدة

قد شكّ تفكيره، فقد سلّم حُكمَ الكَرَك قبل أن يغادرها إلى ابنه الأصغر عيسى، ولقبه المُعظَّم، وجعله نائباً له في مملكته، مُتجاهلاً ولديه الأكبر؛ وهما الأمجد حسن، والظاهر شاذي (1)، فاستغلَّ ولـدا داود غيبته، وصغر سنِّ أخيهم المُعظَّم نائب والدهم في الكَرَك، وقاموا بالاتّفاق مع الصَّالح أيُّوب، وسلَّماه الكَرَك مُقابل أموال وإقطاع لهما في مصر (2)، ولم يطلُ العهدُ بهما، فقد مات أيُّوب بعد أيَّام قليلة، فطُردا من مصر، وخرجا خاسرين كلَّ شيء (3).

ويبدو أن أُمُور النَّاصر داود سارت على عكس ما يرتجي في حلب، فقد قام لُولُو الأميني مُدبِّر علكة حلب بتحريض النَّاصر يُوسُف عليه؛ إذْ يقول الأنجد حسن بن داود في سيرة أبيه: "ولمَّا قصد الملكُ النَّاصر يُوسُف مُنتصراً، وجد من كفيل دولته مُتنكراً" ففي عام 648 هـ 1250م، قبض النَّاصر يُوسُف على داود، وسبجنه في قلعة حمص (5)، وفي سبجن حمص نظم قصيدة في التوسُّل والرجاء (6)، ويُستشف من مضمون القصيدة أنَّه جاء طالباً اللُّجُوء والحياية لدى النَّاصر يُوسُف، فلم يُجبه، بل رماه بإفك القول، وسجنه، ولم يجد في النّهاية داود إلَّا الله سبحانه يلجأ إليه، ويطلب منه. ولمَّا طال سبحنه بقلعة حمص "لم يجد سوى الخليفة ملاذاً، فبعث ولده المُعظَّم عيسى مُستشفعاً "(7)، وكانت استجابة الخليفة على غير ما توقّع؛ حيثُ "سَيَّرَ معه شفاعة لا يُرجى لمثلها نجاح" (8)، فالرسول شخص عاديّ لا أهميَّة له، ويبدو أن النَّاصر يُوسُف فَهمَ إشارة الخليفة بأنَّه غير مَعْني بأمر داود، فاعتذر عن إطلاقه من السجن، وتعلَّل باستعداده لحرب المهاليك بمصر، وإنَّه يخشى أن يُفسد عليه الأمر في الشَّام.

<sup>1 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 227.

<sup>2 -</sup> راجع ترجمته في: مبحث الماليك، فصل مقتل المُعظَّم تُورانشاه، من هذا الكتاب.

<sup>3-</sup>الفوائد الجلية، الملك الأعجد حسن، 228.

<sup>4 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 228.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186 \_187 موسقَيْن: ممتلئين.

<sup>6 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 23.

<sup>7 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 229.

<sup>8 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 215.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 354.

<sup>4-</sup>الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226.

<sup>5 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 353، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 184.

<sup>6 -</sup> مطلع القصيدة: إلمي أنت أعلى وأعلم بمحقوق ما تبدي الصدور وتكتم.

<sup>(</sup>ديوان الملك النَّاصر داود، 260، \_ كذلك انظر: عقد الجمان، العيني، 1 / 38).

<sup>7 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 227.

<sup>8 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 227.

معه، إضافة إلى أن الخليفة -رُبَّها - فكَّر أن عودة داود إلى بغداد ستكون - بـ لا شكِّ - لطلب وديعته من الجوهر، فَمَنْعُهُ مِن الْحُضُورِ يعني ثَمَلُّكَ الوديعةَ.

فأقام داود في أزوار الفُرات، ثُمَّ انضمَّ إلى نفر من قبيلة غزية، يتجوَّل معهم في بوادي العراق، ولكن الخليفة ظلَّ قلقاً حيال وُجُوده قريباً من العراق، فطلب من النَّاصر يُوسُف أن يسمح له بالعودة إلى دمشق، فعاد نحوها عام 653 هـ(1)، ومن دمشق توجُّه داود إلى الحجاز، واستشفع بقبر النبي (ص)، وأشهد الناسَ على الخليفة الذي لا يردُّ وديعته (2)، وقد أحدثت هذه الحَركة من داود ضجَّة دينيَّة حول الخليفة، الذي سارع بإرسال مَنْ يحاسب داود، فحسبوا عليه ثمن كُلِّ طعام تناوله عندهم، وثمن كُلِّ هدية أخذها بأغلى الأثمان، وأعطوه نزراً يسيراً (3)، وعاد النَّاصر داودُ نحو دمشق، وانتهت به الفاقة والإملاق أن يُقيم مع أولاده في تُربة والده بسفح جبل قاسيون (4).

وفي عام 655 هـ 1257م، عندما كان نجم الدِّين السادراثي رسول الخليفة المستعصم في دمشق استجار به داود ليصحبه إلى بغداد، فاصطحبه معه إلى قرقيسيا، وشاور عليه، ولكن النَّاصر يُوسُف توصَّل إلى منعه من ذلك، فلم يأذن الخليفة له، فقد كان في شغل شاغل عن داود وعن كُلِّ الشَّام ومُشكلاتها، فالتتار باتوا قريبين من بغداد، وهُولاكُو يُنذر الخليفة، ويتوعَّده طالباً منه أن يمشل أمامه. وعاد داود "على البرّيّة، وقصد تيه بني إسرائيل (5)، وأقام مع عرب تلك البلاد" (6). وفي تيه بني إسرائيل، الذي اعتقد داود أنَّه أصبح فيه بعيداً عن المُتربِّصين به، ظهر له عدوٌّ جديد؛ هُـو الملك المُغيث بن العادل النَّاني، الذي استولى على الكَرَك بعد وفاة الصَّالح أيُّوب. وكان المُغيث مُحقًّا بقلقه من النَّاصر داود، فهُو صاحب البلاد الشرعي، وقد سلَّمها أولاده غدراً، وكذلك حصل المُغيث عليها غدراً، فخشي المُغيث، واحتاط، وأخذ يُلاطف داود، ويخادعه، حتَّى تمكَّن من القبض عليه،

وأخذ يُعدُّ له مطمورة لا يخرج منها حياً (1)، وفي هذه الأثناء؛ كان التَّتَار قـد أحـدقوا ببغـداد، فأرسـل الخليفة المُستعصم رسوله "يطلب النَّاصر داود ليُقدِّمه على بعض العساكر لمُلتقى التَّرَ ال(2)، "فوصل الرسول إلى الكَرَك والحفرة تُعدُّ لداود، فأنقذه من ميتة شنيعة، وأخذه معه إلى دمـشق"<sup>(3)</sup>، ويبـدو أن الخليفة المُستعصم عندما ضاقت به الحال تذكّر داود، وتذكّر إلحاحه وإصراره، وتذكّر تحريره للقُدْس من الفرنج، بعد أن تسلَّموه من الكامل، ورُبَّها كان داود قـد عـرض ذلـك عـلى المُستعـصم في وقـت سابق، على الأحوال كُلِّها كان طلبه لداود القشَّة التي يتمسَّك بها الغريق.

مع أن الظُّرُوف لم تسمح لنا لمعرفة مدى ما كان يُمكن أن يقدِّمه داود في مهمَّت للقتال ضــدَّ التَّتَار، فقد سبق تصاعد الأحداثُ الجميع، وسقطت بغدادُ بيد التَّتَار، وداود مايزال يستعدُّ بدمشق، ولَّا سمع رسول الخليفة بهذا الخبر، ترك داود، وترك جميع العساكر وكُلُّ ما جاء من أجله، ومضى لحال سبيله (4)، وشاع بين الناس أن الخليفة هرب من بغداد، ولحق ببعض العَرَب، فقال داود: "الأبدَّ لي من اللحاق به "ا(5)، ولكن القدر كان يتربَّص بداود بطريقة أُخرى، فقد انتشر بين الناس طاعون مات منه النَّاصر داود عام 656 هـ 1258م، وهُو في قرية البويسضاء قُرب دمشق، فـأظهر النَّـاصر يُوسُفُ الحزنَ عليه، ودفنه في تُربة والده بسفح جبل قاسيون (6).

وفي النتيجة نجد بأنَّ الشَّام ومصر، وهما بلاد السَّلطنة الأيُّوبيَّة، كانتا تُعـدَّان جُـزءاً مـن دولـة الخلافة العبَّاسيَّة، التي كانت \_ نظرياً \_ ماتزال تشمل العالم الإسلامي، ولكن تبعية مصر والشَّام للخلافة كانت اسمية، فقد قام الحُكَّام الأيُّوبيُّون وغيرهم بمُهارسة الحُكْم في البلاد، وفصلوها فعليَّا عن دولة الخلافة، ومع ذلك؛ بقي للخلافة هيبتها المُستمدَّة \_غالباً \_ من سُلطتها الدِّينيَّة، ومن الحاجـة إليها لمنح الشرعية للمُتصارعين وللمُغتصبين. وعلى هذا الأساس؛ فقد قامت علاقات متأرجحة بين مُلُوك الأيُّوبيَّة من جهة وبين الخُلفاء العبَّاسيين من جهة أُخرى، ولكنَّها اتَّسمت - غالباً - بصيغ

<sup>1 -</sup> الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 215 ـ 216، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.

<sup>2 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3 / عَداد، والفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 217، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.

<sup>4 -</sup>شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

<sup>5-</sup>الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 123.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

آ - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 355، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

<sup>2 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 355.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356، والفوائد الحلية، الملك الأمجد حسن، 243، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 191. 4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 244، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 191، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.

<sup>5 -</sup> تيه بني إسرائيل: صحراء سيناء.

<sup>6-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3 / 193.

# الفصل الثَّاني

## العلاقات الدوليَّة للفرقة الإسماعيليَّة

المبحث الأوّل

الدعوة الإسماعيليةً(1)

مُنْذُ أن استتبّ الأمرُ للفاطمين بمصر أخذوا بنَشْر دُعاتهم في أرجاء الدولة العَربيّة الإسلاميّة، يُرَوِّجون للمذهب الشيعي الإسهاعيلي بشكل نشط ومُنظَّم، وانتشر الدُّعاة في بلاد المشرق الإسلامي خاصَّة، لكسب الأنصار، ولإضعاف نُفُوذ الخلافة العبّاسيّة. ومع امتلاك الفاطمين لقوى عسكريَّة كُبْرى، وامتلاكهم آلاف الدُّعاة وجَّهوهم في حرب دينيَّة تُواكب حُرُوبهم السّياسيّة والعسكريَّة ضدَّ العبّاسيين، فالنتيجة لم تكن في صالحهم، فقد استعاد المذهب السُّنيُّ فاعليّته، وأخذ الفاطميّون بالتراجع سياسياً ومذهبياً.

وللحقيقة؛ لم يكن النصر عبّاسياً، فمع الحَرْب المعنوية التي شنّها العبّاسيون ضدّ الخُلفاء الفاطميين باتّهامهم بادّعاء النسب العلوي، وبأنّهم لا يمتُون للعرب بأيّ صلة (2)، ومع كُلِّ الاحتياطات الأمنية التي اتّخذوها ضدَّ دُعاتهم، فقد كان النصر سلجوقياً؛ إذْ واكب المدّ الفاطمي، تدفُّق قبائل التُرك نحو أراضي الدولة العبّاسيَّة، وبها أنّهم أسلموا حديثاً، واتّبعوا مذهب السُّنّة، فكان لهم اندفاع المُؤمنين الجُدُد، وبموالاتهم وإخلاصهم للخلافة وسلفيَّتهم وتعصُّبهم لعقيدتهم، قاموا

دبلوماسية؛ حيثُ اقتنع الخُلفاء بإقرار حُكّام الشَّام ومصر بسيادتهم الاسمية، والدعاء لهم في الخطبة، ونَقْش أسهاتهم على السَّكَة، فالخُلفاء العبَّاسيون في هذه المرحلة لم يكونوا قادرين على تحقيق ما هُو افضل من ذلك. أمَّا الأيُّوبيُّون في الشَّام ومصر؛ فكانوا يرون في تبعيَّتهم الاسمية للخلافة مكسباً كاملاً بُدُّون أيِّ تبعات مادِّيَّة، فهم يحصلون على دعم معنوي كبير لسُلطتهم، ويستمدون شرعية لها من شرعية الخلافة. فكانت العلاقات بينهم تُترجَم بتبادل الرسائل، وإيفاد الرُّسُل، حاملين أوامر التفويض بالولايات لحكَّامها الجُدُد، وحلَل التشريف لتكريمهم. إضافة إلى أن رُسُل الخليفة كانت في كثير من الأحيان \_تحضر للتوسُّط بين المُلُوك والحُكَّام المتنازعين، ولحَلَّ خلافاتهم. لذلك لم تنقطع الرُّسُل بين الخلافة والحواضر الأيوبيَّة خلال هذا العصر. ومع كُلِّ ذلك لم يتجاوز الدعم العبَّاسي لمُلُوك بني أيُّوب الشكلَ المعنوي، حتَّى في أشدً الأزمات التي اعترضتهم، وقبل الأيوبيُّون ذلك؟! أم أنَّهم هُم ذلك، ولكنْ؛ لا ندري هل كان القبول على أساس أن الخلافة لا تملك أكثر من ذلك؟! أم أنَّهم هُم لا يُربع بدون من الخلافة أكثر من ذلك؟!

الذُلُفاء العبَّاسيون المُعاصرون للدُكْم الأيُّوبي

1 - المُستضيء بالله الحسن أبو مُحمَّد بن المُستنجد (33).

575\_566 هـ 1171\_1179.

2 النَّاصر لدين الله أحمد أبو العبَّاس بن المُستضيء (34).

622\_575 هـ 1225\_1179 م

3\_الظَّاهر بأمر الله مُحمَّد أبو نصر بن النَّاصر (35).

623\_622 هـ 623\_622م.

4\_المُستنصر بالله المنصُور أبو جعفر بن الظَّاهر (36).

640\_362 هـ 1246م.

5 - المُستعصم بالله عبد الله أبو أحمد بن المُستنصر (37).

656\_640 هـ 1258\_1258م.

<sup>1 -</sup> سُمَّيَتُ إسهاعبليَّة لأن أتباعها يعتقدون بإمامة إسهاعيل بن جعفر الصادق بن مُحمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحُسين بن علي بن أبي طالب. وسُمَّيتُ \_ أيضاً \_ باطنية لاعتقادهم ببقاء الإمامة في آل علي، وأن الأرض لا تخلو من إمام مُطلقاً؛ إمَّا ظاهر بذاته، أو مستور. وسُمُّوا ملاحده لعدم إقامتهم شرائع الإسلام كها تُطبِّقها الفرق الأخرى، وسُمُّوا وسُمُّوا ملاحده لعدم إقامتهم شرائع الإسلام كها تُطبِّقها الفرق الأخرى، وسُمُّوا الفنت المنتخدم في رحافهم. وعشبة الحشيش هي القنب الهندي أواسمها بالهندية (بيهانغ)، وبالعربيَّة (بنج)، وكان يُستخدم أحياناً كمُخدِّر طبِّيّ. راجعُ: سيرة منكبري، النسوي، 51، وصبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 245، وأخبار مصر، ابن ميسر، 2/ 88، والروضتيّن، أبو منكبري، النسوي، 51، ودولة النزارية أجداد آغا خان، طه أحمد شرف، 215، والشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، حافظ أحمد حدي، 86 \_ 88، وتاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، ترجمة: سُهيل زَكَّار، 245 \_ ومُناك مناقشة وافية تتبنَّى معنيّ جديداً للحشيشية في كتاب: الحشيشية، برنارد، لويس، ترجمة: سُهيل زَكَّار، 169 \_ 711.

# ورُبُّما كان من أهمِّ أسباب نجاح الدعوة الإسماعيليَّة في الشَّرْق:

\_ إلغاء السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان نظامَ البريد الذي كان سائداً في أرجاء الدولة حتَّى ذلك الوقت، عمَّا حَجَبَ أخبارَ النشاط الإسهاعيلي عن الوُّلاة والقادة السلاجقة(1).

\_نشاط مدارس الدعوة الإسماعيليَّة في مصر، وتوجيه دُعاتها \_بشكل خاصٌّ \_نحو البلاد

\_ تصدِّي العبَّاسيين والسلاجقة للدُّعاة، والمُبالغة في عُقُوبتهم، عمَّا حول المدعوة نحو السِّرِّيَّة المطلقة، وأصبح لها نظام تعاون وتكاتف فريد، ورُبَّما كان هذا أحد أسباب توجُّههم نحو الاغتيال.

\_ الصراع القائم بين الخلافة العبَّاسيَّة والسَّلطنة السلجوقية بعد وفاة السُّلطان ملكشاه، فلم يعودوا يهتمُّون للتصدِّي لهم.

\_ التنظيم الفعَّال الذي قام به الحسن الصبَّاح لأتباعه، فقد قسَّمهم إلى سبع درجات أساسية، وحدَّد لكُلِّ قسم منهم مهيَّات يقوم بها(2)، وهم بالتسلسل:

1\_داعي الدُّعاة. 2\_كبار الـدُّعاة. 3\_الـدُّعاة. 4\_الرّفاق. 5\_اللاَّصقون. 6\_الفدائيون.

بعد وفاة حسن الصبَّاح عام 518 هـ 1124م، خلفه داعٍ إسهاعيلي آخر من زملائه هُـو الكيـا بُزُرْكَ أُمِّيدُ (3)، وبعد وفاته عام 532 هـ 1138م، خلفه ابنه مُحمَّد بن بُزُرْك حتَّى وفاته عــام 557 هــ 1162م، فتولَّى بعده ابنه حسن بن مُحمَّد الذي أحدث تغيِّراً نوعياً في العقيدة الإسماعيليَّة؛ إذْ أعلن القيامة، وأعفى أتباعه من كُلِّ الشعائر الإسلاميَّة عام 559 هـ 1164(4)، ولمَّا مات حسن عـام 561 هـ 1166م، استمرَّ من بعده ابنه مُحمَّد النَّاني على تعاليم القيامة، إلى أن مات عام 607 هـ 1210م،

ساعدت على انبعاث يقظة سُنيَّة عامَّة، قادها الفُقهاء والمُتصوِّفة، الذين علُّوا أن الفاطميين سلَّموا البلاد للفرنج، وفاوضوهم على اقتسامها، أو على الأقلِّ؛ تقاعسوا في الدفاع عنها، وهُم حماتها(1). لكنْ؛ من ناحية أُخرى أدَّى دُخُول السلاجقة الأتراك إلى سُورية لقيام العديد من المشاكل

بالتصدِّي للفاطمين عسكريًّا وعقائدياً. كذلك جاءت صدمة الغزو الفرنجي لبلاد الشَّام، التي

على كانَّة الصُّعُد، إضافة إلى عجزهم عن التّصدِّي بشكل حاسم للفرنج، ومع وُجُود أساس عقائدي شيعي خاصَّة في شيال سُورية، كُلُّ ذلك مهَّد لنجاح فرع جديد للدعوة الفاطمية كان ينتقد الـدعوة القديمة، لذلك عُرف بالدعوة الجديدة، أو الفرع النزاري، الذي التفَّ حوله عدد لا يُستهان به من الأتباع في الشَّام، فقد انقسم الدُّعاة الفاطميُّون، مُنْذُ آبَّام الخليفة الفاطمي المُستنصر؛ حيثُ تشيَّع بعضهم لابنه المُستعلي، وظلَّت مصر مركزهم الرئيس، وانتشر منها هذا الفرع إلى اليمن، وحتَّى الهند؛ حيثُ عُرِفت هُناك منهم جماعة البهرة. وتشيّع بعض منهم للابن الآخر نـزار، واتّخ ذوا بـلاد المشرق ميداناً لهم، وأسَّسوا الدعوة الجديدة، ومنها امتدَّت الدعوة نحو شمال العراق، ومنها إلى سُورية (2). وقد أسَّس الدعوة الجديدة الداعي الحسن ابن الصبَّاح (3)، الذي جعل في عام 483 هـ 1090م مقرَّه في قلعة ألموت، الواقعة على إحدى قمَم جبل ألبرز في بلاد فارس. استغلَّ الحسن الصبَّاح الخلافات السِّياسيَّة ليدعم مذهبه الجديد في قلب الشَّرْق الإسلامي، ولأنَّه لم يستطع أن يتغلَّب على الأطراف الأُخرى، فقد غدا طرفاً جديداً من أطراف الصراع، كان له الدور الأكبر في إضعاف قُوَّة الشَّرْق الإسلامي، والتمهيد للسيطرة الخَوَارِزميَّة، ثُمَّ المغولية عليه.

<sup>1 -</sup> الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 66 - 67.

<sup>2 -</sup> حول عقائد الإساعيليَّة والفَرْق بين الدعوة القديمة والدعوة الجديدة راجع كتاب: الملَّل والتَّحَل، الشهرستاني. 3 -حسن الصبَّاح: حسن بن علي بن مُحمَّد الصبَّاح الحميري، الرازي المعروف بالكبَّال، "كان رجلاً شهماً عالماً بالهندسة، والحساب، والنَّجُوم، والسَّحْر، وغير ذلك". ولد في مدينة قُمْ، بعد أنْ قدم والده إليها من الكُوفة،ثُمَّ تحوَّل إلى الرِّيّ، وهُناك تتلمذ حسن على الدّاعية الإسماعيلي أحمد بن عبد الملك بن عطَّاش الطبيب، ثُمَّ طاف البلاد حتَّى وصل مصر، واجتمع بالخليفة الفاطمي المُستنصر بالله، ثُمَّ عاد إلى فارس، وأسَّس دعوته الخاصَّة. (جامع التواريخ - هُولاكُو، رِشِيد الدِّين، 258، وراجع ترجمة الحَسَن بن الصبُّاح في: المُقنَّى، المقريزي، أوردها د. سُهيل زَكَّار ضمن الـتراجم المُلحقة في كتاب الحشيشية لبرنارد لويس، 371 ).

<sup>1-</sup>سيرة منكبرت، النسوي، 7.

A History of Persia, Sykes, p. 55-2

<sup>3 -</sup> الكيا: كلمة فارسية تعني: ملك ( التيارات الأدبية، مُحمَّد ألتونجي، 165 )، وبُزُرك: فارسية تعني: كبير، وأميد تعنى: أمل ( المُعجم الذهبي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: بُزُرْك، ومادَّة: أميد ).

<sup>4 -</sup> جامع التواريخ \_ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: نُحمَّد صادق نشأت، 25، والحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: نحمَّد

فخلفه ابنه جلال الدِّين حسن (1)، الذي ألغى القيامة فور تولِّيه، وأعلن إعادة الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة، وفروضها، على المذهب الشافعي (2)، وكان ذلك أيَّام سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب في مصر والشَّام.

# حول التقلُّب الدِّيني للإسماعيليَّة:

كانت الفرقة الإساعيليَّة التي أسَّسها الحسن الصبَّاح، والتي عُرفَتْ بالدعوة الجديدة، تُعدُّ من فرق الشيعة المغالية، لكنَّها لم تخرج عن حظيرة الإسلام كُلِّيًّا، ولكن مرسوم الإمام حسن بن مُحمَّد بن الكيا بُزُرْك أميد، الذي أعلن فيه القيامة؛ أيْ انتهاء الشريعة، وسُقُوط الفرائض، والتحلُّل من المُحرَّمات (3)، وقيل إنَّ حسن اعتمد القيامة، بعد أن نهل من مُعظم العُلُوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسَب إلى أفلاطون، وعلَّم أتباعه ذلك، فلا يبالون في الموت (4). وبذلك أعلنت كُلُّ الفرَق الإسلاميَّة خُرُوج الإساعيليَّة من حظيرة الدِّين، وجعلت هذه الفرقة خارج نطاق الإسلام، وبعد أن كانوا يُسمّون بالباطنية أُطلق عليهم اسم الملاحدة (5)، والزنادقة (6).

واستمرَّ عمل الفرقة الإسهاعيليَّة الجديدة في فارس وسُورية بالقيام،ة وإيقاف الشريعة طيلة مُدَّة حُكْم مُحمَّد الثَّاني، الذي عبَّن ابنه جلال الدِّين حسن قائماً مقامه بالنَّصِّ<sup>(7)</sup>، ولكن حسن "مُنْذُ صغره كان يعترض على موضوع القيامة "(<sup>8)</sup>، وبعد أن شبَّ خالف عقيدة أبيه، وأظهر الميلَ للإسلام، "واستقذر قواعد الإلحاد، والإباحة "(<sup>9)</sup>، وطلب من كافَّة أتباعه -بمَنْ فيهم إساعيليَّة الشَّام، الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة، وإظهار شعائر الإسلام، وإقامة الحَدِّ على مَنْ ارتكب مُحرَّماً،

1 - ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 157.

وقد حلَّل حسن لنفسه ذلك وُفقاً لمبدأ التقية (8)، فالإسهاعيليَّة فرقة باطنية كما هُـو معروف. وتُعلَّل

فأجابوه. "وأرسل جلال الدِّين إلى الخليفة النَّاصر يبذل الطاعة، ويستدعي قُضاة ونُقهاء،

إِلَّا تظاهر (2)، يُوجد مَنْ يعتقد بصدق ما قام به جلال الدِّين، وكلا الطرفَيْن يُقَدِّرون أسباباً لتحوُّل

أنَّه يدين بالإسلام"، وأنَّه اعترض مُنْذُ صغره على موضوع القيامة، وكان جادًا بالسعي نحو تصالح

مُؤمنة"، وقد قصدت الحجاز للحجِّ عام 609 هـ 1212م(4)، وأثناء مُرُورها ببغداد نالت من

التكريم والاهتمام في العاصمة العبَّاسيَّة من الخاصَّة ومن الخليفة بالمذات الشيء الكثير (5). وكذلك

يُرام، وعداؤه لأبيه وتآمره المُبكِّر ضدَّه لم يكونا ليخفيا على أحد، إضافة إلى مُراسلته الخليفة العبَّاسي

ومع أن هُناك مَنْ يشكُّ بما فعله جلال الدِّين حسن، ويعدُّ إعلانه العودة إلى الإسلام ما هُـو

1 \_ كان جلال الدِّين "حسن الاعتقاد، . . وكان يكاتب الخليفة والسلاطين سرًّا، ويُظهر لهم

2 عودة جلال الدِّين لحظيرة السُّنَّة كانت بتأثير أُمِّه، التي كان يرتبط بها بشدَّة، "وهي سُنيَّة

3 \_رُبًّها كان دافع حسن "عن طريق العناد لأبيه" (7)، فعلاقتها الشخصية لم تكن على ما

4 \_ أَمْرُ إلغاء القيامة برُمَّته كان مُجرَّد تظاهر بالعودة إلى حظيرة الإسلام لضرورات مرحلية،

جلال الدِّين عن تعاليم القيامة، ومنها:

"أُكرمت بطريق مكَّة"(6).

للاتِّفاق معه أثناء حُكُم أبيه.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَيَيْنَ، أَبُو شَامَة، المُوسُوع الشَّامَلَة، د. شُهِيلُ رَكَّار، 20 / 157، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، المُوسوعة الشاملة، د. شُهِيلُ زَكَّار، 14 / 77، ويُضيف المُوفَّق: "حتَّى شعروا بالخوف لظهور خوارزم شاه بن تكش، فتظاهروا بالإسلام، وأقاموا شعائره". وخوف جلال الدِّين حسن من الخوارزمي يُبرِّر ما قبل بأنَّه " أوَّل مَنْ راسل جنكيز خان قبل أن يُخرج من بلاده إلى بلاد الإسلام". ( الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 150).

<sup>3 -</sup> الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 146.

<sup>4 -</sup> فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 336، والحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 147. 5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 211.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 211.

<sup>7 -</sup> فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2/ 335.

<sup>8 -</sup> ذَيْلُ الرَّوضَٰتَيْن، أبو شامة، 81.

<sup>1 -</sup> جلال الدِّين حسن: تُوفِّي عام 618 هـ ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العهاد، 5 / 84.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211،

<sup>2 -</sup> معرج . تحروب بين و المائير، 12/ 998، وفاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335، وهُناك وصف مُفصَّل لما تمَّ في الاحتفال الذي أقامه حسن بن مُحمَّد في قلعة ألموت الإعلان القياسة، في شهر رمضان عام 559 هـ (الحشيشية، برنارد لويس، 230).

<sup>4-</sup>روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 991.

<sup>5 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 245.

<sup>6 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 176.

<sup>7 -</sup> فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.

<sup>8 -</sup> الحَشَّاشون، برنارد لويس، ترجة: مُحمَّد العزب، 146.

<sup>9 -</sup> فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2/ 335.

عودته لحظيرة الإسلام بأنَّها نتيجة لخوفه من جلال الدِّين خوارزم شاه "فها وجده تُخلِّصاً إلَّا التظاهر بالإسلام وإقامة شعائره"، فقد كان الخليفة النَّاصر يراسل جلال الدِّين باستمرار لإعادة شعائر الإسلام، فيرفض ذلك(1).

ولكنْ؛ يبدو أن نيَّة جلال الدِّين بإعادة التصالح مع مُحيطه الإسلامي هي الاحتمال الأرجح في سبب إلغائه القيامة، لوُجُود دوافع كثيرة اضطرَّته إلى ذلك، منها:

1\_العُزلة التي كان يعيشها الإسماعيليَّة في حُصُونهم.

2\_انحسار الدعوة الإسهاعيليّة، وعدم انتشارها في مناطق جديدة.

3\_الضعف الذي بدأ يدبُّ في كيان الفرقة الجديدة.

4\_ تراجع فاعلية سلاحها القديم "الاغتيال".

ورُبَّها كان كُلُّ ما سبق من الأسباب مُجتمعة هي ما دفع جلال الدِّين حسن للإقدام على خطوته الانقلابية في العقيدة، والتي كان لها تأثيرات سياسيَّة وعسكريَّة كبيرة في علاقات الإسهاعيليَّة في فارس والشَّام، فقد ألزم جلال الدِّين حسن أتباعه، ليس في فارس وحدها، بل وفي الشَّام، بالعودة إلى شعائر الإسلام وُفق مذهب الشافعي السَّائد في ذلك الوقت (2). وعلى اعتبار أن من شعائر الإسلام طاعة الخليفة، فقد أرسل جلال الدِّين رُسُلَهُ إلى بغداد يُعلمون الخليفة العبَّاسي النَّاصر بالتحوُّل عن القيامة، وتُعلن له الطاعة (3)، فعُرف جلال الدِّين حسن مُنْ أَد ذلك الوقت بلقب: (نو مُسلهان)؛ أيُّ المُسلم الجديد (4).

هـ1221م (1) خلفه ابنه علاء الدِّين مُحمَّد بن حسن (2)، وكان مسايراً لنهج أبيه في العقيدة. تأثير العودة إلى الشريعة على إسماعيليَّة الشَّام وعلاقتهم بالأيُّوبية:

ونتيجة للوضع الجديد للإسماعيليَّة، بعد عودتها إمارة ضمن البوتقة الإسلاميَّة تتبع للخليفة،

وتعترف به، ولو اسمياً، فقد حرَّك جلال الدِّين قُوَّاته العسكريَّة حول مناطقه دعماً للخليفة حيناً،

ولمصالحة الخاصَّة أحياناً، وبعد أن كانت الإسماعيليَّة لا تستطيع إلَّا تحريك فدائييها للاغتيالات،

أصبحت تُحرُّك الجُينوش لتحقيق مصالحها. ولمَّا تُوفِي جلال الدِّين حسن بن مُحمَّد عام 618

عندما ألغى جلالُ الدِّين حسنُ القيامةَ عام 607 هـ 1210م (3)، أرسل إلى أتباعه في قلاع الشَّام يأمرهم باتِّباع شعائر الإسلام (4)، فالتزموا بذلك، وهُنا تتَّضح دقَّة الالتزام من قبَل الإسماعيليَّة الشَّاميَّة بأوامر المركز في قلعة ألموت بفارس، فالوُلاة يُعيَّنون من المركز، والسِّياسيَّة العليا يرسمها المركز، والمُساعدات المالية من المركز عندما تضيق الأحوال، إضافة إلى وُجُود الإمام هُناك، وهُو صاحب الأمر والنهي وُفق المذهب الإسماعيلي. وكُلُّ هذا أمر طبيعي، لكنَّ ما يتعارض معه بشكل مُحيِّر هُو علاقة إسماعيليَّة الشَّام بالفرنج، التي تستحقُّ وقفة طويلة معها، ومع ما تبعها من مُفاوضات قام بها إسماعيليَّة الشَّام مع ملك القُدُس الفرنجي لاعتناق المَسيحيَّة.

هذا الحَدَثُ، بإلغاء القيامة، وعودة الإسهاعيليَّة إلى حظيرة الإسلام، الذي عمَّ الآفاق لأهمِّيَّه وغرابته، وصل ـ بالتَّأكيد ـ إلى مسامع الفرنجة في الساحل السوري، فهُناك روايات فرنجية عن تنصُّر

<sup>1 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري ، 174.

<sup>2 -</sup> وقع ابن الأثير في الوَهُم عندما قال في أحداث سنة 610 هـ: " تُوفِّي جلال الدِّين الحَسَن، وهُو من أولاد الحَسَن بن الصبّاح"، فجلال الدِّين ليس من أولاد الحَسَن بن الصبّاح، بل من أولاد زميله الداعي بُزُرُك أميد.

<sup>3 -</sup> تم ذلك عام 607 هـ وُفقاً لما ذكره الجويني ( تاريخ فاتح العالم، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2 / 335 )، وعام 608 هـ هـ وُفقاً لما ذكره ابن الأثير ( الكامل 12 / 268 )، ولما ذكره ابن واصل ( مُفرِّج الكُرُوب 3/ 211 )، وعام 609 هـ وُفقاً لما ذكره أبو شامة ( ذَيْل الرَّوضَتَيْن 81 )، وعام 610 هـ وُفقاً لما ذكره ابن آيبك ( كَنز الدُّرر - 7 / 176 ). ولقد اعتمدتُ تاريخ 607 هـ لأنني لاحظتُ أن هُناك خطأ جَغرافياً يصل بالترتيب التصاعدي بين مركز الحَدَث وبين المُؤرِّخين المذكورين، فالعام الأوَّل ما ذكره الجويني في كتاب تاريخ فاتح العالم وهُو قُرب مركز الحَدَث في بلاد فارس، والثاني ابن الأثير وهُو في شيال العراق، ورَبَّها أخذ عنه ابن واصل، والثَّالث أبو شامة في دمشق، والرَّابع ابن آيبك في مصر، علماً أنَّنا نجد كُلَّ تواريخهم صحيحة بحال إذا اعتبرنا أن كُلاً منهم دوَّن الخبر سنة وُصُوله إلى بلده.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، آبن واصلْ، 3/ 211، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 898، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 31.

<sup>1 -</sup> تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 77، - وهُنا يُوجد وَهُمَّ وقع به المُوفَّق، فقد قال: " راسل الخليفةُ النَّاصر جلالَ الدِّين حسنَ صاحب الموت يُراوده أن يعتمد شعار الإسلام من صلاة وصيام وغير ذلك عمَّا رفضوه في زمان سنان، فيرفض". والصحيح أن الرفض لم يكن في زمن سنان، الذي كان في قلاع الشَّام، بل زمن مُحمَّد والدحسن، وهُو إمام الدعوة في الموت.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 62، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 201، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81، ولُبنان من السُّقُوط بيد الصليبين حتَّى التحرير، عُمر تدمُّري، 221.

<sup>3-</sup>اللُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 77، - وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 77، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 157.

<sup>4 -</sup> جامع التواريخ \_ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 259.

الإساعيليَّة لا تستقيم إلَّا إذا ربطناها بساعهم لهذا الخبر، ولكنَّها تبقى موجُودة بقُوَّة لنعيدُّد الرُّواة الإساعيليَّة اعتناق المَسيحيَّة في عام الفرنج المُعاصرين الذين ردَّدوها. يروي روجر ويندوفر مُحاولة الإساعيليَّة اعتناق المَسيحيَّة في عام 567 هـ 1172م، فيقول: "حصل رئيسهم في هذه الأيَّام على كتاب الأناجيل وكتابات الرُّسُل؛ حيثُ درس المُعجزات المَسيحيَّة، وأفكارها، وهذا ما جعله يتخلَّى عن شرعة مُحمَّد، ويتحوَّل إلى الشرعة الفضيلة للمسيح، وَهَدَمَ المساجدَ، وصلَّى وُفق عادات المسيحين، وأرسل واحداً من رجاله إلى بلدوين (1) للحُصُول على تكريس المعمودية، لكنَّ فُرسان الدَّاويَة قتلوه، عمَّا ألحق ضرراً بالكَنيسَة اللهُ.

ويروي هذه القصّة وليم رئيس أساقفة صُور، مُحاولاً التأكيد على أن طلب التحوُّل قد تمَّ بناء على القناعة التامَّة لشيخ الجبل بتعاليم المسيحيَّة، يقول: "حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكياً لهم كان رجلاً فصيحاً جدَّا، وحاد الذكاء، ولامعاً، وكان بحوزة هذا الرجل كُتُبُ الأناجيل والشريعة الرسولية، وقد انكبَّ باستمرار على دراسة هذه الكُتُب، وحاول للدَّة من الزمن، وبجهد كبير للوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية "(3). ويُتابع وليم بأنَّ شيخ الجبل قد علَّم شعبه قناعته الجديدة، وأرسل رسولاً يُدعى عبد الله إلى الملك عموري (4) الأوَّل ملك القُدْس يعرض عليه تلقي الإساعيليَّة التعميد مُقابل إعفائهم من الجزية التي يفرضها عليهم فُرسان الدَّاويَة. ثُمَّ يتحدَّث وليم عن حفاوة الملك الفرنجي بالرسول، والاتَّفاق التام بينهما، ولكن؛ أثناء عودة الرسول إلى بلاده لإتمام الصفقة هاجه فُرسان الدَّاويَة، وقتلوه، فأثار النبأ حفيظة الملك، واعتبر قتل الرسول إلى بلاده لإتمام له، ونشب خلاف حاد بينه وبين الدَّاويَة، لكنَّ وفاة الملك عموري أنهت القضية، مثلها أنهى اغتيال الرسول قضيَّة تحوُّل الإسهاعيليَّة إلى المسيحيَّة (5).

إليهم عن اعتناق الإسماعيليَّة للمذهب السُّنِّيِّ، وولائهم للخلافة العبَّاسيَّة.

ويقول وولتر ماب: "طلب حاكم الحشيشية شيخ الجبل من بطريرك القُدْس تزويده بكُتُب

الأناجيل، فأرسلها له مع مُترجم، فاستقبلهم بكُلِّ تشوُّق ورغبة، ثُمَّ أرسل يطلب كَهَنَةَ لتسلُّم

التعميد الكامل مع قرابين الإبهان، فاعتقل الدَّاويَة رسوله، وقتلوه، خشية أنَّ تحوُّل الكُفَّار قد تقود إلى

وحدة السلام، ولمَّا اكتشف شيخُ الجبل الخيانة بقي مُلازماً لإيهانه القديم" (1). كذلك يُردّد حكاية

طلب اعتناق الإسماعيليَّة للدِّين المسيحي الراهبُ بورتشارد في روايته لأحداث سُورية (2). وقـد فُسِّر

قتل رسول الإسهاعيليَّة من قبل الدَّاويَة بأنَّه حرص منهم على الإتاوة التي يحصلون عليها من

الذي يدفع شيخَ الجبل لاعتناق المسيحيَّة، مع غياب أيِّ مكسب ظاهر له، أو لأتباعه من هذا التحوُّل،

إضافة إلى ما نعرفه من التمسُّك الشديد للإسهاعيليَّة بمعتقداتهم التي كانوا يُضحُّون بأنفسهم بسُهُولة

في سبيلها؟! ذاك يدفعنا للشِّكِّ بهذه الرواية. ثُمَّ إن هذه الحادثة تبدو غير منطقية، خاصَّة في الـزمن

الذي يُقال إنَّها تمَّت فيه، فلا سابقة، ولا لاحقة، لها من قبَل أيِّ طائفة دينيَّة، إلَّا إذا اعتبرناها - وفقاً

لمبدأ التقية \_ مُناورة سياسيَّة من قبَل الإسهاعيليَّة، فقد سيطر \_ وقتها \_ نُور الدِّين على الـشَّام، وقامت

حملة مُنظَّمة من الدولة، يرافقها تأييد شعبي كبير، بالضغط على أتباع الإسماعيليَّة في الـشَّام، وكانـت

قواعدهم منتشرة فيها، فطُردوا من المُدُن، والتجؤوا إلى الجبال السَّاحليَّة، محصورين بين مطرقة نُـور

الدِّين وسندان الفرنجة، فرُبَّها كان التنصُّر حلاً فكَّر به زعيم الإسهاعيليَّة للخُرُوج من وضع صعب،

ولكنَّه شيء لم يتمّ على كُلِّ حال. ورُبَّها وُضعت هذه الرواية ونُشرت كَرَدٍّ فرنجي على صدى ما وصل

ومع أن أكثر من مصدر فرنجي يُؤكِّد هذه الرواية فإنَّنا لا نستطيع أن نقبلها كمُسلمة، فيا

الإسهاعيليَّة، والتي ستضيع عليهم إذا تنصَّروا، فقاموا بهذا العمل(3).

<sup>1 -</sup> ما جاء عند وولتر ماب ـ Diomede, P.10، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 36/ 389.

<sup>2-</sup>بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

<sup>3 -</sup> فيليب حتِّي، تاريخ سُورية ولُبنان، ترجمة: جُورج حدَّاد، 2 / 646.

<sup>1 -</sup> يذكر وليم الصُّوري بأنَّ ملك القُدْس الذي اتَّصل به الإسماعيليَّة من أجل التنصُّر هُو: عموري الأوَّل ( سن تاريخ أعمال أُنجزت فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 7 / 367 ).

<sup>2 -</sup> وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170، و William of Tyre, vol. II, pp. 392 4 - & Burchard, A Description of the Holy Land p, 105 3 - من تاريخ أعيال أُنجزت فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 367. 4 - يذكر روجر ويندوفر بأنَّ ملك القُدْس الذي اتَّصل به الإسهاعيليَّة من أجل التنصُّر هُـو: بلـدوين ( وُرُود السَّاريخ،

روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 44/ 170 ). 5 -من تاريخ أعمال أُنجزت فيها وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7/ 369 ).

# المبحث الثَّاني

# الفرقة الإسماعيليَّة في الشَّام

كان أشهر مُقدَّمي الإسماعيليَّة في الشَّام راشد الدِّين سنان (1)، الذي اتَّخذ من قلعة مصياف مقرَّاً له، وهُو أوَّل مَنْ أُطلق عليه لقبُ شيخ الجبل، الذي عُرف به كُلُّ الأثمة بعده. ويصف ابن العبري سنان بقوله: "كان سنان مهيباً لدى المُلُوك العَرَب والفرنجة، فقد صنع سكاكين صكّ، على كُلِّ واحدة منها اسم أحد المُلُوك، وعلى مَنْ تُهدى إليه أن يُنجز ما يطلبه منه سنان، ولو كلَّفه حياته، وقد نهل هذا الزعيم الإسماعيلي من جميع العُلُوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسَب إلى أفلاطون، وعلَّم أتباعه هذا المبدأ، ولهذا؛ كانوا لا يُبالون بالموت، واختفى سنان عدَّة مرَّات، ثُمَّ عاد، وكان يُشاع أنّه مات، واعتقد أتباعه أنّه حيّ سيعود "(2).

إن أهيّية نصّ ابن العبري لا تنبع من دقّة المعلومات التي يوردها النصّ، بل من كونه استطاع أن يعكس صُورة سنان كما تخيّلها الناس في ذلك الزّمان، فممّا لا شكّ فيه أن سنان كان من الأشخاص الأكثر هيبة في زمانه، ولكنّنا لا نعتقد أنّه كان يُسخّر اللّلوك لفعل ما يشاء، ونُرجِّح اطّلاعه على العُلُوم، ومن المؤكّد اعتناقه لمبدأ تناسخ الأرواح، وهُنا تكمن أهميّة هذا النصّ، فهُو يُعلّل اندفاع الإسماعيليّة للموت بسبب إيهانهم بالتناسخ، وليس كها أشبع بأنّ أعهاهم كانت تتم تحت تأثير الحشيث المُخدِّد.

ويبدو أن خلافة إمام إسماعيليَّة الشَّام لم تكن بأيدي الأتباع فيها، فقد كانت تتمُّ بتكليف من المركز في قلعة ألموت، فبعد وفاة سنان في مصياف تولَّى ابنه النَّاصر الفارسي<sup>(3)</sup>. وفي عام 624 هـ 1227م، كان يتولَّى إمامة الإسماعيليَّة في مصياف شخص اسمه مجد الدِّين، فأرسل إلى علاء الدِّين

لجبال اللاذقية، جنوب غرب هماة 45كم (5).

جبال اللاذقية، تتبع منطقة بانياس، مُحافظة طرطوس<sup>(7)</sup>.

كَيْقُبَاذ، سُلطان سلاجقة الرُّوم في الأناضول، يطلب منه المبلغ المُقرَّر عليه، وهُو ألف دينار، فأبي ذلك؛

لأنَّها كانت تُدفَع إلى صاحب ألموت، وأرسل يسأله في ذلك، "فقال له: تحملها إليهم بالشام، فقد

عيَّنَّاها لهم ذخيرة، فحملوها" (1)، وهذا يدلُّ على دعم ألموت لقلاع الشَّام مادِّيًّا وقت الحاجة، وأن مُلُوك

المُسلمين بمُعظمهم كانوا يُدارون الإسباعيليَّة بشكل من الأشكال، مشل: التحالف معهم، أو تقديم

المُساعدة، أو الهدايا، أو مال مُحدَّد يُدفَع سنوياً. إنَّ دفع هذه الجزية يدلُّ على مدى خوف الحُكَّام والمُلُوك

من خناجر الإسماعيليَّة، وعلى أن الأخبار حول اغتيالاتهم قد حوَّلتهم إلى ما يُسبه الأسطُورة، وإلى أن

يذكر أن القلاع الإسهاعيليَّة في جبال الشَّام السَّاحليَّة كانت في عام 654 هـ 1256م ثمانية

1. مصياف: أو مصيات، وهي حصن حصين مشهور للإسماعيليَّة بالساحل الشَّامي قُرب

طرابلس، وكانت قلعتها مُحصَّنة تحصيناً قوياً يُثير العجب (3)، وقعت تحت سيطرة المغول عام 655 هـ

1260م، ثُمَّ عادت إلى سيطرة الإسهاعيليَّة، حتَّى احتلَّها الظَّاهر بيبرس، مُنهياً الوُجُود الإسهاعيلي

فيها عام 660 هـ 1270م (4). وهي ـ اليوم ـ مركز منطقة تتبع مُحافظة حماة، تقع على السُّفُوح الـشَّرْقيَّة

كقاعدة ضدَّ جيرانهم المُسلمين والفرنج على السواء (6)، وهي \_ الآن \_ بلدة ومركز ناحية في مرتفعات

2. القدموس: قلعة حصينة، استولى عليها الإسهاعيليَّة عام 506 هـ 1113م، واستخدموها

مُلُوك السلاجقة الرُّوم لم يكونوا قادرين على ضبط أمنهم بين حاشيتهم ومُرافقيهم والمُتَّصلين بهم.

قلاع الشَّام الإسماعيليَّة في العصر الأيُّوبي:

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 145 ــ 146.

<sup>2 -</sup> ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 3.

<sup>47 -</sup> الجَعْر افيون والرحَّالة، تُحُمَّد عوض، 35.

<sup>.</sup> 4 - حول قُلعة مصياف راجعُ: ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي والاعتبار، أُسامة بسن مُنقد والمُعجسم الجَغرافي للقطر السوري: مادَّة: مصياف.

<sup>5-</sup>المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العهاد مُصطفى طلاس، مادّة: مصياف.

<sup>6 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 174.

<sup>7 -</sup> المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَب السوري، بإشراف العهاد مُصطفى طلاس، مادَّة: قدموس.

<sup>2 -</sup> روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زّكَّار، 5 / 441.

<sup>3-</sup>تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوحة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 14/ 79، وروايات ابن العبري، ابسن العسبري، الموسوحة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 5/ 991، ويبدو أن سنان كان فارسياً كها يظهر من اسم ابنه: النَّاصر الفارسي.

3. العليقة: قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، منطقة بانياس، جنوب شرق جبلة، جاءت تسميتها من موقعها المُعلَّق على مرتفع جبلي، تُطلُّ العليقة على البحر من بُعـد 15 كـم، وهـي تتحكّم بالمرّ الجبلي، الذي يصل حاة ببانياس عبر القدموس. بناها العَرَب نحو 431 هـ 1040 م، احتلُّها راشد الدِّين سنان، وضمُّها إلى قلاع الإسماعيليَّة (1).

4. الخوابي: قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، تبعد 25 كم شمال شرق طرطوس، سُمِّيت الخوابي لو جُود خوابي فخارية كثيرة فيها، شيَّدها شيخ الجبل راشد الدِّين سنان مطلع القرن 12 م (2).

المنبيقة: وهي قلعة تقوم بالقُرب من القدموس<sup>(3)</sup>.

6. الكهف: قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، منطقة الشَّيخ بدر، مُحافظة طرطوس، كانت تكتسب أهمِّيَّتها من إشرافها على أراضي كونتية طرابلس الفرنجيَّة، سُمِّيَتْ بالكهف لأن مدخلها محفور بالصخر (4).

# الإسماعيليَّة والاغتيالات في الشَّام:

شهدت سياسة الإسهاعيليَّة في الشَّام - باعتهادها على الاغتيال كوسيلة لحسم المواقف السِّياسيَّة -تبدُّلات كبيرة، ففي بدايات انتشار الإسماعيليَّة في الشَّام، لجؤوا إلى اغتيال كُلِّ مَنْ أمكنهم من القادة، الذين يُمكن أن يقفوا بوجههم، فكان أوَّل ضحاياهم تاج الدولة حسين صاحب همص، الذي كان أتابك الملك السلجوقي رضوان وزوج أمِّه، فقد قتلوه في حمص عام 496 هـــ 1103م، ويُقــال إن ذلــك تمَّ بتحريض من الملك رضوان لتساهله مع الإسماعيليَّة، وتمركزهم في حلب في ذلك الوقت(5).

المقصود إنَّما كان قتل الملك الجواد، فإنَّه كان كثير الشبه به" (7).

ثُمَّ اغتالوا مودود، وهُو من أوائل قادة الجهاد ضدَّ الفرنج، بجامع دمشق(1). وبعد فشل

فقد أورد المكين جرجس في كتابه أخبار الأيُّوبيِّين ما يلي: "استشار الجواد (2) المُجاهد (3) في أمر

نُحاولتهم اغتيال صلاح الدِّين، ونُحاصرته لهم، والاتِّفاق الذي تمَّ بينها، تبدَّلت سياستهم كُلِّيًّا، فقد

توجُّهت خناجرهم الفتَّاكة \_بعدها \_نحو قادة الفرنج، ولكنْ؛ انتقلت اغتيالاتهم من حيِّز الواقع

لتدخل عالم الأُسطُورة، وحكايات السمر المُسلِّية في الليالي، حتَّى إن كلَّ حادثة قَتْل لا يُعرَف مُرتكبها

عاد الدِّين ابن الشَّيخ(4)، فأشار عليه بقتله، فوافقهم الأمير سيف الـدِّين على بن قلج على ذلك،

فسيَّروا إلى نُوَّاب الإسماعيليَّة، وقرروا معهم قتله، وأعطاهم الملكُ الجوادُ قريمة الرصيف من

الشعرا(5)، وحمل إليهم مالاً تقرَّر الأمر عليه، فرتَّبوا نفرَيْن من الفداوية، فقتلوه على باب جامع

دمشق، وأشاعوا أنَّهم قتلوه غلطاً، وما كان مقصودهم إلَّا الملك الجواد، فإنَّه يُشبهه "(6). وكرَّر

الرواية المقريزي المُتوفَّى عام 845 هـ فقال: " ورأوا أن أمرهم لا يتمُّ إلَّا بقتل عهاد الـدِّين، فبعشوا إلى

نُوَّابِ الإسهاعيليَّة في قتله، ودفعوا إليهم مالاً وقُربة \_ والصحيح قرية، فبعثوا فداويَيْن قدما إلى

دمشق، فلمَّا خرج عهاد الدِّين إلى الجامع، وثبا عليه، وقتلاه، وأشاعا أنهم قد غلطا في قتله، وأن

أصبحت تُلصَق بالإسماعيليَّة، ومع الأسف؛ فقد انتقلت هذه العدوى إلى المُؤرِّخين.

<sup>1 -</sup> الباهر، ابن الأثير، 18.

<sup>2 -</sup> هُو: الملك الجواد إسهاعيل صاحب دمشق.

<sup>3 -</sup> هُو: الملك المُجاهد شيركوه صاحب حمص.

<sup>4 -</sup> هُو: وزير العادل الثَّاني سُلطان مصر .

<sup>5 -</sup>الشعرا: لم يذكرها ياقوت في مُعجمه، وفي المُعجم الجُغرافي ثلاث إشارات إلى هذا الموقع، الأولى: جبـل الـشعرة، في السلسلة التدمرية الشمالية، ولا أعتقد أنَّه المقصود لبُعْده عن مواقع الإسماعيليَّة، ولعدم وُجُود قُرى ومزارع فيه. الثَّانية: قرية الشعرة، في السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، قريبة من القدموس، أحد أهمٌّ مواقع الإسماعيليَّة في السَّام، واحتمال ضعيف أن تكون هي القرية المقصودة لكونها في بلاد الإسهاعيليَّة، والاسم للقرية، وليس لما يجاورها. والنَّالَثة: شعرة العجايز، وهي قرية قريبة من بلدة معرَّة النعمان، وتقع على جانب مسيل الشعرة، والاحتمال الأرجح أن تكون هي المقصودة، لوُقُوعها على رصيف مسيل الشعرة. ( المُعجم الجُغرافي للقطر العَرَبي السوري، 4 / 28 ــ 29 ). 6 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 24.

<sup>7 -</sup> دُرَر العُقُود الفريدة، المقريزي، 2 / 315.

<sup>1 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 174، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَربي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس،

<sup>2 -</sup> المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العهاد مُصطفى طلاس، مادَّة: الخوابي. 3 - تُحفة النَّظَّار، ابن بطُّوطة، 76، ونخبة الدهر، شيخ الربوة، 208، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العهاد مُصطفى طلاس، مادَّة: المنيقة.

<sup>4-</sup>الإدريسي، نُزهة المُشتاق، 19، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرِّي السوري، بإشراف العهاد مُصطفى طلاس، مادَّة: الكهف.

<sup>5 -</sup> تاريخ حلب، العظيمي، 361، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 230.

#### المبحث الثَّالث

التحالف بين السلطنة الأيوبيّة والفرقة الإسماعيليّة

يبدو أن بدايات ضعف شُهرة وقُوَّة الإسهاعيليِّن كمُغتالين رهيبين قد بدأت مُنْذُ أيّام صلاح الدِّين، فبعد المَدِّ الإسهاعيلي الكبير في الشَّام، وتحكُّمهم في أكبر مُدُنها مثل: حلب، ودمشق، وسيطرتهم على عدد من أمنع قلاعها، أخذت دعوتهم بالضعف، خاصَّة بعد طردهم من المُدُن بثورات شعبية، ومذابح، أودت بالكثير منهم في حلب ودمشق وعدَّة بُلدان شامية، فلم تتكوَّن الدولة الأيُّوبيَّة وتستقرِّ إلَّا والإسهاعيليَّة مُنكمشون في قلاعهم الحصينة، مُستفيدون من كونهم في جبال وعرة، تقع على حُدُود السيطرة الفرنجيَّة.

لذلك كان لهم أثر ضعيف على سياسة الدُّول الأيُّوبيَّة، التي اختاروا محالفتها مُنْذُ البداية، ومن ناحية أُخرى؛ نجد أن الأيُّوبيِّيْن يدعمونهم سياسياً، ويُدافعون عنهم عسكريًا، ورُبَّا كانوا يعدُّونهم سدًا بوجه الفرنج، أو قُوَّة، وإن فقدت الكثير من فاعليَّتها فلا يزال اسمها كبيراً، يستفيدون منها في صراعاتهم الدَّاخليَّة، أو الخارجيَّة. وهذا لا يعني أنَّهم كانوا على هامش السياسة الأيُّوبيَّة تماماً، فالأحداث الدَّاخليَّة للفرقة الإسماعيليَّة قد أثَّرت وتأثَّرت بشكل واضح بعلاقتهم بالقوى المُحيطة بهم، ومنها الأيُّوبيُّون.

اقتصرت العلاقات الأيُّوبيَّة الإسهاعيليَّة على علاقة الأيُّوبيَّن بإسهاعيليَّة الشَّام فقط، ولم يكن لهم أيُّ صلة بإسهاعيليَّة فارس. وكان زعيم الإسهاعيليَّة في الشَّام \_ أو كها يُسمُّونه صاحب المدعوة، عندما أسَّس صلاح الدِّين الدولة الأيُّوبيَّة \_ هُو راشد الدِّين "سنان بن سلهان" (1)، وكان أصله من حصن الإسهاعيليَّة الرئيسي في ألموت (2) بفارس، فرأى منه صاحب الأمر هُناك نجابة وشهامة وعقلاً وتدبيراً، فسيَّره إلى حُصُون الشَّام، فوصلها، وجَدَّ في إقامة الدعوة واستجلاب القُلُوب أيَّام السُّلطان

ومع أثنا نعرف أن قتل ابن الشّيخ لم يكن بحاجة إلى فدائيّي الإسباعيليّة، فهُو رغم صفته الرّسميّة كنائب للسُلطان العادل النَّاني فلا يملك قُوّة فعليّة البيّة، بينما المُجاهد أوَّلاً، والجواد ثانياً، هما أصحاب القُوّة بدمشق، وتدبير حادثة قتله سهل جدًّا بالنّسبة إليهما، ولا يحتاج لفدائيّيْن، ولا إلى دفع نفقات مالية كبيرة، وقرية ذات خراج. ويُخبرنا ابن تغري بردي الرواية الأقرب للحقيقة، وهي أن المُجاهد "استدعى بعض نصارى قارا(1)، وأمره بقتله"، ونفّد الأمر على أنّه حادث، فقد سُجن القاتل لعدَّة أيّام، ثمَّ أُطلق سراحه (2)، ورواية ابن العبري والمقريزي تدلنًا على أن العديد من حوادث الاغتيال قد أُلصقت بالإسماعيليّة، وهي إنْ صحّت فهي دليل على أن الاغتيالات السّياسيّة الهادفة للمصلحة الإسماعيليّة العُليا قد تحوَّلت إلى قتل مأجور لتحقيق ربح، أو مصلحة. ومع كُلِّ ذلك فيبدو أن تهمة الاغتيال، وخاصّة اغتيال المُلُوك، كانت تروق لُق لَدمي إسماعيليّة الشّام؛ إذْ يروي الراهب البريطاني إيف لي بريتون، رسول الملك لويس إلى الإسماعيليّة: "أن شيخ الجبل كُلًا ركب، وسأر، مشى أمامه مُناد يحمل بلطة، لما حَدٌّ طويل مُعلَّف بالفضّة، وقد ثبّت عليها عدداً من الحناجر، وهُو ينادي طوال سيره: ابتعدوا عن طريق الذي يحمل في يدَيْه موت المُلُوك" (3).

<sup>1 -</sup> قارا: "قرية كبيرة، وسُكَّانها جميعاً من النصارى". ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قارا )، كانت في العصر الأَيُّوبي تتبع مملكة حمص. ( مملكة حمص الأَيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 296 )، وحول قارا راجع: صُبح الأعشى، القلقشندي، 14 / 381، ورحلة ابن جُبَيْر، 233،و المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: قارا.

<sup>2 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 314، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640 / 20، والتاريخ الـصالحي، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 21/ 609.

<sup>.</sup> 3 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 36 / 171.

<sup>1 -</sup> راشد الدِّين سنان: ابن سلمان بن مُحمَّد البصري، كان يُعلِّم الصبيان في البصرة، كان أعرجاً، وَلِيَ قلاع الدعوة في الشَّام، وأقام في قلعة الكهف، ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العهاد، \_تاريخ البغدادي ورحلته، \_ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، \_بغية الطلب، ابن العديم. وقد أورد المستشرق برنارد لويس تفاصيل مُهمَّة عن حياة راشد الدِّين في كتابه: الحشيشية، ترجمة: د. شهيل زَكَّار، 296.

<sup>2 -</sup> حول ألموت راجع: الكَّامل في التاريخ، ابن الأثير، 8 / 140.

نُور الدِّين، واستولى على عدَّة قلاع في الشَّام، وعزم نُور الدِّين على قصده، لكنَّه تُوفِّي قبل ذلك، وأقام سنان حتَّى تُوفِّ عام588 هـ" 1192م<sup>(1)</sup>.

بدأت العلاقات بين إسماعيليَّة الشَّام وبين الأيُّوبيِّين في وقت مُبكِّر من عهد السُّلطان صلاح الدِّين، من خلال مُحاولتَيْن لاغتياله: الأُولى عندما كان صلاح الدِّين في عام 570 هـ 1175م، يُحـاصر حلب؛ حيثُ اتَّصل الحلبيون بسنان إمام الإسماعيليَّة، ووعدوه بضياع ومال، فأرسل الفداوية لقتل صلاح الدِّين (2). والمُحاولة الثَّانية أثناء مُحاصرته لإعزاز عام 571 هـ 1176م (3)، لكنَّه نجا منهم في

لذلك جعلهم صلاح الدِّين همَّه الأوَّل، وتوجُّه نحو أكبر قلاعهم ومقرّ قيادتهم في مصياف، وألقى الحصار عليها عام 572 هـ 1177م، وكُلُّه عزم على استئصال شأفتهم من الشَّام (4)، فشعر الإساعيليَّة أنَّهم أمام خطر حقيقي لم يُمكن مُواجهته بالاغتيال، ولن يُمكن لقلاعهم الصُّمُود أمام قُوَّاته، ممَّا اضطُرَّهم \_على ما يبدو \_ لأن يعقدوا اتِّفاقاً سرِّيّاً، لم يُعلَن أبداً، ورُبِّما كان عدم إعلانه رغبة أيُّوبية الأسباب دينيَّة مذهبية، فهم - نظرياً - مُحاة السُّنَّة، وهكذا اتِّفاق يُوقعهم بتناقض ومشاكل يُمكن تجاوزها بكتهانه، لذلك نجد أن كُلُّ ما ذكره المؤرِّخون حول سبب عودة صلاح عن قتالهم، وفكَّ حصاره لمصياف: أن شهاب الدِّين الحارمي خال السُّلطان صلاح الدِّين (5)، وكان والي حماة ـ التي تُعدُّ مصياف من أراضيها \_ قد توسَّط \_ بناءً على طلب راشد اللِّين سنان زعيم إسماعيليَّة الشَّام \_ مع صلاح الدِّين، ففكَّ حصاره عنهم، وصالحهم عام 572 هـ  $1177م^{(6)}$ ، وسار عنهم.

ولكنْ؛ يبدو أن الموضوع لم يكن وساطة عادية لفكِّ الحصار فقط، بل كان اتِّفاقاً عامًّا وشاملاً، سيلتزم به الطرفان ومَنْ يخلفهم زمناً طويلاً، ومع أن مُجريات هذا الاتِّفاق لم تُعلَن، لكنَّها تتَّضح من الوقائع اللاحقة، ومنها:

1 ـ في مُعاهدة صُلح الرملة مع الفرنج اشترط صلاح الدِّين دُخُول بلاد الإسماعيليَّة فيه (1)، وهذا دليل على اتِّفاقه الكامل معهم، وكأن مناطقهم جُزء من بلاده.

2 ـ لم نعد نسمع عن اغتيال، أو حتَّى تُحاولة اغتيال أيِّ أمير أو قائد أيُّوبي من قبَل الإسماعيليَّة، مُنْذُ عام 572 هـ 1177م، وحتَّى نهاية الدولة الأيُّوبيَّة. وبالمُقابل؛ لم نُّجَّرَّدْ أيُّ حملة أيُّوبية ضـدَّ معاقـل الإسهاعيليَّة، بل على العكس، دعمت المالكُ الآيُّوبيَّة هذه المواقعَ كُلَّما تعرَّضت إلى هُجُوم الفرنجة.

3 ـ توجُّهت خناجر الإسماعيليَّة نحو الفرنج، واغتالوا عدداً من مُلُوكهم وأُمرائهم.

وبعد الاتِّفاق بين صلاح الدِّين والإسماعيليَّة أخذت تسوء علاقتهم مع أتابكة حلب، فقد تنكَّر لهم الصَّالح إسهاعيل بعد تودُّد، واستولى على قرية حجيرا التابعة لهم، ولَّما طالبه سنان بردِّها رفض إسماعيل، فأرسل سنان رجاله، وأحرقوا أسواق حلب(2).

وسريعاً ما عبَّر الإسماعيليَّة عن وفائهم للتحالف مع الأُسرة الأيُّوبيَّة، فبعد وفاة صلاح الـدِّين أعلن بكتمر صاحب خِلاط ابتهاجه، وظهر بشعار السَّلطنة، وتلقَّب بالملك النَّاصر "لقب صلاح الدِّين"، وأقام تحالفاً مُعادياً للأيُّوبية مع صاحب آمد، ومع أتابكة المَوصل وسنجار، ولَّما تحركت جُيُوش التحالف تدخَّلت الخناجر الإسماعيليَّة لتُنهي حياة بكتمر، وتُنهي معـه أخطر تحـالف واجـه الأُسرة الأيُّوبيَّة في الجزيرة بعد موت صلاح الدِّين (3).

وقد ظهرت جلياً على ساحة الشَّام، ومن خلال الأحداث، آثار الأنِّفاق الضمني بين المالك الأُيُّوبيَّة وبين الإسهاعيليَّة في الشَّام، فالعلاقات بينهم كانت أكثر من طبيعية، وممَّا يُسْير إلى التحالف بينها هُو سماح مملكة حلب للإسماعيليَّة بإقامة دار للدعوة في بعض البُلدان التابعة لها؛ مثل

<sup>1 -</sup> النُّبُحُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 117.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 419.

<sup>3 -</sup> سنا البرق، البنْدَاري، تحقيق ششن، 210.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 57، وزُبْدة الحلب، ابن العديم، 2/ 521 \_ 530.

<sup>5-</sup>شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارمي، ( زُيِّدَة الْحَلِّب، ابن العديم، 2 / 523 ). 6 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق ششن، 219، والمُختصِر، أبو الفداء، ﴿ / 59، وزُبُدَة الحَلَب، ابـن العـديم، 2 / 528،

وصلاح الدِّين والحشَّاشون، برنارد لويس، مقالة في عجلَّة الدِّراسات الشَّرْقيَّة والأفريقية.

Lewis. B, Saladin and Assassins

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 403.

<sup>2 -</sup> زُيْدَة الْحَلّب، ابن العديم، 1 / 138، والحشيشية، برنارد لويس، 134.

<sup>3-</sup>الفَتْح القِسِّي، العاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 13 / 436.

#### المبحث الرَّابع

العلاقات الإسماعيليَّة الخُوَارزميَّة وانعكاسها على الممالك الأيوبيَّة

#### 1 ـ في فارس:

مع أن بحثنا يتعلَّق \_ بشكل رئيس \_ بالعلاقات في الشَّام، لكنَّ معرفة أساس العلاقة بين الخَوَارزميَّة وإسهاعيليَّة الشَّام يُوجب علينا أن نبدأ بها من فارس:

كان لأبُدَّ من أن ينفجر الصراع بين الدولة الخَوَارزميَّة وبين الإسهاعيليَّة المتمركزين في بعض المناطق والقلاع الجبلية في فارس، فقد سعت الدولة الخَوَارزميَّة للسيطرة المطلقة في بلاد الشَّرْق الإسلامي، وأزالت كُلَّ القوى المحلِّيَّة، ويبدو أن الإسهاعيليَّة كانوا ينحنون أمام العواصف التي تُهدِّد باقتلاعهم، فقد أعلنوا خُضُوعهم للسُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، وأقاموا له الخطبة في بلادهم أيّام الإمام جلال الدِّين حسن (1).

وعندما بدأت تظهر قُوَّة التَّنَار في بلاد الشَّرْق الإسلامي نظر إليهم جلال السِّين كَقُوَّة يُمكن أن يُستفاد منها، فيُقال إنَّه أوَّل مَنْ رَاسَلَ جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى ديار الإسلام (2)، ومَّا يُؤكِّد ذلك أن علاء الدِّين مُحمَّد بن جلال الدِّين حسن قد أرسل بدر الدِّين أحمد رسولاً من طرفه إلى التَّنَار، وعلم بذلك جلال الدِّين خوارزم شاه، فأرسل لعلاء الدِّين يسأله في ذلك، فكان جوابه: "إن السُلطان يعلم أن لنا بلاداً مناخة للتَّنَار، ولابُدَّ لنا من مُداراتهم دَفْعاً للأذى عنها، فإذا ثبت للسُلطان أن رسالته وأي بدر الدِّين أحمد كانت في فساد يعود للدولة الخوارزميَّة فنحنُ المُذبون في ذلك" (6).

سرمين (1)، ولكن وُجُودها في بلدة صغيرة، بعد أن كانت دُور الدعوة في عواصم الشَّام كحلب ودمشق، يدلُّ على انكهاش الدعوة الإسهاعيليَّة، وتراجعها كثيراً؛ بحيثُ أنَّها لم تعد تُشكِّل خطراً يُذكر على أمراء الأيُّوبيَّة، فتساهلوا معها، ورُبَّها عدُّوها حليفاً، إنْ لم ينفع، لا ينضرُ. وفي عام 631 هـ على أُمراء الأيُّوبيَّة، فتساهلوا معها، ورُبَّها عدُّوها حليفاً، إنْ لم ينفع، لا ينضرُ. وفي عام 631 هـ على أُمراء اللكُ المُجاهدُ أسدُ الدِّين شيركوه صاحب حمص هدية للإسهاعيليَّة (2)، وهي بالتَّاكيد - دليل على علاقات طيبة شاملة.

وفي المحنة التي تعرَّض لها الصَّالح أيُّوب 636 هـ 1239م عندما سُجن في الكَرَك، فارقه بدر الدِّين قاضي سنجار، فأراد الصَّالح إساعيل المُستولي على دمشق أن يستخدم بدر الدِّين في رسالة إلى كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، فخان بدر الدِّين الرسالة، وتحدَّث باسم أيُّوب، ولذلك خاف من العودة لدمشق "والتجأ إلى الإساعيليَّة، وكان مُقدَّم الإساعيليَّة رجلاً من العجم ورد من ألموت يُقال له تاج الدِّين، فأجاره، ولمَّا طلبه إساعيل منه مغلطه، وطلب من القاضي اللُّجُوء إلى هاة" (3). فهل تدلُّ هذه الحادثة على الضعف الذي وصلت إليه قُوَّة الإساعيليَّة في الشَّام؛ حيثُ لم يجرؤ مُقدَّمهم على مصارحة الصَّالح إساعيل بأنَّه يحمي القاضي؟! أم أنَّها تدلُّ على أن مُقدَّم الإساعيليَّة كان يُهارس على صداقة كُلِّ الأطراف الأيُّوبيَّة؟! رُبَّها الدلالتان معاً!.

<sup>1 -</sup>سيرة منكبري، النسوي، 340.

<sup>2-</sup>الحشَّاشون، لويس برنارد، ترجمة: مُحمَّد العزب،150.

<sup>3 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 340.

<sup>2 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 259.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 5 / 251.

#### 2. في الشَّام:

بعد الهزيمة النهائية لجلال الدِّين خوارزم شاه أمام المغول، ومقتله، تفرَّق جنده في البلاد، لكنَّ مجموعة كبيرة منهم دخلت بلاد الشَّام، وشاركت في أحداثها، وعُرفَتْ باسم الخَوَارزميَّة، ويبدو أنَّه لم ينسوا عداءهم القديم للإسهاعيليَّة، فأثناء هُجُوم الخَوَارزميَّة على ضواحي حلب "تحرَّكوا إلى سرمين، ونهبوها، ودخلوا دار الدعوة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنَّا منهم أنَّه لا يجسرون على قربانها خوفاً من الإسهاعيليَّة، فدخلوها ظُهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها "(1).

وبالمُقابل؛ فإن الإسماعيليَّة قتلوا بدمشق رسولَ جلال السدِّين خوارزم شاه عام 628 هـ وبالمُقابل؛ فإن الإسماعيليَّة قتلوا بدمشق رسولَ جلال السدِّين خوارزم شاه عام 628 هـ 1231م (2). فطريقتهم بالاغتيال لم يتخلّوا عنها، ولكنَّها لم تعدْ مُوجَّهة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة، ولم تعدْ قويَّة؛ بحيثُ تطال أيَّا كان، فالسفير الخوارزمي شخص عادي غير مُحترس، ولكنَّها إشارة قويَّة إلى أنَّهم مازالوا موجُودين في الشَّام.

ومع هذا الاعتذار المُقنَّع ظاهراً، فيبدو أن الإسماعيليَّة كانوا يرغبون في تحطيم قُوَّة الحَوَارزميَّة الذين أطبقوا عليهم، فلم يمض بعض الوقت إلَّا وقد ضُبط رسول لهم يحمل كتاباً إلى التَّتَار فيه عـدَّة بُنُود، منها: حثّهم على سُرعة الوُصُول<sup>(1)</sup>.

وكان حال الإسماعيليَّة مع الدولة الخَوَارزميَّة في تقلُّب دائم، يميلون مع الدولة أو ضدَّها، حسب قُوَّتها، وضعفها، فخلال غزو المغول للبلاد استغلَّت الإسماعيليَّة حالة الفوضى "فعاثت في الللاد فساداً" (2).

وبعد عودة جلال الدِّين منكبرتي من الهند، وإعادة سيطرته على البلاد، هاجهم، وضرب بعض حُصُونهم عام 624 هـ 1227م، ونهب أعالهم، فانكمشوا في حُصُونهم أثُمَّ أخذوا يتقرَّبون إليه (3)، لكنَّهم عملوا في الخفاء على تحريض أعدائه عليه، وفي مُقدِّمتهم المغول (4). ففرض عليهم إتاوة سنوية (5) مقدارها ثلاثون ألف دينار (6).

مع ذلك؛ فقد ظلّت الإسماعيليّة في قلاعها شوكة في ظهر الدولة الخَوَارزميَّة، تعمل ضدَّها في العلَن حيناً، وفي الخفاء أحياناً. ويُحمِّل بعض المُؤرِّخين الإسماعيليَّة مسؤولية مُراسلة المغول، وحثهم على قصد بلاد الإسلام، وتهوين أمر الخَوَارزميَّة عليهم، وأنَّهم سبب نكبة البلاد بالمغول<sup>(7)</sup>. ولكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل كان المغول - فعلاً - بحاجة إلى مَنْ يستقدمهم إلى بلاد الإسلام، أو يُوجِّههم نحوها؟ يبدو أن ذلك لم يكن ضرورياً، فجنكيز خان كان له مشروعه الخاصّ الطموح بهذا الانجاه.

<sup>1 -</sup>سبرة منكبرتي، النسوي، 343.

<sup>2 -</sup> سيرة منكيري، النسوي، 336.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابنَّ الأثير، 12/ 217، والدولة الخَوَارزميَّة والمغول، حافظ حمدي، 818 ــ 191.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 694، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 315.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 495.

<sup>6 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 336.

<sup>7 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 \_ 495، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 317.

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 230.

#### المبحث الخامس

# العلاقات السيّاسيّة والعسكريّة بين الإسماعيليّة والفرنج

في أيّام حُكُم السُّلطان العادل انتهت الهُدنة العامَّة التي عقدها صلاح الدِّين مع الفرنج، وذلك واشترط أن تشمل بلاد الإساعيليَّة، فكان لأبُدَّ من الاحتكاك البُاشر بين الإساعيليَّة والفرنج، وذلك بسبب المُجاورة، فقد كانت قلاع الإساعيليَّة في الشَّام تقوم على الحُدُود الفاصلة بين مناطق سيطرة الفرنج في الساحل وبين بلاد المُسلمين في الداخل، فهم اختاروا لها نقاطاً استراتيجية على قمم جبال الساحل السوري، بعد طردهم من المُدُن الدّاخليَّة (1). ويبدو أن التساهل الأثيوبي معهم، والتغاضي عن وُجُودهم، بل والحياية والمُساعدات العسكريَّة لهم رغم العداء الدِّيني، فقد نصَّب الأثيوبيَّة أنفسهم، كما الأتابكة والسلاجقة من قبلهم، مُحاة للسُّنَّة، وتشدَّدوا مع أعدائها، وهذا الموقف من الإساعيليَّة لا نستطيع تفسيره إلَّا بسبب موقع بلادهم وقلاعهم التي تقوم كحدً فاصل بمُواجهة قلاع الفرنجة، الذين أقاموا على حُدُودهم طائفتيْ الاسبتاريَّة والدَّاويّة، وهم الأشدُّ تعصُّباً، والأكثر شراسة، على حُدُود بلاد الإسلام. فكأن الإسهاعيليَّة وُجدوا في المكان المُناسب الذي يخدم مصالح الإمارات والمالك الأثيوبيَّة في الشَّام. ولكن يبدو أن الكفَّة كانت تميل لصالح الاسبتاريَّة والدواية، فسلاح الإسهاعيليَّة، الذي أرهب المُلُوك والأمراء، لم يكن ذا جدوى مع هذه الطوائف، فإذا قُتل لهم سيِّد حلَّ علَّة آخر، والإسهاعيليَّة لا يُضبعون رجالهم بلا مُقابل (2)، لذلك رضخ الإسهاعيليَّة، ودفعوا المال إلى كُلِّ من الاسبتاريَّة (6) والدواية (4).

لقد سعت الإسماعيليَّة في الشَّام لإقامة توازن في علاقاتها ما بين المالك الأيُّوبيَّة من جهة وإمارات الفرنجة من جهة ثانية، فبعد أن أمَّنوا جانب الأيُّوبيِّيْن في اتَّفاق غير مُعلن، عملوا لعقد تحالفات مع الفرنجة (5). ولكنْ؛ يبدو أن الفكرة السَّيِّة للفرنجة عن الإسماعيليَّة هي التي حالت دُون

إثمام ذلك  $^{(1)}$ ، لكنَّ الإسماعيليَّة ما كفَّت من مُحاولاتها للتحالف مع الفرنج، وللسعي لإقامة علاقـات طيِّبة معهم لمُوازنة علاقتهم بالأيُّوبيين، فدعوة مُقدَّم الإسماعيليَّة نصر الفارسي عام 589 هـ 1193م، للكونت هنري دي شامبين أحد أُمراء عكَّا الكبار لزيارته في مقرِّه، أثناء مُرُوره بطرطوس، والحفـاوة في استقباله، واستعراض قلاعه، وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثُمَّ الهدايا الثمينة التي قُدِّمَتْ لـه  $^{(2)}$ ، في استقباله، واستعراض قلاعه، وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثُمَّ الهدايا الثمينة التي قُدِّمَتْ لـه  $^{(2)}$ ، في المنتقباله، والمُحرِّة لتطلُّع إسماعيلي لعلاقات جيِّدة مع الفرنج، ومُحاولة لكسب وُدِّهم.

وتردَّدت اتِّهامات مُباشرة للإسهاعيليَّة أنَّهم نفَّذوا عدَّة عمليات اغتيال لصالح الاسبتاريَّة جيرانهم في جبال الساحل السوري $^{(3)}$ , فعندما اغتالوا ريموند بن بُوهيمند أمير أنطاكية في كنيسَة طرطوس عام 610 هـ 1213م $^{(4)}$ , قيل إنَّ ذلك تمَّ بتحريض من الاسبتاريَّة. وعندما اغتيل بطريرك القُدُس عام 611 هـ 1214م، وهُو المعروف بعدائه للاسبتاريَّة، فاتَّهموا الاسبتاريَّة بتحريض الإسهاعيليَّة على قتله $^{(5)}$ .

كُلُّ ذلك يدلُّ على مدى الضغط الذي كان الاسبتاريَّة بمقدورهم مُمارسته على الإساعيليَّة؛ حيثُ يدفعون لهم إتاوات سنوية، ويُنفِّدون عمليات اغتيال لحسابهم، إنَّما ليس ضدَّ الأيُّوبيِّيْن، فعلى ما يبدو كان التحالف معهم شيئاً مُقدَّساً بالنِّسبَة للإساعيليَّة، فبعد قَتْلهم لابن أمير أنطاكية هاجم والده بلادهم، ولم يتحرَّك الاسبتاريَّة لنجدتهم، بل رُبَّما اضطُرُّوا للتظاهر بدعم بُوهيمند ضدَّهم، بينا تحرَّك المُلُوك الأيُّوبيُّون بكُلِّ حزم من حلب، ومن دمشق، لنجدتهم، وأنقذوهم منه. ومع كُلِّ ذلك؛

<sup>1 -</sup> الشُّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114.

<sup>2-</sup>سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 168.

<sup>3-</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 151، وسيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 168. 4 - ورود التواريخ، فيلكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 ـ 1194، وسيرة القدِّيس لـ ويس، جين

جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 36 / 168.

<sup>5 -</sup> الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114، والحَرَكَة الصَّليبيَّة، سعيد عاشور، 2 / 109.

<sup>1 -</sup> راجعُ حول المعتقدات الأُورُبيَّة عن الإسهاعيليَّة في العُصُور الوُسْطَى: فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170، وورود التواريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170، وقد وضع القسَّ الألماني ي ريكاردوس رسالة لملك فرنسا فيليب السَّادس عندما فكَّر بغزو الشَّرق الإسلامي عام هـ 3321م قال فيها: "أذكر الحشَّاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان، ويتفاداهم، إنَّهم ببيعون أنفسهم، ويتعطَّشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مُقابل أجر.. وهم يُغرِّرون مظهرهم كالشياطين.. وذلك أنَّهم بُحاكون الحَرَكات والثياب واللُّفات" (الحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 17)، ولذلك أصبحت كلمة حشَّاشين Assassin اسهاً شائعاً في مُعظم اللُّغات الأُورُبيَّة للاغتيال.

<sup>2 -</sup> ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8 / 474.

<sup>3 -</sup> سيطر الاسبتاريَّة على علَّه قلاع مُواجهة لقلاع الإساعيليَّة، منها قلعة الحسمن (كراك شيفالييه)، وقلعة صافيتا. (المُرح الأبض).

<sup>4 -</sup> زُنْدَة الحَلِب، ابن العديم، 2/ 637، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 219.

<sup>5 -</sup> تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيان، ترجمة: السَّبِّد الباز العريني، 3/ 247.

# Aut Carl Hall

#### العلاقات العسكريَّة مع الفرنج:

لم تكن علاقات الإساعيليَّة بالفرنج كُلّها علاقات سياسيَّة؛ إذْ سيطر الاحتكاك العسكري على جانب مُهمِّ من هذه العلاقات، فقد أغار الفرنج عام 612 هـ 1215م، على بلاد الإساعيليَّة، وأخذوا منها نحو ثلاثهاتة أسير<sup>(1)</sup>، "ورحلوا عنهم، بعد أن حاربوهم حرباً شديداً، وكان المُتوسِّط في الصُّلح بينهم الملك الظَّاهر<sup>(2)</sup>. وهذه الغارة - كها هُو معروف - كانت بسبب قتلهم لابن صاحب إنطاكية، ولم يُنقذ قلعة الخوابي إلَّا تدخُّل الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين صاحب حلب، فقد "خرج بعسكره من حلب مُتوجِّها إلى بلاد الإسهاعيليَّة ليدفع عنهم الفرنج"، وَسَيَّرَ الظَّاهر أمامه "نجدة إلى الخوابي، فصعدت إليه، وأنفذ إلى الحصن إقامة كثيرة وميرة"، " فرحل الفرنج عن الخوابي<sup>(3)</sup>.

واستمرَّت علاقات الإسماعيليَّة بالفرنجة حتَّى قبيل القيضاء على وُجُودهم كُلِّيًا في السَّمام، فيروي متَّى باريس المُؤرِّخ الإنكليزي: أنَّه في عام 637 هـ 1238م، وصلت سفارة إسماعيليَّة إلى أورُبة تطلب المُساعدة ضدَّ الخطر المغولي، في الحقيقة؛ كانت رسالة تحذير لأُورُبا أكثر منها طلب مُساعدة، فالإسماعيليَّة بعد أن شاهدوا تهاوي المالك الإسلاميَّة، وكانوا يعرفون ضعف دولة الخلافة وضعف الأيُّوبيَّة في الشَّام. لذلك لم يجدوا أمامهم إلَّا أُورُبا التي مثَّلت آخر أمل لغريق يُدرك قَدرَهُ جيِّداً، لكنَّه لا يملك إلَّا أن يصرخ طالباً النجدة؛ حيثُ لا أحد يسمع طلبه.

#### الاغتيالات الإسماعيليَّة لقادة الفرنج:

1 \_ اغتيال كونراد دي منتفرات مركيز صُور وملك القُدْس الاسمي عــام 588 هــ 1192م، وقد قيل إنَّ اغتياله تمَّ بطلب من ريتشارد الأوَّل ملك إنكلترا مُقابِـل مـال دفعـه للإسماعيليَّة أثناء تواجده في فلسطين، لأن كونراد أوشك أن يتولَّى عملكة القُدْس على غير رغبة من ريتشارد، لكنَّ عميد مقرِّ الكَهَنَة في لندن رالف دي سيتو يُوردُ نصَّ رسالة من شيخ الجبل إلى ليوبولـد دوق النمسا، ينفي فيها \_ بشكل جازم \_ تورُّط الملك ريتشارد بالتحريض على قتـل الماركيز، ويُقسم شيخ الجبـل عـلى

لذلك سارع بردِّ الجواب مع رسول خاصِّ، "وعلى يده هدية بها يناهز ثهانين ألف دينار لحفظ نفسه منهم"، فحلف له مجد الدِّين، وأرسل قميصه أماناً للإمبراطُور (1) إنَّه مبلغ كبير يدفعه فريدريك، ولكنّه يدلُّ على خوف أكبر من فتاك الإسهاعيليّة. وهذا ما شجَّع الإسهاعيليَّة على إرسال رُسُلهم إلى اللك لويس ملك فرنسا عندما قدم إلى الشَّرْق؛ حيثُ التقوابه في قُبرُص. يتحدَّث جوانفيل مُرافق الملك لويس عن هذا اللقاء الذي كان حاضراً فيه، فيقول: "وصلت رُسُلُ شيخ الجبل، وقد هل أحدهم ثلاثة خناجر دخلت شفرة كُلِّ واحد منها في مقبض الآخر، وقدَّموها للملك شارة للتحدِّي إذا لم يتم الأتفاق، ولفَّ الآخر حول ذراعه قطعة من قاش الكتّان، وقدَّمها للملك لتكون كفناً له إذا رفض مطالب شيخ الجبل. وقال الرسول للملك: مولاي يسألكَ إذا ما كُنتَ تعرفه؟ فردَّ لويس بأنّه سمع عنه، فقال الرسول: بها أنكَ سمعتَ عنه، فأنا مُندهش لأنكَ لم تُرسل مبلغاً من المال لتبُقه

فقد كانت علاقة الإسماعيليَّة في الشَّام تختلف كُلِّيًّا بالنِّسبَة لمُلُوك أُورُبا القادمين نحو الشَّرْق، أو أُمراء

مجد الدِّين مُقدَّم الإسماعيليَّة في الشَّام، ويبدو أنَّه ضمَّن رسالته تهديداً مُباشراً لـشخص الإمبراطُـور،

فعندما قدم الإمبراطُور فريدريك النَّاني في حملته نحو فلسطين عام 624 هـ 1227م راسله

وفي المُقابلة النَّانية؛ حضر مُقدَّما الاسبتاريَّة والدَّاويَة مع الملك، فتحدَّثا مع الرُّسُل بالعَرَبيَّة، وهدَّدوهم بالقتل، وطلبا منهم المُغادرة، والعودة خلال أسبوعيْن مع هدايا للملك لويس لإرضائه. وفعلاً؛ عادت الرُّسُل في المُهلة المُحدَّدة ومعهم قميص شيخ الجبل، وهُو تعبير عن تقربة للملك، وخاتمه الخاص، وعليه اسمه، وهدايا وجواهر وتماثيل من الكريستال رُبطت بها ورود من العنبر بخيوط من ذهب، فقبلها لويس، وأعادهم مع كثير من الهدايا، يرافقهم راهب بريطاني يُجيد العَرَبيَّة مُو أين شيخ الجبل لا يتبع شريعة مُو إيف لي بريتون، الذي عدَّ أن أهمَّ اكتشاف له في بلاد الإسماعيليَّة هُو أن شيخ الجبل لا يتبع شريعة عُمدًد (ص)، بل هُو من أتباع عليّ (رض)<sup>(2)</sup>.

صديقاً لكَ مثلها يفعل إمبراطُور ألمانيا وملك هنغاريا، وإذا كان هذا لا يوافقكَ، فعليك ترتيب أمر

إعفائه من دفع الجزية للاسبتاريَّة والدَّاويَة.

ومُلُوك الفرنجة الآخرين.

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 172، عام 612 هـ.

<sup>2 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 232.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 219

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 151.

<sup>2 -</sup> حياة القَدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 716 ـ 168.

ذلك، ويقول بأنَّ السبب الحقيقي لاغتياله هُو قتل الماركيز، وسلبه لأموال بعض الإسماعيليَّة (1). لكنَّ شدَّة النفي، والتبرير غير المطلوب، تجعل الشكُّ يتسرَّب إلى صحَّة هـذه الرسالة؛ خاصَّـة أنَّهـا مـن مرويَّات كاهن إنكليزي قد يهمُّه الحفاظ على نقاء سُمعة مليكه.

وقيل إنَّ اغتياله كان بطلب من صلاح الدِّين، حيثُ خيَّر راشد الدِّين سنان بين قَتْل ريتشارد ملك إنكلترا وبين قَتْل الماركيز مُقابل عشرة آلاف دينار، فلم يُمكن قَتْل ريتشارد، أو "لم يره سنان مصلحة لهم، لئلا يخلو وجه صلاح الدِّين من الفرنج، ويتفرَّغ لهم" (2). ويُقال أيضاً بـأنَّ الإسماعيليَّة قتلوه لأنَّه صادر لهم سفينة مُحمَّلة بالبضائع، ولمَّا طالبوه بها، رفض تسليمها(3).

2 \_ في عام 613 هـ 1216م، قدمت حملة فرنجية كبيرة العدد من البحر، يقودها همفري أخو ملكة عكًّا، فخشي منه "الملك العادل، فجرَّد له إسهاعيلي ضربة خمسة سكاكين فهات، وقتل الإسهاعيلي" (4). وطالما أن فائدة العادل كانت قويَّة في هذا الاغتيال، فيُمكن أن نعد أنَّه تمَّ بتحريض أو بطلب رَسْمي منه، عمَّا يدلُّ على استمرار التحالف الوثيق، وإن كان غير مُعلن بين الأبُّوبيَّة وبين

وكُلُّ هذه الاغتيالات تدل على:

1\_استمرار التعاون بين الأنوبيَّة والإساعيليَّة، حتَّى بعد وفاة صلاح الدِّين وراشد الدِّين.

2\_ وُجُود تحوُّل جَذْري في موقف الإسهاعيليَّة من الاغتيالات، فبعد أن كانت تخريبية مُوجَّهة ضدٌّ قادة السلمين أخذت تتَّصف بالوطنية لتوجُّهها ضدَّ الفرنج.

دور إسماعيليَّة الشَّام في صراع الأيُّوبيِّيْن ضدَّ الفرنج:

كانت العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين إسهاعيليَّة الشَّام وجيرانهم فرنج الساحل الشَّامي تحمل في طيَّاتها الكثير من التناقض، أو بشكل أصحّ؛ كانت العلاقات القائمة بينهم مبنية على المصالح المتبدِّلة دوماً، والمتناقضة أحياناً، ورُبًّا كان هذا النوع من العلاقات هُـ و سبب تـضارب معلومات

المُقاومة، واضطرَّ الفرنج لقبول وساطة الظَّاهر غازي، ورحلوا عن الحصن (4).

مُؤرِّخي الفرنج عن الإسماعيليَّة، يقول عنهم بورتشارد راهب جبل صهيون: "مُناك مُسلمون

اسمهم الخشيشية، يسكنون الجبال وراء طرطوس، ويملكون عدداً من القلاع والمُدُن مع أراض

خصبة، ويُقال إن لديهم أربعين ألف مُقاتل، ولديهم مُقدَّم واحد، لا يلى بحقّ الوراثة، بل بسبب

الفضائل الشخصية، واسمه شيخ الجبل، ويُقال إنَّهم من أصل فارسي، وهم مُرعبون لجميع مَنْ

حولهم "(1). إن الوصف الجَغرافي الذي يُحِدِّده الكاتب الفرنجي صحيح تماماً، وكذلك المعلومات

عن تولِّي مُقدَّمهم، فقد كان الإسماعيليَّة مُتاخين لمناطق السيطرة الفرنجيَّة، حتَّى إنَّه كان هُناك نوع من

رسم للحُدُود بين الطرفَيْن، فقد وُجدت أحجار لتعليم الحُدُود الفاصلة، نُقش عليها من جهة

الإساعيليَّة خناجر، ومن جهة الفرنج صلبان (2). ولكن تعداد مُقاتليهم المذكور فيه مُبالغة هائلة، كما

أن الأصل الفارسي ينطبق - فقط - على المُقدَّمين، بينها الأتباع - وإن كانوا خليطاً عرقياً - فهُم محلِّيُون.

الإسهاعيليَّة ريموند بن بُوهمند الرَّابع حاكم أنطاكية في كَنيسَة طرطوس، رُبَّها كان ذلك باتَّفاق مع

الأَيُّوبِيَّة، أو بطلب منهم، فقام بُوهمند بقيادة حملة كبيرة، وحاصر قلعة الإسماعيليَّة "الخوابي" شرق

طرطوس، وبدا أنَّه كان مُصمِّماً على فتحها، والتنكيل بالإسماعيليَّة انتقاماً لابنه. في كان من

الإسهاعيليّة - بعدما لمسوا الخطر المُحدق - إلّا أن طلبوا مُساعدة الظَّاهر غازي ابن صلاح اللّين

صاحب حلب، ومُساعدة الملك المُعظَّم نائب أبيه العادل في دمشق. هذا الطلب للدعم والمُساعدة

لا يُمكن أن يكون بدُون وُجُود نوع من مُعاهدات الدفاع المُشترك، ويُؤكِّد ذلك ردُّ الأيُّوبيَّة الحاسم

والسريع، فقد خرج الظَّاهر بقُوَّاته من حلب نحو حصن الخوابي لنجدته، وسار المُعظَّم من دمشق،

فهاجم بلاد طرابلس، فاضطرَّ بُوهمند لفكِّ الحصار عن قلعة الخوابي، ونجت منه (3). وفي عام 612

هـ 1215م، عاود الفرنجُ الهُجُومَ على قلعة الخوابي، ولكن وُجُود نجدة حلبية فيها مكَّنت الحصن من

وفي عام 610 هـ 1213م، توتّرت العلاقات بين الإسهاعيليّة والفرنج عندما اغتال بعض

<sup>1 -</sup>بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

<sup>2 -</sup> بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 39 / 242.

<sup>3-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 355، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 224.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 229+ 232.

<sup>1 -</sup> تواريخ أُسرة بلانتغنت، رسائل رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، شُهيل زَكَّار، 30 / 266. 2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 78 ـ 79.

<sup>-3</sup>A History of the Crusades, Setton, 11-80

وذيل وليم الصُّوري، مخطوطة مكتبة ليون / 228، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8 / 421. 4- كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 183

# جدول حُكَّام الإسماعيليَّة

استمرَّ خُكْمهم في قلعة ألموت 177 سنة، من سنة 477 هـــ 1084م، حتَّى سنة 654 هـــ 1256م، وتولَّى منهم ثمانية خُكَّام:

1\_حسن بن علي بن مُحمَّد الصباح الحميري: كان داعية إسماعيليَّاً، تـولَّى حُكْم ألموت عام 483 هـ 1090م، تُوفِّي عام 518 هـ 1124م.

2\_الكيا بُزُرُك أُمِّيد: كان داعية وزميلاً للحسن الصباح، تولَّى الحُكْم عام 518 هـ 1124م، أسَّس أُسرة وراثية بتولية ابنه من بعده، تُوفِّي عام 532 هـ 1138م.

3 ـ مُحمَّد بن بُزرُك أميد: تولَّى عام 532 هـ 1138م. تُوفِّي عام 557 هـ 1162م.

4\_حسن بن مُحمَّد: تولَّى عام 557 هـ 1162م، ادَّعى نسباً إسهاعيلياً إلى نـزار بـن الخليفة الفاطمي المُستنصر، وأعلن نفسه إماماً لفرقته، ثُمَّ أعلن القيامة عام 559 هـ 1164م، تُوفِّي عام 561 هـ 1166م.

5\_ مُحمَّد بن حسن: تولَّى عام 561 هـ 1166م، تُوفِّى عام 607 هـ 1210م.

607 - خلال الدِّين حسن بن مُحمَّد: اللَّقَب (نو مُسلمان)، ألغى القيامة فور تولِّيه عام 607 هـ 1211م. تُوفِّ عام 618 هـ 1221م.

7\_علاء الدِّين مُحمَّد بن حسن: تولَّى عام 618 هـ 1221م، أُصيب بمرض الماليخوليا، اغتيل عام 653 هـ 1255م.

8 \_ رُكن الدِّين خورشاه: تولَّى عام 653 هـ 1255م، قتله المغول مع كُلِّ أفراد أسرته 656 هـ 1258م.

وفي عام 625 هـ 1228م، قدم الإمبراطُور فريدريك الشَّاني بحملته إلى فلسطين، فراسل الإساعيليَّة، مُطيِّباً قلوبهم من ناحيته، فأطلعوا حُلفائهم الأيُّوبيَّيْن في حلب على نصَّ الرسالة مع رسولهم منضُور بن يزيد، ونصحوهم بالتحالف مع فرنج الساحل ضدَّ فريدريك، عمَّا يدلُّ على أن الإسماعيليَّة كانوا يعرفون أنَّه محروم كَنسيَّا، وأن فرنج الساحل ضدَّ حملته، ثُمَّ طلبوا من الحلبيين إعلامهم إن كانوا عاجزين عن دفعه، ليُصلحوا أحوالهم معه (1). وفي الحقيقة؛ فهذا تصرُّف الحُلفاء الحقيقيين، فالاتّفاق أو التحالف وإنْ كان غير مكتوب بينها فلا زال الطرفان مُتمسِّكَيْن به، ويعملون بمقتضاه.

ومُقابل هذا الاستقرار السِّياسي في العلاقات السِّياسيَّة للإسماعيليَّة كان هُناك تخبُّط عقائدي إسماعيلي، فقد ألغى أحد أثمَّتهم الالتزام بالشرع الإسلامي، فازداد توتُّر علاقاتهم بمَنْ حولهم من المُسلمين، ثُمَّ أعاد الالتزام إمامٌ آخر، ممَّا أدَّى إلى عودة العلاقات بحُدُودها المقبولة، وهُناك روايات عن مُعاولة اعتناقهم الديانة المسيحيَّة، ممَّا ألقى ظلالاً قاتمة على انتائهم للوسط الإسلامي بشكل عامً، ولمَّا ساءت العلاقات بين إسماعيليَّة فارس والدولة الحَوَارزميَّة اتُهموا بدعوة التَّنَار للتخلُّص من الخطر الخوارزمي، ولمَّا هاجمهم الخَوَارزميَّة استكانوا أمام العاصفة، لكنَّ عاصفة التَّنَار اقتلعت جذورهم من فارس، فانهارت قواهم في الشَّام، وأنهى الظَّاهر بيبرسُ سُلطان الماليك وُجُودَهُم العسكري فيها.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 160.

# الفصل الثَّالث

العلاقات الدّوليَّة لبعض الدُّول الإسلاميَّة المبحث الأوَّل

علاقات الشام ومصر مع المغرب الأقصى

بدأت هذه العلاقات فعليّاً بقيام دولة صلاح الدّين في مصر، التي هي بوّابة المغرب العَرَي، فكان من الطبيعي \_لسبب، أو لآخر \_ أنْ تتفاعل العلاقات الأيّوبيّة مع المغرب سياسياً وعسكريّاً، لكنْ؛ عمّا حدّ من هذه العلاقات، بل ورُبَّا جعلها مُستحيلة، هُو مُواجهة كل طرف لعدو مُحتلف، شغله تماماً، وجعله يستغرق كلّ اهتهاماته في التّصدّي له، إضافة إلى المُشكلات الدّاخليّة وصُعُوبات ترسيخ الحُكْم لدى كلّ طرف. كان الطرف الشرقي في الشّام ومصر يتعرّض للعُدوان الفرنجي، بينها كان الطرف الغربي يشهد عُدواناً من نوع آخر، إنّه حرب الاسترداد التي كانت ناشطة في الأندلس وصقلية وامتداداتها نحو شواطىء المغرب العَرَبي، لكنّ كلّ ذلك لم يمنع من قيام بعض العلاقات السّياسيّة والعسكريّة بين شطرَيْ المشرق والمغرب العَرَبي.

بعد أن أعاد صلاح الدِّين السيطرة على دولة نُور الدِّين وضمّ الشَّام إلى مصر، أعاد توزيع ولاته على أطرافها، فاستبدل ابن أخيه تقي الدِّين عمر والي مصر بابنه العزيز، فغضب تقي الدِّين وكاد أن يظهر العصيان، لكتَّه فضل أن يسير بجُنُوده وعماليكه إلى المغرب ليُقيم له فيها عملكة خاصّة. وبالفعل خرج تقي الدِّين وعسكر في الجيزة، وبدأ بالاستعداد وكتب إلى عمّه السُّلطان صلاح الدِّين بذلك.

ويبدو أن الملك المُظفَّر تقي الدِّين كان يعتمد في مشر وعه الغربي على قُوَّة استطلاع كان قد أرسلها مُسبقاً بقيادة عملوكه قراقوش (1) يقول العماد الكاتب: "وكان أحد عماليكه قراقوش من قبل قد سار إلى برقة، وَمَلكَها، وتجاوز إلى أفريقية، وهُو يكتب - أبداً - إلى مالكه الملك المُظفَّر يرغبه في تلك المملكة، ويقول: إن البلاد سائبة "(2). ولمَّا وصلت أخبار حملة تقي الدِّين على المغرب إلى السُّلطان صلاح الدِّين قال: "لعَمْري؛ إن فتح المغرب مُهمّ، لكنَّ فَتْحَ البيت المُقدَّس أهمّ، وإذا توجه تقي الدِّين برجالنا المعروفة ذهب العُمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القُدْس والساحل طوينا إلى تلك المالك المراحل "(3). وفي الحقيقة؛ فإن توجُّه كُلِّ من الرجليْن يناقض استراتيجية الآخر، فصلاح الدِّين سُلطان البلاد، وهدفه الجهاد، وهمُّه طرد الفرنج وتحرير القُدْس، ويرى أنَّه يُمكن - فيها بعد التفكير في غير ذلك. أمَّا المُظفَّر تقي الدِّين فباحث عن عملكة يُؤسِّس فيها مُلكاً خاصًا به، وشجّعه التفكير في غير ذلك. أمَّا المُظفَّر تقي الدِّين فباحث عن عملكة يُؤسِّس فيها مُلكاً خاصًا به، وشجّعه تقدُّم عملوكه قراقوش التقوي، وأخباره بخُلُوِّ بلاد الغَرْب من قُوَّة مانعة.

لكنَّ صلاح الدِّين لم يتوانَ في هذا الأمر، وأصرَّ على ابن أخيه أن يترك كُلَّ شيء، ويقدم عليه في الشَّام، فامتثل تقي الدِّين للأمر، ولَّا قابل عمَّه مُلبِّياً لدعوته أرضاه صلاح الدِّين بإقطاعات كبيرة في الشَّام والجزيرة، ثنته عن التفكير في المغرب، الذي كان في كُلِّ الأحوال مُغامرة تقبل النجاح والفشل (4).

ولكنْ؛ عندما كتب السُّلطان صلاح الدِّين إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء يشرح له أحوال دولته ذكر فتوحات قراقوش مملوك تقي الدِّين ضمن خُطَّة الدولة، وكأنَّها ثمَّتْ بدعمه وإشرافه الشخصي، وعدَّدها ضمن أعهاله، فقد قال في رسالته التي هي من إنشاء القاضي الفاضل: "ولنا في المغرب، أثر أغرب. . وذلك أن بني عبد المُؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر، وملكهم قد عمر، وجُيُوشهم لا تُطاق،

وعلى الأرض تمكّن قراقوش من الاستيلاء بسُهُولة على محيط مدينة طرابلس الغَرْب ومُعظم نواحي جبل نفوسة، فتوافدت عليه قبائل العَرَب، وخاصّة قبيلة رياح، التي خلعت طاعة المُوحِّدين، وساندت قراقوش، فتمكّن ـ بهذا الدعم ـ من احتلال طرابلس، فقدمت إليه مجموعات أُخرى من القبائل العَرَبيَّة من هلال وبعض سليم، فاصطنعهم، وفرض لهم العطاء، واستبدَّ هُو بحُكُم طرابلس. وكان قراقوش يخطب للخليفة العبَّاسي وللسُّلطان صلاح الدِّين ولمولاه تقي الدِّين.

وأوامرهم لا تشاق، ونحنُ \_ والحمد لله \_ قد ملكنا ممَّا يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيَّرنا

عسكراً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجهاهير: لُكّ، برقة، قفصة،

قسطيلية، وتَوْزَر، كُلُّ هذه تُقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المُستضيء بالله "(1).

ويبدو أن حملة قراقوش التقوي على المغرب قد انتهت بمُجرَّد إرضاء سيِّده تقي الدِّين بإقطاعات الشَّام، فاستدعى جُنُوده ومماليكه إليه في الشَّام، وعاد مُعظمهم إلَّا مجموعة منهم قد تخلَّفت في المغرب مع أحد قادة الحملة، وهُو مملوك لتقي الدِّين اسمه زين الدِّين بوزبا، فقد تبابع بمَنْ رافقه من الجُند تقدُّمه نحو الغَرْب، واستولى على عدَّة بلدات، لكنَّه في النَّهاية عزم أمام قُوَّات ابن عبد المؤمن سُلطان المغرب، فأسره، ثُمَّ أطلقه، وجهزه بها يلزم مع جنده، وسيره لغزو الثُّغُور، فوجده مُقاتلاً شُجاعاً وقائداً مُحتَّكاً، فجعله أحد مُقدَّمي جيشه (3).

ولمَّا اشتدّ ضغط الفرنج على عكًّا، ووقف صلاح الدّين بقُوَّاته أمامها عاجزاً عن إنقاذها، لأنّه لا يستطيع مُهاجمة الفرنج المدعومين بالأساطيل القويّة، وقد وصف هذه الحال صلاح الدّين في إحدى رسائله بقوله: "إنّهم - الآن - على عكًّا، يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه" (4). ولذلك لم يجد صلاح الدّين بُدّاً من مُحاولة طلب نجدة سُلطان المغرب يعقوب ابن يُوسُف (5)، فالمُوحِّدون وُفقاً لما قال ابن خلدون: " أقاموا خُطّة هذا الأسطُول على أتم ما عُرف، وأعظم ما

<sup>1 -</sup> صبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 86 \_ 87.

<sup>2 -</sup> العبر، ابن خلدون، 6 / 395، راجع تفاصيل حُكُم قراقوش لطرابلس في: علاقات المُوحِّدين بالدول النصرانية والدُّول الإسلاميَّة، هشام أبو رجيلة، 143.

<sup>3-</sup>الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شهيل زَكَّار، 19 / 5.

<sup>4-</sup>صبح الأعشى، القلقشندي، 7 / 627.

<sup>5 -</sup> المنصور يعقوب بن يُوسُفُ بن عبد المؤمن ( 580 / 595 هـ 1184 / 1199 م).

<sup>1 -</sup> قراقوش: التقوي، مملوك تقي الدِّين، وهُو غير قراقوش الصلاحي عملوك صلاح الدِّين، ونائبه على القاهرة، والذي شنَّع عليه أهل مصر. ويبدو أنَّه نحرَّك من مصر قبيل وفاة نُور الدِّين، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك بمُوافقة صلاح الـدِّين، إنْ شبّع عليه أهل مصر. ويبدو أنَّه نحرًك من مصر قبيل وفاة نُور الدِّين كان من أهم دوافعها الوحشة بين صلاح لم يكن بدعمه وتوجيهه، وهذا ما دفع ابن خلدون ليقول بأنَّ كان يمهِّد لمملكة بديلة إذا أقصاه نُور الدِّين عن مصر. الدِّين ونُور الدِّين إن خلدون، 6 / 394)؛ أيْ إنَّه كان يمهِّد لمملكة بديلة إذا أقصاه نُور الدِّين عن مصر.

<sup>2-</sup>الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4. 3- الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

<sup>4 -</sup> الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

#### المغاربة في الشَّام(1):

من المعروف أن المغاربة تدفَّقوا بكثرة على مصر والشَّام في عصر الحُرُوب مع الفرنجة كمجموعات وأفراد، ولأسباب مُختلفة، رُبًّا كان من أهمّها الجهاد في سبيل الله، عا حتَّم قيام علاقات عسكريَّة بين المتطوِّعة المغاربة والفرنجة، ولكنَّنا نُلاحظ أن تلك العلاقات كانت في أضيق شكل، فلا تُوجد إشارات واضحة لدى مُؤرِّخي الحُرُوب مع الفرنجة على اشتراك المغاربة كوحدات مُستقلَّة، أو حتَّى كمجموعات صغيرة مُنفصلة، وكُلُّ ما تمَّ ذكره هُـو حوادث فرديـة، مثـل: خُـرُوج الـشَّيخ يُوسُف بن درباس الفندلاوي المغربي من دمشق عندما حاصرها الفرنج في الحملة الثَّانية عام 543 هـ 1149م، وقتاله لهم رغم شيخوخته، ممَّا أدَّى إلى استشهاده (2).

ويُركِّز الرَّحَّالة المغربي ابن جُبَيْر في مرويات رحلته على دور المغاربة في الحَـرْب ضــدَّ الفرنجـة زمن صلاح الدِّين، ويقول: إن الضرائب التي يتقاضاها الفرنج على مُرُور التُّجَّار المغاربة أعلى بكشير من الضرائب المفروضة على غيرهم، ويُعلِّل ذلك بنكايتهم في الفرنج (3)، وعَّا يُؤكِّم ذلك أن رسول الفرنجة إلى صلاح الدِّين، أثناء حصارهم لعكًّا، جاء ومعه أسير مغربي كهدية، فاهتمَّ بـه صلاح

كذلك يذكر ابن جُبَيْر أن المغاربة البحريين أنجدوا القُوَّة البَحْريَّة التي شكَّلها الأمير لُؤلُؤ لـردِّ غزوة الفرنجة في البحر الأحمر، والتي كانوا ينوون الوُصُول فيها إلى المدينة المُنوَّرة (5).

ويبدو أن شُهرة المغاربة بمعاناة البحر قد انعكست عليهم وبالاً على فقرائهم في مصر، فعلى الدوام؛ كان هُناك مَنْ يتعرَّض لهم بالقبض لسدِّ حاجة الأُسطُول، يقول المقرِّي في كتابه نفح الطيب: "وسائر الفقراء لا يتعرَّضون إليهم بالقبض للأُسطُول إلَّا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم

عُهد"، ويُضيف ابن خلدون مُتحدِّثاً عن الأساطيل في عهد المنصُور يعقوب، بقوله: "وانتهت أساطيل المُسلمين على عهده في الكثرة، والاستجادة ما لم تبلغه من قبل، ولا من بعد فيها عهدناه "(1). فكتب القاضي الفاضل نصَّ كتاب الطلب، وحمله إليه عام 586 هـ 1190م، شمس اللَّين عبد الرحمن بن مُنقذ الكناني، وقد ورد في الكتاب تعريفٌ بقُوَّة الفرنج البَحْريَّة، والإمدادات الكبيرة التي تصلهم في البحر، ويسأله السُّلطان صلاح الدِّين: إن كان أُسطُول المغرب مُستعدًّا وجاهزاً، "فالبدار البدار ". ثُمَّ يعتذر السُّلطان عن أفعال قراقوش وبوزبا وغزوهم للمغرب، ويتنصَّل من عملهما(2).

وبالفعل؛ أقلع عبد الرحمن بن مُنقذ على ظهر سفينة من ميناء الإسكندرية في 13 رمضان 586 هـ 1190م، وبعد توقُّف بسيط في طرابلس الغَرْب أقلع منهـا إلى المغـرب الأقـصي، فاسـتقبله الوزير أبو يحيى بن أبي بكر، ثُمَّ قابل السُّلطان يعقوب، الذي تسلُّم الرسالة، وقبل هدية صلاح

وبقي ابن مُنقذ في مراكش حتَّى عام 588 هـ 1192م؛ حيثُ غادر إلى صر، ويبدو أنَّه عاد دُون أن يحمل ردًّا على الرسالة، وبالتَّالي؛ فإن صلاح الدِّين لم يحصل على أيِّ مُساعدة من ابن عبد المُؤمن كما كان يأمل. وقيل إنَّ سبب تجاهل ابن عبد المُؤمن لطلب صلاح الدِّين إنَّه لم يخاطبه برسالته إليه بإمرة المُؤمنين، كما كان أتباعه في المغرب يُخاطبونه (4).

وإذا كان السُّلطان صلاح الدِّين لم يتمكَّن من إثارة اهتهام خليفة المغرب وأُمرائه وقادته بالجهاد المُشترك ضدَّ الفرنجة (5) فإن قضيَّة القُدْس والجهاد المُقدَّس لتحريره قد استثارت كشيراً من عامَّة المغاربة، الذين لم يكونوا بحاجة إلى توجيه رسمي ليندفعوا نحو بلاد الشَّام.

<sup>1-</sup>العبر، ابن خلدون، 6 / 528.

<sup>2 -</sup> راجع نصّ كتاب السُّلطان صلاح الدِّين إلى ابن عبد المُؤمن في : الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل

<sup>3-</sup> لمعرفة تفاصيل الهدية راجع: الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 797. 4- الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شهيل زَكَّار، 19 / 298 ـ 300.

<sup>5 -</sup> الشَّرْق والغَرُّب، كلود كاهن، 242.

<sup>1 -</sup> كان "تعبير مغرى" يشمل سُكَّان غرب الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من ليبيا وحتَّى الأندلس.

<sup>2 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة : فندلاو وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 298.

<sup>3-</sup>الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.

<sup>4 -</sup> الفَتْح القِسِّي في الفتح القدسي، العهاد الأصفهاني، 502.

<sup>5 -</sup> الرحلة، ابن جُبَيْر، 35.

### المبحث الثَّاني

## العلاقات الخارجيّة لأُمراء الحجاز

كانت كُلُّ المالك الإسلاميَّة تُقيم علاقات ضمنية مع الحجاز من خلال فريضة الحجِّ والزيارة الذي يقوم بها سنوياً مُسلمو تلك البلاد، ولكنْ؛ انفردت الدولة الأيُّوبيَّة بعلاقات عيّزة مع الحجاز بسبب أن أرض ممالكها في الشَّام ومصر هي منافذ لمُعظم مناطق العالم الإسلامي نحو الحجاز وهي الأقرب إليه. مع ذلك؛ لم يكن في الحجاز ما يُغري مُلُوك بني أيُّوب للسيطرة عليه، أو مَد مُلْكهم إليه، فهُو مسؤولية أمام الأُمَّة الإسلاميَّة أكثر منه مغانم وسُلطة. لذلك؛ حاول الأيُّوبيُّون ـ ما استطاعوا - أن تظلَّ صلتهم الوحيدة بالحجاز هي قافلة الحجِّ الشَّامي، وقافلة الحجِّ المصري، وتأمين سلامتها بالذهاب والإقامة والإياب.

كان يُسيطر على الحجاز في العصر الأيُّوبي الأشراف العلويُّون؛ حيثُ يحكم منهم في مكَّة المُكرَّمة الفرع الزيدي الحَسني، وكانت لهم الأهمِّيَّة الكُبْرَى لسيطرتهم على مدينة مكَّة المُكرَّمة والمسجد الحرام والكعبة المُشرَّفة، ووُجُود مناسك الحجّ كلّها في قبضتهم.

أمَّا في المدينة المُنوَّرة؛ فكان يحكم الأشراف من الفرع الحُسَيْني العلوي، وكانت إمارتهم أقل أهمِّيَّة لإمكان استغناء الحُجَّاج عن الزيارة إلَّا لَمَنْ كانت المدينة المُنوَّرة في طريقهم كحُجَّاج الشَّام، ومع القرابة بين أُمراء مكَّة وأُمراء المدينة، فقد كانت المُنازعات، بل والحُرُوب، شائعة بينها، لأن كُلاً منها، وخاصَّة أُمراء مكَّة، يطمع في السيطرة على ما بيد الآخر.

في بدايات العصر الأيُّوبي كان يحكم مكَّة الأمير داود بن عيسى بن مُحمَّد بن أبي هاشم الزيدي الحَسني العلوي، ويقاسمه في الإمرة أخوه الأمير مكثر، وفي عام 589 هـ تُوفِّي داودُ أميرُ مكَّة المُكرَّمة (1)، فخلفه ابنه الأمير قتادة، الذي كان ذا أطاع شديدة، ويملك شخصية قويَّة تميل إلى السيطرة والتحكُّم (2)، أمَّا في المدينة المُنوَّرة؛ فكان يحكم في بدايات العصر الأيُّوبي الأمير سالم بن قاسم بن مهنا الحُسَيْني العلوي، وكان يرغب بقيام علاقات وُدُيَّة مع الأيُّوبييِّن ليستفيد من دعمهم لمُواجهة

1-الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 104.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

وهذا دليل على أهميَّة دور المغاربة في الحُرُوب ضدَّ الفرنجة، ولكنَّه يبقى دوراً شعبيًا، وبمُبادرات فردية تلبية لفريضة الجهاد، بينها لم يُجبُّ سُلطان المغرب طَلَبَ السُّلطان صلاح الدِّين لدعمه عسكريًّا ضدَّ الفرنج<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن المغاربة قد اختصُّوا بإقامة الأسواق للعسكر، فكانوا يُقيمُون مطاعم وحمامات مُتنقِّلة تصاحب تحرُّكات الجُند، وقد قدَّر المقريزي أعدادَ المغاربة الذين يُقيمُون بخدمة الجيش الأيُّوي بأكثر من ثلاثة آلاف مغربي<sup>(3)</sup>، وهذا دعم إداري لا يُنكَر لرفاهية الجيش وصحَّته. ورُبَّما لتعاظم دور المغاربة المتُطوِّعة للجهاد، فقد أوقف الملك الأفضل بن السُّلطان صلاح اللَّين حيَّا خاصَّا في مدينة القُدْس، يقع بجوار المسجد الأقصى، لسكن المغاربة، حتَّى صار يُعرَف بحارة المغاربة (4).

وأخيراً؛ نُلاحظ أن الحملة الأيُّوبيَّة قد انطلقت نحو المغرب في وقت مُبكِّر من عهد صلاح الدِّين، وقد احتلَّت حملة تقي الدِّين والي مصر إقليم برقة، واصطدمت بالمُوحِّدين في تُونُس، لكنَّ السُّلطان صلاح الدِّين أمر بسحب الحملة، وتنصَّل منها عندما طلب مُساعدة ابن عبد المُؤمن البَحْريَّة، فتجاهل ابن عبد المُؤمن طلبه، وغالباً كان هذا التجاهل بسبب توجُّهاته الأندلسية وهُمُومه المغربية، وليس لعدم مخاطبته بإمرة المُؤمنين كما تردَّد.

<sup>1 -</sup> نفح الطيب، المقري، 3 / 111 - 112.

<sup>2 -</sup> الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 288.

<sup>3 -</sup> اَلسُّلُوكَ، المقريزي، 1 / 94.

<sup>4-</sup>الأنس الجليل، العليمي، 2 / 397، والشَّرق والغَرُّب، كلود كاهن، 114.

أطاع أبناء عمِّه حُكَّام مكَّة المُكرَّمة، فتوجَّه الأمير سالم نحو الشَّام عام 590هـ 1194م، ساعياً في تحقيق قيام علاقة سياسيَّة تُؤدِّي إلى دعم عسكري، ولكنْ؛ في غيابه عن المدينة المُنوَّرة طمعت العَرَب في غزوها، فاجتمعت أحلاف من القبائل البدويَّة التي تُقيم في بوادي الحجاز بزعامة قبيلة زغب، وهاجموا المدينة المُنوَّرة، فنصدَّى لهم الأمير هاشم بن قاسم، الذي كان يحكم نيابة عن أخيه، فقتلوه،

ويبدو أن الأمير سالم لم يحصل على مبتغاه من رحلة الشَّام، فاللُّوك الأثُّوبيُّون مشغولون بمُشكلاتهم الدَّاخليَّة، وحكم الحجاز من آخر اهتهاماتهم. ورُبَّها أدرك ذلك قتادة أمير مكَّة المُكرَّمة الذي قام عام 601 هـ 1205م، بقيادة جنده ومماليكه، وهاجم المدينة المُنوَّرة للاستيلاء عليها، ولكنَّه واجه مُقاومة عنيفة من الأمير سالم، الذي تصدَّى له، وهزمه، فهرب قتادة، وتحصَّن في مكَّة المُكرَّمة، فتبعه سالم، وحصره، عندها؛ لجأ قتادة إلى المُؤامرات، فاستهال قادة الأمير سالم، وأطمعهم، ففسدت نيَّاتهم على أميرهم، فاضطُرَّ سالم للرحيل إلى المدينة المُنوَّرة (2).

ولم يجد الأمير قتادة مَنْ ينتقم منه إلَّا أنهَّة المذاهب في مكَّة، فقتل إمام الحنفية، وإمام الشافعية، ثُمَّ التفت إلى قافلة الحبّ اليمني، فنهبها (3). وسيتكرَّر نهب الحُجّاج العُزَّل من قبَل أُمراء مكَّة، وتَرْكهم لمُواجهة الموت عُراة جياع، كُلَّما توجَّس أميرها خيفة من أحد، فينتقم من حُجَّاج بيت الله الحرام، علماً أنَّه الشريف الحسيب النسيب الذي يحكم مكَّة بحُكْم قرابته من رسول الله (ص).

وفي زحام يوم النحر لعام 608 هـ 1211م، قام رجل عراقي بالهُجُوم على شريف من بني عمِّ قتادة، وقتله، فقتلوا القاتل، الذي رُبَّها كان يُدافع عن شرفه أو ماله من تعدِّي هذا الشريف، وهُو أمر كان شائعاً جدًّا، ولكنْ؛ كالعادة بُنيت قصَّة كاملة حول عملية القتل هذه، وقيل إنَّ القاتل باطنيّ من الإسماعيليَّة اندسَّ في قافلة الحجِّ العراقي بناءً على رغبة الخليفة العبَّاسي، وأنَّه قتل ابن عـمّ الأمـير قتادة لشبهه الشديد به، بينها كان المقصود هُو الأمير، فوجدها قتادة فُرصة مُناسبة، وهاجم بجنده وعبيده الحُجَّاج العراقيين، وبدأت عملية نهب مُنظَّمة لهم. ولم يتمكَّن أمير قافلة الحجِّ العراقي علاء

خاتون بنت أيُّوب أُخت السُّلطان العادل.

ويُقال إنَّها تحمَّلتْ دَفْعَ مُعظم الغرامات التي تكبَّدتها القافلة (2).

الدِّين مُحمَّد بن الأمير ياقوت من التّصدِّي لشريف مكَّة لكونه صبياً غرًّا، فنصحه الناس بالانحياز إلى

موضع الحُجَّاج الشاميين، وكان قائد قافلة الحجِّ الشَّامي الصمصام إسهاعيل، ومعه في القافلة ربيعة

وأرسل جنده وعبيده إلى مني، فضربوا الناس بالحجارة، ورموهم بالنشَّاب، وقتلوا منهم، فدخل

أميرُ قافلة العراق خيمةَ ربيعة خاتون، واستجار بها، فأرسلت إلى قتادة مع أمير قافلة القُدُس على بـن

السلار تقول: "ما ذنب الناس؟! قد قتلتَ القاتل، وجعلتَ ذلك وسيلة لنهب المسلمين،

واستحللتَ الدماء في الشهر الحرام، وخوَّفتُهُ، فطلب مائة ألف دينار لكفِّ أذاه عن الناس، فجمعوا

له ثلاثين. "وأقام الناس ما بين قتيل وجريح ومسلوب وعربان"، ويُقال إنَّه أخذ ما قيمته ألف ألـف

دينار من الحُجَّاج العراقيين، ويُعلِّق ابن شدَّاد على ذلك بقوله: ولم ينتطح فيها عنزان"(1). ويبدو أنَّه

للمصادفة كان ضمن قافلة الحجِّ العراقي والدة جلال الدِّين زعيم إسهاعيليَّة فارس في قلعة ألموت،

أحد من بغداد لأقتلنَّ الجميع" ((3). ولكن قتادة عاد، فشعر بعظيم ما فعل من إساءة للخلافة، وعاد

يُحاول استرضاء الخليفة، فأرسل جماعة من أولاده وأصحابه إلى بغداد، "فدخلوها ومعهم السُّيُوف

مسلولة، والأكفان، فقبَّلوا العتبة، واعتذروا "(4). ويبدو أن أمر الحجاز قد بدأ يشير اهتهام السُّلطان

العادل، بعد أن استقرَّ له الأمر في الشَّام ومصر، ففي عـام 611 هــ 1214م، كـان أمـير قافلـة الحـجُّ

الشَّامي الملك المُعظَّم بن العادل، فلمَّا وصل المدينة المُنوَّرة تلقَّاه أميرها سالم، واهـتمَّ بخدمته، فهُـو لا

زال يحلم بالدعم الأيُّوبي ضدَّ أُمراء مكَّة، وعمَّا سهَّل مهمَّة سالم أن قتادة أمير مكَّة لم يُحسن استقبال

الملك المُعظَّم في حجِّه، فليَّا عاد المُعظَّم أخبر والده العادل الذي أمر بتجهيز قُوَّة عسكريَّة بقيادة

الناهض بن الجرجي توجُّهت إلى المدينة المنوَّرة؛ حيثُ استقبلهم الأمير سالم، وقصدوا جميعاً مكَّة،

واتَّهم قتادةُ الخليفةَ العبَّاسيَّ بتدبير مُؤامرة لقتله، وقال: "ما فعل هذا إلَّا الخليفة، ولـ تن عـاد

ولًّا هرب الحُجَّاج العراقيون استولى قتادة على أحمالهم وأثقالهم، ولم يترك لهم شيئاً منها،

<sup>2 -</sup> الحشيشية، برنارد لويس، ترجمة: سُهيل زَكَّار، 237.

<sup>3 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 152.

<sup>1 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 152.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 297.

<sup>1-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 110.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أَبِو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 149.

فهرب قتادة منها إلى البادية، ولم يُجرِّب المُقاومة(1)، ولكنَّه شرعان ما عاد إلى مكَّة بعد تراجع الحملة الأَيُّوبيَّة، وجمع مُؤيِّديه، وهاجم المدينة المُنوَّرة عام 612 هــ1215م، "وحاصروها أيَّاماً، وقطع ثمرها، وكثيراً من نخلها". وتصدَّى له أهل المدينة، وهزموه، فعاد نحو مكَّة (2).

وأيقن الأمير سالم أنَّه لن يستريح ما لم يقض تماماً على قُوَّة عدوِّه قتادة أمير مكَّة، وأن ذلك لـن يتمَّ إِلَّا بالدعم وبالقوى الأَيُّوبيَّة، فسار إلى دمشق مُجدَّداً، وعسكر في الكسوة، فجنَّد بعض الـترُّ كمان، وتلقَّى الدعم الأيُّوبي بفرقة يقودها الناهض بن الجرجي نفسه، وقاد سالم قُوَّاته وتوجَّه نحو الحجاز، لكنَّه تُوفِّي في الطريق عام 612 هـ 1215م، فخلفه ابن أخيه المدعو جماز، الذي قاد الحملة، وواصل المهمَّة، وضمَّ إليه في الطريق بعض الأعراب من بني طيء بقيادة حميد بن راجب، وهاجم بجميع مَنْ معه مكَّة، ولَّا تصدَّى له قتادة تمكَّن من هزيمته، فهرب قتادة إلى قلعة ينبع (3) التابعة لـ ه، فتبعـ جماز، وحاصره فيها، وبعد سلب المنطقة، ونهبها، عادوا عن الحصار، وغادرت الحملة الشَّاميَّة إلى موطنها، ولَّا أحصوا غنائمهم في الشَّام وجدوا في الأسرى نساء وصبيان من الأشراف الحَسَنيون والحُسَيْنيون، فلم يستعبدوهم، وسلَّموهم إلى أشراف دمشق؛ ليكفلوهم، ويُعيلوهم مَنْ وقفهم (4).

وفي النِّهاية؛ أدرك قتادة أنَّه سيكون الخاسر الأكبر في صراعه مع أُمراء المدينة، وإنَّه لسن يقوى على المُقاومة بوُجُود الدعم الأيُّوبي، فحاول أن يُدلي بدلوه في التقرُّب من الأيُّـوبيِّيْن، فراسل الملك الكامل صاحب مصر، لأنَّه كان يعرف أن هوى أخيه المُعظَّم صاحب دمشق مع أعدائه في المدينة، وعرض على الكامل أن يُسلِّمه قلعة ينبع، وهي قلعة الميناء الاستراتيجي للحجاز على البحر الأحمر الذي هُو صلتها بمصر، فوافق الكامل، وبالفعل؛ تسلَّم نُوَّابه عام 613 هـ قلعة ينبع، مُقابل أن بحميه من هُجُوم الأمير قاسم بن جماز، الذي تولَّى حُكْم المدينة المُنوَّرة، وكان ينتظر انتهاء مناسك الحجُّ؛ ليُهاجم مكَّة، ويحتلّها بعد أن احتلُّ وادي القرى الغني بنخيله وزرعه، وكان تابعاً لقتادة (5).

1 - ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.

ينبع، فقتله أيضاً (2).

وبذلك قام نوع من التوازن الاستراتيجي بين أُمراء مكَّة المدعومين من الفرع الأيُّوبي في مصر،

وبين أُمراء المدينة المدعومين من الفرع الأيُّوبي في دمشق، واستمرَّ هذا التوازن حتَّى وفاة الأمير قتادة

عام 617 هـ 1220م(1)، فتولَّى بعده ابنه حسن، ولمَّا تُوفِّي قتادة كان له من العمر نحو تسعين سنة،

وقيل إنَّ ابنه حسن هُو الذي قتله خنقاً، وكان قد قتل عمَّه قبله، ثُمَّ استدعى حسن أخاً لـ يُقيم في

العراقي، وكان أميرها آقباش محلوك الخليفة النَّاصر لدين الله، وقد حمل معه الخلع والتقليد من الخليفة

إلى حسن بن قتادة، فاتَّصل راجحُ بآقباش، وقال له: "أنا أكبر وُلد قتادة، وطلب توليته على

مكَّة " (3)، وتختلف الروايات حول موقف آقباش من راجح، فيقول ابن الأثير: إن أمير الحجِّ العراقي

قد وافقه (4)، بينها يقول أبو شامة: إن آقباش لم يُجبه، لكنَّ حَسَن ظنَّ أن آقباش قد ولاه مكَّة (5). على

الحالَيْن كلَيْهما؛ قام الأمير حسن بالخطوة العدائية الأولى ضدَّ أمير الحجِّ العراقي، فأغلق أبواب مكَّة،

ومنع الناس من دُخُولها، فوقعت الفتنة بين الأخوَيْن، وضجَّت الحُجَّاج، فركب آقباش مسالماً

ليُسكن الفتنة، ويُهدىء الناس، فتلقَّاه أصحاب حسن، وقاتلوه، فانهزم أصحابه عنه، وقُتل آقباش،

وحملوا رأسه إلى حسن، الذي نصبه على المسعى، وهاجم أتباع حسن الحُجَّاج لنهبهم، على مجرى

العادة، فتصدَّى لهم المبارز أمير الحجِّ الشَّامي، وخوَّف حسن من غضب الملك الكامل والملك المُعظَّم،

الأيُّوبيَّة. فازداد الاهتمام الأيُّوبي بها. وفي عام 619 هـ1222م، حجَّ من اليمن الملك المسعود أطسيس

بن الكامل، ومعه عدد وافر من الجُند، فانحاز عن طريقه حسن بن قتادة، اللذي كان في حالة من

وبعد استيلاء أطسيس بن الملك الكامل على اليمن، أصبحت الحجاز محصورة بين الأملاك

وكان للأمير حسن أخ آخر اسمه راجح يُقيم مع العَرَب بظاهر مكَّة، فليَّا قدمتْ قافلة الحبِّج

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 402.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 236.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 401.

<sup>5 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أَبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.

<sup>6 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 169.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 172.

<sup>3 -</sup> ينبع: هي ميناء المدينة المُنوَّرة على البحر الأحمر. وقال ياقوت: "أهي من المدينة على سبع مراحل، وفيها عُيُون عذاب كثيرة، وهي من أرض تهامة ". (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة ينبع).

<sup>4-</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 89 ـ 90، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 173.

<sup>5 -</sup> ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 92.

629 هـ 1232م، حملة بقيادة فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ إلى ساحل الحجاز ليحمي ينبع، لكنَّ ابن الشَّيخ دخل مكَّة، فليًّا وصل الخبر إلى الكامل، "فها أعجبه ذلك، وقال: نحنُ أمرناه أن يصل الينبع لا غير، مَنْ أمره بأَخْذ مكَّة؟"(1).

ويبدو أن السُّلطان الكامل لم يكن يُريد إثارة المشاكل في الحجاز، ولا يُريد إلَّا تأمين طريق حجِّ المصريين بالاحتفاظ بميناء ينبع، وكان يُدرك خطر آخذ مكَّة، بعد فقده خُكْم اليمن. وكانت خاوف السُّلطان الكامل في محلِّها، فقد جمع أمير مكَّة العَرَب، وأمدَّه ابن رسول حاكم اليمن بقُوَّة مسن جنده، قاموا جميعاً بالهُجُوم على ابن الشَّيخ والقُوَّات الأَيُّوبيَّة المُتواجدة في مكَّة، فهربوا من مكَّة إلى ينبع، وكاد ابن الشَّيخ أن يُؤسَر في هذه الموقعة (2)، وبدلك؛ خرجت مكَّة نهائيًا من تحت المظلَّة الأَيُّوبيَّة. وكذلك خرجت المدينة بالتدريج عن سُلطتهم، خاصَّة بعد مقتل الأمير شيحة بن سالم عام 646 هـ(3)، وتولِّي حُكْم المدينة ابنه الأكبر عيسى بن شيحة (4).

وكمُجمل للعلاقات بين السَّلطنة الأَيُّوبيَّة والحجاز نرى أن عملكتَيْ دمشق ومصر الأَيُّوبيَّتَيْن قد تنازعتا النُّفُوذ على أشراف الحجاز في مكَّة والمدينة، وتدخّل مُلُوكها في خلافات الأشراف على السُّلطة، ودعموا بعضهم ضدَّ بعض بالأموال والجُيُوش، حتَّى فرضوا سيطرتهم الكاملة على الحجاز.

الضعف بعد تفرُّق الأشراف والماليك عنه، وقام عسكر أطسيس بنهب مكَّة، "حتَّى أخذ الثياب عن الناس "(1)، وتجبَّر أطسيس بقُوَّته، وتحكَّم، فمنع علم الخليفة من الصعود إلى منى، واستهان بحُرمات مكَّة، ويُروى عن جمال الدِّين الحصيري أنَّه قال: "رأيتُ أطسيسَ قد صعد على قبَّة زمزم وهُو يرمي حمام مكَّة بالبُندُق، وغلمانه في المسعى يضربون الناسَ بالسُّيُوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السُّلطان نائم سكران"(2).

ومع كلِّ هذه الشدَّة والتجبُّر فإن الأمن الذي حقَّقه أطسيس لمَّة كان مفقوداً منها لعقود طويلة خلتْ، فبعد استيلائه عليها؛ توالت على مكَّة التجارات والقوافل، ورخصت الأسعار في أيَّام حُكْمه لها، "ولعظيم هيبته خَلَت الأشرار، وآمنت الطُّرُق والديار" (3).

وبذلك؛ انضوت الحجاز بكاملها تحت السيطرة الأثيوبيّة، فالمدينة المُنوَّرة كان صاحبها في تبعية كاملة للملك المُعظَّم صاحب دمشق، وعندما عاد مُؤرِّخ الشَّام أبو شامة من حجِّه عام 621 هـ 1224 سجَّل في ذيل تاريخه إشارة بالغة الدلالة على هذه التبعية، وقد وردت عَرَضًا وهُو يشيد باهتمام صاحب المدينة بالأمن، فعزا ذلك لتبعيَّته لصاحب الشَّام الملك المُعظَّم (4).

أمَّا مكَّة؛ فقد تبعت - بشكل مُباشر - إلى مملكة الميمن الأثيوبيَّة، وقد حلَّ في ذلك الوقت السُّلطان الأثيوبي الكامل مُشكلة كُبْرَى كان يُعاني منها الحُجَّاج، عندما أتاح دُخُول الكعبة المُشرَّفة لمَنْ أراد من الزُّوَّار، "فقد أرضى بني شيبة سَدَنَة الكعبة بهال، عوضاً عمَّا كانوا يأخذونه بإغلاقه، وفتحه لمَنْ أرادوا" (5).

ثُمَّ تبدَّلت القوى المُتحكِّمة في مناطق جوار الحجاز، فقد تُوفِّي المُعظَّم، واقتسم الملك الكامل وأخيه الأشرف عملكة دمشق، وخلعوا عنها داود بن المُعظَّم، وكذلك استولى ابن رسول على الميمن بعد وفاة أطسيس، فأراد الكامل ـ عندما زحف على الشَّام ـ أن يُثبت وُجُوده في الحجاز، فأرسل عام

<sup>1-</sup>المنصُوري، ابن نظيف ، 235.

<sup>2 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 235.

<sup>3 -</sup> راجع ترجمته في : صبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 300، والسُّلُوك ، المقريزي، 1 / 473، وتباريخ الإسلام، الذهبي، 600 ـ 699، أحداث عام 646 هـ.

<sup>4 -</sup> المُختار ، ابن الجزري، 215.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 413.

<sup>2-</sup>ذَيْلِ الرَّوضَٰتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكِّار، 20/ 253.

<sup>3 -</sup> ذَيْلَ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 254.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوْضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 274.

<sup>5 -</sup> ذَيْلَ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 279.

## الفصل الرَّابع

#### العلاقات الدوليَّة لسلطنة المماليك

المبحث الأوَّل

طائفة المماليك

الماليك هُم الرقيق الصَّالح للعمل، وغالباً؛ هُم من الفتيان والفتيات الأرقّاء. فقد كان الرّقُ نظاماً شائعاً في عالم العُصُور الوُسْطَى، وقد عرفته الدولة العَربيّة الإسلاميّة في وقت مُبكِّر من قيامها، من خلال مصدر كبير له هُو الأسر. فالأسرى نتيجة طبيعية للعمليات الحَرْبيّة الكُبْرى، التي رافقت قيام الدولة، وكما كان سائداً في عُرْف ذلك الزَّمان، فهُم سيتحوَّلون إلى رقيق، يُمكن فداؤه، أو بيعه، أو استخدامه، ومع أن الإسلام قد شجَّع بشكل كبير على عتق الرقيق، وجعل ذلك زكاة وصدقة وكفَّارة للنُّنُوب وحسنة كبيرة عند الله، فإن أعداداً كبيرة من الرقيق كانت موجُودة بحُكْم الواقع في الدولة الإسلاميّة، وخلت القُصُور والبُيُوت للخدمة، ثُمَّ استخدموا في الإدارة، وأخيراً؛ وصلوا إلى الجيش.

كان الخُلفاء العبَّاسيون أوَّل مَن استخدم الماليك بكثرة في قُصُورهم وأعالهم الرَّسْميَّة، كها استخدموهم مُقاتلين وأُمراء في الجيش (1)، وخاصَّة أيَّام الخليفة المعتصم. وكان الماليك بمُعظمهم من الجنس التركي، وذلك للتجربة العبَّاسيَّة الفاشلة مع الفُرْس، ولعدم اطمئنانهم لبني قبومهم من العرَب. وعندما قامت الدولة الطولونية في مصر (2)، اعتمدت على الماليك، واستقدمتهم بأعداد كبيرة، حتَّى قبل إنَّم بلغوا 24 ألف مملوك، وكذلك الأمر بالنِّسبة للإخشيديين والفاطميين من بعدهم، فقد اعتمدوا على الماليك في تكوين جُيُوشهم (3).

ولمَّا حَكَمَ الأَيُّوبِيُّون، وهُم أكراد الأصل، توصَّلوا للحُكْم عن طريق الدولة السلجوقية التُّركيَّة، للخروفة عن لذلك؛ نقلوا عنها الكثير من عاداتها، ونُظُمها التُّركيَّة المشرقية، وكانت القاعدة العاصَّة المعروفة عن

<sup>1 -</sup> العلاقات السِّياسيَّة بين الماليك والمغول، فايد عاشور، 11.

<sup>2 -</sup> الدولة الطولونية: أسَّسها في مصر أحمد بن طولون، وحكمت ما بين: 425 \_ 292 هـ = 868 \_ 905 م.

<sup>3 -</sup> دراسات في تاريخ الماليك، علي إبراهيم حسن، 22.

#### المماليك الأتراك:

كانت دار الحَرْب \_ الدُّول غير المُسلمة \_ هي مصدر الرقيق إلى دار الإسلام، ومع تنوُّع مصادر الرقيق الذي كان يدخل إلى الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من بلاد الصقالبة \_ من صقلية وجنرر المُتوسِّط وجنوب إيطالية وفرنسا \_ والروم \_ من يونان آسية الصُّغْرَى والبلقان وجزرها \_ والبلغار \_ من السلاف \_ والزنوج \_ من أفريقية \_ وغيرها، فإن الجنس التركي كان هُو المصدر الأكثر دفقاً للرقيق إلى الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وكانوا خاصَّة من قبائل الأتراك الوثنية التي كانت ماتزال تتنقل في أواسط أسيا.

وبدأ بروز العُنصُر التركي في الدولة العبّاسيّة إثر استقدام المعتصم للأتراك، وإكثاره منهم حتّى بنى لهم مدينة خاصّة هي سامراء، وكان اعتهاده عليهم لإبعاد العرّب والفُرْس، الذين لم يعودوا محلّ فقة لدى خُلفاء بني العبّاس، حتّى سيطر المهاليك الأتراك على الدولة العبّاسيّة، وتلاعبوا بخلفائها، واستقدموا الآلاف من بني جنسهم، إلى أن كوّنوا دولتهم السلجوقية التُركيّة، ولم يتركوا للخُلفاء إلّا الاسم. وبعد انقسام الدولة السلجوقية وانهيارها وقيام الدولة الحَوارزميّة ظهر التّتار، وتحوّلت شُعُوب وقبائل تركية بمجموعها إلى أسرى، مثل الخطا، والخوارزميّة، والقفجاق، وغيرهم، "فبيعت ذراريهم، وجلبهم التُجّار إلى الآفاق، فسيق منهم إلى ديار مصر والشّام في آخر الدولة الأيّوبيّة جُمُوع من الشّبّان، وأواسط الفتيان، فاشتراهم مُلُوك بني أيّوب بأنفس الأنهان، ليتجمّلوا بهم في الموكب، ويعتضدوا بهم في الكتائب" (1).

ومُنذُ بدايات الدولة الأيُّوبيَّة اهتمَّ مُلُوكها بشراء الماليك، والاختصاص بالنابه والقوي منهم، فبعد موت أسد الدِّين شيركوه ظهرت عماليكه -الأَسَديَّة على الساحة، وكذلك -الصَّلاحيَّة عماليك النَّاصر صلاح الدِّين. وكان الصراع بين الأَسَديَّة والصلاحية قد امتدَّ حتَّى على منصب السَّلطنة الأيُّوبيَّة، فتأييد فئة منهم أو عدمه هُو الذي يُقرِّر مَنْ سيكون الملك هُنا، أو السُّلطان هُناك. وقد تابع العادلُ سياسة أخيه النَّاصر صلاح الدِّين بالاستكثار من الماليك، وتسليمهم أهم المناصب، وكذلك تبعه أبناؤه الكامل والأشرف والمُعظَّم (2). ولمَّا استنبَّ أمر السَّلطنة للملك الصَّالح أيُّوب

1 - زبدة الفكرة، الدُّوادَار، 2.

2 - زبدة الفكرة، الدُّوادَار، 3، والعبر، ابن خلدون، 5/ 442.

ويُفسِّر ابن خلدون سبب اعتهاد الدُّول على الماليك، ويعدِّهم نعمة ساقها الله لإنقاذ الدِّين والدولة، فيقول: "حتَّى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبست أثواب البلاء والعجز، ... بها أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعُّم والتشاغل باللَّذَات.. من تكاسل الهمَم عن المناصرة .. فكان من لُطف الله مسبحانه - أنْ تدارك الإيهان... بأنْ بعث لهم من هذه الطائفة التُّركيَّة.. أُمراء حامية "(2). فالماليك - برأي ابن خلدون، المُؤرِّخ وواضع علم العمران البشري - هُم تلبية لحاجة ماسَّة في الدولة، وتعويض لنقص خطير في المُجتمع، ثُمَّ يُعطي ابن خلدون رأيه في نظام الرقيق ماسَّة في الدولة، وتعويض لنقص خطير في المُجتمع، ثُمَّ يُعطي ابن خلدون رأيه في مقادة الرق الذي الإسلامي ومُعاملة الرقيق، فيقول: "يُجلبون من دار الحَرْب إلى دار الإسلام، في مقادة الرق الذي المنك، يكمن اللَّطفُ في طيِّه... ثُمَّ يُخرج بهم التُجَار إلى مصر أرسالاً كالقطعان، فيستعرضهم أهل الملك، ويتنافسون في أثبانهم... لا لقصد الاستعباد، إنَّا هُو إكثاف للعصبية... يُنزلونهم في غُرف الملك، ويأخذونهم بالتربية، ثُمَّ يعرضونهم على الرمي والثقافة، وركض الخيل والمطاعنة، حتَّى تشتذ منهم السواعد. فإن بلغوا إلى هذا الحَدِّ، ضاعفوا أرزاقهم، ودرجوهم في مراتب الدولة، والدولة ترف المواعد. فإن بلغوا إلى هذا الحَدِّ، ضاعفوا أرزاقهم، ودرجوهم في مراتب الدولة، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب" (3).

إن ما يتحدَّث عنه ابن خلدون لا يدخل تحت وصف الرِّقِّ إلَّا من باب التسمية، وكما قال ليس هُو باستعباد أبداً، بل هُو تَبَنِّ، طالما القصد منه "إكثاف العصبية". وهُو تربية في أعلى المدارس العسكريَّة والإدارية، تُؤهِّلهم لشغل المناصب في الدولة، حتَّى قيادة الجيش والوزارة، بل وحتَّى الملك والسَّلطنة فيها بعد.

<sup>1 -</sup> في تاريخ الأثوبيِّن، أحمد العبادي، 35.

<sup>2 -</sup> العبر، ابن خلدون، 5/ 441.

<sup>3 -</sup> العبر، أبن خلدون، 5/ 441.

# الصَّالِحِ أيُّوبِ وفرقة المماليك البَحْريَّة:

جرى السُّلطان الكامل على سُنَّة والده السُّلطان العادل، وقام بتسمية ابنه الأكبر الصَّالح أَيُّوبِ وَليَّا لعهده، وتركه نائباً عنه بمصر، وتوجُّه نحو بلاده في الجزيرة(1)، عندها؛ ظنَّ الصَّالح أيُّوب أن الفُرصة قد جاءته تسعى، وأن عليه أن يُوطِّد مُلكه في مصر، فالكامل قد لا يعود إليها لسبب من الأسباب. فكان أوَّل ما فعله أن اشترى ألف مملوك، فأصبح القُوَّة الكُبْرَى في مصر بغياب والده، ممَّا دفع فخر الدِّين بن الشَّيخ الذي رتَّبه الكامل مع ولده الصَّالح "اللخوف على نفسه، ومضى إلى خدمة الكامل" (2)، وعندما وصلت هذه الأخبار مسامع السُّلطان الكامل عام 626 هـ 1229م عاد بسُرعة نحو مصر، وأبعدَ ابنهُ الصَّالح نحو الشَّرْق، وولَّى عهده إلى ابنه الآخر العادل(3). وهُنا؛ نُلاحظ توجُّهاً مُبكِّراً للناصر أيُّوب القتناء أعداد كبيرة من الماليك، والاعتباد عليهم. وعندما توصَّل الصَّالح أيُّوب إلى السَّلطنة في مصر والشَّام، كانت هُناك عدَّة طوائف من الماليك كان بإمكانه الاعتباد عليها، وخاصَّة أن منها مَنْ كان سبب مُلكه، فقد قام المهاليك الأشرفية (4) عام 637 هـ 1239م، بالقبض على الملك العادل بن الكامل، وسجنوه، واستدعوا الصَّالح أيُّوب لملك مصر (5). ولكنَّنا نجد أن الصَّالح أيُّوب قد نظر للعملية على أنَّها عملية غدر من المُمكن أنْ تتكرَّر ضدَّه، فقام بتصفية طوائف الماليك السابقة، ففي عام 638 هـ 1240م، قبض على زعهاء الأشرفية، وصفَّى جماعتهم، "ونادى مَنْ أخفى أحداً من الأشرفية نُهب ماله، وأودعوا السُّجُون "(<sup>(6)</sup>، وكذلك فعل بالأمراء الكاملية (<sup>7)</sup>. "فقد تحقَّق أنَّه لا ينتظم مُلكه إلَّا بالراحة منهم، والاستبدال بهم "(8)، وأخذ بشراء الماليك، "فاشترى من الماليك التُّرك ما لم يشتر أحد من المُلُوك" (9)، حتَّى صاروا مُعظم عسكره (10)، وبالغ في

إن نظرة سريعة إلى تركيبة الدولة الأيُّوبيَّة العرقية -رُبَّما -تُوضِّح لنا أسباب هذا التّوجُّه نحو اقتناء الماليك الأتراك. فمع أن الدولة الأيُّوبيَّة كُردية بمُلُوكها، وعدد من أُمرائها وقادتها، فإن أيًّا من مُلُوكِها لم يتصرَّف على أساس عرْقي أبداً، بل كُلُّ الوقائع تثبت العكس، فهم لم ينفصلوا عن الأتراك والتُّركهان، الذين شكَّلوا العديد الأكبر من أُمراء الدولة وجُنُود وقادة الجيش، ولم يتكتَّل الأكراد عرْقياً في مُواجهة أيِّ حادثة، حتَّى من الحوادث التي عصفت بدولتهم، بل كانوا مُنقسمين على الدوام، حتَّى إنَّنا بعد عهد السُّلطان الكامل، لا نُلاحظ لهم أيَّ وُجُود عسكري، أو سياسي، باستثناء وُجُود الأُسرة الحاكمة، والتي يُمكن أن نقول عنها في هذه المرحلة إنَّها ذات أُصُول كُردية، وهي مُنقسمة مُنصارعة باستمرار على السُّلطة. ورُبَّها كان توقُّف هجرة الأكراد نحو بلاد الشَّام وتقلُّص هجرة الـتُّركهان بـشكل كبير إليها، هُو ما دفع مُلُوك الأَيُوبيَّة نحو التعويض بواسطة شراء الماليك الأتراك(2).

وكان التقسيم الغالب لفرَق الماليك العسكريَّة في الدولة وُفقاً لمالكهم، فكانت هُناك:

1\_الماليك السُّلطانية: أو الخاصكية، وهم مماليك السُّلطان القائم في الحُكْم، فهُ و أُستاذهم ومُربِّيهم، فيُلازمونه، ويحمونه، ولهم - عادةً - أفضل الرواتب والإقطاعات، ويُرشَّحون للإمارات والإدارات، فهم محلّ ثقة السُّلطان المطلقة.

2-القرانصة: وهم مماليك السلاطين السابقين، ولهم ترتيبهم في ديوان الجيش، ورواتبهم.

3\_ عاليك الأُمراء: حيثُ كان لكُلِّ أمير فرقته العسكريَّة الخاصَّة من الماليك وُفقاً لراتبه،

4\_ أجناد الحلقة: وكان جُزء كبير منهم من الماليك، يُسجِّلون في ديوانها، ويتقاضون منه الرواتب، وهم عماليك لمُلُوك وأُمراء سابقين، أو مُتوفِّين، احترفوا الجُندية(3).

<sup>1 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365، وأخبار الأبُّوبيَّن، ابن العميد، 26.

<sup>2 -</sup> أخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 26.

<sup>3 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365.

<sup>4 -</sup> هُم من عماليك الملك الأشرف بن العادل.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 166.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1 / 405.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 274، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 405.

<sup>8 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 274.

<sup>9 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 370.

<sup>10 -</sup>النُّبُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 331.

بمُجرَّد تولِّي نيابة مصر عن أبيه بدأ بشراء أعداد كبيرة من الماليك (1)، وعندما كان نائباً في الجزيرة اصطنع وحالف فرقة الحَوَارزميَّة، وخاضوا معه كُلَّ حُرُوبه، حتَّى تحققت سلطنته في مصر والشَّام (2).

إذن؛ نستطيع القول إن الصَّالح أيُّوب - مُنذُ البداية - كانت لديه دوافعه وأسبابه حول اقتناء الماليك، والإكثار منهم، والاعتباد عليهم، ويبدو أنَّه كان يمتلك نظريَّته الخاصَّة حول الاستفادة منهم في مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة، ورُبَّها كان أساس تلك النظرية هُو قناعته المُبكِّرة بفساد الجهازَيْن السِّياسي والعسكري ورجالها في دولة أبيه، ثُمَّ تعزَّزت هذه القناعة بتخلِّي أعوانه عنه بعد أخذ دمشق منه، وأكدها القبض على أخيه الملك العادل من قبل حاشيته ومُحاته، وإنْ كان ذلك لمصلحته، لكنَّه جعله يشعر بخوف حقيقي من أن تتكرَّر العملية معه، فانتهى به الأمر إلى تسليم عماليكه مُعظم مُرافق الدولة وقيادات الجيش (3). وهُنا؛ نجد أن ذلك يجعلنا نستحضر دوافع الخليفة العبَّاسي المعتصم لجَمْع الماليك الأتراك، وتمكينهم من التحكُّم بالدولة، ولم يكن في سلطنة الصَّالح أيُّوب شاعراً كدعبل الخزاعي الذي هجا المعتصم بقوله:

لقد ضاع أمر الناس حيثُ يسوسهم وصيف وأشناس، وقد عظم الخطب وكـــل تركـــي عـــليه مهانــة فأنـــت لـــه أم، وأنـــت لـــه أب(4)

ولكنْ؛ بالتَّأْكيد، كان شعور الناس في القاهرة آيَّام الصَّالح أيُّوب كشعور الناس في بغداد زمن المعتصم؛ حيثُ تلقّوا من أذى الماليك الأتراك الشيءَ الكثير، فضجُّوا، واحتجُّوا، فبنى المعتصم لماليكه الأتراك مدينة سامراء، ونقلهم إليها5، وللأسباب نفسها، بنى الصَّالح أيُّوبُ قلعةَ الروضة، وأسكن عماليكة الأتراك بها، فكانت كسامراء مدينة عسكريَّة.

ذلك (1)، ومكّنه القضاء على الأشرفية والكاملية وخدم القصر المتحكّمين في الدولة من "تقديم عاليكه، عبازاة لهم على ثبانهم في خدمته، ولمزومهم حين فارقه الناس "(2)، فقد تخلّى عنه القادة والأكراء والأكراد، وحتى حاشيته، والتحقوا بالصالح إسهاعبل عندما استولى على دمشق عام 637 هـ 1240م، مستغلاً غياب أيُّوب عنها (3). وعندما قبض الملك النَّاصر داود على الصَّالح أيُّوب بعد أخذ دمشق منه، سجنه في قلعة الكرك، "فأقام مماليكه فيها حتى خلص من سجنه، فاجتمعوا عليه، وقد عظمت مكانتهم عنده، وكان من أمره ما كان حتى ملك مصر، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد"(4)، "فأمرهم واحداً بعد واحد، وكُلَّها قطع خبز أمير أعطاه لمملوك من مماليكه، وقدّمه، عنه الأكراد"(4)، "فأمرهم واحداً بعد واحد، وكُلَّها قطع خبز أمير أعطاه لمملوك من مماليكه، وقدّمه، حتى صار أكثر الأمراء من مماليكه لاعتهاد، عليهم، وثقته بهم "(5). واستخدم الصَّالح آيُّوب مماليكه حرساً ملكياً لأمنه الخاص، "فقد ربَّب جماعة من المهاليك التُرك حول دهليزه"(6)، "وذلك لكثرة ما جرَّب من غدر الأكراد، والخوارزميَّة، وغيرهم"(7). ولمَّا اجتمع للصَّالح آيُّوب من المهاليك ما لم يعتمع لأحد من قبله من المُلُوك "حتى عاد أكثر جيشه مماليكه"(8)، شرع في بناء قلعة على جزيرة الروضة في بحر النيل، وكانت مُتنزَّها لولله السُّلطان الكامل، وأمّها في ثلاث سنين، وانتقل ليسكن بها (9)، ونقل معه مماليكه، وأسكنهم بها على طبقاتهم. فأطلق عليهم اسم البُحْريَّة نسبة لسكنهم في بحر النيل. ويُقدِّر المقريزي أنَّهم كانوا دُون الألف مملوك.

وفي الحقيقة؛ لا نستطيع أن نعد أن هُناك سبباً واحداً أو حادثة مُعيَّنة هي التي دفعت الصَّالح أيُّوب نحو جمع أعداد كبيرة من الماليك، فقبل أن يخوض أيّ تجربة سياسيَّة أو عسكريَّة نجد أنَّه

<sup>1 -</sup> العبر، ابنِ خلدون 5/ 442.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 277.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 173 ـ 175.

<sup>4-</sup>الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 90.

<sup>5 -</sup> مُفِرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 277.

<sup>6 -</sup> المُختَصِر، أبو الفداء، 3/ 179.

<sup>7 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 370.

<sup>8 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 370.

<sup>9 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 278.

<sup>10 -</sup> الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 90.

<sup>1 -</sup> أخبار الأيوبيّين، ابن العميد، 26.

<sup>2-</sup>راجعُ: العلاقات مع فرقة الخَوَارزِمِيَّة في هذا الكتاب.

<sup>3 -</sup> راجع كتاب: قيام دولة الماليك الأولى في مصر والشَّام، أحمد مُختار العبادي، 94.

<sup>4 -</sup> تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 310. 5 - تاريخ الأُمم والمُلُوك، الطبري، 9/ 18، وتاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 311.

### المبحث الثّاني

### المماليك وآخر سلاطين الأيوبيَّة في مصر

تُوفِّي الصَّالح أيُّوب والسَّلطنة تمرُّ بمحنة قاسية، فالفرنج - بعد احتلالهم لـدمياط - يضغطون على قُوَّات الصَّالح، وهم مُصمِّمون على الزحف نحو القاهرة. وفي هذه الأوقات العصيبة تكون البلاد والجيش بحاجة ماسَّة إلى زعيم قوي الشخصية، مهاب الجانب، بقدر ما هُـو محبوب. ومع أن الصَّالح قد طال مرضه، ولأبدَّ أنَّه توقّع الموت، فلم يُوص بخليفة له، ويبدو أن ابنه الوحيد المُعظّم تُورانشاه (1) كان لا يتمتَّع بثقته، بل رُبَّها كان على غاية الاستياء منه، فتركه شبه مَنْفي في حصن كيف، وكأنَّه يعيد ما فعله الكامل معه بنفيه إلى بلاد الشَّرْق. أمَّا بقيَّة أهله من آل أيُّوب؛ فلم يُجرِّب منهم إلّا الإساءة والغدر، وخاصَّة ما جرى له منهم في أَخْذ دمشق منه، وفي سبجنه في الكَرَك. فعنــدما أحـسَّ أيُّوب بدنو خطر الموت منه، عند اضطراره للسفر مريضاً إلى الشَّام عام 645 هـ 1247م، ترك وصية من أغرب الوصايا، فقد استدعى حُسام الدِّين بن أبي على نائبه في القاهرة، وقال له: "إني مسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد، فإنْ حدث لي في سفري هذا مرض، فأعدمه، وولدي تُورانشاه لا يصلح للمُلك، فإنْ بلغكَ موتي، فلا تُسلِّم البلاد لأحد من أهلي، بل سلمها إلى الخليفة المُستعصم "(2). إنَّها وصية انتقام من كُلِّ أهله، من أخيه العادل لقتله، حتَّى لا يتمتَّع بالحياة، أو بالحُكُم من بعده، ومن ابنه، ومن أهله، ونستطيع أن نُلاحظ هُنا بأنَّ أيُّـوب لم يُدرك أنَّه زرع قُوَّة جديدة في الدولة هي التي ستُقرِّر مَنْ سيخلفه، ولن تلتفت إلى وصيَّته أبداً، وكأنَّـه لا يعرف أن الخليفة المُستعصم أضعف من أن يتسلَّم إحدى قرى العراق من أمير صغير، فكيف يتسلَّم مصر على ما فيها من القوى والطامعين؟! هذا؛ إنْ كانت هذه الوصية حقيقيَّة.

ولكن المؤكَّد في الأمر أن الصَّالح أيُّوب لم يُؤهِّل خليفة له يتولَّى السَّلطنة من بعده كما فعل السُّلطان العادل بأبنائه، وكما فعل السُّلطان الكامل بالعادل الثَّاني.

تُونِّي الصَّالِح أيُّوبِ عام 647 هـ 1207م، في ظُرُوف سياسيَّة وعسكريَّة غاينة في الخُطُّورة، فالفرنج يحتلُّون دمياط ثغر الديار المصريَّة، ويضغطون بقُوَّة عسكريَّة كبيرة تجاه القاهرة، لكنَّ الأمل كان بعدد من الرجال مثل فخر الدِّين بن الشَّيخ، الذي تولَّى قيادة الجيش، وابن أبي على نائب القاهرة، وقُوَّة عسكريَّة مُتأجِّجة لم تُخْتَبَر بعدُ في قتال حقيقي؛ هي مجموعة الماليك البَحْريَّة.

### المماليك البَحْريَّة في معركة المنصُّورة:

شكَّلت هذه المعركة الحَدَّ الفاصلَ بين الهزيمة والنصر للمُسلمين في حربهم ضدَّ الهُجُوم الفرنجي على مصر، وكان أبطالها - بالفعل - الماليكَ البَحْريَّة، مماليكَ الصَّالح أيُّسوب. فقد هاجم الفرنجُ مُعسكرَ المُسلمين في بلدة المنصُورة، "ولم يشعر المُسلمون المُقيمون بالخيام إلَّا والفرنج معهم، وكبسوا عليهم، وتفرَّق المُسلمون، وكادت تكون كسرة... ثُمَّ أغاث اللهُ المُسلمين بطائفة من الماليك الصالحية المعروفين بالبَحْريَّة... وحملوا على الفرنج حملة مُنكرة، فبدَّدوا شملهم" ((1). ورُبَّما كان استشهاد قائد الجيش فخر الدِّين بن الشَّيخ في تلك المعركة، قد أفسح المجال لتلمع أسماء قادة جُلدُد من مُقدَّمي الماليك البَحْريَّة، فقد برز اسم بيبرس البندقداري، الذي قاد الهُجُوم المُعاكس ضدَّ الفرنج، وتسبَّب بنكبتهم الكُبْرى في المنصُورة.

إن نصر معركة المنصورة الذي حقَّقه الماليك البَحْريَّة سيكون له دور كبير في شعورهم بأنَّهم قُوَّة كُبْرَى تُسيطر على الجيش بكامله، وأن دورهم قد حان ليُدلوا بدلوهم في تقرير مصير السَّلطنة والوزارة، بعد موت السُّلطان، واستشهاد قائد الجيش، وتولِّيهم إدارة دفَّة المعركة مع الفرنج.

إِن قُوَّة الماليك البَحْريَّة وانتصاراتهم تُعيدنا \_ مرَّة أُخرى \_ إلى مُقارنتهم ببني جنسهم مماليك المعتصم، الذين حقَّقوا له انتصارات عظيمة، وجعلوه يُفكِّر بتحقيق ما عجز عنه أسلافه من خُلفاء بني العبَّاس. فقد قام المعتصم مع مماليكه الأتراك بغزو الرُّوم، وأنكى بهم "انكاية عظيمة لم يُسمَع بمثلها لخليفة"، كذلك فكّر بالسَّيْر إلى الأندلس لاسترجاعها من الأمويين(2).

<sup>1 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376. 2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 223.

<sup>1 -</sup> تُورانشاه: اسم تركي من مقطعَيْن، توران: الشَّرْق، وشاه: ملك، ( شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 50 ). 2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 375.

قبيل وفاة الصَّالح أيُّوب كانت القوى الظاهرة في سلطنته مُوزَّعة ما بين ابن أبي على نانب القاهرة، وفخر الدِّين بن الشَّيخ قائد العَسْكَر، ولكنْ؛ بعد موته، ظهرت قوى جديدة على الساحة، فَجَارِيَتُهُ السابقة، التي أصبحت زوجتَهُ، ثُمَّ أرملته، شَجَرُ الدُّرِّ، دخلت بقُوَّة وحلبة الصراع على السُّلطة، مدعومة بقُوَّة تُطلُّ على الساحة لأوَّل مرَّة هي قُوَّة الماليك البَحْريَّة، وشَجَر الدُّرِ تُعدُّ منهم. وكان بديهياً في تلك الظُّرُوف العصيبة للدولة أنَّه ليس من المصلحة إظهار التنافس على الحُكْم، فَمَنْ يتصدَّى لهذا الموقع سيكون أوَّل الأهداف لبقية القوى، ومع أنّه لم يتم تداول عَلني، أو اتّفاق مُبرَم بين الأطراف، فقد كان هُناك إجماع على استدعاء تُورانشاه، وتوليته السَّلطنة.

#### تُورانشاه في مصر:

وصل تُورانشاه إلى مصر، ومعه حاشية صغيرة، لم يُحسن انتقاءها أبداً لمُرانقته إلى كرسي السَّلطنة، فهي قد تليق بأمير حصن صغير في أقصى البلاد، لكنَّها غير مُؤهَّلة، وغير قادرة على مُساندة سُلطان دولة كبيرة تمرُّ بظُرُوف صعبة جدَّاً (1).

ولمّا وصل تُورانشاه المُعسكرَ تسلّم صلاحيات والده كاملة، وإضافة إلى عدم تأهيله، أو خبرته السابقة، كان مُصاباً بمرض عصبي، وتنتابه حَرَكات غير إرادية، "فيتحرَّك كتفه الأيمن مع نصف وجهه، وكثيراً ما يولع بلحيته" (2)، ويبدو أنّه كان به خفّة، وعدم تعقُّل، أو قُدرة على إدراك أغوار السياسة، فقد جاء برغبة الجميع كحلِّ مُؤقّت للموقف المُتأذِّم، وجاء لا يملك إلَّا حقَّ الوراثة، مُقابل شخصيًّات تملك حقَّ الحُكْم الحقيقي للدولة بقُوَّة الأمر الواقع، فلم يُدرك كُلَّ هذا.

ومع أن الفرنج قد تكفّلوا بإزاحة أكبر العوائق أمام حُكْم تُورانشاه بقَتْلهم لفخر الدِّين بن الشّيخ، لكنْ؛ بقيت أمامه عقبات لا يُستهان بها، وهي تتمثّل بشَجَر الدُّرِّ زوج أبيه، وخلفها الماليك الصالحية، وكأن تُورانشاه قد شعر بالخطر الداهم من قبَل شَجَر الدُّرِّ والماليك بعد وُصُوله مُباشرة، فجعلهم همّه واهتهامه، وأخذ يُهدِّدهم، ويتوعَّدهم (3)، لكنَّه على أيِّ حال لم يُقدِّر هذا الخطر حقَّ قَدْره.

وكما اتَّفق الجميع على استدعاء تُورانشاه لتوليته السَّلطنة، اتَّفق الجميع - بعد شهر واحد - على

قتله، والتخلُّص منه (1)، وقد نُؤيِّد ابن بيبرس الدُّوادَار بقوله: " أساء تُورانشاه مع مماليك والده التدبير،

فكان كالباحث عن حتفه بظلفه"، ولكنَّنا لا نُؤيِّده عندما يُتابع فيقول: "ولعلَّه ـ لـ وأنصفهم ـ لم تمتدّ

أيدي النوائب إليه" (2)، فالماليك البَحْريَّة، الطائفة العسكريَّة الأكثر شباباً، والمُنظَّمة بشكل جيِّد جدًّا،

كانوا سيقتلون أيَّ شخص يستلم السُّلطة، فقد شعر مُقدَّمو الماليك بقُدرتهم العسكريَّة بعد اختبار

المنصورة، وبقُدرتهم على قيادة الجيش والبلاد، فاعتقدوا بِأحقِّيَّتهم بِالْحُكْم، وأهليَّتهم له، فبيبرس

البندقداري كان قائد قُوَّة الفُرسان، وهُو صاحب مأثرة المنصُورة، وأقطاي قائد الجيش العام، الذي

تصدَّى للقُوَّات الرئيسية للملك لويس، وألحق به خسائر فادحة بعد معركة المنصُورة، وكُلُّ ذلك بعد

وفاة أيُّوب، وقبيل وُصُول ابنه تُورانشاه. إن ما أظهره الماليك البَحْريَّة من قُوَّة وجَلَد في هـذه المعارك

دفعت المُؤرِّخ ابن واصل ليُلقِّبهم بداوية الإسلام، تشبيهاً بفرقة الدواية، أشرس الفرَق المُقاتلة لفرنج

فهذا العمل ضدَّ أرملة السُّلطان، مها كانت دوافعه، قد أساء كثيراً لتُورانشاه، وألَّب الناس ضدَّه،

وخاصَّة الماليك الصالحية، وأَدْخَلَ سلطنة تُورانشاه في حيِّز الخطر الحقيقي. ولكنْ؛ هل كانت

مُطالبته بالمال والمجوهرات لحاجة فعليَّة؛ لدعم الأعمال الحَرْبيَّة مثلاً؟! أم أنَّها كانت لمُجرَّد مُنضايقة

شَجَر الدُّرِّ؟! ومهما كانت الأسباب، فقد أدركت جدِّيَّة الأمر، ممَّا جعلها تهرب منه إلى القُـدْس (3).

رُبَّها كان تُورانشاه يحتاج \_ فعلاً \_ للمال الذي احتجنته شَجَر الدُّرِّ، فقد كان من غير المعقول أن يتجّنى

عليها، وخاصَّة أنَّها الساعية الكُبْرى الستقدامه من الشَّرْق، وتوليته.

كان إلحاح تُورانشاه على شَجَر الدُّرِّ، ومُطالبتها بأموال أبيه وجواهره، فاتحة الشَّرِّ بالنِّسبَة إليه،

<sup>1 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 370. 2 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3.

<sup>3 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 370.

دورانساه بي مصر.

<sup>38</sup> 

<sup>1-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3 / 180.

<sup>2 -</sup> شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.

<sup>3 -</sup> أخبار الأثيوبيَّيْن، ابن العميد، 38، وعقد الجان، العيني، 1 / 23.

ومرَّة أُخرى؛ يُذكِّرنا قتل مماليك الصَّالح آيُّوب الأنراك لابنه تُورانشاه بقتل مماليك المعتصم الأتراك لابنه اللَّتوكُل سنة 247 هـ 861 م (1)، لكنَّ العمليتَيْن التَّشابِهتَيْن ستكون لهم انسائج مُختلفة، فالماليك الأتراك في بغداد، مع أنَّهم سيطروا - تماماً - على الحُكُم، لكنَّهم فضَّلوا القيام به خلف واجهة الخُلفاء، فتلاعبوا بهم، يُقيمُونهم في الخلافة، ويعزلونهم، ثُمَّ يقتلونهم، ويسملونهم كما يُريدون.

أمَّا في مصر، فبعد قتلهم لابن أُستاذهم؛ قاموا بانقلاب عسكري كامل، وتولَّوا السُّلطة مُباشرة عبر تقلُّد أحد قادتهم لمنصب السُّلطان، وأسَّسوا - بذلك - دولة جديدة، ونظاماً جديداً.

والمُهمُّ في الأمر أن عداء الماليك لتُورانشاه لم يكن بسبب شَجَر الدُّرِ فقط، فمن المعروف أن ولاء الماليك عالباً \_ينتقل بعد وفاة أُستاذهم إلى ابنه، وهذا ما بدا للوهلة الأُولى، فقد ذهب أقطاي الأكبر (1) بنفسه إلى حصن كيفا لاستقدام تُورانشاه وفي الطريق؛ وعده تُورانشاه بأنْ يُقطعه الإسكندرية، ولمَّا لم يُنفِّذ ذلك، ثار غَضَبُ أقطاي عليه، فأخذ تُورانشاه يُهدِّده، ويتوعَّده بحَبْسه في الجبِّ، فكتم له الشَّرَ (3). وإذا أردنا أن نفتش على عذر لتُورانشاه وعدم تنفيذ وعده لأقطاي، فربًا نجد ضيق الوقت، وانشغاله بحرب الفرنج، ورُبًا كانت البداية إلحاح أقطاي، وتجاهل تُورانشاه.

ولم يكتف تُورانشاه بإثارة عداء أقطاي، بل قام بعمل أخرق آخر؛ حيثُ عزل ابن أبي علي عن نيابة القاهرة (4)، فَفَقَدَ بذلك الشخص الوحيد الذي كان من المُمكن أن يثق به، والثقل المُرجّح المذي كان قد يُؤثِّر كثيراً في صراعه القادم مع مماليك أبيه، الذين قرَّروا الإسراع في قَتْله قبل خُرُوج الفرنج من دمياط، فقد قدَّر المهاليك أنَّه لو تمَّ النصر، وانتهت العمليات العسكريَّة، فيُمكن لتُورانشاه عندها النمكُّن منهم، ورُبَّها القضاء عليهم.

فلم يتقرَّب تُورانشاه لماليك أبيه، ولم يُكرمهم كما كانوا يتوقَّعون منه بعد مُساعدتهم له في تولِّي السَّلطنة، وبعد تحقيقهم النصر على الفرنج، بل على العكس، قَرَّب حاشيته التي رافقته من حصن كيفا، وولاَّهم المناصب، وعزل مماليك أبيه، ثُمَّ أخذ يتهدَّدهم، فاتَّفقوا على قَتْله (5). لكنْ؛ ألم يشعر تُورانشاه \_ بعد كُلِّ ما فعله مع شَجَر الدُّرِّ والماليك \_ بالخطر من ناحيتهم؟ إن عدم احترازه يدلُّ على عدم شعوره بالخطر، فلو كان يُقدِّر خطر الماليك حقَّ قَدْره، لاحترز منهم، وخاصَّة مع وُجُود طوائف عسكريَّة أُخرى كان بإمكانه استمالتهم، لكنَّه لم يفعل. كما كان بإمكانه أن يعيد خطوة جَدِّه

<sup>1 -</sup> أقطاي الجمدار الصالحي، كبير الماليك الصالحية ومُقدَّمهم ( دُول الإسلام الشريفة البهية، القدسي، 25)، - ترجمته في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 188، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 190، والوافي بالوفيات، الصفدي، 9 / 317، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 24، وشذرات الذهب، ابن العاد، 5 / 255.

<sup>2 -</sup> الإعلام والتبيين، الحريري، 97.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرُّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

<sup>4 -</sup> ذَيْلُ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.

<sup>5 -</sup> أخبار الأيُّوبيِّن، ابن العميد، 38 وعقد الجمان، العيني، 1 / 23

<sup>1 -</sup> تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 323، وتاريخ الأُمم والْلُوك، الطبري، 9 / 227.

## المبحث الثَّالث

# الانقلاب العسكري للمماليك وتوليهم السلطة

كان فخر الدِّين بن الشَّيخ يُدرك \_ تماماً \_ أن أيَّام السُّلطان أيُّوب معدودة بسبب مرضه (1)، وأنَّه لا خليفة مُحتمَل له من أهل بيته، وهذا ما جعله يُفكِّر بالوُصُول إلى السُّلطة، إضافة إلى تمكُّنه من السيطرة الكاملة على مُعظم فرَق الجيش، واستهالته لشَجَر الدُّرِّ جارية السُّلطان وزوجته.

أمًّا مَنْ يقفون ضدَّ تُخطَّطاته؛ فقد كان أبرزهم ابن أبي على نائب السُّلطان في القاهرة، فقد كان كُلِّ منهما يترصَّد الآخر، ويخشى انفراده بالسُّلطة. أمَّا فرقة الماليك البَحْريَّة، وهم حرس السُّلطان وقُوَّاته الخاصَّة؛ فلم يكن من المُمكن التكهُّن بموقفهم بعد وفاة السُّلطان، ولذلك؛ دخل فخر الـدِّين في لُعبة استدعاء تُورانشاه من الشَّرْق (2)، ليخلف والده، استرضاءً لهم، على أمل أنْ يتمَّ استيلاؤه على السُّلطة مرحلياً. لكنَّ واقعة المنصُورة لم تمهله ليُتمَّ ما دبَّر، ومع ذلك؛ فقد استمرَّت الخُطَّة بدونه، لدُخُول أطراف جديدة فيها، كان أبرزها شَجَر الدُّرِّ، التي تكفَّلت بالغطاء السِّياسي للانقلاب، وقُوَّة الماليك البَحْريَّة، الذين كوَّنوا القُوَّة العسكريَّة له، بواسطتهم مُباشرة، وبواسطة فرق الماليك الأُخرى، وبقيَّة الجُند عن طريق الاتِّفاق المُباشر معهم، أو عن طريق سكوتهم على ما يجري لعدم اهتهامهم، أو أملاً باستغلال الظُّرُوف الناشئة. فكُلُّ طرف كانت له حساباته الخاصَّة، لكنَّها كُلُّها صبَّتْ ضدَّ مصلحة تُورانشاه، الذي جعل من نفسه هدفاً سهلاً بعدم أهليَّته للقيادة، وعدم تقديره لقُوَّة خصومه، واستهتاره بهم، ولكنْ؛ حتَّى بدُون كُلِّ ذلك، فها كان ليتغيَّر من الأمر شيء، فظُرُوف القتال مع الفرنج وتوزُّع السُّلطات وتشكيلة قوى الجيش القديمة والجديدة كُلُّها كانت تُحتِّم قيام تحرُّك سياسي وعسكري كبير ضدَّ السُّلطة المركزية، وتُشير إلى أنَّه قد حان أوانه، واكتملت أركانه، فهُناك قيَم جديدة، ومفاهيم جديدة، وتكتُّلات وولاءات جديدة، إنَّه انقلاب بكُلِّ نواحي الحياة، حتَّى إنَّه بدا أن كُلَّ التغييرات قد تمَّتْ في الدولة، ولم يبقَ سوى رأس السُّلطة، فلو لم يمت أيُّوب لهبَّتْ العاصفة في وجهه، وكادت أن تهبُّ لولا مرضه الشديد، فواجهها ابنه الذي سرَّع بهبوبها، لعدم

درايته بالأوضاع المستجدَّة في مصر، ويتحمَّل والده أيُّوب جُزءاً كبيراً من هذه النَّهاية المأسوية التي تعرَّض لها، فقد تركه منبوذاً في أقصى الشَّرْق، بعيداً عن أغوار السياسة ومشاكل السَّلطنة، ورُبَّما لهذا لم يعهد له بولاية العهد.

#### اغتيال السُّلطان والاستيلاء على السُّلطة:

لقد قرَّر الماليك البَحْريَّة قَتْلَ ابن أستاذهم لعدَّة أسباب، لكنْ؛ كُلّها يُمكن أن لا تُعبِّر عن الحقيقة في اتَّخاذهم لهذا القرار، وخاصَّة أنَّهم محاته وحَرَسُهُ كها هُو مفروض، وهذا أقل واجباتهم تجاه ابن أستاذهم وسُلطانهم. والغريب في الأمر أنَّهم هاجموه عَلَناً، وفي دهليزه ومجلسه، فقد دخل بيبرس، الذي ظهر مُؤخَّراً في معركة المنصُورة، مع عدد من البَحْريَّة، وضربه بالسيف، فتلقّاه تُورانشاه بيده، فقطع أصابعه، فارتبكوا، وهربوا (1). إنَّها رهبة السُّلطان، والغريب في الأمر أن يُهاجَم السُّلطان في معسكره، وضمن جنده وحُرَّاسه بهذه السُّهُولة، والأغرب من ذلك أن تُورانشاه بعد هرب المُهاجين لم يتحصَّن، ولم يهرب، ولم يتَّخذ أيَّ إجراء، ولكنَّنا لا نسدري هل حاول، ولم يتمكَّن؟! أم كان كخروف الأُضحيَّة، الذي يعرف الجميع مصيره، ويوافق الجميع على ذَبْحه؟!.

وعاد إليه البَحْريَّة يقودهم مُقدَّمهم أقطاي، فأجهز عليه من بدأ بضربه أوَّلاً، وهُو بيبرس، الضربه البندقداري بالسيف على عاتقه، فوقع قطعتَيْن "(2)، وهُنا؛ نميل لتأكيد رواية جوانفيل الذي شاهد عملية الاغتيال بنفسه، وقال: إن مَنْ قَتَلَ السُّلطان هُم حَرَسُهُ الشخصي، وقد قُدِّر عددهم بخمسائة فارس(3)، وهذا يُوضِّح الأمر، فلسيطرتهم على مقرِّ القيادة انفردوا بالسُّلطان، وقتلوه دُون أيِّ مُقاومة. ويُضيف جوانفيل: "إن فارس الدِّين أقطاي شطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده"، وهمله إلى لويس طالباً مكافأته (4)، وغالباً؛ فهذه إحدى مبالغات جوانفيل. والشخص الوحيد الذي حاول التدخُّل لحاية تُورانشاه هُو رسول الخليفة نجم الدِّين البادرائي (5)، الذي استفظع أن يُقتَلَ

2-ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 20/ 364.

<sup>3-</sup>سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 36/ 133 ـ 135.

<sup>4-</sup>سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 135.

<sup>5 -</sup> البادرائي: ( 492هـ ـ 7117م + 655 هـ ـ 1257م)، هُو نجم الدِّين عبد الله أبو مُحمَّد، يُنسَب إلى بادراء من قُرى أصفهان، ترسَّل عن الخليفة مرَّات عدَّة، وولي قضاء العراق في آخر أيَّامه. راجعْ ترجمته في: لبّ اللباب، السُّيُّوطي، مادَّة: بادراء وطبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

<sup>2 -</sup> تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 146.

سُلطان المُسلمين بهذه الطريقة، ويبدو أن صوت البادرائي كان من الضعف؛ بحيثُ أن تهديداً بسيطاً من المهاليك البَحْريَّة "بإخراق حُرمة الخلافة "(1) كان كافياً لإسكاته.

وإنْ دلَّ هذا التّصدِّي العنيف لرسول الخليفة على شيء، فهُو يدلُّ على عدم احترام كامل من قبَلِ الماليك للشرعية، فهُو عدم اعتراف ضمنيّ بها، أو جهل بموقعها، وبها تُمثِّله، فـ لا الـشرعية الأُيُّوبيَّة كان لها قيمة عندهم عندما قتلوا السُّلطان الشرعي، ولا شرعية الخلافة وهي الشرعية الكُبْرَى عندما هددوا رسول الخليفة وتُمثِّله بالقتل، إنَّها رُوح جديدة ومفاهيم جديدة لعصر بدا أنَّه يبدأ بهذه الأحداث الجسام.

## نتائج مقتل تُورانشاه في الشَّام:

1 . في الكَرَك: كان الملك المُغيث فتح الدِّين عُمر بن الملك العادل بن السُّلطان الكامل مسجوناً في قلعة الشوبك، وكان نائب الكَرك والشوبك الأمير بدر الدِّين لُؤلِّ والصوابي الصالحي، فقام النائب بعد مقتل تُورانشاه بإطلاق المُغيث، وسلَّمه قلعتَيُّ الكَرَك والـشوبك<sup>(2)</sup>، وكانتـا تتبعـان

2- في الصبيبة (3): استغلَّ الملك السعيد حسن بن عُثمان بن السُّلطان العادل بن أيُّوب (4)، ظُرُوف اختلال السُّلطة بعد مقتل تُورانشاه، وهرب من القاهرة، وعاد إلى الصبيبة سنة 648 هـ، وكـان قد ملكها بعد موت أخيه أيُّوب بن عُثمان، ثُمَّ تنازل عنها للصَّالح أيُّوب، مُقابل إقطاع في مصر (5).

3- في دمشق: بعد مقتل تُورانشاه كاتب أُمراء البَحْريَّة في مصر أُمراء دمشق لمُوافقتهم وأتباعهم (1)، فلم يُجيبوهم (2)، فقد كانت القيمرية (3) أكبر قُوَّة مملوكية عسكريَّة في دمشق، ولم يكتفوا بعدم مُوافقة البَحْريَّة، بل أرسلوا إلى النَّاصر يُوسُف الثَّاني صاحب حلب وحمص يطلبون منه الحُضُور لتسليمه دمشق، وأيَّدهم - بذلك - جمال الدِّين بن يغمور نائب دمشق، واعتقلوا جماعة من أُمراء البَحْريَّة في دمشق (4)، ويبدو أنَّهم كانوا قلَّة فيها؛ بحيثُ لم يتمكَّنوا من المُقاومة، وتبع ذلك قبض البَحْريَّة على مَنْ كان من القيمرية بمصر.

وإذا حاولنا استقراء أسباب خُرُوج دمشق على بَحْريَّة القاهرة، نجد أن أهممَّ الأسباب هُـو التنافر والتحاسد بين طوائف الماليك، وخاصَّة لعلَّة الجنسية، فالبَحْريَّة أتراك، بينها القيمرية أكراد، إضافة إلى أن البَحْريَّة في مصر قُوَّة مُسيطرة بيدها كُلّ المناصب الهامَّة من أيَّام الصَّالح أيُّوب، ويملكون القُوَّة العسكريَّة الأكثر تنظيماً وفعَّالية، بينها تعيش دمشق حالة من توازن قوى بين طوائف عدَّة من الماليك، وغيرهم، فكان من مصلحة أُمراء دمشق استمرار الحُكْم الأيُّوبي، لذلك؛ استدعوا النَّاصر يُوسُفَ من حلب، الذي وجد أن القسم الأوَّل من مشروعه وهُو مُلك الشَّام مُوحَّدة قد تحقَّق بيُسر وسُهُولة، فأخذ يستعدُّ لتحقيق القسم النَّاني، وهُـو ملـك مـصر، وكـان يُـدرك مـدى المخـاطر، والصُّعُوبة في ذلك، ولكنَّه كان مدفوعاً بهاجس إعادة الأمجاد الأَيُّوبيَّة، ورُبَّم كان لاسمه تأثير في ذلك، فأخذ يُقلِّد جَدَّه وسميّه السُّلطان صلاح الدِّين، الذي لم يكن يملك من مزاياه إلَّا الاسم، لكنْ؛ مَّا لا يُنكَر له أنَّه أعاد توحيد الشَّام من جديد.

ورُبَّما للظروف القاسية المُحيطة بالبيت الأيُّوبي التي أخذت تُهدِّده بالزوال، فقد النفَّ بنو أَيُّوبِ جميعاً حول النَّاصر يُوسُف النَّاني سُلطاناً للبيت، وطالبوا باسمه مُثِّلاً للشرعية الأيُّوبيَّة بحُكْم مصر، وإقصاء الماليك عنها.

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْنِ، أَبُو شَامَة، 185.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.

<sup>3-</sup>القيمرية: عماليك أكراد، من قلعة قيمر، وهي بين المَوصل وخِلاط. راجع: لبّ اللباب، السُّيُوطي، 112.

<sup>4 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 183

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، - إخراق حرمة الخلافة: المقصود بها خَرْق حُرمة الخلافة من خلال التعدِّي على رسول الخليفة، أو قتله، وليس كما فهمها د. أحمد مُختار العبادي بالدعوة لخلافة أخرى كالمُوحِّدين. (تاريخ الأيُّوبيَّيْن، 99)، ونرجِّح أن هذا شيء بعيد جدًّا عن تفكير الماليك في ذلك الوقت.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182

<sup>3 -</sup> الصبيبة: حصن بناه الملك العزيز عُثمان بن العادل بن أيُّوب وهُ و قلعة بانياس. ( ترجمته في: مرآة الزَّمان، ابن الجوزي، 8/ 847 ـ البداية والنَّهاية، ابن كثير 13/ 137 وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 320 والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 281 والدارس، النعيمي، 1/ 549 وشذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 136.

<sup>4 -</sup> ترجمته في : ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبوشامة، 207، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 441، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 360، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 13/ 225، وشذرات الذهب، ابن العاد، 5/ 292، وترويح القُلُوب، الزبيدي، 71. 5-المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.

وكان من جُملة ما شنَّعه الأيُّوبيُّون على الماليك في مصر ضمن حربهم الإعلامية ضـدَّهم، أن الماليك قد أطلقوا لويس ملك فرنسا الأسير طمعاً بالفدية (1)، ولكنْ؛ ما لا يُمكن لأحد نُكرانه هُو اتِّفاق الماليك مع لويس بعد إطلاق سراحه لنصرتهم ضدَّ الملك النَّاصر مُقابل تسليمه القُدْس (2).

المرحلة الانتقالية (مرحلة شَجَر الدُّرِّ):

مع أن السُّلطة أصبحت فعليًّا بأيدي الماليك بعد قتلهم لتُورانشاه، ولعدم وُجُود مُطالب قـوي بالعرش، فقد كانوا في حالة من الإرباك، لأن هذا التحوُّل الحاد لابُّد له من مُبرّرات شرعية، ولابُدّ له من إخراج قانوني يُراعي المظاهر على الأقلّ، فبرزت شَجَرُ الدُّرِّ زوجة السُّلطان الأيُّوبي المُتوفَّى، وهمي أُمّ ابنه خليل الذي مات صغيراً، ومن هُنا؛ استمدَّت شرعيَّتها، فَتَسَمَّتْ والدة خليل، وبه وقَّعت الكُتُبَ (3)، وهي - في الوقت نفسه - جارية من طبقة الماليك، وخاصَّة أنَّما كانت المُدبِّرة لملكة زوجها، وبالفعل؛ فقد قادت الدولة بكفاءة عالية مُنْذُ موته وحتَّى إعلان وفاته رَسْميًّا (4).

فقرَّر الماليك رَفْعَ شَجَر الدُّرِّ إلى سدَّة السَّلطنة، لتكون الرأس السِّياسي للدولة، لما تحمله من شرعية، ولكونها من الماليك. وقد بدت شرعيَّتها ضعيفة جدًّا خاصَّة كونها امرأة، وتـمَّ تفادي الأمر بتعيين عزّ الدِّين آيبك \_ وهُو من مَقدَّمي البَحْريّة (5) \_ قائداً للجيش \_ مُقدَّم العَسْكر ، على أنْ يتنزقّج

وإذا تساءلنا عن سبب عدم تقدُّم أقطاي كبير البَحْريَّة أو بيبرس بطل المنصُورة، فإن الأحداث القادمة ستحمل الإجابة، وتجعلنا نعتقد أن أقطاي كان يطمح بمنصب السَّلطنة، وقد أصبح \_ فعلاً \_ السُّلطان غير المُتوَّج، قبل أن يُقتَلَ غدراً (6)، أمَّا بيبرس البندقداري؛ فلأبُدُّ أنَّه كان يُدرك أن دوره لم يحنُّ بعد، وأن عليه أن يتعلُّم الكثير قبل أن يصل إلى السَّلطنة، وقد وصلها فعلاً،

الذين طال الاحتكاك بهم.

جديد لم تعتده الناس بعدُ.

وكأنَّه كان يُخطِّط للأمر من قبلُ، يقول ابن تغري بردي: "تشوَّف إلى السَّلطنة عدَّة أُمراء، فخيف من

شرِّهم، ومال الناس إلى آيبك المذكور، وهُو من أواسط الأُمراء، ولم يكن من أعيانهم . . وقالوا: هذا

للمُسلمين كانت كثيرة، والمشاكل التي تعرَّضت لها الدولة كبيرة، وأعداؤها في الشَّام النَّاصر والمُغيث

يستعدُّون أهلها ضدَّ الماليك في مصر، وعلى رأس كُلِّ هؤلاء الخليفة العبَّاسي المستعصم، الذي

اعترض على ولاية امرأة، فاضطرَّ الماليك البَحْريَّة أن يطلبوا من شَجَر اللُّرِّ التنازل عن السَّلطنة إلى

هذه العادات لوراثة العرش عبر امرأة لم يعرفها العَرَب المُسلمون، وهُنا؛ يجب أن نُلاحظ أنَّها تمَّتْ

وُفقاً لعادات غريبة، رُبَّما تتوافق مع العادات القديمة لشعوب التُّرك، أو أنَّهم اقتبسوها عن الفرنجة،

لقد كانت ولاية شَجَر الدُّرِّ قنطرة عبرت عليها السَّلطنة من بني أيُّوب إلى الماليك، علماً أن

ولكنْ؛ حتَّى يتسلَّم آيبك العرش، فمع أنَّه رجل تبقى هُناك مُشكلة، فهُو مملوك، وهذا شيء

زوجها آيبك ليُرضوا الخليفة، وهُو الشرعية الكُبْرى الضرورية لهم في تلك الظُّرُوف(2).

لم يطلُ عهد شَجَر الدُّرِّ أكثر من ثمانين يوماً في دست المملكة، فالاعتراضات على ولاية امرأة

متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته ال(1).

<sup>2 -</sup> بدائع الزهور، ابن إياس، 1/ 278، وراجع مناقشة ذلك في: مملكة حلب الأيوبيَّة، كمال بدور، 168.

<sup>1 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 4.

<sup>1 -</sup> العُدوان الصليبي، جوزيف نسيم يُوسُف، 3/ 143.

<sup>2 -</sup> راجع نص الاتِّفاقية: العُدوان الصليبي على الشَّام، جوزيف نسيم يُوسُف، 177.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.

<sup>4 -</sup> دُول الإسلام الشريفة، القدسي، 25.

<sup>5 -</sup> آيبك: الأمير عزّ الدِّين آيبك الجاشنكير التركهاني الصالحي من مُقدَّمي البَحْريَّة، وأوَّل مَنْ تملَّك من الطائفة التُّركيَّة. (
زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3، وعقد الجهان، العيني، 34، ) - والجاشنكير: هُو الذي يتذوَّق الطعام والشراب قبل السُّلطان، وهُو لفظ فارسي من مقطعَيْن. راجعُ كتاب: صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 660.

<sup>6 -</sup> زبدة الفكرة، الدُّوادَار، 10.

#### المبحث الرَّابع

الرَّدُّ الأبرُّوبي على انقلاب المماليك

استجدَّت أُمُور هامَّة هدَّدت الدولة المملوكية الوليدة، فقد استولى النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني ملك حلب على الشَّام، والتفَّ حوله البيتُ الأيُّوبي، ورفض النَّاصر سياسة الأمر الواقع، وأخذ يُطالب باسم الشرعية بحقِّ البيت الأيُّوبي في مُلك مصر، عاَّ شكَّل خطراً حقيقيًا على الماليك البَحْريَّة، الذين لجؤوا إلى حيلة قديمة، فقد تنصَّل آيبك من السَّلطنة (1)، ورفعوا لمنصب السَّلطنة صبياً صغيراً من بني أيُّوب (2)، هُو مُوسى بن النَّاصر يُوسُف بن أتسز بن الكامل، ولقَّبوه الملك الأشرف، وخطبوا له على المنابر، وسكُّوا العملة باسمه، وعيَّن آيبكُ نفسَهُ أتابكاً له، ومُقدَّماً على العَسْكَر (3)، وما كُلُّ ذلك إلَّا ليُبطلوا ادِّعاء النَّاصر يُوسُف بحقِّه الشرعي بحُكْم مصر.

ولكن الأُمُور العسكريَّة تعقَّدت، وبدأت الحلقة تضيق حول البَحْريَّة، فقد تقدَّم عسكر النَّاصر يُوسُف من دمشق، واحتلوا غزَّة، الموقع المُتقدِّم لمصر، وبوَّابة الشَّام، ففرَّ مَنْ كان بها من عسكر مصر عائدين، وعسكروا في الصالحية (4)، وأعلنوا طاعة الملك المُغيث صاحب الكرك، وخطوا له.

آنّه دليل واضح على اختلاف طوائف الماليك، واحتجاج على تفرُّد آيبك والبَحْريَّة بالسَّلطة، وعملياً؛ هُو هُجُوم مُزدوج لبني أيُّوب بالجِّاه مصر لطرد البَحْريَّة، فطرف منه هُجُوم النَّاصر العسكري، والطرف الآخر انضهام فرقة من الجيش المصري إلى المُغيث، وهي في قلب مصر.

عندها؛ شعر البَحْريَّة بالخطر يُحدق بهم، فأعلنوا أن البلاد للخليفة المُستعصم، ونادوا - بـذلك - في القاهرة وبلاد مصر (5).

1-تاريخ الخُلفاء، الشَّيُوطي، 418.

إنَّها عودة لوصية الصَّالح أيُّوب تناسوها عندما تمكَّنوا من الأمر، وتـذكَّروها عندما كـادت الأُمُور تفلت من أيديهم، وسيعودون لنسيانها قريباً، وبالوقت نفسه؛ تحرَّك البَحْريَّة عسكريًا، فقـد شكَّلوا قُوَّة فُرسان كبيرة بقيادة أقطاي، أَنْهَتْ أمر مُتمرِّدي الـصالحية، وطردت قُـوَّات النَّاصر مـن غزَّة (1)، ممَّا أثبت نيَّة البَحْريَّة على المُقاومة، وعدم الاستسلام بسُهُولة.

ولكن انتصار المهاليك على حامية غزَّة، واستردادهم لها، لم يفتَّ بعضد النَّاصر يُوسُف الشَّاني، فقد حزم أمره، وقرَّر التحرُّك نحو مصر، ويبدو أنَّه أجرى تقويهاً للموقف العامّ، فقدَّر موقعه من الأحداث التي تمر بها مصر، ولابُدَّ أنَّه لاحظ كثير من المعوقات أمام مشروعه، منها:

1 ـ أن البَحْريَّة قُوَّة عسكريَّة لا يُستهان بها، وخاصَّة بعد هُجُوم أقطاي على غـزَّة، وامـتلاكهم لقادة عسكريين لامعين.

2\_تستُّر البَحْريَّة خلف شرعية الأشرف مُوسى الأيُّوبي.

3 ـ مُحاولة كَسْبهم للخليفة بإزاحة شَجَر الدُّرِّ عن السَّلطنة، ومُناداتهم بأنَّ بلاد مصر للخليفة، وأنّ المُعزّ أيبك نائبه فيها.

4 - أَفْقَدَ البَحْرِيَّةُ النَّاصِرِ يُوسُفَ مُؤيِّديه في مصر، بعد القبض على كُلِّ مُوال له فيها. ولكنْ؛ بالمُقابل، كانت تلوح أمام النَّاصِر كثير من المُغريات تدفعه نحو مصر، منها:

1- أن الشرعية الأيُّوبيَّة - التي انقلب عليها الماليك البَحْريَّة - تُحَوِّله الحقَّ في حُكْم مصر.

2 علاقاته الجيِّدة مع الخليفة العبّاسي، والذي قدَّر أنَّه لن ينخدع بمُحاولة الماليك لاسترضائه.

3 - امتلاكه قُوَّة عسكريَّة رُبَّها لم تجتمع في الشَّام من عقود كثيرة، إضافة إلى وُجُود قائد جيشه لُؤلُو الأميني، الذي كان محلَّ ثقة كبيرة في مجال قيادة الجُيُوش، وتحقيق النصر.

4 - اجتمع مع النَّاصر يُوسُف كافَّة أُمراء ومُلُوك البيت الأيُّوبي، في إجماع لتأييد سلطنته، وهذا لم يحصل - من قبل - إلَّا نادراً.

5 أن الأشرف مُوسى - الذي أقامه البَحْريَّة في مصر - ما هُو إلَّا صبي لا يتجاوز السادسة من عمره، وهُو غطاء شرعى شفَّاف لا يخدع أحداً.

<sup>4 -</sup> الصالحية: بليدة شرق القاهرة على طريق الشَّام.

<sup>5-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 183.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 268، وعقد الجهان، العيني، 18/ 320.

ولكنْ؛ في الحقيقة، كانت هُناك أُمُور كثيرة لم يلحظها النَّاصر، وستُفاجئه بها الأحداث المتلاحقة خلال غزوه لمصر، ورُبَّها سيكون من أهمّها ظُهُور ما يُشبه العصبية المملوكية بشكل عامًّ، وعصبية علوكية تركية بشكل خاصٍّ.

سار النَّاصر بجُيُوشه من دمشق قاصداً مصر ومعه آل بيته، فهي حرب البيت الأيُّوبي ضدَّ مُغتصبين ناكرين للجميل، ولحقِّ التربية، ولم يتخلَّف عنه سوى المُغيث، الـذي استولى على الكَرَك والشوبك، وأصبحت له مشاريعه الخاصَّة.

وتولَّى قيادة جيش الشَّام شمس الدِّين لُؤلُو الأميني مُدبِّر المملكة، والذي كان من أكبر الداعين للهُجُوم على مصر، والذي كان يستهزئ بقُوَّات الماليك، ويقول: إنَّه يستطيع أخذ مصر بائتي امرأة (1).

بعد وُصُول أخبار تحرُّك النَّاصر نحو مصر، اجتمع قادة البَحْريَّة، وقرَّروا التّصدِّي فُجُوم النَّاصر، وتولَّى آيبك مهات القيادة العسكريَّة بحُكْم موقعه، وكانت استعداداته قد تنضمَّنت النَّاصر، وتولَّى آيبك مهات القيادة العسكريَّة بحُكْم موقعه، وكانت استعداداته قد تنضمَّنت النَّاصر، والتعدام عرب الصعيد، مُحاولاً الاستفادة منهم في المعركة، كذلك لجأ الى الحَرْب النَّفْسية ضدَّ النَّاصر، مُحاولاً الإيقاع بينه وبين إساعيل، أقوى شخصيَّات بني أيُّوب في الحملة، فأطلق ولدَيْ إساعيل، وكانا في سجن القاهرة، وأحسن إليها، وأشاع أنّه اتّفق مع أبيها.

وحدثت المعركة المتوقعة، ولكنْ؛ عكس كُلِّ التوقُّعات كانت أحداثها، فقد صَدَمَ جيشُ النَّاصر جيشَ الماليك بقُوَّة، جعلتهم ينهزمون نحو القاهرة، وخُيِّل للجميع أن النصر قد تمّ، فانطلقت قُوَّة الجيش الشَّامي الأساسية بقيادة جمال الدِّين بن يغمور تطارد جيش مصر حتَّى أبواب القاهرة؛ حيثُ نصب السرادق السُّلطانية، وانتُظر وصُول النَّاصر ليدخل عاصمة السَّلطنة، وصادف ذلك يوم جمعة، فخطب الأئمَّة في مساجد مصر ومسجد القلعة باسم الملك النَّاصر، ولكن الملك النَّاصر بقي في مكانه مُرابطاً، ومعه الفُقهاء والقُضاة (2)، ولشُعُوره بعزَّة النصر، فقد نشر أعلامه وسناجقه (3).

قائد جيشه ومُقدَّم البَحْريَّة فارس الدِّين أقطاي مع بضع مئات من فُرسان البَحْريَّة، فشاهدوا سناجق النَّاصر، وليس معه إلَّا حَرَسه الخاصّ، وهم الماليك العزيزية (1)، ولا ندري مَنْ منهم اتَّصل بمَنْ، المُهمُّ بالأمر أن الاتِّصال بين العزيزية والبَحْريَّة قد تمَّ، وباع العزيزية ابن أُستاذهم النَّاصر، وانضمُّوا للبَحْريَّة، فلم يجد النَّاصر أمامه إلَّا الفرار نحو الشَّام؛ لينجو بجلده (2). يقول جوانفيل، ولا ندري دقَّة مصادره: إن السُّلطان عاد إلى الشَّام مجرُوحاً في رأسه وفي يده (3)، بذلك أصبح آيبك والبَحْريَّة في حالة جيِّدة من القُوَّة، فقد استردُّوا أنفاسهم، ودُعموا بذلك أصبح آيبك والبَحْريَّة في حالة جيِّدة من القُوَّة، فقد استردُّوا أنفاسهم، ودُعموا

ولكنْ؛ حدث ما لم يكن بحسبان أحد، فقد صادف مُرُور المُعزّ أيبك سُلطان الماليك ومعم

بذلك أصبح آيبك والبَحْريَّة في حالة جيِّدة من القُوَّة، فقد استردُّوا أنفاسهم، ودُعموا بالعزيزية، وأجبروا النَّاصر على الفرار، فاندفع آيبك مع قُوَّاته باتِّجاه فرقة من جيش النَّاصر كان يقودها مُقدَّم الجيش لُوْلُو الأميني، فهزمهم، وأسر لُوْلُواً، وضرب عنقه على الفور، وكذلك فعل بضياء الدِّين القيمري أحد مُقدَّمي القيمرية، الذين سلَّموا دمشقَ للناصر (4).

هذه المعركة الغريبة بمُجرياتها تستحقُّ التوقُّف مع بعض أحداثها، وطرح بعض التساؤلات:

1 ـ لماذا توقّفت القُوّة الرئيسية للجيش الشّامي، التي هزمت البَحْريَّة، وطاردتها حتَّى العبَّاسيَّة، ولم تدخل القاهرة، وتُنهي أمر البَحْريَّة نهائيّاً؟! ولو دخلوا القاهرة ''لما بقي مع آيبك مَنْ يُقاتلهم'' (5).

ولا نجد لهم مُبرِّراً إلَّا أن تكون قد وصلتهم أنباء هروب النَّاصر نحو الشَّام، فاختلفت آراؤهم، وخافوا دُخُولَ القاهرة، علماً أنَّه من المشكوك فيه أن تصلهم الأخبار بهذه السُّرعة.

2 ـ لماذا رابط النَّاصر في الكراع عند أرض المعركة، ولم يتحرَّك خلف جيشه في مطاردته للمهزومين؟! وهُنا؛ لا نجد تفسيراً إلَّا التردُّد والخوف، فربَّما فضَّل البقاء على حُدُود الصحراء للهرب وقت الحاجة، أو دُخُول مصر بعد استتباب الأمر فيها نهائيًا.

<sup>1 -</sup> العزيزية: نسبة إلى العزيز تُحمَّد بن غازي، فهُم مماليك والد النَّاصر يُوسُف.

<sup>2 -</sup> عقد الجمان، العيني، 1/ 40.

<sup>3 -</sup> سِيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 36 / 197.

<sup>4 -</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 185.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 185.

<sup>1 -</sup> عقد الجان، العيني، 1/ 39.

<sup>2 -</sup> يقول أبو الفداء عنهم: جماعة يسيرة من المُتعمِّمين. (المُختصر، 3/ 184).

<sup>3 -</sup> عقد الجمان، العيني، 1/ 39.

صراع المماليك على الدُكْم

مشروع آيبك:

مع أن الصعاب قد عاجلت عزّ الدِّين آيبك، لكنّه كان يسير في مشروعه للحُكْم على تُخطى الْلُوك والسلاطين الأيُّوبيَّة، فقد تربَّى في مدرستهم، وعندما بدأ حُكْم آيبك بالاستقرار في مصر بعد هزيمة النَّاصر، أخذ يستفحل أمر فارس الدِّين أقطاي، الذي التفَّتْ حوله البَحْريَّة، وكثر أتباعه، وأخذ يتصرَّف كأنّه السُّلطان، ثمَّ أراد أن يدعم مركزه بغطاء شرعي لا يملكه السُّلطان آيبك نفسه، وربَّها كانت هذه الخطوة الأخيرة بتقديره قبل أن يزيح السُّلطان، ويتولَّى عرش المملكة، فقد أرسل أقطاي يخطب ابنة الملك المُظفَّر الأيُّوبي من أخيها الملك المنصُور صاحب همة، الذي وافق على الخطبة، وربَّها كان ذلك تدبيراً أيُّوبياً لتنشجيع أقطاي ضدَّ آيبك. عندها؛ طلب أقطاي من آيبك أن يُفرد له مكاناً في قلعة الجبل، ليسكن به مع عروسه (1)، والقلعة مقرُّ السُّلطان ورمزه، ولم يجد آيبك وهُويرى المُلك ينسلُّ من بين أصابعه عسوى الغدر وسيلة للخلاص من أقطاي، فدعاه إلى القلعة، وهُناك؛ ربَّب آيبك مَنْ اغتاله عام 652 هـ ولمَّا بلغ الخبر البَحْريَّة "أجعوا أمرهم على التوجُّه إلى السَّاطة بين ربَّ أمراؤهم الكبار قاصدين النَّاصر في دمشق (2)، واستنَّ آيبك سُنَّة القَتْل في الصراع على السُّلطة بين فقرَّ أمراؤهم الكبار قاصدين النَّاصر في دمشق (2)، واستنَّ آيبك سُنَّة القَتْل في الصراع على السُّلطة بين فقرَّ أمراؤهم الكبار قاصدين النَّاصر في دمشق (2)، واستنَّ آيبك سُنَّة القَتْل في الصراع على السُّلطة بين فقرَّ أمراؤهم الكبار قاصدين النَّاصر في دمشق (3)، واستنَّ آيبك سُنَّة القَتْل في الصراع على السُّلطة بين

انتهى عام 648 هـ 1250م، بأحداثه الجسام، وحاول النّاصر يُوسُف أن يتجاوز هزيمته في ذلك العام أمام الماليك المُستولين على مصر، ففي مطلع عام 649 هـ 1251م، أرسل النّاصر فرقة من عسكره إلى غزّة، فأعادت السيطرة عليها، واعتقد الماليك أنّها مُقدِّمة حملة جديدة للناصر على مصر، فخرجوا بجُيُوشهم، وعسكروا في السائح<sup>(3)</sup>. وهُنا؛ تحرَّك الخليفة المُستعصم، فأرسل رسوله البادرائي إلى الملك النّاصر صاحب الشّام، يطلب منه مُصالحة المُعزّ أيبك، وأن يتّفقا على حرب التتّار (4).

3\_ لماذا انضمَّ العزيزية للبَحْريَّة، وتركوا ابن أُستاذهم ومُربِّيهم وصاحب الفضل عليهم؟! يجتهد المقرزي فيُجيب عن هذا السُّؤال بقوله: "كان مع النَّاصر جمع كبير من مماليك أبيه العزيز، وهم أتراك يميلون للبَحْريَّة لعلَّة الجنسية"(1).

أمَّا نتائج المعركة؛ فإن أوَّ لها كان تثبُّت حُكُم الماليك لمصر، وتاليها كان توالي الخسائر على النَّاصر، فكان حاله مثل حال الزرافة التي خرجت تطلب قرنَيْن، فعادت بلا أذنَيْن، فبعد عودته للشام مهزوماً، ثار عليه الملك المُغيث، واحتلَّ نابلس في خطوة بدت وكأنَّها مُطالبة بإعادة مملكة النَّاصر داود في الكّرك، وكأن المُغيث عدَّ نفسه وريثاً شرعياً لها.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 390.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 12 - 13، وأخبار الأثُّوبيِّين، ابن العميد، 42.

<sup>3-</sup>اللُّختصر، أبو الفداء، 3/ . 186

<sup>4 -</sup> طبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

إذنْ؛ فالخليفة لم يتحرَّك حتَّى دفعه خطر التَّتَار إلى ذلك دفعاً، فالصراع بين مُلُوك الأطراف كان ـ دوماً ـ لصلحة الخليفة؛ لأنَّه يُضعف المُتصارعين، أمَّا الآن؛ فهُ و يُريدهم أقوياء لدَّعْمه ضدًّ خطر قضى على كُلِّ القوى الإسلاميَّة في الشَّرْق، ولم يبقَ للخليفة من دعم يُفكِّر فيه سوى الشَّام ومصر. وافق النَّاصر يُوسُف على القسم الأوَّل من طلب الخليفة، وهُو الصُّلح مع آيبك، وبالتَّأكيد؛ لم يُفكِّر كثيراً لا هُو ولا آيبك من بعده في القسم الثَّاني، وهُو نجدة الخليفة ضدَّ التَّتَار، ويبدو أن النَّاصر قد وَجَدَ فِي الصُّلح الذي عرضه الخليفة حلاً سهلاً لمُشكلة مُواجهته مع الماليك في مصر، التي كانت تزداد صُعُوبة في كُلِّ يوم، فالماليك اتَّصلوا بالملك لويس، أسيرهم السَّابق، وكان لا يزال في فلسطين، وطلبوا دعمه ضدَّ النَّاصر، مُقابل تسهيلات كبيرة يُقدِّمونها له في اتِّفاقية الصُّلح. كما كان النَّاصر يعيش في حالة رهاب حقيقي من مجموعات الماليك التي تُؤلِّف قسماً كبيراً من جيشه، وذلك بعد خيانة العزيزية، وهم أقربهم إليه بعد مماليكه. ففي عام 650 هــ 1252م، أرسل النَّاصر يُوسُف رسولاً خاصًّا من قبله، هُو النظام بن المولى لمُرافقة البادرائي رسول الخليفة إلى مصر لعرض شُرُوط الصُّلح على آيبك، الذي استقبل الرُّسُل، ووافق بسُرعة على الصُّلح (1)، فدوافع آيبك للصُّلح \_أيـضاً

1 \_ عدم اطمئنانه للاتِّفاق مع لويس، الذي اكتشف أنَّه يبتزُّه للحُصُول على أكبر قدر من التنازلات، دُون أن يكون قادراً على تقديم أيِّ مُساعدة.

2 - قدَّر أن اتِّصاله بلويس قد أثار الشُّعُور المُعادي ضدَّ الماليك في كُلِّ العالم الإسلامي.

3 \_ كما أدرك أن الصُّلح مع النَّاصر بسعي الخليفة هُو اعتراف من الشرعية الصُّغْرَى \_ الأَيُّوبيِّيْن، والشرعية الكُبْرَى - الخلافة - بحُكْم الماليك لمصر.

وتمَّ الصُّلح على قاعدة اقتسام البلاد؛ بحيثُ يكون للمصريين في الشَّام غزَّة والقُدْس وكُلِّ ما هُو جنوبها، وللناصر يُوسُف نابلس وكُلّ ما هُو شهالها، وعادت الرُّسُل من مصر في عام 651 هـ 1253م، ومعهم أسرى معركة الكراع من أُمراء الأَيُّوبيَّة وقادة النَّاصر (2). ويبدو أن إطلاق الأسرى

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191.

الذي قُتل فيه آيبك، ولكنْ؛ دُون أن يترتَّب على ذلك فائدة تُذكر للطرفَيْن.

كان أهم نتائج هذا الصُّلح، إنْ لم نقل إنَّه كان كُلَّها، فقد استمرَّ العداء بين الطرفَيْن، وفي عام 654 هـ

1256م، كان الصراع بين النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام والمُعزِّ أيبك المُستولي على حُكْم مصر على

أشدُّه، عندها؛ احتاج النَّاصر إلى دعم شرعية الخلافة لتأييد حقِّه وحقِّ البيت الأيُّوبي لمُواجهة آيبك،

الذي يعدُّه دخيلاً تسلُّط على الحُكْم، فأرسل النَّاصر إلى الخليفة مع رسوله المُؤرِّخ ابن العديم يطلب منه

خلعة، وقد حمل الرسول معه "تقدمة جليلة" 1. وفهم آيبك مقصد النَّاصر من الخلعة، فعدَّ نفسه لا

يقلّ عنه بشيء، وأرسل سنقر الأقرع، وهُو أحد كبار أُمراء الماليك2، يحمل هدية لا تقلُّ عن هدية

النَّاصر، ولكنَّه لم يطلب خلعه لنفسه، بل طالب بتعطيل خلعة النَّاصر، فحار الخليفة النضعيف في أمره،

وبالتَّأكيد؛ لم تكن أشخاص المُلُوك المتنازعين هي التي تُهمُّه، فأمامه في الشَّرْق التَّتَار بجحافلهم، وليس

وراءه في الغَرْب سوى النَّاصر في الشَّام وآيبك في مصر، فطلب الخليفة من ابن العديم الاعتذارَ للناصر،

وأعطاه سكِّيناً مقبضها من الحجارة الكريمة ليُقدِّمها إليه قائلاً: إنَّها "علامة منِّي في أن لـ خلعـ عنـ دي

في وقت آخر"، وعاد ابن العديم بدُّون خلعة 3. ومع أن آيبك قد فاز في الصراع مع النَّاصر عند الخليفة،

لكنَّه لم يفزْ في الصراع مع القَدَر، ففي عام 655 هـ 1257م، قُتل في أكثر الأماكن أمناً لـه، فقد قيل إنَّ

زوجته شَجَرَ الدُّرِّ قد قتلتْهُ، فأُزيح بذلك من أمام الخليفة العائق الذي يمنعه من إرسال الخلعة للملك

النَّاصر، وكسبه إلى صفُّه، في وقت حرج، فسارع الخليفة المُستعصم بإرسال الخلعة والطَّوْق والتقليد،

كما جرت العادة تماماً إلى الملك النَّاصر، وقد وصل رسول الخليفة في العام نفسه 655 هـ 1257م،

<sup>2 -</sup> سنقر الأقرع: كان مملوكاً للمُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين ( المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191 ).

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191.

<sup>1 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232-

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 10، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 385، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 186، وعقد الجمان، العيني، 18/ 339، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 415، وذيــل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 274.

المبحث السَّادس

الصراع العسكري بين المماليك والسلطنة الأيُّوبيَّة الماليك البَحْريَّة في الشَّام:

استقبل الملكُ النَّاصر في دمشق عام 652 هـ 1254م، أُمراء البَحْريَّة (1)الفارِّين، اللذين حرَّضوه لأَخْذ مصر، مع أنَّه لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض ليتحرَّك معهم (2)، فقاد جيشه من جديد، وعسكر في غور الأردن، وأرسل طلائعه بقيادة المُعظَّم تُورانشاه بن صلاح اللِّين، فاحتلُّوا غزَّة (3). وبرز آيبك مع قُوَّاته إلى العبَّاسيَّة (4)، ومع كُلّ ما بين الرجلَيْن، فقد أرسل آيبك إلى الملك النَّاصر ينصحه قاثلاً: "لا تركنْ إلى البَحْريَّة ما يجيء منهم خير"، فلم يلتفتْ له (5)، وطالبه بردِّ البلاد التي أخذها في فلسطين بالاتِّفاق مع رسول الخليفة، فوافق آيبك. وما هذه المُوافقة إلَّا إقرار بالأمر الواقع، فعسكر النَّاصر كانت حول القُدْس والبَحْريَّة في غزَّة، وقد قام الملك النَّاصر بإقطاع تلك البلاد إلى البَحْريَّة (6)، ليجعلهم بمُواجهة عدوِّهم المُشترك آيبك، وليُدافعوا عن هذه المناطق المكشوفة التي يصعب عليه الدفاع عنها.

وكان آيبك يُقيم مع قُوَّاته في مُعسكر قُرب العبَّاسيَّة مُنْذُ أن تحرَّك النَّاصر وجُيُوشه من الشَّام، ومعه فرقة الماليك العزيزية، التي انضمَّت إلى قُوَّاته، بعد أن خانوا الملك النَّاصر، وكانوا سبب هزيمته في الكراع، ويبدو أن العزيزية قد شعروا بمقدرتهم على التلاعب بمصير المُلُوك، فأخذوا يُدبِّرون للقبض على المُعزِّ أيبك، وشعر بتدبيرهم، فاحترس منهم، واستعدَّ لهم، ولمَّا تأكَّدوا من

افتضاح أمر غدرهم بآيبك، هربوا على عجل من تُحيَّمهم في العبَّاسيَّة، فصادر آيبك كُلَّ ما تركوه (1)، وقبض على بعضهم، فقتل منهم، وسجن الآخرين (2). وكان هذا بمثابة الإعلان أنَّه لن يكون هُناك أمان لسُلطان أو ملك مع وُجُود طوائف عسكريَّة قويَّة، وأنَّه لا ولاء لهذه الطوائف إلَّا ولاء الخُضُوع للقُوَّة، أو ولاء الطمع بالمكاسب.

ونُلاحظ هُنا أن النَّاصر يُوسُف لم يستفد مُطلقاً من أحداث هامَّة جرت في مصر، وكان من المُمكن أن يُوظِّفها بقليل من الدعم لمصلحته وضدَّ حُكْم الماليك، ومنها:

1 \_ تحرُّك العزيزية ضدَّ آيبك في مُعسكر العبَّاسيَّة، ومُعاولتهم القبض عليه، ولكن هذه الحَرَكَة لم تكن بتنسيق مع النَّاصر يُوسُف، ورُبَّها جاءت عَرَضَاً لتنسجم مع رغباته (3)، ولذلك لم يستفد منها، كما أنَّه لعدم التنسيق جرى التمرُّد في ظُرُوف كانت لمصلحة آيبك؛ حيثُ تمكَّن من القضاء عليها بسُهُولة. بينها كان تمرُّدهم على النَّاصر في معركة الكراع في توقيت قاتل، أدَّى إلى تغيير مجرى المعركة تماماً (4).

2\_قام الشريف حصن الدِّين بن ثعلب زعيم الأعراب في صعيد مصر عام 651 هـ 1253م، بثورة ضدَّ حُكْم آيبك، وتزامن معها عصيان والي الصعيد آيبك الأفرم الـذي دعـم تحرُّك ثعلب، ومع أن الشريف ثعلب استنجد بالناصر يُوسُف، لكنَّه لم يتدخَّل (5). وكان من المُمكن أن يستغلَّ النَّاصر تلك الثورةَ أفضلَ استغلال<sup>(6)</sup>.

3 \_ كذلك لم يستغلّ النَّاصر صراعَ آيبك مع مُقدَّم البَحْريَّة أقطاي، الذي كان يُنازع آيبكَ السُّلطةَ، ويتطاول عليه، ويمنعه من الانفراد بالحُكْم، مع تقرُّب أقطاي للبيت الأيُّوبي، ولحُطبته لبنت المُظفَّر أُخت المنصُور صاحب هماة الأيُّوبي (7). والغريب في الأمر هُنا أن آيبك كاتبَ النَّاصر يُوسُف في

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.

<sup>2-</sup>السُّلُوكَ، المقريزي، 1/ 396، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 30.

<sup>3 -</sup> يُقِال بأنَّ تحرُّك العزيزية كان بإيعاز من الملك النَّاصر. ( المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235 ).

<sup>4 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 396، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 30.

<sup>5-</sup>البيان والإعراب، المقريزي، 144، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.

<sup>6 -</sup> ويُعلِّل العبادي عدم تجاوب النَّاصر مع طلب مُساعدة ثعلب بو جُود رسول الخليفة لديه طالباً الصُّلح مع المصريين.

<sup>(</sup> في تاريخ الأيُوبيُّن، أحمد مُحتار العبادي، 118 ). 7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 388، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 190، وأخبار الأثُّوبيِّيْن، ابن العميد، 42.

<sup>1 -</sup> كان ضمن أُمراء البَحْريَّة الفارِّين إلى دمشق: بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وأزدمر السيفي، وسنقر الأشقر، وقلاوون الألفي، وسنقر الرُّومي، وبدر الدِّين بيسري، وسيف الدِّين المستعربي. ( المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235 ).

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.

<sup>3 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.

<sup>4 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.

<sup>5 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.

<sup>6 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 292، ونهاية الأرّب، النويري، 29 / 434.

أمر أقطاي، وطلب رأيه، لكنَّ النَّاصر لم يتدخَّل في الصراع بين الماليك (1)، رُبَّا لعدم تفضيله أيّ منهم على الآخر، مع أن هذا ليس من السياسة في شيء.

### الخليفة العبَّاسي يسعى في الصُّلح:

كان أكثر الناس قلقاً لصراع النّاصر مع عماليك مصر هُو الخليفة العبّاسي المُستعصم بالله، فالتتار يكتسحون العراق، وطلائعهم اقتربت من بغداد، ولم يبق من قُوَّة في العالم الإسلامي يُمكن أن تدعم الخليفة سوى الشَّام ومصر، فأعاد الخليفة تسير رسوله نجم الدِّين البادرائي لإعادة الصُّلح، وتثبيته بين النَّاصر يُوسُف والمُعزّ أيبك، وكانت الشُّرُوط الجديدة للصُّلح أن يكون الشَّام بأكمله للناصر، ومصر لآيبك (2)، ويُضيف المقريزي بنداً آخر هُو أن لا يُؤوي النَّاصر يُوسُف الماليك البَحْريَّة الفَارِّين في الشَّام (3)، ويعتقد أن هذا البند كان مُهاً جداً لآيبك في اتفاقية الصُّلح، وبدليل النتائج نرى التحريض عليه، ومن أجل تمرير هذا البند الذي لم يكن ليقبله النَّاصر يُوسُف بسهُولة، فالبَحْريَّة وكان مُحرة بيده ضدَّ آيبك، من أجل ذلك؛ وافق آيبك أن تكون الشَّام بكاملها للناصر يُوسُف. وكان محرجاً للناصر تنفيذ هذا البند من اتّفاقه مع آيبك، الذي ينصُّ صراحةً على طَرُد البَحْريَّة من وكان محرجاً للناصر تنفيذ هذا البند من اتّفاقه مع آيبك، الذي ينصُّ صراحةً على طَرُد البَحْريَّة من الشَّام، فحاول أن يخلق سبباً، فأشاع أنّه نقل إليه أنَّم يُريدون أن يفتكوا به (4). إنّه سبب مُقنع اختباره النَّاصر، فسُمعة الماليك تجعل من السهل تصديق تبدُّل ولائهم بهذه الشَّرعة، لكنْ؛ هل كان فعماحة النَّاصر، وأمكان البَحْريَّة الفتكُ بالناصر، بالرّغم من احترازه وحيطته ؟! وإذا كان ذلك تُمكناً، فلمصلحة مَنْ؟! بل، وأين مصلحتهم في ذلك؟! فالناصر أكبر شخصية مُؤهَّلة لتنفيذ انتقامهم من آيبك، ولاثبًم ما كانوا ليفرطوا به بتلك السُّهُولة (5).

كانت قد هربت من العراق تحت ضغط التَّدار، ف اتَّفقوا معهم، وتروَّج بيبرس البندقداري أحد

مُقدَّمي البَحْريَّة امرأةً منهم (6)، وذلك لتوثيق الاتِّفاق بالمصاهرة، فالبَحْريَّة بحاجة إلى قوى داعمة.

بعد أن أشاع النَّاصر كشفه لمُؤامرة البَحْريَّة، طلب منهم مُغادرة دمشق، ولكنْ؛ إلى أين؟ لم يبقَ

إلَّا مكان واحد اللتجائهم إليه، مع أنَّه أضعف من أن يُحقِّق لهم الآمال بالعودة مُنتصرين إلى مصر، إنَّه

الملك المُغيث عُمر صاحب الكَرَك الجديد. فغادر البَحْريَّة دمشقَ إلى غزَّة، وراسلوا المُغيث، وانتموا

له. ويبدو أن النَّاصر شعر بالخوف فعلاً من البَحْريَّة، ورُبَّها لم يكن بحسبانه أن ينضمُّوا للمغيث، فأراد

إدراكهم قبل وُصُولهم إلى هدفهم، فأرسل خلفهم فرقة من جيشه إلى غزَّة، فكمن لهم البَحْريَّة،

وهزموهم، ثُمَّ أمدَّ النَّاصر جيشه، وأعاد الكَّرَّةَ، فهزموا البَحْريَّة، واضطرُّوهم للهرب نحو الكرّك إلى

الملك المُغيث، الذي استقبلهم أحسن استقبال، وفرَّق فيهم الأموال الجليلة (1). وفي الحقيقة؛ أَحْسَنَ

المُغيثُ انتهازَ هذه الفُرصة، فالبَحْريَّة أداة جيِّدة يُمكنه استخدامها لتحقيق مشاريعه التوسُّعية، هذه

المشاريع التي لم يخلُ من وضعها أيٌّ من مُلُوك آل أيُّوب، وكانت خُطط البَحْريَّة والمُغيث بغاية

التطابق، فالطرفان هدفهما مصر. جهَّز المُغيث البَحْريَّة بما يلزمهم، وتحرَّك بجيشه معهم، وساروا إلى

مصر عبر غزَّة، فتصدَّى لهم آيبك بجُيُوش مصر، وألحق بهم هزيمة كبيرة(2)، "فهرب المُغيث إلى

الكَرَك في أسوأ حال، ونُهبَتْ أنقالُهُ ودهليزُهُ" (3)، وأثناء عودة البَحْريَّة مُنهزمين من مصر عام 656

هـ 1258م، لم يفنَّهُم الهُجُوم على غزَّة، وكانت فيها قُوَّات النَّاصر يُوسُف، الذي عدَّه البَحْريَّة في

مصافٍّ أعدائهم، ولَّا تصدَّى لهم قائد الحامية الشَّاميَّة الأمير مجيد اللِّين بن أبي ذكري هزموه،

وأثناء تحرُّك البَحْريَّة في جنوب الشَّام، صادفوا في غور الأردن فرقة الشهرزورية (5)، التي

وأسروه، "وقوي أمر البَحْريَّة، وأكثروا العيث، والفساد" (4).

وهذا التحالف \_ إضافة إلى مُهاجمة حامية غزَّة \_ حرَّك مخاوف النَّاصر يُوسُف، فَسَيَّرَ عساكره نحوهم،

 <sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 193.
 2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 195.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 197

<sup>5 -</sup> الشهرزورية: فرقة من الأكراد نسبة إلى بلدة شهرزور، ( راجعْ: مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مـادَّة: شـهرزور)، هربوا من العراق بعد غزو التَّتَار، فانضمُّوا للناصر في الشَّام، ثُمَّ تمَّروا عليه.

<sup>6 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

<sup>1 -</sup>النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 11.

<sup>2-</sup>النُّهُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 33، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 12.

<sup>3-</sup>السُّلُوك، المقريزي، 1 / 500.

<sup>4 -</sup> المُختصر، أبو الفدّاء، 192.

<sup>5 -</sup> يقول المقريزي: إن سبب مُغادرة البَحْريَّة لدمشق هُـو: وُصُـول الخـبر بـأنَّ الملـك النَّـاصر قـد طلـب نجـدة التَّسَار لاسترجاع مصر من الماليك، وأنَّهم قد سيَّروا إليه عشرين ألف فارس ( السُّلُوك، المقريزي، 1 / 500 ).

فَهَزَمَت البَحْرِيَّةُ عسكرَ الشَّام، فركبَ النَّاصر بنفسه، وبكامل ثقل جيشه إليهم، فهربت البَحْرِيَّةُ إلى الكرَك، والشهرزورية إلى مصر (1). ويبدو أن النَّاصر أراد حسم الموقف نهائيًّا مع البَحْريَّة، فتابع تحرُّكه يدعمه جيش حماة بقيادة الملك المنصُور، فوصلوا الكرَك، وشدَّدوا الحصار عليها، فخاف ملكها المُغيث، مع متانة حُصُون الكرَك، وقُوَّة أسوارها، وأراد حلّ القضية سلمياً مع النَّاصر، فطلب الصُّلح، ووافق النَّاصر على شرط أن يُسلِّمه البَحْريَّة، فالبَحْريَّة هُم ما يُريده النَّاصر الآن، وأمر المُغيث يُمكن أن يُؤجِّل، فحصاره غير مضمون النتائج. وبلا تردُّد؛ وافق المُغيث على تسليم حُلفاء الأمس<sup>(2)</sup>، فقد أصبحت البَحْريَّة ورقة خاسرة بيد المُغيث، الذي جرَّبهم أكثر من مرَّة، ولم يُفلحوا، بل ربَّا عدَّهم سبباً لتوريطه في المُجُوم على مصر، وما تلا ذلك من خسائر فادحة تكبَّدها. في هذه الأثناء؛ شعر بخُطُورة الموقف أحد مُقدَّمي البَحْريَّة، وربًا كان أذكاهم وأكثرهم أهليَّة للقيادة، وهُو بيبرس البندقداري، الذي يعرف بدقَّة أين يجب أن يكون في كُلِّ ظرف، فتسلَّل من قلعة الكرَك، ولجأ إلى النَّاصر يُوسُفُ، الذي استقبله، وعفا عنه، وقبض المُغيث على بقيَّة البَحْريَّة، وسلَّمهم للناصر، الذي اعتقلهم في سجن قلعة حلب، وبقوا فيه، حتَّى فتح التَّار حلبَ، وأخذوهم منها (6).

وبعد أن استقرَّ أمر المُعزّ أيبك في حُكْم مصر نتيجة لصُلحه مع النَّاصر يُوسُف، والتخلُّص من أقطاي والبَحْريَّة، قام عام 652 هـ بعَزْل الأشرف السُّلطان الأيُّوبي الصغير، الذي كان "آخر من خطب له من بيت أيُّوب بمصر "(4)، وأعلن آيبكُ نفسهُ سُلطاناً على البلاد، وهي الخطوة الأهمّ في مشروعه السِّياسي. ومع كُلِّ هذه القُوَّة التي شعر بها آيبك، فقد كان البيت الأيُّوبي يُؤرِّقه، رُبَّا لشُعُوره كمملوك سابق لهم، وهذا ما تُفسِّره ردود أفعاله المتناقضة نحو الأيُّوبيَّة، فبعد أن أنهى كُلَّ سُلطان لهم في أرض مصر، أراد أن يُزيل كُلَّ رموزهم منها، فأعفى حُسام الدِّين بن أبي علي المُلنان لهم في أرض مصر، أراد أن يُزيل كُلَّ رموزهم منها، فأعفى حُسام الدِّين بن أبي علي المُذباني (5) من مهامّه، ونزع إقطاعه، وسمح له بالسفر إلى الشَّام (6)، فاستقبله النَّاصر يُوسُف، وخلع

عليه (1)، وأعطاه إمرة خسمائة فارس (2). ولكنْ؛ وبعد كُلِّ ذلك فآيبك لا زال يشعر بعدم شرعية حُكْمه، فأراد أن يلجأ لطريقة أُخرى يستمدُّ بها بعض الشرعية، فقرَّر أن يخطب ابنة بدر الدِّين لُؤلُو صاحب الموصل ووريث البيت الأتابكي، وابنة الملك المنصور صاحب حماة سليل البيت الأيُّوبي والعائلة التقويَّة الشهيرة فيه (3)، إن تدعيم الحُكْم بالمُصاهرة عادة شائعة، وكانت مُتَّبعة لدى البيت الأيُّوبي. ولكن هذه المُصاهرة بالجملة لم تفهمها شَجَرُ الدُّرِّ زوجة آيبك على حقيقتها السياسيَّة، وعدَّتها خيانةً صريحةً لها، وعدم وفاء يُقدِّمه مُقابل السَّلطنة التي قدَّمتها له، فقتلتهُ ليلاً هي وجواريها، وأظهرت أنَّه مات.

ومع أن رواية القتل تُجمع عليها مُعظم المصادر، ولكتّه يحقّ لنا أن نسأل: ألا يُمكن أن يكون آيبك قد مات فعلاً بشكل طبيعي؟ فهذا علمياً وارد، وخاصّة في ظُرُوف الضغوط الكبيرة التي كان يعيشها سُلطان الماليك داخلياً وخارجياً، ويُؤيّد هذه الفكرة المُؤرِّخ أبو شامة، وهُو مُعاصر للحادثة، يقول: "ثُمَّ مات هذا التركهاني بداره بغتة، ولا يُعلَم سبب موته، وتعصّب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقبّوه بالملك المنصور نُور الدِّين علي، واتَّهموا زوجة التركهاني أنّها قتلته، فأعدموها" (4). وهُنا؛ لا نستطيع أن نُرجِّح، لكنَّ الموت الطبيعي يبقى احتالاً قائماً، خاصّة وأن كلَّ ما أخذه أصحاب آيبك وهاليكه المعزية (5) من دلائل على أنّه قُتل "أنَّهم فارقوه بالعثيِّ سليماً، وألقوه في الصباح عديماً "(6) وهذا ليس بالدليل القاطع، فالموت المُفاجئ كثير الحُدُوث، ولا يحتاج لمرض يسبقه، لكنّها المُفاجأة لأصحابه، وسيادة عقلية التآمر والغدر، وتفسير كلّ الأمُور على أساسها، ساهمت بإلصاق التُهمة لانتي لا ندري مدى صحَّتها - بشَجَر الدُّرِّ، ممَّا تسبَّب بقتلها على أبشع صُورة.

وبعد مقتل سُلطان الماليك الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك وزوجته شَـجَر الـدُّرِّ سـنة 655 هـ 1257م، أقام مماليكُ آيبك المعزية نُورَ الدِّين علي بن أُسـتاذهم آيبك مكانه (7)، وكـان عمـره خـس

<sup>1 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.

<sup>2 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 23.

<sup>3 -</sup> زيدة الفكرة، الدُّوادَار، 19، وعقد الجان، العيني، 1/ 118.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَّتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شُهيل زَكَّار، 20 / 387.

<sup>5 -</sup> المعزية: هُم مماليك الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك، سلطنو البنه على بعد مقتله، وأصبح مُقدَّمهم المُظفَّر قطز أتابكاً له. 6 - زيدة الفكرة، الدَّوادَار، 24.

<sup>7 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 192.

<sup>1 -</sup> زيدة الفكرة، الدُّوادَار، 34.

<sup>2 -</sup> شفاء القُلُوب، الزبيدي، 433، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 9 / 55.

<sup>3-</sup>شفاء القُلُوب، الزبيدي، 433، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 198.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.

<sup>5 -</sup> ترِجته في: ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 384.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 186.

عشرة سنة، واستمرَّ بالسَّلْطَنَة، حتَّى خلعه المُظفَّر قطز<sup>(1)</sup>، مُتـذرِّعاً بخطـر التَّتَـار، وأن التَّـصدِّي لهـم يحتاج إلى سُلطان قوي قادر

كانت كُلُّ تلك الحُرُوب والمُؤامرات والقتل والاغتيالات بين الحُكَّام في مصر والشَّام متزامنة مع هُجُوم التَّتَار على العراق، وحصارهم لبغداد بقوى هائلة، كان يسبقها دائهاً - سُمعة سيِّنة تُبشِّر بأبشع أنواع القتل الجهاعي والحرق والدمار، وكأن ما كان يجري في العراق لا علاقة له مُطلقاً بحُكَّام مصر والشَّام، فالخليفة مُحاصر في بغداد، يستغيث، فلا يُغاث، لقد جاء اليوم الذي جعل التَّار فيه الخليفة والشَّام، فالخليفة مُحاصر في بغداد، يستغيث، فلا يُغاث، لقد جاء اليوم الذي جعل التَّار فيه الخليفة المُستعصم يُسدِّد ما سلف منه ومن آبائه بحقِّ بلاد الأطراف، التي هاجها الغُزاة، فلم يُحرِّك الخُلفاء سوى رُسُلهم وخلعهم وأُمنيَّاتهم الطَّيِّة. ولكن سُقُوط بغداد عام 858 هـ 1260م، بيد التَّار كان الصرخة الأخيرة التي أرعبت النَّاصر، وأشعرتُهُ بمصيره المُرتقب، فهُ و يعرف أنَّه التالي في حسابات الصرخة الأخيرة التي أرعبت النَّاصر، وأشعرتُهُ بمصيره المُرتقب، فهُ و يعرف أنَّه التالي في حسابات التَّار، وليس أمامه إلَّا مصر، وفيها أعداؤه المهاليك، وبالتَّاكيد؛ كان ذلك يُسبِّب له حَيْرَة قاتلة.

خرج النّاصر من فعله لمُواجهة خطر التّتار، الذين اكتسحوا العراق، وتغلغلوا في الجزيرة، ورُبّها وجد لنفسه النّاصر من فعله لمُواجهة خطر التّتار، الذين اكتسحوا العراق، وتغلغلوا في الجزيرة، ورُبّها وجد لنفسه عُذراً بأنّه غير قادر عسكريًا على مُواجهة التّتار، ولكنّ السُّوال اللهمّ هُنا: أَلم يفكّر بالاتّفاق والتحالف مع الماليك في مصر ولو مُؤقّتاً وضدّ خطر مُشترك داهم؟! أم أن كُرهه لهم وحقده عليهم جعلاه يُضحّي بنفسه وبالناس وبالبلاد؟! لكنْ؛ ومن طرف آخر، هل كان الماليك في مصر مُستعدّين لهذا التعاون؟! أم أن حقدهم على النّاصر وبني أيّوب أعهم عن مُلاحظة خطر التّتار، وأن مصر ستكون واحدة من أهدافهم القريبة بعد الشّام؟!

وكان آخر ما يحتاجه النَّاصر الثَّاني في مُعسكره ببرزة هُو اكتشافه لتآمر عماليكه الخاصكية ضدَّه، فقد علم أنَّهم يُريدون القبض عليه، وتولية أخيه مكانه، فسارع النَّاصر بالهرب من المُعسكر ليلاً نحو قلعة دمشق، وتحصَّن بها، ولَّا علم عماليكه بهربه، وافتضاح أمرهم، ساروا نحو غزَّة،

وأخيراً؛ فإنّنا \_بشكل عام م \_ نستطيع أن نُلاحظ أنّه بعدما ازداد اعتباد الأثّوبيّيْن على المهاليك في المجيش ثُمّ في الإدارة، وخاصّة في عهد الصّالح أثّوب، ثُمّ تمكّن المهاليك من تحقيق النصر على حملة لويس في المنصُورة عقب وفاة أثّوب، أصبحت كلّ الدلائل تُشير إلى تنامي قُوّة المهاليك إزاء ضعف القُوّة الأثّيوبيّة، وخاصّة في الجيش، فكان من الطبيعي أَخْذهم السُّلطة بالقُوّة التي امتلكوها. وكانت العلاقات بين سلطنة المهاليك وبقايا الدولة الأثيوبيّة في الشّام مُتوتِّرة على الدوام، وحتَّى نائبة التَّار لم تكن كافية لتُقنعهم بتوحيد جُهُودهم ضدَّ عدوِّ مُشترك.

# سلاطين الماليك المُعاصرين للحُكْم الأيُّوبي في الشَّام:

- 1. شُجَر الدُّرِّ. ارملة الصَّالح ايُّوب: (648 هـ 1250 ).
- 2.1112 1250 م 657 1250 م 1250
- 3. اللك المنصور ثور الدين علي بن آيبك: (655 ـ 657 هـ 7125 ـ 1259م).
  - 4. المُلك المُظفّر سيف الدِّين قُطز: ( 765 ـ 658 هـ 9125 ـ 1260 م).
  - 5. الملك الظَّاهر رُكن الدِّين بيبرس: ( 865 ـ 676 هـ 1260 ـ 1277م ).

1 - قُطز: لفظ مغولي يعني الشّرس، ( النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 72 )، -رُبَّها كان الاسم مغوليًّا، لكنُ؛ من المعروف أن السُّلطان قُطز تركي الجنسية، وهُو ثالث مُلُوك التُّرك بمصر، واسمه محمود ابن محدود، ويُقال إنَّـه قريب جلال الدِّين خوارزم شاه، وقد أُسر في حُرُوب النت، وبيع في دمشق للسُّلطان المُعزّ أيبك. ( السُّلُوك، المقريزي، 2 /

<sup>1 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

يُرافقهم بيبرس البندقداري، الذي اتّصل من هُناك بالمُظفَّر قطز سُلطان الماليك الجديد في مصر، فدعاه للعودة، وأكرمه (1).

حتَّى أطبقوا على كامل الأناضول، ومازالوا به حتَّى اليوم، بفضل قيام الدولة العُثمانية(1). ومثـل كُـلِّ المالك الكُبْرى جاء وقت تجزَّأت فيه مملكة السلاجقة، فاستقلَّ في الأناضول(2) ابنُ عمِّ ألب أرسلان، وهُو سُلَيُهَان بن قتلمش بن سلجوق (3)، الذي احتلَّ نيقيه (4) عام 469 هـ 1077م، وجعل عاصمته في قونيه $^{(5)}$ عام 477 هـ  $^{(6)}$ م، وكان قلج أرسىلان $^{(6)}$  بـن سُسلَيْهَان هُـو أوَّل مَـنُ تـصدَّى لطلائع حملات الفرنجة في الأناضول عام 489 هـ 1096<sup>(7)</sup>.

وتوارثت الأُسرةُ المُلكَ في بلاد الرُّوم، حتَّى كانت وفاة السُّلطان ملك شاه النَّاني (8) عام 485 هـ هـ 1192م، فتولَّى السَّلطنة غياث الدِّين كيخسر و (9) الأوَّل (10) ابن قلج أرسلان الشَّاني، ولكنَّه في عام 599 هـ 1203م، تعرَّض للهُجُوم من قبَل أخيه رُكن الدِّين سُلَيُّهان، الذي حاصر، في قونية، وأخذها منه، فهرب غياث الدِّين، "وقصد الظَّاهر غازي صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولاً"، وحطَّ به الرحال ـ أخيراً ـ في القسطنطينيَّة (11)، فأحسن إليه الإمبراطُور البيزنطي، وزوَّجه ابنة أحد وجهاء البلاط. ولمَّا استولى الفرنجُ على القسطنطينيَّة عام 600 هـ 1204م، هرب كيخسرو إلى قلعة حَمِّه.

# العلاقات الدوليَّة لمملكة سلاجقة الرُّوم المبحث الأوَّل

# دولة السلاجقة في بلاد الرُّوم

شكَّل السلاجقة واحدة من أكبر الـدُّول الإسلاميَّة، التي نتجت عن تجزئة دولـة الخلافة العبَّاسيَّة. وتعود بدايات الدولة السلجوقية إلى دُقاق أحد زعاء الأتراك، الذي كان يرأس قبيلة قنق، التي ضمَّت قبائل الغزّ بأتحاد قبلي (1)، عندما كانوا في نواحي كاشَغَر. وقام ولده سلجوق بالنزوح إلى إقليم بُخارى المُسلم؛ حيثُ اعتنق مع قبيلته الإسلام السُّنِّيّ، وأخذ يغزو الـتُّرك الكُفَّار. ولمَّا حاول السُّلطان محمود الغزنوي طَرْدَهُ انتصر عليه، واحتلَّ خراسان عام 431 هـ 1039م، وتابع ابنَّهُ طغـرل بك التقدُّم غرباً، حتَّى استدعاه الخليفة والقادة الأتراك إلى بغداد عام 447 هـ 1055م، فسيطر عليها، وتحكُّم بالخليفة الضعيف القائم بأمر الله، الذي استبدل السيادة البويهية بالسيادة السلجوقية، وهُناك؛ اتَّخذ طغرل بك - لأوَّل مرَّة - لقب سُلطان.

وقد رافق السلاجقة في رحلتهم تلك جُمُوعٌ هائلةٌ من الأتراك والتُّركان، تمكَّنت في عهد السُّلطان ألب أرسلان (2)، ومن ثَمَّ؛ في عهد ابنه ملكشاه (3)، من تشكيل دولتهم الكُبْرَى، التي امتـدَّت من أفغانستان حتَّى حُدُود دولة الرُّوم البيزنطيين غرباً، وحتَّى عسقلان على حُدُود مصر جنوباً.

وعندما هزم ألبُ أرسلان عام 463 هـ 1071م الجيشَ البيزنطيَّ، في معركة ملاذكُـرد، وأسر الإمبراطُور(4)، انفتحت آسيا الصُّغْرَى بكاملها أمام الأتراك. ولأوَّل مرَّة؛ تتحرك الحُـدُود التقليديـة بين المُسلمين والبيزنطيين مئات الأميال إلى الغَرْب، ويبدأ الأتراك بعملية احتلال واستبطان مُستمرَّة،

 <sup>1 -</sup> تنتسب الدولة العُثمانية إلى عُثمان بن أَرْطُغْرُل بن شُلَيُهان، الذي أقام مملكته على أنقاض دولة سلاجقة الرُّوم، واستقلَّ في عاصمته يكي شهر، بعد مقتل آخر سلاطينهم بيد التَّتار عام 699 هـ 1300م، ثُمَّ أخذ يتوسَّع في الأناضول. راجعُ كتاب: تاريخ الدولة العلية العُثمانية، مُحمَّد فريد بك المحامي، 117 ـ 118.

<sup>2 -</sup> الأناضول: مُرتفعات آسيا الصُّغْرَى، وهي ما كان يُعرَف في العصر الأيُّوبي باسم بـ لاد الرُّوم، ونسبة إليها سُمِّي السلاجقة: سلاجقة الرُّوم، وأحياناً؛ الرُّوم.

<sup>3 -</sup> حول حياة هذا السُّلطان راجع كتاب: The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 43

<sup>4 -</sup> نيقيه: مدينة في آسية الصُّغْرَى قُرب القسطنطينيَّة.

<sup>5 -</sup> قونية: مدينة وسط الأناضول، جنوب أنقرة، يقول ياقوت: من أعظم مُدُن الإسلام بالرُّوم، وبها قسر أفلاط ون، ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قونية )، والشهير فيها -الآن -قبر الصوفي والشاعر المولى جلال الدِّين الرُّومي، صاحب الطريقة المولوية.

<sup>6 -</sup> حول حياة السُّلطان قلج أرسلان ـ Kilq Arslan راجع:

The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 50

<sup>7-</sup>راجع كتاب: بلاد الرُّك في العُصُور الوُّسْطَى، زبيدة عطا، دار الفكر العَرَبي، القاهرة / بلا.

<sup>8 -</sup> ملك شاه النَّاني: سُلطان سلاجقة الرُّوم، حَكَمَ في الفترة ما بين السنوات 1188 \_ 1192م. \_ راجعُ سلسلة نسب مُلُوك سلاجقة الرُّوم في الملاحق.

<sup>9 -</sup> كيخسرو: اسم فارسي من مقطعيّن: كيا\_خسرو.

<sup>10 -</sup> حول حياة السُّلطان KeyhÜsrev راجع:

The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 67

<sup>11 -</sup>اسمها القديم بيزنطة، بني المدينة الجديدة الإمبراطُور الرُّوماني قسطنطين الكبير، ودشَّنها عام 330 م، فدُعيَتُ بأسمه.

<sup>1 -</sup> زبدة التواريخ، الصدر الكبير، 113.

<sup>2 -</sup> السُّلطان ألب أرسلان: حَكَمَ عرشَ السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 3106 \_ 3107م.

<sup>3 -</sup> السُّلطان ملكشاه: حَكَمَ عرضُ السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 1072 \_ 1079م.

<sup>4 -</sup> راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 189.

البيزنطي في نيقية، الذي لم يُشكِّل عديداً لدولة السلاجقة، بقدر ما كان درعاً لها أمام دولة اللاتين في القسطنطينيَّة (1)، التي حرصت على تحقيق نوع من السلام بينها وبين سلطنة السلاجقة (2).

أمَّا الدافع الأكبر لكيخسر؛ فقد تجلَّى بسعيه لتحقيق حالة من التوازن في مملكته، بإقامة جناح شرقي لها يوازن به الجناح الغربي في آسيا الصُّغْرَى، سُكَّانياً وعقائدياً وجغرافياً، وإنْ عجِز كيخسرو وخلفاؤه عن تنفيذ هذا المُخطَّط، فقد نقَّذتُهُ الدولة العُثمانية، التي خلفت دولة سلاجقة الرُّوم بعد

وهذا يُفسِّر لنا السياسة المُتأرجحة ما بين السِّلْم والحَرْب والتحالف والهُجُوم التي اتَّبعتها دولة سلاجقة الرُّوم مع المالك الأنُّوبيَّة وعمالك الجزيرة عامَّة من جهة، ومع الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة وإمارات الفرنج ودولة الأرمن من جهة أُخرى.

409

وتُوفِّي رُكن الدِّين سُلَيْهَان النَّاني عام 599 هـ 1203م، فخلفه ابنه قلج أرسلان النَّالث، ولكن الأتراك الأوج - وهم مُعظم قبائل تلك البلاد - لم يقبلوا به، واستدعوا غياثَ الدِّين، فدخل قونية عام 600 هـ 1204م، واستقرَّ بها سُلطاناً لأتراك الأناضول، أو سلاجقة الرُّوم (1).

وفي هذه الفترة التي كانت تسود فيها أجواء الجهاد ضدَّ الفرنجة، ومُحاولات استنهاض همسم المُسلمين للدفاع عن مُقدّساتهم في فلسطين، نُلاحظ عدم وُجُود أيِّ فكرة لدى سلاجقة الرُّوم تخصُّ التضامن الإسلامي، علمًا أنَّهم كانوا - وقتها - قليلي الانشغال بمُحاربة البيزنطيين(2)، وسـنُلاحظ أنَّـه لن يكون للدِّين أيُّ أثر بعلاقاتهم السِّياسيَّة، أو بتحرُّ كاتهم العسكريَّة، التي بُنيت \_ أصلاً \_ على الجهاد ضدَّ البيزنطيين، واستخلاص الأرض منهم، وإعمارها بالأتراك، بل على العكس من ذلك؛ إذْ نجد أن وضعهم على الحُدُود البيزنطيَّة أخذ يسوده السلام، ومُنْذُ تولِّي كيخسرو السَّلطنة، ومع كُلِّ مشاكله مع أبناء البيت السلجوقي، نراه يلتفت للتدخُّل بقُوَّة وفاعلية باتُّجاه الجنوب الشرقي صوب الجزيرة، ومناطق السيطرة الأيُّوبيَّة.

فها هي دوافع كيخسرو في هذا الاتِّجاه؟! يعتقد بعضهم أن حالة الانقسام والتشرذم في الجزيرة، ووُجُود أعداد كبيرة من الأتراك والتُركان فيها، هي من أقوى دوافعه (3)، ويعتقد آخرون بوُجُود أطماع اقتصاديَّة لكيخسرو في سُهُول الجزيرة الخصبة، وللوُّصُول إلى نهر الفُرات كشريان مُواصلات (4). ولكنْ؛ قبل أن نُقرِّر يجب أن نُلاحظ أن العُنصُر التركي كان ينتشر في الجزيرة، وفي مساحات واسعة حولها، وصحيح أن إمارات الجزيرة مُتفرِّقة، لكنَّ حُصُونها منيعة، وتنتظم مُعظمُهَا في أحلاف عسكريَّة قويَّة، كما أن المناطق السهلية قليلة في الجزيرة العليا، ونهر الفُرات في أعاليه لا يصلح للملاحة. لكنّنا نعتقد أن اندفاع كيخسرو بمُخطَّطاته التوسُّعية تجاه الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ حلب، ورُبًّا الشَّام بكاملها، كان بدوافع أُخرى، مهَّدتْ لها علاقة الوفاق والتقارب مع الإمبراطُور

The Seljuks, Rice, P. 43.50.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 200، راجع:

<sup>2 -</sup> الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242. 3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 233.

<sup>4 -</sup> السياسة الأمنية، نورة باذياب، 671 - 675.

<sup>1-</sup>Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 275 + 664 2-Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 122

## المبحث الثَّاني

بداية العلاقات الأيُّوبيَّة مع سلاجقة الرُّوم

عندما كان السُّلطان صلاح الدِّين يُوحِّد مصرَ والشَّام، ويُركِّز اهتمامه على مُحاربة الفرنج وتحرير الأرض، كان سُلطان سلاجقة الرُّوم في الأناضول، قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان (1)، يُوزِّع مملكته على بنيه العشرة، "فقوي كُلِّ منهم في ثغره، واستقلَّ بـأمره، ودبَّ في طبعـه 

كان أكبر هؤلاء الأبناء قُطب الدِّين ملكشاه، وهُو صاحب سيواس، "أفهاجم قونيه عاصمة أبيه، وقتل أُمراءه، وأبقاه معه كالمُعتقل، واستكتبه أنَّه وَليَّ عهده، والقائم بالسَّلْطَنَة معـه، ومـن بعـده، وذهب لحصار أخيه سُلطان شاه في قيسارية، فتمكَّن الأب من الفرار إلى غياث الدِّين كيخسرو صاحب برغلو، فجمع له، وحشد، وسار معه إلى قونيه، فدخلها، ثُمَّ مات، فتولَّى غياث الدِّين فيها" (3).

ويبدو أن أبناء البيت السلجوقي - أثناء صراعهم - قد طلبوا تدخُّل السُّلطان صلاح الـدِّين، فأرسل قاضي العَسْكَر ابنَ الفرَّاش يتوسَّط بين السُّلطان قلج أرسلان وأولاده، فتردَّد يُسفر بينهم سنة، وعاد (4). وبعد وفاة صلاح الدِّين؛ كان يلوح في أُفق الشَّام أن ابنه الظَّاهر غازي صاحب حلب سيُّشكِّل أكبر قُوَّة أيُّوبية شمالية، وفي عهده؛ تطابقت السياستان الحلبية والسلجوقية، وغلب على علاقتها التحالف والتعاون. وعندما هدَّد ليون ملك الأرمن أمنَ مملكة السلاجقة، بقُوَّت العسكريَّة وحُصُونه المنبعة، والأهمّ من ذلك تمكُّنه من فتح ميناء بحري على المتوسِّط الستقطاب التجارة العالمية (5)، قدَّم الظَّاهر غازي نجدة عسكريَّة قويَّة، فيها عدد من كبار أُمراء حلب، دعمت الجيشَ السلجوقيَّ في هُجُومه على مملكة الأرمن (6).

وإزاء هذا التحالف سارع ليون ملك الأرمن \_الذي لم يكن غريباً عن معرفة توزُّع القوى

السِّياسيَّة في المنطقة، وتناقضاتها \_ فاتَّصل بالملك العادل صاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الأكبر، فوجد العادل

بهذا الطلب إقراراً بقُوَّته، وبفاعليَّتها على مُختلف الساحات، فأجابه، وراسل كيخسرو، الذي لبَّى

طلبَ العادل، وعقد الصُّلح مع ليون بشُرُوط يستفيد منها كُلُّ الأطراف(1)، وعلى ما يبدو؛ كانت

تلبية كيخسر و لطلب العادل توافق مصالحه، فقد حصل على كُلِّ ما يُريده من مملكة الأرمن، فلم يكن

في نيَّته القضاء عليها، وهذه سياسة عامَّة سنراه يُطبِّقها مع الإمارات والمالك المُجاورة؛ إذْ يكتفي منها

الدَّاخليَّة والعسكريَّة، وحتَّى يتفرَّغ لمُخطَّطات عمِّه العادل، قد انعكست على نتائج الحملة المُشتركة

السلجوقية الحلبية ضدَّ الأرمن، ونراها واضحة في أحد شُرُوط المُعاهدة معهم؛ وهُو: ردّ الأرمن

حصن بغراس للدَّاويَة، وأنْ لا يتعرَّضوا لأنطاكية (2). وإذا تمكَّن كيخسرو من تسوية كُلِّ المشاكل مع

إمبراطُور القسطنطينيَّة اللاتيني هنري دي فلاندرز، فإنَّه \_على ما يبدو \_اضطُّرَّ أن يخوض معركة مع

ثيودور لارسكارس(3) الإمبراطُور البيزنطي في نيقية، فانتصر كيخسرو، ولكنَّه قُتـل أثنـاء مطـاردة

المنهزمين (4). فخلفه أولاده الثلاثة: قلح أرسلان ( Kilij Arslan ) أخذ السَّلطنة، وعزّ الدِّين

كيكاوس (Kay-KäÜs) في ملطية، وعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ ( Kubadh - Kay ) (5) في توكات (6)،

وسُرعان ما تفرَّغوا للصراع على التركة، عمَّا أربك سياسة الظَّاهر، الذي كان يعتمد على تحالف مع

ملكة السلاجقة بشكل أساسي، فحاول التدخُّل للصُّلح بينها، لكنَّ جُهُوده كانت بلا جدوى<sup>(7)</sup>.

كما أن مصلحة الظَّاهر غازي في تحقيق حالة سلم مُستقرّ مع مملكة أنطاكية، لــــردّي أوضاعها

بالتبعية، ودفع الجزية، ورُبَّها يُفضِّلها على الاحتلال المباشر.

<sup>1-</sup>زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.

<sup>2 -</sup> زُبَّدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 29 6، - ونجد أن ابن العديم هُو المصدر الوحيد الذي ذكر شُرُوط هذه المُعاهدة.

<sup>3 -</sup> تدعو المصادر العربيّة هذا الإمبراطور باسم الأشكري، تعريباً للقبه لاسكاريس.

<sup>4 -</sup> Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 1211

<sup>5 -</sup> علاء الدِّين قيقباذ الأوَّل: ( 616 - 634 هـ و 121 ـ 1236م )، وقيقباذ اسم فارسي من مقطعَيْن: كيا - قباد، وقد ورد الاسم لدى مُعظم المُؤرِّخين العَرَب بالذال المُعجمة، على عادة العَرَب بقلب كُلِّ دال فارسية إلى ذال مُعجمة، لذلك؛ آثرتُ رَسْمَهُ بهذا السكل. وهُو ألمع سلاطينِ سلاجقة الرُّوم، قال عنه ابن العبري: " كان ممتازاً بين مُلُوك زمانه بمنظره المخيف، وذكائه المُفرط، وشخصه النّقيّ المُنزَّه عن كُلِّ الأهواء الرديئة، خلافاً لمُلُوك العَرَب المعتادين الانغاس فيها". (تاريخ الزَّمان، ترجمة: إسحق أرملة، 383).

<sup>6 -</sup> Pre Ottoman, Clud Cahen, p 121

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 3/ 217.

<sup>1 -</sup> قال ابن الأثير في أحداث عام 600 هـ: "تُوفِّي رُكن الدِّين سُلَيَّان بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سُلَيُهان بن قتلمش بن سلجوق صاحب الرُّوم، بعد أن أخذ أنقرة من أخيه، وقتله، فاجتمع الناس على ولده قلج أرسلان بن سُلَبُهَان، وكان صغيراً" . ( الكامل في التاريخ، 12/ 195).

<sup>2 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العهاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 13/ 426، - راجع التفاصيل في: بلاد التُّرك في العُصُور الوسطى، زبيدة عطا، 103.

<sup>3 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 426.

<sup>4 -</sup> الفَتْح القِسِّي، العاد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 13 / 428.

<sup>5 -</sup> هُو ميناء إياس على البحر الأبيض المُتوسِّط، وكانت أهمّ أسباب الهجمات السلجوقية ضدَّ مملكة الأرمن هي أسباب اقتصاديَّة، فالتنافس على اجتذاب خُطُوط التجارة بينها كان على أشدِّه. ( السياسة الأمنية، نورة باذياب، 667 ).

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 187، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 111، وذيل المُختصر، ابن الـوردي، 2/ 188، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 112.

وفي عام 613 هـ 1216م، أثناء اشتداد تخوُّف الظَّاهر غازي من عمِّه العادل، الذي سيطر على مصر ودمشق، وانفرد بأكبر قُوَّة أيُّوبية، راسل الظَّاهر كيكاوسَ بن كيخسرو، فأجابه، وخرج بنفسه يقود الجيش إلى أطراف الجزيرة، ليذهبا بحملة مُشتركة ضدَّ ملك الأرمن، الذي احتلَّ

مع عمَّه أجل" (1)، فها الذي جعل الظَّاهر يندم؟! هل هُو الخوف من وُقُوعه تحت سُلطة كيكاوس؟! أم شعر بأنَّه يحالف غريباً ضدَّ سُلطان البيت الأيُّوبي؟!

وفي الحقيقة نجد أن أقرب الاحتهالات إلى فكر الظّاهر غازي هُو الهاجس الذي كان يُسيطر على على كُلِّ مُلُوك الأيُّوبيَّة وأُمرائهم، وله وجهان: الوجه الأوَّل، حُبُّ التملُّك والسُّلطة والوُصُول إلى السَّلطنة المُظْمَى إنْ أمكن، والوجه الثَّاني، الحفاظ على وحدة البيت الأيُّوبي، الذي يرون فيه بالنتيجة \_ نوعاً من الحهاية والأمن المُشترك. فراسل الظَّاهر عمَّه العادلَ يستميله، ويطلب منه أن يحلف له ولوَلِيَّ عهده.

أنطاكية، وهُو \_ في الوقت نفسه \_ حليف للعادل، "فندم الظَّاهر، ورأى أن حفْظَ بيته أَوْلَى، وأن اتِّفاقه

وكان كيكاوسُ يحثُّ الظَّاهر على الخُرُوج، فضاق صدرُ الظَّاهر، فَرَأيُ عمِّه العادل لم يصلُ بعدُ، فإنْ خرج يكون قد أفسد ما بينه وبين عمِّه، وإنْ رجع عن عزمه يُفسد ما بينه وبين كيكاوس. "وحاول الاعتذار للرومي بوجه جيل، ولشدَّة فكره مرض، ومات" فلاحت الفُرصة لكيكاوس لاستغلال الظُّرُوف الناجة عن وفاة الظَّاهر غازي صاحب حلب، ومنها:

1\_ وُجُود طفل صغير بالحُكْم في حلب.

2\_معارضة بعض أُمراء حلب لأتابكية طَغْريل لملك حلب الطفل.

3\_حقد كيكاوس على الظَّاهر غازي، فقد عدَّه مسؤولاً عن توريطه بالخُرُوج بحملة عسكريَّة ضدَّ الأرمن، ثُمَّ تخلَّى عنه، والنجأ لحلف عمِّه العادل.

5\_ انشغال الملك العادل بمُجُوم الفرنج على دمياط، وجهده في تسيير النجدات من الشَّام إلى مصر.

6\_وُجُود مَنْ يُحبِّذ أتابكية الملك الأفضل لابن أخيه الظَّاهر من أُمراء حلب، والأفضل في طاعته كيكاوس، ويخطب له(1).

"لما مات الظَّاهر، وتولَّى ابنه العزيز وهُو طفل، وقع الطمع في بلاده، وَحَسَّنَ بعضُهُم للمَلك الغالب عزّ الدِّين كيكاوس بن كيخسرو سُلطان الرُّوم قصدَ حلب، وتملُّكها، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنَّه في طاعتكَ، ويخطب لكَ، والناس مائلون إليه" (2).

استدعى كيكاوسُ الأفضلَ من سُمَيساط، وأكرمه، وأقنعه أن يسير معه، ويُكاتب أُمراء حلب ليأخذها له، ويأخذ كيكاوس بلاد الأشرف. وكاتب كيكاوس علمَ الدِّين قيصر مُتولِّي قلعة دربساك، فسار إليه، وجاهر بالعصيان، ووافقه الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، وكذلك نزل إليه نجم الدِّين ألطنبغا الظاهري من بَهَسْنَا، وكان قد عصي بها<sup>(3)</sup>.

وسار كيكاوسُ والأفضلُ فأخذا رعبان، وسُلِّمت للأفضل، ثُمَّ حاصر كيكاوس قلعة بَهَسْنَا<sup>(4)</sup>، ولَّا أخذت تلّ باشر، وهي من عملكة حلب، احتفظ بها كيكاوس لنفسه، "فنفر الأفضل، وقال: هذا أوَّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمملكة الأفضل، فلمَّا رأوا ذلك خافوا" (5).

ولمَّا تحقَّق الأفضل من سُوء نيَّة عزّ الدِّين كيكاوس "أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمُرُور الزَّمان في غير فائدة، لئلا يتحصَّل مقصودة" (6). وبالفعل؛ فإنَّه خلال الوقت الدي أضاعه كيكاوس، أمام منبج وغيرها، وصلت النجدات إلى حلب، ووصلها الملك الأشرف مُوسى بقُوَّاته

<sup>1 -</sup> زُبِّدة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265 ـ 265، ـ الطنبغا: هي ألتون بفا، لفظة تركية تعني الثور الـذهبي، وهُـو مـن أُمراء الظّاهر غازي، زوَّجه إحدى سراريه، وولاَّه قلعة بَهُسْنَا، فاتَّفق مع كيكاوس، ونزل إليه ليُسلَّمه القلعة، فتسلَّمت زوجته القلعة، وعصيت بها، فعذَّبه كيكاوس أمام القلعة، ثُمَّ قتله، ولم تُسلَّم إليه، وبعد هزيمة كيكاوس؛ تـسلَّم نُـوَّابُ العزيز القلعة، وأنعم على زوجة الطنيغا وأولادها بإقطاع إعزاز (أخبار الأيُّوبيَّيْن ابن العميد، 10).

<sup>4 -</sup> يقول ابن العميد إن الذي نزل على قلعة بَهُسْنَا هُو كَيْقْبَاذ، ( أخبار الأيُّوبيَّيْن، ابن العميد، 10)، وهذا وَهم.

<sup>5 -</sup> مُفرَّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 266.

<sup>1 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

التي كان يُهاجم بها أرضَ الفرنج، عند صافيتا وقلعة الحصن، ليمنعهم من إنجاد الفرنجة النازلين

إِنْ حَرَكَة كيكاوس في هذا التوقيت الصعب بالنِّسبّة للأيُّوبية، عام 615 هـ 1218م؛ حيث الفرنج يداهمون دمياط، رُبَّما تكون هي التي دفعت اللُّؤرِّخ أبو شامة لاتِّمام كيكاوس بتحريض الفرنج على غزو دمياط (2)، فأثناء نُزُول الفرنج على دمياط، واستنفار الكامل، وطلبه النجدة من مُلُوك الشَّام، والعادل في مرج الصفر يجمع العساكر، "ورد الخبر بحركة الملك الغالب كيكاوس السلجوقي سُلطان الرُّوم إلى البلاد الشَّاميَّة "(3)، ومَّا لا شكَّ فيه أن كيكاوس عرف بغزو الفرنج، واستغلَّ الفُرصة، ولم يُحِرِّكه أيُّ وازع ديني لُساعدة الأيُّوبيَّة، أو حتَّى للوُقُوف على الحياد، بل نجد أنَّه هجم يُريد اقتسام الغنيمة. "وكان كيكاوس يُريد اللُّك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصُّل إليه" (4). ثُمَّ سار كيكاوس، وفتح منبج، وأمام هذا الهُجُوم استنجد طَغْريل أتابك حلب بالعادل، الـذي رغم اهتهامه الكبير بنجدة ابنه الكامل ضدَّ الفرنج في مصر، فإنَّه أوعز لابنه الأشرف بالتحرُّك لانجاد حلب، وانضمَّ إليه مانع ابن حديثة أمير العَرَب.

"فليًّا سمع عزّ الدِّين كيكاوس بذلك، وكان بمنبج، ولَّى منهزماً، وقد ملا الرعب قلبه، ورحل الأشرف متبعاً له، يتخطُّف أطراف عسكره، فأخذ تـلّ بـاشر، ورعبـان، وتـلّ خالـد، وبُـرج الرصاص، وأعطى الجميع لابن أُخته الملك العزيز" (5). "وسيَّر كيكاوس ألف فارس هُم نخبة عسكره، فوقع عليهم العَرَب، واستباحوهم قتلاً وأسراً، فهرب كيكاوس" (6). وبعد أن استردَّ الملك الأشرف كُلَّ البلاد عاد دُون أن يستثمر انتصاره، وذلك لوصُول خبر موت أبيه السُّلطان العادل(٢)،

1 - ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 113، وقد وهمت د. باذياب؛ حيثُ اعتقدت أن أبو شامة امَّهم كَيْقُبَاذ، ( السياسة الأمنية للسُّلطان كَيْقُبَاذ، د. نوره باذياب، 81 م)، بينها هُو - في الحقيقة - قد أَنهم كيكاوس، مع أن نـصُّ أبي شامة واضح؛ إذْ يقول في أحداث عام 615 هد: "وكانت وفاة كيكاوس في شوَّال، وهُدو الذي أَطْمَعَ الفرنج في دمياط". راجع. السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الأَّوَّل، وأثرها علي التقدُّم الاقتصادي لبلاده، د. نـوره عبـد الله باذياب، مجلَّة المُؤرِّخ العَرَى، العدد النَّامن، المجلَّد الأوَّل، مارس 2000، اتَّحاد المُؤرِّخين، القاهرة.

وفي الحقيقة؛ نستطيع أن نستنتج أنَّه كان هُناك أكثر من سبب لعودة الأشرف عن مطاردة كيكاوس

صُورة الرُّعب التي صوَّر بها بعض المُؤرِّخين تراجُعَ كيكاوس مُبالغاً فيها، فالأشرف لم يجرؤ على

الاصطدام بجيش كيكاوس، الذي لم تمسّه الهزيمة، بل كان يقوم بأعمال عسكريَّة محدودة خلف خطِّ

تقدُّمهم داخل البلاد المصريَّة، ورُبَّما للشام، ولا أدري ما هُـو سند المُـوِّخ الدمشقي أبـو شامة، أو

بعدوِّه القديم الأشكري<sup>(2)</sup> قاتل أبيه غياث الدِّين كيخسرو، فقد أمسك به جماعة من الـتُّركمان أثناء

خُرُوجه للصيد، وحملوه إلى كيكاوس، ففدى نفسه بأموال طائلة، "وتسليم قبلاع وبالاد لم يملكها

مصادره، عندما اتَّهم كيكاوس بأنَّه "هُو الذي أطمعَ الفرنج في دمياط"؟!(1).

1 - لم تكن الهزيمة كاملة لكيكاوس، فمُقدِّمة جيشه - فقط - هي التي هُزمَت، ورُبَّا تكون

2 ـ الأخبار الواردة من مصر عن أَخْذ الفرنج لدمياط؛ الثغر الاستراتيجي لمصر، وإمكانية

وفي عام 611 هـ 1214 م، عوَّض عزّ الدِّين كيكاوس تراجُعة عن الجزيرة وحلب بظفره

2 - اللّشكري: أو الأشكري هُو يثودور لاسكاريس، ثاني أباطرة البيزنطيين في نبقية، وقد أسَّس هذه الدولة الإمبراطور قسطنطينُ الحادي عشر عام 1204م 600 هـِ، عندما استولى اللاتين على القسطنطينيَّة في الحملة الرابعة، وخلفه ثبودور الأوَّل لاسكاريس ( 4120 ـ 1222 ). وتمكَّن خلفه ميخائيل الثَّامن عام 1261م، من العودة إلى القسطنطينيَّة، وطـرد

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 225.

المُسلمون قبل ذلك قطُّ ١٠(3).

بعد هزيمته، وليس موت العادل فقط، منها:

تراجع كيكاوس، بأنْ يتخطَّف المُتخلِّفين، وأطراف العَسْكَر.

<sup>2 -</sup> أبو شامة ، ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 112.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.

<sup>4 =</sup> زُبْدَة الْحَلِّب، ابن العديم، 2/ 644.

<sup>5 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267. 6 - زُبْدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.

<sup>7 -</sup> بغية الطلب، ابن العديم، 1/ 105، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263، والمنصُوري، ابن نظيف، 74.

# المبحث الثَّالث

# العلاقات في عهد السلطان كَيْقُبَّاذ

تبدّلت سياسة سلاجقة الرُّوم تجاه الأنُّوبيّين بعدما مات كيكاوس عام 615 هـ 1218(1)، وخلفه أخوه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ (2)، الذي راسل الملك الأشرف، واتَّفق معه (3)، ضمن سياسة حلِّ المشاكل مع الأقوياء، والتفرُّغ للضُّعفاء. فقد حلَّ كَيْقُبَاذ مشاكلَةُ مع الأشرف، ومع عمَّه طغرل شاه(4) صاحب أرزن الرُّوم(5)، وعدل عن سياسة سلفه ذات المُيُول للتوسُّع جنوباً نحو حلب، ومـدّ أنظاره شرقاً نحو أملاك الأراتقه في آمد. ورُبِّها كان الدافع الكبير وراء سياسة كَيْقُبَاذ هُـو خوف من الخطر الخوارزمي، فجلال الدِّين منكبرتي يكتسح ممالك الشُّرْق، ويتقدَّم غرباً، وقد مـدَّ نُفُوذه نحـو الجزيرة وأطراف الأناضول بتحالفه مع الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، ضمن حلف ضمَّ المُعظَّم بدمشق، ومُظفَّر الدِّين في إربل (6).

وصادفت تلك السياسةُ هوىً في نفس الأشرف، الذي كان في ذروة صراعه مع أخيه المُعظِّم وحُلفائه، وفي عام 623 هـ 1226م، طلب الأشرف من كَيْقُبَاذ أن يقصد آمد، فوجَّه إليها جيشه، وفتح بعض الحُصُون حولها، ممَّا اضطُرَّ صاحبها الصَّالح الأرتقي أن يتخلَّى عن حُلفائه، ويلتجئ للملك الأشرف، الذي طلب من كَيْقُبَاذ الكفَّ عن آمد، ورَدَّ ما أخذ من حُصُونها، ولكن علاء الدِّين كَيْقُبَاذ "امتنع، وقال: ما كُنتُ نائباً للأشرف يأمرني مرَّة، وينهاني في أُخرى" (7)، و أراد الأشرف أن يحفظ ماء وجهه مع صاحب آمد، فأرسل إليه نجدة عسكريَّة لمُساعدته في فكِّ حصار جيش علاء

نجدة لها من هُجُوم المُعظَّم (2).

الدِّين عن قلعة الكختين، ومع ذلك؛ انتصر جيش علاء الدِّين، واستولى عسكر الرُّوم على

الكختين (1)، ولم يستطع الأشرف أن يفعل أكثر من ذلك، فمُعظم عساكره قد توجُّهت نحو حمص؟

حَرَّان مُحاولاً تهدئة الأُمُور مع كَيْقُبَاذ، ورُبَّها لم يكن كَيْقُبَاذ نفسه يرغب بفتح جبهة مع الأثِّيوبيِّين، مع

أنَّه يُدرك ضعفهم، فتجاوز الأشرف، وتوجَّه إلى سُلطان البيت الأيُّوبي الملك الكامل مُباشرة. ففي

عام 623 هـ 1226م، قدِم رسول كَيْقُبَاذ بهدية جليلة إلى الملك الكامل(3)، ونستطيع أن نعدُّها تعبيراً

عن حُسن النيَّة، ومدّ جسور الصداقة مع الملك الكامل والأيُّوبية عموماً، خاصَّة؛ بعد تحقيق نصر

دمياط. وقد استمرَّت السياسة السِّلْمية التي اتَّبعها كَيْقُبَاذ، حتَّى أدَّت إلى قيام سلم قلَّم شهدت

المنطقة مثيلاً له، ويدُّلنا عليه تجمُّع رُسُل الخليفة، ورُسُل الملك الأشرف، ورُسُل الملك المُعظَّم، ورُسُل

الملك المُجاهد، ورُسُل أتابك حلب عام 624 هـ 1227م، في وقت واحد، في بـ الله عـ الـ الله المُعالى المُعا

كَيْقُبَاذ (4). ورُبَّها كان من أحد أهمِّ أسباب هذا السِّلْم هُو الخطر الخوارزمي الذي يلوح في الشُّرق،

ولتأكيد حالة السَّلْم هذه تدخَّل كَيْقُبُاذ حتَّى بين مُلُوك البيت الأيُّوبي، مُحاولاً منع الخلافات بينهم،

فعندما تحرَّك المُعظَّم نحو حمص في عام 624 هـ 1227م، بعد اتَّفاقه مع جـ لال الـدِّين الخـوارزمي

ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، أرسل كَيْقُبَاذ رسولاً عالي المُستوى هُو المهمندار (5) نجم الـدِّين إلى الملك

المُجاهد يحمل جواب رسالة كان المُجاهد قد أرسلها إلى كَيْقُبَاذ، ويبدو أنَّه \_بعد الاتِّفاق السَّابق عنده

- أرسل المُجاهد يُخبره بتحرُّك المُعظَّم ضدَّه، فأوفد المهمندار إلى الملك المُعظَّم، وخلال مُرُوره في حمص

نحو دمشق "اجتمع به السُّلطان الملك المُجاهد في جواب رسالته، وفاوضه، وقال: قد وصلت من

صاحبي في قضاء شغلك مع المُعظَّم، وإزالة اعتراضه على جميع مالك"، وصادف وُصُوله تحرُّك

ويبدو أن الأشرف لم يرد أن يُوسِّع الفجوة مع كَيْقُبَاذ، في وقت لا ينقصه فيه الأعداء، فعاد إلى

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 3/ 344.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 143.

<sup>5 -</sup> المهمندار : هُو مَنْ يتلقَّى رُسُلَ السُّلطان الواردة، ويُنزلهم في دار الضيافة ( صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 459 ).

<sup>1 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 113.

<sup>634</sup>\_616-2 هـ/ 1219\_1236م.

<sup>3 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.

<sup>4 -</sup> مُغيث الدِّين طغرل شاه بن قلج أرسلان.

<sup>5 -</sup> أرزن الرُّوم: بلدة من أرمينية أهلها أرمن، وهي - الآن - ولاية ونواح وإسعة كثيرة الخيرات. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة :أرزن الرُّوم )، وهي آخر حَدِّ بلاد الرُّوم من جهة الشُّرْق. (كتاب الجَغرافية، المغربي، 187)، وبها منبع الفُرات من شرقيها وشهاليها. ( تقويم البُلدان، أبو الفـداء، 385 )، ويُقـال لهـا: ( Erzurum ) أو أرضروم؛ راجع: Pre Ottoman, Clud Cahen, p 125

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202 - 203.

<sup>7 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203.

طلائع المُعظَّم نحو حماة، وتصدَّى المُجاهد لها، وردَّها خاسرة (1). وكم كان لعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ لْخُطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة الخارجيَّة كانت له - في الوقت نفسه - نُحُطَّطاته ضمن البيت السلجوقي في الأناضول، ففي عام 625 هـ 1228م، استولى كَيْقُبَاذ على أرزنكان (2)، ثُمَّ بدأ يُحضّر للهُجُوم على أرزن الرُّوم، وبها ابن عِّمه طغرل شاه بن قلج أرسلان، الذي خاف وأعلن تبعيَّته للملك الأشرف، واستنجد بنائب الأشرف في خِلاط. فسار الأمير حُسام الدِّين بن أبي على نائب خِلاط بعساكره، التي كان قد جمعها تحسُّباً لحركة كَيْقُبَاذ، فقد كان يُدرك أن الهدف الشَّاني لكَيْقُبَاذ بعد أرزن هُو خِلاط، فتقاعس كَيْقُبَاذ عن قصده، وفشلت مُخطَّطاته (3).

وفي عام 625 هـ 1228م، اتَّفق الملك الأشرف والسُّلطان الكامل على أَخْذ دمـشق مـن أبـن أخيها داود بن المُعظَّم، ولَّا تمَّ لهما الأمر، تسلَّمها اللك الأشرف مُقابِل علَّة مناطق من الجزيرة تسلَّمها السُّلطان الكامل، فدخل الكامل - بذلك - ميدان السياسة الجزرية، وأعقب هذا الدُّخُول السِّياسي تحرُّك عسكري، كان له نتائج كبيرة على سلطنة الأيُّوبيِّيْن، وعلاقاتهم ببعضهم البعض. وأبعدت تلك التسويةُ الملكَ الأشرف عن ميدان الجزيرة، وجعلتها آخر اهتهاماته، وقرَّبت الكاملَ من حُدُود سلطنة سلاجقة الرُّوم، ومهَّدتْ لعلاقة تحالف بينه وبين كَيْقُبَاذ، ثُمَّ أعقب التحالف قيام أكبر حملة أيوبية على بلاد سلاجقة الرُّوم.

فبعد دُخُول الملك الكامل عالم الجزيرة، عام 626 هـ 1229م، قام صاحب ماردين بإعلان خُرُوجه عن طاعة كَيْقُبَاذ، وخطب للسُّلطان الكامل في بلاده، وضرب السَّكَّة باسمه (4). وفي الوقت نفسه كان رسول حُسام الدِّين صاحب أرزن الرُّوم يُرسل هداياه للأشرف، ويعتذر عن تحالفه مع

Pre Ottoman, Clud Cahen. p 126

كَيْقُبَاذ (1). إن هذه المواقف المُتردِّدة وغير المُستقرَّة للضُّعفاء في تحالفهم مع الأقوياء كانت تهدف لكسب أكبر قدر من الوقت في الحُكْم، بعيداً عن خطر الاجتياح، فلم تكن لمُعظم الأُمراء في الجزيرة سياسة ثابتة، ولا ولاء دائم، حتَّى مع أقرب الأقرباء، ولمنا ينطبق القول: لا عــدوّ دائــم، ولا صــديق دائم، في السياسة، وإنها مصلحة دائمة.

ولكنْ؛ إن استطاعت هذه السياسة المُتقلِّبة مع القوى الكُبْرَى أن تمنح الضُّعفاء بعضَ الوقت، فلن تتمكَّن من منحهم كُلِّ الوقت، في عام 627 هـ 1230م، انضمَّ صاحب أرزن ديار بكر \_ في آخر تقلُّباته السِّياسيَّة \_للقُوَّة الوافدة الجديدة المُتمثِّلة بجلال الدِّين الخوارزمي، أثناء غزوه للجزيرة، ولَّا هُزم الخوارزمي، وهرب، قام الأشرف مُوسى بمُحاصرة أرزن الرُّوم، وفتحها، وأخذ صاحبها، وسلَّمه إلى ابن عمِّه كَيْقُبَاذ، فبقي مسجوناً عنده حتَّى مات في سجنه، وسلَّم الأشرف أرزنَ وجميعَ بلادها إلى نُوَّابِ كَيْقُبَاذ<sup>(2)</sup>.

## التحالف الأيُّوبي السلجوقي:

وعندما داهم الخطرُ الخوارزميُّ الجزيرةَ عام 627 هـ 1230م، اضطُرَّ الملك الكامل وعالاء الدِّين كَيْقُبَاذ لتوثيق تحالفها لمُواجهته، فأرسل كَيْقُبَاذ مَنْ أخذ يمين الكامل على التحالف والمصافاة والنصرة، وكذلك أرسل السُّلطان الكامل رسوَلْيه: الشهاب أحمد(3)، وجمال الدِّين أبا القاسم عبد الرحمن السكندري (4)، فحلَّفا كَيْقُبَاذ للكامل. وأرسل كَيْقُبَاذ يُخبر الكاملَ أنَّه وجَّه "خمسة عشر ألف فارس إلى أرزنجان، وعشرة آلاف إلى ملطية (5)، وأنَّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلبُ الكامل بذلك، وكان مُهتًّا من أمر الخوارزمي" (6)، فقد هاجم جلالُ الدِّين مدينة خِلاط، واحتلَّها عام 627 هـ 1230م، وكانت تتبع للملك الأشرف مُوسى.

<sup>2 -</sup> أرزنجان: بلدة طيّبة مشهورة، كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينِبة قريبة من أرزن الرُّوم، وغالب أهلها أرمـن. ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أرزِنجان )، وهي تقع على ضفَّة الفُرات البمني ( تقويم البُلدان، أبو الفداء، 385 )، كان يحكمها بنو منكوجك، وهم أُسرة تركانية، كوَّنت إمارة لها غرب الفُرات في أرزنجان وعدَّة بلدات حولها، حكمها فخر الدِّين بهرام شاه، ثُمَّ خلفه ابنه علاء الدِّين داود شاه، وظلُّوا بخضعون لسلطنة سلاجقة الرُّوم، حتَّى احتلَّ كَيْقُبَاذ بِلادَهُم في عهد داود، الذي كان عالماً بالطِّبِّ والفَّلَك، بعيداً عن أُمُور السياسة والحَرْب. راجعُ: ابن بيبي، مُحتصر سلجوق نامة، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 143. و

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480 ـ 479.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نَظيف، 188.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 175.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 4/ 300، وكنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 299.

<sup>3-</sup>الشهاب أحمد: من المُقرَّبين للملك الكامل، تُوفِّي عام 634 هـ- 1236م.

<sup>4 -</sup> الجهال السكندري: تُوفَي عام 651 - 1253م.

<sup>5 -</sup> ملطية: من بلاد الرُّوم مشهورة مذكورة، وهي تُتاخم الشَّام ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ملطية ). وراجعٌ: التعريف بالمُصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، 437، وكتاب الجَغرافية، المغربي، 219.

<sup>6 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 195 ــ 196.

كان الكامل بحران، وعندما نزل إلى الرقَّة بلغه فيها أَخْدُ جلال الدِّين الخوارزمي خِلاط، وبلغ ذلك الأشرف وهُو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتى الرقَّة، فوصلهم رسول كَيْقُبَاذ ومعه نصُّ الرسالة التي وجَّهها إلى جلال الدِّين الخوارزمي، وهي كما دوَّنها ابن نظيف في تاريخه ضمن أحداث عام 627 هـ، قال: "أورد الكهال كيهار رسالة الرُّومي التي كـان سـيَّرها إلى الخـوارزميُّ إلى الكامل الأشرف، وهي أنَّه قال له:

المولى من بيت كبير، ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيَّر والدكَ نيَّته، وخبط على نفسه، وآل بــه الحال إلى ما آل، والآن؛ قد فضَّلتَ هؤلاء بيت أيُّوب، وتجنَّيتَ عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصَّل من سنين، ولهم الإحسان إلى الجُند والرعايا والمُجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقُوَّة، وأنت، فلا أموال، ولا رجال، ولا قُوَّة، وبلادكَ خربة، ونحنُ نعرف حالكَ أكثر منك، ولا تظنّ أني عدوّهم، لا، والله، بل صديقهم، ونسيبهم، با بيننا من الأهلية، والمُصاهرة، واختلاط الدّم، ولعمِّي مُعزّ الـدِّين، منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولا شكَّ جرى بيننا قنضيّة عاتبتهم عليها، وعدنا إلى ما كنَّا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتُصالحهم، وتعتد بهم أصدقاء، فنحنُ نعرف ما وراءك من الأعداء، يُعينونكَ على عدوِّكَ، ويقع الاتِّفاق، وشأنك وشأن الكرج، وغيرهم، وهذا نُصحي لكَ، فلا تغترَّ بمَنْ يُكاتبكَ، ويحلف لـكَ، فكُلُّـه زُور، وتدفيع للأوقات، وقد \_ والله \_ قُلتُ جميع ما يلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجواب أنْ قال لرسولي: عُـــ دُ إلى صاحبكَ، والجواب يصل مع قاصدي"(1).

ونُلاحظ على رسالة كَيْقُبَاذ للخوارزمي ما يلي:

1 - أنَّها إحدى الرسائل السِّياسيَّة القليلة التي تحتوي موضوعاً بهذه الأهمِّيَّة، ووصلت إلينا، أو أنَّه بسبب الترجمة وصل إلينا فحواها، من خلال مُؤرِّخ كان مايزال - وقتها - يشغل منصب كاتب ووزير الملك الحافظ بن العادل<sup>(2)</sup>، الذي كان حاضراً مع أخوَيْه الكامل والأشرف أثناء تسليم الرسالة<sup>(3)</sup>.

2\_ بعد أن تستعرض الرسالةُ واقعَ البيت الخوارزمي، وتُعدِّد مآثرَ البيت الأيُّـوبي، وعراقته، يُحدِّد كَيْقُبَاذ موقَّفَهُ السِّياسي من الأَيُوبِيِّين، ونستشفُّ أنَّه يملك خطًّا استراتيجياً بعيد النظر من خلال وصفه لهذه العلاقة، ولكنَّه - للأسف - تراجع عنها بعد سنوات قليلة، واشتبك مع الأيُّوبيِّين.

3\_ الأهمِّيَّة القُصْوَى لهذه الرسالة تتجلَّى باقتراح كَيْقُبَاذ على الخوارزمي صداقةَ الأيُّوبيِّين، لتشكيل حلف يستطيع أن يقف وراء الخوارزمي في مُقاومته للتَّتَار، وبالتَّأكيد؛ يكون كَيْقُبَاذ فيه طالما هُو الذي اقترحه.

4 \_ يُنبِّه كَيْقُبَاذ جلالَ الدِّين أن هُناك أعداء خارج الدولة الإسلاميَّة، بإمكانه التوسُّع نحوهم، كالكرج، وغيرهم، بينها لم يتقيَّد كَيْقُبَاذ نفسه بذلك، فقد هاجم مُتلكات الآيُّ وبيِّن، وأمامه

5 - نُلاحظ إدراك كَيْقُبَاذ الواقعَ السِّياسي لأُمراء الجزيرة والشَّام، وصَغارهم، لتآمرهم، وتحريضهم الأعداءَ على بعضهم البعض، وحلفانهم الأيمان الباطلة. ويُنبِّه جلال الدِّين لعدم الاغترار بأقوالهم، والاعتباد على أكاذيبهم، وسيعود كَيْقُبَاذ بنفسه للعب السياسة معهم، بطريقتهم التي انتقدها، وكأنَّه لا يعرفهم. ويبدو أن كَيْقُبَاذ قد أدرك أن الخوارزمي لن يقبل بها نصحه به، لذلك وجَّه مُباشرة رسالة خاصَّة إلى الملك الأشرف يقول فيها:

"تحضر إلى عندي، لنتَّفق على هذا الذي أضرَّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"، فشاور الملكُ الأشرفُ أخاه السُّلطانَ الكامل على ذلك، فوافق (1)، وردَّ الأشرف في جواب قائلاً لرسول كَيْقُبَاذ: "أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته" (2). وفعلاً؛ اجتمعا بسيواس "وبالغ الأشرف في خدمة الرُّومي؛ بحيثُ أنَّه كان يبوسُ له الأرض، في ايخدمه الرُّومي على ذلك، وتعاظم عنهم الرُّومي تعاظمًا زائداً بحماقته" (3). إن هذا التذلُّل من الأشرف والتكبُّر من كَيْقُبَاذ بعدلُّنا على الحالـة العسكريَّة المتردِّية للأشرف أمام هُجُوم الخوارزمي، وعظيم حاجته لدعم كَيْقُبَاذ، الـذي أدرك ذلك، واستغلَّه غاية الاستغلال. لكنْ؛ بها أن الأُمُور بخواتيمها، فقد سار الأشرف وكَيْقُبَاذ بقُوَّاتها "إلى جهة خِلاط، والتقى الفريقان، فولَّى الخوارزميُّون وجلالُ الدِّين منهزمين ال<sup>(4)</sup>، وتمكَّن الأشرف \_ نتيجة هذا النصر \_ من استعادة خِلاط.

<sup>1 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 299.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 203.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 205.

<sup>4-</sup>الُختصر، أبو شامة، 3/ 146.

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 719 ـ 198.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 174.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 197.

# الصراع العسكري بين الأيُّوبيَّة والسلاجقة:

أدًى التحالف بين الأشرف ومعه الأيوبيّة وبين كَيْقُبَاذ وسلاجقة الرُّوم إلى تحقيق نصر لم يكن ليحلم به أيُّ طرف مُنفرد منها، وستكون هذه الحَرْب المُشتركة سبباً لحرب قادمة بينها، فبعد أن اطلّع أمراء جند الشّام - أثناء توافدهم إلى سيواس في بعلاد سلاجقة الرُّوم - على قُوَّة السلاجقة، وحصانة معاقلهم، استضعفوها، ووصفوا ذلك للسلطان الكامل، الذي وافق ذلك تُعطَّلاته السياسيّة والعسكريّة (1)، خاصّة؛ بعد أن عقد اتِّفاقه مع الإمبراطُور فريدريك الشَّاني، وأَمن جبهة فرنج الشَّام، وأخذه دمشق، واستتباب الأمر له في الشَّام والجزيرة. وفي الوقت نفسه؛ بيدو أن كَيْقُبَاذ كانت له حساباته الخاصَّة لتقييم الوضع العسكري، فقد شجَّعه زوال الخطر الخوارزمي وملاحقة التيّر بجلال الدِّين، ورُبَّها أراد كَيْقُبَاذ امتحان قُوَّة الخَوَارزميّة الذين استخدمهم بعد هزيمة جلال الدِّين، واستغلال غياب الأشرف عن ساحة الجزيرة، وانشغاله بمكلاذه في دمشق<sup>(2)</sup>. وكما هُو مُتوقَّع، فالصدام بين السُّلطان الكامل، بعد امتداد أملاكه إلى الجزيرة، وبين كَيْقُبَاذ الرُّومي، بدأ مُبكِّراً؛ لأن فالصدام بين السُّلطان الكامل، بعد امتداد أملاكه إلى الجزيرة، وبين كَيْقُبَاذ قُوَّة خارجية غريبة عن فالصدام بين السُّلطان الكامل، وكذلك كَيْقُبَاذ كان يعدُّ الكامل قُوَّة غريبة عن المنطقة، بحالها مصر، وتواجدها في الجزيرة غير مرغوب فيه.

ولمَّا سنحت الأسبابُ المُباشرة للصدام، لم يتوانَ الفريقان عن استغلالها، ففي عام 629 هـ، بعد أن فتح الكاملُ آمدَ أخذ يتسلَّم القلاع التي حولها، فأفسد عليه كَيْقُبَاذ قلعتَيْ كرفازاك وكرر، فغضب الكاملُ عليه، وطلب وساطة الأشرف، باعتباره حليفاً لكَيْقُبَاذ، فيا نفعت وساطته. وازداد حنق الكامل على كَيْقُبَاذ لمنعه التُّركان من القُدُوم إلى أراضيه لبيع مُنتجابهم من الأغنام والغلال<sup>(3)</sup>، ويبدو أن هذا التحرُّك للتركان كان له مردود اقتصادي كبير على المنطقة.

وتطوَّرت الأُمُور العسكريَّة بشكل خطير عندما هاجم كَيْقُبَاذ عام 630 هـ 1233م، بلدة خلاط، واحتلَّها، وقام بعمارتها، ونقل إليها الفلاَّحين، وزرعها (1)، وهذا فعل مَنْ يرغب بالاحتفاظ بها. فبدأ القلق في الجزيرة، وخاصَّة بعد أن أخذ كَيْقُبَاذ عدداً من القلاع والمناطق ما بين خِلاط وآمد، وحاصر حَرَّان والرُّهَا والرقَّة، واستولى على مناطق واسعة في الجزيرة (2)، وكان عند كَيْقُبَاذ عدد من أمراء العَسْكَر الشاميين الفارين، يدلُّونه على المواقع، ويدعمونه بالرأي (3)، إضافة إلى أن تحرُّكه العسكري كان بمُشاركة فعَّالة من حليفه صاحب ماردين (4).

وخاف صاحب خرتبرت من أطاع كَيْقُبَاذ، فأرسل إلى نائب الملك الكامل في آمد الخادم صواب العادلي يطلب تحسين العلاقة بينها (5). أمّا الملك الأشرف، صاحب خِلاط وصاحب القُوَّة الأيوبيَّة الأكبر في الجزيرة، الذي كان بعيداً عن الساحة الجزرية، يُقيم في دمشق، ينعم بجنَّاتها وثارها؛ فعلى ما يبدو شعر بضعفه أمام كيُقبَاذ، وأدرك أن الأمر سيكون أكبر من استطاعة قُوَّاته إذا حصل صدام عسكري مُباشر، وحتَّى بعد إنجاده بقُوَّات من مصر سيكون النجاح غير مضمون، ولكنْ؛ يبدو أنَّه قدّر الخطر السلجوقي حقَّ قدره، ولابُدَّ من أنَّه راسل السُّلطانَ الكامل، وشرح له الحال، وخوَّفه من كَيْقُبَاذ، حتَّى قرَّر الكامل التوجُّه بقُوَّاته إلى الشَّام، ومنها نحو الجزيرة.

كان التحرُّك السِّياسي لكَيْقُبَاذ يواكب تحرُّكه العسكري، ولا يقلُّ عنه أهمِّيَّة، فنجد أنَّه أرسل عام 631 هـ 1233م، رسولاً إلى الملك المُجاهد في حمص (6)، ومع أن المُجاهد هُو الأكثر قابلية للتفاوض معه لتفشيل الحلف الأيُوبي، لأنَّه الأبعد في القُربي بين الأخوة أبناء العادل، ولأن تطلُّعاته لا تخفى على أحد، ولكنْ؛ هل هُو الوحيد الذي راسله كَيْقُبَاذ؟ لا نعتقد ذلك، فغالباً كان له تحرُّك سياسي نشط، وأن رُسُلَهُ توجَّهت إلى أكثر من أمير وملك أيُّوبي، ولكن التاريخ لم يُرزَق بمُؤرِّخ من داخل قُصُورهم يُدوِّن ما حدث كما فعل ابن نظيف الكاتب في بلاط الملك المُجاهد. ومع أنّنا لم نعرف

<sup>1 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 255.

<sup>2 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 255.

<sup>4 -</sup> المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.

<sup>5 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 262.

<sup>6 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 259.

<sup>1 -</sup> مُفِرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 74، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 234.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو شامة، 3/ 154.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 240\_242.

ردَّ الملك المُجاهد على كَيْقُبَاذ، فإنَّنا نستطيع أن نتوقَّع أنَّه راوغ، وردَّه بلطف، فقد تحرَّك السُّلطان الكامل نحو الشَّام، وطلب من مُلُوكه وأُمرائه موافاته بقُوَّاتهم للتصدِّي لكَيْقُبَاذ، ولم يتأخَّر الملك المجاهد عن الالتحاق به.

مّكَّن السُّلطان الكامل في حملته تلك من تحقيق أوسع تحالف سياسي عرفته المالك الأيُّوبيَّة، وجمع أكبر قُوَّة عسكريَّة لها مُنْذُ موت السُّلطان صلاح الدِّين (1)، وقد تميَّزت النجدات بحُضُور الْمُلُوك والأُمراء بأنفسهم مع قُوَّاتهم، فاجتمع في عسكره ستَّة عشر ملكاً (2)، ما عدا العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، الذي وجد نفسه في موقف لا يُحسَد عليه، فقد كان مُحرجاً بين حليفه الرُّومي كَيْقْبَاذ وسُلطان الأيُّوبيَّة الكامل، فأرسل كَيْقُبَاذ للعزيز يقول: "أنا راض منكَ بأنْ تمدَّه بالأجناد والأموال، على أنْ لا تنزل إليه أبدا (3)، ويبدو أنَّ الكامل - أيضاً - رضي منه بذلك، فأعفاه من النُّورُول بنفسه (4)، فأرضى العزيز القُوَّتين المُتحاربتَيْن، ولم يخسر أيًّا منهما، فكلاهما مُقدِّر لموقفه.

وبعد تجمُّع الجُيُوش؛ اتَّضح أن السُّلطان الكامل قد اتَّخذ من هُجُوم كَيْقُبَاذ على خِلاط ذريعة لتنفيذ نُحطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة، التي كانت تنقسم إلى قسمَيْن:

\_ الأوَّل : توحيد البيت الأبُّوبي، والاستفادة من قُوَّاته المُجتمعة لإلحاق هزيمة شاملة وكاملة بسلاجقة الرُّوم، وأَخْذ بلادهم.

\_الثَّاني: بعد تحقيق النصر، الالتفات للمُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّة، والخلاص منهم، ومن مُؤامراتهم وخلافاتهم بضربة واحدة، عن طريق نزعهم عن ولاياتهم في الشَّام والجزيرة، وإقطاعهم بلاد سلاجقة الرُّوم<sup>(5)</sup>.

لكنَّ التخطيط الجيِّد لا يعني ربح المعركة، وخاصَّة إذا جرت الأُمُور بعكس الأُمنيَّات، فقد سار السُّلطان الكامل في أوائل عام 632 هـ 1235م، نحو كَيْقُبَاذ، الذي نزل بجيشه على الدربند (6)، "وبنى عليه سوراً، وقاتلوا مَنْ يطلع إليه" (7)، وحفظ كَيْقُبَاذ الطُّرُقات إلى بلاده، وهي صعبة ضيِّقة

حُلفاته الأنُّوبيِّيْن، فسارع نحو مصر (6) كاتماً غيظه (7).

جدًاً (1)، وأحسَّ الكامل بتخاذل حُلفائه، وفساد نيَّاتهم، وكشرة الغلاء في سوق العَسْكُر، وامتناع

الدربند (2)، وكلّها نقاط في غير صالحه، وقد تُودي به إلى كارثة، فانتقل من موضعه على النهر

الأزرق(3)، إلى أطراف بَهَسْنَا على بُحيرة أنزنيت، فوصل إليه صاحب خرتبرت، وهُـو من المُلُـوك

الأرتقية، وأشار عليه بالدُّخُول إلى بلاد الرُّوم من جهته، فأمر السُّلطان الكامل صاحب حماة الملك

المُظفَّر، وهُو ثقته الوحيد، أن يمضي بميمنة الجيش (4)، على أن يتبعهم ببقية العَسْكَر. فتحرَّك الملك

المُظفَّر ومعه عدد من الأُمراء، فوصلوا خرتبرت كقُوَّة استطلاع مُتقدِّمة للجيش، الكامل، لكنْ؛ لا

ندري كيف كشف كَيْقُبَاذ أمرهم، فكان بانتظارهم اثنا عشر ألف فارس سلجوقي، اضطُرُّوهم - بعد

الهزيمة \_ إلى اللَّجُوء إلى قلعة خرتبرت، وسُرعان ما وصل كَيْقُبَاذ بنفسه، وحاصرهم في القلعة مُـدَّة

أربعة وعشرين يوماً، ولمَّا ينس الملك المُظفَّر من نجدة السُّلطان الكامل، طلب الأمان، فأمَّنه كَيْقُبَاذ،

الحصار عنه، وبالتَّأكيد؛ كان الكامل يعلم بما آل إليه الأمر في خرتبرت. إن عدم تحرُّك السُّلطان

الكامل بكُلِّ ما معه من قُوَّات وحُلفاء وجند لإنقاذ المُظفَّر لا يُفسِّره سوى أمر واحد، وهُو خوفه من

حُلفائه الذين معه أكثر من خوفه من عدوِّه، فالمعركة مع كَيْقُبَاذ غير مضمونة، وولاء الحُلفاء من

مُلُوكَ الأَيُّوبِيَّة مشكوك فيه، بل ويخشى أشدّ الخشية منه، فقد يستغلُّون مُجريات المعركة، أو نتائجها،

إنْ لم تكن مرضية للإمساك به، خاصَّة وثقته الوحيد الملك المُظفَّر مُحاصَراً بعيداً، والكامل وحده بين

أخوة وأبناء عم، ولكنَّهم مُتَّفقون عليه، مُعادون له في الباطن، فلـذلك تـرك المُظفَّر يُواجـه مـصيرَهُ

بنفسه، أو ضحّى به مُكْرَهاً، وعاد الكامل بشبه هزيمة، بعد أن دخل الشتاء، وانكشف له فساد نوايا

لقد أمضى الملك المُظفَّر قرابة الشهر مُحاصَراً في خرتبرت، ولم يتحرَّك السُّلطان الكامل لفكِّ

ونزل إليه المُظفَّر، فأطلقه، واحتلَّ كَيْقُبَاذ قلعةَ خرتبرت، مع ما حولها من القلاع (5).

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 77.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.

<sup>3-</sup>زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 674، - النهر الأزرق: وهُو في أوائل بلد الرُّوم، ويسير مُقابل الدربند.

<sup>4 -</sup> وهي قُوَّات حماة، وُفقاً للتقليد العسكري الأيُّوبي المُتَبع مُنْذُ أيَّام تقي الدِّين والسُّلطان صلاح الدِّين.

<sup>5-</sup>ذبل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131، وزُبِّلَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 79-81.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 154، وزُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.

<sup>7 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.

<sup>2 -</sup> زُبُدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.

<sup>3 -</sup> زُبْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.

<sup>4 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.

<sup>5 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.

<sup>6 -</sup> الدربند: هُو الممرّ الجبلي الضيِّق، الذي يخترق جبال طوروس، ويُؤدِّي إلى داخل بلاد الأناضول.

<sup>7 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674.

لقد كان الملك المُجاهد هُو الساعي لتفرُّق الكلمة عن السُّلطان الكامل، وهُو الذي أبلغ مُلُوك الأيُّوبِيَّة بنيَّة الكامل نقل إقطاعاتهم إلى بلاد السلاجقة، إنْ ملكها(1)، فهُو صاحب مشروع الحذر من قُوَّة الكامل، بل والداعي للتحالف ضدَّه، والجميع بمَنْ فيهم الكامل كان يُدرك أن ما تمَّ كان بفعل المُجاهد(2)، فقد كان له عدَّة دوافع ذاتية للقيام بهذا العمل، فهُو يعتقد أن السَّلطنة كانت من حقِّه، وأن أيَّ تحالف للأيُّوبية ضدًّ أيِّ أحد سيكون هُو ضحيَّته المُحتملة الثَّانية، لكنْ؛ ألا يُمكن أن يكون له دوافع خارجية، مثلاً؛ اتِّصال كَيْقُبَاذ به، وطلبه منه الْخُرُوج على الحلف، أو شقَّه إنْ أمكن؟! فنحنُ نعرف أن كَيْقُبَاذ أرسل للملك المُجاهد رسولاً استقبله المُجاهد في حمص عام 631 هـ 1234م(3). وعلى كلِّ الأحوال؛ صبَّت جُهُود الملك المُجاهد في مصلحة كَيْقُبَاذ في الدرجة الأُولى، الذي اشتدَّ طمعه لفشل الحملة الكُبْرَى عليه، ولتألُّب المُلُوك على السُّلطان الكامل (4).

وبعد انقضاء الشتاء جاء ردُّ كَيْقُبَاذ، فخرج بجُيُوشه إلى الجزيرة، "فاستولى على حَرَّان والرُّهَا والسويدية وقطينا، أخذها مَّنْ كان بها من النُّوَّابِ مخامرة، أو باعوها له بيعاً ١١(٥)، واستولى على الرقَّة، وسبى أهل البلاد مثل الكُفَّار "(6)، وفعل بالجزيرة ما لا تفعله التَّثَر (7)، إنَّه حنقُ كَيْقُبَاذ على التحالف الأَيُّوبِي ضدَّه، فالسبي في المناطق المُهاجمة لم يكن معروفاً إلَّا من غير المُسلمين، مثل: الكرج، والفرنج، والبيزنطيين، أمَّا حُكَّام المُسلمين؛ فيتنازعون على ملكية الأرض والقلاع والمُدُن فقط، وتكون الرعية

ولَّا بلغ السُّلطان الكامل والملك الأشرف ما فعله كَيْقُبَاذ في ممالكهم توجُّه الكامل بجُيُوشه من مصر عام 633 هـ 1236م، نحو الجزيرة، والتقى بالأشرف ومعه العساكر الشَّاميَّة، فأخذوا حَرَّان والرُّهَا والسويداء عنوة بالسيف، وتسلَّموا قطينا صلحاً، وهدموا قلعة الرُّهَا والسويداء، فاستردَّ الكامل كُلَّ ما أخذه الرُّومي (8).

ونُلاحظ هُنا عدَّة أُمُور، منها: أن السُّلطة الأبُّوبيَّة في الجزيرة أصبحت مرتهنة بو جُود المُلُوك أنفسهم، وبو جُود الجُيُوش الكثيفة معهم، فلا النُّوَّابِ ولا الحاميات الأيُّوبيَّة يُضمن ولاؤها للملك في غيابه عن الساحة، فكُلُّ ما استولى عليه الرُّومي من الأملاك الأيُّوبيَّة في الجزيرة أخذه بالاتَّفاق مع نُوَّابِ الأَيُّوبِيَّة، بينها نجد أن استرداد الكامل لتلك المواقع كان بالسيف، فالحاميات والنُّوَّاب الرُّوم قاتلوا بضراوة، بينها غادرها كَيْقُبَاذ مع القُوَّة الرئيسية من جيشه إلى المرتفعات والدروب عند تخوم بلاده، فهُو يعرف أنَّه غير قادر على مُواجهة مُباشرة مع بني أيُّوب. كما أن الموقف الرَّسْمي لمُلُوك الأيُّوبيَّة لم يتغيَّر تجاه السُّلطان الكامل، وإنْ تغيَّرت نيَّاتهم، فقد اضطُّرُّوا للتحرُّك مع السُّلطان الكامل في حملته الجديدة، فكان معه حليفه الوفي الملك المُظفّر صاحب حماة، ورافقه أخوه الملك الأشرف مُوسى، والملك المُجاهد مع ما في نُفُوسهم عليه (1). وردًّا على ما قام به كَيْقُبَاذ، من سبي وغيره من الأعال غير المُتعارف عليها في الحُرُوب بين مُلُوك المنطقة، فقد أمسك الكامل بجند الحاميات والنُّوَّاب الذين تركهم كَيْقُبَاذ، "وأمر بحملهم مُقيَّدين في محاير (2) على الجال أساري إلى مصر، واستقبح الناسُ هذه الفعلة منه ولم يجر له ولا لأحد من أهل بيته مثلها، وإنها حمله إنْ كان محتلتاً غيظاً على علاء الدِّين" (3)، فالردُّ غير المعتاد من قبَل كَيْقُبَاذ استدعى ردًّا عليه من قبَل الكامل.

في عام 634 هـ 1237م، وبعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب ظهر على الساحة الشهالية لحلب أمير تركهاني اسمه قنغر، يمتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، مكَّنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، الذي تصدَّى له، "فتخوَّف أُمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرُّومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره برَدِّ ما أخذ، فردَّ بعضه، وانكفَّ عن العيث والفساد" (<sup>(4)</sup>. ومع أن عدداً كبيرًا من الأُمراء التُّركان وغير التُّركان في ذلك الوقت كان لهم أتباع، وأحياناً؛ بعض القُوَّة الفاعلة، لكنَّ هذه القُوَّة غير العادية لقنغر - التي هزمت جيش حلب - لم تكن لتظهر على أطراف مملكة السلاجقة في ظلِّ واحد من أقوى مُلُوكها، بدُون دعم مُباشر من الملك نفسه، ولم تكن هذه القُوَّة

<sup>1 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 109.

<sup>2 -</sup> جمع محارة، تُصنَع من الخشب، وتُحمَل على الجهال ليركب عليها المسافر، وهي شقّتان، على كُلِّ جانب من الجنبَيْن شقّ، يُسمَّى محارة وتَسَعُ شخصاً واحداً. (قاموس الصناعات الشَّاميَّة، مُحمَّد سعيد القاسمي، 420).

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 110.

<sup>4-</sup>زُبْدَةَ الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 ـ 681.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158، والفوائد الجلية، الأمجد حسين بن داود، 217.

<sup>3-</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 259.

<sup>4 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 5/ 98.

<sup>5 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315.

<sup>6 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.

<sup>7 -</sup> البداية والنَّهاية، ابن كثير، 13/ 135. 8 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 15، وزُيْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.

#### المبحث الرَّابع

## العلاقات في عهد السلطان كيخسرو

في عام 634 هـ 1237م، تُوفِي علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم بمدينة قيصرية، ويُخبرنا ابن العديم خبر الشاهد العيان أن أتابك حلب طَغْريل أوفده باسم الملك النَّاصر بن العزيز ليُعزِّي غياث الدِّين كيخسرو بأبيه كَيْقُبَاذ، "ولتجديد الأيهان عليه على القاعدة التي كانت مع أبيه، فحلفته على ذلك "(1)، فحلب \_ كما يبدو \_ حريصة كلّ الحرص على تحالفها مع مملكة سلاجقة الرُّوم، وبالمُقابل؛ نجد كيخسرو يُريد توثيق العلاقة مع حلب بأكثر من التحالف، فسلك طريق المُصاهرة، وطلب يد أُخت الملك النَّاصر ابنة الملك العزيز، على أن يُزوِّج أُخته للملك النَّاصر، وتمَّ العقد على يد المُؤرِّخ ابن العديم، الذي قام بنفسه بإجراء العقد على أُخت كيخسرو وكيلاً للملك النَّاصر (2). واستفادت حلب من هذا الحلف بمُساعدة فعَّالة، قدَّمها لها كيخسرو للتصدِّي لفرقة الخوَارزميَّة، التي هدَّدت حلب والجزيرة<sup>(3)</sup>.

ولم يكن السُّلطان الكامل بأقلَّ حرصاً من مملكة حلب على طلب وُدّ كيخسرو، فاغتنم فُرصة وفاة والده كَيْقُبَاذ، وأرسل "الفقيه أفضل الدِّين مُحمَّد الخونجي إلى بلاد الرُّوم يُعزِّي غياث الدِّين بأبيه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ المُتوفَّى، وسيَّر معه ذهباً برسم الصدقة، وثياب أطلس برسم أغشية النضريح، وكان ذلك استجلاباً منه له، ليخرجه عن الأشرف" (4). فمملكة سلاجقة الرُّوم هي \_ الآن \_ القُّوَّة الأكبر على تخوم المالك الأيُّوبيَّة، وأفراد البيت الأيُّوبي كُلِّ منهم له الرغبة بكسبها إلى جانبه، ولكنْ؛ ليست رغباتهم هي المهمَّة، فالمُهمُّ هُو حسابات السُّلطان الرُّومي الجديد، ومع رغبة مَنْ منهم تتوافق.

لم يمض كثير وقت حتَّى أخذ كيخسرو يستغلُّ ظُرُوف حلب أكبر استغلال، فبعمد كلُّ مُقَدِّمات التحالف والمودَّة والمُصاهرة أرسل في العام نفسه 634 هـ 1237م، عزَّ الدِّين قاضي مدينة \_مها بلغت \_ لتجازف بقتال جيش مملكة قويَّة مثل حلب، هي \_ بالوقت نفسه \_ حليفة لملكة الرُّوم، بدُّون توجيه ملك الرُّوم نفسه. فهاذا كان يُريد - بذلك - من حلب؟ ويبدو لنا أن كَيْقُبَاذ كانت له عدَّة أهداف من وراء هُجُوم قنغر:

1 ـ تُشكِّل هذه الإغارةُ قُوَّةَ استطلاع عسكريَّة، اختبرت قُوَّةَ جيش حلب، وبهزيمته تبيَّن ضعفه، وعدم تشكيله أيَّ تهديد عسكري.

2\_ بعد موت العزيز لابُدَّ من الضغط على أُمراء حلب، الذين قد يكون لبعضهم آراء لا تصبُّ في مصلحة الوفاق مع مملكة الرُّوم.

3- إنَّها رسالة واضحة الحروف، قُرئت بسُهُولة من قبَل أُمراء حلب، فأرسلوا بسُرعة إلى كَيْقُبَاذ، يُذكِّرونه بالعُهُود، ليكفَّ عنهم قنغر، فكفَّه، وردَّ بعض الأسلاب، وأخذ بعضها كأجر

4 \_ أدَّت هذه العملية إلى كُلِّ ما يرغب به كَيْقُبَاذ، فقد سيَّر له طَغْريل أتابك ملكها الصغير النَّاصر النَّاني "رسولاً في الباطن، وهُو أوحد الدِّين قاضي خِلاط، فاستحلفه على الموالاة للناصر، والذَّبِّ عن بلاده، ودَفْع مَنْ يقصدها. . فبذل الرُّومي من نفسه المُوافقة والنصرة للملك النَّاصر، وكف مَنْ يقصد بلاده بأذى (1).

إن ما تمَّ في الحقيقة هُو وضع حلب تحت وصاية وحماية عملكة سلاجقة الرُّوم، ولكن ؛ إذا تساءلنا: الحاية عَّنْ؟ وهل لحلب أعداء يُخشَى منهم؟! نجد أن كلِّ الدلائل تُشير إلى أبناء العادل، السُّلطان الكامل والملك الأشرف أصحاب المالك القويَّة في مصر والشَّام، إنَّ له الخوف القديم من والدهم العادل يتجدَّد في كلِّ لحظة ضعف عَرُّ بها مملكة حلب، ويصبُّ ذلك الآن في صالح مملكة سلاجقة الرُّوم القُوَّة المُجاورة الأكبر.

ونتيجة للعداء الذي استفحل بين السُّلطان الكامل والملك الأشرف سمعي الأشرف لتسكيل حلف شاميٌّ كبير ضدَّ الكامل، انضمَّ إليه كلُّ المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام، ووسَّعَ الأشرفُ الحلفَ، فاتَّصل بعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ عدوّهم القديم، واتَّفق معه على التحالف ضدَّ أخيه السُّلطان الكامل(2).

<sup>1 -</sup> زُيْدَة الْحَلَب، ابن العديم، 2/ 682.

<sup>2 -</sup> زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 183، السُّلُوك، المقريزي، 1/ 272، كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 330، عقد الجمان، العيني، 8 / 208.

<sup>4 -</sup> كَنْز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 319.

<sup>1 -</sup> زُيُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 681.

<sup>2 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 167.

دوقات إلى حلب، وكان جيشها مُقياً على حصار مدينة حماة، فطلب إقامة الخطبة وضرب السَّكَّة في علكة حلب باسم كيخسرو، ولم يكن أمام أتابك حلب طَغْريل وأُمرائها إلَّا المُوافقة (1)، وبذلك؛ أُعلنت تبعية حلب رَسْميًّا لمملكة سلاجقة الرُّوم. ومع كُلِّ ذلك تبقى تبعية اسمية، لكنَّها كانت كافية وذات معان كبيرة لمُلُوك سلاجقة الرُّوم، وخاصَّة ما تعنيه من انفراد حلب عن سلطنة الأيُّوبيِّين، فالسُّلطان الكامل بعيد في مصر، والملك الأشرف يتمتَّع بمناخ دمشق، والقُوَّة الأكبر في شهال الشَّام والجزيرة هي قُوَّة سلاجقة الرُّوم.

بعد أن وقع الخلاف ما بين الملك الأشرف وأخيه الملك الكامل في عام 635 هـ 1238م، سعى الملك الأشرف الإقامة تحالف شامي ضدَّ السُّلطان الكامل، وحصره في مصر، ثُمَّ فكَّر في توسيع الحلف، فضمَّ إليه كيخسر و صاحب الرُّوم، فكان التحالف الشَّامي -الرُّومي ضدَّ الكامل. وسيتَّضح لنا معنى خوف حلب والتجاء أُمرائها إلى الرُّومي من خلال الأحداث التَّالية، فبعد موت الأشرف، في السنة نفسها 635 هـ 1238م، تولَّى مملكته بوصيَّة منه الـصَّالح إسـاعيل، الـذي قـام بتجديـد التحالف الشَّامي، والتحالف الشَّامي الرُّومي، وراسل كيخسرو، وأكَّد على التحالف بينهما(2). لكـنَّ إسهاعيل سُرعان ما فقد دمشق، فقد احتلَّها السُّلطان الكامل، الذي كانت خطوته التَّالية ضدَّ حمص، ثُمَّ حلب، عندها؛ طلبت حلبُ النجدةَ، فأمدُّها الرُّومي بفرقة من أَجَلِّ عساكره، وعرض إرسال المزيد، وكاتب كيخسرو السُّلطان الكامل لثنيه عن قصد حلب، فرفض، ونجت حلب بأيسر السُّبُل؛ إذْ مات الملك الكامل وهُو يهمُّ بالمسير إلى حمص عام 635 هـ 1238م. وفي المُقابِل؛ فقد اضطرَّ كيخسرو عام 640 هـ 1243م أن يطلب النجدة من حلب لـصدِّ قُـوَّة التَّسَار المتقدِّمـة نحـو بـلاده، فأرسلوا له نجدة يقودها ناصح الدِّين الفارسي، شاركت معه في المعركة ضدَّ التَّتَار، فهُزموا، وطلب كيخسرو الأمانَ من التَّتَار، فأمَّنوه (3).

خطبته من دمشق، وخُطب فيها للصَّالح أيُّوب(2).

ولم يكتف كيخسرو بصيغة التحالف مع الملك الصَّالح إسماعيل، بـل أرسـل عـام 638 هــ

وتنفيذاً لمطامع السلاجقة القديمة في الجزيرة استغلَّ كيخسرو الثَّاني وُجُوده في التحالف

1241م، إليه يطلب إقامة الخطبة على منابر دمشق، "فخطب له، وكان يوماً مشهوداً، وحضر رُسُـل

الرُّوم "(1)، واستمرَّت الخطبة لسُلطان سلاجقة الرُّوم كيخسرو حتَّى عام 640 هـ؛ حيثُ أُبطلت

الموجَّه ضدَّ السُّلطان الكامل، وأرسل عساكره إلى آمد، فحاصروها، وكان بها المُعظَّم تُورانشاه بن

الصَّالح أيُّوب بن الكامل، فأنجده أبوه بفرقة الخوارزميَّة، الـذين طردهم كيخسرو من خدمته،

فالتجؤوا إلى أيُّوب، وبعد مُناوشات بسيطة، انهزم عسكر الرُّوم عن آمد<sup>(3)</sup>. ولمَّا فشل أيُّوب في حملتـه

على مصر، وَفَقَدَ دمشقَ عام 637 هـ 1240م، وتخلَّت عنه الحَوَارزميَّة، استغلَّ كيخسرو ذلك، ووجَّه

قُوَّاته نحو آمد، وتشدَّد في حصارها، فهرب منها تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب نحو حصن كيفًا،

وتسلَّم عسكرُ الرُّوم آمدَ (4). لقد حقَّق كيخسرو الثَّاني الحُلم القديم لأجداده بامتلاك آمد،

واستخلاصها من حُكْم الأيُّوبيِّين. ولكنْ؛ لن يدوم هذا الحال، فقد عادت آمد إلى الحُكْم الأبُّوبي عام

655 هـ 1257م؛ حيثُ وجَّه الملك الكامل مُحمَّد بن المُظفّر صاحب مَيَّافارقين قُوَّاته، ومعه نجدة من

الملك السعيد صاحب ماردين، فهزموا عسكر الرُّوم، واستولوا على آمد، ولكنَّ قَـدَّرَ هـذه البلدة(٥)

أعاد الرُّوم إليها من جديد، ففي عام 657 هـ 1259م، عندما نزل عليها هُولاكُو، وتسلَّمها من

نائب الملك الكامل، قام بتسليمها إلى أولاد كيخسرو الثَّاني عزّ الدِّين ورُكن الـدِّين، ووضع معهم

إن أهمَّ ما يُلاحَظ على العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين سلطنة سلاجقة الرُّوم والمالك

الأُيُّوبِيَّة أن العلاقات السِّلْمية بينهم كانت تسود كُلُّم لاح خطر في الأفق، وأن التحالف بينهم كان يتمُّ

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، أبن واصل، 5/ 190.

<sup>4 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 343.

<sup>5 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.

<sup>6 -</sup> الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 409.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 415.

<sup>1 -</sup> زُبُدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 690. 2 - المُحتصر، أبو الفداء، 3/ 160.

<sup>3 -</sup>ذيل المُختصر، ابن الموردي، 2/252، وأخبار الأثبوبيِّن، ابن العميد، 32، ومُختصر تاريخ المدُّول، ابن العبري، 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 327.

في حال وتُقوع الخطر، وخاصَّة الخطر الذي يخشى منه السلاجقة، كما كانت الحال في التحالف ضدَّ جلال الدِّين منكبري، والتحالف والتعاون العسكري ضدَّ التَّتَار، فيها عدا ذلك، فالعلاقات على جلال الدِّين منكبري، والتحالف والتعاون العسكري ضدَّ التَّتَار، فيها عدا ذلك، فالعلاقات على المُتلكات الأَيُّوبيَّة، الغالب علاقات مُناورات سياسة، حتَّى تسنح الفُرصة، فينقض السلاجقة على المُتلكات الأَيُّوبيَّة، كاول كها فعل السلاجقة أعاول على السلاجقة أعاول المُتلكات الأَيُّوبيَّة ضدَّ سلطنة السلاجقة أعاول احتلال بلادهم، كها فعل السُّلطان الكامل الأَيُّوبي.

وبالرغم من أن الدِّين الإسلامي يجمع بين سلاجقة الرُّوم والأيُّوبيين، فإن السلاجقة لم يدعموا جهاد الأيُّوبيِّين ضدَّ الفرنجة، بل على العكس، حاولوا استغلال هجهات الفرنجة لاحتلال مواقع لهم في بعض المالك الأيُّوبيَّة، حتَّى إنَّه اتُّهم بعض سلاطين السلاجقة بأنَّهم أطمعوا الفرنج لأَخذ أرض المُسلمين في مصر (1).

وبالتَّالي؛ لم نلحظ أنَّه كان للدِّين أيُّ أثر في العلاقات بين السلطنتَيْن.

وفي النتيجة؛ نستطيع القول بأنَّ سلاجقة الرُّوم لم يساهموا بقيام جبهة تضامن إسلامي ضدَّ الفرنجة، ولم يُشاركوا الأيُّوبيِّن في الجهاد ضدَّ أعداء الدِّين المُشترك، ولم يُلاحَظ على تحرُّكاتهم الفرنجة، ولم يُشاركوا الأيُّوبيِّن في الجهاد ضدَّ السياسيَّة والعسكريَّة أنَّها مدفوعة بأيِّ أثر ديني، مع أن دولتهم - أصلاً - قامت للجهاد ضدَّ السياسيَّة والعسكريَّة أنَّها مدفوعة بأيِّ أثر ديني، مع أن دولتهم - أصلاً - قامت للجهاد ضدَّ البيزنطيين، بل على العكس من ذلك، فقد مدَّ سلاطينهم أعينَهُم للسيطرة على الجزيرة الشَّاميَّة، ورُبَّا البيزنطيين خلفهم، ولا ندري إن كان ذلك لصعُوبة التقدُّم - من خلالها - على الشَّام، تاركين جهاد البيزنطيين خلفهم، ولا ندري إن كان ذلك لصعُوبة التقدُّم على تلك الجبهة؟ أم لمُوازنة الجناح الأناضولي للدولة بجناح شامي؟

وكانت لسلطنة السلاجقة علاقات سياسيَّة مُتميِّزة مع مملكة حلب الأيُّوبيَّة، فهي الجار المُباشر لمم، وقد بدأت تلك العلاقات بمُحاولة السلاجقة احتلال حلب، وانتهت بمُعاهدات ومُساعدات عسكريَّة ومُصاهرات بينها. أمَّا علاقة السلاجقة ببقية المالك الأيُّوبيَّة؛ فقد بدأت عدائية؛ حيثُ تمَّ عسكريَّة ومُصاهرات بينها. أمَّا علاقة السلاجقة ببقية المالك الأيُّوبيَّة؛ فقد بدأت عدائية؛ بحيثُ أدَّت تبادل الهجات العسكريَّة. بعد ذلك؛ تحسَّنت العلاقات بين السلاجقة والأيُّوبية؛ بحيثُ أدَّت للتحالف بينها ضدَّ الخطر الخوارزمي.

- \_سُلَيُهان بن قتلمش بن سلجوق: 471\_479 هـ 1077\_1086م.
  - 1\_قلج أرسلان بن سُلَيُهان: 485\_500 هـ 1092\_1107م.
- 2\_ملك شاه بن قلج أرسلان: 500\_510 هـ 1107\_1116م.
- 3\_ مسعود بن قلج أرسلان: 510\_555 هـ 1116\_1156م.
  - 4\_قلج أرسلان الثَّاني: 551\_584 هـ 1156\_1188م.
    - 5\_ملك شاه الثَّاني: 584\_588 هـ 1188\_1192م.
- 6 \_ كيخسر الأوَّل بن قلج أرسلان الثَّاني: 588 \_ 596 هـ 1192 \_ 1200م.
  - 7 \_ سُلَيُهان الثَّاني بن قلج أرسلان: 596 \_ 599 هـ 1200 \_ 1203م.
  - 8\_قلج أرسلان الثَّالث بن سُلَيَّان: 599\_600 هـ 1204\_1204م.
    - 9\_كيكاوس الأوَّل: 607-616 هـ 1210-1219م.
    - 10 \_ كَيْقُبَادْ الأوَّل: 616 \_ 633 هـ 1219 \_ 1236م.
    - 11\_كيخسرو الأوَّل/ ثانية : 600\_607 هـ 1204\_1210م.
    - 12 \_ كيكاوس بن كيخسرو: 607 ـ 616 هـ 1210 ـ 1219م.
    - 13 \_ كَيْقُبَاذ بن كيخسرو: 616 633هـ 1219 1236م
  - 14 \_ كيخسرو الثَّاني بن كَيْقُبَاذ: 633 \_ 644 هـ 1236 \_ 1246م.
- 15 ـ كيكاوس الثَّاني بن كيخسرو النَّاني: 644 ـ 655 هـ 1246 ـ 1257م.

بعض سلاطين سلاجقة الرُّوم

<sup>1 -</sup> يقول أبو شامة إن كَيْقُبَاذ هُو الذي أطمع الفرنج في دمياط، ( ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 113 ).

ينتسب مُلُوك خوارزم إلى أنوشتكين، وهُو مملوك تركي للأمير السلجوقي بلباك، اشتراه من بلاد الغور في أفغانستان<sup>(1)</sup>، وقدَّمه للسُّلطان ملكشاه، فأصبح ساقياً عنده (2)، وترقَّى في خدمته، حتَّى أصبح شحنة لخوارزم(3).

وفي عام 490 هـ 1097م، أرسل أنوشتكين ابنة قُطب الدِّين مُحمَّد إلى مدينة مرو لتلقّي العلم، فاتَّمل هُناك بحاكم خراسان السلجوقي، الذي عيَّنه واليا على خوارزم، ولقَّبه خوارزمشاه (4)، ثُمَّ أقرَّه في عمله الأمير سنجر السلجوقي (5)، فتمكَّن مُحمَّد من تثبيت مُلكه، وتأسيس الأسرة الخوارزميَّة الحاكمة (6).

وبعد موت قُطب الدِّين عام 521 هـ 1127م، خلفه ابنه أتسز، الـذي خرج عـام 530 هـ 1136م، عن طاعة السلاجقة، وخاض صراعاً طويلاً مع سنجر، انتهى بخُضُوعه إليه، وطلب العفو منه، فوافق، وأعاده إلى بلاده<sup>(7)</sup>.

وبعد وفاة أتسز، خلفه ابنه إيل أرسلان(8)، المذي أنهى \_عملياً \_سُلطانَ السلاجقة على العراق<sup>(9)</sup>. وتُوفِي إيل أرسلان عام 589 هـ 1193م، فخلفه أخوه علاء الدِّين تكش، الـذي خـاض عدَّة معارك مع الخطا(10)، وطالب سُلطان الخَوَارزميَّة أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من سُلطة في بغداد (111).

وبداية العلاقات مع الممالك الأيُّوبيَّة

بينها كانت المالك الأثُّوبيَّة في مطلع القرن السَّابع الهجري، الثَّالث عشر الميلادي، تتصارع على النُّفُوذ، وأعداؤهم التقليديون فرنج الساحل الشَّامي قد دخلوا في مرحلة سكون لانشغال أُورُبة عنهم بمُشكلاتها الدّاخليَّة، وكان أقصى ما يطمحون إليه هُدنة مع جيرانهم المُسلمين، تُتبيح لهم التفرُّغ لجمع الثروات، وصلت من بلاد الشُّرْق إلى حُدُود الجزيرة قُوَّة عسكريَّة جديدة هي

الفصل السَّادس

العلاقات الدوليَّة للمملكة الخُوارزميَّة

جيش الخَوَارزميَّة.

المبحث الأوَّل

الدولة الخوارزميَّة،

الدولة الخُوَارِزِميَّة:

ينتسب الخوارزميُّون إلى خوارزم (1) وهُو اسم للدولة والأرض، ومنه أُطلق على مُلُوكهم اسم خوارزم شاه. ينتمي الخوارزميُّون إلى الجنس التركي، الذي غلب على مُعظم أجزاء آسيا الوُسْطَى(2)، "وفي وُجُوههم أثر التُّرك، وفي طباعهم أخلاق التُّرك".

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10/ 267.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 322.

<sup>3 -</sup> تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 1/ 255.

<sup>4-</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10/ 267.

<sup>5 -</sup> حبيب السير، خواندمير، 2/ 629.

<sup>6 -</sup> عُرفَتْ هذه الأسرة باسم خوارزمشاه، وقد حكمت ما بين 490 هـ 627 هـ 1097م - 1230م.

<sup>7 -</sup> نهاية الأرب، النويري، 26/ 385.

<sup>8 -</sup> أحداث التاريخ الإسلامي، ترمانيني، 3/ 1/ 398.

<sup>9-</sup>راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 513.

<sup>10 -</sup> الخطا: أقوام من العرق التركي، موطنهم سهوب أواسط آسيا، وكانوا بدواً يسكنون الخيام.

<sup>11 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 63.

<sup>1 -</sup> خوارزم: أرض شاسعة خصبة على نهر جيحون \_ أمودريا \_، وهي مُوزَّعة \_ اليوم - بين جمهـ وريَّتَيُّ تركهانـسنان وأوزبكستان، ونسبة إليها أطلق العَرَب اسمَ بحر خوارزم على بُحيرة آرال. ويقول ياقوت الحموي: إن خوارزم اسم تركي يعني لحم وحطب. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: خوارزم)، ويعترض الدُّكتُور إحسان حقّي في نحقيقه لكتاب الدولة العلية العُثبانية على معنى التسمية، ويقول إن الأصحُّ أنَّها تعني آكِل الحَرْب؛ أيْ: المستميت في الخّرب. ( الدولة العلية العُثمانية، مُحمَّد فريد، تحقيق: إحسان حقِّي، ح/ 3، ص/ 61).

<sup>2 -</sup> الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 13.

<sup>3 -</sup> مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مأدّة: خوارزم، وراجعُ: آثار البلاد، القزويني، 520.

فوجدا الخوارزمي قد واجه هزيمة قاسية أمام التَّتَار، فسارا إلى قُرب بخارى، واجتمعا بولده جلال ويعتقد عبَّاس إقبال أن ردَّ فعل الخليفة النَّاصر كان باستعداء الغوريين عليه، وأن تحالف الدِّين (1)، وأثناء الاجتماع؛ أخبرهما جلال الدِّين بوفاة الملك العادل (2).

ومع أن رسالة خوارزم شاه للعادل بقيت سرِّيَّة، وتشتَّت أمرُ الدولة الخَوَارزميَّة بالهُجُوم الصاعق للتَّكَار عليها، ثُمَّ مات مُحمَّد خوارزم شاه، فإن أحداً لم يذكر فحوى الرسالة، أو غاية الخوارزمي من إرسالها، لكنَّنا نستطيع أن نُقـدِّر ذلك، فالخوارزمي كان - وقتها - يخوض صراعاً مريراً مع الخليفة، ويُطالبه بنُفُوذ السلاجقة على الخلافة باعتباره وريثهم، وإنْ كان بشكل غير شرعي، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فقد كان خلفه في الشُّرْق جحافل التَّتَار، وقد جرَّب قدراتهم

ولذا؛ نعتقد أن مُراسلته مع العادل كانت لتأمين عمق استراتيجي له في صراعاته المُتعدِّدة، وعمَّا يُؤكِّد ذلك أن ابنه جلال الدِّين منكبرتي - بعد هزائمه المتوالية أمام التَّنار - لِحا إلى الجزيرة الشَّاميّة، ودخلها غازياً أوَّلاً، ثُمَّ لاجئاً ثانياً.

ولكن خوارزم شاه \_رُبَّما \_لم يكن يعرف بأنَّ حال العادل ليست بأفضل من حاله، فالفرنج يُهاجمون من فلسطين، وهُو يتراجع أمامهم نحو دمشق، ثُمَّ نزلوا في ثغر الديار المصريَّة دمياط، وهـذا ما أهمَّه لدرجة الموت، وكان ذلك بعد أيَّام قليلة من مُقابلة رسول الخورازمي، وتسيير رسوليُّه إليه، اللَّذَيْن - بالتَّأْكيد - حملا النوايا الطيِّمة لا غير. لكنْ؛ مع انعدام النتائج المباشرة لهذا الاتِّصال الدبلوماسي الأوَّل، فقد ترتَّب عليه على ما يبدو - نتائج بعيدة وعلاقات مُتناقضة ما بين سلم وحرب بين جلال الدِّين منكبري بن علاء الدِّين خوارزم شاه وبين الأشرف بن العادل والمُعظَّم بن العادل فيها بعد. وخاصَّة عندما تحرَّك منكبرتي غرباً، رُبَّها مدفوعاً بضغط التَّتَر، فاحتلَّ أصفهان،

الخليفة مع جلال الدِّين الحَسَن التَّالث صاحب قلاع الإسماعيليَّة كان مُوجَّها ضدَّه (1). وكان لتكش ولدان، الأوَّل: غياث الدِّين، وقد استولى على عراق العجم، وكرمان وفارس $^{(2)}$ ، والثاني: جلال الدِّين منكبري $^{(3)}$ ، وهُو الابن الأكبر لتكش $^{(4)}$ ، والذي احتلَّ غزنه عاصمة

الدولة الغورية عام 613 هـ 1216م (5)، وأسقط اسمَ الخليفة العبَّاسي من الخطبة والسِّكَّة بفتوى عدم أهليَّته، وعيَّن بدلاً عنه أحد أبناء الحُسَيْن بن علي خليفة للمُسلمين (6).

وهُناك إشارات إلى أن الخليفة العبَّاسي اتَّخذ أسوأ ردِّ فعل ضدَّ منكبرتي؛ حيثُ يعتقد البعض أن الخليفة النَّاصر رَاسَلَ جنكيز خان، وحثَّه على التحرُّك غرباً نحو بـلاد الإسـلام؛ للقـضاء على

# بداية العلاقات الأثُّوبيَّة بالدولة الخُوَارزميَّة:

كان أوَّل احتكاك دبلوماسي على مُستوى عالٍ بين دولة الخوَارزميَّة ودولة الملك العادل الأيُّوبيَّة قد جرى عام 615 هـ؛ حيثُ وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل وهُو بمرج الصُّفَّر، ومع أن ظُرُوف العادل لم تكن عادية، فالفرنج يضغطون عليه في فلسطين، ثُمَّ نزلوا على دمياط ثغر مصر، ومع ذلك؛ فقد بعث بجواب رسالة الخوارزمي مع جمال الدِّين مُحمَّد الدولعي خطيب الجامع الأموي بدمشق، ومعه قاضي العَسْكُر نجم الدِّين ابن على الحنفي، وقد وصلا همدان،

<sup>1 -</sup> تاريخ إيران، عبَّاس إقبال، تعريب: يُحمَّد علاء منصُور، 332.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 136.

<sup>3 -</sup> منكبرتي: تعني هبة السهاء، أو مبعوث السهاء ( Heaven sent ) انظر: History of Bookhara, Vambery. P, 134

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10/ 105

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10/ 105، ونهاية الأرّب، النويري، 27/ 214.

<sup>7 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 39، وراجعُ مناقشة ذلك في: مبحث العلاقات مع دولة الخلافة من هذا الكتاب.

<sup>1 -</sup> النُّجُومِ الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 223. 2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، شُهيل زَكَّار، 20/ 210.

بذلك، ولبس الخلعة، وركب الفررس يشقُّ شوارع دمشق، وكان إذا حلف يحلف برأس السُّلطان جلال الدِّين (1). "وهذه كانت أوَّل علاقة بين الخوارزمي جلال الدِّين وبين البيت الأَيُّوبي الأَيُّوبي (2).

وفي عام 622 هـ 1225م، تقدَّم منكبري باتِّجاه بغداد، وفتح دقوقا القريبة منها، وَكَتَبَ إلى حليفه المُعظَّم يقول: "تحضر أنتَ ومَنْ عاهدني، واتَّفق معي، حتَّى نقصد الخليفة، فإنَّه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكُفَّار إلى البلاد"، فردَّ المُعظَّم: "أنا معكَ على كُللِّ أحد، إلَّا الخليفة، فإنَّه إمام السُلمين "(3). ويبدو أن الخليفة استشعر الخطر من زحف الخوارزمي، وأراد أن يفتَّ بعضده، ويُبعد عنه خُلفاءه؛ وأهمّهم المُعظّم، فأرسل إليه عام 623 هـ 1226م، مُحيي السدّين بن الجوزي رسولاً، وإرسال هذه الشخصية الهامَّة يدلُّ على أهمِّيَّة المهمَّة بالنِّسبة للخليفة، فقال ابن الجوزي للمُعظَّم في رسالته: "المصلحة الرُّجُوع عن هذا الخارجي إلى إخوتك، ونُصلح بينكَ وبينهم"، قال المُعظَّم: "إذا رجعت عن الخوارزمي، وقصدني إخوي، تُنجدوني؟ قال: نعم"، فردَّ المُعظَّم: "ما لكم عادة تُنجدون أحداً "(4). وفي هذه الأثناء؛ كانت "الرُّسُل لا تنقطع بين المُعظَّم وخوارزم شاه جلال الدِّين (5)، وعندما تأكَّد الملك الكامل من تحالف أخيه المُعظَّم مع جلال السِّين منكبري "خاف من ذلك، وكاتب الإمبراطُور ملكَ الفرنج، في أن يقدم إلى عكًّا؛ ليشغل سرّ أخيه المُعظَّم عيًّا هُو فيه ١٠٥٠. إن صراع الأخوة أبناء العادل نتيجة لجوئهم للتحالف مع الغرباء أودى بالمنطقة لتكون مجال مطامع مُلُوك الشُّرْق والغَرْب، فمنكبرتي الخوارزمي والإمبراطُور فريدريك الشَّاني الفرنجي سيجدان فُرصتها المُناسبة للمُطالبة بحُقُوق لهم في الجزيرة والشَّام نتيجة وُعُود أبناء العادل المُختلفين المتنازعين، الذين ضحُّوا بالبلاد من أجل ضرب بعضهم البعض، فمنكبري أخذ خِلاط وعدَّة بـلاد أُخرى في الجزيرة، وفريدريك أخذ القُدْسَ، عمَّا سيُؤدِّي إلى نتائج مُستقبلية، غاية في الخُطُورة.

واستولى على خوزستان، وهي للخليفة العبَّاسي النَّاصر، ثُمَّ زحف نحو بغداد تُحاولاً احتلالها1، "وَفَعَلَ أَشْنَعَ ما يفعله النَّثَرَ " (2).

ثُمَّ تردَّدت رُسُلُ جلال الدِّين، السُّلطان الجديد للدولة الخَوَارزميَّة، إلى الملك الأشرف بن العادل، وإلى مُعظم مُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام (3).

وفي عام 621 هـ 1224م، كانت العلاقات بين المالك الأيُّوبيَّة تعاني من أزمة حادَّة وانقسام شديد، فقد اتَّفق الملك الكامل صاحب مصر مع أخيه الملك الأشرف صاحب الجزيرة على أخيهما الملك المُعظَّم صاحب دمشق، وضغطا عليه، ممَّا اضطُرَّه للتفكير بحليف قوي، وكانت أخبار انتصارات جلال الدِّين منكبرتي وتقدُّمه السريع نحو العراق تُدوِّي في المنطقة، فاعتقد المُعظَّم أنَّه وجد به الحَلَّ لمشاكله مع إخوته.

وعندما كان منكبري في أذربيجان بعث إليه المُعظَّم محتسب دمشق صدر الدِّين البكري(4)، ورتَّب معه "رجلاً صوفياً من خانقاه السُمَيساطي يُقال له الملق"(5)، ورُبَّها لم يكن المُعظَّم واثقاً من استجابة منكبرتي له، وقبوله التحالف معه، فلم يُرسل له وزيراً، ولا قاضياً، بل أرسل المحتسب مع الصُّوفيَّة، واخترع له قصَّة لتمويه سفارته، فقد كان الجراد يغزو أطراف دمشق، فأعلن أنَّهم سيذهبون إلى أذربيجان لإحضار ماء من عين فيها، فتتبُّع الماء طُيُور السمرمر التي تصل دمشق معه، وتلتهم الجراد. ومع أن الجوّ العامّ كان يسمح بتصديق هكذا رواية، فإن الأمر لم يخف على المُهتمّين، الذين أدركوا أن المقصود هُو الاتِّصال بمنكبرتي المتواجد في أذربيجان. وعاد رسول المُعظَّم يحمل أفضل الأخبار له، فقد وعده منكبرتي بالتحالف والدعم، وأرسل لـ خلعـة وفَرَساً، ففرح المُعظَّم

<sup>1 -</sup> مرآة الجنان، اليافعي، 43.

<sup>2 -</sup> المُختصى، أبو الفداء، 3 / 43 - 36.

<sup>3 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 277.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 284.

<sup>5-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 137.

<sup>6 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 713 ـ 138.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 136.

<sup>2 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 215.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 150.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوْضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 20 / 253. 5 - ذَيْلَ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 273.

## المبحث الثَّاني

# العلاقات بين الملك الأشرف وجلال الدِّين منكبرتي

بشكل مُفاجئ؛ ساد السلام بين جلال اللِّين منكبرتي وبين الخليفة المُستنصر، فاعترف منكبرتي بشرعية الخليفة، وخطب له على منابر دولته (1). وكان منكبرتي - في الحقيقة - مُضطرًّا لهذا الصُّلح؛ بسبب ضغط التَّتَار الشديد عليه، ولعدم تقبُّل أهل خراسان والعراق لُحكم الخوارزميَّة، فهم يعدُّونهم خارجين على السلاجقة، عُصاة للخليفة (2)، إضافة إلى عصيان أحد أُمراء منكبري، الذي اضطرَّ للسير نحوه باتِّجاه الشَّرْق، قبل أن يستفحل أمره (3)، كلّ ذلك أجبر منكبرتي على ترك مشاريعه في العراق ضدَّ الخليفة. أمَّا المشاريع الأهم، التي اضطُّرَّ لتركها أيضاً؛ فهي مشاريعه في الجزيرة والشَّام؛ حيثُ كان يأمل أن يمدَّ نُفُوذه إليها بالتعاون مع حُلفائه هُناك. وكان منكبري قد اتَّفق مع الملك المُعظَّم صاحب دمشق، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وصاحب آمد، وأمير كيفا، ووزَّعوا الأهداف التي يجب مُهاجتها، فكان لمُظفَّر الدِّين الهُجُوم على المَوصل، واحتلالها، وللمُعظَّم الهُجُوم على حمص وحماة، واحتلالها، أمَّا جلال الـدِّين منكبرتي؛ فيقصد مدينة خِلاط، ويحتلُّها، وبـذلك يضربون الملك الأشرف صاحب خِلاط وحُلفاءه أصحاب المَوصل وحماة وحمص (4). وفي الحقيقة؛ كان جلال الدِّين منكبرتي هُو الذي يملك القُوَّة الضاربة للحلف، فلمَّا اضطُّرَّ للعودة نحو بلاده الشَّرْقيَّة انحلَّ الحلف، ولم يترتَّب أيُّ نتيجة عن النحرُّك العسكري لحُلفائه في الشَّام والجزيرة، مع أن مُظفَّر الدِّين هاجم الموصل، والمُعظَّم هاجم حمص وحماة، لكنَّ غياب الخوارزمي وتحرُّك الأشرف السريع مع حليفه كَيْقُبَاذ كفلا بإفشال الْهُجُومَيْن، وانسحاب صاحب آمد وصاحب كيفا من الحلف، وعودتهما لولاء الأشرف(5).

وبعد صُلح منكبرتي مع الخليفة لم يبقَ أمامه مجال للحركة إلَّا باتِّجاه الشمال، نحو بلاد الكرج، وبالتَّأكيد؛ كان منكبرتي يُدرك أنَّه سيكون وجهاً لوجه \_ بعد هُجُومه على الكرج \_ مع مملكة سلاجقة الرُّوم، ومع المالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة، لذلك؛ أوفد القاضي مُجير الدِّين عمر ابن سعد الخوارزمي رسولًا إلى علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، ومن ثَمَّ؛ إلى مُلُوك الشَّام، يُخبرهم بنيَّة السُّلطان جلال الدِّين بالجهاد ضدَّ الكرج، ويطلب منهم العون والمُساعدة ضدَّ أعداء الإسلام<sup>(1)</sup>. ويبدو أن كُلَّ الْمُلُوكِ الذين خاطبهم رسول منكبرتي كان لهم الرأي نفسه، والتساؤل نفسه: متى كان منكبرتي يهتمُّ بالإسلام وجهاد أعدائه؟! ورُبَّها كانت أجوبتهم دبلوماسية لرسوله، لكنْ؛ في الواقع، لم يترتَّب أيُّ نتائج ملموسة على مُبادرة منكبرتي هذه، وغالباً كان يتوقَّع ذلك، فقد أسرع بالزحف إلى بلاد الكرج، واستولى على عاصمتهم تفليس(2)، وأصبح - بذلك - على حُدُود الجزيرة الشَّاميَّة، وعلى احتكاك مُباشر بالمالك الأيُّوبيَّة فيها. ويبدو أنَّه "قد عزم على قصد بلاد الشَّام، لكنْ؛ صرف الله عنها"(3)، وفي الحقيقة؛ انصرف منكبري عن غزو الجزيرة والشَّام لأن جُيُّوش التَّسَار كانت قد

وبعد فتح جلال الدِّين منكبري عاصمة الكرج تفليس، ترك بها حامية قويَّة بقيادة وزيره شرف الملك، فَقَلَّتْ عليهم الميرةُ، فخرجوا عام 623 هـ 1226م، من تفليس نحو أرزن الرُّوم، فنهبوا منطقتها، وأخذوا من الغنائم الشيءَ الكثيرَ، وكان طريق عودتهم على أطراف خِلاط، فاعترضهم نائب الأشرف فيها الحاجب حُسام الدِّين علي، وأوقع بهم، واستردَّ كُلُّ ما نهبوه. فخاف الوزيرُ شرفُ الملك، وأرسل إلى جلال الدِّين يحثُّه على العودة، ويُحلِّد مغبَّة التأخير للانتقام من الحاجب على. فعاد جلال الدِّين نحو خِلاط، وحاصرها، واحتلُّ الربض، وَنَهَبَتْهُ عساكر الحَوَارزميَّة. لكنَّ أهل خِلاط استهاتوا في القتال، ووقف الحاجب على يُقاتل أمامهم، حتَّى ردُّوهم، ثُمَّ اشتدَّ البرد، ونزل الثلج، فرحل جلال الدِّين عن خِلاط(4).

<sup>1 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 280.

<sup>2 -</sup> تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 129.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.

<sup>5 -</sup> حول تضارب مواقف الأميرين الأرتقيَّان صاحب آمد وصاحب كيفا، راجع: (الإمارات الأرتقية، عهاد الدِّين خليل، 179 ـ 181).

<sup>1 -</sup> تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 144.

<sup>2 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 211.

<sup>3 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 339.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 455 ـ 461.

وكان جلال الدِّين منكبرتي عندما احتلَّ أذربيجان قد تزوَّج زوجة ملكها السَّابق أوزبك، وهي ابنة السُّلطان السلجوقي طغرل، وكانت مُتحكِّمة في البلاد خلال عهد زوجها أوزبك، فأهملها جلال الدِّين، ونزع منها صلاحياتها السابقة، وندب للنيابة عنه في خوي (1) شرف الـدِّين البـاخرزي، الذي أراد التحكُّم ببنت طغرل، "ونزل بدارها، واستخرج دفائنها، وخزائنها، وطلبت اللحاق بالسُّلطان، فأبي "(2)، فنقمت عليه، واتَّفقت مع أهل مدينتها خوي، واتَّصلوا بنائب الملك الأشرف في خِلاط الحاجب حُسام الدِّين علي، واستدعوه ليتسلُّم البلاد. "وكان شرف الملك معتقداً بخُلُقّ الجوِّ، فورد الخبر بقُرب الحاجب بالعساكر الشَّاميَّة، فونَّى صوب تبرين، وخلَّى أذربيجان، فوصل الحاجب على ال(3)، وملك خوي وما جاورها من الحُصُون والبُلدان، وذلك في عام 624 هـ 1227م، وقويت شوكته هُناك، ولو أقام في أذربيجان للككها بالكامل، لكنَّه قرَّر العودة إلى خِلاط، واصطحب معه زوجة جلال الدِّين ابنة السُّلطان طغرل (4).

وكان ردُّ الخوارزمي سريعاً، فبعد عودة الحاجب على من خوي، قام شرف الملك الساخرزي وزير ونائب السُّلطان جلال الدِّين بالْهُجُوم على قلعة شمران (5) التي كانت للملك الأشرف، وحاصرها(6). ويُخبرنا صاحب سيرة منكبرتي عبًّا جرى في هذا الحصار، فيقول: "فإذْ بأصوات الكوسات (7)، وإذْ بأعلام صفر وراءها أعلام مُحمر، فولَّى شرفُ المُلك منهزماً، وترك مُعسكره. وسار الطلبُ وراء شرف المُلك...ثُمَّ أنجد السُّلطانُ شرفَ المُلك... وسار يطلب الحاجبَ علي، فالتقيا، وهُزم الحاجب، وقُتل تاجُ المُلُوك بن العادل، وغنم شرف المُلك مُعسكرهم، وَسَيَّرَ الغارات ١٠(8). مع تعادل القُوَّتَيْن، من حيثُ نتائج الوقائع، فإن القُوَّة الأثُّوبيَّة هي الأفضل، فالحاجب عليَّ هُو نائب

1 - خوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. ( مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوي ).

للأشرف، وبدون دعم مُباشر من سيِّده، تمكُّن من تحقيق انتصارات كبيرة بالنِّسبَة لإمكاناته العسكريَّة ولموقعه السِّياسي، بينها كانت القوى الخَوَارزميَّة تحتاج لدعم السُّلطان المباشر، أو لقسم من جيشه، لتُحقِّق أيَّ انتصار، وما ذلك إلَّا لأن الدولة الخَوَارزميَّة تُقاتل في أراض شبه مُعادية، حتَّى في المناطق التي تُسيطر عليها، وهي دولة مُجهدة استنزفها التَّتَار، وطاش حجر سُلطانها.

وبعد هذه الصراعات الجانبية بين الباخرزي نائب جلال الدِّين، والحاجب على نائب الأشرف كان لابُدَّ من تصعيد الموقف، وخاصَّة عندما لمس جلال الدِّين هدوءاً ملحوظاً على جبهته مع التَّسَار، فقاد جُيُوشه، وتوجَّه نحو الجزيرة. وكانت أوَّل بُلدان الجزيرة التي احتلَّها منكبرتي هي ماردين، وعندما دخلها، دوَّت أخبار قُوَّته الوحشية وأفعاله التي لم يفعلها إلَّا التَّتَار، في كل أنحاء الشَّام (1)، وامتدَّت أطهاعه نحو الجزيرة كلَّها، ورُبَّها الشَّام من بعدها، لما لمسه من ضعف القوى الأيُّوبيَّة فيها، وتفرُّق كلمتهم، ومُحالفة المُعظَّم له ضدَّ أخوَيْه الكامل والأشرف، وخاصَّة أن الأشرف قد أزال بيدَيْـه شـوكه طالمًا وقفتْ في حلق أطماع منكبرتي بعَزْله الحاجب على عن خِلاط، واعتقاله فيها.

وماً شجّع منكبرتي أكثر على اقتحام الجزيرة وبجود أُمراء فيها، كاتبوه، وحالفوه، مثل صاحب سر ماري، وصاحب أرزن الرُّوم، اللَّذَين قدَّما له النجدات العسكريَّة، وأمدَّاه بها يلزم من المعدَّات والمؤن (2)، عندما حاصر مدينة خِلاط.

ألقى جلالُ الدِّين منكبرتي الحصارَ على مدينة خِلاط، وهي للملك الأشرف، فقاومت حامية المدينة حصارَ الخوارزمي لفترة طويلة نسبياً (3)، دُون أن يتحرَّك صاحبها الملك الأشرف، الذي رُبَّا كان مشغولاً بأُمُور دمشق، أو أنَّه كان يأمل بفشل الحصار، أو بفكِّه عن طريق التحرُّك السِّياسي، فقد أنزل نائب خِلاط عزّ الدِّين آيبك رسولاً إلى جلال الدِّين يبذل له الخُضُوع والطاعة، ويُخبره أن الملـك الأشرف "ما أمره بالقبض على الحاجب إلَّا لإساءته الأدب مع السُّلطان، والتخطِّي إلى بلاده من غير أمر صدر إليه، وها هو قد ولاَّني خِلاط مأموراً بطاعة السُّلطان، واتَّباع مُسراده". وبالغ رسول عـزٍّ

<sup>2 -</sup> سيرة منكبرت، النسوي، 825 ـ 259.

<sup>3 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 260.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.

<sup>5 -</sup> شمران: قال ياقوت: شميران بلد في أرمينية، وشميرام حصن بأرمينية، (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، 3 / 365).

<sup>6 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 269.

الأعشى، القلقشندي، 3/ 475).

<sup>8 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 270 ــ 275.

<sup>1 -</sup> السُّلُوك، المقريزي، 1/ 339.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 83، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 84. 3 - قاومت مدينةُ خِلاط حصارَ الخوارزمي عشرة أشهر .( تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 78).

الدِّين آيبك بمُلاطفة السُّلطان، فلم يلتفتْ إلى كُلِّ ذلك، وقال له: "إن أردتَ مَرضاتي، فابعث إليَّ الحاجبَ عليًا"، ولمَّا عاد الرسول إلى عزّ الدِّين، قام بقتل الحاجب عليّ مُباشرة (1).

ونحنُ نعرف أن الحاجب على عندما حقَّق انتصاراته على الخَوَارزميَّة، وأحضر بنت طغرل زوجة الخوارزمي ابتهج الأشرف، وعدَّ ذلك من انتصاراته. وما قاله رسول عزّ الدِّين نائب خِلاط المُحاصرة حول اعتقال الحاجب على هُو استغلال لظرف اعتقاله، وقد أدرك الخوارزمي ذلك، فلم يهتمّ كثيراً، وطلب الحاجب على، ولكنْ؛ هل كان يرمي من طلبه الانتقام منه بنفسه؟! أم كان يعرف أن طلبه سيُؤدِّي إلى قتله؟!

كذلك ورد إلى جلال الدِّين منكبري \_ وهُو على حصار خِلاط \_ رسولان من ديوان الخليفة المُتصر، وطلبا فكَّ الحصار، فلم يوافق جلال الدِّين، "واستنكر ذلك، وقد حان فتحها، فقالا: نخاف أن تعجز عنها، وترحل، فبإشارة الديوان يكون الأمر أفضل" وربَّها استرضاءً للخليفة الذي كان جلال الدِّين يحرص \_ في ظُرُوفه تلك \_ على عدم إغضابه، ولكي يُمرِّر عدم استجابته لطلب الخليفة، أرسل إليه يسأله أنْ يُنعم عليه بلباس الفُتُوَّة. وكان الخليفة مُهتاً بنشر تنظيم الفُتُوَّة، وكان الخليفة مُهتاً بنشر تنظيم الفُتُوَّة وخاصَّة بين المُلُوك، فتسلَّم طلب جلال الدِّين منكبري نقيب الفُتُوَّة في دار الخلافة جلال الدِّين عبد الله بن المُختار، فرغَّب الخليفة بذلك، فأجابه، وسارت الرُّسُل بانجًاه منكبري، ومعهم "التشاريف والخلع، فوصلوا والخوارزمي على أخلاط، غاصراً لها، فألبسوه الفُتُوَّة، وتشاريف الخلافة" عام والخلع، فوصلوا والخوارزمي على أخلاط بالكامل، فالأمر سيَّان إنْ كانت مع الأشرف، أو كانت مع الأشرف، أو كانت مع الخوارزمي، والمُهمُ عنده أنَّه زاد عدد المُلُوك الذين ألبسهم سراويل الفُتُوَّة، وهي عنوان الطاعة لـه، مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة.

وبعد مُقاومة ضارية وصبر طويل أظهرته مدينة خِلاط، تآمر بعض الأُمراء مع منكبري، وساعدوه على دُخُول المدينة (1)، عام 627 هـ (2). ويُقال إن مَنْ تآمر على تسليم خِلاط للخوارزمي هو: ابن مُحسن دلدرم (3)، ورفيقه (4). ولُمنق منكبري من المُقاومة التي أبدتها خِلاط "فعل بأهلها ما يفعله التَّرّ "(5)، " فقتل مَنْ وجده من أهل البلد، وخرّبها، وسبى الحريم، واسترق الأولاد، ونهب الأموال، وجرى على أهلها ما لم يُسمَع بمثله "(6). وقام جلال الدِّين بالقبض على مُجير الدِّين يعقوب وتقي الدِّين عبّاس شقيقي الأشرف، وأعدم عزّ الدِّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط؛ إذْ سلّمه لملوك للحاجب عليّ ليقتله انتقاماً لأستاذه. كما أخذ زوجة الأشرف ابنة إيفاني ملك الكرج "وكان أبوها قد زوَّجها للملك الأوحد بعد أسره أمام خِلاط، وبعد موت الأوحد تزوَّجها أخوه الملك الأمرف، وضمَّها منكبري إلى حريمه انتقاماً لأَخذ الحاجب علي زوجته من خوي (7)، ودخل بها جلال الدِّين تلك الليلة (8).

وبعد أن استقرَّ منكبرتي في خِلاط لم ينسَ الخليفة، فقام بتسير تقي اللَّين عبَّاس بن العادل وشقيق الأشرف، في قيوده إلى بغداد هدية إلى الخليفة، وفي بغداد؛ أُزيلت عنه القيود، وأكرمه الخليفة، وبقي عنده حتَّى كُسرَ الخوارزمي (9).

إن كلَّ ما قام به منكبري في خِلاط ليدلّ على أكثر من الوحشية والتهوَّر، إنَّه دليل على عدم امتلاكه لعقلية القائد السِّياسي، أو رجل الدولة، رُبَّما كانت تلك الوحشية قد تولَّدت في نفسه نتيجة لكُلّ الظُّرُوف التي عاشها، وخاصَّة في كفاحه المرير ضدَّ التَّنَار. أمَّا هديَّته للخليفة؛ ففيها مسحة من الاستخفاف ببني أيُّوب، أكثر ممَّا فيها تقدير للخليفة.

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ الرَّوْضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 309.

<sup>3 -</sup> دلدرم: اسم تركي أصله: بيلدرم؛ أيُ البرق.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 85.

<sup>5 -</sup> المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.

<sup>6 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.

<sup>7 -</sup> تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 158.

<sup>8 -</sup> تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 79.

<sup>9 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 200.

<sup>1 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 299.

<sup>2 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 307. 3 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 296.

## المبحث الثَّالث

# العلاقات الخُوَارزميَّة مع قوى الجزيرة الشَّاميَّة

عندما دخل جلالُ الدِّين خوارزم شاه إلى عالم الجزيرة الشَّاميَّة، بما يُمثِّله جيشه من قُوَّة كُبْرَى، أدًى ذلك إلى إعادة تشكيل التكتُّلات السِّياسيَّة والعسكريَّة التي كانت سائدة قبل وُصُول الخوارزمي، ولاح في الأفق انقسام أصحاب القوى في الجزيرة الشَّاميَّة بين حلفَيْن كبيرَيْن، هما:

#### آ. خُلفاء الخوارزمي:

1 - رُكن الدِّين جيهان شاه بن طغرل: صاحب أرزن الرُّوم، وابن عمّ علاء الدِّين كَيْقُبَاذ (1)، وقد كانت بينه وبين قيقباذ عداوة مُستحكمة، عمَّا جعل علاء الدِّين يخاف من هذا التحالف(2)، وقد حضر رُكن الدِّين جيهان شاه بنفسه إلى عند جلال الدِّين وهُو يُحاصر خِلاط، وأمدَّه بعساكره، وبالمعدَّات اللازمة للحصار (3). وبعد دُخُول جلال الدِّين خِلاط جاء إليه جيهان شاه، وأعلمه "باتَّفاق مُلُوكَ الشَّام والرُّوم عليه، وقال: الرأي مُبادرتهم قبل أن يجتمعوا، فصوَّب السُّلطان رأيه " (4).

2. حُسام الدِّين خضر الأصيلي (5): صاحب سر ماري، وكان حُسام الدِّين يتلاعب على حبال السياسة، فيُظهر لجلال الدِّين أنَّه معه، ومن جُملة أتباعه، وكذلك يفعل مع الأشرف(6). وعندما حاصر جلال الدِّين خِلاط قدم إليه بنفسه، وبجنده، ومعه آلات لدعم الحصار، فأكرمه الخوارزمي بعد فتحه خِلاط، وأعطاه بلدة أرجيش، والأل(7). وكان حُسام الدِّين يعتقد أنَّه \_ بذلك \_ سيحفظ إمارته من الطرفَيْن المتنازعَيْن، وبالتَّأكيد؛ فإن حُسام الدِّين كان يُبرِّر لنفسه ذلك بضعفه أمام القوى الكبيرة المُتصارعة حوله، ولكنَّه لم يُفكِّر بأنَّ أمره سينكشف لها معاً، فقد أرسل الحاجب علي نائب

أن الخورازمي لا يحفل بحلف، ولا بمُوالاة إلَّا وُفقاً لمصالحه.

ب، الأَيُّوبيَّة وحُلفاؤهم:

الأشرف في خِلاط كتاب صاحب سر ماري حُسام الدِّين وطيّه كتاب وزير الخوارزمي الواصل إليه،

ولابُدَّ أن حُسام الدِّين بنفسه هُو الذي سلَّم الكتاب للحاجب على بُرهاناً على مودته، ويُؤكِّد فيه وزير

الخوارزمي شرف الملك<sup>(1)</sup>: بأنَّ جلال الدِّين "لا شكَّ ولا شُبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد

كذلك أرسل صاحب سر ماري ابنه إلى عند الملك الحافظ، وهُو نائب الأشرف في الجزيرة،

فأكرمه الحافظ، لكنْ؛ عندما حضر الأشرف لاسترداد خِلاط من الخوارزمي، قبض على حُسام الدِّين

خضر، وعلى ابنه، وحملهم إلى دمشق (5)، وذلك جزاءً لتحالفه مع الخوارزمي. بعد ذلك؛ حاول جلال

الدِّين منكبرتي أن يتودَّد إلى السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، فأرسل له رسولاً يحمل هدايا قيِّمة، فلم يأب

له الرُّومي، فابن عمِّه صاحب أرزن الرُّوم عند الخوارزمي، وهُو لا يأمن منه. كما يبدو أنَّه كان يعرف

كان أكبر مُلُوك الآيُّوبيَّة وهُو السُّلطان الكامل "أمُهتَّاً من أمر الخوارزمي" (6)، الـذي دخـل عـالم

الجزيرة بقُوَّة بعد احتلاله لمدينة خِلاط، فقد أشرف على الشَّام، وقُوَّته لا تخفى على أحد، لـذلك؛ ركَّنز

الكاملُ جُهُودَهُ من أجل التحالف مع الرُّومي علاء اللِّين ضدَّ الخوارزمي(7)، وكان هذا رأي الملك

الأشرف، وهُو المَعْني بالأمر، فخلاط من أملاكه، وكانت القُوَّة المُعادلة للخوارزمي هي قُوَّة الرُّومي عـلاء

الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، فرغب الكامل بالتحالف معه، آملاً منه النجدة في صراع مُرتقَب ضـدًّ

الأرمن والشَّام "(2). وأرفق معها رسالة منكبري نفسه؛ حيثُ يُؤكِّد عزمه على غزو الأرمن والشَّام

لولا إعاقة الفتن الدّاخليَّة في بلاده (3)، وأنَّه حالما ينتهي منها سيتوجَّه نحو الأرمن والشَّام (4).

الخوارزمي(8). أمَّا كَيْقُبَاذ؛ فإنَّه كان مُهتَّاً لأمر الخوارزمي رُبَّا أكثر من الأَيُّوبيَّة، فقد أزعجه دُخُول 1-شرف الملك: خواجا جيهان علي بن أبي القاسم، تُوفِّي عام 628 هـ 1231م.

<sup>2-</sup>راجعْ نصَّ الرسالة في: المنصُوري، ابن نظيف، 169.

<sup>3-</sup>راجعُ نصَّ الرسالة في: المنصُوري، ابن نظيف، 170.

<sup>4 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 172.

<sup>5 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 219.

<sup>6 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 196.

<sup>7 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 196.

<sup>8 -</sup> النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 273.

<sup>1 -</sup> تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، وسيرة منكبرتي، النسوي، 329. 2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 185.

<sup>4 -</sup>سيرة منكبري، النسوي، 329.

<sup>5 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 219. 6 - المنصُوري، ابن نظيف، 666.

<sup>7 -</sup> الأل: بلدة بالجزيرة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: الأل)

الخوارزمي مسرح الجزيرة، وأَخْذ خِلاط، وهي مفتاح بلاده، لذلك عدَّ أن تحالفه مع الأيُّوبيَّة، بغَضَّ النظر عن كُلِّ المواقف السابقة، أمر مصيري بالنِّسبة إليه، فقد "خاف أن يأخذ بلاده" (1).

وفي عام 627 هـ 1230م، أرسل الرُّومي رسوله إلى الملك الكامل، الذي كان مُقيماً في الرقَّة، يُحلِّفه على التعاهد والتعاضد. وبالمُقابل؛ أرسل الملك الكامل كُلاً من: الشهاب أحمد (2)، والجمال الكندري(3)، لتحليف الرُّومي(4). والغريب في الأمر هُو تضارب الأخبار عن موقف علاء الدِّين كَيْقُبَاذ من جلال الدِّين منكبرتي ومن بني أيُّوب، ويبدو من هذه الأخبار أن الرُّومي لم يكن قد حزم أمره بعد، وأنَّه يُلاطف الطرفَيْن، ويتودَّد لهما على السواء، فقد أورد النسوي أنَّه قد وصلت للسُّلطان جلال الدِّين رسالة من علاء الدِّين كَيْقُبَاذ صاحب الرُّوم يغريه بمُعاداة بني أثُّوب، ويعده بالمُساعدة عليهم، ويقول فيها: "إنَّه كان اشتغل في سنته تلك بمَنْ يُتاخمه من الكَفَرَة، ففتح لهم عـدَّة حُـصُون، كم أن السُّلطان اشتغل بالتتار، فردُّهم على أعقابهم، ولم يبقَ - الآن - إلَّا صرف الهمَم إلى هـ ولاء الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية"، وبالغ في ذكر الصفات السَّيِّئة لبني أيُّوب حتَّى قال: "ورجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" (5). وفي الحقيقة؛ إنْ صحَّت هذه الرسالة، فهي تحريض شديد من الرُّومي، وإغراء واضح له لقتال الأيُّوبيَّة، وذمّ لهم بلغ حدَّه الأقصى باعتبار قتالهم هُو الجهاد الأكبر، فَمَنْ يُقاتلهم يُثاب أكثر مَّنْ يُقاتل التَّتَار، أو الفرنجَ، على حدِّ قول الرُّومي. وفي الوقت نفسه؛ يصل إلى الرقَّة الكمال كيمار رسول علاء الدِّين كَيْقُبَاذ صاحب الرُّوم يحمل صُورة عن الرسالة التي كان قد سيَّرها إلى جلال الدِّين الخورازمي، وسُلِّمَتْ الرسالة بمحضر من المُلُوك الأيُّوبيَّة: الكامل، والأشرف، والحافظ، ولديهم رسول الخليفة تُحيي الدِّين بن الجوزي، وعمَّا جاء في الرسالة: "لقد تجنَّيتَ على بيت أيُّوب، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصَّل من سنين ٠٠٠ ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد... وأنت، فلا أموال، ولا رجال، وبلادكَ خربة... ولا تظنّ أني عدوّهم، لا؛ والله،

الأَيُّوبيَّة في حلب، وحماة، وخمص.

وأهلك العباد، فعندي المال والرجال "(3). لقد كان الرُّومي يُدرك تماماً أنَّه غير قادر على مُواجهة الخوارزمي بقُوَّاته الخاصَّة، ولذلك ألحَّ على التحالف مع بني أيُّوب، وخاصَّة الملك الأشرف، فهُ و يعرف إمكاناته العسكريَّة وقدرته القيادية. ومع أن الاتَّفاق بصبُّ في مصلحة الأشرف تماماً، فقد شاور أخاه الكامل، فقال الكامل: إن في الاتِّفاق مع الرُّومي مصلحة لنا، وأخذ الكامل معه سبعة آلاف فارس، وغادر الرقَّة إلى مصر (4). فلهاذا غادر الكامل ساحة المعركة المُتوقَّعة؟ ولماذا ابتعد إلى مصر؟! مكتفياً بإسداء النُّصح لأخيه الأشرف بالاتِّفاق مع الرُّومي، هـل هـي ثقـة بأخيـه؟! أم عـدم اكتراث؟! يبدو أن تقييم موقف الكامل ليس بالأمر السهل، فانسحاب الكامل بجنده نحو منصر لانبَّد أنَّه لأمر عظيم تراءى له، أو أنَّها غاية المصلحة الضيِّقة؛ حيثُ سار إلى مصر ليكون في قاعدة سلطنته بعيداً عن النتائج، التي قد لا تكون في مصلحة الأيُّوبيَّة في الشَّام.

بل صديقهم ونسيبهم بما بيننا من الأهلية والمُصاهرة" (أ). إزاء هذَيْن النَّصَّيْن بحار الباحث في أيّها

كان الرُّومي صادقاً؟ رُبَّما في كلَّيْهما، فلكُلِّ واحد كَتَبَ ما يُرضيه، وما يُحقِّق له مصالحه الشخصية عند

مُتلقِّي الرسالة في الوقت نفسه. ورُبَّها كان موقف الرُّومي المُعادي للأيُّوبية قبل أن يأخذ الخوارزمي

خِلاط، فقدَّم عرضه للخوارزمي، ويبدو أن عرضه لم يلقّ أذناً صاغية من الخوارزمي، ولم يلتفت إليه،

لذلك؛ عندما احتلَّ خِلاط عدَّ إن الخطر قد أصبح على بابه، فاندفع الرُّومي نحو الأَيُّوبيَّة ليتحالف

معهم. وألحَّ الرُّومي في طلب الملك الأشرف الذي كان في دمشق "حتَّى قبل إنَّه في يوم واحد وصل

إلى الكامل والأشرف منه خمسة رُسُل "(2)، فتشكَّلت نُواة الحلف المُواجه لحلف جلال الدِّين

الخوارزمي من الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك الأشرف صاحب دمشق، ولكُلِّ منهما مُـدُن

وبلاد في الجزيرة تتبع إليه، واتَّفق معهم حُلفاؤهم التقليديون: صاحب المَوصل مُظفَّر الدِّين، والمالك

وكان طلب كَيْقُبَاذ من الأشرف: أن "تحضر إلى عندي، لنتَّفق على هذا الذي أضرَّ بالبلاد،

<sup>1 -</sup> النصوري، ابن نظيف، 198.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.

<sup>3 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.

<sup>4 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصِل، 4/ 291.

<sup>-</sup>2 - شهاب الدِّين: هُو أحد المُقرَّبين من الملك الكامل، تُوفِي عام 634 هـ 1236م.

<sup>3 -</sup> جمال الدِّين أبو القاسم عبد الرحمن الكندري، فقيه ومُدرِّس في مدرسة الـشافعية بمـصر، تُـوقيّ 651 هـ 1283م.

<sup>(</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 185).

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 195.

<sup>5 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 278.

وإذا حاولنا أن نُفتِّش على تبرير لحركة الكامل بالانسحاب، فرَّبًا نقول إنَّه اطمئنَّ بعدما أرسل الرُّومي يُخبره: "أنَّه سيَّر خسة عشر ألف فارس إلى أزربيجان، وعشرة آلاف إلى ملطية، وإنَّه حيثُ الرُّومي يُخبره: النَّه سيَّر خسة عشر ألف فارس إلى أزربيجان، وعشرة آلاف إلى ملطية، وإنَّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك" (1). على كلّ الأحوال؛ سار الأشرف إلى حَرَّان بسبعائة فارس، وأقام بها ينتظر وُصُول عساكر الشَّام ليلتحق بحليفه الرُّومي (2)، ووصلت النجدات إلى الأشرف في حَرَّان؛ حيثُ بلغ عدد فُرسان الأشرف خسة آلاف فارس، ومنهم عسكر دمشق، والجزيرة، وحلب، وحماة، وكان يقود عسكر حمص الملك المنصور إسراهيم بن المُجاهد (3). فسار الأشرف من حرَّان بجموعه، والتقى بحليفه الرُّومي مع عسكره قُرب سيواس، وسارا نحو خِلاط (4).

### معركة ياصجمن 627 🖦

جمع الأشرفُ عسكرَ الجزيرة والشَّام، فكان معه بحُدُود خسة آلاف فارس "أمن الشجعان، وكُلُّ منهم قد جرَّب الحَرْب، ومُقدَّمهم أمير من أُمراء عسكر حلب يُقال له عزّ الدِّين عُمر بن علي الحكاري، من الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة "(5). وكان مع علاء الدِّين كَيْقُباذ الحكاري، من الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة "(5). وكان مع علاء الدِّين جيهان شاه حوالي عشرين ألفاً من المُقاتلين (6). وفي أثناء الاستعدادات؛ حضر إلى منكبرتي رُكن الدِّين جيهان شاه صاحب أرزن الرُّوم، وأعلمه "باتِّفاق مُلُوك الشَّام والروم عليه، وقال: الرأي مُبادرتهم قبل أن يجتمعوا، فصوَّب السَّلطان رأيه، واتَّفقا . . منتظرين حَرَكة العسكرين أيّها تحرَّك أوَّلاً، ساقا إليه قبل اتصاله بصاحبه" (7). وللحقيقة؛ فهذه خُطَّة جيَّدة، وكان من المُمكن أن تُوَدِّي إلى اختلاف جذري في اتيجة المعركة، لكنْ؛ "مَرضَ السُّلطان مرضاً شديداً، وسقط على الفراش، وتواترت كُتُبُ رُكن نتيجة المعركة، لكنْ؛ "مَرضَ السُّلطان في شُغل عنها، وبعد أن خفَّ عنه المرض ساق، وبعض عساكره أن الشَّرق وبعضها في حصار بعض القلاع" (8). إن الأيّام التي أمضاها السُّلطان جلال الدِّين مريضاً

كانت أيَّاماً ذهبية للحُلفاء، فقد أكملوا استعداداتهم، والتقى الجيشان بسيواس، وما إنْ سمعوا

بحَرَكَة الخوارزمي حتَّى تحرَّكوا، والتقوا بعسكره في مرج ياصحمن (1)، وأطلَّت العساكر الأيُّوبيَّة

والرُّومية عليهم في المرج وهم مُعسكرين، بينها جيش الحُلفاء بأتمُّ أهبَّة واستعداد، وكان الرُّومي هُـو

الدبندار (2)، وقُوَّات الرُّوم تُشكِّل الميمنة والميسرة، أمَّا القُوَّات الأيُّوبيَّة؛ فهي بقيادة الأشرف، وتُـشكِّل

القلبَ، وكُلِّ منهم له بعض الأجنحة، فكان صاحب خرتبرت الأرتقي من أجنحة الرُّومي، "وكان

مع الرُّومي من الخلائق ما طبق الأرض، وملأها من التُّركان، والأرمن، والفرنج، والمُسلمين،

وغيرهم". والملك المنصور صاحب حمص كان من أجنحة الأشرف، "وقد عمل عملاً عظيماً هُو

وأصحابه، وفقد جماعة منهم دُون باقي جميع السلاطين"، أمَّا عسكر حلب؛ فكان في وسط القلب.

وكانت العَرَبان قد حضرت مع الأشرف، وهي لكونها تُوَّات خفيفة جدًّا، فهي التي تبدأ المطاردة،

ويسوق خلفها باقي العَسْكَر(3). والتقى الجمعان "فانكسرت الخوارزميَّة، ووقع منهم في واد خلق

كثير، فهلكوا" (<sup>(4)</sup>، "وولَّى جلال الدِّين منهزماً، وتفرَّقت عساكره، وتمزَّقت " (<sup>(5)</sup>. وقبض كَيْقُبَاذ على

تحالف الأشرف وكَيْقُبَاذ برواية لا تفتقد إلى التهاسك، يقول: "كان جلال الدِّين قد دهمه المرض، فبرز

من محنته، وامتطى جواده، ولأن صحَّته مازالت واهنة لم يُحسن التمسُّك بزمام جواده، فانطلق الجواد

على غير هُدى، فقالت الخاصَّة: يجب أن ينال السُّلطانُ راحتَهُ، فعادت الرايات، وحين رأت صُفُوف

الميمنة والميسرة ذلك ظنُّوا أن السُّلطان انهزم، فتراجعوا، بينها ظنَّ جيش الخصوم هذا التراجع حيلة

ويشرح لنا الجويني مُجريات هذه المعركة الغريبة، مُبرِّراً هزيمة جلال اللَّين منكبرتي أمام

ابن عمِّه، رُكن الدِّين جيهان شاه بن أَرْطُغُرُل صاحب أرزن الرُّوم، وسجنه (6)، ويُقال إنَّه قتله (7).

<sup>1 -</sup> يا صحمن: هُو من أعمال أذربيجان، ذكره ابن الأثير باسم: باسي حمار، ( الكامل في التاريخ، 12/ 490 ).

<sup>2 -</sup> الدبندار: الذي يضرب الطبل ( صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 13)، ونستنتج من السياق أنَّها تعني القائد العامّ، الذي يتحرَّك الجميع بأمره.

<sup>3 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 206 ــ 209.

<sup>4 -</sup> ذَيْلِ الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. شهيل زَكَّار، 20/ 903.

<sup>5 -</sup>مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298، \_يروي ابن واصل حادثة تدلَّ على اختلال عقل جلال الدِّين بعد هزيمته. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298).

<sup>6 -</sup> تاريخ التَّنَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، والمنصُوري، ابن نظيف، 212.

<sup>7 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 331.

<sup>1 -</sup> المنصُورِي، ابن نظيف، 195.

<sup>2 -</sup> كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ <sup>299</sup>.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.

<sup>4 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489. 6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.

<sup>7 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، <sup>329</sup>،

<sup>8 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 330.

#### نتائج المعركة:

بعد المعركة مُباشرة تحرَّك الأشرف نحو خِلاط، فاسترجعها(1)، عام 628 هـ 1231م(2)، وهي خراب يباب (3). والغريب في الأمر أن جميع الأطراف المُتحاربة المُنتصرة: علاء السِّين كَيْقُبَاذ الرُّومي، والأشرف مُوسى الأيُّوبي، والمهزومة: جلال الدِّين منكبرتي الخوارزمي، جميعهم مالوا للـصُّلح، وبـدؤوا بمُفاوضات ومُراسلات للاتِّفاق فيما بينهم، والتحالف على أن يبقى بيد كُلِّ منهم ما يملكه من البلاد، ولا يتعرَّض أحدهم لما بيد الأخر(4)، فما هي دوافع هذا الصُّلح بالنِّسبة لكُلِّ الأطراف؟

1 \_ بالنَّسبة لجلال الدِّين منكبري، كان وضعه لا يحتمل مثل هذه الهزيمة، وإنْ لم تكن حاسمة، "فقد ضعف جلال الدِّين، وقويت عليه التَّتَار "(5)، لذلك؛ مال للصُّلح، وهُـو من مصلحته بالدرجة

2\_أمَّا بالنِّسبَة للأشرف؛ فإن بوادر خلافه مع أخيه الكامل كانت قد بـدأت فعـلاً، ولابُـدَّ إن انسحاب الكامل، وعدم دعمه للأشرف في معركة مصيرية مع الخوارزمي كان بداية ذلك الخلاف.

3 \_ أمَّا علاء الدِّين كَيْقُبَاذ؛ فالمعركة ضدَّ الخوارزمي بالنِّسبَة إليه كانت معركة وقائية، لإبعاده عن حُدُوده، كما أن له مُحاولات سابقة للتحالف مع الخوارزمي، وحتَّى إنَّه سعى لتوجُّهها ضدَّ بني أيُّوب.

ويقول النسوي صاحب سيرة منكبرتي: إن الأشرف هُو الذي ابتدأ بطلب الصُّلح والتحالف مع جلال الدِّين، وإنَّه وسَّطَ شرفَ الملك وزير جلال الدِّين في إتمامه، وأرسل لـ ه يقـول: "إن سُـلطانك سُلطان السُّلمين، وسندهم، والحجاب دونهم، فهلا ترغبه في جمع الكلمة... وأنا ضامن السُّلطان من جهة كَيْقُبَاذ، وأخي الكامل"، وتردَّدت الرُّسُلُ بينهم، حتَّى وافق السُّلطان جلال الدِّين على الصُّلح<sup>(6)</sup>.

بينها يقول ابن نظيف: إن الملك الأشرف أرسل لجلال الدِّين يطلب حسن مُعاملة الأسرى، فردَّ عليه منكبرتي بطلب الصُّلح، وقال من مُجملة رسالته: "فإن اخترتُم الصُّلح، بسم الله" (7). ويُتابع

من السُّلطان، ليسوقهم إلى الصحراء، فلم يلحقوا به(1)، ولو ساق الرُّومي والأشرف خلف الخوارزمي لتمكَّنوا من إبادة قُوَّاته، "بل ظنُّوا أن له عدَّة أمكنة، لأنَّه انكسر من غير قتال فقالوا: هذه خديعة، ما نثق بكسرته"(2)، ونستدلُّ من ذلك أنَّها كانت معركة غير حاسمة، ولم يتمّ فيها قتال حقيقي، أدَّت ظُرُوف مرض منكبرتي إلى تراجع جيشه، دُون استثمار عسكري لهذا التراجع من قبّل الأشرف وحليفه كَيْقُبَاذ، ممَّا مكَّن الخوارزمي من إعادة جمع قُوَّاته، ثُمَّ سار إلى خِلاط، ومنها إلى أذربيجان (3). ويقول ابن نظيف: إنَّه بعد هزيمة الخوارزمي هُـم الأشرف عُبُور بـلاد العجـم وراءه، وظلَّ \_ تارةً \_ يُقدم، وتارة يُحجم (4). ولكنْ؛ في الحقيقة، حتَّى لو كانت نتيجة المعركة حاسمة تماماً، وهزيمة الخوارزمي كاملة، ما كان الأشرف ليُقدم على هذه الخطوة الأسباب كثيرة، منها:

1 \_ عندما احتلَّ الحاجب على بلاد أذربيجان لم يتمكَّن من الإقامة فيها طويلاً، بـل غادرهـا مُسرعاً، مع أنَّه قدمها بمُوافقة أهلها.

2\_ لم يكن الرُّومي ليسمح بهذا التوسُع للأشرف، عمَّا يعني قُوَّة كُبْرَى قُرب حُدُوده، وبالتَّالي؛ لن يدعمه، إذا لم يمنعه أصلاً من دُخُول بلاد الشَّرْق.

3\_ تتشكَّل قوى الأشرف العسكريَّة، إضافة إلى قُوَّاته، من عساكر المالك الأيُّوبيَّة: حلب، وحمص، وحماة، وغيرها، ولا يُمكن أن تسير هذه القُوَّات بهذه الحملة لبُعد قواعدها، ولحاجتها

4\_إن الأشرف يعرف جيِّداً ما يواجهه الخوارزمي من متاعب من أهل البلاد، وأهمّ من ذلك من التَّتَار المُتحفِّزين في الشَّرْق.

5\_ أمَّا إذا كان المقصود بعُبُور الأشرف هُو حملة للمطاردة فقط؛ فهي غير مأمونة الجوانب، وفائدتها العسكريَّة قليلة.

ولكُلِّ ذلك نعتقد أن ما فكَّر به الأشرف هُو مُجرَّد أقوال تخدم الحَرْب المعنوية، ويُؤيِّد ما نذهب إليه مُحاولة الأشرف المباشرة للصَّلح مع الخوارزمي.

<sup>1 -</sup> تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2/ 84.

<sup>2 -</sup>المنصُوري، ابن نظيف، 211.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 490، ـ وقيل بأنَّ الخوارزمي تابع مسيره إلى خوي. ( الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 491).

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 214.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299.

<sup>2 -</sup> ذَيْلِ ٱلرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 159.

<sup>3-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.

<sup>4-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 491.

<sup>5-</sup>المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.

<sup>6 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 333.

<sup>7 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 215.

ابن نظيف: بأنَّ الأشرف قد ردَّ عليه برسالة جاء فيها: "بلادنا قد خربت، فصلحنا على أيِّ شيء يكون؟ فإنْ أردتَ ذلك، فانزل عن هذه البلاد"(1)، وهذا يُؤكِّد أن جميع الأطراف كانت ترى في الصُّلح مصلحة لها، وخاصَّة أن خطر التَّتَار \_ وهُو خطر أكبر \_ قد أخذ يقترب من الساحة، والجميع على يقين بأنَّهم سيُّواجهونه.

وفي عام 627 هـ 1230م، أخذ خواجا جيهانُ وزيرُ جلال الدِّين منكبرتي المبادرة، وطلب رسولاً يصل إليه من عند الأشرف والرُّومي ليتباحث معه. فسيَّروا إليه المُظفَّرَ غازي، فتباحث معه، وعاد ومعه رسول، فأمر الأشرفُ العساكرَ والمُلُوك وعسكرَ الرُّومي أن يلبسوا، ويتجمَّلوا، وأن يقف بيد يدَّيْه أكابر الأُمراء، ثُمَّ أحضر الرسول فسمع رسالته، وصرفه، "واتَّفْق الرأي على إرسال الجواب مع الحكيم سعد الدِّين (2) لأنَّه يعرف بالعجمي "(3)، واللهمُّ في الأمر أن المباحثات بينها أثمرت. وفي عام 628 هـ 1231م، سار الملك الأشرف إلى خِلاط ليُقابل فيها رُسُلَ جِلال الـدِّين، إنَّهـا لفته ذات مغزى كبير أن يستقبل الأشرف رُسُلَ الخوارزمي في بلد كانوا قد احتلُّوه، واسترجعه الأشرف منهم، مًّا سيُشكِّل ضغطاً نفسياً على رُسُل الخوارزمي لمصلحة الأشرف. وفعالاً؛ وصل إلى خِلاط وفدُ الْحَوَارِزْمِيَّة، يرأسه الوزير خواجا جيهان، وبرفقته الحكيم سعد الدِّين رسول الأشرف، وحلف لهم الأشرف على الأنِّفاق<sup>(4)</sup>.

وتسارعت الأحداث؛ فبشكل مُفاجئ، وصل إلى جلال الدِّين منكبرتي خبرُ عُبُور القائد التتاري جورماغون نوين لنهر أموية (5)، فالتتار قد سمعوا بهزيمته "وكان الملاعين لّما بلغهم عود السُّلطان من الرُّوم بجَمْع مُفرَّق، وشمل مُبدَّد مُمزَّق، اغتنموا ضعفه، وطلبوه (6)، وقيل: بـأنَّ مُقـدَّم

الإسهاعيليَّة في ألموت هُو مَنْ أطلعهم على حال جلال الدِّين، وطلب منهم الْهُجُوم عليه"(1). ولم يجد علال أمامه من حلِّ سوى الاستنجاد بالأشرف والرُّومي ومُلُوك الجزيرة والخليفة.

### استنجاد جلال الدِّين بالأشرف:

عندما أيقن جلال الدِّين منكبرتي بسُوء موقف أمام التَّكار، وأن المعارك القادمة ستُحدِّد وُجُوده، ووُجُود دولته، وأنَّه غير مُستعد لها، بدأ يُطلق صيحات الاستغاثة وهُو شبه مُتأكِّد من عدم جدواها. كانت القوى التي يُمكن أن تدعم جلال اللِّين في ذلك الوقت محدودة وبعيدة نسبياً، وبعضها غير قادر، أو غير مُهتمِّ بتقديم الساعدة، أو أنَّه ناقم عليه.

فصاحب الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ كان مُعادياً لجلال الدِّين، لأنَّه "جرَّد ستة آلاف فارس، فأغاروا على خرتبرت وأزربيجان وملطية، لما كان ينقم على علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وتحريشه إيَّاه بكُتُب المتتابعة بخلاط، ثُمَّ ميله عنه إلى الأشرف" (2). ومع كُلِّ ذلك؛ فقد أرسل جلال الدِّين إلى كَيْقُبَاذ يطلب نجدته، فلم يرد عليه (3)، وكذلك كَاتَبَ الخليفة العبَّاسي المُنتصر بالله في بغداد (4)، ولكن الخليفة، رغم تحسُّن علاقته بجلال الدِّين، فلا يُمكن أن يكون قد نسي تجريد جلال الـدِّين الحملات ضدَّه، وحنَّى إذا رغب بإنجاده فهُو غير قادر، وإذا أنجده فعلاً، فنجدته لـن تكـون ذات جـدوى، لضعف حال الخليفة.

وفي الحقيقة؛ كان الملك الوحيد القادر على تقديم نجدة تستطيع أن تدعم جلال الدِّين بـشكل جدِّيّ هُو الملك الأشرف بإمداد من أتُّوبية الشَّام وأخيه الكامل في مصر. لذلك قام جلال الدِّين بإرسال مُجير الدِّين يعقوب بن الملك العادل، "وكان قد أسره عندما احتلَّ خِلاط"، إلى أخيم الأشرف، وحمله رسالة تتضمَّن الاستغاثة الأخيرة من دولة مَقْضي عليها، ومَلك انتهى أمره، وقال له:

<sup>1 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، حوادث عام 628، وجامع التواريخ - تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 44.

<sup>2 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 372

<sup>3-</sup> ابن العبري، تاريخ مُحتصر الدُّول، 340، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2/ 86.

<sup>4-</sup>تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 161

<sup>2 -</sup> الطبيب سعد الدِّين بن عبد العزيز بن المُونَّق ت عام 644 هـ 1246م، راجعٌ ترجمته في: طبقات الأطباء، ابس أبي

<sup>3 -</sup> المنصوري، ابن نظيف، 222، - يُعرَف بالعجمي: أيْ يتكلَّم اللُّغة الفارسية.

<sup>4 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 224.

<sup>6 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 348.

"أعلمه أن الشَّرْق طار شراره... وليس يردُّهم إلَّا اجتهاع الأُمَّة، واتَّفاق الكلمة، وهيهات: هل من راق، وقد بلغت التراق"(1).

ويبدو أن جلال الدِّين كان مُتأكِّداً من عدم جدوى الاستنجاد بأحد، وأنَّه ترضية لخواطر بعض قادته قام بذلك، يقول البَسَوي: "وأجمعوا على الاستنجاد بالملك الأشرف مُوسى على التَّسَار، وكان جماعة من الجبناء يُشيرون على السُّلطان بذلك، وهُو مُحَالفهم باطناً، والسُّلطان يُتابع رُسُلَهُ للملك الأشرف مُستنجداً، والعقل يُنكر ذلك مُستبعداً، وهيهات، إن الضغينة إذا تمكَّنت من القُلُوب تلبث، ورُبًّا تُورَّث، إن المستعين على العدوِّ بذي ثائرة كالمستجير من الرمضاء بالنار "(<sup>(2)</sup>. وحتَّى لا يُضطرَّ الأشرف إلى مُواجهة الرُّسُل، فقد ترك الشَّام، وتوجَّه إلى مصر، يتفرَّج بها، ويتسلَّى، ولم يسمح رجاله لرُّسُل جلال الدِّين بالوُّصُول إلى دمشق، فمكث الرُّسُل بحَيْرَة من أمرهم، ولكن موقف الأشرف كان قد وضح لهم، فأرسل مُحتصَّ الدِّين \_ أكبر رُسُل جلال الدِّين \_ رسالةً إليه، يُبلغه اليأس من نجدة الأشرف له، وأن الأشرف لن يرجع من مصرحتَّى ينجلي موقف جلال الـدِّين مع التَّتَار، وأنهى رسالته بقوله: "فلينظر السُّلطان في شغله غير مُنتظر جواب رُسُله" (3). عند ذلك؛ يسُس جلال الدِّين من نجدة الأشرف، وكلُّف البَّسَوي بالترسُّل إلى مُلُوك الجزيرة الآخرين، لطلب حُضُورهم مع عساكرهم، ويُخبرنا البّسَوي عن هذه المهمَّة، فيقول: "فأرسلني إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن العادل، أستحضره بنفسه و عسكره، ومَنْ حوله من المُلُوك مثل صاحبَيْ آمد وماردين، وقال: عند حُضُورهم لا حاجة لنجدة الملك الأشرف. وقال لي: قُلْ للمُظفَّر، هَلُمَّ لي مُساعداً... "(4). ويبدو أن هذا الطلب \_ أيضاً \_ قام به جلال الدِّين بدُون قناعة بفائدته، يقول البّسَوي: "ولَّا خلا المجلس قال لي: نحنُ لا نشكُّ في هؤلاء، أبداً؛ لم يُنجدونا، ولا تنفع الـشكوى إلى غـير راحـم، إن هـؤلاء \_يعنـي التُّرك من أُمرائه \_يُطمعون أنفسهم فيها لا يكون، تسويلاً بكواذب الظنون، وقد شوَّ شوا علينا بهذا الطمع وجه تدبيرنا، فاخترتُكَ لهذه الرسالة، لترجع من المبعوث إليه باليأس، الـذي لا رجاء بعده،

رالا تأميل عنده "(1)، وهذا دليل على حالة اليأس القاتل التي وصل إليها جلال الدِّين، والتي ستُؤدِّي إلى فشله الكامل.

ومع ذلك؛ فقد سافر البَسَوي إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن الملك العادل في مَيَّافارقين، فاعتذر له بقلَّة عسكره، وأنَّه نائب لإخوته، وحذَّره من صاحبَيْ آمد وماردين، وطلب منه اختبارهما؛ ليعلم نفاقها. وكان آخر الحوار بينها أنْ قال البَسَوي للمُظفَّر: "لابُدَّ من حالتَيْن؛ إمَّا للسُّلطان، وإمَّا عليه، وأيّ منهما كانت تعقبكما ندامة، فإنْ كانت للسُّلطان وقعدتُم عن نصرته، فإنْ بللسُّطان، وإمَّا عليه، وأيّ منهما كانت تعقبكما ندامة، فإنْ كانت للسُّلطان وقعدتُم عن نصرته، فإنْ بللتم خزائن الأرض لمرضاته لم تنفع، وإنْ كانت عليه، فستذكرونه حين تبلون بمُجاورة التَّتَار، فردًّ المُظفَّر: كلام لا أشكُّ في صحَّته، ولكنني محكوم علي "(2). إنَّها - إذنْ - السياسة الأيُّوبيَّة غير المُعلنة، والتي تقضي بترك جل ال الدِّين لمصيره أمام التَّتَار، انتقاماً من مواقفه السابقة ضدَّهم ومن أُخذه لجِلاط، وخوفاً من مطامعه ببلادهم. ولكنَّهم لم يُقدِّروا مدى قصر نظر تلك السياسة، التي ستنعكس عليهم بالويل والثبور، ولو بعد حين، فهل - فعلاً - كان مُلُوك الأيُّوبيَّة الأشرف والكامل لا يُقدِّرون خطر التَّتَار حقَّ قدره؟! أم أن معلوماتهم عن التَّتَار وخُططهم كانت قليلة أو مُضلِّلة؟! مها تكن الأسباب فإن بني أيُّوب قد دفعوا ثمن ذلك الموقف غالياً جدًا، فقد أنهى التَّتار حُكْمهم ودولتهم إلى الأبد.

#### آخر المعارك:

بعد حساب دقيق للموقف السِّياسي أجراه جلال الدِّين تبيَّن له أنْ لا أحد سيتقدَّم لنجدته، وبتقييم الموقف العسكري استنتج أنَّه غير قادر على مُواجهة التَّنَار، وتأكَّد أنَّهم مُتَّجهون نحوه، ويقصدونه بالتحديد، فسار بمَنْ معه من العَسْكَر نحو الجزيرة، ولمَّا اقترب من خِلاط، أرسل إلى نائب الملك الأشرف فيها: "ما جئنا للحرب، ولا للأذى، وإنها خوف هذا العدوّ هلنا على قصد بلادكم "(3)، ورُبَّها أمل جلال الدِّين أن يضع مُلُوك بني أيُّوب ونُوَّابهم تحت الأمر الواقع، بنقل معركته مع التَّتَار إلى ديارهم، ولكنَّه \_ نتيجة لخوفه وتحرُّكه على شكل هارب، وليس بشكل قائد يتحرَّك في أرض معركة \_ أهمل الاستطلاع والكهائن والحراسة، فبينها كان مُعسكراً عن أطراف آمد

<sup>1 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 372 \_ 373.

<sup>2 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 337 ـ 374.

<sup>3 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

<sup>1 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 355.

<sup>2 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 370 ــ 371.

<sup>3 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 372.

<sup>4 -</sup> سيرة منكبرت، النسوي، 372.

"كبس التَّرَ جلالَ الدِّين ليلاً، فهرب في نفر يسير من أصحابه، ونهب التَّرَ المُعسكرَ، وقتلوا مَن ظفروا به، والباقي ولُّوا منهزمين، وتمزَّقوا كلِّ عزّق" (1)، وسار جلال الدِّين هارباً باتِّجاه مَيَّافارقين، فوصل إلى قرية صادفه فيها رجل كُردي، فقتله انتقاماً لمقتل أبيه وأخيه من قبل عسكر جلال الدِّين (2)، ولمَّا علم الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بذلك طلب الكُرديَّ، فقتله (3)، ودفن جُثَّة جلال الدِّين، وأخفى قبره (4)، إنَّه الجميل الوحيد الذي قدَّمه بنو أيُّوب إلى جلال الدِّين؛ حيثُ إنَّهم لم يرغبوا بحايته، أو أنَّهم عجزوا عن هايته حياً، فحموه ميتاً من انتقام شنيع كان سيقوم به التَّتَار، وتمثيل بشع بجُنَّته، لولا مُبادرة المُظفَّر بإخفائها.

وتفرَّق مَنْ نجا من عسكر جلال الدِّين في كُلِّ وجه من وُجُوه الأرض نحو نصيبين، والمَوصل، وسنجار، وإربل، وغيرها، "فتخطَّفهم المُلُوك والرعايا، وطمع فيهم كُلُّ أحد حتَّى الفلاح والكُردي والبدوي "(<sup>(3)</sup>)، وقصد الجُزء الأكبر من فلول الجيش بلاد سلاجقة الرُّوم، فاستخدمهم علاء الدِّين كَيْقُبُاذ، وضمّهم إلى جيشه (<sup>(6)</sup>)، وتوجَّه خال جلال الدِّين مع جماعة من الجيش إلى ميًا فارقين، فاستقبلهم شهاب الدِّين غازي، أمَّا زوجة جلال الدِّين وحاشيته وخدمه، ومعهم بعض العَشكر؛ فمضوا إلى حَرَّان، فأمنهم الأمير صواب نائب الملك الكامل فيها، ثُمَّ غدر بهم (<sup>(7)</sup>)، "فأخذ مالهم، وسلاحهم، ودوابّهم" فهل كان هذا انتقام بني آيُّوب؟! أم أنَّه كلِّ ما استطاعوا تقديمه لذكرى السُّلطان جلال الدِّين منكبري.

### الخَوَارِزميَّة ونظرية السُّدّ في وجه التَّنَّار:

ردَّد كثير من المُؤرِّخين أن الدولة الخَوَارزميَّة كانت سدَّاً في وجه التَّتَار، يمنعهم من التقدُّم غرباً بانِّجاه قلب الدولة الإسلاميَّة، حتَّى إن بعضهم قد وهم، ولم يُميِّز بين الدولة الخَوَارزميَّة وبين

فرقة الخَوَارزميَّة، التي عاثت فساداً في الجزيرة والشَّام، وتأسَّف للقضاء عليهم، وعدَّ ذلك تهديماً

للسَّدِّ، الذي كان قائماً في وجه النَّتَار. وقد وردت هـذه الفكرة في رسـائل جـلال الـدِّين منكـبرتي إلى

مُلُوك الإسلام، عندما استنجدهم على التَّتَار، بأنَّه يستطيع إذا أنجدوه أن يُقيم بهم سدًّا في وجه التَّتَار،

فمن مُجلة ما عرض عليهم قوله: "فإن وليت استحالت عليكم مُناهـضته، وإني أستطيع أن أجعـل

بكم سدًّ الإسكندر"(1). وقد ذكرت الفكرة ذاتها، لكنْ؛ كان جلال الدِّين هُو نفسه السَّدُّ بين

المُسلمين وبين التَّتَار، "وإنَّه إذا ارتفع هُو من البّين يعجزون عن مُقاومتهم، وإنَّه كسد الإسكندر

يمنعهم عنهم "(2)، وردَّد هذه الفكرة عديد من المُؤرِّخين، فابن واصل - مثلاً - يقول في معرض

حديثه عن جلال الدِّين: "وكان سدًّا بيننا وبين التَّتَر، فبهلاكه؛ تمكَّنت التَّتَر من العراق والروم

والجزيرة، والتطرُّق إلى الشَّام "(3)، ونسب ابن كثير في ترجمته لجلال الدِّين منكبرتي إلى الملك الأشرف

قوله: "هُو سدّ بيننا وبين التّتَار، كما أن السّدّ بيننا وبين يأجوج ومأجوج "((4)، مع أنَّه من المُستبعد

صدور هذا القول عن الأشرف، نظراً لموقفه من جلال الدِّين قبل هُجُوم التَّتَار الأخير عليه، وبعده.

ويروي ابن تغري بردي: إنَّه لمَّا قتل جلال الدِّين منكبرتي "دخل جماعة على الملك الأشرف يُهنَّئونه

بموته، فقال: تُهنِّثوني به، وتفرحون!! سوف ترون غبّه، والله لتكوننَّ هذه الكسرة سبباً لدُّخُول التَّسَار

إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلَّا مثل السِّدِّ الذي بيننا وبين يأجوج ومـأجوج. فكـان كـما قـال

الأشرف"(5)، وهُنا \_ أيضاً \_ هي أقوال مُستبعدة عن الأشرف بدليل مواقف السابقة لمقتل جلال

الدِّين، واللاحقة، وغالباً؛ هي أقوال تردَّدت، ونُسبَتْ إليه بعد هُجُوم التَّتَار على الشَّام، ثُمَّ تسرَّبتْ إلى

ورُبَّما كانت من أفكار كُتَّاب ما بعد الاجنياح التتاري للشام، فقد نشر البّسَوي مُعظم رسائل جلال

ويُحتمَل أن فكرة السَّدّ الخوارزمي في وجه التَّتَار لم يكن مصدرها جلال الدِّين، ولم يُفكِّر بها،

<sup>1 -</sup> تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد التونجي، 2/ 85.

<sup>2 -</sup> تاريخ مُحتصر الدُّول، ابن العبري، 431.

<sup>3 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 323.

<sup>4 -</sup> البداية والنّهاية، ابن كثير، 9/ 13.

<sup>5 -</sup> النُّبُحُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 276.

<sup>1 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 221، وراجعْ تفاصيل الحادثة في: سيرة منكبرتي، النسوي، 378.

<sup>2 -</sup> مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 321.

<sup>3 -</sup> ابن العميد، أخبار الأنُّوبيِّين، 18، وكنز النُّرر، ابن آيبك، 7/ 303.

<sup>4 -</sup> سيرة منكبرتي، النسوي، 383

<sup>5 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

<sup>6 -</sup> مُفرِّج الكُّرُوب، ابن واصل، 4/ 325.

<sup>7 -</sup> ابن نظيف، المنصوري، 157، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 302.

<sup>8 -</sup>الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

4\_ خُرُوج جلال الدِّين على الخليفة، وحملته الفاشلة عليه.

5\_ قسوة جلال الدِّين الفائقة، وسلوكه الدموي.

6 - الخوف والتردُّد المسيطران عليه، عمَّا كان يمنعه من اتِّخاذ قرارات سريعة ومُناسبة.

7 \_ ظُلم الخوارزميِّين لرعاياهم، واستنزافهم اقتصادياً لتمويل حُرُوبهم التوسُّعية، إضافة إلى أن رعاياهم يعدُّونهم مُغتصبين للمُلك، خارجين على شرعية الخليفة، مَّا دفع كثيراً من القبائل والجماعات للانضهام إلى التَّتَار (1).

8 ـ لم يُبقِ الخوارزميةُ على أيِّ مملكة، أو مُلك مُستقلِّ، من كاشغر حتَّى العراق، فلم يعد في كُلِّ تلك البلاد مَنْ له القُدرة على مُواجهة التَّتَار، يقول ابن الأثير: "إن هؤلاء التَّبَر إنَّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه مُحمَّد كان قد استولى على البلاد، وقتل مُلُوكها، وأفناهم، وبقي هُو وحده - سُلطان البلاد، فليًّا انهزم منهم لم يبقَ مَنْ يمنعهم، ولا مَنْ يحميها ١١(٥).

9 \_ يُؤكِّد كاتب مُتأخِّر هُو ابن عرب شاه فكرة تحطيم الخوارزميَّة للسِّد، الذي كان في وجه التَّتَار، ليحول بينهم وبين الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، يقول: "أمَّا أخبار السُّلطان قُطب الدِّين (3)؛ فإنَّـه تملُّك عراقَي العَرَبِ والعجم، واستولى على غالب المالك بالقهر، ورفع ما بين ممالك، وبين ممالك جنكزخان من التَّتَار المُسلمين قراجغتاي وعُبَّاد الأوثان، واسترقَّهم قهراً وقسراً، فكانوا شُعُوباً وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مُقاتل (4)، وكان هؤلاء التَّتَار متاخين بلاد أنزار، وهي حدُّ ممالك السُّلطان، وهُم سدٌّ عظيم بين المُسلمين وبين جنكزخان، فغزاهم السُّلطان، وأبادهم، فارتفع السُّدُّ من البين، وانهدم الفاصل بين الجانبَيْن، واتَّصلت المملكتان، ودقَّت في مملكة السُّلطان قُطب اللِّين البشائر. وكان في نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العُلماء، فاجتمعا، وأقاما العزاء، فسُئلا عن موجب هذا البكاء، وإنها الناس في فتوح وهناء، فقالا: أنتم تعدُّون هذا الثلم فتحاً، وتتصوَّرون هذا الفساد صُلحاً، وإنها هُو مبدأ الخُرُوج، وتسليط العُلُوج، وفتح سدّ ياجوج وماجوج، ونحن نُقيم

الدِّين، التي يستنجد بها مُلُوك الإسلام، ولا نجد بها أيّ إشارة لفكرة السّدّ(1)، والبّسَوي المُـوّرِّخ هُـو المُستشار والكاتب الخاص لجلال الدِّين منكبري، كذلك لا نجد إشارة لفكرة السّد عند ابن نظيف، فهُو مُعاصر للأحداث، مُطَّلع عليها، وقد أورد مقتطفات من رسائل جلال اللِّين تخلو من هذه الفكرة (2). ويبدو من نُصُوص رسائل جلال الدِّين أنَّها كانت شفهية، ولم تكن مكتوبة، فعندما أراد جلال الدِّين أن يُبلغ الأشرف بخُطُورة الوضع أمام التَّتَار أحضر مُجيرَ الدِّين يعقوب بن العادل، "فأوصى إليه أن يمضي إلى الملك الأشرف، وليُعلمه.... "(3)، وهذا يُوضِّح أن الرسالة كانت شفهية، ويُؤكِّد ذلك نصُّ ابن نظيف؛ حيثُ يقول: "لَّا تحقَّق الخوارزمي قصدَ التَّتَر له أطلق مُجير الدِّين بن الملك العادل، وقال له: نفسكَ لكَ ، فتُعَرِّف أخاكَ الأشرف بالتَّتَر "(4).

والرسائل الشفوية يُمكن أنْ تُنقَل، وتتناقل، بأشكال مُتعدِّدة، فبأحسن الأحوال قد تكون فكرة السّد وردت عَرَضًا في إحداها.

أمًّا فكرة السّد الخوارزمي بوجه التَّتَار بحَدِّ ذاتها؛ فنرى أنَّها معكوسة تماماً، فالخوارزمية - مُنْ لُد قيام دولتهم \_ قد حطَّموا السِّد الحقيقي الذي كان يُمكن أن يردَّ التَّتَار، أو أن يصمد بوجههم، وذلك

1 - كان السُّلطان مُحمَّد خوارزم شاه مُحارباً قديراً، لكنَّه لم يهتم بسياسة المُلك وإصلاح أسر الرعية، كان مُستبدًّا بحُكْمه، مُتعصِّباً لرأيه، لا يهمُّه إلَّا توسيع دولته.

2 \_ أغلبية الجيش الخورازمي كانت من مُرتزقة الأتراك من عشائر القفجاق ومنقلي، لا يجمعهم تنظيم سليم، وهدفهم المُفضَّل هُو الغارات والنهب.

3\_ قضاء خوارزمشاه على دولة الخطا\_ القراخطائيين \_ التي كانت حاجزاً أمام التَّتَار (5).

<sup>1 -</sup> راجع حول كلِّ تلك الأسباب: تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 126 - 129.

<sup>2 -</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 361. 3 - قُطب الدِّين: السُّلطان قُطب الدِّين مُحمَّد بن أنوشتكين مُؤسِّس الدولة الخَوَارزميَّة، وأوَّل مَنْ لُقِّب خوارزمشاه. 4 - الذي قضى على هؤلاء هُو السُّلطان علاء الدِّين تكش بن قُطب الدِّين، والمقصود هُنا هُو شعب الخطا.

<sup>1-</sup>راجع: سيرة منكبرت، النسوي، 834 -373.

<sup>2 -</sup> المنصُوري، ابن نظيف، 277.

<sup>3 -</sup> سيرة منكبري، النسوي، 355.

<sup>4 -</sup> المنصُورِي، ابن نظيف، 722 ـ 228.

<sup>5 -</sup> عندما اتُّجه خوارزمشاه إلى الخطا قال له الحكماء: إنَّا سمعنا من آبائنا أِن وراء جيش الخطاع شَّا للنحل، وهُ و جيش يأجوج، وكانوا يقصدون به جيشَ التَّتَار، فلا تستفرَّ عشَّ النحل هذا. إلَّا أن طمع السيطرة على العالم أصمَّ آذانَ السُّلطان عن هذه النصائح، فمضى، وهزم خان الخطا، واستولى على بلاده. (مجمع الأنساب، مُحمَّد بن علي شبانكاره أي، 314).

#### لمحمّ إلى المُؤلّف

د .مُنذر مُحَمَّد الحايك:

دُكتُوراه في تاريخ العرب والإسلام.

عُضو دائم في اللِّجان العلميَّة، ومُنسِّق لأعمال المُؤتمرات التَّاريخيَّة والأثريَّة في جامعة البعث.

رئيس سابق للجمعيّة التّاريخيّة السُّوريّة .

أستاذ مادّة التّاريخ في كُلّيّة الآداب، جامعة البعث (1992-2002).

باحث مُشارك في العديد من المُؤتمرات الدوليَّة في الجامعات السُّورية والعَربيَّة.

له أكثر من عشر مُؤلَّفات في التَّاريخ، والآثار، والتُّراث الشَّعبي.

أَشَرَ عشرات البُحُوث التَّاريخيَّة، والأثريَّة، والاجتماعيَّة في المجلَّات العَرَبيَّة

المُتخصِّصة.

حَصَلَ على كثير من شهادات التَّقدير من عدَّة جامعات، ومراكز دراسات، وهيئات ثقافيَّة، ومُشاركاته العلميَّة.

العزاء على الإسلام والمُسلمين "(1). وهُنا \_ أيضاً \_ نعتقد بأنَّ هذا الاستنتاج كان مُتأخِّراً، وقد تمَّتُ صياغته على طريقة الحكايات لاستخلاص العبر، وما يهمُّنا فيه هُو إدراك الرأي العامّ الشَّعْبي لدور الدولة الخَوَارزميَّة في فتح طريق التَّتَار.

ولكن؛ للحقيقة، فإن الدولة الخوارزميّة لم تخرج في علاقاتها السّياسيّة، أو العسكريّة، لا في الحَرْب، ولا في السّلْم، عن رُوح العلاقات التي كانت سائدة في عصرها، ولا نستطيع أن نُلقي باللوم في أيِّ شيء حصل إلّا على العصر بأكمله، وعلى كُلِّ مَنْ عاش فيه، فهذه أخلاقيات العصر، باللوم في أيِّ شيء حصل إلّا على العصر بأكمله، وعلى كُلِّ مَنْ عاش فيه، فهذه أخلاقيات العصر، ومنها كان سلوك مَنْ عاش فيه. وقد بدأت العلاقات بين الدولة الحَوَارزميّة والسّلطنة الأيُّوبيّة مُنن لُوبي الملك العادل، ولمّا دفع التّتار الخوارزمية نحو الغَرْب دخلوا معترك الصراع على التُفُوذ في الجزيرة الشّاميّة. وخاصّة؛ عندما تحالف الملك المُعظّم بن العادل مع جلال الدّين منكبري سُلطان الخوَارزميّة ضدًا أخويه، وانعكس ذلك على العلاقات الأيُوبيّة مع الخليفة العبّاسي، الذي كان في حرب مع جلال الدّين، عجل الخليفة يتدخّل مع المُعظّم لمنع تحالفه مع عدوّه جلال الدّين، وجعل الكامل يردُّ على هذا الحلف بالتحالف مع الإمبراطُور فريدريك، هذا التحالف الذي نتج عنه انتكاسة كُبْرَى في سياسة الجهاد الأيُّوبيَّة بتسليم الملك الكامل مدينة القُدْس إلى فريدريك.

انتهى الجُزء الأوَّل، ويليه الجُزء الثَّاني؛ وهُو بعُنوان؛ العلاقات الآسيويَّة الأُورُوبِيَّة

<sup>1 -</sup> فاكهة الخُلفاء، ابن عرب شاه، 486 ـ 487.

حقيقة الحال؛ إنَّ العمل الذي أقدَّم له ، وأعدَّه د مُنذر الحايث، من أهمَّ ما كُتب بالعربيَّة حديثاً حول الحُرُوب الصّليبيَّة. وأشهد أنَّه عالج جوانب هذه الحُرُوب بنجاح، ودقَّة، ولولا أنَّه تَملَّك في ذهنه ـ بوضوح ـ صُورة جميع جوانب هذا الموضوع لما حالفه النَّجاح .

لقد أوضح ـ مُنْذُ البداية ـ أنَّ قيام الإسلام، ونجاح حَرَكَة الفُنُوحات الكبرى ، قسم عالم البحر المُتوسِّط الى عالمين مُتصارعَين واحد مُسلم، وأخر مسيحي، وفي العالم المسيحي؛ كان للكنيسة الكاثوليكيَّة تُفُوذها الكبير ؛ لذلك استجاب الأوروبيُّون لندا، البَابَا، فحملوا الصَّليب، وتوجَّهوا ـ على شكل أمواح بشرية ـ يُريدون المُّذس .

إنَّ العمل الذي قام به باحثنا، والذي أقدَّم له اليوم، يفتح آقاقاً جديدة للبحث والتَّقصَّي، وشكَّل لديَّ 
بارقة أمل في أنَّ الصَّعف اللامحدود الذي ألمَّ بدر اسات التَّارِيح الإسلامي في جامعة دمشق .سوف يجري 
تداركه في حمص. وربَّما في حلب، وهذا الصَّعف المُساوي مَرَدَّه إلى أنَّ المُعيدين ـ الذين جرى تعيينهم في 
العقدين الماضيين لم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي ، وهذا ـ بالفعل ـ أمر مُحزن ، لاَبدُّ من إيجاد حلَّ له ، 
الذي أَنْمِنَّاه أَنْ يكون العمل الذي أنجزه الباحث الذُّكتُور مُنذر الحابِث ـ والذي أقدَّم له ـ بدايةً لمزيد من 
الأبحاث في ميدان الحروب الصّليبيَّة، والميادين الأُخرى في تاريح العرب والإسلام .

له أَنْهَنَّى النَّوفَيْقَ والنَّجاحَ، والحمد لله، أَوَّلًا وآخَر أَ، والصَّلاة والسَّلام على نَبِيَّه المُصطفى. وعلى آله و صحبه، وسلَّم .

اً. د . شهیل زَ کّار

AL AWA'EL